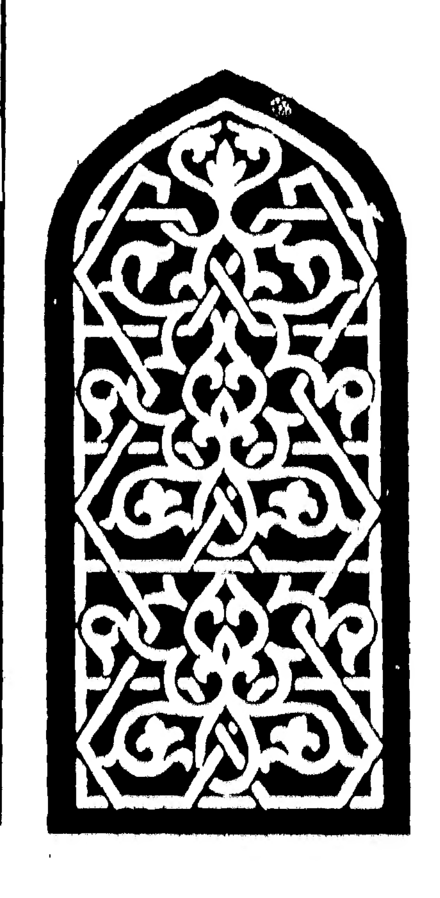
جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية



وأولياؤها الصالحون

الجزء الثالث



الدكتورة سعاد ماهر محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربّ العالمين
والصلاةُ والسلام على سيدنا
محمد صلى الله عليه وسلم
وعلى آله وصحبه أجمعين

ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا وامنحنا العون حتى نقيم بالجزء الثالث من هذا الكتاب أثراً يوضح آثار الأبرار . وعملا صالحًا يباركه ذكر الصالحين الأخيار اللذين يَسَّر الله لهم فأقاموا هذه المساجد يذكر فيها اسم الله كثيرًا ، عبادة ودراسة وتقربًا وتنويرًا ، فلهم من الله أحسن الجزاء ومنا أطيب الثناء .

مقدمة

العمارة كما سبق القول هى السجل الذى يستقى منه تاريخ الأقدمين بما فيه من تقدم وازدهار ، أو تدهور وتخلف ، ومن ثم فقد سجلت لنا العمارة الإسلامية وخاصة الدينية منها تاريخ الدول المتعاقبة وأعطتها صورة صادقة عن مَنشئها . ذلك أن العقيدة الإسلامية التى تغلغلت فى نفوس معتنقيها لسماحتها وملاءمتها لطبيعة النفس البشرية ولحرصها على الاسعاد فى الدارين ، ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بعمارة المساجد التى يعمرها من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلّا الله .

ويعمرها الزاهدون ، والمتصوفون ، والذاكرون الله كثيرًا ، والعارفون بالله . ويعمرها حلقات الدرس من فقه وحديث ومنطق وكلام ، ومجالس الأدب من نحو وبلاغة ونقد ، وندوات الاجتماع التى تتعرض لسائر العلوم . ويعمرها العلماء والفقهاء ، والأئمة والأدباء ويقوى بها الضعيف ، والغريب ويأنس إليها ابن السبيل والمسكين ، ويرفع صوته فيها الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر والداعى إلى الخير .

فالمساجد دين وخلق وهدى ونور ، وصومعة الناسك ومدرسة الدارس ، ودرك للعزة فى الأولى والفوز العظيم فى الآخرة .

ولقد تناولت فى الجزأين الأول والثانى من كتابى « مساجد مصر وأولياؤها الصالحون » الذين تنشرح بذكرهم الصدور وتعمر القلوب وتتوثب الهمم ، لما فيها من عظة حافذة ، وعبرة بالغة ولما لهم علينا من حق يشرفنا أداؤه ويسعدنا قضاؤه . قلت تناولت فى الجزء الأول عمارة المسجد منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وتدرجت فى تسلسل زمنى حتى وصلت إلى نهاية العصر الفاطمى . وتناولت فى الجزء الثانى عمارة العصر الأيوبى حتى بداية العصر المملوكى .

وها أنذا أتقدم بالجزء الثالث الذى تناولت فيه عمارة عصر المماليك البحرية . وقد نهجت فيه أسلوبى المتميز الذى اتبعته فى الجزأين الأول والثانى . فقد جمعت فى دراستى

لعمائر عصر المماليك البحرية بين ترجمة المنشيء أو صاحب المسجد والتاريخ السياسى والحضارى للفترة التى أُنشىء فيها الأثر . كما تناولت فى كثير من الأحيان دراسة تاريخ البلد أو الحى الذى يوجد فيه الأثر . وأتبعت هذه الدراسة التاريخية بوصف معمارى للأثر منذ نشأته والإصلاحات والترميمات التى أجريت له خلال العصور . وإتماماً للفائدة فقد زودت الكتاب مجموعة من الرسوم التخطيطية وبعدد كبير من اللوحات ــ الملونة والبيضاء والسوداء .

وعنيت عناية خاصة بعمل مجموعة من ثبت الفهارس وخصصت بعضها اوصف اللوحات والأشكال وصفًا تفصيليًا دقيقًا وأخرى لأسماء الاعلام وثالثة لأسماء الأماكن والبقاع ، ورابعة للمراجع العربية والأجنبية ، هذا بالإضافة إلى فهرس الموضوعات .

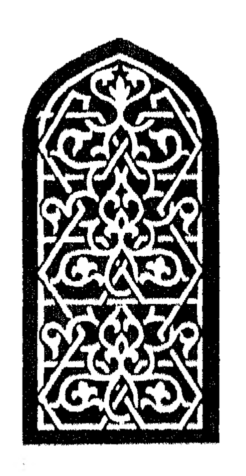
وبعـــد :

فإننى أجد لزامًا على وأنا أضع الجزء الثالث من كتابى (مساجد مصر) بين يدى القارىء أن أسجل كلمة شكر وعرفان بالفضل والجميل لمن أبت عليه نخوته الدينية وإيمانه العميق بالله تعالى وبيبيوته إلا أن يتم فضله فى إبراز الجزء الثالث بالمظهر المشرف الذى ظهر فيـه الجزأين الأول والثانى ، ألا وهو الأستاذ عبد السلام الشريف عميد معهد النقد الفنى كما لايفوتنى أن أقدم شكرى لكل من عاوننى فى طبع هذا الكتاب وأخص بالذكر منهم ، الأستاذ مصطفى شيحه .

والله نسأل أن يهدينا سواء السبيل

الجيزة ـ رجب ـ ١٣٩٩ هـ ـ يونية سنة ١٩٧٩

سعاد ماهر محمد



الخوانق فى العصر المملوكى

ومن العمائر الدينية الهامة التى كثر انتشارها فى مصر فى العصر المملوكى إلى جانب الجامع والمدرسة الخانقاوات التى ذاع انتشارها فى العالم الإسلامى وخاصة إيران فى القرن الرابع للهجرة والتى جعلت لإيواء الصوفية المنقطعين للعبادة . أما عن نشأة الصوفية فيقول القشيرى[1] ، أن المسلمين بعد رسول الله لم يتسم أفاضلهم فى عصرهم بتسمية علم سوى صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ لا فضيلة فوقها فقيل لهم الصحابة ، ولمن أدرك أهل العصر الثانى سمى من صحب الصحابة بالتابعين ، وقيل لخواص الخواص ممن لهم شدة عناية بأمر الدين الزهاد والعباد . وانفرد أهل السنة المراعون أنفسهم مع الله باسم التصوف واشتهر هذا الاسم قبل المائتين من الهجرة وغلبت التسمية على هذه الطائفة فيقال رجل صوفى وللجماعة الصوفية .

وهناك رأى آخر فى نشأة الصوفية فى الإسلام ينسب إلى أهل الصفة[2] المنقطعين للعبادة والذين كانوا يصطفون فى نهاية مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم . أما الرأى الثالث فيقول أنه أخذ من كلمة الصفاء أى الصفاء الروحى .

أما عن إقامة مبان لإقامة هؤلاء المنقطعين ، فإن أول من اتخذ بيتًا لهؤلاء العباد الزهاد هو زيد بن صوجان بن صبرة وذلك أنه عمد إلى رجال من أهل البصرة قد تفرغوا للعبادة

---

(١) أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى : الرسالة القشيرية ص ١٢٦

(٢) المقريزى : جـ٢ ص ٢٧١

وليس لهم تجارات ولا غلات فبنى لهم دورًا وأسكنهم فيها وجعل لهم ما يقيم مصالحهم من مطعم ومشرب وملبس وغيره .

على أن أول من استعمل كلمة صوفى للنساك هو الجاحظ[1] وذكر كثيرا منهم ممن اشتهروا بالفصاحة ، ثم عم استعمال كلمتى صوفى ومتصوف فى أواخر القرن[2] الثانى للهجرة ، وهى الفترة التى حددها نيكلسون بأنها كانت فترة انتقال من دور الزهد إلى دور التصوف الحقيقى . على أن صوفية القرن الثانى كانوا معتدلين ولم يكن ثمة فوارق بينهم وبين سائر المسلمين اللهم إلا أنهم كانوا يهتمون ببعض الأحكام القرآنية أكثر من غيرهم . ولعل من أبرز هؤلاء الصوفية الحسن البصرى المتوفى سنة ١١٠ ه الذى كان يعقد حلقات فى المسجد الجامع بالبصرة تجمع إلى الاهتمام بالفقه والتوحيد العناية الكبرى بالتربية الروحية .

وقد ظهر فى القرن الثانى للهجرة بعض المبالغين من المتصوفة الذين غالوا فى الرياضة الروحية وأعرضوا عن الدنيا وانقطعوا عن زخرف الحياة وزينتها ، وتقللوا من دنياهم بعد أن تبينوا تفاهة الصراع على حطامها الفانى[3] .

وقد اكتمل للتصوف مقوماته فى القرنين الثالث والرابع إذ لم يعد محدودًا بالزهد والتقوى فحسب بل أصبح له كيان عقلى وروحى . ولكن لابد أن يتصدى لطوائف المتصوفة بعد أن كثر عددهم واشتهر أمرهم بين الفقهاء الذين اتهموهم بالكفر وفساد العقيدة بل اعتبروهم خطرًا على المجتمع مما حدا بالصوفية بالرد عليهم معتمدين فى ذلك على أصول العلم وفنون الجدل كما لجأوا للتأليف والتصنيف متخذين من العلم سلاحًا يردون به على أعدائهم ويدافعون عن أنفسهم . كما اضطروا إزاء شدة اضطهاد الفقهاء ورجال الدين لهم إلى استعمال الرمز والإيماء حتى لايفهمهم إلا أتباعهم والراسخون فى العلم .

---

(١) الجاحظ : البيان والتبيين جـ ١ ص ١٩٥

(٢) القشيرى : الرسالة ص ٨

(٣) المناوى : الكواكب الدرية جـ ١ ص ٢٠٩

وكانت النتيجة الطبيعية لهذا الهجوم والاضطهاد للصوفية أن كونوا لأنفسهم جماعات أشبه ما تكون بالأحزاب ولكل جماعة أو فرقة مبادئها وأصولها وشيخها وأتباعها ، وعلى كل صوفى أن يأتمر بأوامر شيخه ومرشده ، وهكذا تكونت الصوفية الجماعية بعد أن كانت صوفية فردية[1] . وهكذا كثر عدد المتصوفة وأصبحوا يكونون قطاعا هاما فى المجتمع الإسلامى له تقاليده ونظمه وخصائصه . أما النتيجة الحتمية لمثل هذه الجماعات والفرق المنظمة أن تتخذ لها أماكن خاصة بها هى التى عرفت باسم الخوانق والخانقاوات .

وكانت الخانقاوات الأولى التى ظهرت فى القرن الرابع الهجرى بسيطة بطبيعة الحال لاتنظمها قواعد ولا تسير وفق منهج معين أو ترتيب خاص ، حتى ظهر أبو سعيد بن أبى الخير الذى وضع الأسس الأولى لتنظيم الخانقاوات حتى عرف باسم « أبو الخانقاة »[2] أو كما يقول الشيخ نصر « صقر الطريقة »[3] .

وقد كثرت مؤلفات الصوفية فى القرن الخامس الهجرى ، كما تطورت نظمهم وتقاليدهم الأمر الذى أصبح بعضها مثلا يحتذى فى الآداب العامة والتربية فقد قدم أحد أمراء طبرستان لابنه كتابًا يضم فصلا عن آداب أهل الخوانق ، كالصحبة وإجلال الصوفية لشيخهم ومراعاة آداب الجلوس والاستماع ومراعاة الصوفى لإخوانه فى الخوانق . ومن ثم فقد حظى الصوفية بمكانة ممتازة عند الحكام ، فقد كان السلطان محمود الغزنوى يتوجه إلى الشيخ أبى الحسن[4] الخرقانة فى خانقانه بالرى . كما كثرت الخانقاوات ، مثل خانقاه السلمى صاحب طبقات الصوفية فى نيسابور وخانقاه القشيرى[4] فى طوس وكذا خانقاه الإمام الغزالى بطوس التى دفن بها[5] سنة ٥٠٥ هـ .

---

(١) القزوينى : آثار العباد ص ٢٤١

(٢) القزوينى : آثار العباد ص ٢٤٢

(٣) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد جـ ٢ ص ٢٤٨

(٤) القشيرى : الرسالة ص ٣

(٥) الغزالى : أحياء علوم الدين جـ١ ص (مصر سنة ١٣٥٢ هـ) .

ويعتبر القرن السادس الهجرى عصر انطلاق للصوفية ، فقد انتشرت بين طبقات الشعب وعرف الكثير عن مبادئها وأصولها التى صاغها الشعراء ، شعرًا تغنى به الشعب مما جعله يقدر الصوفية تمام التقدير ، حتى اتخذ منهم الملوك والسلاطين جلساءهم وانتصحوا بنصائحهم مثل الخيوشانى[1] وصلاح الدين[2]. وكذلك كان الصوفية موضع ثقة المجتمع على مختلف طبقاته ومن ثم فقد سعوا لإصلاح البين بين مذاهب السنة والشيعة والتقريب بينها[3] .

وتعتبر خانقاه سعيد[4] السعداء أول خانقاه أقيمت فى مصر فى القرن السادس الهجرى أقامها صلاح الدين (سنة ٥٦٩ هـ-سنة ١١٧٣ م) .

وقد كان للغزو المغولى فى القرن السابع أكثر الأثر فى هجرة الكثير من الصوفية من إيران والعراق إلى غرب العالم الإسلامى ، إذ ما تزال مصر تحتفظ بثمانية من خانقاوات ، أهمها الخانقاه البندقدارية والجاولية والبيبرسية والشرابيشية والخانقاه الجيبغا المظفرى وخانقاه سرياقوس وخانقاه أرسلان . أما فى القرنين الثامن والتاسع فقد ذكر لنا المقريزى تاريخ وترجمة شيوخ واحد وعشرين خانقا .

وقد تطورت خوانق مصر المملوكية فى القرن الثامن الهجرى ، فقد أضيفت إليها وظيفة التدريس بجانب وظيفتها الأصلية ، فقد كان يدرس بالخانقاه الجاولية فقه الشافعى وفقه

---

(١) المناوى : الكواكب الدرية جـ ٢ ص ١٠٦

(٢) سعاد ماهر : مساجد مصر وأولياؤها الصالحون جـ ٢

(٣) ابن الإثير : الكامل فى التاريخ .

(٤) هذه الخانقاه بخط رحبة باب السعيد من القاهرة (بالقرب من خانقاه بيبرس الجاشنكير بدرب القصر بالجمالية) . كانت أولا دار تعرف فى الدولة الفاطمية بدار سعيد السعداء وهو الأستاذ قنبر أو عنبر أحد الأستاذين المحنكين خدام القصر العتيق فى عهد الخليفة المستنصر . قتل فى شعبان سنة ٥٥٤ هـ ورمى برأسه من القصر ثم صلبت جثته بباب زويلة من ناحية باب الخرق (الخلق) . وكانت هذه الدار مقابل دار الوزارة ، فلما سكنها الصالح طلائع بن زريك فتح من دار الوزارة إليها سردابا تحت الأرض يمر فيها ثم سكنها الوزير شاور ثم ابنه الكامل فلما استولى صلاح الدين على مصر عمل دار سعيد السعداء برسم الفقراء الصوفية الوافدين على مصر ووقفها عليهم سنة ٥٦٩ هـ وولى عليهم شيخاً ووقف عليهم بستان الحبانية بجوار بركة الفيل وقيسارية الشراب بالقاهرة وناحية دهرو من البهنساوية . وشرط أن من مات من الصوفية وترك عشرين ديناراً فما دونها كانت للفقراء ولا يتعرض لها الديوان السلطانى . ورتب للصوفية فى كل يوم طعاماً ولحماً وخبزاً وبنى لهم حماماً بجوارهم فكانت أول خانقاه عملت بمصر وعرفت بدويرة الصوفية ونعت شيخها بشيخ الشيوخ .

المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٤١٥

الحنفى بالخانقاه الجمالية والمهمندارية ، كما جمعت الخانقاه الاقبغاوية بين فقه الشافعى والحنفى . أما الخانقاه الشيخونية فقد كان يدرس بها الفقه على المذاهب الأربعة هذا بالإضافة إلى التفسير والقراءات[1] . وبرغم هذا التطور إلا أن بعض الخوانق قد احتفظ بتقاليدها القديمة كالخروج لتأدية صلاة الجمعة فى المساجد الجامعة فصوفية خانقاه بيبرس جاشنكير يؤدون صلاة الجمعة فى جامع الحاكم لقربه منهم لذلك فقد أودع بيبرس بالجامع الحاكمى مصحفًا شريفًا مكتوبا بماء الذهب من سبعة أجزاء ليقرأ فيه الصوفية قبل صلاة الجمعة .

(١) المقريزى : جـ ٢ ص ٤٢٠

التصميم المعمارى للخانقاه

أما من حيث التصميم المعمارى فيمكن تقسيم الخانقاوات تبعًا لطرازها المعمارى إلى ثلاثة أنواع هى الجامع الخانقاه والمدرسة الخانقاه والقبة الخانقاه .

الجامع الخانقاه :

لما كانت الخانقاه أساسًا وقبل كل شيء هى مكان مخصص للعبادة فقد حرص المعمار على أن تحتوى على أهم مقومات المسجد ، إلا وهو المحراب والأروقة وكذا المئذنة ، ومن ثم فإن الخانقاه الجامع تحتوى عادة على صحن مكشوف أو مغطى حسب الحالة ثم أروقة تحيط بالصحن من جميع الجهات أو بعضها على أن يكون رواق القبلة أكبرها .

أما حجر المتصوفة أو خلاويهم (كما تعرف) فإنها تقع إلى خلف الأروقة وقد تشغل طابقًا أو اثنين بل قد تصل فى بعض الأحيان أربعة طوابق . ومن أحسن الأمثلة الخانقاه الجامع خانقاه سعيد السعداء والبندقدارية وخانقاه الناصر محمد بسرياقوس وخانقاه شيخون والبرقوقية بجبانة المماليك .

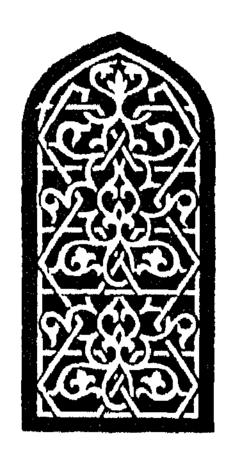
المدرسة الخانقاه :

لقد انتشر فى مصر طراز معمارى جديد للمنشآت الدينية منذ العصر الإسلامى الأيوبى يلائم الوظيفة الجديدة لتلك المنشآت وهى التدريس إلى جانب تأدية الشعيرة الأولى والأساسية وهى الصلاة . ولما كان القصد السياسى من إقامة هذه المنشآت هو القضاء على المذهب الشيعى ونشر المذاهب السنية الأربعة ، لذلك فقد وجد المعمار نفسه مضطرًا لترك الأروقة التى لايمكن الفصل فيها بحيث تتيح لأكثر من أستاذ أن يلتقى بتلاميذه ولا يطغى فى نفس الوقت على غيره من فقهاء المذاهب الأخرى ، لذلك فقد لجأ إلى استعمال الأواوين التى ينفرد كل منها بضلع من أضلاع المدرسة الأربعة وهكذا كان الإيوان أكثر الطرز المعمارية مواءمة للوظيفة التى تقوم بها إلى جانب فريضة الصلاة .

وقد وافق نظام المدارس المعمارى الخانقاوات تمام الموافقة خاصة وأن خانقاوات العصر المملوكى قد أصبحت معاهد للدراسة إلى جانب التصوف . فإلى جانب الإيوانات الأربعة أو الإيوانين نجد الخلاوى تكتنف الإيوانات وترتفع فى طوابق عليا مثل خانقاه بيبرس جاشنكير وقد توجد خلف إيوان أو أكثر مثل البرقوقية بالجمالية أو منفصلة تماماً عن المدرسة بواسطة صحن كبير غير صحن المدرسة مثل خانقاه إينال بقرافة المماليك .

القبة الخانقاه :

هذا الطراز من الخانقاوات قليل فى العصر المملوكى ، وكان من الممكن أن تسمى زاوية لولا احتواؤها على خلاو منفصلة لعدد من الصوفية . فمن المعروف أن القباب التى أقيمت على المقابر والأضرحة قد عرفت فى العالم الإسلامى منذ سنة ٢٤٨ هـ فى مدينة سامراء ، ثم انتشرت فى مصر فى العصر الفاطمى فى أضرحة آل البيت التى عرفت بالمشاهد . أما فى العصر الأيوبى والمملوكى فقد أصبحت القبة ظاهرة معمارية مكملة للجامع أو المدرسة يدفن فيها المنشىء . وفى القرن الثامن نجد أمثلة لقباب غير ملحقة بجامع أو مدرسة بل ملحق بها مجموعة كبيرة أو صغيرة من الخلاوى مثل خانقاه خوند طغاى .



الرنوك الإسلامية

لقد بدأت الشارات التى عرفت باسم الرنوك تظهر فى مصر فى آثارها الثابتة والمنقولة فى العصر المملوكى . وقد ناقش هذا الموضوع كثير من علماء الآثار منهم برس دافين[1] Prisse d'Avennes سنة ١٨٧٧ وروجر[2] فى سنة ١٨٨٠ ويعقوب أرتين[3] فى عدة موضوعات منذ سنة ١٨٨٦ م وكان آخرهم ماير (Mayer)[4] الذى ألف كتاباً سماه الرنوك الإسلامية .

والرنوك أو الشارة هى عبارة عن حق امتياز للأمير أو شرف حربى فى العصر الأيوبى والمملوكى وأن السلطان والأمراء هم الذين يحق لهم حمل هذه الشارات أو الرنوك فقط . ويقول أبو الفداء[5] ، أن تلك الشارات التى يحملها الأمراء تبين الوظائف التى يشغلها الأمير فمثلا الرنك الذى يمثل الدواه والقلم ويعرف حامله باسم (الدويدار) يعنى أن صاحبه يشغل وظيفة سكرتير السلطان . (السلحدار) وهو عبارة عن سيف يشغل صاحبه وظيفة حامل السلاح (والشطدار) وهو عبارة عن طست ، يشغل صاحبه وظيفة المشرف على مخازن . السلطان . و (الجمدار) وهو عبارة عن بقجة يشغل صاحبه وظيفة الإشراف على لباس السلطان . (والأمير الأكبر) وهو عبارة عن حدوة الفرس ، ويشغل صاحبه قيادة الجيش .

---

(١) L'art Arabe, Texte p.p. 63 - 8.

(٢) Le Blason chez les princes musulmans de Egypte et de Syrie 2èm vol. p. 83 B.T.E. 31

(٣) Discription de Six Lampes de Mosquée en Verre émaille pp. 120-54

(٤) Saracenic Heraldry (Oxford 1933)

(٥) أبو الفداء : المختصر فى تاريخ البشر : جـ ٤ ص ٣٨٠

وهناك رنوك أخرى تبين كذلك أن حاملها يشغل الوظيفة التى تدل[1] عليها مثل (الساقى) وهو عبارة عن كأس (والجندار) وهو عبارة عن عصا البولو (الجاشنكير) وهو عبارة عن مائدة مستديرة ويشغل صاحبه وظيفة تذوق طعام السلطان (والبندقدار) وهو عبارة عن قوس لرمى السهام .

ويضيف (Mayer) فيقول أن هذه الشارات والرنوك تبقى ملازمة لأصحابها حتى إذا تغيرت وظائفهم بعد ذلك فيضاف شارة الوظيفة الثانية إلى جانب الوظيفة الأولى . وقد ظل الحال على ذلك حتى نهاية القرن الثامن الهجرى الرابع عشر الميلادى . وفى كثير من الأحيان يحمل الأمير شارة أو رنك الأمير الذى اشتراه أو كان يملكه .

ولعل أقدم الرنوك التى عثر عليها تلك التى وجدها مايرر (Mayer)[3] على عتب ضريح الشيخ الياس فى غزة وهى مؤرخة سنة ٦٧١ هـ وقد وجد مثيل لها على قطعة خزف عثر عليها فى الفسطاط (بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة) .

على أن نظام الرنوك قد انتهى مدلوله وأهميته بانتهاء العصر المملوكى وبداية العصر العثمانى (سنة ٩٢٣ هـ.سنة ١١٥٧ م) ولعل الرنك الوحيد الذى عثر عليه بعد ذلك التاريخ هو الرنك الذى عثر عليه على تابوت الأمير قضا بدرى[4] الظاهرى الذى أنشأ طريق الأهرام المتوفى (سنة ٩٥٤ هـ سنة ١٥٤٧ م) .

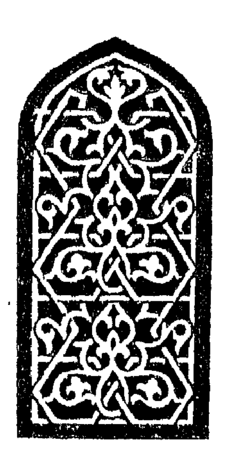
---

(١) Mayer : Arabic inscriptions of Gaza p. 4.

(٢) Mayer : Arabic inscriptions of Gaza (J. of the Palestine Oriental Soc. III p.p. 70-74 Pl. I).

(٣) Mayer opt. cit. p. 141.

(٤) لجنة حفظ الآثار كراسة سنة ١٩٠٨ ص ١٠٣



مدرسة الملك
الظاهر بيبرس البندقدارى

هو الملك الظاهر ركن الدين أبو الفتوح بيبرس بن عبد الله البندقدارى الصالحى النجمى الأيوبى التركى ، سلطان الديار المصرية والبلاد الشامية والأقطار الحجازية ، وهو أحد مماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب صاحب مصر وكان معتقلا بحلب ، فلما سمع بقصة المملوكين الصغيرين بيبرس وزميله اشتراهما وهو فى معتقله .

ولد بيبرس فى حدود العشرين وستمائة بصحراء القبجاق[1] والقبجاق قبيلة عظيمة من الترك فى جنوب روسيا وأنه قضى طفولته فى تلك البلاد .

وكلمة بيبرس ، كلمة تركية معناها : أمير فهد .

ويحكى أبو المحاسن وابن واصل قصة طريفة مفادها أن بيبرس أخذ من بلاده وتنقل فى أيدى تجار الرقيق وحدث أن عرض هو وزميل له على الملك المنصور صاحب مدينة حماة ، ولما كان المنصور صغيرا فقد اعتاد أن يستشير والدته عندما يقدم على شراء الرقيق فرأتهما والدة المنصور من وراء ستار فأشارت بشراء رفيق بيبرس ، أما هو فقد قالت عنه لابنها (هذا الأسمر لايكون بينك وبينه معاملة ، فإن فى عينيه شرا لائحا) .

اتفق حضور ركن الدين بيبرس مع تاجر الرقيق وقت أن كان الأمير علاء الدين

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٩٤

البندقدارى الصالحى قد أحضر إلى حماة واعتقل بجامع قلعتها فسمع بقصة الغلامين وهو فى المعتقل فاشتراهما ولما أفرج عنه أخذ بيبرس معه إلى القاهرة .

وكلمة البندقدارى لفظ فارسى مركب معناه حامل جراوة أى كيس البندق خلف الأمير أو السلطان .

لبث بيبرس فى ملك البندقدارى إلى أن صادره أستاذه ملك الصالح نجم الدين أيوب، فأخذ بيبرس هذا فيما أخذه فى المصادر .

ولما انتقل بيبرس إلى ملكية السلطان الصالح نجم الدين أيوب ابتدأت صفحة جديدة فى تاريخ هذا المملوك الصغير ، فلم يلبث السلطان نجم الدين أيوب أن أعتقه وجعله من جملة مماليكه وقدمه على طائفة الجمدارية لما رأى من فطنته وذكائه[1] .

ترقى بيبرس فى خدمة السلطان الصالح نجم الدين أيوب واستفاد من أخلاقه . فلما مات السلطان الصالح نجم الدين فى أواخر سنة ١٢٤٩ انتقل بيبرس إلى خدمة ابنه تور انشاه .

جاءت وفاة الصالح نجم الدين أيوب فى وقت عصيب إذ دهم مصر الملك لويس التاسع ملك فرنسا على رأس الحملة الصليبية السابعة واحتل دمياط وزحف على المنصورة وكان تور انشاه فى هذا الوقت بعيدا عن مصر إذ كان يحصن كيفا على أطراف العراق فصارت مقاليد الأمور بيد شجر الدر ـ زوج الصالح أيوب والأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ، أتابك العسكر .

فى فبراير سنة ١٢٥٠ هاجم الصليبيون معسكر المسلمين وسقط الأمير فخر الدين قائد الجيش قتيلا واندفع الصليبيون نحو المنصورة واقتحموها وتغلغلوا فى أزقتها وكادت أن تدور الدائرة على المسلمين لولا خروج طائفة المماليك البحرية مع من تطوع للدفاع من المصريين ومعهم ركن الدين بيبرس فحملوا على الفرنج حملة زعزعوهم[2] بها وتبدلت بلطف الهزيمة الى انتصار ووقع كثير من الصليبيين قتلى فى أزقة المنصورة وحاول بعضهم

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٩٥

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٧١ .

الفرار فلحق بهم المسلمون قرب فارسكور وأنزلوا بهم هزيمة ساحقة وأسروا لويس التاسع ومجموعة من كبار أمرائه وقادته .

قويت شوكة المماليك البحرية بعد واقعة فارسكور فأحسوا بأهميتهم وفى ذلك الوقت بالذات وصل تورانشاه بن الصالح أيوب إلى مصر ونودى به سلطانا وتلقب بالمعظم .

على أن الشئ الذى كدر صفو المعظم تورنشاه هو ما صارت إليه قوة المماليك البحرية فأصبحت تقاسمه السلطان بل تتفوق عليه فى هذا المجال الأمر الذى أثار حفيظة تورانشاه وجعله يتحين الفرص للايقاع بزعماء هذه الطائفة ويروى[1] أبو المحاسن تغرى بردى : أن تورانشاه كان إذا سكر فى الليل جمع ما بين يديه من الشموع وصفها أمامه ثم أخذ يضرب رؤسها بالسيف حتى تنقطع واحدة بعد أخرى وهو يقول (هكذا أفعل بالبحرية) .

لم يكن المماليك البحرية أقل كرها لتورانشاه من كرهه لهم إذ جاء كرههم له مقرونا بالخوف منه والتحفز للانتقام منه نظرا لاحتجابه عن أمرائه وتهالكه وانغماسه فى الملذات والفساد وقلبه ظهر المجن لمماليك أبيه وعدم العرفان لزوجة أبيه . شجر الدر . . بالجميل الذى أسدته إليه بحفظها حقه فى الملك عقب وفاة أبيه فكان جزاؤها منه أن أرسل إليها وكانت قد رحلت إلى بيت المقدس - يتوعدها ويتهمها باخفاء مال أبيه عنه فكتبت بذلك إلى المماليك البحرية بما فعلته لتورانشاه من ضبط الأمور وتمهيد الدولة له حتى حضر وتسلم المملكة وما جازاها به من التهديد والمطالبة بما ليس عندها فحنق (البحرية) من أفعال تور انشاه[2].

استقر رأى زعماء البحرية على قتل تورانشاه ، فتحينوا نزوله بناحية فارسكور سنة ١٢٥٠ هـ حتى بادره الأمير ركن الدين بيبرس فضربه بالسيف ضربة أطاحت أصابع يده ثم تبعه بعد ذلك بقية الأمراء وتقول المراجع أن تورانشاه فوجئ بالاعتداء الذى وقع عليه فلم يكن منه إلا أن فر إلى برج خشبى كان قد أعد للاقامة فيه ولكن بيبرس ومن معه من الأمراء تبعوه وأشعلوا النار فى البرج وأخيرا لم يجد توانشاه حيلة

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٣٥٠

(٢) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٣٥٨

إلا إلقاه نفسه فى النيل وجد فى السباحة محاولا النجاة ولكن نشاب البحرية لاحقته كما سبح بعضهم خلفه وقطعوه بالسيف وهو يصيح (ما أريد ملكا ! دعونى ارجع إلى الحصن (كيفا الذى قدم منه) يا مسلمين ! ما فيكم أحد يصطنعنى ويجيرنى ! !) وعلى هذه الحال انتهى تورانشاه ويقول المقريزى أنه مات جريحا حريقا غريقا[1] .

ولىّ المماليك البحرية شجر الدر بعد مقتل تورانشاه غير أن شجر الدر لم تستطع الصمود فى وجه البحرية وزعيمهم بيبرس فعملت على استرضائهم وكسب مودتهم غير أن بنى أيوب لم يرضهم ما تم فى مصر من نقل السلطة إلى المماليك إذ أن شجر الدر لم تكن من سلالة بنى أيوب بل كان نسبها أقرب إلى المماليك لذلك اجتمع زعماء البحرية واتفقوا على أن تتزوج شجر الدر من عز الدين أيبك أتابك العسكر على أن تتنازل له عن السلطنة ثم قر قرارهم على إقامة أحد أبناء البيت الأيوبى شريكا لايبك فى الحكم فاختاروا الأشرف موسى الأيوبى الذى كان فى السادسة من عمره .

على أن ماقام به البحرية فى مصر لكسب مودة بنى أيوب لم يأت بفائدة ترتجى إذ استولى الناصر يوسف الأيوبى على دمشق وخرج منها يريد غزو مصر فاستعان المعز أيبك بالبحرية لصد الخطر الذى تهدده وبفضل هؤلاء تمكن أيبك من انزال الهزيمة بالأيوبيين عند العباسة بمحافظة الشرقية سنة ١٢٥٠ وقوى هذا النصر من شوكة البحرية فعاثوا فى الأرض فسادا وبغوا وأنزلوا بالناس ضررا عظيما قال عنه المقريزى (لو ملك الفرنج ما فعلوا فعلهم) .

عند ذلك ضاق السلطان المعز أيبك بالبحرية لتعنتهم واستطالتهم ، وفى هذا الوقت بدأ الخطر المغولى بزعامة هولاكو يهدد العراق فأسرع أيبك بطرد الأشرف موسى من السلطنة وعقد صلحا مع الناصر يوسف الأيوبى صاحب الشام وأخمد الثورة التى قام بها الأعراب فى الشرقية والبحيرة والغربية والمنوفية ، ولم يعد يقض مضجعه إلا المماليك البحرية فدبر مؤامرة لقتل زعيمهم فارس الدين اقطاى وتم تنفيذ المؤامرة فى القلعة ولما شاع أمر هذه المؤامرة اجتمع سبعمائة فارس تحت أسوار القلعة فرمى إليهم أيبك

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٣٥٨

برأس اقطاى ، فخشى زعماء البحرية أن يظغر بهم أيبك ففروا إلى الشام ومعهم بيبرس وكتبوا إلى الناصر يوسف الأيوبى صاحب حلب يعرضون عليه دخولهم فى خدمته ، فرحب بهم ومنحهم الأموال ، غير أنهم دأبوا على تحريضه على مهاجمة مصر فاستجاب الناصر يوسف لرجائهم وأعد جيشا لغزو مصر تقابل مع جيش أيبك عند العباسة سنة ١٢٥٦ وتم الصلح بين الطرفين ومن بنود الصلح المذكور عدم ايذاء المماليك البحرية .

أمن المعز أيبك عائلة المماليك البحرية بعد أن نكل بهم غير أن ما أقض مضجعه كان يأتيه من زوجه شجر الدر التى استبدت بأمور المملكة فخاف على نفسه منها بعدأن أخبره أحد المنجمين كما أورد المقريزى[1] : « أن سبب قتله ستكون امرأة » .

على أن شجر الدر قد تملكتها الغيرة بدورها لما بلغها أن زوجها يريد التزوج من ابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل فانتهى بها الأمر بأن قتلت زوجها أيبك فانتقم مماليك أيبك بقتل شجر الدر وبذلك خلا الجو منهما واختار الأمراء على ابن أيبك سلطانا وكان صغيرا فى الخامسة عشرة من عمره فقام الأمير سيف الدين قطز بنيابة السلطنة .

ظل زعماء المماليك البحرية وعلى رأسهم بيبرس يعيشون فى الشام ينتابهم القلق وعدم الاستقرار بعد الصلح الذى تم بين المعز أيبك والناصر يوسف الأيوبى غير أن استيلاء المغول على بغداد فى فبراير سنة ١٢٥٨ أثار الذعر والأسى فى العالم الاسلامى الأمر الذى حدا بأمراء مصر والشام بالاتحاد لمواجهة هذا الخطر الداهم ، هذا بالإضافة إلى أن سيف الدين قطز نائب السلطنة فى مصر أعلن نفسه سلطانا مقررا أن المنصور على بن أيبك صبى صغير لايعرف تدبير المملكة وأنه (لابد من سلطان قاهر يقاتل هذا العدو) .

تناسى بيبرس الأحقاد القديمة التى بين البحرية والمظفر قطز ، كما بث روح الحماس فى أمراء الشام وثار فى وجه الأمير زين الدين الحافظى الذى نادى بالاستسلام لهولاكو وجيوشه وسبه قائلا (أنتم سبب هلاك المسلمين) .

استولى المغول فى زحفهم على مدينتى حلب ودمشق وغيرهما مدن الشام ، وحدث

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ص - ٤٠٣

أن اضطر هولاكو إلى العودة إلى بلاد تاركا قيادة جيشه لنائبه كتبغا ، وكان هولاكو قد أرسل خطابا مع بعض الرسل إلى المظفر قطز فى مصر يطلب منه التسليم ويحذره من عاقبة المقاومة .

استشار قطز الأمراء فيما يجب عمله فأجمعوا على مواصلة الجهاد والمقاومة وعندئذ بادر قطز بالقبض على رسل المغول وقتلهم وعلق رءوسهم على باب زويلة فكانت هذه الرءوس أول ما علق على باب زويلة من رءوس[1] التتار .

وصلت طلائع المغول إلى غزة والخليل ، فقتلوا الرجال وسبوا النساء والصبيان وساقوا من الأسرى والأبقار والأغنام والمواشى شيئا كثيراً ، لذلك بادر قطز بالاستعداد وأرسل مقدمة الجيش المصرى فى يوليو سنة ١٢٦٠ إلى غزة تحت إمرء الأمير ركن الدين بيبرس وكان جيش التتار بقيادة بيدرا الذى ما علم بوصول الجيش المصرى حتى طلب النجدة من كتبغا فى بعلبك غير أن بيبرس لم يمهله وهاجمه قبل وصول النجدة له وأنزل بهم الهزيمة وطاردهم ، وعندما وصل قطز على رأس بقية الجيش سار هو وبيبرس بحذاء الساحل ، ثم اتجه المسلمون شرقا عبر الجليل إلى الأردن لاسترداد دمشق من المغول .

أسرع كتبغا بالحضور عندما علم بهزيمة رجاله فى غزة فالتقى المغول بجيش مصر عند قرية عين جالوت — بين بيسان ونابلس — وفى تلك الموقعة لجأ السلطان المظفر قطز إلى اخفاء معظم جيشه بين الأحراش والأشجار وترك مقدمة الجيش بقيادة الأمير بيبرس ، فانقض كتبغا على بيبرس ورجاله وعندئذ داهمته بقية الجيش المصرى من كل جهة ويذكر المؤرخون أن الجنود اضطربوا فى ابتداء المعركة فألقى السلطان قطز خوذته عن رأسه إلى الأرض وصاح بأعلى صوته (واسلاماه !) وحمل بنفسه على العدو الذى اضطر إلى الفرار .

أصبح السلطان المظفر قطز عقب موقعة عين جالوت سيد الموقف فى بلاد الشام ، فدخل دمشق دخول الظافر فاستقبل استقبالا حافلا . واستعدت القاهرة لاستقبال قطز غير أنه لم يقدر له دخولها فقد دبر بيبرس مع زملائه من البحرية لقتل قطز وذلك لأن بيبرس

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ٤٢٨ — ٤٢٩

كان يأمل من قطز أن يوليه نيابة حلب التى كان السلطان قد وعده بها ولكن قطز امتنع وتنكر له[1] ، وعند وصول قطز إلى الصالحية فى طريقه إلى القاهرة رغب فى الصيد ولما فرغ من ذلك تقدم منه الأمير بيبرس وطلب امرأة من سبى التتار فأجابه السلطان إلى طلبه فتظاهر بيبرس برغبته فى تقبيل يد السلطان فقبض بيبرس على يد قطز ليمنعه من الحركة فى حين انهال عليه بقية أمراء البحرية بسيوفهم ورماحهم وألقوه عن فرسه وأجهزوا عليه وخلا بذلك الجو لزعيم البحرية بيبرس .

وبعد أن تمت الإجراءات المبدئية فى الصالحية ، أسرع بيبرس ومن معه من الأمراء إلى القاهرة وكانت قد زينت لاستقبال المظفر قطز بطل عين جالوت ، فإذا بالمنادى ينادى فى طرقات القاهرة (ترحموا على الملك المظفر وأدعوا لسلطانكم الملك القاهر ركن الدين بيبرس[2]) .

وبدخول بيبرس قلعة الجبل بدأت صفحة جديدة فى التاريخ ، ذلك أن السلطان الظاهر بيبرس أثبت بأعماله وإصلاحاته وحروبه أنه المؤسس الحقيقى لدولة المماليك فى مصر والشام .

أما عن منشآت السلطان الظاهر بيبرس ، فقد قال عنها أبو المحاسن : (بنى فى أيامه بالديار المصرية ما لم يبن فى أيام الخلفاء المصريين ولا ملوك بنى أيوب من الأبنية والرباع والخانات والقواسير والدور والمساجد والحمامات[4]) .

والواقع أن الظاهر بيبرس أقام كثيراً من المنشآت الدينية التى ما زال الكثير منها قائما حتى الآن ، ففى قلعة الجبل يقول المؤرخون أنه عمر دار الذهب وبنى بها قبة عظيمة محمولة على اثنى عشر عمودا من الرخام الملون ، كذلك عمر بيبرس بالقلعة طبقتين مطليتين على رحبة الجامع وأنشأ بجوار باب القلعة العمومى برج الزاوية وهو البرج الذى لايزال قائما حتى اليوم فى الزاوية الشمالية الغربية من السور القديم للقلعة . وقد

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١٠١

(٢) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٤٣٧

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١٩٠

أنشأ بيبرس على هذا البرج قبة وزخرف سقفها ثم أقام بجواره طباقا للماليك . وفى رحبة القلعة أنشأ بيبرس دارا كبيرة لولده الملك السعيد[1] .

جدد بيبرس أيضا جامع الأنوار والجامع الأزهر ، وبنى جامع العافية بالحسينية وأنفق عليه فوق الألف درهم وأنشأ بالقرب منه زاوية الشيخ خضر ، كما أنشأ بيبرس قبة جميلة عند مقياس الروضة ، وجود قلعة جزيرة الروضة ، هذا فضلا عن الحمامات والطواحين والأفران والخانات والأسواق العديدة .

ولم تحرم ضواحى القاهرة من عناية بيبرس فشملت عناية العمائر من مسجد البتر إلى أسوار القاهرة إلى الخليج وأرض الطبالة واتصلت العمائر إلى باب المقس إلى اللوق إلى البورجى ومن الشارع إلى الكبش إلى تحت القلعة ومشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها .

لم يقصر بيبرس اصلاحاته على الديار المصرية والشام بل شملت عنايتة الأراضى الحجازية من ذلك أنه أتم عمارة الحرم النبوى الشريف بالمدينة وعمل منبره وجعل بالضريح النبوى درابزينا ، وذهب سقوفه وجددها وبيض حيطانه . وجدد البيمارستان بالمدينة النبوية ونقل إليه سائر الأدوية والمعاجين والأكحال وبعث إليه طبيبا من الديار المصرية .

وفى الشام رمم مقام الخليل عليه السلام وجدد قبته وأصلح أبوابه وميضأته ، كما أصلح ما كان قد تهدم من قبة الصخرة بالقدس وأنشأ بها خانا للسبيل وبنى مسجدا وطاحونا وفرنا وبستانا .

ويلاحظ أن أجلّ صفات بيبرس هى شجاعته النادرة التى خلدت اسمه فى التاريخ ، وقد حرص دائما على ألا يشاركه أحد فى هذه الصفة حتى وصفه بعض المؤرخين بأنه (كان عنده حسد شديد لمن يوصف بالشجاعة[3] وقد اتصف بيبرس أيضا بحبه للاحسان

---

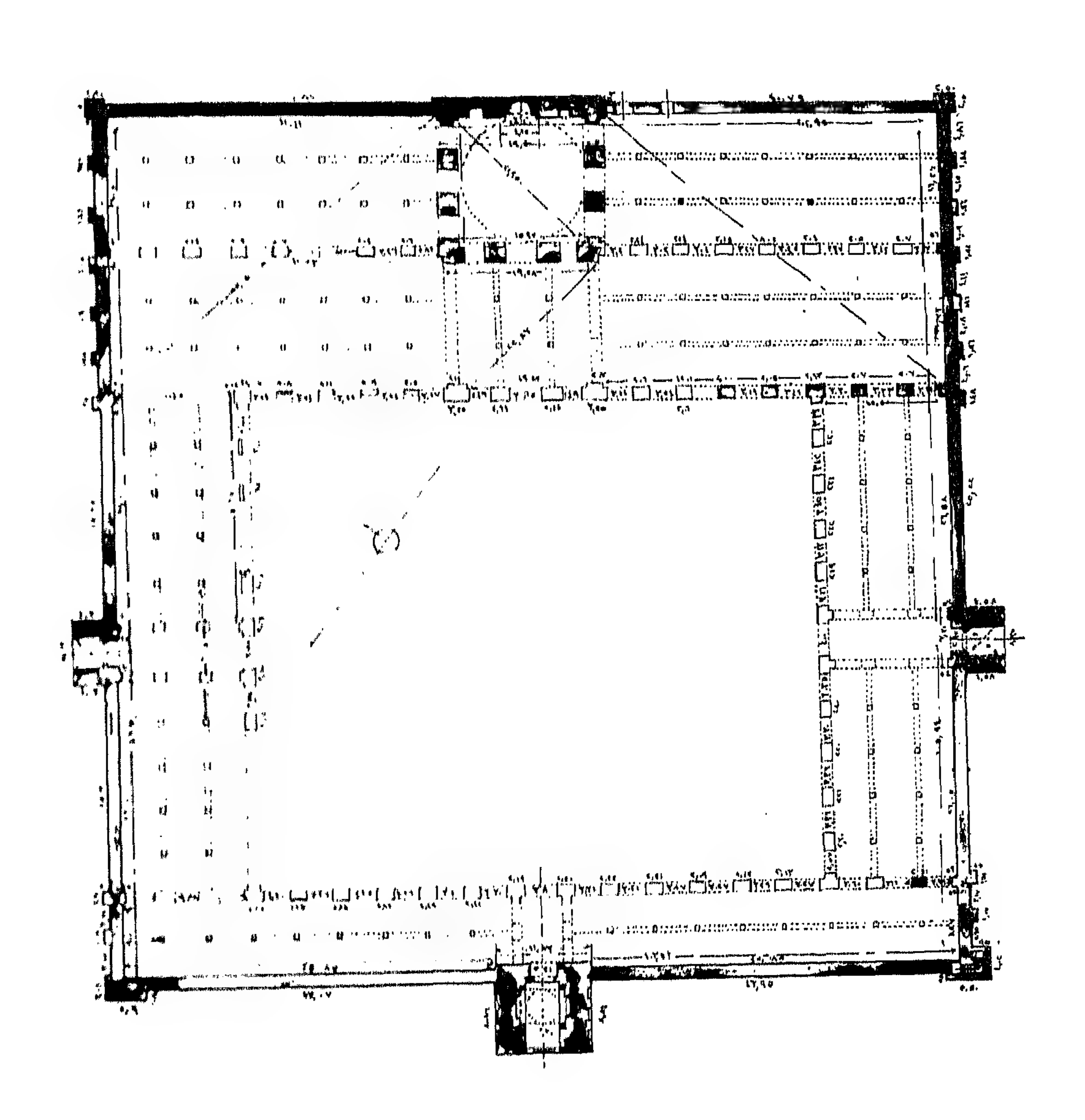
(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١٩١

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ص ١٩٦ — ١٩٧

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١٧٨

وعمل البر حتى قال عنه المقريزى أنه كان يطعم فى كل ليلة من ليالى رمضان خمسة آلاف نفس ، ويكسو فى كل سنة ستمائة كسوة هذا بالإضافة إلى الوقف الذى وقفه لدفن الفقراء .

توفى السلطان الظاهر بيبرس فى ٣٠ يونيو سنة ١٢٧٧ (٢٨ المحرم سنة ٦٧٦ هـ) بعد أن جاوز الخمسين من عمره ومدة حكمه سبع عشرة سنة وشهران واثنا عشر يوما وكانت وفاته فى دمشق .



وصف المدرسة

يقول المقريزى[1] : « هذه المدرسة من جملة خط بين القصرين كان موضعها من القصر الشرق الكبير يعرف بقاعة الخيم ، كما يدخل فى هذه المدرسة باب الذهب أحد أبواب القصر العامة وقد تمكن السلطان الظاهر بيبرس من الاستيلاء على كنور القصور الفاطمية وغيرها من الأماكن التى يملكها ورثة الفاطميين وذلك باستصدار قوانين تعسفية ، وفى ذلك يقول المقريزى : فلما أوقع السلطان الحوطة على القصور والمناظر ، فقام القاضى كمال الدين طاهر ابن الفقيه نصر وكيل بيت المال وقوّم قاعة الخيم هذه وابتاعها الشيخ شمس الدين محمد بن العماد ابراهيم المقدسى شيخ الحنابلة ومدرس المدرسة الصالحية النجمية ثم باعها المذكور للسلطان ، فأمر بهدمها وبناء مدرسة فابتدئ بعمارتها فى ثانى ربيع الآخر سنة ستين وستمائة وفرغ منها فى سنة اثنتين وستين وستمائة ولم يقع الشروع فى بنائها حتى رتب السلطان وقفها ، وكان بالشام فكتب بما رتبه إلى الأمير جمال الدين بن يغمور .

وقد أمره السلطان أن لايستعمل فيها أحدا بغير أجرة ولاينقص من أجرته شيئا .ويضيف المقريزى فيقول ، فلما كان يوم الأحد الخامس من صفر سنة اثنتين وستين وستمائة اجتمع أهل العلم بها وقد فرغ منها وحضر القراء وجلس أهل الدروس كل طائفة فى إيوان منها الشافعية بالايوان القبلى ومدرسهم الشيخ تقى الدين محمد بن الحسن بن رزين الحموى ، والحنفية بالايوان البحرى ومدرسهم الصدر مجد الدين عبد الرحمن ابن الصاحب كمال الدين عمر بن العديم الحلبى . وأهل الحديث بالايوان الشرقى ومدرسهم الشيخ شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدمياطى . والقراء بالقراءات السبع بالايوان الغربى وشيخهم الفقيه كمال الدين المحلى وقرروا كلهم الدرس وتناظروا فى علومهم ثم مدت الاسمطة لهم فأكلوا وقام الأدباء فانشدوا قصائد المدح فى الملك وفى المدرسة .

---

[1] الخطط جـ ٢ ص ٣٧٨

فلما فرغ الشعراء من انشاد شعرهم أفيضت عليهم الخلع وكان يوما مشهودا على حد قول المقريزى . ويستمر ابن عبد الظاهر فى وصف باقى أجزاء المدرسة الظاهرية فيقول : وجعل بها خزانة للكتب تشتمل على أمهات الكتب فى سائر العلوم وبنى بجانبها مكتب لتعليم أيتام المسلمين كتاب الله تعالى وأجرى لهم الجرايات والكسوة . وقد أوقف على هذه المدرسة ربع السلطان خارج باب زويلة فيما بين باب زويلة وباب الفرج ، ويعرف ذلك الخط اليوم به فيقال خط تحت الربع .

ويصف المقريزى خط تحت الربع فيقول : وكان ربعا كبيرا لكنه خرب منه عدة دور فلم تعمر . وتحت هذا الربع عدة حوانيت هى الآن (أى القرن التاسع الهجرى) من أجل الأسواق وللناس فى سكناها رغبة عظيمة ويتنافسون فيها تنافسا يرتفعون فيه إلى الحكام . وهذه المدرسة من أجل المدارس إلا أنها تقادم عهدها وتدهورت حالتها . وبها إلى الآن بقية صالحة ، ونظرها تارة يكون بيد الحنفية وأحيانا بيد الشافعية ، ويتنازع نظرها أولاد الظاهر ولله عاقبة الأمور .

وهكذا يتبين لنا أن المدرسة كانت تتكون من أربعة أيوانات متعامدة ، وكان تاريخ انشائها مكتوبا على المدخل وقد نقله مهيرن (Mehern) وعنه نقله (Van Berchem) وعلى الرغم من أن المدرسة كانت خربة منذ عهد المقريزى ، إلا أن جزءا كبيرا منها كان لايزال باقيا حتى سنة ١٨٧٤ عندما شق الطريق الموصل بين بيت القاضى وسوق النحاسين أمام قبة قلاوون ، وفى سنة ١٨٨٢ سقطت مئذنة المدرسة ولم يبق قائما منها حتى الآن غير كتلة من المبانى تبلغ مساحتها (١١ × ٥ متار) تكون جزءا من الركن الغربى وجزءا من الايوان الجنوبى وبداية عقد الايوان الشرقى .

ويتقدم هذه الكتلة البنائية الواجهة الغربية للمدرسة التى تطل على شارع بين القصرين (المعز لدين الله الآن) ، يتوسطها باب يعلوه شريط كتابى به جزء من الكتابات المؤرخة . وخلف الواجهة غرفة صغيرة تشغل الزاوية الجنوبية الغربية ، ومن المحتمل أنها كانت سبيلا . كما تحتوى على نافذتين أحدهما تطل على الجهة الجنوبية للمدرسة والأخرى تطل على شارع المعز .

وقد احتفظت النافذتان بمعظم زخارفهما ، إذ يعلو عتب كل منهما عقد عاتق مكون من صنجات بديعة النقوش والزخرفة (R). وفى طبلة العقد يوجد رسم حيوانين لعلهما رسم فهدين متقابلين . وتستمر الواجهة الجنوبية مسافة (١١ر٣٠) مترا حتى تلتقى بحائط ضريح السلطان نجم الدين أيوب . كما توجد نافذة ثالثة (Q) فى هذه الواجهة تلفت معظم مبانيها ولم يبق منها غير بعض صنجات بعقدها العاتق .

وقد كسيت هذه الكتلة فى الجزء العلوى منها بأحجار لعلها أخذت من أرضية الدور الأول للمنزل الذى بنى على المدرسة فى النصف الأول من القرن (١٩) ، كما تظهر فى الصورة اليدوية التى رسمها (Charidan) [1] . وعلى بعد (١١ر٥) مترا من زاوية الركن يوجد الايوان ، الذى تبلغ فتحته (٧ر٧) أمتار وعمقه (٧ر٢) أمتار بنيت جوانبه من الحجر جدد جزء كبير منه فى عصور متأخرة ، وعمل له محراب فى الجهة الجنوبية الشرقية فى نفس الوقت . ويتصل هذا الايوان بجزء من الردهة المقبية (L) التى تعتبر الدهليز الثانى لضريح الصالح نجم الدين عن طريق عقدين من الداخل والخارج ولكنهما سدا الآن .

ويوجد خلف المساكن وعلى الجانب المقابل من شارع (بيت القاضى) عقد كبير يخيل للإنسان معه أنه قد يكون الايوان المقابل . ولكن ذلك لايمكن أن يكون ، أولا لأنه ليس على محور الايوان الشرقى ، فهو يقع إلى الشمال الغربى ، والسبب الثانى أن فتحته (٧ر٢٠) أمتار بينما فتحة الثانى (٨ر٧) أمتار ولم يحدث أن تقابل ايوانان غير متساوبى الفتحة . وقد فحص الأستاذ كزويل العقد فوجده لايمت بصلة بقبو أو خلافه ، ويرجح أن يكون عقد الايوان خشبيا مسطح السقف يتصل بمبنى آخر قد اندثر .

وقد أعاد الأستاذ كزويل تخطيط المدرسة ، فوجد أنه من المرجح أن تكون المسافة بين المدخل والمحراب (٥٥) مترا كما هو الحال فى المدرسة الصالحية حيث تبلغ المسافة(٥٤ر٧) مترا ابتداء من شارع المعز . وقد استعان كزويل بالرسوم التى رسمها (Robert David)

---

(١) Creswell : Muslim Architecture in Egypt Vol. II. p. 144 fig. (72).

سنة ١٨٣٩ ، وصورة أخرى مجهولة المصدر ، وفيهما يظهر المدخل المزخرف بالمقرنصات لأول مرة فى تاريخ العمارة الإسلامية فى مصر . وبذلك يمكن القول أن المدرسة الظاهرية تسبق فى هذه الظاهرة أقدم مدخل مقرنص باق حتى الآن وهو مدرسة وضريح زين الدين يوسف (سنة ٦٩٧ هـ - ١٢٩٨ م) .

ويقول كزويل أن هذا النوع من المداخل المزخرفة بالدلايات ليس من ابتداع المصريين إذ أنه وجد فى سوريا قبل مصر بقرن من الزمان ، فقد وجد بمدرسة (شادبخت) بحلب التى ترجع إلى سنة ٥٨٩ هـ ومشهد الامام الحسين بحلب سنة ٥٩٦ هـ كما هو ثابت من التاريخ المنقوش على المدخل وقد رتب كزويل المدارس التى سبقت المدرسة الظاهرية التى اشتملت واجهاتها على دلايات قبل المدرسة الظاهرية على الوجه التالى :

(١) المدرسة الظاهرية بالفردوس خارج حلب التى بناها الملك الظاهر غزى سنة ٦١٦ هـ

(٢) المدرسة الكاملية فى ضاحية قرب الفردوس وقرب المدرسة الظاهرية بحلب ويمكن ارجاعها إلى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى .

(٣) جامع ومدرسة الفردوس خارج حلب وهى مؤرخة سنة ٦٣٣ هـ .

(٤) رباط خانقان بحلب سنة ٦٣٥ هـ .

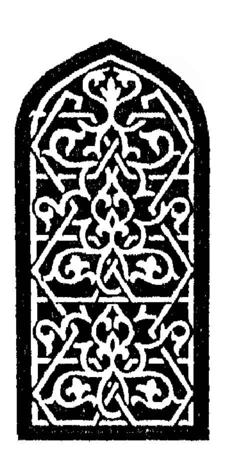
(٥) المدرسة الظاهرية بدمشق التى بدأ بناءها بيبرس سنة ٦٧٦ هـ وتمت سنة ٦٨٠ هـ بعد وفاة ابنه .

وتظهر فى الصورة المدرسة الظاهرية وأمامها قبة ومدرسة قلاوون وفى ركنه سبيل الناصر محمد ومدخل المدرسة الظاهرية يحتوى على دلايات وبعدها يظهر سبيل وكتاب خسرو باشا . كما يظهر من الصورة اليدوية صورة ولجنة حفظ أنه يوجد شريط عريض من الكتابة بالخط الثلث تحت الدلايات مباشرة ، كما توجد مشربية محمولة على كوابيل ، كما يظهر من هذه الصورة الأخيرة ، أن المدرسة الظاهرية كانت بارتفاع عمائر قلاوون وأنه يوجد على جانبيها خلاو للطلبة .

ويعلق كزويل على نشأة المداخل ذات الدلايات ، بأنها بدأت فى شمال سوريا فى حلب منذ سنة ٥٨٩ ومع ذلك لم تنتشر فى سوريا حتى فى أقرب البقاع لحلب مثل معرة النعمان التى تبعد عنها (٥٠) كيلومتر جنوبا ، كما لم تظهر فى دمشق إلا فى النصف الأول من القرن السابع الهجرى . ولم تظهر فى بيت المقدس إلا سنة ٧١١ هـ . أما فى مصر فعلى الرغم من ظهورها فى عصر بيبرس فى القرن السابع الهجرى إلا أنها لم تنتشر فيها وفى الشام إلا فى بداية القرن الثامن الهجرى .

من الأجزاء الهامة التى ما تزال باقية من المدرسة الظاهرية والتى تشهد بعظمتها بابها المصفح الموجود حاليا بالمفوضية الفرنسية(سابقا) والسفارة الفرنسية الآن بالجيزة أمام حديقة الحيوان . فقد أخذه الكونت دى سانت موريس سنة ١٨٧٤ ، بعد هدم معظم أجزاء المدرسة الظاهرية واستعمله فى مبنى المفوضية . والباب مؤرخ سنة ٦٦١ هـ بالحروف مما جعل (فان برشم) يشك فى هذا التاريخ ، لأنه لاتوجد كتابة مؤرخة كتبت بالأرقام قبل الفتح العثمانى ، اللهم إلا ضريح سنقر السعدى (سنة ٧١٥هـ-١٣١٥م) .

وبالكشف الدقيق على الباب تبين أن ثلاث كلمات بالإضافة إلى التاريخ قد أضيفت حديثا ، كما أنه قطع من أول شريط الكتابة ثلاث كلمات لكى يوضع مكانها التاريخ فى نهاية الشريط . وعلى ذلك فقد أكد (فان برشم) أن أحد التجار كان يعلم أن الباب مأخوذ من المدرسة الظاهرية فوضع التاريخ ليؤكد نسبته للمدرسة فيرتفع ثمنه .



جامع الظاهر بيبرس

ومن منشآت السلطان الظاهر الدينية الهامة جامعة المعروف باسمه والذى يصفه المقريزى فيقول : هذا الجامع خارج القاهرة وكان موضعه ميدانا فأنشأ الظاهر بيبرس البندقدارى جامعا .

ويقول جامع السيرة الظاهرية : اهتم السلطان بعمارة جامع بالحسينية فى ربيع الآخر يعنى سنة خمس وستين وستمائة ، وسير الاتابك فارس الدين اقطاى المستعرب والصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين على بن حنا وجماعة من المهندسين لكشف مكان يليق أن يعمل جامعا ، فتوجهوا لذالك واتفقوا على مناخ الجمال السلطانية فقال السلطان، لا والله لاجعلت الجامع مكان الجمال وأولى ماجعلته ميدانى الذى ألعب فيه بالكرة وهو نزهتى . فلما كان يوم الخميس ثامن شهر ربيع الآخر ركب السلطان وصحبته خواصه والوزير الصاحب بهاء الدين على بن حنا والقضاة ونزل إلى ميدان قرقوس وتحدث فى أمره وقاسه ورتب أموره وأمور بنائه ورسم بأن يكون بقية الميدان وقفا على الجامع يحكر . ورسم بين يديه هيئة الجامع وأشار أن يكون بابه مثل باب المدرسة الظاهرية وأن يكون على محرابه قبة قدر قبة الامام الشافعى .

ويضيف المقريزى فيقول : وكتب السلطان فى وقته الكتب إلى البلاد باحضار عمد الرخام من سائر البلاد وكتب باحضار الجمال والجواميس والأبقار والدواب من سائر الولايات وكتب باحضار الآلات من الحديد والأخشاب النقية برسم الأبواب والسقوف

وغيرها . كما ولى عدة مشدين (ملاحظين) على عمارة الجامع ، وشرع فى العمارة فى منتصف جمادى الآخرة منها .

ويستطرد المقريزى فى ذكر أخبار السلطان بيبرس فيما يختص بجامعه فيقول : وكان إلى جانب الميدان قاعة ومنظرة عظيمة بناها السلطان الملك الظاهر ، فلما رسم ببناء الجامع طلبها الأمير سيف الدين قشتمر العجمى من السلطان فقال الأرض قد خرجت عنها لهذا الجامع (يعنى جامع الأزهر) فاستأجرها من ديوانه ، والبناء والأصناف وهبتك اياها .

وظلت الشعائر الدينية مقامة بهذا الجامع العظيم ولم تعطل إلا منذ أوائل القرن السادس عشر الميلادى وذلك لاتساع رقعته وعجز الدولة عن الصرف عليه . وكان من نتائج ذلك أن ساءت حالة الجامع وتخرب ، فحوله العثمانيون إلى مخزن للمهمات الحربية كالخيام والسروج وغيرها . وفى عهد الحملة الفرنسية تحول الجامع إلى قلعة وثكنات للجند وعرف الجامع فى ذلك الوقت باسم قلعة سيكوفسكى[1] . وفى عصر محمد على تحول الجامع إلى معسكر لطائفة ومخبز للجراية ، ثم استعمل بعد ذلك مصنعا للصابون .

وفى سنة ١٨١٢ نقلت أعمدة الجامع الرخامية وكذا بعض احجازه لبناء رواق الشراقوة بالجامع الأزهر وذلك بناء على رغبة الشيخ الشرقاوى ، كما يقال إن بعض أعمدة الجامع استعملت فى بناء قصر النيل . ومنذ سنة ١٨٨٢ م اتخذه جيش الاحتلال البريطانى مخبزا ثم مذبحا . وقد عرف ولا يزال باسم (مذبح الانجليز) وإن كان الذبح قد أوقف منذ سنة ١٩١٥ م .

وفى سنة ١٩١٨ تسلمت لجنة حفظ الآثار العربية الجامع فأصلحت بعض أجزائه ورممتها وخاصة الجزء المحيط بالمحراب وجعلت منه مصلى ، أما باقى الجامع فقد حولته مصلحة التنظيم إلى منتزه عام . وفى سنة ١٩٧٠ بدأت مصلحة الآثار تهتم بإعادة بناء الجامع وارجاعه إلى حالته الأولى وإنا لنرجو أن توفق المصلحة فى رسالتها الجليلة .

---

(١) الخطط التوفيقية جـ ٥ ص ٤٣

(٢) سليمان رصد الحنفى : كنز الجوهر فى تاريخ الأزهر ص ٤٥

وصف الجامع

وبرغم ما عانه جامع بيبرس من الاهمال وسوء الاستعمال كما سبق الذكر ، فإنه مايزال يسترعى إعجاب الناظرين بجمال عمارته وفخامة مبانيه التى تظهر لأول وهلة فى مداخله التذكارية ونقوشه الجصية .

يتكون الجامع من مربع يبلغ طول ضلعه (١٠٠) متر ويحيط به سور من الحجر يبلغ ارتفاعه (١٠ر٩٦) أمتار ويعلو السور شرافات يبلغ ارتفاعها (١ر٣٠) متر . مايزال جزء منها باقيا فى الضلع الجنوبى من المسجد . ويبلغ سمك جدار السور (١ر٦٥) متر . على أن هذا السمك يقل أسفل فتحة النوافذ بحيث يصبح عرضه (١ر٥) متر . والسور مبنى من الحجر المشذب ويبلغ ارتفاع كل مدماك (٣٠) سم .

وقد قويت أركان الجامع من الخارج بأربعة أبراج اثنان مربعان على طرفى الضلع الشرقى والآخران مستطيلان . والأبراج مصمته ماعدا ذلك الذى يشغل الركن الجنوبى الغربى فهو مجوف إذ يشغله درج يؤدى إلى سطح الجامع . وقد فتحت فى البرج الأخير أربع نوافذ صغيرة فى الجهة المغربية واثنتان فى الجهة الجنوبية واثنتان فى الضلع الشرقى وكذلك قوى السور الخارجى بدعائم كذا ساندة يبلغ عددها فى الضلع الشمالى ثمانية وكذا فى الضلع الجنوبى ، ويبرز كل منها عن سمت السور بمقدار (٨٥) سم وعرضها (١ر٧٠) متر . والقصد من هذه الدعائم الساندة هو تحمل الضغط الطارد لبوائك ايوان القبلة وكذا بوائك الايوان الغربى .

وقد فتح فى الجزء العلوى من السور اثنتان وسبعون نافذة يعلوها عقد مدبب بمعدل ثمانى عشرة نافذة فى كل ضلع . وقد كانت هذه النوافذ مملوءة بالجص المخرم والزجاج المعشق من الداخل والخارج وقد دب التلف إليها جميعا وإن كانت هناك بقايا يمكن الاستعانة بها لاعادتها إلى ما كانت عليه .

ويحتوى المسجد على ثلاثة مداخل تذكارية بارزة عن سمت السور الخارجي ، المدخل الرئيسى منها يتوسط الضلع الغربى أما المدخل الشمالى والمدخل الجنوبى فينوسطان صحن الجامع فقط .

ويعتبر المدخل الرئيسى تحفة معمارية رائعة إذ يبلغ اتساعه (١١٫٨٣) مترا ويبرز عن سمت السور بمقدار (٨٫٨٦) أمتار . ويتوسط المدخل باب معقود يبلغ سعة عقده (٣٫٩٥) مترا ومزخرف بصنجات مفصصة وكان يتركز على عمودين من الرخام فقدا الآن . وعلى جانبي هذا الباب من أسفل يوجد حنيتان مستطيلتان يعلوهما صفان من الدلايات وبداخلهما تجويفان يعلوهما عقد مفصص .

أما الجزء العلوى من الباب فيشغل خاصريه حنيتان يعلوهما عقد منكسر مفصص يتوسطه جامة مستديرة مفصصة لذلك . وعلى الجانب الداخلى لكل من الحنيتين يوجد شكل نجمى به كتابة بلفظ الجلالة (الله) ويعلو كلا من الحنيتين شريط به كتابة قرآنية اندثر معظمها الآن .

أما جانبا المدخل البارزان عن سمت بمقدار (٨٫٨٦) أمتار فيزخرف كل منهما ثلاث حنيات مستطية يعلوها عقد منكسر ويتوسطه جامة مستديرة ويعلو الحنيات ثمانية مربعات وثلاث دوائر تملؤها زخارف نباتية وهندسية جميلة .

ويؤدى باب المدخل الرئيسى إلى ممرمقبي فى أوله ثم ينتهى بقبة ضحلة تقوم على مثلثات كروية مقعرة . والقبة تغطى جزء مربع من الممر فقط وعلى جانبي القبة يوجد تجويفان يتقدمهما أربعة أعمدة ويعلوهما عقدان مدببان . وينتهى الممر بعقد مدبب كبير داخل حنية كبيرة يؤدى إلى الايوان الغربى المقابل لايوان القبلة .

ويبدو من الرسم الذى جاء فى كتاب وصف مصر للحملة الفرنسية أن المدخل كانت تعلوه غرفة مربعة مزخرنة واجهتها الغربية بحنية يعلوها عقد منكسر مثل تلك الحنايا التى

تزخرف بالمدخل التذكارى . ويرجح كزويل أن هذه الغرفة هى الطابق الأول من مئذنة الجامع التى ما تزال بعض بقاياها موجودة حتى الآن ، والتى تشبه مئذنة المدرسة الصالحية بالنحاسين التى بنيت قبل الجامع بخمسة وعشرين عامًا فقط .

أما المدخلان الآخران فى الجهة الشمالية والجنوبية من الجامع فمتشابهان وهما أصغر من المدخل الرئيسى إذ يبلغ عرض الواحد منهما (٨ر١٣) أمتار ويبرز عن سمت الحائط بمقدار (٤ر٠٣) أمتار ويتوسط المدخل عقد كبير يبلغ سعته (٣ر٧٣) أمتار مزخرف بصنجات جميلة تحتوى على زخارف نباتية . وعلى جانبى العقد توجد حنيات يعلوها صفان من الدلايات وأعلى الحنيات وفى خواصر عقد المدخل توجد جامتان بهما زخارف نباتية .

ويختلف المدخل الجنوبى على الشمالى فى أن خواصر عقد المدخل تحتوى على جامتين ومعينين مزخرفين كما أن الجزء الأسفل من بناء المدخل مكون من مداميك صف منها أبيض والآخر أحمر مما يعرف فى العمارة الإسلامية باسم (الأبلق) .

ويؤدى عقد كل مدخل إلى مربع يغطيه أقبية متقاطعة وعلى جانبيه حنيتان تعلوهما عقود بها صنجات مزخرفة . وينتهى ممر المدخل بباب مستطيل يعلوه عتب مكون من صفين من المداميك الملونة بالأبيض والأحمر على التبادل . ويعلو العتب عقد عاتق ، وقد زخرف طبلة العقد بكتابات قرآنية بالخط النسخى ، وفى وسط الطبلة توجد قطعة من الحجر نقش عليها تاريخ بناء الجامع بالخط النسخى فى ثمانية سطور نصها « أمر بإنشاء هذا الجامع المبارك السلطان الظاهر بيبرس فى ١٤ ربيع الثانى سنة خمس وستين وستمائة (١٢٦٧ م) .

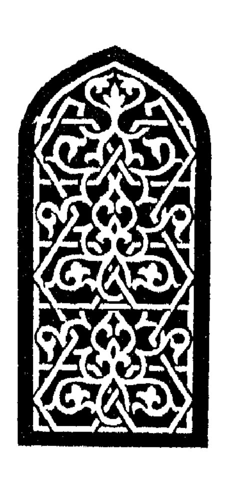
ويتكون الجامع من الداخل من صحن مربع تقريبًا يتوسطه إذ تبلغ مساحته (٦٠ر٧٠) مترًا وتحيط بالصحن الأروقة من جهاته الأربع . ويبلغ عقد بوائك إيوان القبلة ستة أما الجانبان الشمالى والجنوبى فبكل منهما ثلاث بوائك وتحتوى الجهة الغربية على بائكتين . وترتكز بعض البوائك على أعمدة والأخرى على دعائم .

ونلاحظ أن جميع البوائك التى تطل على صحن الجامع ترتكز على دعائم كما أن إيوان القبلة ترتكز بائكتان من بوائكه الست على دعائم . كذلك نجد أن جميع المجازات التى

تتوسط بوائك الأضلاع الأربعة والتى تؤدى ثلاث منها إلى الأبواب والمداخل الخارجية ترتكز على دعائم .

ولعل أهم ما يتميز به جامع الظاهر بيبرس هو احتواؤه على مقصورة تتقدم المحراب . وتشغل هذه المقصورة تسعة إيوانات (٣×٣) أمتار مربعة ، وتبلغ مساحتها (٥ر١٥) مترًا مربعًا ويتكون كل ضلع من أضلاعها الثلاثة من ثلاثة عقود المتوسط منها يرتفع إلى سقف الجامع . ويبدو أن كل دعامة من دعائم المقصورة تحتوى أركانها على أعمدة ملتصقة سقط معظمها الآن ويتوسط الضلع الرابع من المقصورة محراب كبير مجوف على جانبيه حنيتان مسطحتان يعلوهما نافذتان . ويعلو المحراب لوحة من الرخام عليها كتابات تثبت تاريخ إنشاء المقصورة والقبة التى كانت تغطيها ونصها : أمر بإنشاء هذه القبة المباركة سنة ست وستين وستمائة (١٢٦٨ م) ويؤدى مجاز إيوان القبلة الذى يتكون من ثلاثة عقود المتوسط منها أكبرها وأوسعها إلى المقصورة .

أما تغطية الجامع فلم يبق منها شيء ، وإن كان من الواضح أنها كانت من الخشب فيما عدا المقصورة فقد كانت مغطاة بقبة مبنية من الآجر الذى استعمل كذلك فى بناء العقود جميعها:



ضريح ورباط الشيخ يوسف العجمى العدوى سنة ٦٦٧ هـ

المعروف بضريح مصطفى باشا
(بقرافة الإمام الشافعى)

هو الشيخ الصالح القدوة العارف ، مربى المريدين قدوة العارفين يوسف العجمى . كان عارفًا بسلوك الطريق أدرك الشيخ يحيي الصنافيرى ، وكان يزوره ويفهم ما يقوله من الإشارات ، وله مناقب جلية وله ذرية باقية إلى الآن[1] ، وهو جد زين الدين المتوفى .. سنة ٩٦٧ هـ .

ويقول ابن الزيات[2] ، أن الشيخ يوسف العجمى العدوى من أصحاب الشيخ عدى[3] ابن مسافر . ومن الروايات التى كان يرويها الشيخ نفسه ، أنه جاع ليلة فرأى الشيخ عدى فى المنام فقدم له طبقًا به عنب فأكل منه ، فاستيقظ فوجد حلاوة العنب فى فيه[4] .

وكان للشيخ يوسف العجمى تأثير كبير على السلطان الظاهر بيبرس حتى أنه كتب بإزالة الخمور وإبطال الفساد والخواطىء من القاهرة ومصر وجميع أعمال (أقاليم) مصر فطهّرت كلها من المنكر . ونهبت الخانات التى جرت عادة أهل الفساد الإقامة بها . وسلبت جميع أموال المفسدات وحبسن حتى يتزوجن . كما أمر بنفى كثير من المفسدين ، وكتب السلطان إلى جميع البلاد بمثل ذلك .

---

(١) تحفة الأحباب ص ٣٣٣
(٢) الكواكب السيارة ص ١٨٦
(٣) أنظر الشيخ زين الدين بن مسافر
(٤) المصباح المنير : ص ١١٩

وكان الشيخ يوسف راجح العقل نافذ البصيرة مما جعل السلطان بيبرس يستشيره ويأخذ برأيه فى أدق أحوال البلاد السياسية ، فقد كان شيخنا من أقوى المشجعين والمؤيدين للسلطان فى نقل الخلافة العباسية من العراق بعد سقوطها على يد التتار ، إلى مصر . فقد حدث عندما أحضر السلطان الخليفة الحاكم بأمر الله أبا العباس أحمد بن الأمير أبى على الحسن من العراق سنة إحدى وستين وستمائة كان الشيخ يوسف العجمى أول من بايعه بالخلافة فى مصر بعد السلطان[1] .

وعندما انخفض منسوب فيضان النيل سنة اثنتين وستين[2] وستمائة ووقع الغلاء بمصر فبلغ الأردب من القمح مائة درهم وخمسة دراهم نقرة (فضة خالصة) والشعير سبعين درهمًا للأردب ، وثلاثة أرطال خبز بدرهم نقرة ورطل اللحم بدرهم وثلث ، أقول عندما وصلت أسعار الحاجيات والمعايش هذا الحد من الغلاء ، أشار الشيخ يوسف على السلطان أن يوزع الفقراء على الأغنياء والأمراء وألزمهم بإطعامهم . ففعل كما أشار عليه بتفريق القمح من شونه الخاصة على الزوايا والربط ، وترتب للفقراء كل يوم مائة أردب مخبوزة تفرق بجامع أحمد بن طولون . وقد دام الأمر على ذلك إلى أن دخلت السنة الجديدة والغلة الجديدة .

كذلك كان الشيخ يوسف صاحب حظوة ومسموع الكلمة عند الكثير من الأمراء والوجهاء فقد كان الأمير حسام الدين لاجين بن عبد الله العزيزى الجوكندار[3] ، وهو من أكابر الأمراء وأعظمهم شأنًا ، شجاعًا جوادًا دينًا له اليد البيضاء فى غزو التتار ، كان هذا الأمير لايرد لشيخنا طلبًا ، فقد كان يجمع الفقراء ويصنع لهم الأوقات والسماعات (الحفلات الدينية) ، وذلك بتوجيه من الشيخ يوسف .

ومن الأمراء الذين أحاطوا الشيخ يوسف بالعناية والرعاية الأمير جمال الدين موسى ابن يغمور بن جلدك بن بلهان[4] ، الذى كان يتتلمذ على يديه فى أمور دينه كما كان

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٤٧٩

(٢) النجوم الزاهرة : جـ ٧ ص ٢١٣

(٣) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ص ٢٢٧

(٤) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك فى حوادث سنة ٦٦٣ هـ

يحضر فى رباطه دروس الحديث . وبرغم كثرة تنقلات هذا الأمير فى الولايات مثل نيابة السلطنة فى دمشق ثم نيابة القاهرة إلا أنه كان يداوم المراسلة والاستفسار عن الشيخ يوسف. ويصف الشيخ يوسف الأمير جمال الدين فيقول : « لم يكن فى الأمراء من يضاهيه فى منزلته وشجاعته وقربه من الملوك ، وكان أميرًا جليلا خبيرًا حازمًا سيوسًا مدبرًا جوادًا ممدحا . وكان الملك الظاهر ، إذا عمل مشورة وتكلم جمع خشداشيته من الأمراء ، فلا يصغى إلا إلى قول ابن يغمور هذا ويفعل ما أشار به عليه » وكان شاعرًا مجيدًا ومن شعره قوله :

ما أحسن ما جاء كتاب الحِب ... يبدى حرقًا كأنه عن قلبى
فازددت بما قرأت شوقًا وضنًا ... لا يبرده إلا نسيم القُرب[1]

ومن معاصرى الشيخ يوسف العجمى من العلماء ورجال الدين الذين كانوا يجتمعون به ويترددون عليه ويستمعون إليه القاضى تاج الدين عبد الوهاب بن خلف بن محمود ابن بدر أبو محمد العلامى الفقيه الشافعى المعروف بابن بنت الأعز . كان إمامًا فاضلا ولى كثيرًا من المناصب الجليلة كنظر الدواوين والوزارة وقضاء القضاة ودرس بقبة الإمام الشافعى . وكان الشيخ يوسف هو صاحب الفضل فى كل ما ولى القاضى تاج الدين من المناصب ، فهو الذى أسمع السلطنة عنه ، فقربه منه وأصبحت له مكانة خاصة عند السلطان الظاهر بيبرس[2] ، ولما توفى القاضى تاج الدين سنة خمس وستين وستمائة حزن عليه شيخنا حزنًا شديدًا وشيعه إلى مقره الأخير حيث دفن بسفح جبل المقطم[3] .

ومن العلماء الملازمين للشيخ يوسف الشيخ الإمام المحدث تاج الدين أبو الحسن على ابن أحمد بن محمد بن ميمون القيسى المصرى المالكى المعروف بابن القسطلانى . وكان

---

(١) ولد الأمير جمال الدين موسى بن يغمور سنة تسع وتسعين وخمسمائة بقرية القوب من أعمال قوص ، التى تعرف اليوم باسم كوم يعقوب إحدى قرى مركز نجع حمادى بمحافظة قنا . وتوفى بالقصير من أعمال الفاقوسية بين الغرابى والصالحية سنة ٦٦٣ هـ .

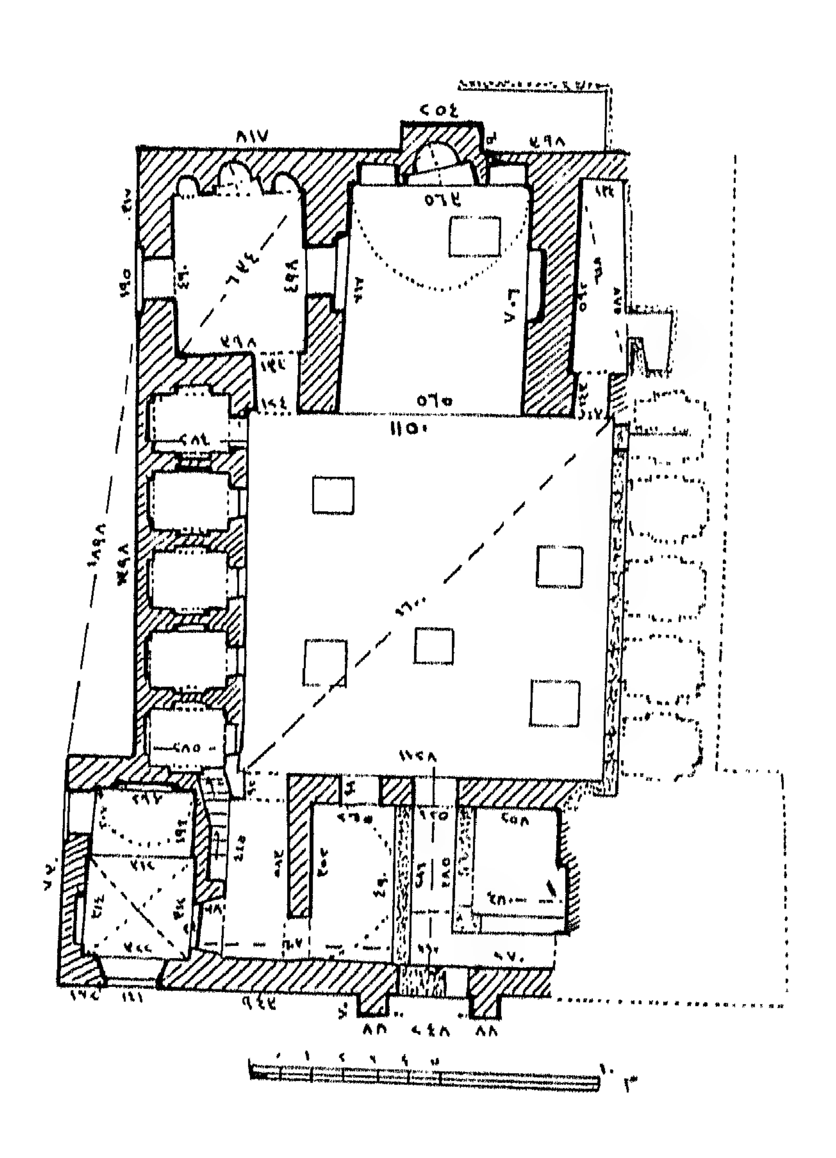
والقصير التى ذكرها المقريزى فى السلوك وفى الخطط ج ٢ ص ٣٠١ ، هى كما يقول محمد رمزى (فى حاشية النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٨٣ (هى القرية التى تعرف اليوم باسم الجعافرة إحدى قرى مركز فاقوس بمحافظة الشرقية .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٥٥

(٣) النجوم الزاهرة : ج ٧ ص ٢٢٣

معروفاً بالعلم والتقوى فقد تفقه وسمع الحديث من جماعات كثيرة وحدث بالكثير ودرس وأفتى . وقد كان الشيخ يوسف من المعجبين به لعلمه وورعه فتوسط له لدى السلطان فأمر بتعيينه لمشيخة دار الحديث بالمدرسة الكاملية التى أنشأها السلطان الكامل ابن السلطان العادل أخو صلاح الدين الأيوبى سنة ٦٢٢ بشارع بين القصرين (المعز حالياً) بحى الجمالية . وظل يشغل هذه الوظيفة حتى وافته منيته سنة خمس وستين وستمائة ودفن بسفح جبل المقطم.

ولما توفى الشيخ يوسف العجمى العدوى دفن فى القبة الملحقة بالرباط الذى كان يقيم فيه الشيخ ، كما دفن معه مجموعة من أولياء الله الصالحين لعل أهمهم الشيخ مهذب الدين أبو الفرج شيخ المدرسة الكاملية المتوفى سنة ٦٧٢ هـ .



الوصف المعمارى

تبلغ مساحة الضريح المسمى خطأ ضريح مصطفى باشا ٢٣ مترا عرضًا + ٢٨ مترا عمقًا . وهو بناء لا مثيل له فى مصر ، وقد بنيت جدرانه من الخارج من الحجر الكبير المقطوع (Cut stone) ومن الداخل من حجر صغير (talatat) والعقود والأقباء من الآجر . ويوجد المدخل الحالى فى الركن الشمالى الغربى للضريح ، ويبلغ اتساعه ١ر٤١ مترًا وارتفاعه ٢ر٧٧ متر ويحتوى على عتبة من الجرانيت الوردى ويعلوه عقد على شكل حدوة فرس مستديرة مزخرفة بصفنجات . ويقع المدخل فى إطار مستطيل يزخرفه أقواس صغيرة . (chevron) أول مثال من نوعه فى مصر .

وعندما ندخل من الباب نجد أنفسنا فى ردهة مربعة طول ضلعها (٣ر٢٠) أمتار مغطاة بقبو متقاطع وفى نهايتها توجد حنية عمقها (٢) متر مغطاة بقبو وترتفع عن أرضية الردهة بمقدار (٢٨ سم) الأمر الذى يعتقد معه أنها كانت أشبه بمصطبة على جانبها الشرقى نافذة . وفى الضلع الغربى يوجد باب يؤدى إلى ممر مواز للردهة على يساره سلم وفى نهايته الجنوبية باب يوصل إلى الصحن . ويتكون الصحن من مربع طول ضلعه ١١ر٥٠ × ١١ر٢٠ مترًا على جانبيه الشرقى والغربى خمس خلاو مقبية اتساعها ١ر٨٠ أو ١ر٦٩ متر وعمقها ٢ر١٨ م ويعلو صف الخلاوى طابق آخر سقفه من الخشب ويضيئه فتحات على شكل شق السهام وفتحة متسعة ذات عقد ذى زاوية يطل على الصحن .

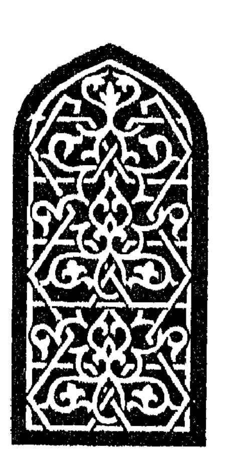
وفى الضلع الجنوبى من الصحن يوجد إيوان كبير مقبى يبلغ اتساعه ٥ر٦٥ × ٧ر١٧أمتار عمق فى نهايته محراب يعلوه عقد ذو زاوية منحرف (askew) لكى يكون فى اتجاه القبلة تمامًا حيث أن المبنى يقابل الجهات الأربع تمامًا . على جانبى المحراب يوجد حنيتان لعلهما كانا يستعملان كدواليب (Placar) . كما يعلو المحراب نافذة ذات ثلاث فتحات يحيط بها شريط من الخط الكوفى والجزء الباقى من الجدار ملىء بزخارف جصية غاية فى

الدقة والجمال ويحيط بكل هذا شريط من الخط (بسم الله الرحمن الرحيم) النسخى . على يسار الإيوان توجد غرفة مساحتها ٣٫٣٨ × ٤٫٩٨ أمتار عمق فى صدرها ثلاثة محاريب منحرفة لكى تكون فى اتجاه القبة . والمحاريب مزخرفة بزخارف جصية جميلة ويعلوها نافذة من ثلاث فتحات . وعلى الجانب الأيمن للإيوان الكبير نجد بابا يؤدى إلى ممر ضيق ضلعه الغربى حائط حديث . كما أن كل الضلع الغربى للصحن كله حديث ماعدا جزءا صغيرا فى النهاية الجنوبية .

وفى الجهة الشمالية من الصحن توجد غرفة مستطيلة مقبية وبوسط القبو فتحة مربعة للإضاءة وقد قسمت هذه الغرفة حوائط حادثة . كما يوجد فى الواجهة الشمالية مدخل سد الآن . ويحتفظ هذا الضريح بشرافات فى الجهة الشرقية وهى تشبه الموجودة بمسجد الجيوشى والسيدة رقية والخلفاء العباسيين .

التــاريخ :

ويرجح كزويل اعتمادًا على ابن الزيات أن يكون هذا الضريح الموجود بالقرافة الجنوبية للشيخ يوسف العجمى العدوى جد زين الدين يوسف . ويقول السخاوى أن الأمير ازدمر الصالحى رمم رباطًا به مجموعة من الخلاوى ، وأن به ضريح الشيخ ابن يوسف ، وتقيم به مجموعة من الدراويش ، كما دفن به الشيخ مهيب الدين أبو الفرج الذى كان شيخ مدرسة الحديث الكاملية ، المتوفى سنة ٦٧٢ هـ . ولما كانت الزخارف الجصية تشبه تلك الموجودة بجامع بيبرس الذى بنى سنة ٦٦٦هـ . لذلك فإن كزويل يقول بأن المبنى هو رباط وضريح الشيخ يوسف العجمى العدوى وأنه يرجع إلى ما بين سنة ٦٦٦ هـ إلى سنة ٦٧٢ هـ .



ضريح فاطمة خاتون[1]

أم الملك الصالح بن المنصور قلاوون سنة ٦٨٢هـ

الملك الصالح هو ابن السلطان الملك المنصور قلاوون، الذى تولى سلطنة مصر سنة ٦٧٨هـ وفى عهد السلطان الظاهر بيبرس تزوج المنصور قلاوون بابنة أحد أمراء المماليك وقد احتفل السلطان الظاهر بهذا الزواج احتفالا كبيرًا ، وتعهد بكل ما يلزم هذا الحفل من الولائم مما جعل الأمراء وكبار رجال الدولة يتسابقون فى تقديم الهدايا إلى المنصور قلاوون . وكانت أعظم تلك الهدايا تلك التى قدمها له السلطان[2] والتى كانت تحوى الخيل والأنسجة الوشاة والشرابيش المذهبة والمرصعة بالجواهر والمناطق المكفتة بالفضة والذهب والسيوف المرصعة والمزخرفة بالمينا والقسى المطعمة بالعاج والصدف وغيرها كثير ، هذا بالإضافة إلى عشرة من المماليك . وقد قبل قلاوون الهدايا كلها فيما عدا المماليك ، فقد اعتذر عن قبولهم قائلا : هؤلاء خوشداشيتى[3] فى خدمة السلطان « وقد قبل السلطان اعتذاره ، وأثنى عليه ، وعلى بعد نظره وثاقب فكره .

وعندما تولى المنصور قلاوون سلطنة مصر وضع نصب عينيه القضاء على التتار الذين احتلوا جزءًا من بلاد الشام ، لذلك نجده يكتب إلى الأمير سيف[4] الدين بلبان الطباخى

---

(١) يسميها المقريزى : مدرسة تربة أم الصالح (الخطط جـ ٢ ص ٣٩٤)

(٢) النجوم الزاهرة : جـ ٧ ص ١١٩

(٣) الخوشداش هو الزميل .

(٤) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٦٨٤

نائب حصن الأكراد بغزو الفرنج بالمرقب ، لمساعدتهم التتار ، عند وصولهم[1] حلب ، ولم يكن قد مضى على توليه السلطنة غير أسبوع واحد . فقام الأمير سيف الدين بجمع التركمان وغيرهم وحمل المجانيق والآلات ونازل المرقب ، فانهزم المسلمون ونهبهم الفرنج ، وعدم من المسلمين مقدار مائتى[2] فارس وراجل .

فكبر ذلك على السلطان وتحرك للسفر فجمع أعيان مملكته بقلعة الجبل وجعل ولده علاء الدين عليا ولى عهده ولقبه « الملك الصالح » وخطب له على المنابر[3] . ورتب السلطان الأمير علم الدين سنجر الشجاعى فى استخراج الأموال وتدبير أمور المملكة ، وجعله فى خدمة الملك الصالح مع الوزير برهان الدين السنجارى[4] .

وقد تزوج السلطان الملك المنصور قلاوون سنة ٦٨١ هـ (بخوند أشلون[5]) ابنة (الأمير سكناى) بن قراجين بن جنغان نوين ، الذى وفد على مصر فى عهد السلطان الظاهر[6] بيبرس وعاش فى كنف السلطان موفور الكرامة متمتعاً بكل ما كان ينعم به أمراء المماليك من حياة الترف والبذخ . والسيدة خوند أشلون هى (أم الملك الناصر محمد[7]) وكانت ذات حسن وبهاء أخذت بمجامع لب السلطان وعقله حتى أنه احتفل بهذا الزواج احتفالا باهراً فاق فى رونقه الاحتفال بزواجه السابق وصرف فيه الأموال الطائلة[8] .

وحدث أثناء هذا الحفل أن رأى (على) الملك الصالح ، ابن السلطان ، إحدى المدعوات فأعجب بجمالها غاية الإعجاب وفتن بحسنها إلى أبعد حد . وكانت هذه السيدة زوجة

---

(١) أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ص ١٥٨

(٢) ابن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٣٢١

(٣) النجوم الزاهرة : جـ ٧ ص ٣٠٠

(٤) المقريزى : جـ ١ ص ٦٨٤

(٥) Lane-Poole : A History of Egypt. p. 288 and Quatremère op. cit. III p. 54.

(٦) النويرى : نهاية الإرب جـ ٢٩ ص ٢٨٠

(٧) يذكر كزويل وفان برشم أن السيدة أشلون أم الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحبة الضريح الذى نحن بصدد الحديث عنه ، وهذا مخالف للحقيقة التى جاءت فى جميع المراجع التاريخية ، ذلك أن المنصور قلاوون تزوجها سنة ٦٨١ هـ والضريح بنى سنة ٦٨٢ هـ . حيث دفن فيه زوجته فاطمة خاتون أم ولده على الملقب بالملك الصالح والتى توفيت سنة ٦٨٢ هـ . كما دفن فيه ولدها الملك الصالح سنة ٦٨٧ هـ . أما خوند أشلون فقد ماتت فى سلطنة ولدها .

Creswell : Muslim Architecture in Egypt vol. II p. 184.

(٨) ابن إياس : جـ ١ ص ١٢٣

الأمير كتبغا المنصورى ، الأمر الذى جعل الملك الصالح يكاد يهلك من الغم والحسرة لعدم استطاعته الزواج بها . فلما عرف السلطان بذلك سعى لدى الأمير كتبغا لتسريح زوجته ، فلما نجحت المسعى تزوج بها . وهكذا نرى أن الملك الصالح على ، قد تزوج (بخوند منلبك[1]) ابنة الأمير سيف الدين نوكيه فى نفس السنة التى تزوج فيها والده بأم الملك الناصر محمد . وفى ذلك يقول ابن تغرى[2] بردى : « تزوج الملك الصالح على ابنة الأمير سيف الدين نوكيه وكانت تحت الأمير زين الدين كتبغا المنصورى فرآها الملك الصالح يوم حضرت مع نساء الأمراء يوم زفت مُهِمَّ أشلون إلى السلطان ، ففتنته بحسنها حتى كاد يهلك ، فما زال السلطان بطرنطاى النائب حتى ألزم كتبغا بطلاقها فطلقها . وأفرج السلطان عن أبيها نوكيه من سجن الاسكندرية وأحضر إلى القاهرة وأنعم عليه بأمره ، وعقد العقد على خمسة آلاف عينا (دينار) عجل منها ألفا دينار » .

وفى سنة سبع وثمانين وستمائة مرض الملك الصالح مرضًا شديدًا أدى إلى وفاته ، وفى ذلك يقول المقريزى[3] : « وفى يوم الأحد الخامس عشر من جمادى الأولى خرج السلطان مبرزا بظاهر القاهرة يريد الشام ، فركب معه ابنه الملك الصالح وحضر السماط ، ثم عاد الصالح إلى القلعة آخر النهار ، فتحرك عليه فؤاده فى الليل وكثر إسهاله الدموى وأفرط ، فعاد السلطان لعيادته ولم يفد فيه العلاج . فمات الصالح بكرة يوم الجمعة من « سنطاريا كبدية » ويضيف المقريزى فيقول وتحدثت طائفة من المماليك بأن أخاه الملك الأشرف خليلا سمّه » .

وقد صلى عليه بالقلعة قاضى القضاة تقى الدين ابن بنت الأعز إمامًا والسلطان خلفه فى بقية الامراء والملك الأشرف خليل . وقد اشتد حزن السلطان عليه وجلس للعزاء بالإيوان الكبير ، وأنشئت كتب العزاء إلى النواب بالممالك ، ورسم فيها ألا يقطع أحد شعرًا ولايلبس ثواب حداد ولا يغيّر زيه .

وفى مدة مرض الملك الصالح جاد السلطان بالمال وأكثر من الصدقات واستدعى الفقراء

---

(١) النويرى : نهاية الإرب جـ ٢٩ ص ٢٨٠
(٢) النجوم الزاهرة : جـ ٧ ص ٣٢٠
(٣) السلوك : جـ ١ ص ٧٤٤

والصالحين ليدعوا له . ومما يروى فى هذا المقام ، أن السلطان بعث إلى الشيخ محمد المرجانى أحد أولياء الله الصالحين فى عهده ، يدعوه فأبى أن يجتمع به ، فأرسل له مع الطواشى (مرشد) خمسة آلاف درهم ليعمل بها وقتًا (حفلة الذكر وقراءة القرآن) للفقراء ، حتى يطلبوا ولد السلطان من الله تعالى ، فقال له الشيخ « سلم على السلطان وقل له متى رأيت فقيرًا يطلب أحدا من الله ، فإن فرغ أجله فوالله ما ينفعه أحد ، وإن كانت فيه بقية فهو يعيش .

ثم حملت جنازة الملك الصالح وصلى عليه ثانيا قاضى القضاة خارج القلعة ودفن بتربة أمه قريبًا من المشهد النفيسى . ويصف المقريزى[1] هذه المدرسة بجوار المدرسة الأشرفية (الأشرف خليل) بالقرب من المشهد النفيسى فيما بين القاهرة ومصر موضعها من جملة . ما كان بستانا . وقد أنشأ هذه التربة الملك المنصور قلاوون على يد الأمير علم الدين سنجر الشجاعى فى سنة اثنتين وثمانين وستمائة برسم أم الملك الصالح علاء الدين على بن الملك المنصور قلاوون . فلما كمل بناؤها نزل إليها الملك المنصور ومعه ابنه الصالح على . وتصدق عند قبرها بمال جزيل ورتب لها وقفًا حسنًا على قراء وفقهاء وغير ذلك . وكانت وفاة أم الملك الصالح فى سادس عشر شوال سنة ثلاث وثمانين وستمائة .

---

(١) الخطط جـ ٢ ص ٣٩٤

الوصف المعمارى

المدخل :

يقع المدخل فى الجهة الشمالية ويتكون من مدخل مقبى سعته (٣٫٤٥) أمتار و (٣٫٥) أمتار عمقه وارتفاعه (٧) أمتار . وكان يوجد على جانبى المدخل عمودان اندثرا الآن . وعلى جانبى هذا المدخل توجد مصطبة كان يعلوها زخارف قالبية . وفى نهاية المدخل المقبى يوجد باب سعته ٢٫٠٥ م وارتفاعه (٣٫٥٦) م يعلوه عتب يفتح على حنية عمقها (١٫٢٠) متر يعلوها قبو من الآجر . وتفتح هذه الحنية على فضاء أخلته الحفائر حديثاً . وعلى يمين هذا الفضاء توجد صالة يدخل إليها من فتحة مرتفعة جداً بنى جانبيها بأحجار دقشوم ويبلغ طول الصالة ٨٫١٠ أمتار وعرضها ٢٫٦٥ من الداخل ويضيؤها صفان من النوافذ المستطيلة الضيقة أحدها فى الضلع الشمالى بجوار المدخل واثنان فى الضلع الغربى . الصف الأول من هذه النوافذ يعلوها عتب استخدم كقواعد لنوافذ الصف الثانى التى تصغر نوافذ الصف الأول . وقد كانت هذه الصالة مغطاة بقبو زال معظمه الآن ولم يبق إلا أجزاء منه عند نهايتى الصالة .

السقيفة :

ويتقدم الضريح سقيفة (narthex or portico) مثل سقيفة السيدة رقية وشجر الدر والأشرف خليل . وتبلغ مساحة هذه السقيفة (١١٫٥١×٤٫٨٠) أمتار من الداخل وبها ثلاث فتحات (K.L.M.) فى الضلع الشمالى وفتحتان فى الضلع الغربى (N.O.) . ويعلو هذه الفتحات كما هو الحال فى الصالة ، صف آخر من الفتحات . ويعلو الفتحات عتب من الخارج ومن الداخل عتب يعلوه عقد عاتق مبنى من الحجر والآجر وكل هذه الفتحات فى السقيفة كذا الصالة يحيط بها من الخارج إطار مستطيل داخلى على شكل حنية بعضها يعلوه زخرفة قالبية على شكل (Cevetto) أو صفان من الدلايات . والسقيفة غير مسقوفة الآن وإن كان من المؤكد أنه كان يتطيها سقف خشبى تحت مستوى نوافذ الضريح مباشرة . ويعتقد (Patricolo) أن السقف الخشبى كان يعلو أفريزا خشبيا ما تزال المسامير التى ثبت بها على الحجر ما تزال ظاهرة .

الضريح :

هو عبارة عن مكعب من الآجر يقوم على مدماكين من الحجر ويبلغ سمك الجدار (١٫٩٠) متر ويبلغ طول ضلع الضريح من الداخل ١٠٫٤٢ أمتار . ويتوسط كل ضلع من أضلاع الضريح عدا حائط القبلة باب عرضه (١٫٧٦) متر وارتفاعه (٢٫٨٨) متر . ويكتنف الباب الذى يطل على السقيفة حنيتان كان على جانبي كل منهما عمودان يحملان عقدًا ذا زاوية . ويعلو الأبواب عرق خشبي فوقه عقد عاتق من الآجر .

النـــوافذ :

وفى وسط كل ضلع من أضلاع الضريح توجد نافذة كبيرة مكونة من فتحتين مستطيلتين يعلوهما عقد على شكل حدوة الفرس . وفوق الفتحتين فتحة مستديرة وجميع هذه الفتحات الثلاث محصورة داخل إطار معقود حدد بزخارف قالبية على (Cavetto) وهذه الطريقة فى زخرفة النوافذ تعتبر الأولى من نوعها فى العمارة المصرية وسوف تساعدنا فيما بعد فى تحديد تواريخ العمائر غير المؤرخة . وهذه النوافذ خالية من الزخارف فيما عدا النافذة فى الضلع الشمالى الشرقى التى ما تزال تحتفظ ببعض الزخارف الجصية وكتابة كوفية تشبه إلى حد كبير الزخارف الموجودة فى نوافذ قلاوون بالنحاسين .

وقد زخرفت جدران الضريح من الخارج على ارتفاع (١٤) مترًا بكرنيش حجرى يحمل كتابة اندثر معظمها ، ويعلو ذلك شرافات ظاهرة فى حائط القبلة .

داخل الضريح :

يغطى الضريح من الداخل طبقة من الجص لايوجد بها زخرفة . وقد طلى المحراب بطبقة من الجير رسمت عليه زخارف حديثة هزيلة . ويقع الباب الذى يتوسط كل ضلع من أضلاع الضريح عدا حائط القبلة فى حنية على مستويين يبلغ عمق الأولى ٤٥ سم والثانية ٤٠ سم هذا بالإضافة إلى أن سمك حائط الباب (١٫٠٥) متر فيكون المجموع (١٫٩٠) هو سمك الجدار كما سبق القول . وكل مستوى من مستوى الحنية يوجد على جانبيه عمودان مندمجان ومنهما يبدأ الإطار المعقود الذى يترفع فيحيط بالنوافذ التى تعلو الأبواب . وهذا الإطار المعقود الذى يحيط بالأبواب والنوافذ يحمل ضلعًا من أضلاع المثمن الذى تعلوه قبة الضريح.

وفى أركان الضريح وبين الأطراف المعقودة الأربعة يوجد أربعة مثلثات غريبة فى نوعها ، يمكن وصفها بأنها تحتوى على ثلاث صفوف من الدلايات ترتكز على كابولى (Conso) ويحيط بها مقرنص كبير . وتحمل هذه المثلثات ضلعًا من أضلاع مثمن رقبة القبة الذى يبلغ ارتفاعه (٤ر٥) متر . وفى كل ضلع من أضلاع الرقبة المثمنة يوجد نافذة يعلوها عقد ذو زاوية فوقه فتحة مستديرة . من داخل الرقبة توجد فى كل ركن من أركان المثمن حنية ضحلة تفصل بين كل نافذتين . أما من الخارج فنجد نوافذ المثمن محاطة بإطار معقود على جانبيه عمودان .

القبـــــــة :

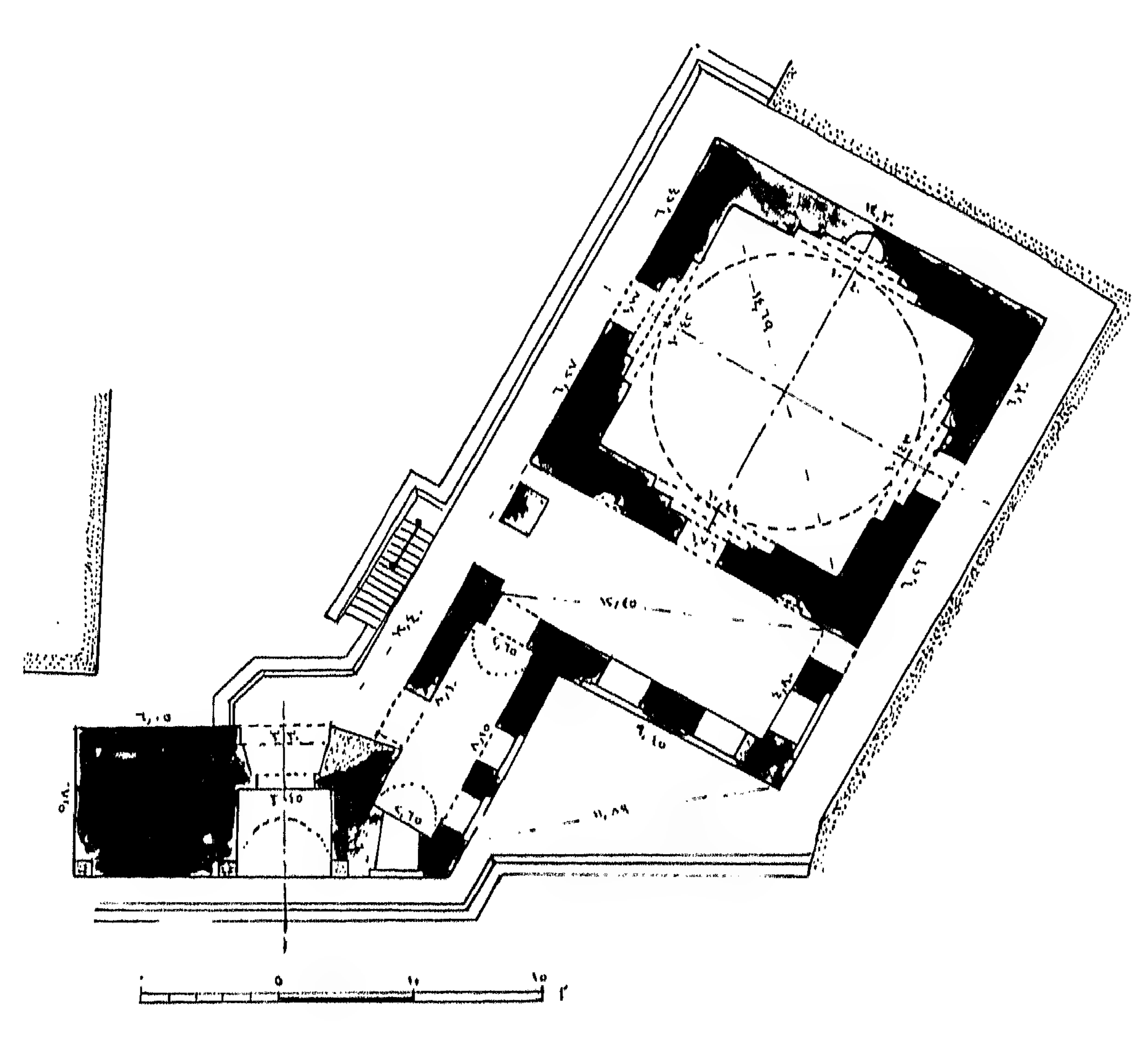
يعلو الرقبة المثمنة قبة لا وجود لها الآن ، ولكن يمكن أن نستنتج شكلها من قبة الأشرف خليل التى تشبه الضريح إلى حد كبير والقريب منه كذلك .

المئذنـــة :

بدن المئذنة مربع تقريبًا مساحته (٨٠ر٥ × ٠٥ر٦) أمتار ويستدق كلما ارتفعنا إلى ارتفاع (٢٠ر٢١) مترًا عن قاعدة المدخل الرئيسى . وقد زخرف نهايته بزخارف قالبية بيضية الشكل (Solid) يعلو شريط مسطح كان المفروض أن تنقش عليه كتابات . والمئذنة مسمطة (Ogee) إلى ارتفاع (٦٠ر٨) أمتار حيث يبدأ سلم عدد درجاته ست قلبات يلتف حول عمود مربع ثم ينتهى عند سطح على ارتفاع ٦٣ر١٥ . ويغطى السلم سقف حجرى مكون من ألواح (Slabs) ترتكز على جانبى الحائط فيما عدا القلبة الثانية والخامسة حيث ترتكزان على كوابيل تشبه تلك الموجودة فى قلعة صلاح الدين والسلم ضعيف الإضاءة حيث يدخل له النور من نافذة صغيرة يعلوها عقد من قطعة واحدة فى الضلع الشمالى الغربى فقط فى مستوى القلبة الثالثة .

وفى الجزء العلوى من المئذنة (الفانوس) نجد فى كل ضلع فتحة على جانبيها عمودان مندمجان تيجانها وقاعدتها على شكل زهرة اللوتس . ومن المرجح أن تكون هذه الفتحات كان يقسم كلا منها عمود حتى يكون الشكل مماثلا لنوافذ الضريح ويتكون من ثلاث فتحات .

وكما يتولى البقايا الملتصقة بالنوافذ . وتحيط بهذه النوافذ التى يبلغ ارتفاعها ٢٫٣٣ متر ويحيط بها إطار معقود يبلغ ارتفاعه (٣٫٤٢) أمتار . ويغطى الطابق الثانى (الفانوس) قبة ضحلة من الآجر ترتكز على مثلثات مقعرة كروية . وقد شق الجانب الجنوبى الغربى من القبة فتحة مستطيلة كان من المرجح أن تستعمل بواسطة سلم للوصول إلى الطابق العلوى الذى يعلو الطابق الثانى بمقدار (٥٫٥٧) أمتار . ومن المرجح أنه كان يعلو هذا الطابق الأخير مبخرة .



(شكل ٣) فاطمة خاتون



الخانقاه البندقدارية*

زاوية الآباء بشارع السيوفية
بقسم الخليفة سنة ٦٨٤هـ

كان الأمير علاء الدين ايدكين بن عبد الله البندقدارى الصالحى النجمى مملوكا للأمير جمال الدين موسى بن يغمور ، ثم انتقل عنه للملك الصالح نجم الدين أيوب وجعله بندقداره وأمره ثم نكبه ، وأخذ منه مملوكه (الملك الظاهر بيبرس) . ويحدثنا ابن الذهبى(١) عن قصة شراء علاء الدين ايدكين للظاهر بيبرس فيقول : أنه لما قبض على الأمير علاء الدين ايدكين وأحضر إلى حماة واعتقل بجامع قلعتها ، اتفق حضور ركن الدين بيبرس مع تاجر ، وكان الملك المنصور صاحب حلب ، إذ ذاك صبيا ، وكان إذا أراد شراء رقيق تُبصره والدته ، فلما أحضر بيبرس هذا مع آخر ورأتهما الوالدة من وراء الستر أمرت بشراء خشداشه وقالت ، هذا الأسير لايكون بينك وبينه معاملة فإن فى عينيه شرا لائحا . فطلب علاء الدين ايدكين البندقدارى الغلامين يعنى بيبرس ورفيقه فاشتراهما وهو معتقل ، ثم أفرج عنه فسار بهما إلى مصر .

وقد ظهرت نجابة وبطولة وشجاعة بيبرس فقيل لاينبغى أن يكون إلا عند ملك وقد بقى فى ملك البندقدارى حتى صادره أستاذه الملك الصالح أيوب وأخذ بيبرس هذا فيما أخذه منه فى المصادرة سنة أربع وأربعين وستمائة .

---

* الرقم (١٤٦)

(١) الذهبى : تاريخ الإسلام .

وهكذا أصبح ايدكين البندقدارى من مماليك الصالح نجم الدين البحرية ، وبعد وفاته أصبح من مماليك شجر الدر . ولما تزايدت الوحشة بين الملك المعز أيبك وبين شجر الدر سنة خمس وخمسين وستمائة ، عزم على قتلها . ولذلك فقد بدأ بالقبض على مماليكها من البحرية وسيرهم إلى قلعة الجبل حيث اعتقلهم وفيهم ايدكين الصالحى . فلما وصلوا النافذة التى تجلس فيها ، وعلم إيدكين أنها هناك ، وهنا يقول المقريزى[1] ، فخدم[2] ايدكين برأسه (أى حنى رأسه تحية واجلالا) وقال بالتركى « المملوك ايدكين بشمقدار (أى حامل نعل السلطان) . والله ياخوند ما علمنا ذنبا يوجب مسكنا ، إلا أنه لما ذهب يخطب بنت صاحب الموصل ، ما هان علينا ، لأننا تربية نعمتك ونعمة الشهيد المرحوم ، فلما عاتبناه تغير علينا وفعل ما ترين » . فأومأت شجر الدر إليه بالمنديل ، يعنى ، قد سمعت كلامك . فلما نزلوا بهم إلى الجب ، قال ايدكين ، إن كان حبسنا فقد قتلناه .

ولما تولى الظاهر بيبرس سلطنة مصر سنة ثمان وخمسين وستمائة ، كاتب أمراء دمشق يستمليهم إليه ويحضهم على منابذة الأمير علم الدين سنجر والقبض عليه ، فأجابوه إلى ذلك وكان فيهم الأمير علاء الدين ايدكين البندقدارى[3] ، فحاربوه وهزموه حتى اضطروه إلى مغادرة دمشق ، والذهاب إلى بعلبك . ثم دخل الأمير علاء الدين ايدكين دمشق واستولى عليها وحكم فيها نيابة عن الملك الظاهر بيبرس ، ثم جهز عسكرا إلى بعلبك لحصار الحلبى وقد ترددت بين الاثنين المراسلات حتى استقر الأمر على نزول الحلبى عن بعلبك وذهابه إلى الملك الظاهر بمصر .

وقد كافأه السلطان علاء الدين على إخلاصه وحسن بلائه بأن ولاه نيابة السلطنة بحلب كما بعث السلطان مع البندقدارى عسكرا لمحاربة البرنلى فى حماة فخرج منها إلى حران وأقام البندقدارى فى حلب فى شدة من غلاء الأسعار وعدم القوت ثم رحل عنها[4] . وفى سنة تسع وخمسين وستمائة ملك السلطان الظاهر دمشق وأخرج منها علم الدين سنجر

---

(١) السلوك : جـ ١ ص ٤٠٢

(٢) Quatremère : Histoire des Sultans Mamlouks en Egypt vol. I p. 64.

(٣) النجوم الزاهرة : جـ ٧ ص ١٠٧

(٤) العينى : عقد الجمان ص ٢١٦

الحلبي وولى نيابتها للأمير علاء الدين ايدكين البندقدارى . وفى سنة اثنين وستين استدعى الملك الظاهر علاء الدين إلى القاهرة فلما وصلها عزله من نيابة حلب[1] .

ولما فتح الله على السلطان الظاهر بالفتوح الكثيرة والانتصارات الباهرة ، رأى إلا ينفرد بكل هذه المكاسب لنفسه دون أعوانه ولا يستأثر بمنحة غدت بسيوفهم تستنفذ وبعزائمهم تستخلص فأصدر أمره العالى أن يملك أمراءه وخواصه مايعين من البلاد والضياع على مايشرح ويبين من الأوضاع ، فقد ملك الأمير علاء الدين البندقدارى باقة الشرقية[2] بكمالها .

كذلك كان للأمير علاء الدين نصيب يذكر فى جهاد الصليبيين فقد حدث أن أغار الفرنج سنة ٦٦٤ هـ على حمص ونزلوا على حصن الأكراد وأخذوا عرقة[3] وحلباء[4] والقليعات[5] ، فلما ورد الخبر بذلك جرد السلطان الأمير علاء الدين البندقدارى فى عدة من العسكر إلى صور أغاروا على الفرنج وغنموا وأسروا كثيرا .

ولما اتفق التتار مع الفرنج ، وأغار التتار على الساجور[6] قرب حلب، جرد السلطان الأمير علاء الدين البندقدارى فى جماعة من العسكر وأمره أن يقيم فى أوائل البلاد الشامية على أهبة الاستعداد وبقى هناك حتى انتصر عليهم انتصارا مؤزرا فى برج برغوث[7] .

ولما توفى الظاهر بيبرس تولى بعده ولده محمد بركة الملقب بالملك السعيد فلم يمكث غير سنتين وخلعه جماعة كثيرة من الأمراء كان من بينهم الأمير علاء الدين ايدكين ، فأذعن لهم السلطان وخلع نفسه وذهب إلى الكرك .

وعاش ايدكين إلى دولة الملك المنصور قلاوون ، وهو من أكابر الأمراء وأعيانهم إلى أن مات فى القاهرة فى شهر ربيع الأول من سنة أربع وثمانين وستمائة ودفن بتربته بالقرب

---

(١) النجوم الزاهرة : جـ ٧ ص ٢١٣

(٢) السلوك : جـ ١ ص ٥٣٣

(٣) ياقوت معجم البلدان : جـ ٣ ص ٦٥٣ موقعها شرق طرابلس .

(٤) أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ص ١٥١

(٥) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٥٤٥ (اسم حصن قرب طرابلس) .

(٦) ياقوت : جـ ٣ ص ٨ (وهو نهر بجهات مفيح) .

(٧) أبو شامة : كتاب الروضتين (على الطريق بين دمشق وجسر يعقوب) .

من بركة الفيل وقد ناهز السبعين . وذكر المقريزى[1] تربة البندقدارى باسم الخانقاة البندقدارية وأنها قريبة من الصليبية تجاه المدرسة الفارقانية وكان موضعها يعرف قديما بدويرة مسعود . أنشأها الأمير علاء الدين ايدكين وجعلها مسجدا لله تعالى وخانقاه ورتب فيها صوفية فقراء فى سنة ٦٨٣ هـ ، ولما مات سنة ٦٨٤ هـ دفن بقبة هذه الخانقاة . وما تزال هذه الخانقاة موجودة بشارع السيوفية بقسم الخليفة وتعرف باسم زاوية الأبار وقد جددها ديوان الأوقاف سنة ١٣٠٠ هـ . وعلى يسار الداخل من باب الزاوية قبة تشرف على الشارع تحتها قبر علاء الدين الذى يعلوه تابوت خشبى حفر عليه تاريخ الوفاة . وتحتوى الخانقاه على قبة أخرى يرجح أن ايدكين قد أنشأها تربة لزوجته . ومما يلفت النظر فى هذه القبة الشبابيك الجصية والزخارف التى تزخرفها رقبة القبة فهى من أدق الزخارف الجصية بمصر .

وقد يكون من المفيد أن نذكر هنا شيئا عن تاريخ حى بركة الفيل[2] التى تقع الخانقاه بالقرب منها . هى بركة كبيرة بظاهر القاهرة تمتد من بستان الحبانية إلى بستان سيف الإسلام إلى تحت الكبش إلى الجسر الأعظم (ميدان السيدة زينب الآن) الفاصل بينها وبين بركة قارون ومناظر الكبش المطلة عليها . ولما أنشأ جوهر القاهرة كانت البركة تجاهها خارج باب زويلة ولم يكن عليها مبان ثم عمّر الناس حولها بعد سنة ٦٠٠ هـ . ويقول محمد رمزى[3] أن بركة الفيل لم تكن بركة عميقة فيها ماء راكد بالمعنى المفهوم الآن من لفظ بركة وإنما كانت تطلق على أرض زراعية يغمرها ماء النيل سنويا وقت الفيضان ، وكانت تروى من الخليج المصرى (بور سعيد الآن) . وبعد نزول الماء تزرع أصنافا شتوية ، وكان أشهر محصولاتها القرط المعروف بالبرسيم .

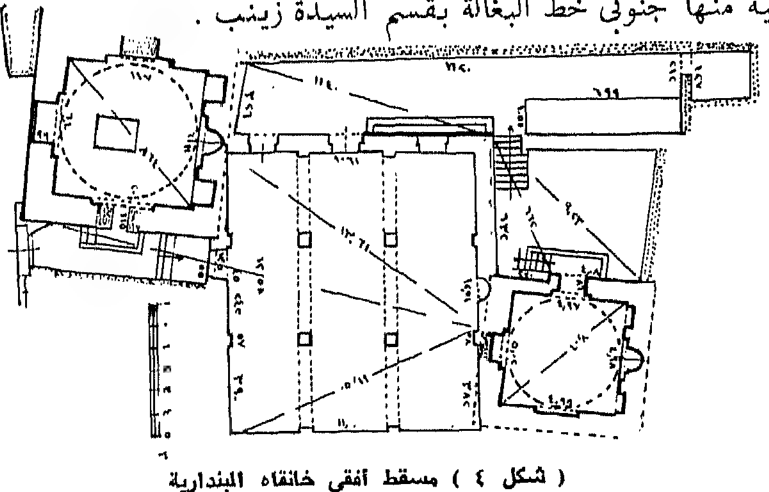
وكانت بركة الفيل معتبرة فى دفاتر المساحة من النواحى المربوط على أراضيها الخراج ولم يحذف اسمها من جداول أسماء النواحى إلا بعد أن تحول معظم أراضيها إلى مساكن

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٤٢
(٢) ابن دقاق : الانتصار جـ ٥ ص ٤٥ ، المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٦١
(٣) هامش النجوم الزاهرة : جـ ٧ ص ٣٦٦

وقد تحولت أراضيها تدريجيا من الزراعة إلى السكن من سنة ٦٢٠ هـ ولم يبق بأرض البركة بغير بناء إلى (سنة ١٢١٥ هـ - سنة ١٨٠٠ م) التى رسمت فيها الحملة الفرنسية خريطة القاهرة إلا قطعة أقيم عليها فيما بعد سراى عباس حلمى الأول المعروفة بسراى الحلمية . وفى سنة ١٨٩٤ م قسمت أراضى حديقة السراى . وفى سنة ١٩٠٢ م هدمت السراى وقسمت أراضيها أيضا وبيعت وتعرف الآن باسم الحلمية الجديدة .

وأما عن السبب فى تسميتها ببركة الفيل فهو لأن الأمير خمارويه بن أحمد بن طولون كان مغرما باقتناء الحيوانات من السباع والنمور والفيلة والزرافات وأنشأ لكل نوع منها دارا خاصة له وكانت دار الفيلة واقعة على حافة البركة من الجهة القبلية الشرقية حيث شارع نور الظلام ، وكان الناس يقصدون البركة للنزهة والفرجة على الفيلة فاشتهرت بينهم ببركة الفيل حتى اليوم . ومن هنا أن الذين قالوا بأن شكلها على هيئة فيل لا أساس له من الصحة وإنما كانت على شكل بيضاوى مفرطح من جهتيه الغربية والشرقية ، وقد وصفها ابن سعيد فى كتاب المغرب فقال : أنها كانت دائرة كالبدر والمناظر حولها كالنجوم .

ودار الفيل هذه ، هى غير دار الفيل التى كانت على بركة قارون[1] واشتراها كافور الأخشيدى أمير مصر وحبس فيها بنى مسكين ، فهذه الدار كانت واقعة على سكة المذبح من الجهة الشمالية منها جنوبى خط البغّالة بقسم السيدة زينب .



(شكل ٤) مسقط أفقى خانقاه البندارية

(١) هامش النجوم الزاهرة : جـ ٧ ص ٣٦٧ (تعليق محمد رمزى) .

الوصف المعمارى

تقع هذه الخانقاه فى شارع السيوفية على بعد (٢٠٠) متر إلى الشمال من شارع الصليبية ويتكون من قبتين ، القبة الأُولى (A) تطل واجهتها على الشارع والثانية (B) تقع خلف الأُولى ويفصل بينهما مساحة جديدة للصلاة . وتتكون الواجهة التى تطل على الشارع من مداميك حجرية يبلغ ارتفاع المدماك (٢٩) سم ، وينتهى حائط الواجهة بشرفات مسننة . ويعلو حائط الواجهة منطقة الانتقال للقبة ، أما القبة فمزخرفة بقنوات يبلغ عددها (١٦) قناة يفصل بينها فصوص بارزة (Fillet) .

وفى وسط الواجهة يوجد مدخل قد سد الآن (وأصبح نافذة) ينتهى بعتب يعلوه عقد عاتق . ولعل من أهم ما يعنينا فى هذه الواجهة هو شريط الكتابة الذى يقع تحت الشرفات مباشرة ، فهو يحتوى على (رنك) وطيفى وهو عبارة عن قوسين متواجهين مما يدل على أن صاحبها كان يشغل وظيفة البندقدارى .

ويؤدى إلى الخانقاه مدخل معقود عقدة مكوّن من ثلاثة فصوص بنى حديثًا يوصل إلى ممر (D) على جانبه الغربى تقع القبة الأُولى وعلى جانبه الشرقى منازل ومنه نصل إلى ساحة الصلاة . وتفتح القبة الأُولى على هذا الممر بواسطة باب (E) ينخفض عن الممر بمقدار ثلاث درجات ومبنى من حجر منحوت مثل حجر الواجهة . ومن المرجح أن يكون هذا الباب قد فتح حديثًا .

ويبلغ طول ضلع القبة الأُولى (٦) أمتار تقريبًا ، والجدران الداخلية تكاد تكون خالية تمامًا من الزخارف اللهم إلا المحراب الذى يعلوه عقد ذو راوية وتحيط به الزخارف الجصية الجميلة . وعلى جانبى المحراب توجد حنيتان طويلتان مجوفتان ، ويقوم عقد المحراب وكذا عقود الحنيتين على أعمدة مندمجة زالت الآن . ويوجد للقبة باب ثان فى الضلع الشرقى يقابل الباب الذى يفتح على ممر المدخل يبلغ اتساعه (١٫٦٤) متر .

وقد بنيت القبة وكذا منطقة الانتقال من الآجر وتتكون منطقة الانتقال والقبة الأُولى من صفين من المقرنصات يحتوى كل منهما على ثلاث مقرنصات ويفصل بين الأَركان نافذة مكونة من ثلاث فتحات ، ويعلو ذلك رقبة القبة التى تحتوى (١٦) نافذة وفوق هذه النوافذ مباشرة يوجد شريط من الكتابة النسخية والكتابة محصورة فى بحور داخل الشريط ويفصل بين البحور جامات مستديرة . وفى وسط القبة توجد جامة بها زخارف ويحيط بها شريط من الكتابة .

وقد زالت الزخارف الجصية المخرمة التى كانت تملأُ النوافذ ولم تبق إلا فى نافذتين فى الجهة الشمالية الغربية . وزخارف هذه القبة تشبه زخارف ضريح الخلفاء العباسيين والسلطان الصالح نجم الدين .

أما وصف القبة من الخارج فنلاحظ أن منطقة الانتقال تحتوى على درج واحد والتدرج يتفق مع بداية صفوف المقرنصات فى منطقة الانتقال بالداخل . والقبة مكونة من (١٦) فصا واضحة يفصل بينها ضلوع ذات زوايا .

وفى وسط القبة يوجد تابوت خشبى تبلغ مساحته (١٫٨٨ × ١٫٢٠) متر وارتفاعه (١٫١٥) متر ويحيط به شريط من الكتابة النسخية .

أما القبة الثانية فيمكن الوصول إليها عن طريق صالة الصلاة من الباب (F) ومنه إلى ممر ضيق نجد فى نهايته فى ضلعه الجنوبى بابا يؤدى إلى القبة الثانية . ويدخل إلى هذه القبة عن طريق باب . وهى أصغر قليلا من القبة الأُولى إذ يبلغ طول ضلعها حوالى خمسة أمتار . وتحتوى القبة على محراب طويل وضيق وينتهى بعقد منكسر زالت جميع الزخارف الجصية التى كانت دون شك موجودة . وفى الأَضلاع الثلاثة الأُخرى حنيات ضيقة .

وتتكون منطقة الانتقال من ثلاثة صفوف من المقرنصات ويحتوى كل صف على خمس مقرنصات وهى أول محاولة من هذا النوع . ويفصل بين الأَركان نافذة ذات ثلاث فتحات ، وإن كانت من المرجح أن تكون فى الأَصل ذات ست فتحات مثل قبة الصالح نجم الدين ولكن الثلاث السفلى قد سدت الآن . وتحتوى رقبة القبة على أربع وعشرين نافذة صغيرة تقوم على شريط مكون من بحور تحتوى على كتابة نسخية . ويملأُ فراغ كوشة عقود النوافذ

زخارف جصية على شكل معينات ، ويعلو ذلك مباشرة شريط ضيق من الخط الكوفى يعلوه شريط به بحور تحتوى على كتابات نسخية ويفصل هذه البحور عن بعضها دوائر .

أما وصف القبة الثانية من الخارج فهى تحتوى على درج واحد والتدرج يتفق مع بداية صف المقرنص الأول ، كما هو الحال فى القبة الأولى . وما تزال القبة تحتفظ ببعض الزخارف الجصية التى تحتوى على بحور بها كتابات نسخية وزخارف هندسية على شكل معينات وأشرطة ضيقة بها كتابات كوفية يتخللها زخارف نباتية على شكل مراوح نخيلية . ويزخرف القبة أربعة وعشرون فصًا أعمق من فصوص القبة الأولى ويفصل بينها ضلوع . ويظهر أن نهاية القبة قد تحطم .

التـــاريخ :

تدل الكتابة التى تحيط بالتابوت الخشبى فى القبة الأولى على أن المقبرة للأمير علاء الدين البندقدارى ، أحد مماليك الصالح نجم الدين أيوب . ولكن لاتوجد كتابة تبين تاريخ القبة وإن كان من المؤكد أن الكتابة التى تحيط بالواجهة من الخارج كانت تحتوى على التاريخ ولكن الجزء الآخر منها قد اختفى . ولكن المقريزى[1] فى الخطط والسلوك[2] وابن تغرى[3] بردى فى النجوم الزاهرة وغيرهما توضحون أن الأمير علاء الدين توفى فى ربيع الثانى سنة ٦٨٤ (يونيه ويولية سنة ١٢٨٥ م) وإنه دفن فى الخانقاه التى أنشأها بالقرب من الصليبية .

وأنه يوجد فى متحف الميتروبوليتان مشكاة[4] لابد وأن تكون قد أخذت من هذه الخانقاه لأنه قد كتب عليها أنها عملت لضريح الأمير علاء الدين أيدكين البندقدارى ويتخلل الكتابة ثلاثة رنوك للبندقدارية .

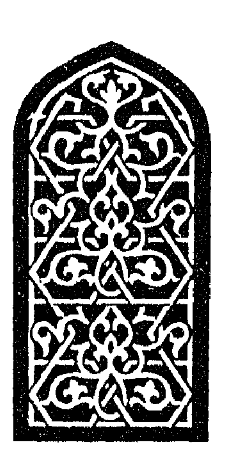
أما عن الخانقاه التى ذكرت فى المراجع التاريخية وكذا فى الكتابات الأثرية الموجودة فى الضريح فقد اندثرت وإن مكانها كان مجاورًا للضلع الغربى للقبة الأولى حيث أنه كان مستمرًا إلى الغرب عند الركن الشمالى الغربى للقبة وأن باب القبة (y) الذى سد الآن كان يوصل إليها .

---

(١) الخطط : جـ ٢ ص ٣٩٤ (٢ (السلوك : جـ ١ ص ٤٠٢ (٣ (النجوم الزاهرة : جـ ٧ ص ٣٦٧

(٤) Lamm : Mittelatterliche Glaser p. 427 of CXCVII Mayer : Saracenic Heraldry. pp. 83-4. Wiet. Repertoire XIII pp. 50-51

Artin Pach : escription de quatre Campes en verre émaillé, Bull de Inst. Egyptene.



الملك منصور قلاوون

هو الملك المنصور سيف الدين قلاوون ، أبو المعالى الألفى ، الصالحى النجمى ، وهو السابع من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، تسلطن بعد خلع الملك العادل سلامش فى يوم الأحد ثانى عشر شهر رجب سنة ثمان وسبعين وستمائة ، وتلقب بالملك المنصور ، وجلس على سرير الملك فى اليوم المذكور .

قال الحافظ أبو عبد الله شمس الدين محمد الذهبي : « أن المنصور قلاوون اشترى بألف دينار ، ولهذا كان فى حال امرته يسمى بالألفى ، وكان من أحسن الناس صورة فى صباه ، وأبهاهم وأهيبهم فى رجولته ، كان تام الشكل ، مستدير اللحية قد وخطه الشيب ، على وجهه هيبة الملك وعلى أكتافه حشمة السلطنة ، وعليه سكينة ووقار ، رأيته مرات آخرها منصرفه من فتح طرابلس . وكان من أبناء الستين »[1] .

أصل المنصور قلاوون من مماليك آق سنقر الكاملى ، ثم قدمه إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب صاحب المدرسة الصالحية فأعتقه فى أثناء سنة سبع وأربعين وستمائة ثم انتقل إلى خدمة أمراء المماليك البحرية حتى أيام السلطان الظاهر بيبرس .

سارع الملك المنصور قلاوون إلى تعيين ابنه (على) وليًا للعهد بعد مضى أسبوع واحد على توليه أمر البلاد حتى يتفرغ هو للسفر إلى الشام ومحاربة المغول بها .

لقب المنصور قلاوون ابنه عليا بالملك الصالح وأقام لتنصيبه حفلا ركب فيه ابنه (على)

---

(١) الحافظ أبو عبد الله الذهبى : تاريخ الإسلام .

بشعار السلطنة وشق موكبه القاهرة من باب النصر إلى قلعة الجبل وخطب له على منابر مصر كلها بعد والده وكتب بهذه التولية لبلاد الشام .

أما عن المغول فقد سبق أن التقى بجيشهم الملك (الظاهر بيبرس) وكان جيشهم بقيادة « كتبغا » ودارت موقعة بين الفريقين فى موضع بين مدينتى بيسان ونابلس عرف (بعين جالوت) وكان النصر حليف المصريين وكانت هزيمة المغول مريرة إذ أسر قائدهم (كتبغا) وأمر السلطان قطز بقطع رأسه والطواف بها فى البلاد .

أثارت تلك الهزيمة حفيظة المغول فصمم قائدهم (هولاكو) على الانتقام من مصر حتى يعيد إلى المغول السمعة التى كانت لهم فى الحروب والتى جعلت العالم المعاصر لهم يخشاهم ويرتعد عند ذكرهم لما تركوه فى البلاد التى غزوها من الدمار والخراب وتقتيل الناس بلا وازع ولا تفريق .

وما كادت الأخبار ترد على السلطان المنصور قلاوون بما عزم عليه التتار من الزحف على مصر على رأس جيش يقوده (منكوتمر) أخو هولاكو ، وأنهم فى تقدمهم وصلوا إلى حلب وملكوا ضياعها ، حتى خرج السلطان قلاوون ومعه أمراؤه على رأس جيش كبير قاصدين الشام فلما وصل الجيش القادم من مصر إلى غزة جاءت الأخبار بأن جيش المغول انسحب لما بلغه مجيء السلطان .. وفى انسحابه أحرق الضياع وقتل الرعية أما السلطان فأقام بالرملة وتوقف عن التوجه إلى دمشق لعدم الحاجة إلى ذلك وقصد تخفيف الوطأة عن البلاد وأهلها ، ثم رحل يوم الخميس عاشر شعبان سنة ٦٧٨ هـ من الرملة إلى الديار المصرية فدخلها وأقام بها أقل من أربعة أشهر ثم بدا له التوجه إلى الشام ثانيًا ، فتجهز وتجهزت عساكره وخرج بهم من مصر قاصدًا الشام وترك ولده الملك الصالح عليا يباشر الأمور عنه بالديار المصرية .

نزل السلطان قلاوون قبالة عكا ، فراسله الفرنج من عكا فى تجديد الهدنة التى كانت قد انتهت مدتها فحصل الاتفاق على تجديدها وانعقدت الهدنة ، ثم سار الملك المنصور إلى دمشق فدخلها وتم فيها الصلح بين الملك والمنصور قلاوون وبين سنقر الأشقر الوالى على

---

(١) النجوم الزاهرة : جـ ٧ ص ٣٠٠

دمشق والذى رفض أن يدين بالطاعة للمنصور قلاوون عند توليته حكم مصر ونصب نفسه حاكمًا مستقلا على دمشق وباتمام هذا الصلح توحدت الكلمة وزالت الفرقة واجتمعت عساكر مصر والشام تحت قيادة واحدة .

وبينما السلطان بدمشق ورد إليه نبأ مجيء التتار إلى البلاد الشامية وأنهم على أطراف مدينة حلب ، فخلت المدينة من أهلها وجندها ونزحوا إلى جهة حماة وحمص ، وتركوا الغلال والحواصل والأمتعة وهاموا على وجوههم . شرعت التتار تتقدم قليلا قليلا بخلاف عادتهم ، فلما وصلوا حماه أفسدوا بنواحيها وأحرقوا[1] بستان الملك المنصور صاحب حماة وجوسقه ومابه من الأبنية . استمر عسكر السلطان بظاهر حمص ، فلما بلغها التتار ركب الملك المنصور بعساكره وتقابل مع العدو وكان عدد التتار على ماقيل ألف فارس أو ما يزيدون وعسكر المسلمون على مقدار النصف من ذلك أو أقل وعظم القتال بين الفريقين وثبت كل منهم .

ووصف الشيخ قطب الدين[2] اليونينى تلك الموقعة فقال « وكانت وقعة عظيمة لم يشهد مثلها فى هذه الأزمان ولا فى سنين كثيرة ، وكان الملتقى فيما بين مشهد خالد بن الوليد رضى الله عنه ، إلى بلدة الرستن والعاصى ، واضطربت ميمنة المسلمين ، وحملت التتار على ميسرة المسلمين فكسروها وانهزم من كان بها ، وكذلك انكسر جناح القلب الأيسر وثبت الملك المنصور سيف الدين قلاوون ، رحمة الله عليه ، فى جمع قليل بالقلب ثباتًا عظيمًا ، ووصل جماعة كثيرة من التتار خلف المنكسرين من المسلمين إلى بحيرة حمص ، وأحدق جماعة من التتار بحمص ، وهى مغلقة الأبواب ، وبذلوا نفوسهم وسيوفهم فيمن وجدوه من العوام والسوقة والغلمان والرجالة المجاهدين بظاهرها ، فقتلوا منهم جماعة كثيرة وأشرف الإسلام على خطة صعبة ، ثم أن أعيان الأمراء ومشاهيرهم وشجعانهم : مثل سنقر الأشقر السابق ذكره ، وبدر الدين بيسرى ، وعلم الدين سنجر الدويدارى ، وعلاء الدين طيبرس الوزيرى ، وبدر الدين بيليك أمير سلاح ، وسيف الدين ايتمس السعدى ، وحسام الدين لاجين المنصورى ، والأمير

---

(١) النجوم الزاهرة : جـ ٧ ص ٣٠٣

(٢) النجوم الزاهرة : جـ ٧ ص ٣٠٣ ، ٣٠٤

حسام الدين طرنطاى وأمثالهم لما رأوا ثبات السلطان ردّوا على التتار وحملوا عليهم حملات حتى كسروهم كسرة عظيمة ، وجرح منكوتمر مقدم التتار وقتلوا منهم مقتلة عظيمة تجاوز الوصف . . . إلخ » .

أما السلطان قلاوون فتوجه عائدًا إلى دمشق فخرج الناس إلى ظاهر البلد للقائه ، فدخل دمشق وبين يديه جماعة من أسرى التتار وبأيديهم رماح عليها رءوس القتلى من التتار فكان يومًا مشهودًا ثم سار السلطان إلى الديار المصرية فخرج أهالى دمشق لوداعه مبتهلين بالدعاء له . أما أهل مصر فاحتفلوا بلقائه أعظم احتفال فزينت الديار المصرية زينة لم يرمثلها من مدة وشق السلطان القاهرة فى مروره إلى قلعة الجبل وتضاعف سرور الناس بسلامته وبنصر المسلمين على العدو المخذول .

وقال ابن تغرى[1] بردى « أنه فى مدة حكم الملك قلاوون وفى سنة ٦٨٠ هـ تربت جزيرة جبيرة ببحر النيل تجاه قرية بولاق واللوق وانقطع بسببها مجرى البحر ما بين قلعة المكس وساحل باب البحر والرملة وبين جزيرة الفيل وهو المار تحت منية السيرج وانسد هذا البحر ونشف بالكلية واتصل ما بين المقس وجزيرة الفيل بالمشى ولم يعهد فيما تقدم وحصل لأهل القاهرة مشقة من نقل الماء الحلو لبعد البحر ، فأراد السلطان حفره فنهوه عن ذلك وقالوا له : هذا ينشف إلى الأبد فتأسف السلطان وغيره على ذلك » .

جاء فى الجزء الثانى من خطط المقريزى[2] عند الكلام على اللوق وعلى بولاق وعلى قنطرة باب البحر وعلى جزيرة الفيل : أن شاطىء النيل الشرق القديم تجاه القاهرة كان إلى سنة ٦٨٠ هـ بعد أن يمر فى مجراه الحالى من مصر القديمة إلى قصر النيل وينعطف قليلا إلى الشرق ويمتد فى الأمكنة التى تعرف اليوم بشارع رمسيس من أوله عند مصلحة المجارى ثم يسير فيه إلى ميدان باب الحديد فميدان محطة كوبرى الليمون وبعد أن يمر بشرق مخازن محطة مصر ينعطف شمالا فيسير فى شارع مهمشة ثم مكان جسر السكة الحديد وعند عزبة الخمايسة يميل إلى الشمال الغربى مارًا تحت سكن منية السيرج ثم يسير شمالا إلى المغرب حتى

---

(١) النجوم الزاهرة : جـ ٧ ص ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٠

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١١٧ ، ١٣٠ ، ١٥١ ، ١٨٥

يتصل بمجراه الحالى عند فم ترعة الإسماعيلية . وفى سنة ٦٨٠ هانحسر النيل عن جانب المقس من الجهة الغربية ونقص ماء النيل عن سور مدينة القاهرة الذى كان ينتهى إلى المقس عند ميدان باب الحديد وظهر فى مجرى النيل بجوار الشاطىء القديم جزر من الرمال الفساد وصارت أرض هذا الجزء تتسع وتنضم إلى بعضها حتى أصبحت جزيرة واحدة كبيرة اتصلت من بحريها بجزيرة الفيل ومن قبليها بأرض اللوق ثم طرح عليها البحر فربت وارتفعت أرضها عن منسوب ماء النيل بسبب ما كان يتركه عليها من الطمى سنويًا وأصبحت أطيانها صالحة للزراعة والسكنى .

وفى عهد الملك المنصور قلاوون « كان أول ابتداء سوق[1] المحمل ، ففى الثانى والعشرين من شعبان سنة ٦٨١ هـ طافوا بكسوة البيت العتيق التى عملت برسم الكعبة الشريفة عظمها الله تعالى ، بمصر والقاهرة على العادة ولعبت مماليك السلطان المنصور قلاوون إمام الكسوة بالرماح والسلاح وأضاف ابن تغرى بردى يقول : « وأظن هذا هو أول ابتداء سوق المحمل وأننا لم نقف فيما مضى على شىء من ذلك مع كثرة التفاتنا إلى هذا المعنى ولهذا غلب على ظنى من يوم ذلك بدأ السوق المعهود الآن وإنما ازداد بحسب اجتهاد المعلمين ، كما وقع ذلك فى غيره من الفنون والملاعيب والعلوم » .

فى سنة ٦٨٧ هـ توفى الملك الصالح على ابن السلطان المنصور قلاوون فحزن عليه والده حزنًا شديدًا وكتب القاضى محيى[2] الدين بن عبد الظاهر كاتب السر الشريف عن لسان أبيه الملك المنصور قلاوون إلى نائب الشام وغيره من النواب مطالعات ضمنها ما جرى على السلطان من فقد ولده : فقال عن لسان والده :

« نحمد الله تعالى على حزن حزنا به بالصبر أجورًا فاخرة ، فكان قصدنا أن نجعله ملكا فى الدنيا فاختار الله تعالى أن يكون ملكا فى الآخرة » .

وفى السنة التالية خرج السلطان نحو البلاد الشامية ، فحاصر طرابلس واستمر فى حصارها أربعة وثلاثين يومًا ففتحها بالسيف ووردت البشائر فى الديار المصرية بفتح مدينة طرابلس

---

(١) النجوم الزاهرة : جـ ٧ ص ٣١١

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ص ٩٨ ، ٩٩

وجبيل وطرد الفرنج منهما ولما عاد السلطان قلاوون إلى الديار المصرية زينت له مصر والقاهرة وحملت على رأسه القبة والطير وكان يوم وصوله يومًا مشهودًا .

ومن أعمال السلطان قلاوون الحربية أنه أرسل حملة بقيادة الأمير أيبك الأفرم لتأديب ملك النوبة الذى هجم على مدينة اسوان ونهب أسواقها وأحرق جرونها وعند وصول الحملة إلى مدينة أسوان هرب ملك النوبة فتبعه الجند إلى آخر بلاده وغنموا منه غنائم كثيرة من عبيد وجوار وخيول وأسلحة .

لم يبق فى يد الصليبيين من بلاد الشام سوى مدينة عكا ، لذلك عزم السلطان المنصور قلاوون على تطهير البلاد منهم ، فجرد لذلك حملة عسكر بها فى الريدانية حتى تكامل الجند وعند خروجه من القاهرة كان متوعكا ولبث بمعسكره عند مسجد التبن خارج القاهرة — وتزايدت عليه الحمى وثقل عليه المرض وتوفى فى السادس من ذى القعدة من سنة تسع وثمانين وستمائة وحمل إلى القلعة وتسلطن من بعده ولده الملك الأشرف صلاح الدين خليل .

ذكر ابن تغرى[1] بردى أن السلطان قلاوون جمع من المماليك خلقًا عظيمًا لم يجمعهم أحد قبله ، فبلغت عدتهم اثنى عشر ألفا ، صار منهم الأمراء الكبار والنواب ومنهم من تسلطن من بعده وأضاف قوله وكان من محاسن الملك المنصور قلاوون أنه لايميل إلى جنس بعينه بل كان ميله لمن يتخيل فيه النجابة كائنا من كان . وكانت حرمته على مماليكه عظيمة فلا يستطيع الواحد منهم أن ينهر غلامه ولا خادمه خوفًا منه ، ولا يتجاهر أحد منهم بفاحشة ولا يتزوج إلا أن زوجه هو بعض جواريه ومن محاسن أعمال السلطان قلاوون تربية مماليكه وكف شرهم عن الناس وإن لم يكن له إلا هذا لكفاه ذلك عند الله تعالى ، فإنه كان بهم منفعة للمسلمين ومضرة للمشركين وقيامهم فى الغزوات معروف ، وشرهم عن الرعية مكفوف .

ذكر[2] ابن اياس أن من محاسن السلطان المنصور الغورى أنه غير تلك الملابس الشنيعة التى كانت تلبسها العسكر فى الدول القديمة . قيل كانت كلوتاتهم (غطاء الرأس) من الصوف الأزرق الغميض ، وهى مضربة عريضة بغير شاش ، وكانت المماليك تربى لهم ذوائب من

---

(١) النجوم الزاهرة : ج ٧ ص ٣٢٧ ، ٣٢٨

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ص ١٠١

الشعر خلفهم ويجعلونها فى أكياس حرير أحمر أو أصفر ، وكانوا يشدون فى أوساطهم بنودًا بعلبكية عوضًا عن الحوائص ، وكانت خفافهم برغالى أسود ، وكانوا يشدون فوق قماشهم أبزيم جلد وفيه حلق نحاس وفيها صوالق برغالى أسود ، وهى كبار يسع الصولق الواحد نصف ويبة قمح ، وكان لهم فى ذلك الأبزيم معلقة من الخشب كبيرة وسكين كبيرة وكانت لهم مناديل من الخام قدر فوطة كبيرة لمسح أيديهم ، وكانوا يربون لهم شوارب قدر السلفة الكتان . فلما تولى الملك المنصور قلاوون أمر العسكر أن يغيروا هذه الملابس الشنيعة ويدخلوا فى الهيئة المطبوعة وكانت خلع المقدمين من العنتابى ، فأمر لهم بالخلع المخمل الأحمر والأخضر بالفرو السمور . وهو أول من أسكن المماليك فى أبراج القلعة وسماهم المماليك البرجية

أما ما أبطله المنصور قلاوون فى أيامه من المظالم فقد ذكر[1] ابن اياس أنه توجد من قديم الزمان وظيفة يسمى شاغلها ناظر الزكاة – وهو من يأخذ ممن عنده مال زكاته – فإن مات الرجل صاحب المال أو عدم ماله فيظل القدر المقرر عليه باقياً فى الدفاتر يؤخذ من أولاده أو من وَرثته أو من أقاربه ولو بقى منهم واحد فأبطل الملك المنصور قلاوون ذلك . ومما أبطله من المظالم أنه كان يؤخذ مال من أهل مصر للمبشرين إذا حضرو يبشرون بفتح حصن أو بنصرة عسكر أو بما أشبه ذلك ، وكان يجبى من أهل مصر على قدر طاقتهم فى السعة فأبطل ذلك . وكان يجبى من أهل مصر عند وفاء النيل المبارك ثمن الحلوى والفاكهة والشوى ، برسم السماط الذى يوضع فى المقياس يوم الوفاء ، فأبطل الغورى ذلك عن الناس وجعل مصروفه من بيت المال .

ومن آثار السلطان قلاوون أنه عمل بالقاهرة بين القصرين تربة عظيمة ومدرسة كبيرة وبيمارستانا للمرضى وقد وصف المقريزى هذه الأماكن[2] فى خططه فقال : أنها داخل المارستان الكبير المنصورى يخط بين القصرين بالقاهرة . أنشأها الملك المنصور قلاوون ولم يذكر المقريزى تاريخ إنشاء التربة والمدرسة ، ولكنه ذكر فقط تاريخ الشروع فى بناء المارستان ويبين من الكتابات المنقوشة على مبانى هذه الأماكن الثلاثة أن المارستان بدىء فى عمارته

(١) ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ص ١٠٠

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٤٦٠

فى شهر ربيع الآخر سنة ٦٨٣ هـ وانتهت فى شوال من تلك السنة وأن القبة بدىء فى عمارتها فى شوال سنة ٦٨٣ هـ وانتهت فى صفر سنة ٦٨٤ هـ وأن المدرسة بدىء فى عمارتها فى صفر سنة ٦٨٤ هـ وانتهت فى جمادى الأولى من السنة المذكورة ويجمع هذه التواريخ الثلاثة تاريخ واحد كتب على الباب الرئيسى لهذه العمارة ذكر فيه تاريخ البدء فى البناء وهو شهر ربيع الآخر سنة ٦٨٣ هـ وتاريخ الفراغ منه هو شهر جمادى الأولى سنة ٦٨٤ هـ كما جدد عمارة قلعة حلب وقلعة كركر على جانب الفرات الغربى .

وهذه الأماكن واقعة بشارع المعز لدين الله (شارع بين القصرين سابقًا) بالقاهرة ووجهتها الشرقية المشرفة على الشارع تتكون من قسمين : البحرى منها وهو الواقع على يمين الداخل من الباب الرئيسى هو وجهة التربة وتعلوها القبة ، والقبلى منها وهو الخارج هو وجهة المدرسة المزخرفة بالحنايا المحمولة على عمد من الرخام يتوسطها شبابيك على أشكال جميلة وبين القبة والمدرسة دهليز طويل فيه أبوابهما ، وكان يوصل قديماً إلى المارستان . أما القبة من الداخل فشكلها من أبدع وأجمل القباب المزخرفة بالفسيفساء والخشب المذهب ، يحملها أربعة أعمدة اسطوانية سميكة وطويلة من الجرانيت الأحمر . والجدران مكسوة بالرخام وتحت هذه القبة القبر المدفون به الملك المنصور قلاوون وابنه الملك الناصر محمد .

أما المدرسة فيوجد الآن من مبانيها القديمة الإيوان الشرقى وما فيه من الزخارف الجميلة ثم محرابها البديع . أما المارستان . فقد خربت مبانيه القديمة ولم يبق إلّا أجزاء من بعض قاعاته . وفى سنة ١٩١٥ م أنشأت وزارة الأوقاف مستشفى للرمد بباب خاص على جزء كبير من أرض ــ المارستان المذكور .

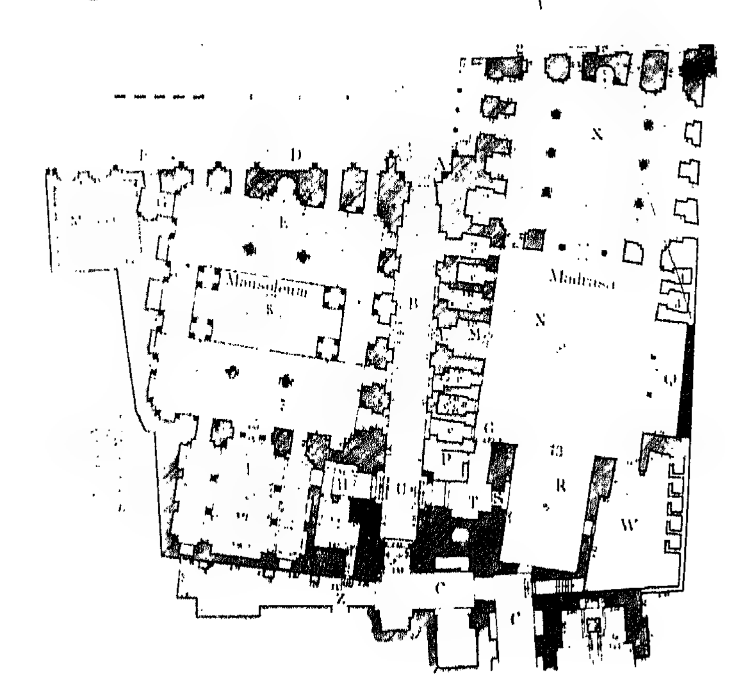
ذكر[١] ابن اياس أن السبب فى بناء السلطان قلاوون للبيمارستان أنه أمر مماليكه بأن يضعوا السيف فى العوام لأمر أوجب تغير خاطر السلطان عليهم لأنهم خالفوا أمره فى شىء بجهلهم فأمر بقتلهم فلعب فيهم السيف ثلاثة أيام ، فقتل فى هذه المدة مالا يحصى عدده ، وراح الصالح بالطالح وربما عوقب من لم يجن ، فلما زاد الأمر عن الحد ، طلع القضاة ومشايخ

---

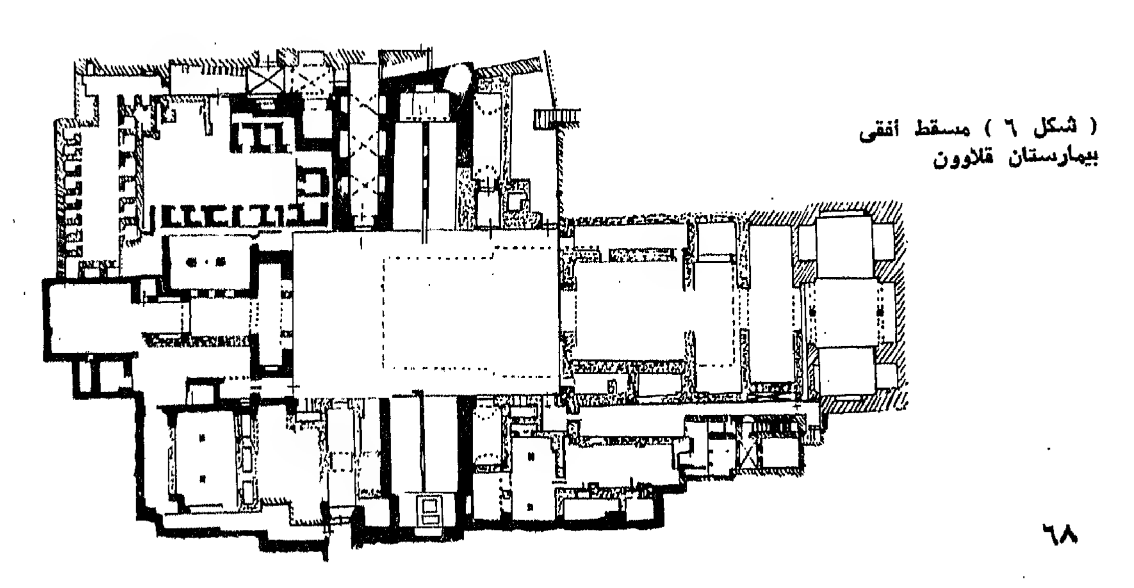
(١) ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ص ٩٦ ، ٩٧

العلم إلى السلطان وشفعوا فيهم ، فعفا عنهم ، وكف عنهم القتل ، فلما جرى ما جرى ، وراق خاطر السلطان ندم على ما فعله ، وبنى هذا البيمارستان وجعل له جملة أوقاف على رواتب بر وإحسان وفعل من أنواع الخير مالا يفعله غيره من الملوك ليكفر الله عنه ما فعله بالناس لعل الحسنات تذهب السيئات كما قال الله تعالى ووقف على البيمارستان أوقافًا كثيرة من ضياع وأملاك وبساتين وغير ذلك من أنواع البر والخير مما لم يسبق لأحد من الملوك من قبله أن يفعله فكان كما قال القائل :

تمشى الملوك على آثار غيرهم   وأنت تخلق ما تأتى وتبتدع



(شكل ٥) مدرسة وضريح المنصور قلاوون



(شكل ٦) مسقط أفقى بيمارستان قلاوون

مدرسة المنصور قلاوون

تقع مجموعة قلاوون فى شارع المعز لدين الله وتتقدمها واجهة كبيرة ممتدة يتوسطها باب كسى عتبه وجانبيا بالرخام الملون وكسيت مصاريعه بالنحاس المخرم والمزخرف بالحفر والتكفيت بالفضية بالذهب برسوم نباتية وحيوانية وهندسية غاية فى الدقة والإبداع . كما خلقت سماعتا الباب على شكل رأس حيوان . ويقع على جانبى هذا الباب مجموعتان من المبانى الشمالية منها تشغلها المدرسة والجنوبية القبة وفى الوسط البيمارستان .

ونخرج من باب الواجهة إلى دهليز ممتد بطول المدرسة والقبة ، سقفه خشبى زخرف بنقوش زيتية جميلة وفتحت فى جوانبه نوافذ وأبواب متقابلة تخص القبة والمدرسة وينتهى الدهليز بعقد كبير يؤدى إلى البيمارستان .

وتتكون المدرسة من صحن مكشوف مستطيل الشكل تتوسطه فسقية وتحيط به الأروقة من جهاته الأربع . ويتقدم الإيوان الشرق عقد كبير يتوسطه عمودان يقسمانه إلى ثلاثة عقود صغيرة والإيوان كثير العمق ويحتوى على صفين من الأعمدة يحتوى كل صف منهما على ثلاثة أعمدة يقسمان الإيوان إلى ثلاثة أروقة عمودية على حائط القبلة ، الأوسط منها أوسعها . ونلاحظ أن إيوان المدرسة المنصورية فريد فى نوعه فى مصر ولذلك فإن بعض علماء الآثار يسمون هذه المدرسة المدرسة الجامع ذلك أنها جمعت بين طراز الجوامع باحتوائها على أعمدة وأروقة وبين المدرسة باشتمالها على إيوانات متعامدة . وقد حليت واجهات عقود هذا الإيوان بزخارف جصية جميلة كما تدل على ذلك بقاياها ، كما زخرفت واجهة الإيوان

بعقدين كبيرين ، يكتنف كلا منهما فتحتان معقودتان مستطيلتان يعلو ذلك شباك مستدير يكتنفه كتفان بكل منهما ثلاثة شبابيك بعضها فوق بعض .

أما أروقة الإيوان فقد وجدت عند مبدأ العقود من الجهتين الشمالية والجنوبية كوابيل أعلى الأعمدة ، ومن رأى الأستاذ محمود أحمد أن هذه الكوابيل كانت تحمل عقودًا لسقف مقبى ، مما يدل على أن السقف الخشبي الذى يغطى الرواق الأوسط الآن حديث ، أما القديم فقد كان مقبيا ، كما يؤيد هذا الظن هو أن سقوف الأروقة الجانبية مكونة من أقباء متقاطعة

وفى صدر الإيوان الشرقى يوجد محراب كبير زخرفت طاقيته (وكوشتى) عقده بزخارف بديعة . من الفسيفساء المذهبة . وبجوار المحراب يوجد منبر بسيط من صنع الأمير أزبك[1] ابن ططخ سنة ٨٩٩ هـ ، أهداه للمدرسة عند ترميمها كما أقام قبة خشبية أعلى الفسقية التى تتوسط الصحن .

أما الإيوان الغربى المقابل لإيوان القبلة فقد ضاعت معالمه لكثرة الإصلاحات والتجديدات التى أجريت له . ويتوسط الضلع الشمالى للمدرسة إيوان صغير يكتنفه ثلاث غرف على كل جانب . ويشبه الإيوان الجنوبى الإيوان الشمالى وإن كانت بعض أجزائه قد تهدمت الآن .

وقد دون على المحراب وكذا أعتاب نوافذ المدرسة تاريخ الانتهاء منها بما نصه :

أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة السعيدة ، مولانا وسيدنا السلطان الأعظم الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحى قسيم أمير المؤمنين أدام الله أيامه وحرس أنعامه ونشر فى الخافقين ألويته وأعلامه . وكان ابتداء عمارتها فى صفر سنة أربع وثمانين وستمائة ، والفراغ منها فى جمادى الأول من السنة المذكورة للهجرة المحمدية » .

وقد ألحق الناصر محمد بن قلاوون بواجهة المدرسة سبيلا وكتابا صدقة على روح والده سنة ٧٢٦ هـ ، على يد الأمير آقوش نائب الكرك . ويعلو السبيل قبة صغيرة كسيت رقبتها ببلاطات من القاشانى عليها كتابات قرآنية غاية فى الابداع ، كما فتحت بالرقبة ثمانى نوافذ خشبية بها زخارف نباتية مفرغة غاية فى الدقة والجمال .

---

(١) ابن إياس : جـ ٢ ص ٢٨٢

قبة المنصور قلاوون

يدخل إلى القبة عن طريق بابين من الدهليز السابق الإشارة إليه ، الأول منهما يؤدى إلى القبة مباشرة والثانى إلى جزء يتقدمها وملحق بها ، وقد سد عبد الرحمن[1] كتخذا الباب الأول المؤدى إلى القبة أثناء العمارة التى أجراها سنة ١١٧٤ هـ. ويتكون الجزء الذى يتقدم القبة من مساحة مربعة يتوسطها صحن مربع مكشوف يحيط به من الجهة الشمالية والجنوبيه ثلاثة أروقة مربعة وفى الضلع الغربى يوجد إيوان كبير أما الضلع الشرقى فيدخل منه إلى القبة ويتوسط هذا الضلع فتحة كبيرة يصعد إليها بثلاث درجات ويتقدمها مدخل ذو ثلاث عقود يقوم على عمودين من الرخام . ويقال أن الإيوان الغربى كان قد اتخذ مكتبه ومعرضا لفظ ملابس من دفن بها من الملوك والسلاطين . وهو ثالث معرض لمخلفات الملوك ، الأول وجد فى مسجد سيدى عقبة بن عامر والثانى معرض شجرة الدر بقبة زوجها الصالح نجم الدين .

أما تصميم القبة فيتكون من قاعدة مربعة يوجد فى وسطها ثمانية أعمدة أربعة منها من الجرانيت وهى متقابلة ومذهبة التيجان والأربعة الأخرى دعائم مبنية بأركان كل منها أربعة أعمدة من الرخام . ويجمع الأعمدة الجرانيتية والدعائم من أعلى أفريز رخامى دقيق الصنع فوقه أفريز به نقوش مذهبة ويعلو ذلك كله أفريز ثالث به كتابات قرآنية وتاريخ تجديد القبة وذلك بحروف مذهبة على أرضية زرقاء .

---

(١) الجبرتى جـ ٢ ص ٦ ، الخطط التوفيقية جـ ٥ ص ١١٠

وقد حليت باطن العقود التى تعلوها العمد والدعائم الثمانية بزخارف جصية كما حليت حافتها بنقوش مذهبة ، كما فتح بأضلاع المثمن العليا نوافذ قندلية ملئت بالجص والزجاج الملون وزخرفت نهايتها بزخارف جصية مورقة ثم مقرنصات وفوق ذلك تقوم القبة الخشبية . وقد شبه الأستاذ حسن[1] عبد الوهاب تصميم هذه القبة بقبة الصخرة ببيت المقدس ولكنى أرى أن الفرق بينهما كبير ، فقبة الصخرة تخطيطها الخارجى مثمن وقبة قلاوون مربعة . والقبة التى تعلو قبة الصخرة تقوم على أعمدة تعلوها رقبة مستديرة بينما تعلو قبة ضريح قلاوون رقبة مثمنة .

أما الجزء الأسفل من المثمن فقد أحيط بمقصورة خشبية حليت بنقوش وكتابات أمر بعملها الناصر محمد بن قلاوون وكتب اسمه عليها . وبوسط المثمن قبر عليه بقايا تابوت من الخشب المنقوش وعليه كتابات كوفية ونسخية جاء فيها : « الدنيا والدين قلاوون الصالحى سلطان الإسلام والمسلمين قدس الله روحه ونور ضريحه انتقل إلى رحمة الله تعالى...» وقد دفن بهذا القبر المنصور قلاوون وابنه الناصر محمد وابنه عماد الدين إسماعيل بن محمد ابن قلاوون . وقد زخرف جدران القبة المربعة وأرضيتها وفتحات النوافذ والدواليب الحائطية التى تزخر بها الجدران بزخارف متعددة بعضها من الفسيفساء الرخامية ومن الصدف والأبستر ومن الخشب المطعم بالصدف والعاج كما زخرف بمجموعة من الكتابات المتعدد الأساليب فقد استعمل فيها الخط الكوفى المربع الذى كتب به اسم (محمد) صلوات الله عليه اثنتى عشر مرة . كما ملئت النوافذ بالجص المخرم والزجاج الملون إلى غير ذلك مما لانستطيع أن نحيط به الحصر .

وقد غطى ما حول المثمن بسقف خشبى مكون من حقاق سبق استعمالها فى قبة الإمام الشافعى وفى قبة الملك الصالح نجم الدين أيوب وقد طليت هذه الحقاق وغيرها من الزخارف الخشبية برسوم مذهبة وزيتية متعددة الألوان .

وفى وسط الضلع الشرقى من مربع القبة يوجد أكبر وأجمل محراب فى عمارة مصر الإسلامية ، يكتنف كلا من جانبيه ثلاثة عمد رخامية وبتجويفه أربعة أشرطة من الزخارف

(١) تاريخ المساجد الأثرية ص ١١٩

المحارية مذهبة محمولة على عمد من القاشانى الترجوازى . وباقى المحراب مرصع بالرخام والصدف البديع الصنع .

وقد نقش على باب القبة تاريخ إنشاءها بما نصه : أمر بإنشاء هذه القبة الشريفة المعظمة مولانا وسيدنا السلطان الأعظم الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحى قسيم أمير المؤمنين أدام الله أيامه وحرس أنعامه ونشر فى الخافقين الويته وأعلامه ، وكان ابتداء عمارته فى شوال سنة ثلاث وثمانين وستمائة والفراغ منها فى صفر سنة أربع وثمانين وستمائة للهجرة المحمدية النبوية » .

ويشك الأستاذ حسن عبد الوهاب فى إمكان اتمام مثل هذه القبة فى خمسة شهور كما هو وارد فى النص السابق ويؤيده فى رأيه كثير من المؤرخين نذكر منهم ابن الفرات[1] الذى قال : « وإذا شاهد الرائى هذه العمارة العظيمة واتساع فضائها وعلو أسوارها ومكنة بنيانها ، ثم سمع أنها عمرت فى هذه المدة القريبة ، ربما أنكر ذلك » وفى النهاية الشمالية لواجهة عمائر المنصور قلاوون تقع المئذنة المكونة من ثلاثة طوابق ، الأول والثانى منها مربع والطابق الثالث اسطوانى تعلوه خوذة أضيفت حديثًا . وقد كسيت طوابق المنارة بزخارف جصية غاية فى الدقة والابداع . وقد كانت لهذه المنارة أهمية خاصة فى العصور الوسطى فقد كان قاضى القضاة يعلن رؤيا هلال رمضان من فوقها .

---

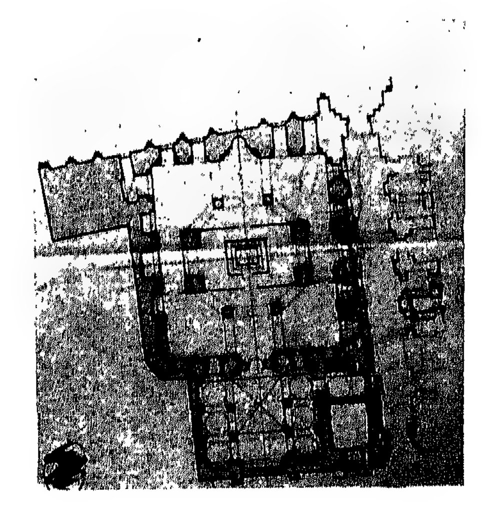
(١) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ٩ (طبع بيروت سنة ١٩٣٩) .

وصف البيمارستان

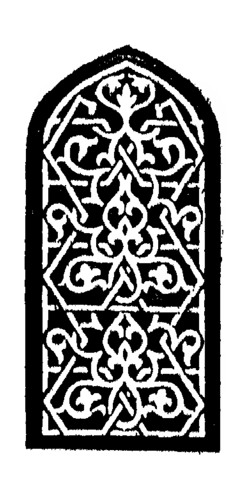
يصف المقريزى البيمارستان الذى قام بعمله علم الدين الشجاعى ، فقال أنه أبقى قاعة ست الملك على حالها وعملها بيمارستانا . وهى ذات إيوانات أربعة بكل إيوان شاذروان ــ (سلسبيل) ويدور قاعتها فسقية يصير الماء إليها من الشاذروان . ولم يبق من البيمارستان القديم سوى قسم من الإيوان الشرقى به فسقية رخامية تنساب إليها المياه على سلسبيل صغير . كما يوجد نوافذ تحيطها أفاريز بها كتابات كوفية . كذلك توجد بقايا من الإيوان الغربى وبه سلسبيل حليت حافته برسوم حيوانية تنحدر عليها المياه إلى فسقية فمجراه من الرخام تتلاقى مع المجراه المقابلة لها .

وقد بقى البيمارستان يؤدى وظيفته إلى سنة ١٨٥٦ م ، فلم يبق به سوى أصحاب الأمراض العقلية الذين نقلوا منه إلى ورشة الجوخ فى بولاق ، ثم نقلوا إلى العباسية سنة ١٨٨٠ م . وتحول البيمارستان بعد ذلك لمعالجة جميع الأمراض ثم اقتصر على أمراض العيون ويتبع لوزارة الأوقاف منذ سنة ١٩١٥ م .

وقد زار السلطان قلاوون البيمارستان بعد الفراغ من إنشائه وتناول قدحًا من شرابه وقال : « قد وقفت هذا على مثلى فمن دونى وجعلته وقفا على الملك والمملوك والذكور والآناث والكبير والصغير والحر والعبد والجندى والأمير » .



(شكل ٧) قبة المنصور قلاوون



مدرسة وقبة الأمير حسام الدين طرنطاى المنصورى

سنة ٦٨٩ هـ

بحارة الوزيرية خلف محكمة الاستئناف الوطنية بباب الخلق

هو طرنطاى بن عبد الله المنصورى الذى رباه الملك المنصورى قلاوون صغيرًا ورقاه فى خدمته حتى تقلد قلاوون كرسى السلطنة جعله نائب السلطنة بالديار المصرية بدلا من الأمير عز الدين أيبك الأفرم الصالحى وخلع عليه فى يوم الخميس رابع عشر رمضان سنة ثمان وسبعين وستمائة فباشر أمر نيابة السلطنة مباشرة حسنة وفى سنة ٦٨٥ هـ خرج من القاهرة بالعساكر إلى الكرك وكان فيها الملك المسعود نجم الدين خضر وأخوه بدر الدين سلامش ابنا الملك الظاهر بيبرس ونازل الكرك حتى أخذ المدينة بالأمان وأرسل البشارة بذلك إلى السلطان بقلعة الجبل وعند عودته خرج السلطان إلى لقائه وأكرمه ورفع قدره ثم بعثه إلى أخذ صهيون وربها سنقر الأشقر فسار الأمير حسام الدين إليها بالعساكر من القاهرة ونازلها وحصرها حتى نزل إليه سنقر بالأمان وسلم إليه قلعة صهيون وسار به إلى القاهرة فخرج السلطان إلى لقائه وأكرمه ولم يزل على مكانته إلى أن مات الملك المنصور وقام فى السلطنة بعده ابنه الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون فاستتا به أيامًا إلى أن رتب أموره ودبر ودبر أحواله فلما رسخت قدم الأشرف فى السلطنة أمسكه وكان فى نفسه منه موجدة من أيام والده إذ كان الأمير حسام الدين يطرح جانبه فى أيام أبيه ويغض عنه ويهين نوابه ويؤذى من يخدمه لأنه كان يميل إلى أخيه الملك الصالح علاء الدين على بن قلاوون فلما مات الصالح على وانتقلت ولاية العهد إلى الأشرف خليل بن قلاوون مال إليه غير أن السلطان كان منحرفًا عنه وقد نقل إليه أن الأمير حسام الدين يتحدث سرًا فى افساد نظام المملكة وإخراج الملك

عنه وأنه قصد أن يقتل السلطان وهو راكب فى الميدان الأسود الذى تحت قلعة الجبل عندما يقرب من باب الاصطبل فلم يحتمل السلطان ذلك ونزل الأشرف منجواده واستدعى الأمير طرنطاى فمنعه الأمير زين الدين كتبغا المنصورى من الدخول إليه بالاصطبل وحذره منه وقال له لاتدخل عليه إلا فى عصبة تعلم أنهم يمنعونك منه إن وقع أمر تكره فلم يعبأ لقوله ظنا منه أن أحدًا لايجسر عليه لمهابته فى القلوب ومكانته من الدولة وأن الأشرف لايبادره بالقبض عليه . فلما وقف على عادته بين يدى السلطان بادر إليه جماعة أعدها السلطان وقبضوا عليه وأوسعوه بالكم من كل جانب والسلطان يعدد ذنوبه[1] ويذكر له اساءته وسلط عليه العذاب وسلمه الأشرف إلى الأمير علم الدين سنجر الشجاعى الذى كانت بينه وبين الأمير حسام الدين عداوة على الرتبة وأمره بتعذيبه فأذاقه العذاب ألوانًا حتى مات شهيدًا وصبر على العذاب صبرًا لم يعهد مثله عصر إلى أن هلك وجاء بالنجوم الزاهرة : « أنه لما غسلوه وجدوه قد تهرأ لحمه وتزايلت أعضاؤه وأن جوفه كان مشقوقًا كل ذلك ولم يسمع منه كلمة » .

وكانت وفاة الأمير حسام الدين أبو سعيد طرنطاى سنة تسع وثمانين وستمائة وكان مفرط الذكاء غزير العقل مدبرًا لأحوال السلطنة مرتبًا لأمورها وكان له مواقف مع العدو وغزوات مشهورة وفتوحات وبنى مدرسة حسنة بقرب داره بخط البندقانيين بالقاهرة وقبة وله أوقاف على الأسرى وغيرها وقد ظل جثمان الأمير حسام الدين مطروحًا بحبس القلعة ثمانية أيام ثم أخرج ولف فى حصير وحمل إلى زاوية الشيخ أبى السعود بالقرافة فغسله الشيخ عمر السعودى شيخ الزاوية وكفنه من ماله ودفنه خارج الزاوية ليلا وبقى هناك إلى سلطنة العادل كتبغا فأمر بنقل جثته إلى تربته التى أنشأها بمدرسته .

وجاء بالنجوم الزاهرة[2] أن تاج الدين بن الشيرازى المحتسب المتوفى سنة ٧١٢ هـ أنه ذكر أنهم وجدوا فى خزانة طرنطاى من الذهب العين ألفى ألف دينار وأربعمائة ألف دينار وألفى حياصة ذهب وألف وسبعمائة كلوتة مزركشة ، ومن الدراهم مالا يحصى .

وجاء فى السلوك[3] : وأوقع الحوطة على موجودة فوجد له من الذهب العين ألف ألف

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٨٦

(٢) ابن تغرى بردى : جـ ٧ ص ٣٨٩

(٣) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٧٥٨

وستمائة ألف دينار مصرية ومن الفضة سبعة عشرة ألف رطل ومائة رطل بالمصرى . ومن العدد والقماش والخيول والمماليك والبغال والجمال والغلال والآلات والأملاك والنحاس المكفت[1] والمطعم[2] والزردخاناه[3] والسروج واللجم وقماش الطشتخاناه والركاب خاناه والفراش خاناه والحوائص[4] والبضائع والقارضات والودائع والقنود والأعسال مالا يحصر .

وقال غيره : وجد لطرنطاى ألف ألف دينار وستمائة ألف دينار . ثم ذكر أنواع الأقمشة والخيول والجمال والبغال والمتاجر ما يستحى من ذكره كثره. ومات طرنطاى المذكور ولم يبلغ خمسين سنة من العمر[5] .

ولما حملت أموال طرنطاى إلى الأشرف قال : « من عاش بعد عدوه يومًا فقد بلغ المنى » . وبعد أيام من مقتل طرنطاى سئل ولده الحضور ، فلما وقف بين يدى الأشرف ، إذا هو أعمى فبكى ومد يده كهيئة السائل وقال « شىء لله » وذكر أن لأهه أيامًا ما عندهم ما يأكلون. فرق له (السلطان) وأفرج عن أملاك طرنطاى وقال « تبلغوا بريعها »[6] .

---

(١) النحاس المكفت هو المطلى سطحه كله أو جزء منه فقط بمعدن آخر يكون ثميناً كالذهب و الفضة (: Quatremere op. cit. II p. 144 . غير أن المقريزى (المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ١٠٥) يقول فى باب سوق الكفتيين أن الكفت « هو ما تطعم به أوانى النحاس من الذهب والفضة » ، أى أن التكفيت هو التطعيم . وقد ذكر المقريزى أيضاً (نفس المرجع والجزء والصفحة) أنه « كان لهذا الصنف من الأعمال بديار مصر رواج عظيم وللناس فى النحاس المكفت رغبة عظيمة ... فلا تكاد دار تخلو بالقاهرة ومصر من عدة قطع نحاس مكفت ، ولابد أن يكون فى شورة العروس دكة نحاس مكفت والدكة عبارة عن شىء شبه السرير ، يعمل من خشب مطعم بالعاج والأبنوس أو من خشب مدهون ، وفوق الدكة دست (كذا) طاسات من نحاس أصفر مكفت بالفضة ، وعدة الدست سبع قطع بعضها أصغر من بعض ، تبلغ أكبرها ما يسع نحو الأردب من القمح ، وطول الأكفات التى نقشت بظاهرها من الفضة نحو الثلث ذراع فى عرض أصبعين ، ومثل ذلك دست أطباق عدتها سبعة بعضها فى جوف بعض ، ويفتح أكبرها نحو الذراعين وأكثر ، وغير ذلك من المنابر (كذا) والشرج وأحقاق الأشنان ، والطشت والإبريق والمبخرة ، فتبلغ قيمة الدكة من النحاس المكفت زيادة على مائتى دينار ذهباً ، وكانت العروس من بنات الأمراء أو الوزراء أو أعيان الكتاب وأماثل التجار تجهز فى شورتها عند بناء الزوج عليها سبع دكك : دكة من فضة ، ودكة من كفت ودكة من نحاس أبيض ، ودكة من خشب مدهون ، ودكة من صينى ، ودكة من بلور ، ودكة مداهى (كذا) ، وهى آلات من ورق مدهون تحمل من الصين » .

(٢) النحاس المطعم هو المنقوش (Incrusté) بخيوط من الذهب أو الفضة ، أو هما معاً (Quatremere : op. cit. II p. 144) ، وقد يطعم الخشب بالأبنوس أو العاج .

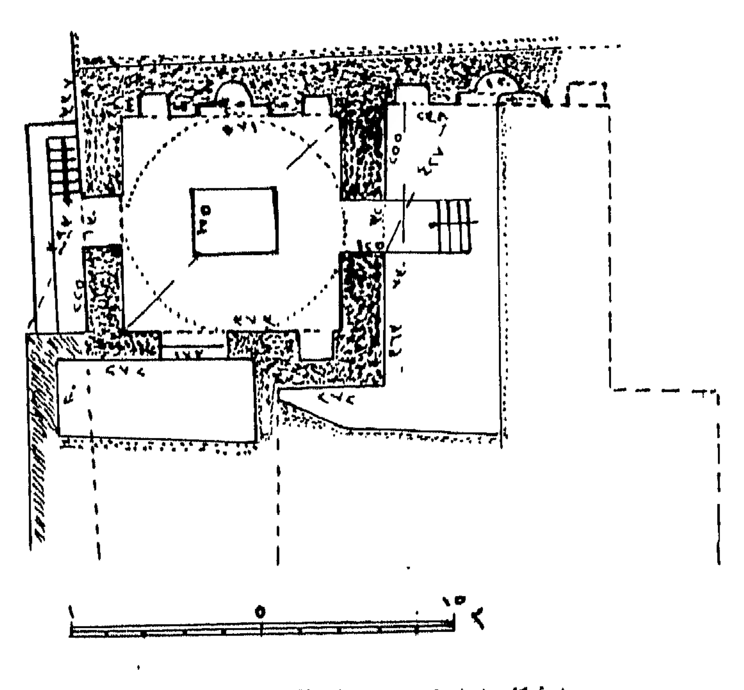
(٣) الزرد : هى السلاسل المعدنية التى تعمل بها الملابس الواقية فى الحرب والخان بمعنى المكان .

(٤) الحوائص هى المناطق (الأحزمة) وكان ثمن حوائص الأجناد أربعمائة درهم فضة ثم عمل المنصور قلاوون حوائص الأمراء الكبار بثلثمائة دينار وأمراء الطبلخانة مائتى دينار ومقدمى الحلقة من مائة وسبعين إلى مائة وخمسين دينارا ، وكانوا يتخذونها من الذهب ومنها ما هو مرصع بالجواهر (المقريزى الخطط جـ ٢ ص ٩٩) .

(٥) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٧٥٧ — (٦) ابن إياس : جـ ١ ص ٣٦٥

وممن تولى مشيخة هذه المدرسة قاضى الحنفية فى القرن التاسع برهان الدين إبراهيم ابن زيد الدين بن إبراهيم بن زين الدين عبد الرحمن بن إسماعيل الكركى الحنفى كان عالماً ومن رؤساء الحنفية ، وكان إمام الأشرف قايتباى وولى عدة وظائف سنية فقد ولى قاضى قضاة الحنفية مرتين .

وقد أقام الأمير طرنطاى كثيراً من المنشآت التجارية فقد أنشأ فندقاً فى خارج البحر ظاهر المقس (باب الحديد الآن) كان ينزل فيه تجار الزيت الواردون من الشام وكان فيه ستة عشر عموداً من الرخام طول كل عمود ستة أذرع (معمارى) وكان يعلو الفندق ربع كبير ، فلما وقعت حريق القاهرة فى سنة إحدى وعشرين وسبعمائة خسر التجار كمية من الزيت بلغ قيمة ما أُخذ عليها من المكوس عشرين ألف درهم فضة نقره ، هذا بالإضافة إلى أصناف أُخرى بلغت قيمتها تسعين ألف درهم نقره . وقد اندثر هذا الفندق بعد هذا الحريق المروع .



(شكل ٨) ضريح حسام الدين طرنطاى

الـوصف المعـمارى

يتكون الضريح كما هو العادة دائماً من مكعب يبلغ طول ضلعه سبعة أمتار تقريبًا طولا وعرضًا ، (٦ر٢٩) أمتار فى الارتفاع . ويعلو المكعب منطقة انتقال التى تتكون من ثلاث درجات من الخارج يبلغ إرتفاعها (٢ر٦٢) متر . ثم يتوج هذا المكعب قبة يبلغ إرتفاعها (٥ر١١) مترًا ، أى أن منطقة الاتفاع مع القبة يبلغ ارتفاعهما (١٤) مترًا .

ولكى ندخل إلى هذا الضريح الذى انخفض عن مستوى أرض الشارع يجب علينا أن ننزل قالبة من الدرجات حتى نصل إلى المدخل (ا) الذى يقع فى الجهة الشمالية منه ويبلغ اتساعه (١ر٣٠) متر . ويبلغ طول ضلع الضريح من الداخل (٥ر٧٠) أمتار تقريبًا ، أما سعة المحراب المجوف فيبلغ (٢ر٤١) متر يحيط به إطار من الزخارف الجصية يبلغ ارتفاعه (٥ر٧١) أمتار .

ويحيط بالضريح شريطًا من الخشب الأول يبعد عن أرضية الضريح بمقدار (٣ر٥) أمتار ما تزال عليه بقايا كتابات ملونة . ويعلو جدار الضريح وعند نهاية إطار المحراب وبداية منطقة الانتقال يوجد الشريط الخشبى الثانى وهو أضيق من الأول .

وتتكون منطقة الانتقال من الداخل من ثلاثة صفوف كل منها يتكون من خمسة مقرنصات ويعلو ذلك جميعًا صف مكون من أربع وعشرين حنية ثمان منها مفتوحة ، وهذا الصف الأخير يكون بداية القبة فى الواقع . وبين مقرنصات منطقة الانتقال توجد أربع نوافذ تتكون كل منها من ست فتحات . ويعلو الصف الرابع من الحنيات شريط عريض تحتوى على كتابات محصورة فى ثمانية بحور (round-ended) يتخللها جامات . وفى سمت القبة توجد دائرة كبيرة بها كتابات فى وضع دائرى .

وفى الجهة الجنوبية وفى مقابل باب المدخل يوجد باب آخر (ب) يؤدى إلى فناء (جـ) يشغل ضلعه الجنوبى منزل حديث . وفى الضلع الشرقى لهذا الفناء نجد محرابًا عقده ذو زاوية اختبأ جزء منه . كذلك نجد بداية عقد (د) ، وعلى ذلك يمكن القول بأن هذا الفناء كان

يكون جزءًا من إيوان المدرسة التى أشار إليها المقريزى[1] وقال أن الأمير حسام الدين طرنطاى بناها بجوار ضريحه الذى دفن فيه .

ولابد وأن تكون مساحة هذا الإيوان ٧٫٥٠ أمتار عمقًا و ٦ م وسعًا وفتحته معقودة وسقفه مسطح . وإذا صعدنا إلى سطح جامع الأفضل الملاصق للحائط الغربى للضريح نجد أن حائط الإيوان يمتد إلى بداية قبة الضريح ، كما نلاحظ رءوس أوتاد خشبية بارزة وهى التى كانت تستعمل لتثبيت شريط خشبى عليها كما هو الحال فى جامع بيبرس وضريح فاطمة خاتون والأشرف خليل .

وإذا ما عبرنا الركن الجنوبى الغربى متجهين إلى الضلع الغربى نجد حنية بسيطة يعلوها عقد ذو زاوية (Keel) سعته (١٫٧٠) متر يزخرفه رسوم جصية دقيقة مكونة من مراوح نخيلية مسننة عند (و) وبقايا أخرى مشابهة عند (ز) .

ويبلغ طول ضلع الصحن الذى يحيط بالقبة (١١٫٤٠) مترًا . والفتحة الموجودة بالضلع الغربى التى تؤدى إلى (ح) ، ليست قديمة وخاصة بشكلها الحالى وذلك لاتساعها الكبير ، كما أن الغرفة (ح) استحدثت فيما بعد عندما بنى المسجد العثمانى المجاور لها ، كما هو واضح فى (التخطيط) . ومن المرجح أن تكون الحجرة (ح) قد حلت محل حجرة سابقة كان تؤدى إلى القبة وإلى الصحن فى نفس الوقت .

ويوجد المدخل الرئيسى للقبة فى الضلع الشمالى (ا) وهو منخفض عن سطح الأرض ولذا فهو يتقدمه سور وقلبه من خمس درجات يصعد بها إلى مستوى الطريق . ويعتقد الأستاذ كرزويل أن هذا المدخل مستحدث وأنه بنى فيما بعد عندما تهدمت القبة والضريح ، ولكنى لا أتفق معه تمامًا فى هذا الرأى ، لأن هذا المدخل يقابله تمامًا فى الضلع الجنوبى للقبة باب آخر يؤدى إلى صحن الضريح (ب) والفتحتان فى الجدران الأصلية للقبة .

التـــاريخ :[2]

لقد نقش على التابوت الخشبى النص التالى : هذا قبر الفقير إلى الله الأمير الجليل حسام الدين طرنطاى المالكى المنصورى ، توفى يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من شهر ذى القعدة

---

(١) الخطط جـ ٢ ص ٣٨٦

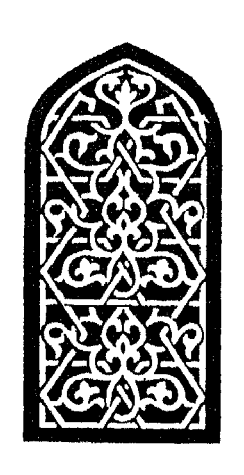
(٢) Wiet : Repertoire vol. XIII p. 80 - 81.

من سنة ستمائة وتسعة وثمانين (نوفمبر سنة ١٢٩٠ م) . وبرغم أن هذا النص يعطينا تاريخ الوفاة إلا أنه لم يذكر فى النص إذا كان الضريح قد بنى قبل أو بعد وفاة الأمير . وكما تحدثنا المراجع التاريخية بأن الأمير حسام قد قتل بعد وفاة سيده المنصور قلاوون بثمانية أيام وأن جثمانه قد غسل فى زاوية أبى السعود العشائر بالقرافة الصغرى ودفن بالقرب منها . وقد بقيت جثته فى مكانها حتى تولى السلطنة العادل كتبغا فأمر بنقل جثمان طرنطاى إلى تربته التى أنشأها بمدرسته الحسامية بخط المسطاح بحارة الوزيرية[١] . وعلى ذلك فمن المرجح أن يكون الضريح قد بناه طرنطاى فى عهد مولاه المنصور قلاوون وقبل وفاته مباشرة فى[٢] سنة ٦٨٩ هـ .

---

(١) النجوم الزاهرة : جـ ٨ ص ٣٨٤ (محمد رمزى فى الهامش) .

(٢) Creswell : Egypt vol. II p. 219



ضريح الملك الأشرف خليل

سنة ٦٩٠ هـ

بشارع الخليفة بقسم الخليفة

هو السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفى الصالحى النجمى ، جلس على العرش يوم وفاة أبيه فى يوم الأحد سابع ذى القعدة سنة تسع وثمانين وستمائة . وكان والده قلاوون قد وكل إليه أمر السلطنة فى حياته بعد موت أخيه الملك الصالح على بن قلاوون فى سنة سبع وثمانين وستمائة ، ثم تربع على تخت الملك بعد موت أبيه بعد أن جدد الأمراء والجند الحلف بالولاية له .

طلب الملك الأشرف من القاضى فتح الدين بن الظاهر تقليده[1] ، فأخرجه إليه مكتوبا بغير علامة الملك المنصور ، وكان ابن عبد الظاهر قد قدمه إلى الملك المنصور ليعلم عليه فلم يرض وتقدم طلب الأشرف وتكرر وابن عبد الظاهر يقدمه إلى الملك المنصور ، والمنصور يمتنع إلى أن قال له : يا فتح الدين ، أنا لا أولى خليلا على المسلمين ومعنى هذا أن المنصور لا يرتاح لخلق وصفات ولده خليل ومن ثم فقد ندم على توليته العهد بعده ومن ثم فقد رفض التوقيع عليه فلما رأى الأشرف التقليد بلا علامة . قال : يا فتح الدين ، السلطان امتنع أن يعطينى وقد أعطانى الله ! ورمى التقليد من يده وتم أمره ، ورتب أمور الديار المصرية ، وكتب بسلطنته إلى الأقطار وأرسل الخلع إلى النواب بالبلاد الشامية .

والأشرف خليل هو السلطان الثامن من ملوك دولة المماليك البحرية وأولادهم . ولما باشر الأشرف أمور السلطنة خلع على أرباب وظائفه بمصر ومنهم الأمير بيدرا المنصورى نائب

---

(١) معناه الاصطلاحى ما يكتب عن السلطان لأرباب السيوف و الأقلام وغيرهم ومعناه هنا العهد .

السلطنة بالديار المصرية ، ووزيره ومدبر مملكته شمس الدين محمد بن السلعوس الدمشقى : وهو فى الحجاز الشريف . وعلى بقية أرباب وظائفه وعلى نوابه بالبلاد الشامية فقد كان نائبه بدمشق وما أضيف إليها من الشام ، هو الأمير حسام الدين لاجين المنصورى ، ونائب السلطنة بالممالك الجلية وما أضيف إليها الأمير شمس الدين قرا سنقر المنصورى ، ونائب الفتوحات الساحلية والأعمال الطرابلسية الأمير سيف الدين تلبان السحلدار المعروف بالطباخى ونائبه بالكرك والشوبك وما أضيف إليها الأمير ركن الدين بيبرس الدادار المنصورى ، صاحب التاريخ المعروف (بتاريخ بيبرس الدوادار) . وصاحب المعره الملك المظفر تقى الدين محمود ابن الملك المنصور محمد الأيوبى . والذين هم تحت طاعته من الملوك صاحب مكة المشرفة الشريف نجم الدين الوغى محمد بن إدريس بن على بن قتادة الحسنى وصاحب اليمن الملك المظفر شمس الدين يوسف بن عمر . وهؤلاء هم الذين أرسل إليهم بالخلع والتقاليد .

وفى عام ٦٩٠ هـ أخذ الملك الأشرف فى التجهيز للسفر إلى البلاد الشامية ، وإتمام ما كان قد قصد إليه والده من حصار عكا ، فأرسل إلى البلاد الشامية بعد أن استتب له أمر الملك ، فجمع العساكر وعمل آلات الحصار وجمع الصناع . خرج بعساكره من الديار المصرية وسار حتى نازل عكا فى يوم الخميس رابع شهر ربيع الآخر سنة ٦٩٠ هـ بما اجتمع عنده من جند مصر وجند الشام والعديد من المتطوعين ، ونصب عليها المجانيق الكبار[١] الفرنجيا خمسة عشر منجنيقًا ، منها ما يرمى بقنطار دمشق ، وأكبر ومنها دونه . وأما المجانيق - الشيطانية وغيرها فكثيرة[٢] .

ولما ضاق الخناق بأهل عكا استنجدوا بصاحب قبرس ، فقدم إليهم فأشعلوا نيرانًا عظيمة فرحًا بقدمه ، غير أنه لما رأى انحلال أمرهم وعظم ما دهمهم ، عاد إلى بلاده بعد أن لبث فيهم ثلاثة أيام .

---

(١) صبح الأعشى جـ ٢ ص ١٣٧ : المجانيق جمع منجنيق ، وهو آلة من خشب لها ذمتان قائمتان بينهما سهم طويل رأسه ثقيل وذنبه خفيف وفيه كفة المنجنيق التى يجعل فيها الحجر ، يجذب حتى ترفع أسافله على أعاليه ، ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذى فيه الكفة فيخرج الحجر منه فما أصاب شيئاً إلا أهلكه .

(٢) عيون التواريخ وجواهر السلوك ص ١٦٥ « وأما عكا فإنهم نصبوا عليها اثنين وسبعين منجنيقاً ما بين أفرنجية وشيطانية » . وفى السلوك للمقريزى جـ ١ ص ١٢٥ » وعدتها اثنان وتسعون منجنيقاً » .

لم يزل الحصار يطوق مدينة عكا والمسلمون يجدون فى الاستيلاء عليها حتى انحلت عزائم من بالمدينة وضعف أمرهم واختلفت كلمتهم .

فلما كان فجر يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأولى ، ركب السلطان والعساكر وزحفوا عليها قبل طلوع الشمس وعند ملاصقة عسكر السلطان لسور المدينة ، هرب الفرنج ، وملكت المدينة بالسيف ، ولم تمض ثلاث ساعات من النهار المذكور ، إلا وقد استولى المسلمون عليها ودخلوها ؛ فهرب الفرنج قاصدين البحر فتبعتهم العساكر الإسلامية وأسرتهم ولم ينج منهم إلّا القليل . غير أن جماعة الديوية والاستبارية عصوا أمر التسليم كما استتر الأرمن فى أربعة أبراج عالية فى وسط المدينة فحصروا فيها .

وفى اليوم الثانى لفتح المدينة ، قصد جماعة من الجند وغيرهم الدار والبرج الذى فيه الديوية فطلب من فيهما الأمان فأمنهم السلطان وفى اليوم الثامن والعشرين من جمادى المذكورة أخذ السلطان البرج الذى بقى بعكا وأنزل من فيه بالأمان ، وكان قد أُغلق من سائر جهاته ، فعزل السلطان النساء والصبيان ناحية وضرب رقاب الرجال أجمعين . والعجيب[1] أن الله سبحانه وتعالى قدر فتح عكا فى مثل اليوم الذى أخذها الفرنج فيه ، ومثل الساعة التى أخذوها فيها ، فإن الفرنج كانوا قد استولوا على عكا فى يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة فى الساعة الثالثة من النهار وأمنوا من كان بها من المسلمين ثم قتلوهم غدرًا . وقدر الله تعالى أن يسترجعها المسلمون منهم فى هذه المرة يوم الجمعة فى الساعة الثالثة من النهار ، ووافق السابع عشر من جمادى الأولى وأمنهم السلطان ثم قتلهم كما فعل الفرنج بالمسلمين ، فانتقم الله تعالى من عاقبتهم .

جهز السلطان عند منازلته عكا جماعة من الجند جعل مهمتهم حفظ الطرق وتعرف أخبار الفرنج المنهزمين ، فلم يشعر الأمير علم الدين سنجر الصوابى رئيس تلك الحملة ، إلا ومواكب الفرنج المنهزمين من عكا قد قصدت ميناء صور ، فحال بينهم وبين الميناء ، فطلب أهل صورا أمانا فأمنهم على أنفسهم وأموالهم فسلموه المدينة وقد كانت صور من الموانى الحصينة حتى أن صلاح الدين الأيوبى لم يستطع فتحها فيما فتح من مدن الساحل ، بل كان صلاح الدين كلما فتح مكانًا وأمن أهله أوصلهم إلى صور لمناعتها . وأخيرًا ألقى الله فى قلوب أهلها الرعب فسلموها من غير قتال إذ لم يكن أمر الاستيلاء عليها يدور فى خلد الملك الأشرف .

---

(١) النجوم الزاهرة : ج ٨ ص ٨

رحل الملك الأشرف عن عكا قاصدًا دمشق فزينت له المدينة واحتفل بقدومه احتفالا عظيمًا ولما استقر بدمشق شرع فى تجهيز حملة لإخضاع بلاد سيس ، غير أن رسل صاحبها أظهروا الطاعة وطلبوا رضاء السلطان عليهم مع استعدادهم لإعطاء السلطان كل ما يطلبه من قلاع أو مال فتم الاتفاق على أن يسلم صاحب سيس لنواب السلطان ثلاث قلاع وهى : بهسنا[1] ومرعش[2] وتل حمدون[3] وفرح الناس بذلك لأنها كانت مصدر قلق المسلمين وخصوصًا بهسنا التى كثيرًا ما شن أصحابها الغارات على المسلمين .

عاد السلطان إلى الديار المصرية وفى سنة ثلاث وتسعين وستمائة قصد ومعه وزيره الصاحب شمس الدين بن السلعوس ، نائب سلطنته الأمير بدر الدين بيدرا وجميع الأمراء إلى الصيد ، فلما وصل إلى الطرانة[4] فارقه وزيره ابن السلعوس متوجها إلى الاسكندرية أما السلطان فإنه نزل بالحمامات للصيد وكلف نائبه أن يأخذ العساكر ويتقدمه غير أن الأخير عاد وضرب السلطان ضربة قطع بها يده ثم تابعه الأمير حسام الدين لاجين وغيره فى الاجهاز عليه .

ولما قتل السلطان ، بايع الأمراء بيدرا بالسلطنة وبينما هو عائد إلى القاهرة إذا بمماليك السلطان الأشرف يتقدمون فى نحو ألف وخمسمائة فارس مطالبين بدم أستاذهم والانتقام من بيدرا ومن معه وكان يتزعم هؤلاء الأمير زين الدين كتبغا فأحاطوا بيدرا الذى تفرق عنه أصحابه لما عرفوا أن الدائرة ستدور عليه وقد تمكن زين الدين كتبغا من القبض على بيدرا وقتله .

---

(١) بهسنا : قلعة فى شمال حلب على نحو أربع مراحل منها . قال فى تقويم البلدان لياقوت صبح الأعشى ص ٤٥ هى قلعة حصينة مرتفعة لاترام حصانتها . وهى بلدة واسعة كثيرة الخير والخصب وهى فى الغرب والشمال من عينتاب . وبينها مسيرة يومين . وبينها وبين سيس نحو ستة أيام (صبح الأعشى ج ٤ ص ١٢١) .

(٢) معجم البلدان لياقوت : مدينة فى الثغور بين الشام وبلاد الروم لها سوران وخندق وفى وسطها حصن عليه سور يعرف بالمروانى ، بناه مروان بن محمد الشهير بمروان الحمار .

(٣) تقويم البلدان لأبى الفدا إسماعيل : تل حمدون : قلعة حصينة ببلاد الأرمن لها سور جيد حسن البناء ، وهى على تل عال ولها ربض وبساتين ونهر يجرى عليها ، وهى على القرب من جيحان على بعض مرحلة فى جهة الجنوب عنه ، وبين تل حمدون وبين سيس نحو مرحلتين .

(٤) الطرانة : من البلاد المصرية القديمة . وهى قرية صغيرة واقعة على الشاطئ الغربى لفرع النيل الغربى (فرع رشيد) ضمن قرى مركز كوم حمادة بمحافظة البحيرة ، جنوب محطة كفر داوود وعلى بعد ثلاثة كيلومترات منها .

الوصف المعمارى

يشبه ضريح السلطان الأشرف خليل ضريح فاطمة خاتون المجاور له ، إلى حد كبير سواء من حيث المساحة أو الأسلوب المعمارى أو الزخارف الجصية والخطية ، ولذلك فإن كزويل[1] يعتقد أن المعمار الذى قام بالتنفيذ وأحد فى الاثنين . ويتكون الضريح من مكعب تقريبا طول ضلعه (١٤) مترا من الخارج . وترتكز الجدران من الخارج على قاعدة (Plinth) مشطوفة ارتفاعها ٣٥ سم وعرضها ١٦ سم ، قد زال كثير من هذه القاعدة ولم يبق منها إلا أجزاء فى الضلع الشرقى والضلع الغربى . ويستدق الجدران إلى أعلى وعلى ارتفاع (١١ر٢٣) مترا تبدأ الشرفات المدرجة التى تشبه تلك الموجودة فى سقيفة الضريح .

وفى وسط كل ضلع من أضلاع الضريح يوجد باب ماعدا جدار القبلة حيث يتوسطه القبلة والأبواب كلها مستطيلة إذ يبلغ وسعها (١ر٨٠) متر وارتفاعها (٢ر٩٠) متر ويعلو كل باب عتب خشبى فوقه عقد عاتق . ويعلو كل باب وكذا بروز المحراب نافذة طويلة معقودة يعلوها عقد مدبب ويحيط بها زخارف قالبية (Cavetto) ويعلو الزخارف القالبية فى النافذتين الشمالية الشرقية والجنوبية الشرقية بقايا كتابات كوفية جصية تشبه تلك الموجودة فى ضريح فاطمة خاتون .

ويعلو المكعب رقبة مثمنة مبنية من الآجر ارتفاعها حوالى (٦) أمتار وفى كل ضلع من أضلاع المثمن توجد حنية بداخلها نافذة . وترتكز عقود الحنايا على أعمدة مندمجة . وفى كل أركان المربع توجد درجة من الخارج تفصل بين المربع ومنطقة الانتقال إلى مثمن الرقبة

ويشبه الضريح من الداخل كذلك ضريح فاطمة خاتون ، إذ يحيط بالأبواب الثلاثة

---

(١) Creswell : Muslim Architecture in Egypt vol. II p. 215.

وكذا المحراب حنايا مستطيلة إذ يبلغ طولها (١٠ر٣) أمتار ويبلغ عمقها ٤٥ سم وعلى جوانبها أعمدة ، زالت معظمها الآن . وفى الجزء العلوى من حنية توجد النوافذ الى أشرنا إليها سابقا .

وعلى ارتفاع ٩ أمتار من أرضية الضريح توجد فى أركان المربع ثلاثة صفوف من المقرنصات كل صف يحتوى على خمسة مقرنصات . ويقع الصف الأول من المقرنصات على مستوى نهاية النافذة التى تتوسط كل ضلع من أضلاع المربع . وبين أركان وعلى ارتفاع صفى المقرنصات توجد نافذة ذات ثلاث فتحات . والمقرنص المتوسط فى الصف الثالث قد فتحت على شكل نافذة فى مستوى الفتحة العليا فى النافذة ذات الثلاث فتحات وهى ترى واضحة من الخارج فوق الدرج الذى يفصل بين المربع ومثمن الرقبة . ويعلو صفوف المقرنصات الثلاث شريط جميل من الزخارف جزؤه السفلى يحتوى على كتابات قرآنية بالخط النسخى محصورة فى ثمانية بحور تفصل بينها دوائر . والجزء العلوى يحتوى على زخارف نباتية محورة يتخللها (٢٤) نافذة مستديرة ملئت كلها بزخارف هندسية من الجص ، وإن كان ثمان منها فقط هى المفتوحة وهى التى تتوسط أضلاع مثمن الرقبة . ويعلو شريط الزخرفة الذى يحتوى على النوافذ المستديرة (Bull's-eye) افريز من الخشب زالت زخارفه تماما ، ويعلو ذلك مباشرة كوابيل خشبية لعلها كانت حوامل لسلاسل القناديل أو المشكاوات .

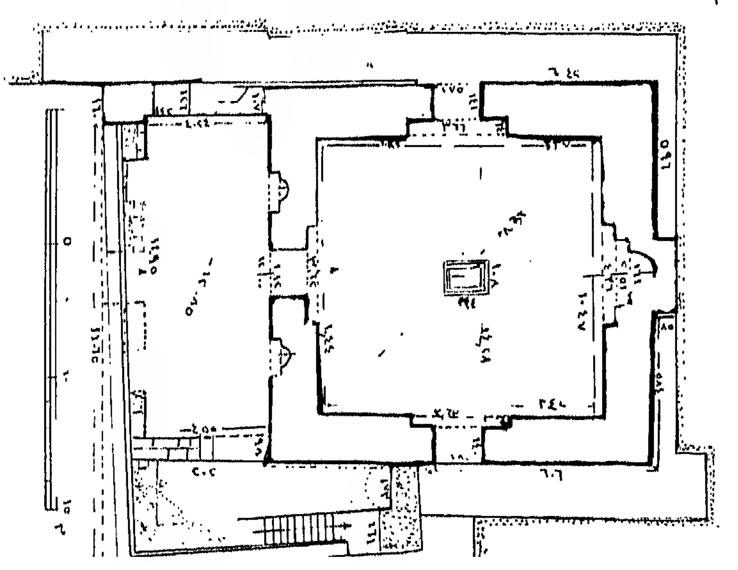
لقد قويت القبة بثمانى دعامات نصف دائرية ، كما فتح فيها عند بدايتها أربع نوافذ . وشكل القبة غير عادى وهى تشبه قبة الملك الصالح نجم الدين أيوب . وكانت القبة فى الأصل قبل الترميمات التى أجريت لها سنة ١٩١٧ مبنية من صفين من الآجر مع مونة جيدة للغاية .

ويبدو الضريح من الخارج وكأنه خال من الزخارف فيما عدا الزخارف الجصية فى النوافذ ، وشريط الكتابة والشرفات . أما فى الداخل فقد كانت هناك ألواح رخامية تكسى الجدران إلى ارتفاع تاج الأعمدة المندمجه فى الحنايا أى إلى ارتفاع (١٠ر٣) أمتار وإن كانت قد زال معظمها ولم يبق غير أجزاء صغيرة فى محراب السقيفة التى تتقدم

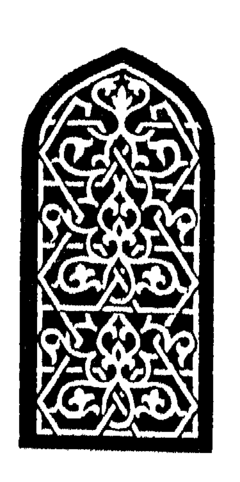
الضريح . كما توجد بقايا للرخام الملون فى تجويف المحراب . وهناك أشرطة جصية تفصل الصف الأول من المقرنصات وكذا الشريط الذى يعلو الصف العلوى من المقرنصات الذى سبق وصفه . كما يعلو النوافذ الأربع التى تعلو أبواب الضريح شريط من الزخارف الجصية كما ملئت النوافذ من الداخل والخارج بزخارف جصية مخرمة ومعشقة بالزجاج تشبه تلك الموجودة بضريح الصالح نجم الدين والخلفاء العباسيين .

ويتقدم الضريح سقيفة زال جزؤها الشمالى الشرقى ، ويبلغ ارتفاع جدرانها (٨) أمتار إلى بداية الشرفات . ويدخل إلى هذه السقيفة من باب يتوسط الضلع الشمالى الغربى على محور مدخل الضريح تماما . وكما يوجد على جانبى باب الضريح يوجد حنيتان زالت أعمدتهما المندمجة (nook-shafts) ، كذلك نجد على جانبى مدخل السقيفة من الداخل حنيتين . وفى الضلع الشمالى الشرقى يوجد باب بجانبه حنية عمقها ٥٠سم يعلوها نافذة ، كما يبدو أنه كان يوجد باب فى الضلع الجنوبى الغربى يؤدى إلى الملحق . ومن المرجح أنه كان يوجد شريط من الزخرفة الجصية فى نهاية الجدار وقل السقف المسطح ، كما هو الحال فى ضريح فاطمة خاتون ، وكذلك فى مسجد الظاهر بيبرس . ولذلك فإن كزويل يعتقد أن هذه السقيفة إضافة متأخرة بالنسبة للضريح .

أما عن تاريخ الضريح فإنه يبدو واضحا فى شريط الكتابة التى تحيط بأعلى جدران الضريح من الخارج ، فقد جاء فيها أن القبة بنيت فى شهور سنة ٦٨٧ هـ-١٢٨٨م أى أنها بنيت قبل موت السلطان قلاوون الذى توفى سنة ١٢٩٠. ولذلك فإن برشم (Van Berchem يقول بأن الضريح بنى قبل أن يصبح الأشرف خليل وليا للعهد وأنه كان ملاصقا لمدرسة أنشأها الأشرف خليل وإن كان لم يبق من تلك المدرسة شئ يدل عليها .



(شكل ٩) ضريح الأشرف خليل قلاوون



ضريح أحمد بن سليمان الرفاعى

بحارة الهلالية خارج باب زويلة سنة ٦٩١هـ

يقع الضريح فى الركن الشرقى لرواق (الرباط) كما يسميه المقريزى[١] ويتكون من مكعب تتراوح أضلاعه مابين (١٣ر٣) إلى (٣١ر٣) أمتار وارتفاعه (٨٥ر٣) أمتار وقد كان الضريح والرباط بحالة سيئة حتى قامت لجنة حفظ الآثار العربية بترميمها سنة ١٩١٠ م. فقد جددت الضلع الشرقى للرباط والقبة بما فى ذلك المحراب المتوسط الكبير فى الرباط والمحراب فى الطرف الجنوبى للضلع الشرقى الذى يكون التماثل تاما مع محراب القبة .

القبة :

ويعلو جدار الضريح أفريز من الخشب عرضه (٤١) سم يحتوى على كتابة مدهونة بالطلاء وفى أركان المربع توجد ثلاثة صفوف من المقرنصات وإن كانت تبدو من الخارج على هيئة صفين فقط ، وكل من الصفين الأول والثانى يتكون من ثلاث مقرنصات أما الصف الثانى فيحتوى على مقرنصين ، فيكون مجموع المقرنصات فى كل ركن ثمانية وكل ذات عقود منكسرة وتقع فى منطقة الانتقال بالنسبة للقبة . وبكل وجه من القبة توجد نافذة ذات ثلاث فتحات عقودها منكسرة . وقد زخرفت القبة من الداخل وكذا المقرنصات بزخارف جصية غاية فى الدقة والابداع لانظير لهما فى العمارة الإسلامية اللهم إلا فى ضريح زين الدين يوسف .

المحراب : يحتوى الضريح على محراب مجوف يعلوه عقد منكسر يحيط به زخارف جصية يتخللها الكثير من القطع الزجاجية ، المزخرفة برسوم زيتية على أرضية خضراء

---

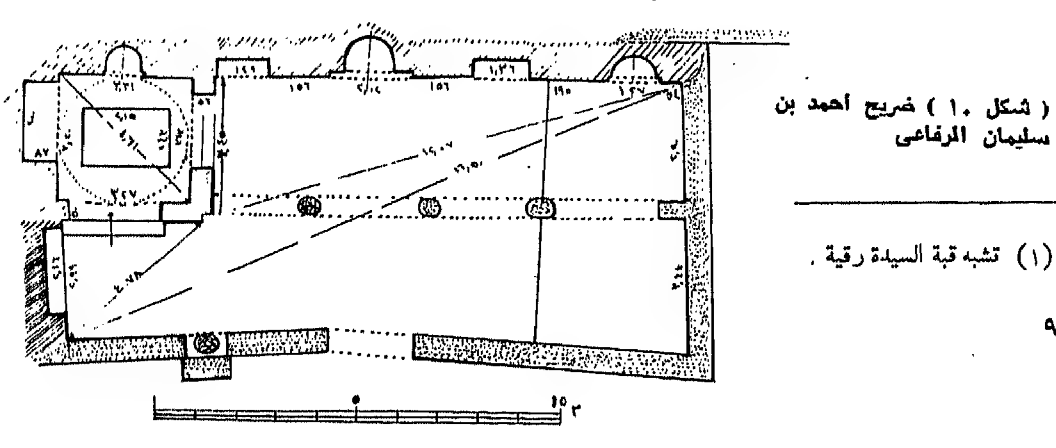
(١) الخطط جـ ٢ ص ٤٢٨

وبنى فاتح . على النقوش المحددة باللون الأسود على القطع الزجاجية لاتشبه الزخارف المعاصرة التى نجدها على المشكاوات المموهه بالمينا . ولكنها تشبه رسوم القطع الخزفية التى عثرنا عليها فى الفسطاط ويرجع معظمها إلى العصر الفاطمى . ولم يستعمل فى لصق القطع الزجاجية مواد غروية بل حفر لها مكان فى الجص وثبتت فيه . وتعتبر هذه الزخارف التى استعملت فيها قطع زجاجية مرسومة أول ظاهرة فى زخرفة العمائر الإسلامية .

ويوجد فى الضلع الغربى باب متسع يؤدى إلى الرواق الثانى بالرباط بواسطة درج واحد ، كما يوجد باب ثان للقبة فى الضلع الجنوبى يفتح فى الرواق الأول فى الرباط . كما يوجد بالقبة فى الضلع الشمالى حنية مسطحة تبلغ سعتها مترين وعمقها (٨٦ و سم) .

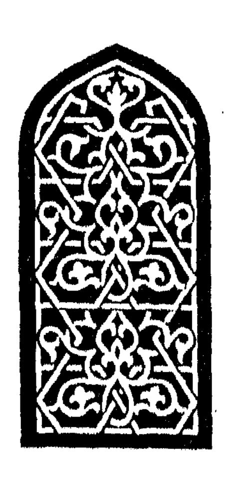
الرباط : يتكون الرباط من شكل مستطيل يبلغ ١٦٫٥٤ × ٧٫٠٢ م يتوسط صفا من الدعائم البيضاوية تقسمه إلى رواقين . ويحتوى الضلع الشرقى على ثلاثة محاريب الأوسط أكبرها وحنيتين محرابان فى الرواق الأول ، أما المحراب الثالث فداخل القبة . ويقع مدخل الرباط فى الجهة الغربية ، ومما يجدر الإشارة إليه أن حائط هذه الجهة لايقع على خط مستقيم .

ويحتوى المحراب المتوسط للرباط على زخارف كثيرة ، إذ يعلوه طاقية على شكل صدفة مفصصة يحيط بها عقد منكسر مشطرف ، حافته الداخلية تحتوى على شريط مزخرف من الخط النسخى والرسوم النباتية . وقد طليت الأضلاع المفصصة للطاقية باللون الأسود والارجوانى على التوالى[1] . ويحيط بعقد المحراب إطار مستطيل يضم تواشيح العقد التى تحتوى على زخارف نباتية جصية ويحيط به شريط به كتابات محصورة فى بحور ذات نهايات دائرية ويتخللها دوائر بها زخارف نباتية .



(شكل ١٠) ضريح أحمد بن سليمان الرفاعى

(١) تشبه قبة السيدة رقية .



مسجد الإمام البوصيرى
بالاسكندرية

مولاى صل وسلم دائما أبدا على حبيبك خير الخلق كلهم

هو الشيخ الإمام العالم شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد بن حماد بن محسن بن عبد الله بن صفهاج بن هلال الصنهاجى . كان أحد أبويه من بوصير بالصعيد والثانى من دلاص فركبت النسبة منهما فقيل الدلاصيرى ثم اشتهر بالبوصيرى .

ودلاص قرية مصرية قديمة اسمها المصرى القديم (هابى) والقبطى (تالاص) ومنه جاء اسمها العربى دلاص . ويقول ابن خلدون أن دلاص كانت تقع على النيل قديما ويؤيد هذا القول الاسم الذى أطلقه عليها البطالمة ، فقد كانت تعرف فى عهدهم باسم (نيلوبوليس) أى مدينة النيل ، ثم تحول عنها النيل إلى الشرق منذ عهد بعيد . وقد وردت فى معاجم البلدان بأنها من مدن مصر بالصعيد الأدنى وهى تشتمل على قرى وولاية واسعة ، وهى معدودة فى كورة البهنسى . ويقول الادريسى : دلاص مدينة صغيرة عامرة جليلة ، وصناعة الحديد بها قائمة الذات ، كثيرة المصنوعات ، وبها تصنع اللجم الدلاصية المنسوبة صناعتها إليها» . ويضيف أبو صالح الارمينى : «إن دلاص كان بها ثلاثمائة حداد يعملون اللجم الدلاصية ، وهى ما يلجم به الخيل ، ولذلك عرفت فى العصور الوسطى باسم دلاص اللجم» . ويقول ابن حوقل أن مدينة دلاص كانت فى أيام القبط(يقصد قدماء المصريين) كثيرة الديار مثبتة فى ذكر الامصار ، إلا أنها الآن ، (أى فى زمن ابن حوقل) ليست بالكبيرة لأن البربر من لواته (أى المغاربة) وشرار العرب تسلطوا عليها ، فأفنوا عمارات أطراف هذه البلاد وأفسدوها فقل لذلك ساكنوها» .

ولما كان والد الإمام شرف الدين البوصيرى من دلاص كما جاء فى الخطط التوفيقية وأن نسبه ينتهى إلى صنهاج بن هلال الصنهاجى ببلاد المغرب ، فمن المرجح أن يكون أحد أجداده قد وفد مع بربر المغاربة الذين جاءوا إلى مدينة دلاص وأشار إليهم ابن حوقل. وكانت دلاص تابعة لمركز الواسطى ، ثم الحقت ببنى سويف لقربها منها .

أما مدينة أبى صير التى ينتسب إليها شيخنا الإمام شرف الدين والتى يقال أنها بلد أمه فهى من القرى المصرية القديمة ، اسمها المصرى القديم (ابدومهيت) — ومعناها ابيدوس الشمالية لتمييزها عن ابيدوس الجنوبية التى تعرف بالعرابة المدفونة بمركز البلينا . واسمها البطلمى (بوص ايريس) ومعناه محل اقامة الإله اوزوريس ، واسمها القبطى بوصير ومنه اسمها العربى أبو صير . وقد عرفت باسم أبى صير الملق فى القرن التاسع عشر لوقوعها وسط أراضى الملق أى التى تروى بطريقة رى الحياض وقت الفيضان سنويا . وتتبع أبو صير مركز الواسطى بمحافظة بنى سويف . وهكذا نرى أن أبوى الامام شرف الدين من بلدتين قريبتين من بعضهما فى محافظة بنى سويف بالصعيد الأدنى كما جاء فى ترجمته .

يقول السيوطى فى حسن المحاضرة : شرف الدين محمد بن سعيد بن حماد الدلاصى المولد المغربى الأصل البوصيرى المنشأ ، ولد بناحية دلاص سنة ثمان وستمائة وبرع فى النظم وتوفى سنة ست وتسعين وستمائة . وقال الشهاب بن حجر : كان البوصيرى رحمه الله تعالى من عجائب الله فى النظم والنثر ، وإن لم يكن له إلا قصيدته المشهورة بالبردة لكفاه فخورا ، وكذلك قصيدته الهمزية البديعة . وقد ازدادت شهرة البردة إلى أن صار الناس يتدارسونها فى البيوت والمساجد .

وكان البوصيرى فى أول حياته العملية يتولى الكتابة على الجبايات (الضرائب) ببلدة بلبيس بمحافظة الشرقية ، إلا أن عدم أمانة المشتغلين معه فى هذه الوظيفة جعلته يزهد الوظائف الحكومية بل ويزهد متع الحياة الدنيا ويلجأ إلى حياة التصوف والانقطاع للعبادة ، وقد نظم فى ذلك شعرا عن مستوظفى ذلك العهد جاء فيه :

خبرت طوائف المستوظفينـــا   فلم أجـد فيهم رجلا أمينـــا

وفر من بلبيس إلى الاسكندرية حيث صحب القطب أبا العباس المرسى رضى الله عنه .

ويقول على مبارك فى خططه : كان البوصيرى وابن عطاء الله السكندرى تلميذين لأبى العباس فخلع على البوصيرى لسان الشعر وعلى ابن عطاء الله صاحب الحكم لسان النثر . وقد لازم البوصيرى أستاذه وأخذ عنه فظهرت عليه بركته ورزقه الدنيا دينا وعلما وورعا وولاية على يديه . ثم نهج بعد ذلك فى شعره منهجا آخر فصار متصوفا مادحا لحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأخلص الحب لله ولرسوله وهام بذلك حتى صار لايبارى .

ويقال إن السبب فى نظمه لقصيدته المشهورة بالبردة هو وقوع فالج ألم به أعيا الأطباء علاجه ، ففكر البوصيرى فى عمل قصيدة يستشفع بها ولعل الله تعالى فى أن يعافيه ، فلما أتمها رأى الرسول صلى الله عليه وسلم فى منامه فمسح بيده الكريمة عليه فعوفى اوقته . ويقول حسن العدوى فى كتابه (النفحات الشاذلية فى شرح البردة البوصيرية) : ثم لما خرج البوصيرى من بيته لقيه رجل صالح فطلب منه سماع قصيدته فعجب البوصيرى إذ لم يكن قد أخبر بها أحدا ، فلما سأله أجاب : سمعها البارحة تنشد بين يديه صلى الله عليه وسلم فأعطاه البوصيرى اياها .

وهنا يقول البوصيرى : « ثم بعد أن أنشدتها للرجل الصالح ودعنى وانصرف » ثم بعد أيام من ذلك استدعاه الصاحب بهاء الدين وزير السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقدارى وطلب منه أن ينشد القصيدة التى مدح بها النبى صلى الله عليه وسلم ، وأقسم أن لايسمعها إلا قائما على قدميه مكشوف الرأس ، فأنشدها اياه ، وكتبها له البوصيرى بخطه ويقال أنها لم تزل عنده متبركا بها يقرؤها فى المهمات حتى مات وبقيت بعد ذلك عند ولده . وكان الصاحب بهاء الدين بن حنا رجلا ورعا تقيا فهو الذى اشترى الآثار النبوية من بنى ابراهيم بمدينة ينبع وبنى لها الأثر المطل على النيل فى المكان الذى يعرف اليوم باسم أثر النبى نسبة إلى الآثار النبوية .

وقد اشتهرت قصيدة البوصيرى فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم باسم البردة ، والأولى أن يقال (البرأة) ذلك أن ناظمها برئ بها من مرض الفالج الذى أبطل نصفه . أما البردة فهى قصيدة كعب بن زهير ، الذى هجا النبى صلوات الله عليه وسلم قبل إسلامه ،

فأهدر النبي دمه ثم حدث أن جاء كعب تائبا إلى مسجد رسول الله وأنشد قصيدته التى مطلعها :

بانت سعـاد فقلبي اليـوم متبول متيم أثـرها لم يفـد مكبـول
وقد نبئت أن رسول الله أوعدنى والعفـو عنـد رسول الله مـأمول

فعفا عنه الرسول صلى الله عليه وسلم وخلع عليه بردته الشريفة ومن هنا عرفت القصيدة بالبردة .

وقد جاء فى المطبوعات المتداولة المشتملة عليها (أى البرأة) كما كان يفعل الامام البوصيرى فإن شق على القارى فيكتفى بترديده وأنشده هذه القصيدة وأتى إلى قوله (فمبلغ العلم فيه أنه بشر) ولم يستطع تكميل البيت فقال له النبى صلوات الله عليه اقرأ فقال له (إنى لم أوفق للمصراع التالى فقال له النبي قل (وأنه خير الخلق كلهم) وعدد أبيات البرأة (١٦٠) بيتا وقد جمعت فى فصولها بين مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وجهاده والتوسل به عليه الصلاة والسلام . وقد ألف كثير من الشعراء قصائد على وزن قصيدة البوصيرى منهم أمير الشعراء شوقى إذ ألف قصيدته نهج البردة .

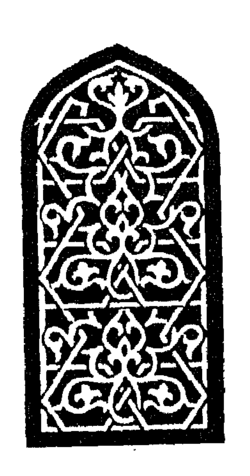
* * *

ومسجد الامام البوصيرى بمدينة الاسكندرية فى مواجهة جامع سيدى أبى العباس المرسى أى أنه جاور أستاذه فى حياته وبعد مماته . وقد كان المسجد فى الأصل زاوية صغيرة توالت عليها يد الإصلاح والترميم والزيادة حتى وصلت إلى الشكل الحالى . والمسجد الموجود اليوم يرجع إلى سنة ١٢٧٤ هـ .

ويتكون المسجد من مربعين منفصلين ، الأول يشمل صحن المسجد وتتوسطه نافورة وتحيط به الأروقة من جميع الجهات والمربع الثانى وهو ايوان القبلة وهو مرتفع عن مستوى صحن المسجد إذ يصعد إليه بثلاث درجات . ويتقدم الايوان دهليز مغطى بظلة تؤدى إلى ضريح الامام البوصيرى أولا ثم إلى ايوان القبلة ثانيا . أما الضريح فعبارة عن غرفة مربعة مغطاة بقبة تقوم على مقرنصات فى الأركان والقبة من الصاج وليست من الخشب أو البناء .

ويتوسط ايوان القبلة ستة أعمدة تقوم عليها قبة مرتفعة من الصاج كذلك ، وبه دور ثان مخصص للسيدات يعرف باسم (الصندرة) . وبهذا الايوان يوجد مدخلان رئيسيان أحدهما فى الجهة الشرقية والآخر فى الجهة الجنوبية ، كما يوجد مدخل ثالث رئيسى فى الجهة الغربية من صحن الجامع . وخلف الرواق الشرقى للمسجد توجد ثلاث غرف مغطاة بثلاث قباب كانت فى الأصل عبارة عن زاوية ملحقة بالمسجد ، وتحتوى على صف من الدعائم تفصلها إلى رواقين ثم جددت الزاوية سنة ١٣٠٨ وسدت أروقتها فتحولت إلى غرف خصصت للمكتبة وللمشرفين على المسجد .

وفى الركن الشمالى الشرقى لايوان القبلة توجد مئذنة المسجد وهى على شكل مسلة . والمسجد وكذا المئذنة يمثلان الطراز التركى فى القرن التاسع عشر أحسن تمثيل



مسجد سيّدى جابر
بالاسكندرية

كان لخروج الروم من الاسكندرية سنة ٢٥ هـ أكبر الأثر فى أن تفقد المدينة صبغتها الأجنبية وأن تخطو نحو التعريب بخطوات سريعة ، ذلك لأن كثيرا من مشاهير الصحابة وأعيان العرب كانوا يفدون عليهاوينزلونها اما للاستقرار الدائم أو المؤقت فقد نزل فاتح مصر عمرو بن العاص قصرا فى موضع مرتفع يوصف بالكوم أو التل ، كما نزل بدار مجاورة له معاوية بن حديج ، كذلك فعل معظم من حضر فتح الاسكندرية من العرب ، إذ يقول المقريزى : فأما الاسكندرية فلم يكن بها خطط وإنما كانت أخائذ ، من بنى منزلا نزل فيه وهو وبنو أبيه وأن عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية أقبل هو وعبادة بن الصامت حتى علوا الكوم الذى فيه مسجد عمرو بن العاص ، فقال معاوية بن حديج ننزل ، فنزل عمرو القصر ونزل أبو ذر الغفارى منزلا كان غربى المصلى الذى عند مسجد عمرو مما يلى البحر وقد انهدم . ونزل معاوية بن حديج فوق التل وضرب عبادة بن الصامت خباء فلم يزل فيه حتى خرج من الاسكندرية . ويقال أن أبا الدرداء كان معه والله أعلم » . على أن عمرو بن العاص عندما أحل للعرب الفاتحين النزول ببيوت المدينة حرم عليهم استغلالها أو بيعها أو توريثها وفى ذلك يقول المقريزى : «لايحل من كرائها شئ ولا بيعها ولا يورث منها شئ إنما كانت لهم يسكنونها فى رباطهم (أى مدة إقامتهم) . ولم يقتصر الأمر على النزول بالبيوت الموجودة بالمدينة بل رأى بعض الصحابة أن يختط له سكنا ، فقد اختط ابن الزبير بن العوام بالاسكندرية دارا كما أختط بالفسطاط ويقال أنه الوحيد الذى اختط بالاسكندرية .

ومن الطبيعى أن يؤسس العرب لهم مسجدا بعد أن فتحوا المدينة ونزلوا بيوتها وقد ورد هذا صراحة فى عبارة المقريزى من أن أبا ذر الغفارى نزل منزلا غربى المصلى عند جامع عمرو ، ومعنى ذلك أنه كان يوجد مصلى ، تقام فيها الصلوات الجامعة الكبرى فى المواسم والأعياد ، كما تجتمع فيه الحامية للصلاة . وإلى جانب المصلى بنى عمرو جامعا . ومن المرجح أن يكون عمرو بن العاص قد أقام مسجده فى المكان الذى يشغله الآن المسجد العمرى العتيق بالقرب من ضريح سيدى أبى الدرداء ويعزز هذا الرأى ما ذكره المقريزى وابن عبد الحكم من أنَّ أبا الدرداء كان ينزل مع عبادة بن الصامت ، الذى كان يصاحب عمرا ومعاوية بن حديج . ولايغض من هذا الرأى ما هو معروف من أن أبا الدرداء انتقل بعد ذلك إلى الشام وأنه توفى هناك ، فوجود مقام له يعنى أن ذكرى مجيئه وإقامته فى هذا المكان المجاور لمسجد عمرو ما تزال عالقة فى أذهان الناس وفى تراثنا الشعبى . كذلك بنى عمرو بن العاص بعد فتح الاسكندرية مباشرة مسجدا آخر عرف باسم مسجد الرحمة ويقال إنه بناه فى المكان الذى رفع عمرو السيف عن قتل الروم بعد انتصاره عليهم ، وتخليدا لانتصار العرب وارفع السيف عن الروم بنى عمرو مسجدا عرف باسم مسجد الرحمة . من المرجح أن يكون مكانه الآن بحديقة الشلالات مكان الضريح المعروف باسم سيدى عمرو ويحيى .

ويذكر ابن عبد الحكم فى كتابه فتوح مصر ، أنه كان بمدينة الاسكندرية فى النصف الأول من القرن الأول الهجرى بالإضافة إلى مسجد عمرو ، خمسة مساجد أخرى وهى مسجد النبى ومسجد سليمان عليه السلام ومسجد ذى القرنين ومسجد الخضر ومسجد الرحمة ، أما عن أماكن هذه المساجد فلم تحدد بدقة حتى يمكن الاهتداء إليها الآن . وإذا كان هذا هو عدد مساجد الاسكندرية فى النصف الأول من القرن الأول للهجرة ، فمما لاشك فيه أنه قد بنى المسلمون الأوائل فى النصف الثانى مساجد وأضرحة وزوايا أخرى عندما كثر عدد المسلمين بالاسكندرية أما عن طريق الهجرة إليها أو عن كثرة من اعتنق الإسلام من مسيحييها .

* * *

ومن مساجد الاسكندرية الهامة التى تنسب إلى من وفد من الصحابة إلى مصر مسجد سيدى جابر وضريحه به فى المنطقة المعروفة باسمه بالرمل . ولكنى لم أجد لصاحب الضريح

ترجمة فى مرجع من المراجع . فكان من العسير التحقق من اسمه وهل كان هو ممن جاءوا إلى مصر من الصحابة ؟ رجعت إلى كتاب السيوطى المعروف باسم (دار الصحابة فيمن دخل مصر من الصحابة) لعلى أهتدى إلى صاحب هذا المقام . فعثرت فى كتاب السيوطى على أربعة من الصحابة أتوا مصر يسمونَ باسم جابر ومن الخير أن أذكر طرفا من تراجمهم جميعا . الأول وهو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الانصارى يكنى أبا عبد الله وأبا عبد الرحمن وأبا محمد ، أحد المكثرين عن النبى صلى الله عليه وسلم روى مسلم عنه ، أنه غزا مع النبى صلى الله عليه وسلم تسع عشرة غزوة . وعن هشام بن عروة قال : كان لجابر ابن عبد الله حلقة فى المسجد النبوى يؤخذ عنه العلم . وقال ابن عبد الحكم حدثنا عبد الله ابن يوسف حديثا قال : قدم جابر بن عبد الله على مسلمة بن مخلد وهو أمير على مصر فقال له أرسل إلى عقبة بن عامر الجهنى حتى أسأله عن حديث سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القصاص لم يبق أحد يحدث به عن رسول الله غيره ، أردت أن أسمعه منه قبل أن يموت أو أموت » . ويذكر السيوطى ، ولأهل مصر عنه نحو عشرة أحاديث ، ثم يضيف ، أن آخر أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم موتا بالمدينة جابر بعد أن عمى سنة ثمان وسبعين وقيل سبع وقيل سنة أربع وقيل سنة ثلاث وستين وقيل إنه عاش أربعا وتسعين سنة .

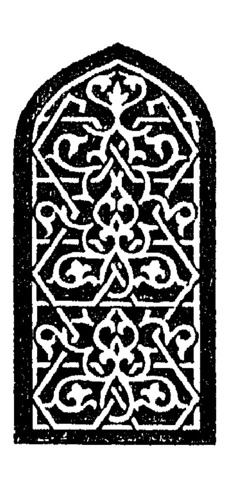
أما الثانى فهو جابر بن ماجه الصدفى ، قال ابن يونس وفد على النبى صلى الله عليه وسلم وشهد فتح مصر . والثالث هو جابر بن ياسر بن عويض ، قال ابن قتيبة له ذكر فى الصحابة ، وقال ابن يونس شهد فتح مصر وهو جد جابر وعياش بن عباس بن جابر ولا يعرف له حديث . أما الرابع فهو جابر بن اسامة الجهنى يكن أبا سعاد نزل مصر ومات بها قاله ابن يونس .

على أننا إذا استبعدنا الأول لأنه مات ودفن بالمدينة كما هو ثابت فى الرواية فإننا لانعرف أين مات الثانى والثالث إذ لم يرد شئ عن وفاتهما ، أما الرابع فتنص الرواية على موته بمصر وإن لم تحدد المدينة التى مات ودفن بها .

ويقول أحمد زكى باشا أن سيدى جابر الدفين بالاسكندرية هو الرحالة ابن جيبر ،

ويعلل تغير الاسم بأن العامة حرفت الاسم فقالوا جابر بدلا من جبير واستثقلوا الكنية فحذفوها على الاطلاق . ويذكر الأستاذ منصور جاب الله رواية أقرب إلى المنطق والصواب ولكنها خالية من السند أو المرجع ، فهو يقول : أنه جابر بن اسحق بن ابراهيم بن أحمد ابن محمد الانصارى ويكن أبا اسحق ويتصل نسبة من جهة أبيه بسعد بن عبادة سيد الخزرج . ويؤخذ من سيرته أنه نشأ بالأندلس ثم نزح إلى فاس ببلاد المغرب ثم انتقل إلى طرابلس المغرب ومنها وفدإلى القاهرة فاستضافه رجل من بنى عمومته كنيته أبو العباس ولا يعرف اسمه على وجه التحقيق . وكان رجلا يسلك طريق المتصوفة فانضم إليه . ولما مات الشيخ أبو العباس انتقل أبو اسحق جابر إلى الاسكندرية وبنى له زاوية فى ضاحية الرمل ظل مقيما بها حتى توفى سنة ٦٩٧ هـ متجاوزا التسعين من عمره . وقد بقيت الزاوية على حالتها حتى بنى على أنقاضها فى نهاية القرن التاسع عشر مسجد أزيل سنة ١٩٥٥ ليبنى مكانه المسجد الحالى . وكان سيدى جابر شيخا ورعا صالحا كثير الاتباع مهتما باللغة والنحو والصرف إلى جانب اهتمامه بشئون الدين ، خلف ثروة علمية ، وإن كنا قد وجدنا بعض أسمائها وهى (إيجاد البرهان فى اعجاز القرآن) و(كيفية السياحة فى مجرى البلاغة والفصاحة) . و(الاعراب فى ضبط عوامل الاعراب) .

ويتكون المسجد الحالى من مربع تقريبا يتوسطه صحن مغطى تحيط به الأروقة من جميع الجهات رواقان فى جهة القبلة ورواق واحد فى الجهات الثلاث الأخرى وتوجد فوق الرواق الشمالية طبقة ثانية تعرف باسم (صدرة) مخصصة لصلاة السيدات . وقد غطى صحن المسجد بسقف مرتفع عن باقى سقف المسجد وقد فتح فى هذا الارتفاع نوافذ للإضاءة . وللمسجد ثلاثة أبواب واحد فى الجهة الجنوبية يؤدى إلى المسجد كما يؤدى إلى ضريح « سيدى جابر » ، والثانى فى الجهة الشمالية . أما الثالث فيؤدى إلى زيادة ودورة المياه . وفى الجهة الجنوبية من المسجد يوجد الضريح وهو عبارة عن غرفة مربعة تعلوها رقبة مثمنة مقامة على مقرنصات ويعلو الرقبة قبة مدببة .



جامع الديريني

بجزيرة الروضة

هو الشيخ عبد العزيز الديريني العابد الزاهد القدوة ترجم له فى المنهل الصافى وكذا الشعرانى فى طبقاته[1] فقال « هو الشيخ الورع ذو الحالات الفاخرة والأحوال الشريفة والكرامات المشهورة والمصنفات الكثيرة فى التفسير والفقه واللغة والتصوف وغير ذلك .

ويقول ابن تغرى[2] بردى : وله نظم كثير شائع ، ومنه منظومته التى ذكر فيها مشايخه الذين أخذ عنهم منها قوله :

وأذكــــر الآن رجـــالا	كأنجم يزهـــو بها الزمـان
مشايخى الائمـــة الأبرار	واخــوتى الأحبـة الأخيـار
فأنهم عاشوا بانس الــرب	سرا وذاقــوا من شراب الحب
وكل شيخ نلت منه علما	أو أدبـا فهـو أمامى حتما
مشايخـا صحبتهم زمانـا	أو زرتهم تبركـا أحيانـــا
أرجو بذكرهم بقـاء الذكـر	لهم وفوزى بجزيل الأجــر
وهم جلوس فى نعيم الحضرة	وجوههم فى نضرة من نظـره
وكل شيخ زرتـــه للبركـة	فقـد وجدت ريح تلك الحركة

إلى أن قال :

لم يبق فى الستين والستمائـة	فى الناس من أشياخنا إلا فئة

(١) الطبقات الكبرى جـ ١ ص ٢٠٢

(٢) المنهل الصافى ص ٢١٧

وكان الشيخ عبد العزيز موئل العلم والفضل ، صحبه جماعة كثيرة من العلماء وانتفعوا بعلمه وتقواه وصحبته . وقد أمضى معظم حياته متنقلا فى مدن وقرى وسط الدلتا المحصورة بين فرعى رشيد ودمياط وهى التى تعرف عند مؤرخى العرب باسم بلاد الريف ، وفى ذلك يقول الشعرانى : « وكان مقامه ببلاد الريف من أرض مصر وكان الناس يقصدونه للتبرك من سائر الأقطار ويرسلون له من مصر مشكلات المسائل فيجيب عنها بأحسن جواب » .

ومن مشايخ الشيخ عبد العزيز الديرينى الذين أخذ عنهم وتتلمذ على أيديهم الشيخ أبو الفتح الواسطى شيخ مشايخ بلاد الغربية بأرض مصر المحروسة كما يقول الشعرانى . ويقص الشيخ عبد العزيز علينا قصته مع شيخه الواسطى فيقول : أشار سيدى أحمد ابن الرفاعى على سيدى الواسطى بالسفر إلى الاسكندرية فسافر إليها حيث أخذ عنه خلائق لايحصون ، وكنت أنا واحدا منهم . وكان سيدى الواسطى مبتلى بالانكار عليه فقد اجتمع علماء الاسكندرية وفقهاؤها وعقدوا له المجالس . فكان يقرعهم الحجة ويخطئ ويسفه قولهم ويبين سوء رأيهم ويوضح قلة معرفتهم ، وكان خطيب جامع العطارين من أشدهم عليه .

ويروى الشيخ الديرينى عن شيخه وقطبه المعجزة التالية : « إنه بينما كان خطيب جامع العطارين يوما فوق المنبر والأذان بين يديه تذكر أنه جنب ، فمد له الشيخ أبو الفتح الواسطى كمه فوجده زقاقا فدخله فرأى فيه ماء ومطهرة فاغتسل وخرج فجلس على المنبر . فلما ستره الشيخ هذه السترة اعتقده وصار من أجل أصحابه رضى الله عنه » .

وكان الشيخ عبد العزيز الديرينى من معاصرى الشيخ أحمد البدوى ومن مريديه كما كان مصاحبا لسيدى على المليجى صديق الشيخ أحمد البدوى . ويروى لنا الشيخ الشعرانى فى طبقاته الكثير من المعجزات التى تصل فى كثير من الأحيان إلى حد الاسطورة والخيال ولكنى لاأجد مانعا فى ذكرها لأسباب عدة .

أولا لأن للصوفية فى هذه الأعمال الخارقة على العادة والمألوف بالنسبة لأولياء الله الصالحين آراء كثيرة

ثانيا لأننى أردت من وراء ذكرها أن أعطى للقراء فكرة عن أسلوب الكتابة عن الصالحين والمتصوفين وأولياء الله الصالحين فى العصور الوسطى .

ويحدثنا الشعرانى عن زيارة الشيخ عبد العزيز الديرينى للشيخ على المليجى فيقول : وكان (أى الديرينى) يزور سيدنا عليا المليجى كثيرا فذبح له سيدى على يوما فرخا فأكله وقال لسيدى على : لابد أن أكافئك ، فاستضافه يوما فذبح لسيدى على فرخة فتشوشت امرأته عليها فلما حضرت ، قال لها سيدى على المليجى ، هش ، فقامت الفرخة وقال يكفينا المرق ولاتشوشى .

ويضيف ابن تغرى بردى فى ترجمة الشيخ الديرينى فيقول : طلب جماعة من فقراء الصوفية كرامة من سيدى عبد العزيز ، فقال لهم سيدى عبد العزيز يا أولادى وهل ثم كرامة أعظم من أن الله تعالى يمسك بنا الأرض ولم يخسفها وقد استحققنا الخسف .

وينتسب شيخنا إلى ديرين وهى بلدة بقسم نبروة بمركز طلخا[1] بمحافظة الدقهلية الآن . وتقع ديرين فى شرقى نبروة على بعد نحو ألفين وخمسمائة متر وشمال قسم نشا بنحو ألفين وثمانمائة متر . ويقول على مبارك[2] : وبمدينة ديرين ثلاثة مساجد أحدها لسيدى عبد العزيز الديرينى ، له منارة وبداخله مقام ظاهر يزار ويعمل له مولد كل سنة . ويصف قرية ديرين فيقول : وبهذه القرية منزل مشيد وجنينة ودوار لعمدتها وبها بعض نخيل وأبراج حمام وبعض أهلها ينسجون الثياب الصوف ، وإلى هذه القرية ينسب قطب وقته سيدى عبد العزيز رضى الله عنه .

* * *

(١) القاموس الجغرافى لأحمد رمزى ج ٣

(٢) الخطط التوفيقية ج ١٢ ص ٧٢

وصف الجامـــع

يوجد بجزيرة الروضة جامع الديرينى المتوفى سنة ٦٩٧ هـ تزعم الناس أنه مدفون به ولكن الصواب أنه مدفون بديرين كما يذكر ذلك الشعرانى فى طبقاته إذ يقول : مات الشيخ عبد العزيز الديرينى سنة سبع وتسعين وستمائة وقبره بديرين ظاهر يزار إلى عصرنا هذا رضى الله عنه » . ومعنى هذا أن مسجد الديرينى كان لايزال موجودا حتى عصر الشعرانى فى القرن العاشر الهجرى ـ السادس عشر الميلادى .

كذلك ذكر ذلك على مبارك[1] فى خططه وقال أن قبره مايزال يزار حتى عصره فى القرن الثالث عشر الهجرى ـ التاسع عشر الميلادى .

وإذا رجعنا إلى الفترة التاريخية التى عاش فيها الشيخ الديرينى نجد أنه عاصر فى آخر أيامه السلطان الملك المنصور لاجين ، وكان السلطان كما قال صلاح الدين الصفدى[2] دينا متقشفا كثير الصوم قليل الأذى ، قطع أكثر المكوس ، وقال إن عشت ماتركت مكسا واحدا . وكان يجل العلماء ويحترم رجال الدين والمتصوفين منهم خاصة وكان يسعى إليهم ويطلب مودتهم ، ومنهم الشيخ عبد العزير الديرينى الذى كثيرا ماطلب إليه الحضور إلى مصر للانتفاع بعلمه وتقواه وبركته . وكان الشيخ الديرينى عندما يأتى إلى مصر يكثر من زيارة جزيرة الروضة والصلاة فى مساجدها ، مما دعا السلطان إلى إقامة مسجد بجزيرة الروضة لكى يقيم به الشيخ الديرينى عند مجيئه لزيارته فى مصر ، فلما توفى الديرينى عرف باسمه .

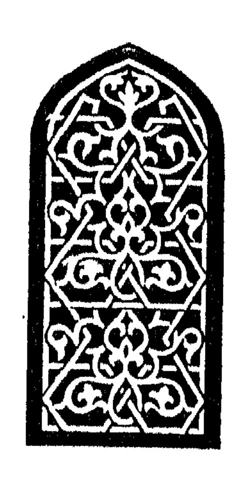
ويصف على مبارك وكذا السخاوى[3] جامع الديرينى فيقول : هذا الجامع بالروضة بجوار منزل أحمد باشا المنكلى يقال أنه جامع قديم عمرته الآن (أى القرن ١٣ هـ) سعادة

---

(١) الخطط التوفيقية جـ ١٢ ص ٧٢
(٢) النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٠٩
(٣) تحفة الأحباب ص ١٥٧ (هامش)

والدة الهوانم كرائم المرحوم ابراهيم باشا الهامى ابن المرحوم عباس باشا والى مصر » .
والغريب أن على مبارك الذى ذكر فى خططه عند الحديث عن قرية الديرين ، أن الشيخ عبد العزيز الديرينى مدفون هناك وأن قبره ظاهر يزار ، يعود هنا عند الحديث عن جامع الديرينى بجزيرة الروضة فيثبت أن الشيخ عبد العزيز الديرينى مدفون بهذا الجامع ، إذ يقول : وبالجامع المذكور ضريح الأستاذ عبد العزيز الدرينى وله مولد سنوى يعمل فى شهر ربيع الأول .

* * *



جامع عمر مكرم
بميدان التحرير
(جامع كريم الدين سابقًا)

يعتبر عمر مكرم أول زعيم شعبي لمصر فى عصرها الحديث ورائدا مثاليا من رواد المقاومة الشعبية ، ففيه تمثلت الشخصية المصرية المناضلة ضد الظلم والاستعمار الأجنبي التى افتقدناها منذ أحمس الذى طرد الهكسوس فى العصر الفرعونى . وما أحوجنا فى هذه اللحظات الحاسمة من تاريخنا ونحن نخوض معركة حياة أو موت مع الاستعمار الصهيونى الأمريكى اللعين . أن نتتبع خطى القدوة الحسنة لتكون لنا نبراسا نسير على هديه فى مقاومتنا الشعبية .

لقد ظهر عمر مكرم كشخصية لها وزنها فى سير الأحداث السياسية الهامة عندما توسط لحل النزاع الذى احتدم بين الوالى العثمانى وبين المماليك القبليين من جهة أخرى ثم تزعم حركة المقاومة الشعبية ضد الحملة الفرنسية ثم ضد حملة فريزر الانجليزية وانتهى بمقاومة طغيان محمد على وأعماله التعسفية ضد الشعب .

ولد عمر مكرم فى مدينة أسيوط من أسرة شريفة تنتسب إلى البيت النبوى الكريم فى منتصف القرن الثامن عشر ، ويقول الدكتور عبد العزيز الشناوى أن الجبرتى وهو مؤرخ الفترة التى عاش فيها عمر مكرم ، لم يكتب تاريخ وفاته وذلك لوقوع وفاة الزعيم المذكور عقب وفاة الجبرتى .

وقد أورد الجبرتى الأحداث التى شارك فيها عمر مكرم مشاركة فعالة مما أعطانا فكرة متكاملة عن تاريخ هذا الزعيم .

فقد قام عمر مكرم بدور الوسيط بين ابراهيم بك ومراد بك اللذين كانا يتخذان الصعيد مقرا لنفوذهما وبين أمراء القاهرة ، فحمل رسالة إلى كل منهم وهم محمد عزت باشا الوالى العثمانى ، وعثمان بك طبل ، شيخ البلد والى كبار علماء الأزهر ، وقد نجحت وساطة عمر مكرم وأظهر علماء الأزهر عدم معاداتهم لابراهيم بك ومراد بك كما كتب الوالى محمد عزت باشا إلى الباب العالى طالبا العفو عنهما والاذن لهما بدخول القاهرة ، غير أن الأميرين المذكورين تمكنا من دخولها قبل وصول الاذن المرتقب .

ولما استقر المقام للأميرين إبراهيم بك ومراد بك بالقاهرة عملا على رد صنيع عمر مكرم فعيناه نقيبًا للاشراف خلفا لمحمد البكرى الذى توفى دون وريث ، فذاع اسم عمر مكرم لخطر ذلك المنصب فى ذلك الوقت ولقوه شخصية عمر مكرم وطموحه .

وقد شارك عمر مكرم الشعب مشاركة فعلية أبان الحملة الفرنسية التى قدمت على البلاد عام ١٧٩٨ واستولت على الاسكندرية رغم الكفاح المجيد الذى قام به الشعب بقيادة السيد محمد كريم والى الاسكندرية ، ثم تقدم الفرنسيون نحو دمنهور فلقيهم مراد بك فانهزم الأخير وواصلت الحملة زحفها نحو القاهرة ، عند ذلك ظهرت شخصية عمر مكرم ووطنيته فأخذ يستحث الأهالى على المقاومة والوقوف فى وجه الغاصب المعتدى .

ولما أسفرت معركة إمبابة عن هزيمة جيش مراد بك ، رحل عمر مكرم مع إبراهيم بك وقواته ومعهم كبار المشايخ فقصدوا المطرية ومنها إلى بلبيس فزحف نابليون إليها وكانت قوة المماليك قد غادرتها ، فلحق بهم نابليون عند الصالحية فاضطر المماليك إلى الانسحاب فارتحل عمر مكرم مع إبراهيم بك إلى العريش ثم إلى غزة وعند عودة نابليون إلى القاهرة عزل عمر مكرم من منصب نقيب الاشراف وصادر أمواله وعين مكانه الشيخ خليل البكرى .

شارك عمر مكرم فى ثورة القاهرة الثانية سنة ١٨٠٠ على أثر نقض كليبر لاتفاقية العريش بالجلاء عن البلاد وقد امتدت الثورة فشملت جميع أحياء القاهرة واستمرت ثلاثة وثلاثين يومًا .

وعندما ثار الشعب على مظالم أحمد خورشيد الوالى التركى عام ١٨٠٥ تزعم عمر مكرم

تلك الثورة وذلك على أثر رفض الأخير لمطالب الشعب التى تتلخص فى ضرورة إبعاد القوات العسكرية من القاهرة التى عاثت فيها فسادًا وعدم السماح لأفرادها بدخولها حاملين سلاحًا ، ثم الامتناع عن فرض أية ضريبة على سكان القاهرة دون موافقة المشايخ والأعيان وإعادة المواصلات بين القاهرة والوجه القبلى ، عند ذلك نادى عمر مكرم بضرورة عزل أحمد خورشيد وتولية محمد على مكانه . وقد توجت ثورة الشعب بزعامة عمر مكرم برحيل خورشيد عن البلاد بعد أن استمر كفاح الشعب أربعة أشهر وبذلك خلا الجو إلى القائد محمد على واستطاع أن يتولى ولاية مصر ، وذلك بمساندة عمر مكرم الذى كان يؤثره بهذا المنصب لما أظهره الأول من عطف مصطنع على الشعب ومناصرته ومواساته له إبان المحن . غير أنه قد استبان لعمر مكرم خطأ اعتقاده فظهرت مداهنة محمد على ووضح استبداده وظلمه الذى لايقل عن ظلم أحمد خورشيد .

وفى عام ١٨٠٧ غزت مصر حملة إنجليزية بقيادة فريزر الذى قصد الاسكندرية وقد دافع عنها أهلها دفاعًا مجيدًا ، غير أن الخيانة أحبطت جهود الوطنيين وأفسدت دفاعهم ، وكان محمد على فى ذلك الوقت بالصعيد يحارب المماليك ، فهب عمر مكرم وتولى أمر المقاومة الشعبية وتنظيمها فانتصر المصريون فى رشيد انتصاراً ذهب بهيبة الإنجليز ، وبذلك ألقت الزعامة الشعبية زمامها لعمر مكرم فغدا كبير زعماء مصر قاطبة وفى ذلك يقول الجبرتى : « ارتفع شأن السيد عمر مكرم وزاد أمره بمباشرة الوقائع وولاية محمد على باشا وصار بيده الحل والعقد والأمر والنهى ، والمرجع فى الأمور الكلية والجزئية » . إلا أن محمد على عمد بعد أن استقامت له الأمور إلى التخلص من زعامة عمر مكرم وذلك بعد أن تغلب الأول على معظم الأخطار التى كانت تتهدده وقد اشتد حنق محمد على ، على عمر مكرم عندما طلب منه رفع الضرائب التى فرضها على الشعب مؤخرًا فما كان من محمد على إلّا أن طلب عقد مجلس شرع ليفصل فى الخلاف الذى نشب بينه وبين عمر مكرم ، ولما لم يحضر عمر مكرم جلسة المجلس معتذرًا بمرضه طلب محمد على من قاضى القضاة إثبات ذلك وأمر بعزله من نقابة الاشراف وأمر بنفيه فورًا من القاهرة إلى دمياط وعين مكانه الشيخ السادات نقيبًا للاشراف – ويصف الجبرتى وداع القاهريين له وحزنهم على فراقه لهم بقوله (وشيعه الكثير

من المتعممين وغيرهم وهم يتباكون حوله حزنًا على فراقه وكذلك اغتم الناس على سفره وخروجه من مصر (القاهرة) لأنه كان ركنًا وملجأً ومقصدًا للناس ولتعصبه على نصرة الحق)

ومنذ ذلك الحين ساءت العلاقة بينه وبين محمد على حتى انتهى به الأمر كما بيّنا إلى نفيه إلى دمياط ومنها إلى طنطا حيث توفى سنة ١٨٢٢ .

وقد عرفت ثورتنا المباركة لهذا الزعيم قدره فخلدت ذكراه بإطلاق اسمه على المسجد الذى أقيم فى ميدان التحرير بالقاهرة .

* * *

وصف المسجد

يقوم الجامع المعروف باسم عمر مكرم الآن والذى أنشأته وزارة الأوقاف حديثاً مكان جامع قديم بناه الأمير كريم الدين الكبير الناظر الخاص سنة ٧٢٠ هـ وهو أحد كبار الأمراء فى سلطان السلطان الناصر محمد بن قلاوون الثالثة . وقد دفن فى هذا الجامع الشيخ العبيط . وقد بحثت فى كتب التراجم وطبقات الصوفية الموضوعة حتى نهاية القرن العاشر الهجرى ولكنى وجدت اسمه فى خطط[٢] على مبارك ولذا فمن المرجح أن يكون من شيوخ القرن الحادى عشر أو القرن الثانى عشر أى قبل إنشاء الخديو إسماعيل قصره فى تلك الجهة يؤيد هذا ما ذكره أحمد رمزى[٣] من أن الخديو إسماعيل جدد جامع الشيخ العبيط عندما أنشأ سراى الإسماعيلية سنة ١٢٨٥ هـ .

ويصف على مبارك جامع العبيط فيقول : هو بجزيرة العبيط المعروفة قديماً بجزيرة (أروى) وتعرف جهته اليوم بالاسماعيلية من داخل السور الغربى لسراى الاسماعيلية الغربى قرب قناطر النيل المسماه بالكوبرى « ثم يضيف « وليس للمسجد مطهرة (دورة مياه) وبه ضريح الشيخ العبيط والشيخ زيدان وشعائره مقامة من وقف القصر » .

ونحن لانتفق مع ما ذهب إليه على مبارك من أن جزيرة العبيط التى يقوم عليها المسجد إنها كانت جزيرة كما لا نوافق على أن اسمها القديم هو جزيرة (أروى) للأسباب الآتية :

أولا ــ أن جامع العبيط هو جامع الأمير كريم الدين الكبير ناظر خاص الناصر محمد ابن قلاوون الذى حدد مكانه ابن تغرى بردى[٥] فقال خلف الميدان ، أى الميدان الناصرى الذى يطل على النيل بأرض القصر العالى حاليًا .

---

(١) هامش النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ٢٠٠ حاشية أحمد رمزى .

(٢) الخطط التوفيقية جـ ٥ ص ٤٦ .

(٣) النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ٢٠٠ (هامش)

(٤) الخطط جـ ٥ ص ٤٦ .

(٥) القاهرة القديمة وأحياؤها ـــ سعاد ماهر ص ١٠٦ ، النجوم الزاهرة ج ٩ ص ١٢٦ (هامش) .

ثانياً – لم تجر العادة أن تنشأ جوامع أو مساجد على جزر صغيرة فى وسط النهر .

ثالثاً – ظهرت فى القرن التاسع الهجرى جزيرتان منفصلتان فى مكان جزيرة الزمالك الحالية وكانت الجزيرة الجنوبية تعرف باسم جزيرة (أروى) كما عرفت باسم الجزيرة الوسطى ولم ينحسر عنها الماء إلا بعد سنة ٧٠٠ هـ . أما الجزيرة الشمالية فقد ظهرت فى النيل سنة ٧٤٧ هـ وسمتها العامة باسم جزيرة (حليمة) . وفى عهد الحملة الفرنسية ظهرت جزيرة ثالثة بالقرب من الجزيرتين السابقتين ، ثم اتصلت هذه الجزائر ببعضها وأصبحت جزيرة واحدة عرفت باسم جزيرة بولاق لمواجهتها لقرية بولاق . وفى عهد محمد على أقام عليها قصراً وبقربه مجموعة كبيرة من الاخصاص والعشش لمماليكه ، فعرفت الجزيرة باسم – (الزمالك) أى العشش أو الخيام المصنوعة من البوص بالتركية .

أما عن تحديد موقع جامع العبيط الذى أقيم عليه جامع عمر مكرم الآن . فقد أوضحه الأستاذ أحمد رمزى توضيحاً كافياً ليس فيه زيادة لمستزيد ، ولذلك فقد رأيت أن أنقله كما هو[1] .

جاء فى النجوم الزاهرة من ضمن الجوامع الكثيرة التى أنشئت فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون والتى تقام فيها الخطبة (خطبة الجمعة) والجماعة التى زادت على ثلاثين جامعاً ، جامع كريم الدين خلف الميدان ، كذلك ذكره المقريزى[2] فى خططه باسم جامع كريم الدين بخط الزريبة ، كما ذكر إبراهيم مغلطاى فى تاريخ سلاطين المماليك أن جامع كريم الدين الكبير عند مورد البلاط ، وبدراسة أحمد رمزى لهذا الجامع تبين له مايأتى :

أولا – أن منشئه هو كريم الدين عبد الكريم بن إسحاق بن هبه الله السديد القبطى المعروف بكريم الدين الكبير الناظر الخاص ، أنشأه حول سنة ٧٠٠ هـ .

ثانياً – أن خط الزريبة الذى أشار إليه المقريزى هو خط زريبة قوصون الذى يمتد على النيل من دار الآثار المصرية إلى شارع الشيخ الأربعين بخط قصر الدوبارة بالقاهرة .

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ٢٠٠ (هامش) .
(٢) الخطط والآثار جـ ٤ ص ٣ .

ثالثاً ـ أن مورد البلاط الذى ذكره مغلطاى كانت واقعة على شاطىء النيل تجاه قصر الدوبارة وخط القصر العالى .

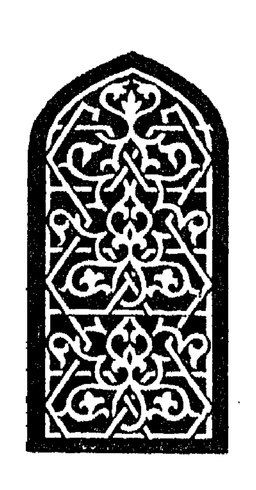
رابعاً ـ أن الميدان الذى ذكره ابن تغرى بردى هو الميدان الناصرى الذى كان واقعاً على النيل بأرض القصر العالى .

وعلى ضوء تلك البيانات تبين لنا أن مكان جامع كريم اليوم هو جامع الشيخ العبيط الذى جدده الخديو إسماعيل سنة ١٢٨٥ هـ ، وينسب إلى الشيخ محمد العبيط المدفون فيه .

أما عن الجامع الحديث الذى أطلقت عليه وزارة الأوقاف جامع عمر مكرم . ومع تقديرى واحترامى لتخليد ذكرى مجاهد وبطل من أبطال حركتنا الوطنيه فى العصر الحديث ، إلا أننى لا اتفق مع وزارة الأوقاف فى اطلاق اسم عمر مكرم على جامع الشيخ محمد العبيط أو الأمير كريم الدين الكبير الذى يرجع تاريخه إلى سنة ٧٢٠ هـ الذى كان ما يزال قائماً حتى هدمته وزارة الأوقاف . وكان الأجدر بوزارة الأوقاف أن تنشىء مسجداً جامعاً فى أى مكان آخر تخليداً لذكرى عمر مكرم خاصة وأن وفاة الزعيم الراحل ليست موجودة فى مقبرة الجامع .

ويتكون المسجد الذى أنشأته وزارة الأوقاف من مبنى معلق يرتفع عن مستوى الشارع بسبع درجات ، ويتكون المسجد من جزءين منفصلين ، الجزء الأول عبارة عن مربع له مدخل رئيسى فى الركن الشمالى الشرقى ومدخل آخر فى الجانب الغربى للمسجد وهذا الجزء معد للصلاة وفى وسط جدار القبلة يوجد محراب كبير ويتوسطه صحن صغير تحيط به أربعة إيوانات ، يتقدم كلا منها دعائم حجرية يغطيها سقف مبطن بالخشب به زخارف منقوشة بالطلاء الزيتى غاية فى الابداع . ويرتفع سقف الصحن عن سقف الإيوانات وتوجد به نوافذ للإضاءة . ويوجد بحوائط المسجد الثلاث البحرية والشرقية والغربية نوافذ مملوءة بزخارف جصية جميلة .

أما الجزء الثانى فعبارة عن مستطيل يتوسطه صحن به فتحات التهوية والإضاءة وقد أعد هذا الجزء خصيصاً لكى تقام فيه المعزى على الموتى .



ضريح قاضى القضاة
تقى الدين بن دقيق العيد
بالقرافة الكبرى بالقاهرة

هو محمد بن على بن وهب تقى الدين بن دقيق العيد القشيرى ، ولد بالبحر الأحمر تجاه ينبع عندما توجه والده لتأدية فريضة الحج فى يوم السبت الخامس عشر من شعبان سنة ٦٢٥ هـ . فلما دخل الكعبة أخذه والده على يده وطاف به ودعا له أن يجعله الله عالماً عاملا . وأمضى تقى الدين طفولته فى قوص حيث كان يقوم والده بالتدريس فى المدرسة التى بناها النجيب بن هبة الله سنة ٦٠٧ هـ ، وتتلمذ على يد والده الذى كان يدرس الفقه على مذهب الإمام مالك والإمام الشافعى . وكانت أمه من قوص فهى بنت الشيخ المقترح ، وهو الإمام تقى الدين المظفر بن عبد الله بن على بن الحسين ، فأصلاه كريمان وأبواه عظيمان ، وجاء فى الدرر الكامنة لابن حجر ، أن تقى الدين نشأ فى قوص على حالة واحدة من الصمت والاشتغال بالعلوم ، ولزوم الصيانة والديانة ، والتحرز فى أقواله وأفعاله ، والبعد عن النجاسة متشدداً فى ذلك حتى حكت زوجة أبيه قالت : بنى علىّ والده ، والشيخ تقى الدين ابن عشر سنين فرأيته ومعه هاون وهو يغسله مرات زمناً طويلا ، فقلت لأبيه : ماذا الصغير يفعل ؟ فقال له يا محمد أى شىء تفعل ؟ فقال : أريد أن أركب حبرا وأنا أغسل هذا الهون .

وابتدأ تقى الدين بقراءة كتاب الله العظيم حتى حصل منه على حظ وافر ثم رحل فى طلب العلم والحديث إلى دمشق والاسكندرية بعد أن تفقه وسمع الحديث من والده وغيره من فقهاء وعلماء قوص التى كانت تشغل مركز الصدارة فى صعيد مصر فى ذلك الوقت . وكان يقول البهاء معلمى وقرأ العربية على الشيخ شرف الدين محمد بن أبى الفضل المرسى وغيره ،

وقرأ الأصول على والده وحضر عند القاضى شمس الدين لما كان حاكمًا بقوص . وكان رحمه الله كثير الاطلاع حتى قيل أنه لايوجد كتاب فى مكتبات المدارس التى درس أو درّس بها فى القاهرة أو قوص إلا وعليها تأشيرات بخطه . أما تآليفه فيقول حاجى خليفة فى كشف الظنون « ولو لم يكن له إلا ما أملاه على (العمدة) لكان عمدة الشهادة بفضله والحكم بعلو منزلته فى العلم والنبل فكيف يشرح (الإلمام) وما تضمنه من الأحكام وما اشتمل عليه من الفوائد النقلية والقواعد العقلية . والأنواع الأدبية ، والنكت الخلافية والمباحث المنطقية ، واللطائف البيانية ، والمواد اللغوية ، والأبحاث النحوية ، والملح التاريخية والإشارات الصوفية وله كتاب (اقتناص السوانح) أتى فيه بأشياء غريبة ، ومباحث عجيبة ، وله املاء على (مقدمة) كتاب عبد الحق ، وكتاب فى علوم الحديث يعرف (بالاقتراح فى معرفة الاصطلاح) وله خطب وتعاليق كثيرة .

ولما قدم إلى القاهرة قام بالتدريس بعدة مدارس بها . كان أولها المدرسة الفاضلية التى أنشأها القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى بجوار المشهد الحسينى ، (وقد حل محلها المسجد الحسينى بعد توسعته) . ثم المدرسة الصلاحية التى أنشأها صلاح الدين الأيوبى بجوار مشهد الإمام الشافعى ، والمدرسة الكاملية بالنحاسين وبجوارها كان يسكن الشيخ تقى الدين وانتهى بالتدريس بالمدرسة الصالحية التى أنشأها الصالح نجم الدين أيوب آخر سلاطين الدولة الأيوبية . وكان قبل مجيئه إلى القاهرة يقوم بالتدريس بدار الحديث ببيت كان قد ورثه عن والده .

تولى القضاء فى عهد السلطان (لاجين) بعد امتناع شديد ، كما يذكر الاسنوى فى الطبقات ، حتى قالوا له : إن لم تفعل ولوا فلانا وفلانا — لرجلين لايصلحان القضاء ، فرأى أن القبول واجب عليه حينئذ . وقد عزل نفسه غير مرة ثم يعاد . ويصف السيوطى بعض أحواله عندما ولى القضاء فيقول : وكان القضاة يخلع عليهم الحرير ، فامتنع الشيخ تقى الدين من لبس الخلعة وأمر بتغييرها إلى الصوف ، فاستمرت إلى الآن (أى إلى عهد السيوطى فى القرن التاسع الهجرى) . ويضيف : أنه حضر مرة عند السلطان (لاجين) فقام إليه السلطان وقبل يده ، فلم يزده على قوله : أرجوها لك بين يدى الله .

وكان الشيخ تقى الدين عزيز النفس مترفعا فى معاملة الأمراء وعلية القوم وفى ذالك يقول الأدفوى فى (الطالع السعيد) : أن الشيخ (تقى الدين) رأى الأمير (الجوكندار) أتى إليه فتحرك له تحريكة لطيفة ، وسكت زمانًا ، ثم قام إليه وقال : ولعل الأمير حاجة ؟ وكان مرة متكئا فحضر الكمالى (أمير حاجب) برسالة ، فكشف عن وجهه فسمعها وقال له : هذا ما ينعمل . فوقف الحاجب زمانًا ثم قال : ياسيدى ما الجواب ؟ فقال : عجب ما سمعت الجواب !! وغطى وجهه . ولما عزل نفسه ثم طلب ليُولى ، قام السلطان الملك المنصور (لاجين) له واقفًا لما أقبل ، فصار يمشى الهوينا وهم يقولون له : السلطان واقف فيقول : أدينى أمشى . وجلس معه على الجوخ حتى لايجلس دونه ، ثم نزل فغسل ماعليه واغتسل ، وقبل السلطان يده فقال ينتفع بهذا .

وكان الشيخ تقى الدين مع ما اتصف به من حزم وورع وتقوى وترفع فى معاملة السلاطين والأمراء ، خفيف الروح لطيفًا ، يميل إلى المرح فى حياته الخاصة على نسك وورع ، يقول الأدفوى : أخبرونى بقوص أنه لعب الشطرنج فى صباه مع زوج أخته ، فلما حان وقت صلاة العشاء قاما فصليا ، ثم قال الشيخ : نعود ، فقال له صهره : إن عادت العقرب عدنا لها ، فلم يعد يلعبها .

وكان رحمه الله لايخشى فى الله لومة لائم ومع ذلك كان عديم البطش قليل المقابلة على الإساءة وفى ذلك يقول الأدفوى : ومن مشهور حكاياته فى ذلك قضية قطب الدين بن الشامية وإنه كلمه بحضرة الناس كلامًا تألم منه . وقام من المجلس وظن الناس إنه سيقابل الإساءة بمثلها فلم يفعل وسألوه عن ذلك فقال : خشيت أن يغتر بذلك » . ويضيف الأدفوى فيقول : ومات الشيخ تقى الدين وحصل لابن الشامية من الأمير ركن الدين بيبرس ظلم وجور ، فكان كثير من الناس العارفين يقول إن الله قد انتقم للشيخ منه . ومما يروى فى هذا المقام ما حكاه الفقيه شرف الدين الأخميمى إذ قال : كنا بين يديه والموقعين وهو بمجلس الحكم بالكاملية وإذا بشخص هجم وقصده ، ومنعه الرسل منعًا عنيفًا ، فرماهم بيده وقال بصوت قوى ، من هذا حتى تمنعونى منه ؟ أخليفة هذا ؟ فنظر الشيخ إلى ذلك الشخص لحظة وعمل بيده فأقبل يأتى وفتح أصابعه .

وكان كريماً جوادًا سخيًا ، كان يعطى فى كثير من الأحيان الذهب والفضة ، حكى الشيخ نجم الدين عقيل البالسى ، أنه قدم فى الجفل ، فحضر عنده وتكلم ، فأرسل إليه مائتى درهم ثم ولاه النيابة بمصر . وبرغم جوده وسخائه إلا أنه كان غالبًا فى فاقة ، تلزمه الإضافة كما يقول الأدفوى ، فيحتاج إلى الاستدانة ، وقد تقضى به إلى بذل الوجه – المعروف بالصيانة ، ويضيف الأدفوى ، حكى لى شيخنا قاضى القضاة أبو عبد الله بن جماعة ، إنه حضر عنده أمين الحكم بالقاهرة وكان فيه اجتهاد فى تحصيل مال الأيتام ، فأحضر عندى مرة ابن دقيق العيد وادعى بدين عليه للأيتام فتوسطت بينهما ، وقررت معه أن تكون جامكية (راتب) المدرسة الكاملية للدين والمدرسة الفاضلية لكلفه ، ثم قلت له : أنا أشح عليك بسبب الاستدانة ، فقال ما يوقعنى فى ذلك إلا محبة الكتب . ويقول الشيخ تاج الدين الدشناوى حضرت عنده ليلة وهو يطلب شمعة فلم يجد معه ثمنها فقال لأولاده : فيكم من معه درهم ؟ فسكتوا ، فأردت أن أقول معى درهم ، فخشيت أن ينكر على ، فإنه كان إذ ذاك قاضى القضاة ، فكرر الكلام : فقلت : معى درهم ، فقال : ما سكوتك ؟ .

ويقول السيوطى (فى حسن المحاضرة) وكان لابن دقيق العيد نصيب مما ينسب للصالحين من الكرامات ، وما يعزى إليهم من المكاشفات ، فقد حكى شهاب الدين الزبيرى المحدث قال : كنت عند الصاحب زين الدين ، ووالى مصر عنده ، فحضر البريدى وناول الوالى كتابًا فقال : أطلبوا المقدم ، فقال له الصاحب ما بالك ؟ فقال طلب أن يقرأ البخارى بسبب التتار وذكر الجيش ، فقال الصاحب المقدم ما يقوم بهذا ، أنا أتكفل لك بهذه القضية وأخرج البخارى فى اثنى عشر مجلدًا ، وذكر الجماعة فواعدنا واجتمعنا وقرأنا البخارى حتى ختمناه يوم الجمعة . فلما كان يوم الجمعة رأينا تقى الدين بن دقيق العيد بالجامع فسلمنا عليه فقال : ما فعلتم ببخاريكم ؟ لقد انفصل الحال من أمس العصر وبات المسلمون منتصرين فقلنا نخبر عنك ؟ فقال نعم ، فجاء الخبر بعد أيام بذلك » .

ويقول الأدفوى فى سبب تسمية جده (دقيق العيد) إنه كان عليه يوم عيد طيلسان شديد البياض فقال بعضهم ، كأنه دقيق العيد ، فلقب به رحمه الله تعالى .

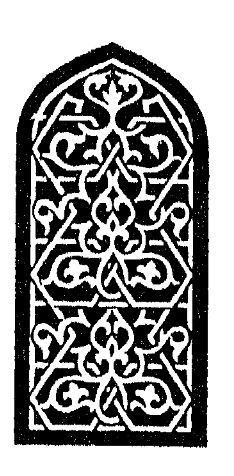
ولعل خير ما نختم به الحديث عن تقى الدين بن دقيق العيد هو ما جاء فى وصفه على

لسان معاصره الأَدفوى إذ يقول : هو التقى ذاتا ونعتا ، والسالك الطريق التى لا عوج فيها ولا أَمْتَا . والمحرز من صفات الفضل فنونًا مختلفة وأنواعًا شتى ، والمتحلى بالحالتين — الحسنيين صمتا وسمتا ، الشيخ الإمام علامة العلماء الأَعلام وراوية فنون الجاهلية والإسلام .

توفى رحمه الله يوم الجمعة فى الحادى عشر من صفر سنة ٧٠٢ هـ ودفن بسفح المقطم وكان ذلك يومًا مشهودًا ، سارع الناس إليه ، ووقف جيش ينتظر الصلاة عليه ، ورثاه جماعة من الفضلاء والأُدباء بالقاهرة وقوص .

* * *

ويقع الضريح بجبانة التونسى حيث يوجد ضريح العز بن عبد السلام وعطاء الله — السكندرى . ويتكون الضريح من مبنى مربع ، فى ضلعة الشرق ثلاثة محاريب أوسطها أكبرها وأعمقها . وفى الحائط الغربى يوجد المدخل وهو عبارة عن باب يتقدمه عقد مفصص محلى بثلاثة صفوف من الدلايات . والضريح مغطى بقبة تقع على خمسة صفوف من المقرنصات فى أركان المربع .



المدرسة الناصرية بالنحاسين

بالجمالية سنة ٧٠٣هـ

هو السلطان الملك الناصر محمد بن الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفى العلائى الصالحى ، أمه أشلون[١] خاتون ابنة الأمير سكناى ، ولد يوم السبت النصف من المحرم سنة أربع وثمانين وستمائة بقلعة الجبل من مصر ، فلما قتل أخوه الملك الأشرف صلاح الدين خليل بالقرب من تروجه ، وقع التنافس بين أمراء المماليك على الوصول إلى العرش وقتل فى هذه الفتنة الأمير « بيدرا » الذى أراد أن يتربع على العرش .

ولما لم يكن بين هؤلاء الأمراء المتنافسين من يتمتع بشخصية قوية ، لذلك استقر رأيهم على اختيار « محمد » سلطانا عليهم وكان كل منهم يضمر فى نفسه اغتصاب الملك من الملك الصغير عند سنوح الفرصة .

جلس الناصر محمد على العرش فى السادس عشر من المحرم من سنة ثلاث وتسعين وستمائة بعد الهجرة وكان له من العمر تسع سنوات ، فاختير الأمير « كتبغا » نائبًا للسلطنة والأمير سنجر الشجاعى وزيرًا ، والأمير بيبرس الجاشنكير استادادا ، وحلف الجند على ذلك وأصبح الأمير « كتبغا » هو القائم بجميع أمور الدولة فأرسل إلى نائب الشام كتابًا على لسان السلطان خليل يتضمن اختياره (الناصر) وليًا لعهده ويطلب منه أخذ البيعة له وكان هذا الأمر بتدبير الشجاعى[٢] تلافيا لما قد يحدث بالشام من قلاقل عندما يبلغهم خبر قتل السلطان خليل .

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٧٩٣

(٢) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٧٩٥

استمر الحال بالشام مدة ثلاثة أشهر ثم وصل إلى نائب الشام خبر مقتل السلطان خليل واختيار الناصر مكانه وطلب إليه الاقتصار فى الخطبة على اسم (الناصر) وحده . وأول عمل حكومة كتبغا هو القبض على المماليك الذين اشتركوا فى مقتل السلطان (خليل) فقبض على كثير منهم وساروا بهم بعد أن قطعوا أيديهم وسمروا على الجمال وأيديهم معلقة فى أعناقهم ورأس الأمير « بيدرا » محمولة على رمح . استطاع (لاجين) أحد المشتركين فى قتل الأشرف خليل أن يهرب ويقال أن الأمير (كتبغا) نائب السلطنة تستر عليه لما كان بينهما من الصداقة والمحبة .

لم يدم الوفاق بين (كتبغا) و (سنجر الشجاعى) وأوعز كتبغا إلى السلطان الناصر بأن سنجر قد انفرد برأيه فى القبض على الأمراء وأنه تجب محاسبته على فعلته هذا فبعث السلطان يستدعيه فلم يستجب خوفًا على حياته ، عند ذلك حاصر كتبغا القلعة لأن الشجاعى دبر القبض على كتبغا واستمال الأمراء البرجية والمماليك السلطانية وفرق عليهم أموالا كثيرة وقرر أن من أتاه برأس أمير من الأمراء الذين مع كتبغا فإنه يعطيه[1] إقطاعه وبلغ كتبغا هذا التدبير فاحترز وقطع الماء عن القلعة بعد أن حاصرها سبعة أيام واندلعت الحرب بين جنود سنجر وجنود كتبغا . فلما اشتد الحصار طلعت[2] أم السلطان على سور القلعة ، وسألت الأمراء عن غرضهم فقالوا (مالنا غرض إلا القبض على الشجاعى وإخماد الفتنة ولو بقى فى بيت أستاذنا (أى قلاوون) بنت عمياء كنا مماليكها ولاسيما وولده الملك الناصر حاضر وفيه الكفاية) .

انضم عدد من رجال سنجر إلى رجال كتبغا ، فطلب سنجر الأمان ولكن الأمراء أبوا عليه ذلك ، واحتال حتى دخل على السلطان وسأله السلطان عن مآل النزاع الذى بينه وبين كتبغا فقال : « هذا كله من أجلك يا ابن أستاذنا) فإن أتباع كتبغا قصدوا أن يخلعوك من السلطة ويقبضوا علىّ » فأشار السلطان عليه أن يقعد فى مكان بالقلعة ويرسل الأمراء للسلطان للتوفيق بينهم على أن يعطى سنجر ولاية الشام ولكن سنجر لم يوافق وخرج من القلعة قاصدًا داره

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٧٩٨

(٢) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٨٠١

فاعترضه بعض رجال كتبغا وقتلوه وطلع كتبغا ومن معه إلى القلعة ونودى بالأمان وفتحت أبواب القاهرة ورفعت رأس (سنجر) على رمح فوق أسوار القلعة ثم نزلوا بها إلى القاهرة وطافوا بها .

خرج (لاجين) أحد الأمراء الذين اشتركوا فى قتل السلطان السابق خليل بن قلاوون من مخبئه وحصل على عفو من السلطان بشفاعة صديقه كتبغا فاندمج مع باقى الأمراء البارزين فى الدولة غير أن علو نجم (لاجين) أغضب مماليك السلطان الراحل الأشرف خليل إذ لم ينسوا له اشتراكه فى قتل سيدهم وقد أوغر ذلك صدورهم يضاف إليه سوء معاملة (كتبغا) لهم فقاموا بثورة كبيرة من منازلهم إلى قلعة القاهرة وقصدوا سوق السلاح ونهبوا ما فى حوانيته من أسلحة إلا أن الحكومة استطاعت القضاء على هذه الثورة وقبضت على الثوار ونكلت بهم .

ولما استقرت الأمور فى البلاد بدأ (لاجين) يسلك طريق الحيلة والدسيسة ليصل إلى العرش فأغرى صديقه (كتبغا) للاستئثار بالملك فتحدث الأخير إلى الخليفة العباسى فى عدم أهلية (الناصر) لصغر سنه ، كما تحدث إلى الأمراء وإلى القضاة ذاكرًا لهم أن البلاد فى حاجة إلى رجل يخافه الجنود وتخشاه الرعية متخذًا من ثورة المماليك الأشرفية دليلا على ذلك ، فاقتنع الخليفة ووافق الأمراء والقضاة عليها وأقروا جميعًا خلع (الناصر) وتولية كتبغا مكانه وحلفوا له وأصبح سلطانًا على مصر والشام من ١١ من المحرم سنة أربع وتسعين وستمائة.

فى كل تلك الأحداث كان الناصر يقف موقف المتفرج ولايملك أن يغير فى مجراها أويدلى برأى فيها لصغر سنه . ولما تربع كتبغا على عرش السلطنة أمر بنقل الناصر محمد وأمه من القصر وأسكنه فى بعض قاعات القلعة وانتهت بذلك السلطنة الأولى للناصر محمد بعد أن استمرت مدة سنة إلّا ثلاثة أيام .

كافأ كتبغا صديقه لاجين – الذى حبب إليه طريق الاستئثار بالملك ثم رسم له طريق الوصول إلى ذلك – بأن جعله نائبًا له غير أن هذا لم يقتنع به لاجين الذى كان يتطلع إلى السلطنة فانتهز النكبات التى اقترن بها حكم كتبغا التى منها وفود طائفة من المغول الهاربين من ملكهم غازان واكرام كتبغا لهم لأنهم من بنى جلدته وتقليده لعدد منهم الإمارة الأمر الذى أحفظ عليه المماليك أما الشعب فقد كره هؤلاء المغول لأنهم عبدة الأوثان بالإضافة

إلى اشتداد الغلاء فى تلك السنة وتناقص مياه النيل تناقصًا شديدًا فارتفعت الأسعار ارتفاعا فاحشًا وتفشى الوباء بصورة مروعة . حاول لاجين قتل كتبغا غير أنه لم ينجح إذ اختفى كتبغا ونصب الأمراء لاجين سلطانًا وأحب ألا يقاسمه أحد من ذوى النفوذ فى سكنى القلعة فأنزل الخليفة منها وأبعد (الناصر محمد) إلى الكرك .

لم يهدأ بال (لاجين) وطاردته جريمة قتل السلطان خليل وأصبح شبح الموت يؤرقه وقد صدق حدسه إذ قتله أحد المقربين إليه وتبعه باقى المتآمرين المتذمرين من استبداد نائبه (منكوتمر) الذى قتل بدوره .

أصبح عرش مصر خاليًا من سلطانه الشرعى وأجمع الأمراء على استدعاء الناصر من الكرك وحضروا إليه بالكرك يستحثونه للتوجه إلى القاهرة وسار ومعه نائب الكرم إليها فخرج الأمراء والعساكر إلى لقائه وكادت القاهرة ومصر ألا يتأخر أحد بهما من الناس فرحًا بقدومه[1] وحضر الخليفة الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد والقضاة وأعيد إلى السلطنة وجلس على تخت الملك وكان ذلك فى جمادى[2] الأولى من سنة ٦٩٨ هـ وله من العمر أربع عشرة سنة . وبعد أيام من ولايته ورد الخبر بأن التتار هددت بلاد الشام ، فجهز الملك الناصر جيشًا كان هو على رأسه ومعه الأمير (سلار) والأمير (بيبرس) وما كاد المغول يعلمون بقدوم جيش الناصر محمد حتى أشاعوا أنهم لا قبل لهم بجيش الناصر وأنهم عائدون إلى بلادهم ، فانخدع السلطان والأمراء بهذا القول الذى لم يكن إلّا مكيدة انقضوا بعدها على جيش الناصر وأنزلوا به هزيمة نكراء عادت بعدها فلول الجيش السلطانى إلى القاهرة تجر أذيال الهزيمة . لم تثن الهزيمة عزيمة السلطان ورجاله فأعادوا الكرة على التتار والحق الجيش المصرى بالتتار هزيمة منكرة وخرج السلطان إلى دمشق وسط عدد كبير من الفرسان فخرج إليه أهلها مهللين مكبرين شاكرين الله على هذا النصر . وفى مصر كانت الفرصة الكبرى بسلامته وبانتصار جيشه تنتظره فدخلها فى ٢٣ شوال سنة ٦٩٨ هـ دخول المنتصرين الفاتحين[3] على أن هذا النصر الذى حالف السلطان الناصر على المغول كان قد سبقه نصر آخر فى الداخل

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٨٧٢

(٢) النجوم الزاهرة : جـ ٨ ص ١١٥

(٣) النجوم الزاهرة : جـ ٨ ص ١٦٥

وهو تخليص البلاد من شرور الاعراب الذين كانوا يعيثون فى البلاد ويهددون المدن والقرى بالنهب والسلب والاحتماء بالصحراء والجبال المحيطة بالقرى التى يهاجمونها كما تلاه نصر آخر وهو استيلاء بحريته على جزيرة صغيرة واقعة أمام ساحل مدينة (طرابلس) تعرف بجزيرة (أرواد) كانت معقلا للصليبيين يهددون منها سواحل بلاد الشام .

ضاق صدر السلطان من تحكم بيبرس الجاشنكير وسلار عليه وغل يده عن التصرف فى أى شىء من أمور الدولة ، حتى أنه لايصل إلى ما تشتهى[1] نفسه من المآكل لقلة المرتب له فلولا ما كان يتحصل له من أملاكه وأوقاف أبيه لما وجد سبيلا لبلوغ بعض أغراضه ، فأظهر أنه يريد الحج بعياله وحدث بيبرس وسلار فى ذلك فوافقا عليه وركب فى ٢٥ رمضان سنة ٧٠٨ ﻫ يريد الحج وخرج العامة حوله يدعون له إلى أن نزل بركة الحجاج ثم سار إلى الكرك : وعندما استقر بقلعة الكرك عرّف الأمراء بأنه رغب عن الحج واختار الإقامة بالكرك وترك السلطنة وخلع نفسه ليستريح خاطره وكانت مدة سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون فى هذه المرة الثانية عشر سنين وخمسة أشهر وتسعة عشر يوما[2] .

وفى السنة السادسة من ولاية الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية على مصر وهى سنة ثلاث وسبعمائة كملت عمارة المدرسة الناصرية بين القصرين ونقل الملك الناصر محمد رفات أمه من التربة المجاورة للمشهد الحسينى إليها . وموضع المدرسة[3] الناصرية كان دارا تعرف بدار سيف الدين بلباى الرشيدى اشتراها الملك العادل زين الدين كتبغا وشرع فى بنائها مدرسة وعمل بوابتها من أنقاض مدينة عكا وهى بوابة كنيسة . ولما خلع كتبغا اشتراها الملك الناصر محمد .

ويعلق الأستاذ محمد رمزى على هذه المدرسة[4] فيقول : تكلم المقريزى فى خططه على هذه المدرسة (ص ٣٨٢ ج ٢) فقال أنها بجوار القبة المنصورة من الجهة البحرية . أنشأها الملك العادل زين الدين كتبغا المنصورى فابتدأ فى وضع أساسها فى سنة ٦٩٥ ﻫ ، وبعد أن

(١) النجوم الزاهرة : ج ٨ ص ١٧٥

(٢) النجوم الزاهرة : ج ٨ ص ١٨١ وفى السلوك (وسبعة عشر يوماً) .

(٣) النجوم الزاهرة : ج ٨ ص ٢٠٩

(٤) النجوم الزاهرة : ج ٨ هامش صفحة ٢٠٨ فقرة (٢) .

ارتفع بناؤها عن الأرض إلى نحو الطراز المذهب الذى بظاهرها تصادف أن خلع كتبغا وعاد الناصر محمد بن قلاوون إلى مملكة مصر ، فاشترى هذه المدرسة قبل اتمامها وأكملها فى سنة ٧٠٣ هـ وهى من أجمل مبانى القاهرة وبوابتها من الرخام الأبيض أصلها على باب كنيسة من كنائس عكا ، وداخل باب هذه المدرسة قبة جميلة مدفون بها والده الناصر وابنه آنوك وأما الملك الناصر محمد بن قلاوون فهو مدفون فى تربة والده المنصور قلاوون المجاورة لهذه المدرسة وأضاف الأستاذ محمد رمزى يقول : ولاتزال المدرسة الناصرية موجودة إلى اليوم بين جامعى قلاوون وبرقوق بشارع المعز لدين الله (شارع بين القصرين سابقًا) بالقاهرة وتعرف بجامع الناصر . ومما يلفت النظر فى هذه المدرسة من الوجهة المعمارية الواجهة المزينة بالزخارف والكتابات وطراز بوابتها الجوتيكى من الرخام المضلع والمئذنة القائمة على الباب المغشاة بالزخارف الجصية وهى من أدق وأحسن ما وجد من نوعها . ولم يبق من أواوين المدرسة غير الإيوان الشرقى بمحرابه الجصى النادر ، والإيوان الغربى وبه شباك غاية فى الدقة .

عاد الناصر محمد إلى عرشه وتربع عليه للمرة الثالثة وكان عمره خمسة وعشرين عامًا فخرج إلى دمشق من الكرك فتلقاه الأمراء الذين وقفوا إلى جانبه ضد (بيبرس الجاشنكير) بالترحاب وخرجت إليه العامة مهللة وسار الناصر ومن معه من الأمراء إلى القاهرة فتلقاه الشعب بالبشر والترحاب وانتقم أولا من بيبرس بقتله ثم استدار إلى سلار الذى استدعاه من منطقة الشوبك الذى طلب من السلطان أن يعينه بها وقبض عليه وأودع سجن القلعة ومنع عنه الطعام والشراب إلى أن مات وصودرت أمواله وكانت شيئًا كثيرًا ردت إلى بيت المال فبعث إليه بأكثر من خمسين حملا من الذهب والفضة والجواهر والدنانير واللجم المفضضة والأقمشة المزركشة .

وكان الناصر محمد فى حياته[1] الخاصة مثال الزوج الوفى والأب الحكيم ، فعلى الرغم من كثرة مشاغله ، لم ينسه ذلك واجبه نحو زوجاته ونحو أولاده ، ولذلك كان يخرج للنزهة مع زوجاته وبناته وكانت منطقة الجيزة والأهرام أحب البقاع إليه ، فكثيرًا ما كان يغشاها للاستجمام وكان يستدعى (الحريم) إليه من القلعة لقضاء بعض الوقت فى النزهة وإذا

(١) النجوم الزاهرة : جـ ٩ ص ١٧٣ وما بعدها .

خرجن أخليت الطرقات لهن من المارة وغلقت الحوانيت وقت مرور موكبهن . وفى بعض الأحيان كان يدعى إلى هذه النزهة نساء الأمراء المتصلين بالسلطان ليكن فى معية نسائه .

وكان عطف السلطان على بنيه وبناته مشربا بالحزم ، فقد كان يعنى بتوفير وسائل الحياة الرغدة لهم ولكنه لم يكن يسمح لهم قط بأن يخرجوا بحكم كونهم أبناء السلطان — عن الطريق السوى أو أن يستغلوا هذه الصلة فى انتهاك حرمات الغير .

وكان إذا علم عن أحد منهم ما يشينه أوقع به أقسى العقاب ليردعه ويثنيه عن غيه حتى يشعره أنه مغضوب عليه وعلى سبيل المثال عندما علم أن ابنه الأمير (أحمد) قد أساء السيرة فى الكرك بعث يستدعيه إليه ولم يدع أحدًا من الأمراء يخرج لاستقباله ولما دخل على والده فى القصر وقبل الأرض بين يديه ثم اعتدل من وقفته تركه واقفًا ما يقرب من ساعة وهو متشاغل عنه ولم يسمح له بتقبيل يده فمضى إلى الدور السلطانية حزينًا كاسف البال .

انفرد الناصر محمد بين سلاطين المماليك بطول مدة حكمه ، فقد استمرت أيام سلطنته الثالثة وحدها اثنتين وثلاثين سنة تقريبًا والواقع أنه منذ قدوم الناصر من الكرك فى سلطنته الثالثة إلى أن مات وهو فى حركة تعمير متواصلة إذ ما كان ينتهى من مشروع حتى يبدأ آخر ومن أهم منشآته العامة فى مدينة القاهرة الميدان العظيم والقصر الأبلق والإيوان ومسجد القلعة ، وحوش الغنم والميدان الناصرى وبستان باب اللوق وقناطر السباع .

أما الميدان[1] العظيم فقد أنشأه تحت قلعة الجبل بعد جلوسه على العرش فى السلطنة الثالثة بأربع سنوات ، وقد وزع العمل فيه على الأمراء فصارت جمالهم تنقل الطين إليه حتى امتلأ ، وحفر فيه الآبار وركبت عليه السواقى ، وغرس فيه النخيل والأشجار المختلفة وأحاطه بسور عظيم من الحجر ، كما بنى خارجه حوض ماء للسبيل وكان يلعب فيه الكرة مع الأمراء ، ولا يزال هذا الميدان موجودًا تحت اسم (قره ميدان) أو الميدان الأسود .

أما القصر[2] الأبلق فقد أنشأه فوق الميدان سالف الذكر وجعله من أعظم أبنية عصره واستدعى له من دمشق مهرة البنائين والمزخرفين ليشاركوا مع مهرة صناع مصر فى ابداعه

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٢٨ .

(٢) النجوم الزاهرة : جـ ٩ ص ٣٦ .

وقد كانت واجهته مكونة من أشرطة عريضة متوازية لونها أسود وأصفر على التوالى وتسميته بالقصر الأبلق جاءت من هذه الظاهرة ، ومن أبواب القصر امتدت دهاليز إلى الداخل مفروشة بالرخام ومغطاة بأبسطة جميلة ، أما الجدران من الداخل فقد كانت تزدان بالرخام وبالصدف والألوان الجميلة وكانت السقوف كلها مذهبة وكانت النوافذ تسدها شبابيك من الحديد جميلة الصنع وكانت هناك طاقات تخترق الجدران ومغطاة بالزجاج المختلف الألوان — أما أرضية القصر فقد فرشت كلها بالرخام المنقول من شتى أقطار الأرض . ويشرف القصر على بساتين وساحات آية فى الجمال .

وقد كان السلطان يجلس على تخت الملك المنصوب بصدر الإيوان الرئيسى فى هذا القصر يستقبل الوفود فى سائر أيام الأسبوع . وهذا الإيوان كان موجودًا قبل السلطان الناصر إذ أنشأه والده السلطان قلاوون وجدده بعده الملك الأشرف خليل وأعاد الناصر بناءه وأنشأ به قبة عظيمة وأقام فيه عمدًا جلبت إليه من معابد الصعيد .

أما المسجد[1] فقد أقامه إلى جانب القصر والإيوان فكان مسجدا صغيرا هدمه وبنى مكانه مسجدًا كبيرًا أدخل فيه بعض الأبنية المجاورة ليجعله واسع الأطراف . أرض المسجد مفروشة بالرخام وسقفه محلى بالألوان المذهبة وفى صدره قبة عالية وبه مقصورة تحيط بالأروقة وبها شبابيك الحديد المحكمة الصنع ، وله مئذنتان تعتبران من أروع المآذن فى مصر لهما مظهر غريب يميزهما عن باقى المآذن المصرية ، وقد كسيتا من أعلى بألواح القاشانى .

أما (حوش الغنم)[2] فأنشأه للعناية بتربية الأغنام والأبقار والأوز ، فقد كان فى القلعة فى بقعة كانت محجرا تقطع فيه الأحجار وأصبح مكانها غورًا عظيما فأمر بإزالة التراب عنه ، وكلف الأمراء بالعمل فى ذلك مع مماليكهم ورجالهم ولما فرغوا من عمله أجريت إليه المياه وأقيمت به الأغنام والأبقار وبنيت فيه بيوت للأوز .

أحدث الناصر محمد بالقاهرة الميدان الكبير الذى عرف بالميدان الناصرى[3] نسبة

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٢٥ .

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٢٩ .

(٣) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٠٠ .

إليه ومكانه الآن منطقة جاردن سيتى يحده من الشمال شارع رستم ومن الشرق القصر العينى ومن الجنوب شارع الوالدة باشا ومن الغرب شارع القصر العالى وقد خصص الناصر هذا الميدان لسباق الخيل .

وقناطر السباع[1] من المنشآت التى سبقت فى وجودها عهد الناصر محمد إذ شيدها الظاهر بيبرس فوق الخليج بين مصر والقاهرة وجعل عليها سباعًا حجرية شعاره أى (رنكه) وعندما أنشأ الناصر محمد الميدان الناصرى وتردد إليه كثيرًا كان يمر إليه من قلعة الجبل عن طريق قناطر السباع فتضرر من علوها ، فهدمها وأعاد بناءها بعد توسيعها وبجوار قناطر السباع أنشأ الناصر (ميدان المهار) والمهر ولد الفرس وقد كان الدافع إلى إنشائه هو أن يجعل جميع خيوله به . وعند باب اللوق أنشأ السلطان بستانًا عظيمًا ، أحضر له سائر أصناف الزراعة كما استقدم له من بلاد الشام الخولة والمطعمين الذين يجيدون فن تطعيم الأشجار ويقول المقريزى أن المصريين تعلموا فن تطعيم الأشجار منذ إنشاء هذا البستان .

لم يقصر الناصر محمد إصلاحاته على القاهرة — بل اتجه إلى الريف فلقد أمر بحفر[2] خليج يمتد من القاهرة إلى مدينة (سرياقوس) واخترق هذا الخليج فى امتداده بعض أحياء القاهرة وأقيمت عليه القناطر الكثيرة وقد ترتب على إنشاء هذا الخليج أن عمرت جهات مختلفة من مصر والقاهرة وقامت على جانبيه الدور والقصور والمساجد والأسواق والبساتين وانقلبت أراض كانت تلالا إلى بقاع مسكونة وعرف بالخليج الناصرى .

أنشأ السلطان الناصر محمد بناحية سرياقوس التى مد إليها الخليج الناصرى — دارًا للصوفية (خانقاه)[3] كانت من أجمل الدور وقد كان فيها مائة خلوه لمائة صوفى يتفرغون فيها للعبادة وقد حرص السلطان على أن يوفر لهم ما هم فى حاجة إليه وكل ما يعاون على تفرغهم للعبادة . وقد عمر هذا المكان وصار مع الزمن مدينة عظيمة تحمل اسم (الخانكاه) وهو كما نرى مستمد من اسم الخانقاه .

---

(١) المقريزى : الخطط جـ٢ ص ١٤٦ .
(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٤٥ .
(٣) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٤٢٣ .

وصف المدرسة

يصف المقريزى هذه المدرسة فيقول : تقع هذه المدرسة بجوار القبة المنصورية من شرقيها كان موقعها حماماً فأمر السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا بإنشاء مدرسة موضعها فابتدىء فى عملها ووضع أساسها وارتفع بناؤها عن الأرض إلى نحو الطراز المذهب الذى بظاهرها . فلما خلع وعاد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى ملك مصر ٦٩٣ هـ ،أمر باتمامها فكملت فى سنة ٧٠٣ هـ . وهى من أجمل مبانى القاهرة وقد اشترى الناصر محمد هذه المدرسة قبل اتمامها والاشهار بوقفها وولى شراءها وصية قاضى القضاة زين الدين على ـ ابن مخلوف المالكى . وأنشأ بجوار هذه المدرسة من داخل بابها قبة جليلة لكنها دون قبة أبيه ولما كملت نقل إليها أمه بنت سكباى بن قراجين ووقف على هذه المدرسة قيسارية أمير على بخط الشرابشيين من القاهرة والربع الذى يعلوها وكان يعرف بالدهيشة . كما وقف عليها حوانيت بخط باب الزهومة[٢] ودار الطعم خارج مدينة دمشق . فلما مات ابنه أنوك من زوجه الخاتون طغاى سنة ٧٤١ هـ وكان عمره ثمانى عشرة سنة دفنه بهذه القبة وعمل عليها وقفاً يختص بها .

ويصف المقريزى باب هذه المدرسة الذى نقله الأشرف خليل بن قلاوون بعد أن استولى على عكا فيقول : فلما فتح الأشرف خليل عكا سنة ٦٩٠ هـ وجد هذه البوابة على باب كنيسة من الكنائس وهى من الرخام قواعدها وأعضادها وعمدها كل ذلك متصل بعضه ببعض فحمل الجميع إلى القاهرة وأقام عنده حتى قتل الملك الأشرف . فلما خلع الناصر محمد وتملك كتبغا أخذ دار الأمير سيف الدين بلبانه الرشيدى ليعملها مدرسة فدل على هذه البوابة

---

(١) الخطط جـ ٢ ص ٣٨٢ .

(٢) أحد أبواب الباب الشرق الكبير وقد عرف بالزهومة لرائحته حيث أنه باب المطبخ وقد حل محله الآن إيوان الحنابلة بالمدرسة الصالحية بالصاغة .

فأخذها من ورثة الأمير بيدرا فإنها كانت قد انتقلت إليه وعملها كتبغا على باب هذه المدرسة[1] .

وأول من تولى التدريس بالمدرسة الناصرية قاضى القضاة زين الدين على بن مخاوف المالكى ليدرس فقه المالكية بالإيوان الكبير القبلى وقاضى القضاة شرف الدين عبد الغنى الحرانى ليدرس فقه الحنفية بالإيوان الشرقى والشيخ صدر الدين محمد بن المرحل المعروف بابن الوكيل الشافعى ليدرس فقه الشافعية بالإيوان البحرى . وقرر عند كل مدرس منهم عدة من الطلبة وأجرى عليهم مرتبات ورتب لهم إماماً يؤم الناس فى الصلوات الخمس . وكانت المدرسة تحتوى على خزانة كتب جليلة ويحدثنا المقريزى عن مشاهداته الشخصية بهذه المدرسة فيقول : أدركت هذه المدرسة وهى محترمة للغاية يجلس بدهليزها عدة من الطواشية ولا يمكن أن يدخلها غريب . وكان يوزع على الطلبة والقراء وسائر أرباب الوظائف بها السكر فى كل شهر ، ويفرق عليهم كذلك اللحوم فى الأضاحى .

تقع مدرسة الناصر محمد بين مجموعة المنصور قلاوون ومدرسة السلطان برقوق . وهى عبارة عن مستطيل يضم أربعة إيوانات كبيرة فى تخطيط متعامد حول صحن مستطيل مساحته (٢٣ × ٢٤) متراً . وفى الركن الشمالى الشرقى من المدرسة تقع القبة التى تبلغ مساحتها ـ (٩ × ٩) أمتار[2] .

الواجهـــة :

لقد أثر موقع المدرسة الناصرية بين الأثرين الكبيرين مجموعة المنصور ومدرسة برقوق تأثيراً سيئاً ، كما يقول (Briggs) ، فلم يظهر جمال واجهتها وخاصة بالنسبة لمئذنة برقوق . ويبلغ طول الواجهة (٢١٫٤٢) متراً وارتفاعها بما فى ذلك الشرفات (١٣٫٢٣) متراً . ويوجد بالواجهة ثلاث حنيات تمتد بارتفاع الواجهة وتنتهى بدلايات ويحيط بها إطار قالبى مستطيل الشكل تشبه إلى حد كبير مدرسة زين الدين . وبأسفل كل حنية توجد

---

(١) الخطط ج ٢ ص ٣٨٢ .

(٢) Creswell : Egypt vol. II p. 235

(٣) Briggs : Muhammadan Architecture. p. 102.

نافذة ، اثنان منهما يفتحان بالقبة والثالثة تفتح بإيوان القبلة . ويعلو هذه النوافذ أعتاب عليها كتاب وفوقها عقود عاتقة بها زخارف نباتية محورة .

وعلى ارتفاع (٧٫٢٥) أمتار من سطح الأرض يزخرف الواجهة شريط من الكتابة على أرضية مزخرفة بزخارف نباتية . ويعلوهاهذا الشريط نافذتان ، اليمنى منهما تقع فوق محراب القبة تماماً واليسرى تقع فى الإطار الجصى الذى يعلو محراب الإيوان القبلى للمدرسة .

ولعل أهم مايميز هذه المدرسة الباب الذى جلبه الأشرف خليل من عكا سنة ٦٩٠ هـ بعد أن خلعه من إحدى الكنائس الصليبية ، والذى يمثل الفن القوطى أحسن تمثيل ويبلغ ارتفاع الشرفات المدرجة التى تتوج الواجهة (١٫٤١) متر ، ويبدو خلف الجزء الأيمن منها منطقة انتقال قبة الضريح المثمنة الشكل أما القبة فقد سقطت وفى الوسط وفوق المدخل تماماً توجد القاعدة المربعة لبدن المئذنة .

الداخــل :

عندما ندخل من المدخل الرئيسى نجد أنفسنا فى دهليز يمتد (١٣) متراً وعرضه (٣) أمتار. ويفصل هذا الدهليز القبة عن إيوان القبلة ، كما أنه يوجد فى هذا الدهليز بابان متقابلان يؤدى أحدهما إلى المدرسة والآخر إلى الضريح . وقد غطى سقف الدهليز بعروق خشبية تحوى بينها حقاقا ضيقة وهى بذلك تشبه الدهليز الموجود بمجموعة المنصور قلاوون . وفى نهاية الدهليز يوجد بابان ، الأيمن منهما يؤدى إلى صحن الضريح وقد سد الآن والأيسر يؤدى إلى صحن المدرسة .

ويتوسط المدرسة صحن مستطيل تبلغ مساحته (٢٣٫٢٠ × ١٤٫٤٠) متراً تحيط به أربعة إيوانات ، فى الضلع الشمالى يوجد إيوان الحنفية وتبلغ سعته (٥٫٦٥) أمتار وعمقه (٥٫٣٠) أمتار . ويقابل إيوان الحنفية إيوان الحنابلة فى الضلع الجنوبى وتبلغ سعته (٥٫٥٩) أمتار وعمقه (٦٫٢٥) أمتار. ويشغل الجانب الشرقى لكلا الإيوانين خلاو للطلاب عددها ثلاث وهى مغطاة بأقباء مستديرة أما الجانب الآخر للإيوانين فقد تهدمت الخلاوى وحل محلها الآن مبان أخرى .

ويشغل الضلع الشرقى من الصحن إيوان القبلة الذى تبلغ سعته (١٠ر٨) أمتار وعمقه (٠٤ر١٣) متراً وارتفاعه (٨٥ر١٢) متراً . ومحراب الإيوان كبير جداً وعلى جانبيه عمودان من الرخام الأخضر المجلوب من (وادى الحمامات[١]) ، ويعلوه نصف قبة مزخرفة برسوم جصية نباتية متأثرة بالزخارف (الأسبانية المغربية[٢]) ويعلو ذلك إطار مستطيل مملوء بالزخارف الجصية ويتوسطه نافذة . ويبلغ سعة المحراب (٧٨ر٢) متر وارتفاعه عشرة أمتار ، وهو آخر محراب جصى فى العمارة الإسلامية فى مصر[٣] . وعلى الجانب الأيمن — للمحراب توجد حنية مفتوحة من أعلى للتهوئة ، كما توجد حنية ثانية فى الضلع الجنوبى للإيوان ومقابلة للباب الموجود بالضلع الشمالى .

وفى الضلع الغربى للصحن يوجد إيوان الشافعية وتبلغ سعته (٦٥ر١٤) متراً وعمقه (٥٠ر١٢) متراً . وفى صدر الإيوان توجد حنية كبيرة مسطحة تبلغ سعتها (٧٥ر٣) أمتار وعمقها (٧٢ر١) متر وعلى جانبيها حنيتان صغيرتان . وفى الضلعين الشمالى والجنوبى للإيوان الغربى توجد حنيتان مسطحتان قليلتا العمق .

القبـــــة :

تتكون من مربع يبلغ طول ضلعه (٢٨ر٩) أمتار تقريباً يدخل إليه من باب يفتح فى الدهليز السابق الإشارة إليه . كما يضىء القبة نافذتان تطلان على الطريق وعلى جانبى المحراب . وعلى ارتفاع (٧٣ر٣) أمتار من الأرض يوجد أفريز خشبى عرضه (٩٨ سم) ومقسوم إلى قسمين ، الأسفل منهما ويبلغ عرضه (٣٧) سم مذهب وعليه رسوم تمثل فروع العنب . أما القسم العلوى من الأفريز فيبدو أنه كان مزخرفاً بحروف من الخط الثلث الكبير . ولم يبق من هذه الزخارف غير الربع أما الباقى فقد نقل إلى متحف الفن الإسلامى[٤] . وهناك أفريز آخر على ارتفاع (٢٥ر٩) أمتار من سطح الأرض وتحت منطقة الانتقال مباشرة

---

(١) يشبه ضريح الصالح نجم الدين . Creswell : Egypt vol. II p. 102.

(٢) Creswell : Ibid. p. 236.

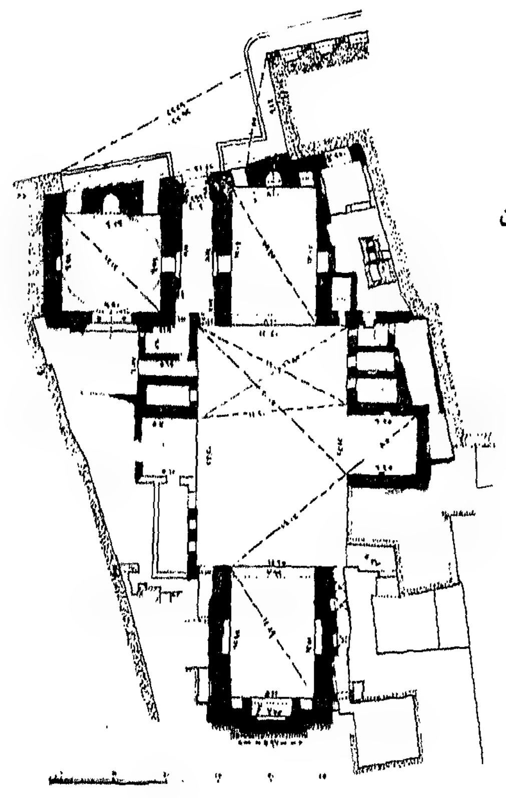
(٣) Saladin : Manuel de l'Art Musulman p. 119

(٤) تبين أن هذه الأفاريز كانت موجودة بالقصر الغربى الفاطمى وأن الناصر محمد قد أعاد استعمالها من الوجه الآخر . .
Herzfeld : Orientalisches Arch. vol. II p. 169.

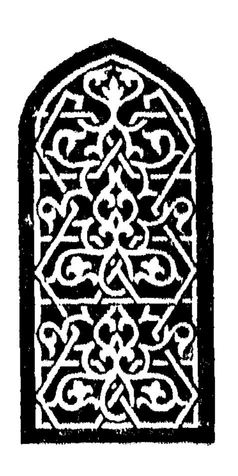
وبه بقايا رسوم كتابات . وتتكون منطقة الانتقال من ثلاثة صفوف من الدلايات يحتوى كل صف على خمس مقرنصات وتحصر الأركان بينها نافذة مكونة من ثلاث فتحات . ويبلغ ارتفاع منطقة الانتقال (٥ر٥) أمتار ، أما القبة فقد سقطت منذ سنة ١٨٧٠ م وحل محلها الآن سقف مسطح وتحتوى حنية محراب القبة على عمودين من الرخام الأخضر مثل محراب المدرسة موجودين على جانبيها . وفى الضلع الغربي للقبة يوجد باب سعته (٢ر٨٠)متر يؤدى إلى صحن صغير مربع يبلغ ضلعه (٦ر٨٦) أمتار ويحتوى الباب على عمودين يعلوهما عتب ، ولكن الباب قد سد الآن .

المئذنــــة :

تتكون قاعدة المئذنة التى تعلو المدخل الرئيسى من مربع يبلغ طول ضلعه (٤ر٧٤) مترا وارتفاعه (١١ر٧٤) متراً حتى نهاية حائط إيوان القبلة أو (١٥ر٢٠) متراً حتى نهاية الشرفات التى تعلو الواجهة . ويعلو المربع طابق مثمن الشكل ارتفاعه (٨ر٥) أمتار ، أما الطابق الثالث فيتكون من مثمن دائرى بعض الشىء يبلغ ارتفاعه (٣) أمتار وتحتوى أضلاع الطابق الأول المربع على زخارف نباتية جصية .



(شكل ١١) مدرسة الناصر محمد بن قلاوون



جامع الناصر محمد بالقلعة

أنشأ هذا الجامع بالقلعة الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة ٧١٨ ﻫ كما يقول المقريزى(١) « وكان أولا جامعاً قديماً وبجواره المطبخ السلطانى والحوائجخانه والطشتخانه والفراشخاناه ، فهدم الجميع فى هذا الجامع وعمره أحسن عمارة وعمل فيه من الرخام الملون شيئًا كثيرًا ، وعمر فيه قبة جليلة ، وجعل عليه مقصورة من حديد بديعة الصنعة ، وفى صدر الجامع مقصورة من حديد أيضًا برسم صلاة السلطان .

وكان هذا الجامع يعرف باسم الجامع الناصرى أو جامع الخطبة بقلعة الجبل ، الذى حل محل جامع(٢) قديم بالقلعة يرجع إلى عهد الملك الكامل ، فقد كان يوجد بالقلعة على عهد السلطان بيبرس جامع وهو الجامع الذى خطب فيه الخليفة العباسى الحاكم بأمر الله – ومن المحتمل أن يكون هذا الجامع قائمًا منذ عهد الملك الكامل وفى المكان نفسه الذى يقوم عليه الجامع الذى استحدثه الناصر محمد بن قلاوون فى سنة ٧١٨ ﻫ(٣) . ويذكر أبو بكر – الداوداري فى حوادث(٤) سنة ٧٣٥ ﻫ أن : « فيها برزت المراسيم الشريفة بهدم الجامع الذى أنشأه السلطان عز نصره بالقلعة المحروسة ، وأن يجدد بناءه ، فهدم جميع ما كان من داخله من الرواقات والمقصورة والمحراب ، وجدّد بناءه بما لم تر العيون أحسن منه وأعلى قناطر

---

(١) المقريزى الخطط ج ٢ ص ٣٢٥ ، الملوك ج ٢ ص ١٨٤ .
(٢) الدكتورة سعاد ماهر : القاهرة القديمة وأحياؤها – ص ٤٨ .
(٣) كازانوفا تاريخ ووصف قلعة الجبل ص ٩٣ ، ٩٥ .
(٤) أبو بكر الداودارى : كنز الدرر ج ٩ ص ٢٩٣

الرواقات اعلاءً شاهقًا وكذلك القبة أعلاها حتى عادت فى ارتفاع وأحضر لهذا الجامع أعمدة عظيمة كانت منسية بمدينة الأشمونين بالوجه القبلى من أعمال الديار المصرية وكانت هذه الأعمدة فى البربا التى بمدينة الأشمونين من عهد الكهنة . وأن نقل هذه الأعمدة من الأشياء التى حارت فيها العقول ، نقلها مولانا السلطان بأسهل ما يكون ، وذلك بأن ندب لهذا الأمر الأمير سيف الدين أروس بغا الناصرى مشدًا بحمل هذه الأعمدة وسيَّر فى خدمته المهندسين والعتالين والحجارين ، وكتب للولاة بالوجه القبلى وهم والى أسيوط ومنفلوط ووالى الأشمونين ووالى البهنساوية بجمع الرجال من الأقاليم وقرر على كل وال عدة من هذه الأعمدة ، وجرها إلى ساحل البحر الأعظم وندب لها المراكب الخشنة وحملت فى أوائل جريان النيل المبارك ، ولما حضر إلى ساحل مصر ، انتدب لجرها الولاة بمصر والقاهرة الذين جمعوا[1] آلافًا من الناس وكان لهم همة عظيمة حتى وصلت وأقيمت فى هذا الجامع السعيد » .

ويضيف الداودارى فى وصف قبة الجامع فيقول : وعندما أعاد السلطان بناء القبة جعلها عالية شاهقة ، بعد أن أحضر لها الأعمدة الجرانيتية الكبار من الأشمونين ، وجدَّد المقصورة على يمين المحراب الذى جدَّد بناءه أيضًا » .

ومن هذه العبارة يتضح أن الناصر محمد كان قد جدَّد الجامع ثم عاد فأعاد بناء بعض أجزائه وقد ورد هذا واضحًا فى شريط الكتابة المنقوش على المدخل الرئيسى بالواجهة الغربية تاريخ البناء سنة ٧١٨ هـ ، بينما نقش على القبة بعد تجديدها أعلى مما كانت «سنة ٧٣٥هـ.»

ويصف القلقشندى جامع القلعة فيقول : « جامع الخطبة (جامع الناصر محمد بالقلعة) من أعظم الجوامع وأحسنها وأبهجها منظرًا ، وأكثرها زخرفة ، متسع الارجاء ، مرتفع البناء ، مفروش الأرض بالرخام الفائق ، مبطن السقف بالذهب ، وفى وسطه قبة يليها مقصورة يصلى فيها السلطان الجمعة ، مستورة هى والرواقات المشتملة عليها بشبابيك من حديد محكمة الصنعة ، يحف بصحنه رداقات من جميع جهاته ، ويتوصل من ظاهر هذا الجامع إلى باب الستارة ودور الحريم »[2] .

---

(١) الداودارى : كنز الدرر جـ ٩ ص ٣٨٣ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣٧٥ .

وكان بجامع الناصر محمد بالقلعة مقصورة متخذة من شباك حديد محكمة الصنعة ، يصلى فيها السلطان ومن معه من أخصاء خاصكيته يوم الجمعة[1] . وكان السلطان يدخل من باب صغير يقع فى حائط القبلة . ويذكر الداودارى فى حوادث سنة ٧٣٤ هـ إنه حدث بينما كان السلطان يصلى الجمعة بالناس ، إذ وثب رجل عجمى وفى يده سكين وقصد المقصورة السلطانية فمسك من وقته .

ويذكر ابن اياس أن قبة جامع الناصر محمد بالقلعة التى كانت تعرف باسم القبة الخضراء لأنها كانت مكسوة ببلاطات من القاشانى الأخضر اللون ، أنها سقطت فى عصر السلطان قايتباى سنة ٨٩٣ هـ وأعيد بناؤها ، كما جدَّد قايتباى منبر الجامع المصنوع من الرخام الملـون .

والذى نرجحه بعد استعراض أقوال المؤرخين فى تاريخ جامع الناصر محمد بالقلعة أنه كان يوجد مكانه جامع قديم ، لعله من بناء السلطان الكامل كما تذكر بعض المصادر ثم أعاد بناءه الناصر محمد سنتى ٧١٧ ، ٧١٨ هـ . ثم عاد فجدد أجزاء هامة فيه وهى رواق القبلة سنة ٧٣٥ هـ .

ظل هذا الجامع عامرًا بإقامة الشعائر الدينية فيه طوال عصر المماليك البحرية والبرجية كما كان موضع عناية الحكام السلاطين ، فقد كان بمثابة مسجد القصر الخاص .

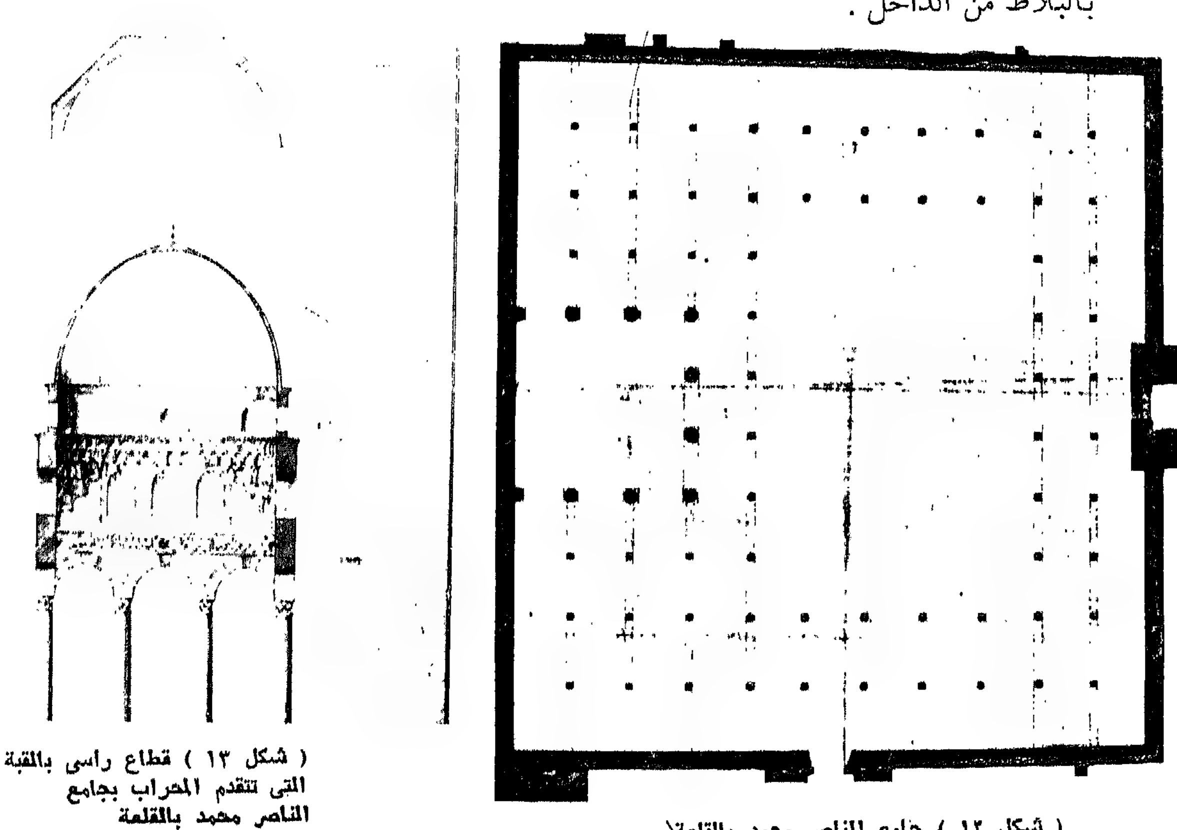
وقد ساءت حالة المسجد فى العصر العثمانى ، فقد هدمت قبته وفقد منبره وأسيء استعماله وقضى على الجامع تماماً فى عهد الاحتلال البريطانى ١٨٨٢ م فقد استخدم مخازن للجيش وسجنًا للعاصين والمتمردين ، فأقيمت الحواجز الخشبية بين الأعمدة وبنيت الجدران . إلَّا أن الله قد قيض له (Watson)[2] أحد المهندسين من جنود الاحتلال الذى راعه ما آلت إليه حالة الجامع الذى يعد تحفة فنية رائعة من الناحية المعمارية فقام بإزالة الحواجز الخشبية ، كما هدم الحوائط التى أقامها جيش الاحتلال .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٧ .

(٢) Stanely Lane Pool : The Stary of Cairo. p. 136.
Devonshire : Rambles in Cairo. p. 24.

على أن أكبر التجديدات التى أجريت للمسجد قامت بها لجنة[1] حفظ الآثار الإسلامية سنة ١٩٤٧ م فقد أعادت ماتهدم من جدار المحراب وكسته بوزرات رخامية كما جددت المحراب الصغير الذى يقع إلى يساره . كما كست جدار المحراب بالوزرات الرخامية وفرشت أرضية الجامع بالحجر الجيرى بدلا من الرخام الذى كان يغطى المسجد كله عند إنشائه[2] . كما رمم المدخل الشمالى للجامع وأعيدت اللوحة التأسيسية التى تحتوى تاريخ البناء سنة ٧١٨ هـ على المدخل الغربى وقامت لجنة حفظ الآثار بإعادة بناء القبة الكبيرة أمام المحراب وعملت منبرًا خشبيًا على غرار منبر مسجد الماردانى وكذا ركبت (٤٠) حشوة جصية مخرمة للنوافذ دون أن تضع لها زجاجًا ملونًا كما ورد فى المراجع التاريخية . كذلك جددت المباخر الحجرية التى تعلو أركان مربع الصحن واستبدلت الأعمدة التالفة بأعمدة أخرى وكست الجدران بالبلاط من الداخل .



(شكل ١٣) قطاع راسى بالقبة التى تتقدم المحراب بجامع الناصر محمد بالقلعة

(شكل ١٢) جامع الناصر محمد بالقلعة

(١) كراسات لجنة حفظ الآثار رقم (٤٠) ص ١١٦ ، ملف الأثر رقم (١٤٣)

(٢) المقريزى : خطط جـ ٢ ص ٣١٣ ، قلقشندى : جـ ٣ ص ٣٧٥ .

الـوصف المعمارى

يتكون المسجد الجامع بالقلعة الذى أنشأه الناصر محمد من شكل مربع تقريبًا ، إذ يبلغ طوله من الشمال إلى الجنوب ٦٣ متراً وعرضه من الشرق إلى المغرب ٥٧ متراً . ويقع المدخل الرئيسى للجامع فى الضلع الغربى المواجه لرواق القبلة ، والجدار الغربى الذى يتوسطه المدخل الرئيسى يكاد يكون خلوًا من الزخارف وتسوده البساطة التامة اللهم إلا من النوافذ الصغيرة التى تعلو الجدار والتى تكتنف المدخل الرئيسى من جانبيه ويبلغ عددها ثمانى عشرة نافذة ، تسعٌ منها على كل جانب ، كما كان يعلو جدار الواجهة شرفات لايزال بعضها موجودًا بالضلع الجنوبى والشرقى وهى على شكل بيضاوى يبلغ ارتفاع الواحدة منها ١٫٢٠ متراً وعرضها عند القاعدة ٧٢ سم . وفى اعتقادى أن هذه الشرفات أُضيفت فى عصر متأخر لعله فى عهد الاحتلال البريطانى حيث أن شكلها وحجمها الكبير يسمحان بوضع المدافع كما هو الحال بالشرفات التى أضافتها الحملة الفرنسية على أسوار القاهرة الشمالية بين باب النصر وباب الفتوح كما تشبه الشرفات التى أضافها الاحتلال البريطانى بقلعة الجبل[١] .

أما المدخل الرئيسى الذى يتوسط الجدار الغربى فهو مدخل تذكارى إذ يبرز عن سمت الجدار بمقدار ١٫٣٧ متر . ويبلغ اتساع المدخل ١٠٫٧٠ أمتار تتوسطه فتحة معقودة يبلغ عرضها ٤٫١٠ أمتار ويعلوها عقد ذو ثلاثة فصوص ملىء بصفوف من القرنصات البديعة التكوين ، ويبلغ عمق المدخل ٢٫٣٥ متر يسمح بوجود مكسلتين على جانبيه ، ويتوسط المدخل باب يعلوه عقد مدبب اتساعه ٧٫٧٢ أمتار ويعلو الباب اللوحة التذكارية التى نقش عليها تاريخ تأسيس المسجد وتتكون من أربعة سطور[٢] من الخط النسخ الجميل نصها : بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذا الجامع المبارك السعيد لوجه الله تعالى سيدنا ومولانا السلطان الملك الناصر ناصر الدنيا والدين محمد ابن مولانا السلطان الشهيد قلاوون الصالحى

---

(١) Wiet & Hantecœure : Les mosques du Caire. I. p. 287.

(٢) Watson : J.B. As vol. 18 p. 479.

فى شهور سنة ثمانية عشر وسبع مائة من الهجرة[1] النبوية ويعلو شريط الكتابة نافذة مربعة صغيرة مملوءة بخشب الخرط .

ويرتفع المدخل الغربى الرئيسى بارتفاع الجدران الغربى الذى يبلغ ١٥٫٢٠ متراً عن سطح الأرض ثم يعلو جزء من المدخل إحدى مئذنتى الجامع ، أما الواجهة الشمالية فيتوسطها مدخل تذكارى أيضًا يبرز عن سمت الجدار بمقدار ١٫٣٠ متر وتتكون كتلة المدخل الشمالى من شبه مربع يبلغ ارتفاعه ١٠٫٢٠ أمتار وعرضه ١٠٫٨٠ أمتار ويعلوها صف من الشرفات المدرجة تشبه تلك التى تحيط بالصحن من الداخل . ويتوسط كتلة المدخل عقد ذو ثلاثة فصوص عمقه ٧٠ سم وسعته ٣٫٩٠ متراً ويتوسطه فتحة الباب المؤدية إلى داخل الجامع ويعلو فتحة الباب شريط من الكتابة محفور بالخط الثلث المملوكى مماثل للنص الكتابى الموجود على الواجهة الغربية غير أن تاريخ التأسيس قد تهشم . وقد فتح فى أعلى الجدار الشمالى تسع عشرة نافذة معقودة مماثلة لنوافذ الواجهة الغربية وقد قوى الجدار من جهة الطرف الغربى منه بدعامة ساندة من المرجح أنها من التجديدات التى حدثت سنة ٧٣٥ هـ حيث أن مداميكها تشبه تمامًا مداميك الجدار ، وفى الركن الشمالى الشرقى يوجد برج يبرز عن سمت الجدار الشمالى والشرقى بنى لكى يكون قاعدة للمئذنة الثانية للجامع وقد فتح فى الضلع الشمالى لهذا البرج نافذة فى مستوى منخفض عن مستوى نوافذ الجدار يتقدمها ساقطة حجرية (Mashicolli).

أما الواجهة الجنوبية فهى تشبه الواجهتين الشمالية والغربية من حيث البساطة وقلة الزخرف كما أنها تحتوى على عشرين نافذة معقودة تشبه نوافذ الواجهات الأخرى وقد قويت الواجهة بدعامتين ساندتين وفى نهاية الضلع الجنوبى ومقابل الرواق الثانى لأروقة القبلة يوجد مدخل تذكارى ثالث يبرز بروزًا بسيطًا عن سمت الحائط يبلغ ٧٠ سم ويتوسطه عقد مدبب فى وسطه باب صغير لعله هو الباب الذى كان يدخل منه السلطان إلى المقصورة السابق الإشارة إليها وهو الذى أشار إليه المقريزى بقوله : « باب النحاس الذى كان يجتازه ... السلطان وهو قادم من الدور السلطانية وعند عودته » .

---

(١) Van Bercham : C.I.A. II p. 114.

ويتوسط الجامع صحن مستطيل الشكل إذ تبلغ مساحته ٣٥ز٥ متراً طولا فى ٢٣ر٥ متراً عرضًا وقد قويت أركان الصحن بأربعة أعمدة من الجرانيت تتميز بضخامتها عن الأعمدة الأخرى المجاورة ويحيط بالصحن البوائك من جميع الجهات المكونة من أعمدة رخامية ـ تيجانها قديمة ومتعددة الأشكال منها البيزنطى ومنها القبطى وما إليهما . ويعلو الأعمدة عقود على شكل حدوة الفرس المدببة ويجيء فوق تلك العقود صف من الفتحات المعقودة نظمت بحيث أصبحت كل كوشة عقد تعلوها فتحتان . وقد سبق أن رأينا هذا التنظيم المعمارى فى الجامع الأموى بدمشق والغرض من ذلك هو إضاءة وتهوية الأروقة ، ثم تخفيف الضغط الطارد على العقود والأعمدة . ويعلو هذا الصف من الفتحات ذات العقود المستديرة شرفات مسننة على غرار ما هو موجود بالجامع الأزهر وبعض العمائر الفاطمية .

ويشتمل رواق القبلة على أربعة صفوف من البوائك تحتوى كل بائكة منها على عشرة أعمدة تحمل أحد عشر عقدًا وتسير أروقة القبلة موازية لجدار القبلة .

ويتوسط أروقة القبلة وفوق المحراب مباشرة قبة تشغل ثلاثة أروقة يتكون منها مربع طول ضلعه ١٦ر٧٧ متراً تقوم عليه قبة . وتتكون هذه القبة من مربع من البناء الحجرى يعلو الأعمدة ، فتح فى كل جانب من جوانبه الأربعة ثلاث نوافذ ذات عقود مستديرة سعة كل منها ١ر٧٠ متر وكلها مملوءة بالزخارف الجصية المخرمة .

أما داخل هذا المربع فقد ملئت أركانه بمثلث خشبى يحتوى على خمسة صفوف من المقرنصات الصغيرة وبذلك أصبح شكل رقبة القبة من الداخل مثمنة أقام عليها المعمار دائرة القبة .

ويحيط بأسفل القبة إزار خشبى به نقوش كتابية[1] بالخط الثلث المملوكى المذهب نصها « بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها الذين[2] آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون » . وفى جانب آخر : « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الاخر

(١) Watson. P. 481 (J.R. As Society. vol. 18),
Van Bercham : P. 114 (C.I.A. II).

(٢) سورة الحج . آية (٧٧) .

وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله » ـ فى جانب آخر « فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين » أمر بإنشائه سيدنا ومولانا السلطان الملك الناصر ابن مولانا السلطان المرحوم الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون تغمده الله برحمته وذلك فى مستهل سنه . . . . » .

وتتكون أعمدة القبة من الجرانيت الأحمر الذى سبقت الإشارة إليه والذى ذكر ـ الدويدارى إنها جلبت من الأشمونين[1] . وقد بنيت عقود القبة بحجارة ملونة بيضاء وحمراء بالأسلوب المعروف باسم الأبلق . وقد كانت القبة وقت إنشائها مكسوة ببلاطات من القاشانى الأخضر حتى إنها كانت تعرف فى العصر المملوكى بالقبة الخضراء . وقد سقطت هذه القبة مرتين مرة فى عصر السلطان قايتباى وأخرى فى العصر العثمانى وقد أعادت لجنة حفظ الآثار بناءها سنة ١٩٣٥ .

ويتوسط جدار القبلة محراب مجوف كبير يكتنفه محرابان صغيران ويكسو المحاريب الثلاثة فسيفساء رخامية وصدفية بديعة التكوين ، وقد كانت جدران رواق القبلة كله الذى يبلغ عمقه ١٠ر٢٠ متراً مغشاة بالرخام الملون إلى ارتفاع ٥ر٥ أمتار أى إلى ارتفاع سمت المحاريب . إلا أن أجزاء كثيرة من هذا الرخام قد سقط الآن ، وإلى يمين المحراب يوجد مبنى خشبى صنع جانباه (ريشتاه) بطريقة الحشوات المجمعة المطعمة بالعاج والصدف ، وهذا المنبر من صنع لجنة حفظ الآثار سنة ١٩٤٩ ، وهو يشبه إلى حد كبير منبر جامع المردانى الذى يرجع إلى ٧٤٠ هـ . وقد غطى سقف رواق القبلة بحقاق خشبية مكسوة بطبقة جصية مطلية بزخارف ملونة ومذهبة . وقد شاع هذا الأسلوب من التغطية منذ العصر الأيوبى إذ نجده فى ردهة المدخل الشمالى لقبة الإمام الشافعى ، كما نجده فى ردهة المدخل الرئيسى للمدرسة الصالحية ثم انتشر على نطاق واسع فى عمائر أسرة قلاوون ، ومن أحسن الأمثلة لهذا النوع من التغطية قبة المنصور قلاوون .

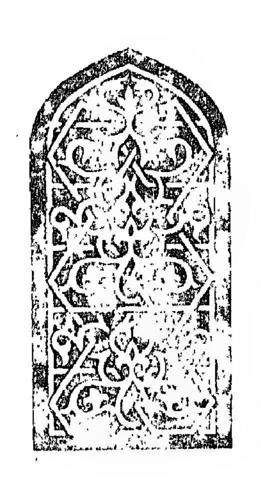
أما الأروقة الثلاثة الجانبية فتحتوى كل منها على بائكتين تقسمانها إلى رواقين وهذه الأروقة جميعها موازية للجدران المجاورة لها ، وعمق هذه الأروقة الثلاثة ١٢ متراً . وتحتوى بوائك الجهة الشمالية والجنوبية على أربعة أعمدة تحمل خمسة عقود مدببة ، أما بوائك

(١) كنز الدرر وجامع الغرر جـ ٩ ص ٣٨٣ .

الجهة الغربية المقابلة لجهة القبلة فتحتوى على عشرة أعمدة تحمل أحد عشر عقدًا مدببًا .

ويحتوى الجامع على مئذنتين ، تقع إحداهما فى الضلع الغربى الموازى لجدار القبلة إذ هى تعلو المدخل الرئيسى الغربى حيث تشغل قاعدتها المربعة جزءاً من أعلى هذا المدخل . وتتكون المئذنة من طابقين فوق القاعدة ، ويتكون الطابق الأول من شكل إسطوانى زخرف بدنه بقنوات متعرجة وينتهى هذا الطابق بشرفة مستديرة مجددة حديثًا تقوم على ثلاثة صفوف من المقرنصات . والطابق الثانى اسطوانى الشكل أيضًا ومزخرف بقنوات متعرجة تختلف قليلا عن زخارف الطابق الأول وينتهى الطابق الثانى أيضًا بشرفة تقوم على ثلاثة صفوف من المقرنصات . ويعلو الطابق الثانى قمة المئذنة وهى على شكل مخروط ناقص تعلوه رقبة قبة كسيت ببلاطات القيشانى الأزرق الداكن الذى يحتوى على كتابات باللون الأبيض ويظهر من بقايا الحروف الموجودة الآن أن شريط الكتابة كان يحتوى على بعض أجزاء من آية الكرسى . ويعلو هذه الرقبة المستديرة قبة ذات قطاع بصلى الشكل مضلع ومكسو ببلاطات من القاشانى الأخضر ، وتشبه هذه القبة والرقبة شكل الخوذة . ويصعد إلى هذه المئذنة عن طريق باب صغير يقع على يسار الداخل من الباب الغربى، ويؤدى هذا الباب إلى سلم حلزونى يشغل جزءًا من بروز المدخل التذكارى الغربى الذى سبقت الإشارة إليه ويوصل هذا السلم إلى دكة المبلغ التى تقع فى الرواق الغربى .

أما المئذنة الثانية فتقع فى الركن الشمالى الشرقى للجامع وتبرز قاعدتها عن الواجهة الشمالية بمقدار ٢٫٩٠ متر ويبلغ طول ضلعها ٧٫٨٠ أمتار . ويعلو هذه القاعدة المستطيلة شرفات تماثل شرفات سور المسجد الخارجى . وعلى ارتفاع سبعة أمتار من هذه القاعدة ، توجد شرفة صغيرة سبق الإشارة إليها . وتتكون هذه المئذنة من ثلاثة طوابق ، الطابق الأول مربع الشكل يبدأ بقاعدة هرمية وينتهى بشرفة تقوم على ثلاثة صفوف من المقرنصات . أما الطابق الثانى فهو اسطوانى الشكل وينتهى بشرفة مستديرة تقوم على صفين من المقرنصات . أماالطابق الثالث فيتكون من جوسق يحتوى على ثمانية أعمدة يعلوه خوذة مماثلة لخوذة المئذنة الأولى . وقد كسيت الخوذة ببلاطات من القيشانى الأخضر الذى يحتوى على كتابات باللون الأبيض مماثلة لكتابات المئذنة الأخرى . ويمكن الصعود لهذه المئذنة عن طريق باب صغير يقع فى قاعدة المئذنة من داخل رواق القبلة .



خانقاه الأمير سلار وسنجر الجاولى

سنة ٧٠٣ هـ

عاد الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى ملك مصر للمرة الثالثة بعد أن عزل عن الملك وتوجه إلى الكرك ثم عاد وخرج من الكرك إلى الشام مستعينًا بأمرائها فى استرداد ملكة بمصر الذى اغتصبه منه الملك المظفر بيبرس الجاشنكير . وحدث فى الوقت الذى خرج فيه الملك الناصر محمد بن قلاوون من دمشق بصحبة نواب البلاد الشامية بتمامهم قاصدين الديار المصرية أن خلع الملك المظفر بيبرس نفسه من ملك مصر وخرج منها إلى الأطفيحية . وما أن خرج الملك المظفر بيبرس من مصر حتى جلس الأمير سلار بقاعة النيابة من قلعة الجبل وجمع من بقى من الأمراء واهتم بحفظ القلعة وأخرج من كان بها من المحابيس الذين كانوا من حواشى الملك الناصر محمد وغيرهم وركب ونادى فى الناس : ادعوا لسلطانكم الملك الناصر ، وكتب إلى الملك الناصر بنزول المظفر عن الملك وفراره إلى أطفيح فوصله الرسول وهو فى غزة فسر الملك الناصر محمد من نزول الملك المظفر عن الملك واستبشر لأن فى ذلك حقنا لدماء المسلمين وخمودا للفتنة . ولما تكاملت العساكر ، سار الملك الناصر قاصدًا الديار المصرية وسار حتى وصل بركة الحجاج فى أواخر رمضان سنة ٧١٠ هـ ، وكان الأمير سلار قد جهز الأمراء والعساكر ، وخرج إلى لقائه ، وصلى السلطان صلاة العيد بالدهليز ببركة الحجاج ، ثم سار السلطان إلى القلعة تحف به المماليك وخرج الناس لمشاهدة موكبه . وبعد انقضاء مجلس السلطان الذى عقده بالقلعة ، قام الأمير سلار النائب بمده من المماليك والخيول والجمال والأقمشة بما قيمته مائتا ألف درهم ، فقبل السلطان شيئًا ورد الباقى ثم سأل السلطان

الاعفاء من الامرة والنيابة وأن ينعم عليه بالشوبك فأُجيب إلى ذلك ، بعد أن حلف على أن يلبي طلب السلطان عند استدعائه .

خرج سلار من مصر فى الثالث من شوال سنة ٧١٠ هـ مسافراً إلى الشوبك وكانت مدة نيابة سلار على مصر إحدى عشرة سنة .

ولكى يتخلص السلطان من المماليك والأُمراء القدامى الذين حضروا مرات عزله السابقة من الملك ومنهم سلار قرر السلطان محمد بن قلاوون مع مماليكه القبض على عدة من الأُمراء وأن كل عشرة يقبضون على أمير ممن عينهم ، بحيث يكون العشرة عند دخول الأمير ملتفين حوله فلما حضر الأُمراء للخدمة على العادة فأحاط بهم المماليك ففهموا القصد وجلسوا على السماط ، فلم يتناول أحد منهم لقمة ، وعندما نهضوا أشار السلطان إلى أمير جاندار فتقدم إليه وقبض المماليك على الأُمراء المعينين وعدتهم اثنان وعشرون أميراً فلم يتحرك أحد منهم وأرسلهم إلى حبس الاسكندرية وكتب بالافراج عن المعتقلين بها .

ولما فرغ السلطان الملك الناصر من الأُمراء ومن أمر المظفر بيبرس وأصحابه ، لم يبق عنده ممن يخشاه إلا سلار فكتب إليه كتاباً أرسله له مع الأُمير ناصر الدين محمد ابن أمير سلاح بكتاش الفخرى يستدعيه للحضور إلى مصر ، فاعتذر سلار عن الحضور بزعم أنه مريض وأنه سيحضر عند زوال المرض عنه . فأوجس السلطان منه خيفة خشية أن يتوجه إلى التتار وكتب إلى نائب الشام بأن يحول بين سلار وبين اللجوء إلى التتار ، إن سولت له نفسه ذلك كما بعث بالأُمير بن بيبرس الداودار وسنجر الجاولى إلى الأمير سلار وأكد عليهما احضاره معهما .

تحير سلار فى أمر عودته إلى مصر واستشار أصحابه فى ذلك ، فمنهم من أشار بتلبية رغبة السلطان ، ومنهم من أشار عليه أن يتوجه إلى قطر من الأقطار : إما إلى التتار أو إلى اليمن أو إلى برقة ، فعول على المسير إلى اليمن ثم رجع عن ذلك وقرر الحضور إلى السلطان ، فسافر إلى مصر ومعه أربعمائة وستون فارساً .

فلما قدم على الملك الناصر قبض عليه وحبسه بالبرج من قلعة الجبل . ولما حضر سلار بين يدى الملك الناصر عاتبه عتاباً كثيراً وطلب منه الأموال وأمر الأمير سنجر الجاولى أن

ينزل معه ويتسلم منه مايعطيه من الأموال ، فنزل معه إلى داره ففتح سلار[1] سرداباً تحت الأرض فأخرج منه سبائك ذهب وفضة وجرباً فى كل جراب عشرة آلاف دينار فحملوا من ذلك السرب أكثر من حمل خمسين بغلا . ثم طلع سلار إلى الطارمة[2] التى كان يجلس عليها فحفروا تحتها فأخرجوا سبعا وعشرين خابية مملوءة ذهبًا ثم أخرج من الجواهر شيئًا كثيرًا منها حجر بهرمان زنته أربعون مثقالا وأخرج ألفى حياصية (أحزمة) ذهب محلاة ومرصعة بالجواهر والأحجار الكريمة وألفى قلادة من الذهب قيمة كل واحدة منها مائة دينار. كما وجدوا له لجما مفضضة فنكتوا الفضة عن السيور ووزنوها فجاء وزنها عشرة قناطير بالشامى.

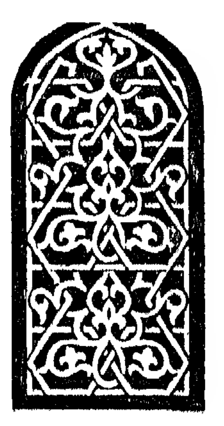
مثل سلار أمام السلطان فأمر أن يبنى عليه أربع حيطان فى مجلسه وأمر ألَّا يطعم ولا يسقى جزاء رفضه للطعام الذى قدمه إليه السلطان عند حبسه بقلعة الجبل فبقى سلار سبعة أيام لايطعم ولايسقى وهو يستغيث من الجوع فأرسل إليه السلطان ثلاثة أطباق مغطاة ، فلما أحضروها بين يديه فرح فرحًا عظيمًا وظن أن بها أطعمة فكشفوها فإذا فى طبق ذهب وفى الآخر فضة وفى الثالث لؤلؤ وجواهر فعلم سلار أنه ما أرسل هذه الأطباق إلا ليقابله على ما كان قد فعله معه . فقال سلار الحمد لله الذى جعلنى من أهل المقابلة فى الدنيا . وبقى على هذه الحال اثنى عشر يومًا ومات ، فأعلموا الملك الناصر بموته فلما جاءوا إلى سلار وجدوه قد أكل ساق خفه . وكان موته فى ربيع الآخر سنة ٧١٠ هـ فأخذه الأمير علم الدين سنجر الجاولى بإذن السلطان وتولى غسله وتجهيزه ودفنه بتربته التى أنشأها بجانب مدرسته على الكبش خارج القاهرة بالقرب من جامع ابن طولون لصداقة كانت بين الجاولى وسلار — قديماً وحديثاً .

وكان سلار أسمر اللون أسيل الخد لطيف القد صغير اللحية تركى الجنس وكان أميرًا جليلا شجاعًا مقدامًا عاقلا فيه كرم وحشمة ورياسة . وقيل : إن سلار لما حج المرة الثانية فرّق فى أهل الحرمين أموالا كثيرة وغلالا وثيابًا ، تخرج عن حد الوصف حتى إنه لم يدع بالحرمين فقيرًا إلا منحه وأعطاه وبعدها مات ، وكان فى شونته يوم مات من الغلال ما يزيد على أربعمائة ألف أردب .

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ١٨ .

(٢) الطارمة : بيت من خشب النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ١٧ .



سنجر الجاولى

كان الأمير علم الدين سنجر الجاولى من مماليك جاول أحد أمراء الملك الظاهر بيبرس ثم اتصل بعده ببيت السلطان المنصور قلاوون وأصبح من مماليكه وترقى إلى أن صار مقدمًا بالشام ثم واليًا لغزة وصادفته محن انتهت فى سنة ٧٢٨ هـ بتعيينه أميرًا مقدمًا بمصر . وكان من المشتغلين بالعلم متخصصًا فى الحديث وفى فقه الإمام الشافعى . روى مسند الشافعى وحدث به ورتب مسنده وشرحه فى مجلدات بمعاونة غيره وطالت أيامه فى السعادة وعمّر ، وهو صاحب الجامع بغزة الذى لايزال قائمًا إلى اليوم (أى القرن التاسع) بغزة باسم الجاولية . وجاء فى كتاب[1] الأنس الجليل فى الكلام على الحرم الخليلى « إنه بظاهر السور السليمانى من جهة الشرق مسجد فى غاية الحسن ، وبين السور السليمانى وهذا المسجد الدهليز وهو معقود مستطيل عليه الأبهة والفخار والذى عمّر هذا الدهليز والمسجد الأمير أبو سعيد سنجر الجاولى ناظر الحرمين الشريفين (القدس والخليل) ونائب السلطنة فعرف هذا المسجد بالجاولية وهو من العجائب ، قطع فى الجبل » .

ومن جملة العمائر التى أنشأها الأمير علم الدين سنجر الجاولى أنه عمّر[3] الخان العظيم بقاقون (قرية فى الشمال الغربى من طول كرم من أعمال فلسطين) والقناطر بغابة أرسوف وخان رسلان فى حمراء بيسان ودارًا بالقرب من باب النصر داخل القاهرة .

أما الخانقاه الموجودة بشارع مراسينا والتى اقترن اسمها بالأمير سنجر الجاولى والأمير سلار فقد اختلفت الآراء فى نسبتها إلى أى منهما ، أو من هو المؤسس الأصلى لها . لذلك فقد رأيت أن نناقش هذه الآراء حتى نصل إلى الرأى السديد .

---

(١) النجوم الزاهرة : جـ ٩ هامش صفحة ١١٠ .

(٢) مجير الدين عبد الرحمن بن محمد الحنبلى : الأنس الجليل جـ ١ ص ٥٨ فى تاريخ القدس والخليل .

(٣) السخاوى : تحفة الأحباب صفحة ١١٠ .

أولا لقد عرفت الخانقاه من الأمير سنجر الجاولى والشخصية الثانية الأمير سيف الدين سلار نائب السلطنة ، فقد كان مملوكًا للمنصور قلاوون وتنقل فى عدة وظائف عند أولاده إلى أن عين نائبًا للسلطنة فى دولة الناصر محمد بن قلاوون وقد كان قليل الظلم كبير العقل شجاعًا مهيبًا تمكن من شئون الدولة إحدى عشرة سنة ورشح للسلطنة فى غيبة الملك الناصر محمد بن قلاوون غير أن بيبرس الجاشنكير هو الذى فاز بها .

عهد الملك الناصر محمد إلى الأمير علم الدين سنجر الجاولى بأن يتولى جنازة الأمير سيف الدين سلار عند موته – وكان صديقًا له – فدفنه بتربته التى أنشأها بجانب مدرسته بقلعة الكبش[1] .

لم تفصح النصوص التاريخية المدونة على جدران الخانقاه إلى نسبتها إلى أى من الأميرين فمن المرجح أن يكون منشئها هو الأمير سلار لوجود مشكاة له يقرأ عليها : « مما عمل برسم تربة العبد الفقير إلى الله تعالى سيف الدين سلار نائب السلطنة المعظمة عفا الله عنه » .

ويذكر السخاوى[2] عند الكلام عن هذه الخانقاة أن هذه المدرسة هى المعروفة الآن بجامع الجاولى بشارع مراسينا وهى من منشآت أوائل القرن الثامن الهجرى. أنشأها الأمير سيف الدين سلار الناصرى فى سنة ٧٠٣ هـ وجددها سنجر الجاولى فنسبت إليه » .

وقد كان الأمير سنجر الجاولى يمتلك دارًا تجاه الخان المجاور لوكالة قوصون . وقد جعلها وقفا على المدرسة الجاولية بخط الكبش بجوار الجامع الطولونى (التى نحن بصدد الكلام عليها) .

وقد عرفت تلك الدار فى القرن التاسع الهجرى باسم قاعة البغادّة نسبة إلى ساكنها عبد الصمد الجوهرى البغدادى هو وأولاده ، وقد كانت من أجمل الدور كما يقول المقريزى[3].

---

(١) النجوم الزاهرة : جـ ٩ ص ١٩ .

(٢) السخاوى : تحفة الأحباب ص ١١١ .

(٣) الخطط جـ ٢ ص ٦٥ .

الوصف المعمارى

تقع الواجهة الرئيسية فى الضلع الغربى للخانقاة وهى عبارة عن جدار بسيط حجرى طوله ٢١٫٦٣ م ، يرتفع عن مستوى الطريق ، وبهذا الجدار ست نوافذ ، الوسطى منها أكثر اتساعًا من الجانبيتين ، وكل نافذة من النوافذ الست داخل تجويف ضحل مستطيل يصل ارتفاعه إلى أعلى جدار الواجهة ، وينتهى من أعلى بأربعة صفوف من المقرنصات المتنوعة المتقنة ، ويعلو الفتحات الست عقود عاتقة مزدانة بزخارف نباتية حجرية بارزة .. وأعلى الواجهة شريط محفور أعد للكتابة ولم يدون عليه شىء بعد . وعلى ارتفاع ١١٫٦٥ م من مستوى الأرضية أمام المدخل الرئيسى يوجد (كورنيش بسيط) يليه مدماك واحد من الحجارة يرتكز فوقه صف من الشرفات المسننة يصل ارتفاعها بالمبنى الكلى حوالى ١٣٫٣٤ م .

يقع فى ركن المبنى الشمالى الغربى ، ويرتفع عن مستوى أرضية الطريق بحوالى ٢٫٧٠ م وهو داخل تجويف ضحل عمقه ٠٫٥٣ م ، وارتفاعه بارتفاع الواجهة ، مزدان بثلاثة صفوف من المقرنصات ، وخلف التجويف فتحة باب مستطيلة ، ارتفاعها ٢٫٩٤ م ، وسعتها ١٫٦١ م ، عتبها مزدان بصنج من أحجار مزخرفة[٢] .

ويعلو هذا العتب لوحة تأسيسية ، نقش عليها سطران بأحرف نسخية بارزة نصها « بسم الله الرحمن الرحيم » إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله[٣] » . عمل هذا المكان فى شهور سنة ثلاث وسبعمائة » . فوقها نافذة مستطيلة مزدانة عتبتها بزخارف هندسية تشبه زخارف الشباكين الكبيرين بواجهة

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٤٢٠ ، السبكى : طبقات الشافعية جـ ٦ ص ١٠٦ ، ابن العماد شذرات الذهب جـ ٦ ص ١٤٢ ، ابن حجر : الدرر جـ ٢ ص ٢٦٦ ، السخاوى : تحفة الأحباب ص ١١٠ ، مبارك : الخطط الجديدة جـ ٤ ص ٧٤ .

(٢) Hautecoeur & Wiet : Les mosquées du Caire. P. 13.

(٣) سورة التوبة آية ١٨

الخانقاة وعقد عاتق منقوش بزخارف نباتية بارزة متقنة ، وصنج من أحجار مزررة ، ويفضى هذا الباب إلى دركاه على هيئة مربع طول كل ضلع من أضلاعه ٤٫٠٠ م ، أرضيتها مفروشة ببلاطات من الحجر الجيرى وسقفها مغطى بقبو متقاطع ، وبالجهة الجنوبية الشرقية للدركاه فتحة باب مستطيلة ، ترتفع عن مستوى أرضية الدركاه ، تفضى إلى حجرة صغيرة سقفها مقبى بالحجر ، وبالجهة الشمالية للدركاه تجويف غائر بعمق ٢٫١٣ م ، يتقدمه جلستان حجريتان متشابهتان ، وبالجهة الجنوبية فتحة باب يعلوه بعقد منكسر (Kec) سعته ١٫٤٠ م يتوصل منه إلى الخانقاة عن طريق مرق سلم به ثلاث وعشرون درجة ، وهذا المرق بعض سقفه مقبى بالحجر والبعض الآخر مستو يميل قليلا جهة الشمال وبنهاية الدرج بسطة صغيرة مساحتها ٢٫٠٠ م×١٫٩٠ م يعلو سقفها فتحة مستديرة — بأركانها منطقة انتقال من أربعة مثلثات كروية . وبالجهة الشمالية للمجاز فتحة باب يعلوه عقد مدبب سعته ٩٦ر م وعمقه ٢٣ر م ، يفضى إلى مسكن علوى ومئذنة . ويصدر المجاز فتحة باب مستطيلة سعتها ١٫٢٠ م ، تفضى إلى صحن الخانقاة .

وللخانقاه مدخل آخر فى الضلع الشرقى جهة قلعة الكبش يتكون من عقد كبير ذى ثلاثة فصوص سعة فتحته ٢٫٥٠ م وطاقيته مكونة من مقرنصات من ثلاثة صفوف .

ويتكون الصحن من مستطيل طوله ٩٫٢٩ م ، وعرضه ٨٫٧٦ م ، مغطى بسقف خشبى حديث مستور ، ويوجد بالجهة الجنوبية الشرقية للصحن أربع فتحات أبواب عقودها مدببة ، تفضى إحداها جهة الشرق إلى المدخل الفرعى للخانقاه ، أما الفتحات الثلاث الباقية فتفضى كل منها إلى حاصل ويبلغ مساحة الحواصل على التوالى من الشمال للجنوب ٢٫٢٠ × ٢٫٠٠ م ، ٢٫٥٠ م × ٢٫٣٥ م ، ١٫٤٠ × ١٫١٠ م ويوجد بالجهة الشمالية الغربية للصحن بها ثلاث فتحات ، الشرقية مدخل الصحن والوسطى نافذة يعلوها قبو بيضاوى يصل على ممر طويل مقبى يتقدم ضريحى الجاولى وسلار والفتحة الثالثة عبارة عن نافذة تطل على ساحة خربة بها خلوات للصوفية ، وبالجهة الشمالية للصحن إيوان الخانقاه ومساحته ٩٫٥٠ م × ٧٫٤٥ م ، وبالجهة الجنوبية ثلاث فتحات معقودة كل منها بعقد مدبب سعة كل من الأولى والثالثة ٩٥رم ، وتفضى كل منها إلى حاصل مستطيل وسقفه مقبى

بالحجر ، أما العقد الأوسط فاتساع فتحته ٢ر٦٥ م ، ويفضى إلى إيوان صغير مستطيل مساحته ٣ر٢٥م + ٢ر٦٥ م . وأعلى جدار الصحن كورنيش على ارتفاع ٥ر٧٥ م ، فوقه عدد من الفتحات الدقيقة التى تخص مساكن الصوفية ، قد نقشت مصاريعها بزخارف نباتية متقنة يعلوها معالم شريط من الكتابات الجصية النسخية التى طمست معظمها عقب ترميمات حديثة ويتبين منها قوله تعالى « بسم الله الرحمن الرحيم تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمراً منيرا »[١] .

وبالضلع الشمالى للصحن يوجد إيوان يتكون من مستطيل طوله ٩ر٧٤ م وعرضه ٧ر٣٧ م ، وسقفه خشبى مستو شبيه بسقف الصحن لكنه ينخفض عنه بحوالى المتر ، بالجهة الجنوبية الشرقية للإيوان محراب حجر سعته ١ر٢٠ م وعمقه ٩٠ر م تعلوه طاقية على هيئة عقد نصف دائرى . ويتقدم الإيوان من الجهة الشمالية الغربية إضافة مساحتها ٥ر٦٠ × ٥ر٢٨ م ، سقفها مقبى بالحجر ، وبصدرها النافذة التى تعلو فتحة باب المدخل الرئيسى للخانقاه ، وبجهتها الشمالية ملقف هواء شبيه بملقف المدرسة الكاملية والمدرسة الناصرية[٢] .

وبالجهة الشمالية الغربية للخانقاه يوجد ممر مقبى يتقدم ضريحى الجاولى وسلار ، وهو عبارة عن مستطيل طوله ١٤ م وعرضه ٣ م ، أرضيته مفروشة ببلاطات من الحجر الجيرى وسقفه مغطى بأقباء حجرية متقاطعة ، وبالجهة الجنوبية للممر توجد أربعة عقود مدببة اتساع فتحاتها مختلف ، ترتكز على دعائم حجرية ضخمة ، وتطل على ساحة خربة ، والجهة الشمالية بها يوجد بابان وشباكان تخص الضريحين ، وبنهاية الممر من الجهة الشمالية المغربية يوجد عقد كبير اتساع فتحته ٢ر٦٥ م ، يرتكز أحد جوانبه على كابولى بديع الصنع . وخلف العقد قاعة صغيرة مربعة طول كل ضلع من أضلاعها ٤ر٦٢ م ، ذات شباكين — صغيرين مستطيلين يطلان على الساحة الخربة .

---

(١) سورة الفرقان آية رقم ٦١ .

(٢) Creswell : Muslim Architecture of Egypt II p. 244.

مساكن الصوفية :

وتوجد مساكن الصوفية فى الجهة الشرقية للخانقاه ويتوصل إليها عن طريق الباب الجنوبي بالممر ذى القبوات ، وهى عبارة عن ساحة غير منتظمة الأضلاع ، بالجهة الجنوبية الشرقية منها محراب مهدم سعة حنيته ١٫٢٠ م ، طاقيته على هيئة عقد نصف دائرى ، تعلوه زخارف هندسية جصية وكتابات نسخية بأحرف غليظة يتبين منها قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون[١] » . ويعلو المحراب رفرف بشرفات خشبية مزخرفة تحته أزار به كتابات نسخية على أرضية نباتية بينها جامات بداخلها زخارف هندسية جصية ، أما نص الكتابة فهو قوله تعالى « كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور[٢] » .

وخلفية جدار المحراب بقايا طابقين من خلاوى الصوفية اندثرت الآن .

ضريح سـلار :

يوجد مدخله بالجهة الشمالية للممر ذى القبوات ويعلو هذا المدخل لوحة تأسيسية نقش عليها كتابة نسخية بأحرف بارزة من ثلاثة أسطر نصها « بسم الله الرحمن الرحيم كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام[٣] ، هذه تربة العبد الفقير إلى الله تعالى سيف الدين سلار نائب السلطنة المعظمة الملكى الناصرى المنصورى المستغفر من ذنبه الراجى عفو ربه رحم الله من دعا له بالرحمة ولجميع المسلمين ، عمل هذا المكان المبارك فى شهور سنة ثلاث وسبعمائة » ويجاور المدخل شباك مستطيل بعتبه زخارف هندسية متقنة وعقد عاتق منقوش بزخارف نباتية بارزة ويتوصل من باب المدخل إلى الضريح وهو عبارة عن قاعة مربعة طول كل ضلع من أضلاعها ٧٫٦٠ م ، بصدره محراب اتساع حنيته ١٫١٠ م وعمقها ٠٫٨٠ م ، طاقيته على هيئة عقد مدبب ، فقد ازدانت حنيته بفسيفساء رخامية ، ويعلو المحراب أفريزان ، أحدهما من الخشب الملون به زخارف نباتية محورة وبالآخر زخارف

---

(١) سورة الحج آية ٧٧ .

(٢) سورة آل عمران آية ١٨٥ .

(٣) سورة الرحمن آية ٢٦ — ٢٧ .

كتابية نسخية بأحرف بارزة نقش عليه آية الكرسى ، ويكتنف المحراب دولابان فى سمك الحائط . وبالجهة الشمالية الغربية للضريح فتحتا بابين مستطيلتان يفضيان إلى ضريح الجاولى اتساع كل منهما ٢٠ر١ م وعمقه ٣ر١ م ، بأعتابهما صنج حجرية وعقود عاتقة مزخرفة بزخارف نباتية ، وبالجهة الشمالية للضريح ثلاث نوافذ تطل على الطريق ، وبالجهة الجنوبية للضريح يوجد مدخله ونافذة تطل على الممر ذى القبوات وخزانة اتساع فتحتها ٢٠ر١ م ، ويعلو جدران قبة الضريح شريط من الكتابة النسخية البارزة من قوله تعالى « بسم الله الرحمن الرحيم » « الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار ربنا إننا سمعنا منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار[1] » .

ويتوسط الضريح تابوت مجدد على النظام الأصلى ، تضم جوانبه حشوات دقيقة مربعة ومستطيلة بداخلها زخارف نباتية متقنة ، ومصبغات صغيرة من خشب الخرط . أما منطقة الانتقال فتتكون من ثلاثة صفوف من الدلايات يتكون الأول والثانى من ثلاثة مقرنصات والثالث من أركان المربع توجد أربع نوافذ كل نافذة تتكون من ثلاث فتحات على شكل مثلث ملئت كلها بزخارف جصية وزجاجية معشقة ، ورقبة القبة تحتوى على عشرين نافذة ملئت بزخارف جصية وزجاجية معشقة ، وتعلو الرقبة القبة المدببة ، وقد زخرفت رقبة القبة من الخارج بكتابات جصية نسخية بأحرف بارزة من قوله تعالى : « بسم الله الرحمن الرحيم إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لايسمعون حسيسها وهم فى ما اشتهت أنفسهم خالدون لايحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون[2] » .

ضريح الجاولى :

يقع إلى جانب ضريح سلار ، ويعلو المدخل لوحة تأسيسية نقش عليها ثلاثة أسطر بالخط النسخى نصها « بسم الله الرحمن الرحيم كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذوالجلال

---

(١) سورة آل عمران آية ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ .

(٢) سورة الأنبياء آية ١٠١ – ١٠٢ ، ١٠٣ .

والإكرام» هذه تربة العبد الفقير إلى الله تعالى المستغفر من ذنبه الراجى عفو ربه سنجرالجاولى استادار العالية الملكى الناصرى المنصورى رحم الله من دعا له بالرحمة ولجميع المسلمين عمل هذا المكان المبارك فى شهور سنة ثلاث وسبعمائة » . ويتكون الضريح من قاعة مربعة طول كل ضلع من أضلاعها ٦ر٤٧ م وبصدر الضريح محراب اتساع حنيته ١ر٠٠ م وعمقه ٧٠ر م طاقيته مخوصة ترتكز على صف من الدلايات . وبالجهة الشمالية للضريح توجد ثلاث نوافذ تطل على الطريق تضاهى تلك التى لضريح سلار ، وبالجهة الجنوبية للضريح ثلاث فتحات هى مدخل الضريح ، وخزانة حائطية ونافذة اتساع فتحتها ١ر٤٠ م ، ويتوسط الضريح تركيبة رخامية بأربعة رءوس رومانية ، وبأعلى أركان مربع الضريح وقبل منطقة الانتقال شريط من الكتابة النسخية الحجرية البارزة من قوله تعالى : بسم الله الرحمن الرحيم : لله ما فى السموات ومافى الأرض وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شىء قدير آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير لايكلف الله نفساً إلا وسعها لها ماكسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولاتحملنا مالا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين[1] » . ويعلو ذلك منطقة انتقال تتكون من ثلاثة صفوف من المقرنصات تحصر بينها نافذة مكونة من أربع فتحات على شكل مثلث قد ملئت بزخارف جصية وزجاجية معشقة ، وببعضها رسومات على هيئة مشكاوات . ويعلو منطقة الانتقال قبة من الآجر ملساء من الداخل ومضلعة من الخارج قد فتحت رقبتها أربعا وعشرين نافذة مملوءة بالجص والزجاج الملون ، كما نقش على الرقبة من الخارج زخارف كتابية جصية بالخط النسخى البارز من قوله تعالى : « بسم الله الرحمن الرحيم والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين[2] » صدق الله العظيم .

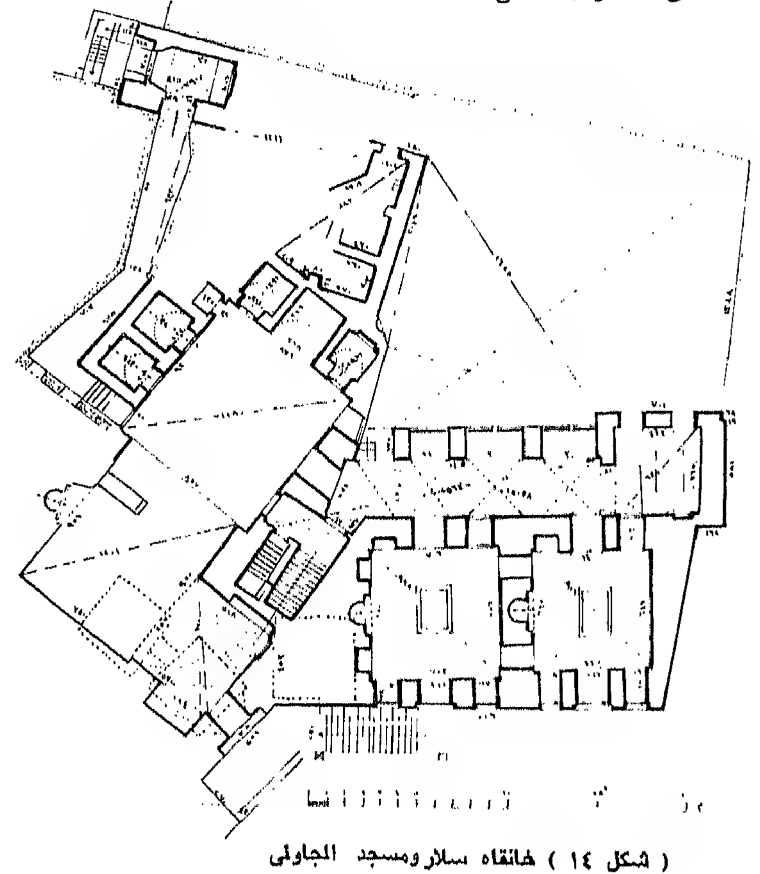
---

(١) من آية ٢٨٤ إلى آية ٢٨٦ من سورة البقرة .

(٢) سورة آل عمران آية ١٣٥ ، ١٣٦ .

المئذنـــة :

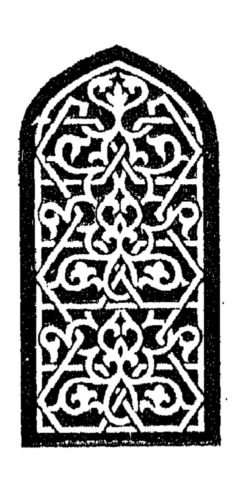
ارتفاعها حوالى ٣٨ر٢٦ م ، قاعدتها مرتفعة حجرية ، يعلوها طابقان ، بالطابق الأول فتحات ويحتوى الطابق العلوى على نرافذ تشبه تلك التى فى مئذنة مدرسة المنصور قلاوون بالنحاسين[١] . وبأعلى جدار مربع المئذنة شريط من الكتابة النسخية من قوله تعالى : — « بسم الله الرحمن الرحيم فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وايتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب[٢] » ، ويلى الجزء المربع ، طابق مثمن به ثمانية تجاويف ضحلة يعلوها عقد منكسر وبأعلى المثمن جوسق يرتكز على أربعة صفوف من المقرنصات ويتوج المئذنة خوذة رشيقة مضلعة من الآجر والجص .



(شكل ١٤) خانقاه سلار ومسجد الجاولى

(١) Hautecoar & Weit : op. cit. p. 287

(٢) سورة النور آية ٣٦ — ٣٨ .



ضريح الشيخ الشرف الدمياطى
بمقابر الصوفية
خارج باب النصر

هو شرف الدين عبد المؤمن بن خلف بن أبى الحسن بن شرف . ولد فى بلدة تونة ببحيرة تنيس (من أعمال دمياط) سنة ثلاثة عشر وستمائة ، وقد كانت مدينة تونة وتنيس من أوائل مدن القطر المصرى التى خضعت للحكم الإسلامى وسكنتهما قبائل عربية وفدت مع عمرو بن العاص عند فتح مصر . فقد ذكر البلاذرى[1] : لما فتح عمرو بن العاص الفسطاط وجه عمير بن وهب الجمحى إلى تنيس ودمياط وتونة ودميرة وشطا وبنا وبوصيرة ، فغلب على أرضها وصالح أهل قراها على مثل حكم الفسطاط . ومنذ أن دخل العرب مصر أخذت بعض القبائل العربية[2] تنزح إليها لاستيطانها وكان بعضهم قد قدم مع عمرو بن العاص وجاء البعض الآخر بعد ذلك وكانت لهم عدة اقطاعيات فى جميع الولايات والأعمال فانتقلت بطون من قريش ومنهم قوم من نصر بن معاوية من هوازن وسكن حول دمياط وتنيس وتونة ونزل بنو نصر فى وسط الدلتا . ومنذ سنة ٦٤٢ ميلادية بدأت دمياط وتنيس وتونة تتعرف إلى العرب المهاجرين إليها من شبه الجزيرة العربية إلى المرابطين من رجال الجيش الفاتح كما بدأت بناية المساجد بها مما ساعد على سرعة إسلام أهلها وتعلقهم بالدين الإسلامى ونبوغ الكثير من أهلها فيه .

---

(١) فتوح البلدان : ص ٧٦ .

(٢) المقريزى البيان والإعراب فيمن سكن مصر من الأعراب ص ٦

ولا يزال يوجد بدمياط حتى اليوم جامع يرجع تاريخ إنشائه إلى عهد عمرو بن العاص هو جامع أبى العاص .

وورد فى معجم البلدان[1] لياقوت ، أن تونة جزيرة فى بحيرة المنزلة قرب تنيس ودمياط وكانت من البلاد التى يشتغل أهلها فى نسج المنسوجات الصوفية والحريرية وفى صيد الأسماك ويضيف محمد رمزى فى قاموسه[2] الجغرافى فيقول : ومكان تونة اليوم يعرف بكوم سيدى عبد الله بن سلام الواقع فى جزيرة ببحيرة المنزلة ، التى كانت تسمى قديماً ببحيرة تنيس وهذه الجزيرة تقع شرق بلدة المطرية على بعد خمسة كيلو مترات منها .

ولا غرو فقد نشأ الشرف الدمياطى فى بيئة إسلامية توطدت أركانها منذ الفتح الإسلامى وتلقى ثقافته الأُولى وهو مازال طفلا صغيرًا بمدينة دمياط فدرس بها الفقه وأُصوله وقرأ القرآن بالروايات ولما شب عن الطوق وتطلعت همته العالية وطموحه إلى استكمال ثقافته الدينية فرحل إلى مدينة الاسكندرية سنة ٦٣٦ هجرية وكان عمره إذ ذاك ثلاثا وعشرين سنة . وفى الاسكندرية التحق بالمدرسة السلفية التى كانت من أعظم المدارس فى ذلك الوقت وقد زارها ابن جبير[3] فى أيام ابن أيوب وقال عنها : ومن مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة فى الحقيقة إلى سلطانه ، المدارس والمحارس الموضوعة فى أهل الطلب والتعبد ، يفدون من الأقطار النائية يتلقى كل واحد منهم مسكنًا يؤوى إليه ومدرسًا يعلمه الفن الذى يريد تعلمه وإجراء يقوم بجميع أحواله . ويضيف ابن جبير فى وصف أحوال طلبة مدارس الاسكندرية فيقول : واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين حتى أمر تعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك ونصب لهم مارستانا لعلاج من مرض منهم ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم وتحت أيديهم خدام يأْمرونهم بالنظر فى مصالحهم التى يشيرون بها من علاج وغذاء .

وبعد أن أتم الشرف الدمياطى تعلم علم الحديث من أصحاب السلفى فى مدرسته ، قدم

---

(١) معجم البلدان ج ٤ ص ٨٥ .

(٢) القاموس الجغرافى ج ١ ص ٨ .

(٣) رحلة ابن جبير ص ١٠ .

إلى القاهرة حيث التقى بأُستاذه الحافظ المنذرى شيخ دار الحديد الكاملية فتتلمذ على يديه وتعرف على الكثير من أصحابه وتلاميذه مثل القاضى عز الدين بن عبد السلام الذى كان يحضر مجلس المنذرى ولا يحدث وكابن خلكان وابن دقيق العيد وقد ظل الشرف الدمياطى ملازمًا لأُستاذه المنذرى حتى صار معيدا لديه .

ولما بلغ الثلاثين من عمره ، تاقت نفسه لتأْدية فريضة الحج ، فرحل إلى الحجاز سنة ٦٤٣ هجرية وسمع بالحرمين مدة عامين ثم ارتحل إلى الشام سنة ٦٤٥ هجرية كما طوف ببلاد العراق والجزيرة حيث سمع جملة كبيرة من المشايخ[1] يناهزون ألفا وثلثمائة حتى أصبح كما يقول ابن العماد[2] : من كبار حفاظ زمانه ، راسخًا فى الفقه نحويًا لغويا محيطًا بالقراءات وامتاز فى الحديث وأربى فى علم النسب على المتقدمين ، فهو يناقشهم – ويبين أخطاءهم .

واستقر المطاف بالشرف الدمياطى وانتهى به إلى القاهرة حيث ولى مشيخة المدرسة الظاهرية فهو أول من درس الحديث بها . والمدرسة الظاهرية هى المدرسة التى أنشأها الملك السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى وقد وصفها المقريزى[3] فقال : هذه المدرسة بالقاهرة من جملة خط ما بين القصرين كان موضوعها من القصر الكبير يعرف بقاعة الخيم كما دخل فى هذه المدرسة باب من أبواب القصر يعرف بباب الذهب .

وقد اشترى بعض الخيم هذه الشيخ شمس الدين محمد بن العماد شيخ الحنابلة بالمدرسة الصالحية ثم باعها للسلطان الظاهر بيبرس فأمر بهدمها وبناء موضعها مدرسة عرفت باسمه .

ويحدد المقريزى تاريخ إنشاء المدرسة فيقول : فابتدأ فى عمارتها فى ثانى ربيع الآخر سنة ٦٠ وستمائة وفرغ منها فى سنة ٦٢ وستمائة . فلما فرغ البناء اجتمع أهل العلم بها وحضر القراء وجلس أهل الدروس كل طائفة فى إيوان منها الشافعية بالإيوان القبلى ومدرسهم الشيخ تقى الدين محمد بن الحسن بن رزين الحموى والحنفية بالإيوان البحرى ومدرسهم الشيخ الصدر بن مجد الدين عبد الرحمن بن الصاحب ، وأهل الحديث بالإيوان الشرقى

---

(١) الذهبى : تذكرة الحفاظ ج ٤ ص ٢٦٨ الأسيوطى : طبقات الحفاظ ج ٢ ص ٦٥ .
(٢) شذرات الذهب ج ٦ ص ١٢ .
(٣) الخطط ج ٢ ص ٣٧٨ .

ومدرسة الشيخ شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدمياطى « (صاحب الترجمة) والقراء بالقراءات السبع بالإيوان الغربي وشيخهم الفقيه كمال محلى . وقرروا كلهم الدروس - وتناصروا فى علومهم ثم مدت الأسمطة لهم ثم خلع السلطان عليهم وكان يومًا مشهودا .

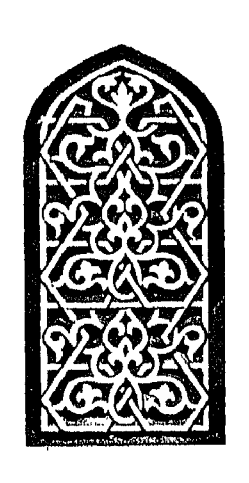
وقد ظل الشيخ شرف يلقى دروس الحديث بالمدرسة الظاهرية حتى كان عصر السلطان منصور قلاوون ولما أنشئت المدرسة المنصورية وقع اختيار السلطان عليه فى تدريس الحديث فى المدرسة المنصورية[1] وقد عاش شيخنا موسعًا عليه فى الرزق ذا حرمة وجلالة من كل من عاصره من الملوك والسلاطين والأمراء بمصر والحجاز والعراق والشام وقد كان إمامًا بارعًا ومجودًا حجة ومحدثًا ثقة .

وقد ترك لنا شرف الدين الدمياطى الكثير من المؤلفات فى علم الحديث والفقه واللغة والتاريخ منها فى الحديث جزء جمع فيه أحاديث من رواياته[2] وجزء فيه أحاديث صحاح من أماليه وجزء فيه أحاديث جمعها البرازيلى[3] رواية عنه . وله كتاب فى فعل الخير[4] الذى كان من رواته مؤرخ مصر تقى الدين المقريزى وله كتاب الأربعين المتباينة الاسناد فى حديث أهل بغداد جمع فيها أربعين حديثًا عن أهل بغداد كما له معجم فى تاريخ يقع فى أربعة مجلدات جمع فيه تراجم مشايخه ، كما وضع كتابًا فى تاريخ قبائل الخزرج ، كما وضع سيرة مختصرة للرسول الكريم ، أما آخر مؤلفاته فهو كتابه (العقد المسمى) أرخ فيه لكل من كان اسمه (عبد المؤمن) .

وقد توفى الشرف الدمياطى فجأة فى القاهرة بعد أن صلى[5] عصر يوم الأحد خامس عشر ذى القعدة سنة خمس وسبعمائة وقد أربى على التسعين[6] من عمره وودعته القاهرة توديعًا حافلا وكان أهل دمشق قد صلوا عليه صلاة الغائب ودفن بمقبرة بباب النصر التى تعرف بمقبرة الصوفية .

---

(١) النجوم الزاهرة : ج ٧ ص ١٢٠ . ج ٨ ص ٢١٣ ص ٢١٨ .
(٢) مخطوطه بدار الكتب رقم ٢٧٢٤ (حديث) .
(٣) مخطوطه بدار الكتب رقم ١٢٦٠ (حديث) .
(٤) مخطوطه بدار الكتب رقم ١٢٦٠ ٢٨٨٧ (فنون حربية) .
(٥) الدرر الكافة ج ٢ ص ٤١٧ لابن حجر الكنانى .
(٦) فوات الوفيات ج ٢ ص ١٧ تأليف محمد بن شاكر الكتبي .



ضريح ابن عطاء الله السكندرى

بالقرافة الكبرى

بجبل المقطم سنة ٧٠٩هـ

هو الشيخ الإمام تاج الدين أبو الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء السكندرى الجذامى نسبا المالكى مذهبا الشاذلى طريقة . وهو من أصل عربى فأجداده من الجذاميين من قبيلة كهلان التى ينتهى نسبها إلى بنى يعرب بن قحطان من العرب العاربة . ولد ابن عطاء بمدينة الاسكندرية حيث كانت تقيم أسرته وحيث كان جده يشتغل بالتدريس وإذا كانت المراجع لم تذكر تاريخ مولده صراحة إلا أن الدكتور التفتازانى استطاع أن يستنتجه من خلال سرد ترجمة حياته ، إذ يقول إن مولده يقع فيما بين سنتى ٦٥٨ هـ ، ٦٧٩ هـ . وقد تتلمذ ابن عطاء على أشهر فقهاء الاسكندرية فى ذلك العصر وهو الفقيه ناصر الدين المنبر الجذوى الجذامى الاسكندرى . وكانت الاسكندرية فى عصر ابن عطاء مركزاً هاماً من المراكز العلمية بمصر ، إذ كان بها كثير من خيرة العلماء فى الفقه والتفسير والحديث والأصول وسائر العلوم العربية والإسلامية هذا بالإضافة إلى أنها كانت زاخرة بعدد وفير من شيوخ الصوفية وأولياء الله الصالحين .

وكان والد عطاء الله معاصراً للشيخ أبى الحسن الشاذلى مؤسس الطريقة الشاذلية فقد ذكر شيخنا فى كتابه (لطائف المنن فى مناقب أبى العباس المرسى وشيخه الشاذلى) النص التالى : وأخبرنى والدى رحمة الله عليه قال : « دخلت على الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه فسمعته يقول : والله لقد تسألونى عن المسألة لايكون لها عندى جواب ، فأرى الجواب مسطراً فى الدواة والحصير والحائط » وكان أفراد الأسرة التى نشأ فيها ابن عطاء مشتغلين

بالعلوم الدينية وتدريسها ، لأن جده لوالده كان فقيها معروفًا فى عصره ولأن عطاء نشأ كجده فقيها مشتغلا بالعلوم الشرعية ، وكان يطمع إلى بلوغ منزلته . ويذكر ابن عطاء فى كتابه المنن أن جده كان ينكر على الصوفية ، وأن هؤلاء كانوا يصبرون على أذاه ، وقد وضح ذلك فى القصة التالية : قال الشيخ أبو العباس المرسى لأصحابه إذا جاء ابن فقيه الاسكندرية (يقصد ابن عطاء الله) فأعلمونى به ، فلما أتيت ، وعلم بى قال : جاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه ملك الجبال حين كذبته قريش فسلم عليه ملك الجبال وقال : يا محمد ، إن شئت أطبق عليهم الأخشبين فعلت : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ، ولكن أرجو أن يخرج من أصلابهم من يوحده ولا يشرك به شيئًا ، فصبر عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم رجاء من يخرج من أصلابهم ، كذلك صبرنا على جد هذا الفقيه (يقصد جد ابن عطاء الله) لأجل هذا الفقيه » .

وتقسم كتب التراجم حياة ابن عطاء الله إلى ثلاثة أطوار ، الأول أمضاه بمدينة الاسكندرية طالبًا لعلوم عصره الدينية من تفسير وحديث وفقه وأصول ونحو وبيان وغيرها من خيرة أساتذتها فى ذلك الوقت ، وفى هذا الطور من حياته كان متأثرًا إلى حد كبير بآراء جده فى إنكاره على الصوفية إنكارًا شديدًا تعصبًا لعلوم الفقهاء ، وقد ذكر ذلك فى كتابه المنن إذ يقول : وكنت أنا لأمره (أى لأمر مرسى أبى العباس) من المنكرين وعليه من المعترضين حتى جرت مقابلة بينى وبين أصحابه ، وذلك قبل صحبتى إياه ، وقلت لذلك الرجل . ليس إلا أهل العلم الظاهر ، وهؤلاء القوم (أى المتصوفون) يدعون أمورًا عظيمة وظاهر الشرع يأباها » .

ويبدأ الطور الثانى من حياته سنة ٦٧٤ هـ عند التقائه بأبى العباس المرسى واصطحابه له وينتهى بارتحاله إلى القاهرة . وفى هذا الطور نلاحظ زوال إنكاره للصوفية حين لقى أستاذه المرسى إذ أعجب به إعجابًا كبيرًا وأخذ عنه طريق الصوفية . وقد كان السبب فى تحوله الواضح من الإنكار الشديد إلى التصوف ، إنه أحس بأزمة نفسية شديدة خشى معها أن يكون منكرًا على الشيخ (مرسى أبو العباس) من غير حق ، وفى ذلك يقول : « وكان سبب اجتماعى به (أبى العباس) إن قلت لنفسى بعد أن جرت المخاصمة بينى وبين

ذلك الرجل : دعني أذهب أنظر إلى هذا الرجل ، فصاحب الحق له امارات ولا يخفى شأنه فأتيت إلى مجلسه فوجدته يتكلم فى الأنفاس التى أمر الشارع بها ، وعلمت أن الرجل إنما يغترف من فيض إلهى فأذهب الله ما كان عندى » .

ومما هو جدير بالذكر أن ابن عطاء الله لم ينقطع عن طلب العلم بسلوكه طريق الصوفية وإنما ظل يطلب هذه العلوم بتوجيه شيخه له ، فقد ظن فى بادىء الأمر أنه لن يستطيع أن يسلك طريق الصوفية إلا إذا انقطع عن اشتغاله بهذه العلوم وتفرغ بالكلية لصحبة شيخه ويذكر ابن عطاء كيف كان أبو العباس المرسى يرسم لكل واحد من تلاميذه طريقًا خاصًا فيقول : ودخلت أنا عليه (مرسى أبي العباس) وفى نفسى ترك الاشتغال بالعلم الظاهر فقال لى من غير أن أبدى له شيئًا : صحبى بقوص إنسان يقال له ابن ناشىء ، وكان مدرسًا بها ونائب الحاكم فذاق من هذا الطريق شيئًا على أيدينا فقال : يا سيدى أأترك ما أنا فيه وأتفرغ لصحبتك ؟ فقلت له ليس هذا شأننا ، ولكن امكث فيما أقامك الله ، وما قسم الك على أيدينا هو إليك واصل . ثم قال : وهكذا شأن الصديقين لايخرجون عن شىء حتى يكون الحق هو الذى يتولى إخراجهم فخرجت من عنده وقد غسل الله تلك الخواطر من قلبي وكأنها كانت ثوبًا نزعته ورضيت عن الله فيما أقامنى فيه » .

والطور الثالث من حياته يبدأ من وقت ارتحاله من الاسكندرية ليقيم بالقاهرة وينتهى بوفاته سنة ٧٠٩ هـ وهو طور نضوجه واكتماله من الناحيتين الفقهية والصوفية والإفادة منهما فى التدريس . وفى هذه المرحلة من حياته فرق ابن عطاء الله بين العزلة والخلوة وأعطانا وصفًا مميزًا لكل منهما . ويرى ابن عطاء ضرورة اصطناع العزلة عن الناس والخلوة فى مكان بعيد وفى ذلك يقول الغزالى فى (إحياء العلوم) والذين يستندون فى هذا المسلك إلى أساس من اعتزال النبي صلى الله عليه وسلم وتحنثه فى غار حراء قبل نزول الوحى حتى صفت نفسه وتهيأ لنور النبوة » . والعزلة عند ابن عطاء تعنى الانقطاع المعنوى لا الحقيقى عن الخلق بحيث يكون السالك مراقبًا نفسه على الدوام ومحاذرًا أن يشغل ذهنه بالعالم ، فإذا أحكم الصوفى عزلته ، وألفت نفسه الوحدة دخل الخلوة . ويعرف الخلوة بأنها وسيلة للوصول إلى سر الحق فهى تبتل إلى الله وانقطاع عن غيره تعالى . ويصف ابن عطاء البيت الذى يختلى فيه ـ

المتصوف فيقول : فأما بيت الخلوة فله هيئة خاصة ، فيكون ارتفاعه قدر قامة الرجل ، وطوله قدر سجوده ، وعرضه قدر جلسته ، ولا يكون فيه ثقب ينفذ الضوء منه إلى الخلوة ، وإن يكون بعيدًا عن الأصوات وبابه وثيقًا قصيرًا فى دار معمورة بالناس » .

لقد أصبح ابن عطاء الله بعد وفاة شيخه أبى العباس المرسى سنة ٦٨٦ هـ القائم على طريقته والداعى لها من بعده ، هذا بالإضافة إلى قيامه بالتدريس بمدينة الاسكندرية فلما رحل إلى القاهرة اشتغل بالتدريس والوعظ . فقد تولى ابن عطاء الله التدريس بأكبر الجامعات الإسلامية فى ذلك العهد وأعنى بها الجامع الأزهر ، وفى ذلك يقول ابن حجر : وكان ابن عطاء يتكلم بالجامع الأزهر فوق كرسى (أى أستاذ بكرسى) بكلام يروح النفس ويمزج كلام القوم بآثار السلف وفنون العلم ، فكثر أتباعه ، وكانت عليه سيما الخير « وفى هذا يقول أيضًا ابن تغرى بردى : كان (ابن عطاء الله) رجلا صالحًا يتكلم على كرسى ويحضر ميعاده خلق كثير وكان اوعظه تأثير فى القلوب ، وكان له معرفة تامة بكلام أهل الحقائق وأرباب الطرائق » . ومن الأماكن التى قام شيخنا بالتدريس فيها كذلك المدرسة المنصورية ، التى أنشأها السلطان منصور قلاوون بحى الصاغة . كما أنشأ بجوارها بيمارستانا (مستشفى) وقبة لكى يدفن بها . وقد تخرج على يدى ابن عطاء الله عدد كبير من الفقهاء والصوفية من أشهرهم الإمام تقى الدين السبكى والدتاج الدين السبكى صاحب طبقات الشافعية الكبرى .

وكان ابن عطاء الله معاصرًا للشيخ تقى الدين بن تيمية ، الذى شدد النكير فى عصره على الصوفية ، وصنف عدة رسائل فى الرد عليهم وبالغ فى عداوته لهم فى كثير من الأحيان . لهذا كان من الطبيعى أن تقوم خصومة متبادلة بين ابن تيمية وابن عطاء الله ، فالأول خصم لدود للصوفية والآخر يعتبر الممثل الأول للصوفية والمتحدث بلسانها فى عصره .

وكما جرت العادة أن ينسب لكل ولى أو صوفى كرامات ، كذلك ذكرت كتب الطبقات بعض الكرامات التى تنسب إلى ابن عطاء الله وعددها دال على منزلته كصوفى كامل واصل إلى الله . وفى هذا المقام يروى ابن حجر العسقلانى القصة التالية : يقال إن ثلاثة قصدوا مجلسه فقال أحدهم لو سلمت من العائلة لتجردت ، وقال آخر : أنا أصلى وأصوم ولا أجد

من الصلاح ذرة ، فقال الثالث : أنا صلاتى ما ترضينى فكيف ترضى ربى ؟ فلما حضروا مجلسه قال فى أثناء كلامه : ومن الناس من يقول كذا وكذا وأعاد كلامهم بعينه » .

وقد ذكر لنا المناوى فى كتابه (الكواكب الدرية) واقعتين أخريين خارقتين للعادة وعدهما من قبيل الكرامات ، ففى الأولى يقول : إن الشيخ الكمال الهمام زار قبره فقرأ عنده سورة هود حتى وصل إلى قوله « فمنهم شقى وسعيد » فأجابه (ابن عطاء الله) من القبر بصوت عال : يا كمال ليس فينا شقى ، فأوصى أن يدفن بجواره . والواقعة الثانية : أن رجلا من تلاميذ ابن عطاء الله حج فرأى الشيخ (ابن عطاء الله) فى المطاف وخلف المقام وفى السعى وفى عرفه ، فلما رجع سأل عن الشيخ هل خرج من البلد فى غيبته فى البلاد الحجازية ، قالوا لا ، فدخل إليه وسلم عليه فقال له : من رأيت فى سفرتك من الرجال ؟ قال يا سيدى رأيتك ، فتبسم وقال الرجل الكبير يملأ الكون لودعى القطب من حجر لأجاب»

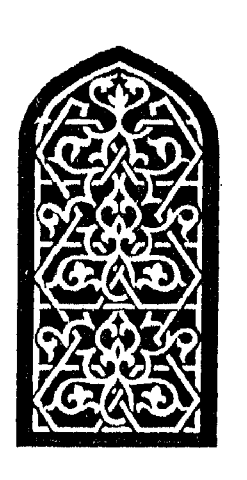
أما عن إنتاج ابن عطاء الله العلمى فقد ترك لنا عددًا كبيرًا من المصنفات بلغت اثنين وعشرين مؤلفًا تختلف من حيث الموضوع والغرض اللذين وضعت من أجلهما وكلها تعكس بوضوح ثقافة صاحبها ، فمنها التصانيف الأدبية ومنها المؤلفات الصوفية التى عالج فيها أدق أحوال النفس الإنسانية فى حال سلوكها إلى الله ومنها ما وضع فى الفقه والنحو والمنطق والفلسفة ، ومنها ما يعكس صورته خطيبًا واعظًا يرشد عامة الناس إلى طريق الله بعباراته القوية النافذة .

* * *

وتوفى ابن عطاء الله السكندرى رحمه الله سنة ٧٠٩ هـ ، وكانت وفاته كما ذكر ابن حجر بالمدرسة المنصورية التى كان يدرس بها . وكانت جنازته حافلة بجمهور كبير من أهل القاهرة الذين شيعوه إلى قبره فى القرافة الكبرى . وقد حدد محمد رمزى موقع قبره فقال : إن قبر ابن عطاء الله لايزال موجودًا بجبانة سيدى على أبى الوفاء الكائنة تحت جبل المقطم من الجهة الشرقية لجبانة الإمام الليث . وهذا القبر يقع على بعد (٣٠٠) متر فى الجنوب الشرقى لجامع سيدى على أبى الوفاء ، وبجوار القبر من الغرب قبة تحتها كمال الدين محمد ابن عبد الواحد المعروف بالهمام » .

ويتكون الضريح من ساحة مستطيلة صغيرة المساحة جدا يتوسطها القبر عليه شاهد نقش عليه اسمه وتاريخ وفاته بالخط الثلث المملوكى . مما يثبت أنه يرجع إلى تاريخ وفاته سنة ٧٠٩ هـ . ويحيط بالساحة سور مبنى من الحجر . وفى ضلعه الجنوبى الشرقى محراب صغير مما يؤيد ما جاء فى طبقات الشاذلية من أن ابن عطاء الله دفن بسفح جبل المقطم بزاويته التى كان يتعبد بها .

وضريح ابن عطاء الله السكندرى بحالة سيئة للغاية لا يتناسب مع مكانته العلمية ولا الدينية خاصة وإنه أحد المتصوفين الأربعة ، ذى النون وعمر بن الفارض وإبراهيم الدسوقى ، الذين ينتسبون إلى مصر ، فياحبذا لو أولت وزارة الأوقاف عنايتها بأضرحة الأولياء والشخصيات الإسلامية التى لعبت دورًا ظاهرًا فى الحضارة الإسلامية فى مصر تقديرًا لأصحابها واعترافًا بفضلهم .



مدرسة وخانقاه السلطان المظفر بيبرس الجاشنكير

سنة ٧٠٩ هـ

السلطان الملك المظفر ركن الدين بيبرس بن عبد الله المنصورى الجاشنكير ، أصله من مماليك الملك المنصور قلاوون البرجية ، وكان جركسى الجنس وهو أول من ملك مصر من الجراكسة ، وتأمّر فى أيام أستاذه المنصور قلاوون ، وبقى على ذلك إلى أن صار من أكابر الأمراء فى دولة الملك الأشرف خليل بن قلاوون . ولما تسلطن الملك الناصر محمد بن قلاوون بعد قتل أخيه الأشرف خليل ، صار بيبرس هذا استادارًا[1] إلى أن عزله الملك العادل زين الدين كتبغا وقبض عليه وحبسه مدة ثم أفرج عنه وأنعم عليه بإمرة مائة وتقدمه ألف بالديار المصرية ، واستمر على ذلك حتى قتل الملك المنصور حسام الدين لاجين ، فكان بيبرس هذا أحد من أشار بعودة الملك محمد بن قلاوون إلى الملك . فلما عاد الناصر إلى ملكه صار بيبرس هذا استدارًا على عادته وسلار نائبًا ، فأقاما على ذلك سنين إلى أن صار هو وسلار كفيلى الممالك الشريفة الناصرية ، والملك الناصر محمد معهما آلة فى السلطنة إلى أن ضجر الملك الناصر منهما وخرج إلى الحج فسار إلى الكرك وخلع نفسه من الملك ، فعند ذلك وقع الاتفاق بين الأمراء على سلطنة بيبرس ، فجلس السلطان المظفر على كرسى الملك فى يوم السبت الثالث والعشرين من شوال من سنة ثمان وسبعمائة . وهو السلطان الحادى عشر من ملوك

---

(١) الأستادار والأستادارية : لفظ فارسى معناه وكيل الخرج أو المؤونة ، ومعناه الاصطلاحى فى دولتى المماليك وظيفة من وظائف أمر باب السيوف ، وموضوعها التحدث فى أمر بيوت السلطان كلها من المطابخ والشراب خاناه والحاشية والغلمان وإليه أمر الجاشنكيريه ، وله حديث مطلق وتصرف تام فى استدعاء ما يحتاجه كل من فى بيت السلطان من النفقات والكساوى وما يجرى مجرى ذلك للمماليك وغيرهم (القلقشندى صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٠) .

الترك والسابع ممن مسهم الرق والأول من الجراكسة . ودقت البشائر وحضر الخليفة أبوالربيع سليمان وفوض إليه تقليد السلطنة ، وكتب له عهدًا وشمله بخطه ، وكان من جملة عنوان التقليد : إنه من سليمان ، وإنه بسم الله الرحمن الرحيم وحلف الأُمراء والعساكر على طاعته وكتب بذلك إلى الأقطار .

ولما استتب الأمر إلى الملك المظفر كتب إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون تقليدًا بالكرك وأرسله مع الأميرال ملك ومنشورا بما عين له من الاقطاعات فى حين أرسل قراسنقر نائب حلب ولده محمدًا إلى الملك الناصر محمد بالكرك ومعه كتاب أبيه وكتاب قبجق نائب حماه وكتاب أسندمر نائب طرابلس ومضمون كتاب قرا سنقر : أنه يلوم الملك الناصر عن نزوله عن الملك ولامه على وقوع ذلك دون استشارته بادىء الأمر ، ثم وعد الملك الناصر برجوع ملكه إليه فى القريب وأخبره بأنه وقبجق وأسندمر لم يحلفوا على طاعتهم للملك المظفر وانهم مقيمون على إيمانهم له .

وفى السنة الثانية لحكم السلطان المظفر بيبرس تفشى فى الناس أمراض حادة وعم الوباء الخلائق وعز سائر ما يحتاج إليه المرضى . ثم توقفت زيادة النيل إلى أن دخل شهر مسرى وارتفع سعر القمح وسائر الغلال . ومنع الأُمراء البيع من شونهم إلا الأمير عز الدين أيدمر الخطيرى الاستدار ، فإنه تقدم إلى مباشريه بأن لايتركوا عنده سوى مئونة سنة واحدة وباع ما عداه قليلا قليلا والخطيرى هذا هو صاحب الجامع الذى بخط[1] بولاق .

تشاءم الناس بسلطنة الملك المظفر بيبرس وخاف الناس أن يقع بالبلاد غلاء نظير ماحدث فى حكم كتبغا ، حتى أن الخطيب نور الدين على بن محمد بن الحسن القسطلانى[2] خرج بالناس واستسقى ولم يوف النيل إلى تاسع عشر بابه وذلك بعد اليأس من وفاء النيل فانحط بعد الوفاء أسعار الغلال غير أن الناس تشاءمت بطلعة الملك المظفر بيبرس حتى أن العامة غنت فى هذا تقول :

---

(١) النجوم الزاهرة : ص ٢٤٣ والحاشية رقم (٢) ص ٢٢٣ من الجزء (٨) .

(٢) النجوم الزاهرة : ص ٢٤٣ والسلوك للمقريزى .

سلطاننا ركين ، ونائبنا دقين يجينا الماء من أين
يجيبوا لنا الأعرج يجى الماء ويدحرج[1]

وقعت الوحشة بين المظفر وبين عامة مصر وأخذت دولة الملك المظفر بيبرس فى — الاضطراب وذلك لكثرة توهمه من الملك الناصر محمد بن قلاوون وكان هم أمرائه الترقى إلى أعلى منزلة دون النظر والحرص على صالح الرعية كما اتهموا الأمير سلار نائب السلطان بمباطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون وحذروا الملك المظفر منه ورغبوه فى القبض عليه غير أن بيبرس جبن عن تنفيذ ذلك وما زالوا به حتى بعث أحد أمرائه وهو الأمير مغلطاى إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون بالكرك طالبًا استرجاع الخيل والمماليك التى عنده وقد أغلظ المبعوث للملك الناصر محمد فى القول ، فغضب الملك الناصر من ذلك غضبًا شديدًا وقال له : أنا خليت ملك مصر والشام لبيبرس ، ما يكفيه حتى ضاقت عينه على فرس عندى ومملوك لى ويكرر الطلب ! ارجع إليه وقل له : والله لئن لم يتركنى ، وإلا دخلت بلاد التتار واعلمهم إلى تركت ملك أبى وأخى وملكى لمملوكى ، وهو يتابعنى ويطلب منى ماأخذته فجافاه مغلطاى وخشن له فى القول بحيث اشتد غضب الملك الناصر وصاح : ويلك وصلت إلى هنا ! وأمر أن يجر ويرمى من سور قلعة الكرك ، فثار به المماليك يسبونه ويلعنونه ، وأخرجوه إلى السور وتشفع له بعض الأمراء لدى الملك الناصر فعفا عنه وحبسه ثم أطلق سراحه

عظم ذلك على الملك الناصر فكتب إلى نواب البلاد الشامية بحلب وحماه وطرابلس وصفد ، ثم إلى مصر ممن يثق بهم ، وذكر ما كان به من ضيق اليد وقلة الحرمة ، وأنه لاجل ذلك ترك ملك مصر وقنع بالإقامة بالكرك وأن السلطان الملك المظفر فى كل وقت يرسل يطالبه بالمماليك والخيل التى عنده وطالبهم الناصر محمد بأن يردوه عنه فعاونوه فى — هذا الأمر .

سار الملك الناصر من الكرك بمن معه يريد دمشق فانضم إليه أمراء دمشق وانفرط الأمر من وإلى دمشق من قبل الملك المظفر وتسلل عسكره طائفة بعد أخرى إلى الملك الناصر ، فلما

---

(١) ورد فى ابن اياس : ج ١ ص ١٥٠ بعد هذا الكلام (وكان الأمير سلار نائب السلطان بيبرس أجرد فى حنكه بعض شعرات لأنه كان من التتار فسماه العوام دقين ، وكان الملك الناصر محمد بن قلاوون به بعض عرج فسموه العوام الأعرج . وكان السلطان بيبرس الجاشنكير لقبه ركن الدين فسماه العوام ركين) .

بلغ الملك المظفر ذلك عظم عليه الأمر خصوصًا وأن عساكره بمصر خرجت على طاعته مفضلة الانضمام إلى الملك الناصر حتى أنه لم يبق لديه بالديار المصرية سوى خواصه من الأمراء والأجناد .

اضطربت أحوال المظفر وأشار عليه الأمراء بنزوله عن الملك والاشهاد عليه بذلك وأن يخرج إلى أطفيح بمن يثق به ويقيم فيها حتى يرد جواب الملك الناصر وقد عمل الملك المظفر بنصيحة أمرائه وكتب إلى الملك الناصر يسأله أن يوليه إحدى ولايات ثلاث : أما الكرك وأعمالها أو حماه وبلادها أو صهيون ومضافاتها .

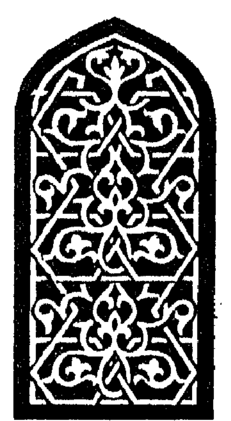
أخذ المظفر معه فى رحيله من المال والخيل ما أحب وخرج فى مماليكه وعدتهم سبعمائة مملوك ومعه الأمراء فأقام بأطفيح يومين ثم اتفق رأيه على المسير إلى برقة وقيل إلى اسوان . ولما بلغ مماليك الملك المظفر هذا الرأى عزموا على مفارقته فما أن وصل إلى أخميم حتى فارقه أكثر من كان معه . وبينما هو فى طريقه ، قدم إليه أميران من قبل الملك الناصر يطلبان إليه التوجه إلى صهيون ليكون واليًا عليها على شريطه أن يدفع ما أخذه من الخزائن ، فدفع المظفر المال بأجمعه إلى رسل الملك الناصر الذى حمل إليه وهو بقلعة الجبل .

وأثناء سير المظفر إلى ولايته الجديدة لحق به أمراء الملك الناصر فى غزة وقفلوا به وبمن معه عائدين إلى مصر .

ولما مثل المظفر بين يدى السلطان الناصر عنفه بما فعله معه وذكره بما كان منه إليه وعدّد ذنوبه ، فلما فرغ السلطان من كلامه قال المظفر يامولانا السلطان ، كل ما قلت فعلته ولم يبق إلا مراحم السلطان . ثم خنق فى حضرة الملك الناصر . وكانت أيام المظفر فى سلطنة مصر عشرة أشهر وأربعة وعشرين يومًا كانت كلها فتنا وقلاقل .

وكان الملك المظفر[1] ملكًا ثابتًا كثير السكون والوقار . جميل الصفات ، ندب إلى المهمات مرارًا عديدة ، وتكلم فى أمر الدولة مدة سنين ،. وحسنت سيرته وكان يرجع إلى دين وخير معروف ، تولى السلطنة على كره منه ، وله أوقاف على وجوه البر والصدقة ، عمر ما هدم من الجامع الحاكمى داخل باب النصر بعد ما خربته الزلازل ، وكان من أعيان الأمراء فى دولة المنصور قلاوون أستاذه وكذلك فى دولة الأشرف خليل والناصر محمدبن قلاوون

(١) النجوم الزاهرة : جـ ٨ ص ٢٧٦ .



خانقاه بيبرس جاشنكير (*)

٧٠٩هـ - ١٣٠٤م

تقع الواجهة الرئيسية للخانقاه فى الضلع الغربى ويبلغ طولها ٥ر٢٩ متراً . وتتكون من جزءين يبرز الثانى عن الأول بمقدار ٣ر١٢ أمتار . ويضم حنية القسم الأول المدخل الرئيسى وقد كسيت واجهته بالرخام الملون الأبيض المتبادل مع الأسود . أما القسم الثانى فهو واجهة رواق الضريح ، ويضم خمسة تجاويف ضحلة رأسية مستطيلة ترتفع إلى أعلى جدار الواجهة ، ثلاثة منها بالجهة الشمالية الغربية يعلو كلا منها ثلاثة صفوف من الدلايات ، واثنان ــ جانبيان ، أحدهما جهة الشمال والآخر جهة الجنوب ، يعلوهما ثلاثة صفوف من الدلايات ، وبالتجاويف الخمسة صفان من النوافذ السفلية منها متسعة ويعلوها أعتاب ذات صنجات مزررة فوقها عقود عاتقة . أما العلوية فيسودها البساطة ، وهى أعلى الشريط الكتابى بمدماك واحد ، ويبدأ شريط الكتابة على بعد ٤٦ر٢ م خلف الجانب البارز من المدخل ، ويجتاز حنية المدخل ، ثم يتجاوزها ليمضى إلى الجانب الشمالى الغربى لرواق الضريح .

وشريط الكتابة بالخط النسخى ، جزء منه منقوش فى الرخام ، وهو الذى يعلو حنية المدخل ، والآخر منقوش فى الحجر ، وهذا نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة يخافون يومًا تتقلب فيه القلوب والأبصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب[1] . أمر بإنشاء هذه الخانقاه السعيد ، وقفًا مويدا على جماعة الصوفية من فيض الله تعالى ركن الدين بيبرس المنصورى عبد الله الفقير إليه الراجى رحمته يوم القدوم عليه ضاعف الله ثوابه وزكى

(*) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٤١٨ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢٧٦ .

(١) سورة النور آية ٣٦ – ٣٨ .

أعماله وييسر له أسباب ما نشط إليه من المعروف بآماله بمنه وكرمه وأفضاله وصلى الله على سيدنا محمد » . ويعلو الواجهة بتمامها حلية فوقها صف من الشرفات المسننة .

يعتبر المدخل الرئيسى للخانقاه من المداخل الفريدة ، إذ يتكون من عقد ذى ثلاثة فصوص بداخله حنيتان ويعلو ذلك عقد مرتفع نصف دائرى ، ذو صنجات معشقة ، وعلى جانبيه نافذة مستديرة بصنجات مزررة حولها بالرخام الأبيض والأسود وعلى جانبي المدخل من الجهة اليمنى واليسرى مصطبة رخامية . ويكتنف الحنية شريط به كتابة بيضاء نسخية بأحرف صغيرة رفيعة على أرضية سوداء من قوله تعالى : « بسم الله الرحمن الرحيم أدخلوها بسلام آمنين ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين لايمسهم فيها نصب وماهم منها بمخرجين نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم[1] » . ويتوسط المدخل باب مستطيل سعته ١٫١٢ م وارتفاعه ٤٫٢١ م له عتبة سفلية من حجر الجرانيت منقوشة برسومات مصرية قديمة ، ويعلو الباب عتب مكرن من صنجات معشقة من الرخام الملون ، يعلو العتب مباشرة نافذة مستطيلة تسمح بالإضاءة داخل الدركاه ، ويغلق على فتحة الباب مصراعان من الخشب بخلفيتيهما حشوات ما بين مستطيلة ومربعة بداخلها زخارف نباتية بارزة ، أما ظاهراهما فيعلوهما كسوة من البرنز ، وقد نقش على المصراعين شريطان من الكتابة النسخية نصها : « أمر بإنشاء هذه الخانقاة السعيدة من فيض الله وجزيل إحسانه لجماعة الصوفية راجيًا بذلك العبد الفقير ركن الدين بيبرس المنصورى عفو مولاه وغفرانه » ويفضى هذا الباب إلى دركاه .

ويتكون الدركاه من مستطيل طوله ٤٫٢٠ م وعرضه ٣٫٩٠ م أرضيتها مفروشة بدوائر من الرخام الملون وسقفها مغطى بقبة ضحلة ترتكز على مثلثات كروية مقعرة .

وبالدركاة أربعة أبواب ، اثنان منها بالجهة الشمالية ، اتساع فتحة الشرقية ١٫٨٥ م وتفضى إلى دهليز الخانقاه واتساع الغربية ١٫٢٠ م ، وتفضى إلى ضريح المنشىء ، والاثنان الباقيان بالجهة الجنوبية اتساع فتحة الشرقية ٫٩٠ متر وتفضى إلى حاصل[2] واتساع فتحة

---

(١) سورة الحجر آية ٤٦ — ٤٨ .

(٢) كان موضع هذا الحاصل ، ممرا يفضى إلى رباط بيبرس الجاشنكير .

الغربية ١٫٠٠ م ، ويتوصل منها إلى مرقى سلم يصعد من فوقه إلى السطح . أما الباب بالجهة الشمالية الشرقية للدركاة فيؤدى إلى دهليز طويل منكسر أرضيته مفروشة بالرخام الملون ، نصل منه إلى صحن الخانقاة .

يتوسط الخانقاة صحن كبير مستطيل الشكل طوله ١٩٫١٨ م وعرضه ١٦٫٤٢ م ، تعلوه أسوار بارتفاع ١٥٫٤٠ م أما أرضيته فمفروشة ببلاطات من الحجر الجيرى .

والجهة الشرقية للصحن يوجد بها إيوان القبلة الذى يتقدمه عقد عمقه ١٢٫١٣ م وسعته ٩٫٨٧ م ، ويكتنف الإيوان كتفان من كل جانب عرض أحدهما ١٫٩٠ م والآخر ٤٥ر م ، بينهما فتحة باب اتساعها ٩٥ر م تفضى إلى خلوة مساحتها ٣٫٣٠ × ٢٫٢٠ م .

وبالجهة الغربية للصحن الإيوان الغربى الذى يبلغ عمقه ١٠٫٤٢ م وسعته ٩٫٣٥ م ، ويكتنف الإيوان كتفان من كل جانب ، عرض الشمالى ٢٫٠٠ م والجنوبى ١٫٨٠ م وكتفان ركنيان عرض كل منهما ٤٠ر م ، وبين كل كتف جانبى وركنى فتحة باب اتساع الشمالية ١٫٧٠ م وتفضى إلى خلوة غير منتظمة الأضلاع مساحتها الكلية ٢٨٫٩٠ م ، واتساع الجنوبية ١٫٤٠ م وتفضى إلى دهليز الخانقاة .

ويتوسط الجهة الشمالية للصحن فتحة طويلة ضيقة بارتفاع طابقين تفضى إلى قاعة منخفضة مربعة يبلغ طول كل ضلع من أضلاعه ٦٫٣٢ م ، ويكتنف المجلس يمنة ويسرة أربعة أبواب سفلية . الاثنان الجانبيان مدخلان إضافيان للمجلس ، بينما الأبواب الثلاثة الباقية من كل جانب تفضى كل منها إلى خلوة ، ماعدا الباب بالجانب الشمالى فيفضى إلى مرقى سلم لممر خلف الخلوات بالطابقين العلويين .

والجهة الجنوبية للصحن بها فتحة مماثلة للفتحة الشمالية ، إلا أنها حاليًا ليست بحالة مرضية ويتوسط الجهة الجنوبية فتحة مستطيلة ضيقة بارتفاع طابقين ، تفضى إلى قاعة مستطيلة الشكل طولها ٨٫١٥ م وعرضها ٦٫٣٢ م ويكتنف مدخل القاعة أربعة أبواب يمنة ويسرة اثنان منها مدخلان إضافيان والثلاثة الباقية من كل جانب أبواب خلاوى ، اندثرت اليمنى منها وتلاشت أجزاء من اليسرى .

ويعلو الأبواب السفلية صفان من النوافذ قد استقرت كلها فى تجاويف ضحلة نسبيًا ، وذات طواق مقرنصة مختلفة الأنواع ، ويلاحظ أن الفتحتين اللتين تتوسطان كلا من الجانب الجنوبى والشمالى للصحن بالطابق الثانى ،وكذلك الفتحة الوسطى بالطابق الثالث تستخدم فى إضاءة القاعتين . ويعلو الفتحات حلية تحيط بالصحن والإيوانين على ارتفاع ١٥ر٤٠ م.

ايوان القبلة :

يتكون من مستطيل مساحته ١٣ر١٢ × ٩ر٨٧ م وجناحين على جانبيه حنيتان مساحة كل منهما ٢٠ر٨ × ٣ر٠٧ م وبنهاية كل حنية تجويف مكشوف على هيئة ملقف هواء ، الشمالية مربعة الشكل طول كل ضلع من الأضلاع ٢ر٧٩ م والجنوبية مستطيلة الشكل طولها ٢ر٧٩ م وعرضها ٢ر٣٦ م .

وقد غطى سقف الصدر بقبو مدبب ، بينما يغطى سقف كل من الحنيتين قبو نصف دائرى . ويتوسط إيوان القبلة محراب حجرى خلو من كل زخرف اللهم إلا بعض الحليات البسيطة وتعلوه طاقية على هيئة عقد مدبب ويكتنفها عمودان مثمنان من الرخام ، لكل منهما تاج بصلى الشكل . وقد زود هذا الإيوان بدواليب حائطية فى كل من الحنيتين .

ويتكون الإيوان الغربى من مستطيل عمقه ١٠ر٤٢ م وسعته ٩ر٣٣ م أرضيته مفروشة ببلاطات من الحجر الجيرى ويتقدمه عقد مدبب يحيط به شريط حجرى مجدول .

ويتوسط الإيوان حنية يعلوها عقد مدبب اتساع فتحته ٣ر٤٥ م بأعلاها ملقف هواء ولها جلسة حجرية مفروشة بالبلاط .

ويتوسط كلا من الجهتين الشمالية والجنوبية للإيوان حنية يعلوها عقد مدبب ويحتوى على جلسة حجرية ، اتساع فتحته ٣ر٤٥ م ، ويغطى سقف الإيوان قبو حجرى كبيرمدبب .

وتتكون القاعة الشمالية من مربع طول كل ضلع من أضلاعه ٦ر٣٢ م ، بالجهة الجنوبية الشرقية منه محراب ضيق يعلوه عقد ذو زاوية اتساع حنيته ١ر١٠ م وعمقها ٨٠ر م . ويتوسط الجهة الشمالية حنية مستطيلة اتساع فتحتها ٢ر٤٠ م ، وعمقها. ٥٠ر م بنهايتها ملقف هواء سد اليوم ، ويكتنف هذا الملقف دولابان حائطيان . وبالجهة الجنوبية للقاعة ثلاثة مداخل متجاورة ، ويغطى سقف المجلس قبو حجرى كبير مدبب .

أما القاعة الجنوبية فمستطيلة الشكل يبلغ طولها ١٥ر٨ م وعرضها ٣٠ر٦ م ، أرضيتها مفروشة ببلاطات من الحجر الجيرى . ويتوسط الجهة الشرقية محراب ضيق يعلوه عقد ذو زاوية اتساع حنيته ٢٥ر١ م وعمقها ٨٠ر م . يكتنفه خزانتان فى سمك الحائط ، اتساع فتحة كل منهما ٠٠ر١ م وعمقها ٢٥ر م . والجهة الغربية أعيد بناؤها بعقدين مدببين على هيئة نافذتين اتساع فتحة كل منهما ٨٠ر٢ م . والجهة الشمالية يتقدمها دعامتان تقسمان فتحة القاعة إلى ثلاثة عقود . وبالجهة الجنوبية تجويف مكشوف على هيئة ملقف اتساع فتحته ١٠ر٢ م وعمقه ٣٠ر١ م ويكتنف الملقف خزانتان سعة كل منهما ٨٠ر م وعمق الشرقية ٧٠ر م والغربية ٣٠ر م . وقد فقدت جميع خزائن الكتب بالإيوانين والقاعتين مصاريعها الخشبية اليوم ويغطى سقف المجلس قبو حجرى مدبب .

مساكن الصوفية :

وكان عدد خلاوى الخانقاة لايقل عن مائة مسكن كان معظمها يقع خلف الخانقاة ، بيد أن معظمها قد اندثر وخاصة تلك التى بالأدوار العليا ، فقد تلاشت معظم جدرانها وسقوفها ، ولبعضها فتحات ذات طواق مقرنصة تطل على الصحن .

القبـــــة :

هى عبارة عن مربع يتوصل إليه عن طريق باب بالجدار الشمالى للدركاة ومنه يجتاز ممر صغير منكسر بعضه مقبى بالحجر والبعض الآخر مكشوف ، وبنهاية الممر فتحة باب صغيرة جهة الشمال خلفها رواق كبير يتقدم الضريح مساحته ٤٥ر١١ × ٧٣ر٤ م أعد خصيصًا لدرس الحديث ، يحضره شيخ ونحو ثلاثين طالبًا من طلاب الحديث النبوى[1] . وبالجهة الجنوبية الشرقية للرواق مدخل الضريح وهو عبارة عن عقد كبير مدبب اتساع فتحته ٢٥ر٤ م مغطى معظمه بسياج من خشب الخرط ، ويتوسطه باب يعلوه عقد ذو زاوية اتساعه ٣٥ر١ م ، فوقه حشوة خشبية نقش عليها كتابة نسخية بارزة أربعة أسطر هى قوله تعالى : « البسملة . إن المتقين فى مقام أمين فى جنات وعيون يلبسون من سندس واستبرق متقابلين كذلك وزوجناهم بحور عين يدعون فيها بكل فاكهة آمنين لايذوقون فيها الموت

---

(١) وثيقة بيبرس الجاشنكير محكمة رقم (٢٣) مخطوطة دولت عبد الكريم : الخانقاوات) .

إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم فضلا من ربك ذلك هو الفوز العظيم فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون فارتقب إنهم مرتقبون[1]. ويفضى هذا المدخل إلى الضريح وهو عبارة عن قاعة مربعة طول كل ضلع من أضلاعها ١١٫٣٠ م أرضيته مفروشة بالرخام الملون.

ويتوسط الجدار الشرق للضريح محراب ضخم اتساع حنيته ٢٫٢٠ م ، وعمقه ١٫٢٠ م طاقيته على هيئة عقد مدبب ، ويكتنفه عمودان مثمنان من الرخام الأخضر المجزع ، وبدن المحراب مزخرف ببائكتين ذاتى أعمدة رخامية ملتصقة ، احداهما سفلية قرب مستوى الأرضية والأخرى أسفل طاقية المحراب ، ويتوسط البائكتين منطقة من الفسيفساء الرخامية بها رسومات هندسية قوامها خطوط متشابكة ومنكسرة ويحيط بهذه المنطقة إطار به زخارف ويزخرف المحراب شريط من الرخام به كتابة نسخية من قوله تعالى : بسم الله الرحمن الرحيم قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون[2].

ويتوسط الضلعين الشمالى والجنوبى نافذة مزخرفة جلستها بزخارف هندسية وكذلك عتبة من فسيفساء الرخام . ويكتنف النافذة خزانتان[3]. ويعلو جدران القبة وزرة رخامية بارتفاع ٣٫٦٠ م ، بالجهة الجنوبية الشرقية منها حشوتان بداخلهما زخارف هندسية وكتابات نسخية تتضمن عبارة « لا إله إلا الله » وبالجهة الشمالية الغربية حشوتان بالخط الكوفى المربع بداخلهما عبارة « محمد » مكرر ، وبكل من الجهة الشمالية والجنوبية حشوة بداخلها زخرفة هندسية ويعلو الوزرة أفريزان من الخشب بأحدهما زخارف نباتية محورة عن الطبيعة ، وبالآخر كتابات نسخية بارزة من قوله تعالى : « بسم الله الرحمن الرحيم تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور الذى خلق سبع سموات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل

---

(١) سورة الدخان آية ٥١ — ٥٩ .

(٢) سورة البقرة آية ١٤٩ .

(٣) تحولت الخزانة بالركن الجنوبى الشرقى إلى شباك للتهوية .

ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئًا وهو حسير ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجومًا للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقًا وهى تفور تكاد تميز من الغيظ كلما أُلقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا مانزل الله من شيء إن أنتم إلا فى ضلال كبير وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ماكنا فى أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير[1] » . ويتوسط القبة تركيبة رخامية بأربعة رؤوس كما يعلو أركان مربع القبة منطقة انتقال تحتوى على أربع حطات تعتبر أول نموذج للحطات الأربع لمنطقة الانتقال بالقباب المصرية فى العمائر الإسلامية . ويتخلل منطقة الانتقال نافذة مكونة من أربع فتحات ، قد ملئت بزخارف جصية وزجاجية ملونة . أما رقبة القبة فقد فتحت فيها ثمانى فتحات مربعة بداخلها زخارف من الجص والزجاج الملون ، ويعلو الرقبة قبة مرتفعة مبنية بالطوب ذات قطاع مدبب .

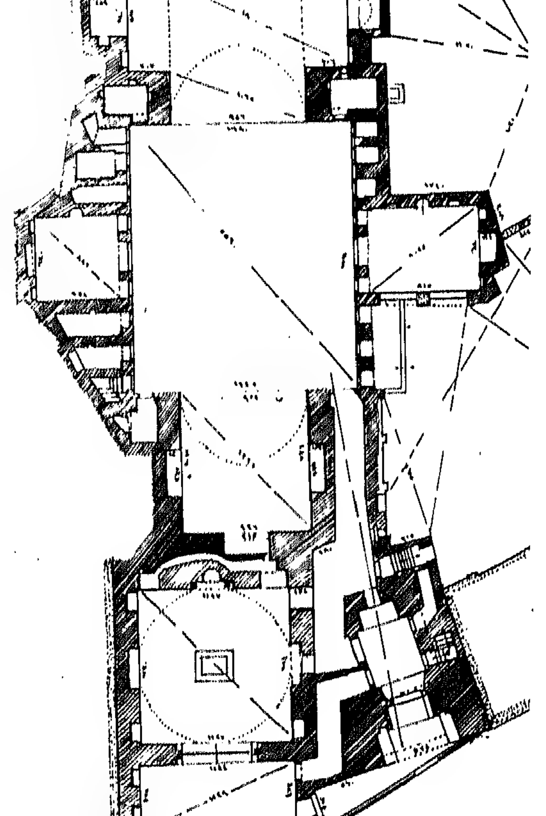
المئذنة :

مبنية بالطوب ، وتتكون من ثلاث دورات ، الطابق الأول عبارة عن مكعب ارتفاعه ١٠٫٠٠ م وطول ضلعه الخارجى ٦٫٣١ م والداخلى ٣٫٥٤ م بداخله سلم ملتف بكل واجهة من واجهات المكعب . وينتهى هذا المكعب بمنطقة انتقال من أربع حطات من الدلايات الدقيقة التكوين يحمل أعلاه مثمن ، ينتهى أعلاه بشرفة خشبية بدرابزين خشب . أماالطابق الثانى فمستدير قد فتح فى بدنه باب مستطيل للمؤذن ، وبه فتحات ضيقة ، وينتهى — بكورنيش جميل إذ فقد درابزينه . والطابق الثالث عبارة عن جوسق بثمانية أعمدة غليظة وقصيرة فوقها ترس رفيع بمقرنص دقيق من صف واحد ويتوج المئذنة قبة مضلعة ، ويرجع أهمية هذه المبخرة إلى وجود أقدم تغطية للقاشانى فى قمم المنائر بمصر ، تلتها قمة جامع الناصر محمد بالقلعة ، وهذه البلاطات الباقية عددها ست .

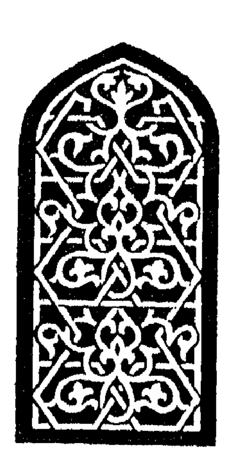
---

(١) سورة الملك آية ١ — ١٣ .

(شكل ١٦) خانقاه بيبرس الجاشنكير



(شكل ١٥) مدرسة
وضريح جاشنكير



جامع الماس الحاجب
بشارع الحلمية ٧٣٠ هـ

الأمير سيف الدين الماس الحاجب هو أحد مماليك الملك الناصر محمد بن قلاوون ، رقاه إلى أن صار من أكبر الأمراء . ولما أخرج الأمير أرغون إلى نيابة حلب وبقى منصب النيابة شاغرًا وعظمت منزلة الماس صار فى منزلة النيابة إلا أنه لم يسمّ بالنائب وكان الأمراء الأكابر والأصاغر فى خدمته وكان مجلسه فى باب القلة من قلعة الجبل فى منزله النائب والحجاب وقوف بين يديه وما برح على ذلك حتى توجه السلطان إلى الحجاز فى سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة فتركه فى القلعة هو والأمير جمال الدين أقوش نائب الكرك والأمير أقبغا عبد الواحد والأمير طشتمر حمص أخضر وبقية الأمراء إما مع السلطان فى الحجاز وإما فى اقطاعاتهم وأمرهم أن لايدخلوا القلعة حتى يحضر من الحجاز ، فلما قدم من الحجاز نقم على الماس وأمسكه فى سنة أربع وثلاثين وسبعمائة وكان غضب السلطان عليه إنه كان يراسل الأمير جمال الدين أقوش نائب الكرك ويواده ويقال[1] إنه لما مات الأمير بكتمر الساقى وجد السلطان فى تركته جزدانا فيه جواب الماس إلى بكتمر الساقى جاء فيه قوله إننى حافظ القلعة إلى أن يرد على منك ما اعتمده ، فلما وقف السلطان على ذلك ، أمر النشو بن هلال الدولة وشاهد الخزانة بإيقاع الحوطة على موجوده ، فوجد له ستمائة الف درهم فضة ومائة ألف درهم فلوسًا وأربعة آلاف دينار ذهبًا وثلاثين حياصة ذهبًا بكلفتياتها وخلعها وجواهر وتحفًا ، وأقام الماس عند أقبغا عبد الواحد ثلاثة أيام وقتل خنقا بمحبسه

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣٠٧ .

فى ١٢ صفر سنة ٧٣٤ هـ وحمل من القلعة إلى جامعه فدفن فيه وأخذ جميع ما كان فى داره من الرخام فقلع منها ، وكان رخامًا فاخرًا إلى الغاية . دار الماس : تقع هذه الدار بخط حوض ابن هنس فيما بينه وبين حدرة البقر بجوار جامع الماس أنشأها الأمير الماس الحاجب واعتنى برخامها عناية كبيرة وجلبه من البلاد ، فلما قتل أمر السلطان الملك الناصر محمد ابن قلاوون بقلع ما فى الدار من الرخام كما أسلفنا ونقل إلى القلعة . وهذه الدار باقية إلى وقت وفاة المقريزى سنة ٨٤٥ هـ[1] .

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٧٤ .

الوصف المعمارى

يقع هذا الجامع عند تقاطع أول الحلمية بشارع القلعة (محمد على) ويحتوى على واجهتين احداهما تقع فى الضلع الشمالى للجامع وهى تكاد تكون خلوا من الزخرف وتسودها البساطة . والواجهة الثانية وتقع فى الضلع الغربى وهى الرئيسية يتوسطها المدخل الرئيسى ، ويكتنفه حنيتان مستطيلتان بكل منهما نافذتان السفلى مستطيلة ومملوءة بمصبعات نحاسية ويعلوها عتب تحتوى على صنجات معشقة يعلوه عقد عاتق يحتوى كذلك على صنجات معشقة . والجزء العلوى من الحنية تشغله نافذة ذات عقدين يرتكزان على ثلاثة أعمدة رخامية ، وقد ملئت هذه النافذة بزخارف خشبية مخرمة حلت محل الزخارف الجصية المعشقة بزجاج ملون . ويعلو النافذة العليا شريط من الكتابة به أدعية منها « اللهم يا جامع الناس ليوم لاريب فيه اجمع بيننا وبين الصدق والاخلاص والخشوع والهيبة والنور واليقين والعلم والمعرفة والحفظ والعصمة والنشاط والقوة والبيان والفهم فى القرآن وأدخلنا مدخل صدق وأخرجنا مخرج صدق واجعل لنا من لدنك سلطانًا نصيرًا » . ثم يتوج كل حنية ثلاثة صفوف من المقرنصات والدلايات البديعة الترتيب والتنسيق .

ويتوسط الواجهة الغربية المدخل الرئيسى للجامع وهو ينخفض عن مستوى الشارع والذا ينزل إليه بثلاث درجات ، وهو كثير العمق يتوسطه باب على جانبيه مكسلتان ينتهيان بعمودين يرتد بعدهما الجدار فى زاوية قائمة ، ويعلو الباب عتب يحتوى على صنجات معشقة وفوق العتب عقد عاتق يحتوى كذلك على صنجات معشقة . ويعلو العقد العاتق نافذة يعلوها عقدان يقومان على ثلاثة أعمدة مماثلة لنوافذ حنيات الواجهة . وقد ملئت هذه النافذة على خلاف العادة بخشب مخرم الذى حل محل الزخارف الجصية المخرمة . ويعلو النافذة شريط من الكتابة جاء فيه « أمر بإنشاء هذا المسجد المبارك الفقير إلى الله ألماس أمير حاجب فى شهور سنة تسع وعشرين وسبعمائة وكماله سنة ثلاثين من الهجرة النبوية » .

ولقب أمير حاجب الذى اختص به ألماس ، كان من وظائف وألقاب العصر المملوكى التى تمنح عادة للمملوك إذا أثبت جدارة[1] يجعله السلطان أميرًا . وكان التأمير ، أى منح لقب الإمارة من حق السلطان وحده[2] . وكان يصحب التأمير مراسيم خاصة وذلك أن يلبسه السلطان زيًا خاصًا ، وكان يعين لكل أمير مماليك فى خدمته . ولم يقتصر لقب الامير على الناحية العسكرية بل كانت تسند إليهم فى بعض الأحيان أهم الوظائف الإدارية . أما وظيفة الحاجب فقد اختلفت اختصاصاتها ودلالتها باختلاف العصور والدول ، ففى العصر المملوكى كان عظم شأن الحاجب فقد صار كبير الحجاب يسمى بأمير حاجب مما يدل على قوة شوكته . ويلى كبير الحجاب النائب فى الأهمية وكانت الحجابة فى العصر المملوكى تعتبر ثامن الوظائف العسكرية التى يشغلها أمراء[3] .

ويتوج المدخل الرئيسى من جهاته الثلاث وكذا سقف دخوله العميق أربعة صفوف من الدلايات أكسبته شكلا زخرفيًا غاية فى الدقة والابداع . ويحتوى الباب على مصراعين من الخشب المكسى بصفائح معدنية تحتويان على زخارف على شكل الأطباق النجمية زخرفت (كنداتها وفروعها) بزخارف نباتية دقيقة بارزة وغائرة . وينتهى المصراعان من أعلى وأسفل على شريط كتابى جاء فيه « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة » كما جاء فى الشريط الأسفل تاريخ الترميم[4] سنة ١٣٣٠ هـ (سنة ١٩١١ م) .

ويوصلنا الباب الخارجى إلى صحن الجامع ، وهو صحن مربع مكشوف يحيط به الأروقة من جهاته الأربع . وتتكون بوائك الأروقة من صفوف من الأعمدة عدد كل منها أربعة يعلوها خمسة عقود مدببة ويحيط بها إطار رفيع من زخارف نباتية دقيقة تنتهى عند سمت العقد بشكل (طرة) ومن الواضح أن أعمدة البوائك قد جلبت من أماكن عديدة قديمة فهى مختلفة التيجان وكذا القواعد . وقد فتح فى خواصر عقود البوائك فتحات صغيرة

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٠٨ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٥١ .

(٣) خليل الظاهر : زبدة كشف الممالك ص ١١٥ .

(٤) حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية .

يعلوها عقد منكسر ، وقد أحيطت هذه الفتحات كذلك بشريط مماثل للشريط الذى يحيط بعقود البوائك .

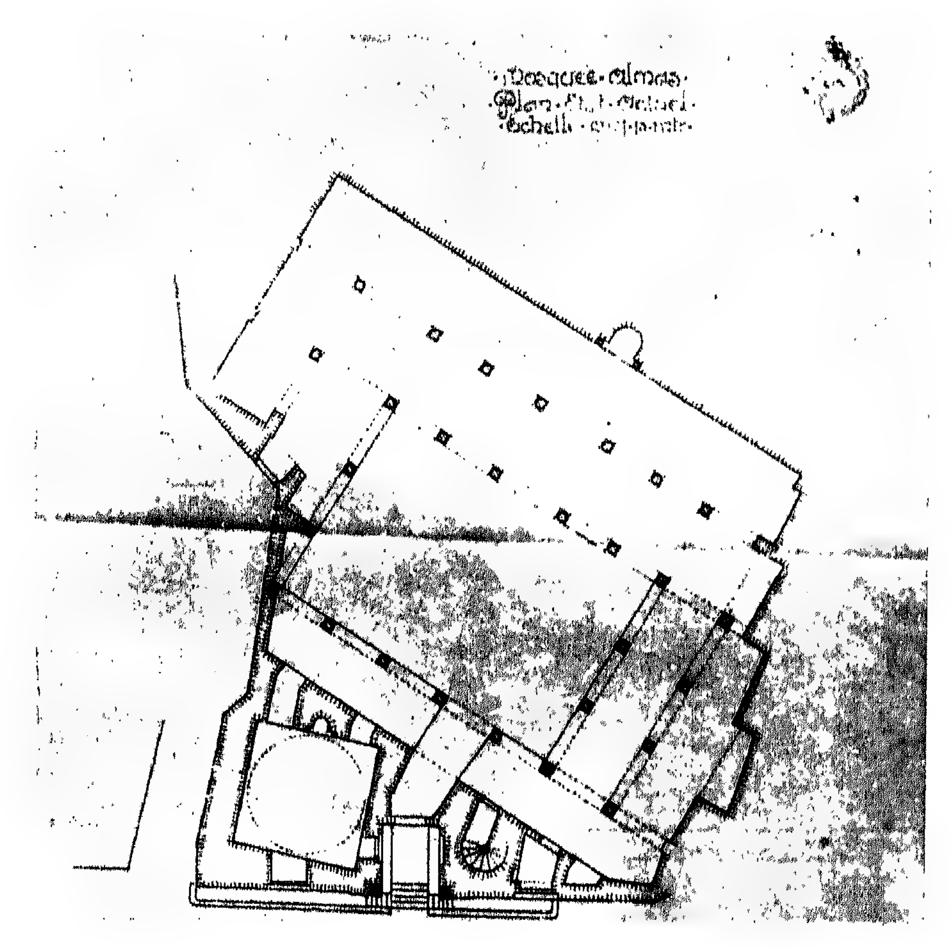
ويعتبر رواق القبلة أكبر الأروقة وهو يشغل الضلع الشرقى للجامع ويحتوى على محراب عميق التجويف مكسو برخام أقل دقة من محراب القبة . ويعلو المحراب زخارف جصية وبخاريات . ويجاور المحراب منبر خشبي يرجع إلى العصر العثمانى . ويحيط بجدار المحراب أفريز رخامى نقشت عليه آيات من سورتى الفتح وتبارك . وقد بقى من هذا الرواق بقايا وزرة رخامية لعلها نتيجة ترميم . ويحتوى الجامع كذلك على بقايا من الرخام المزخرف والمكتوب بالخط الكوفى المربع مثبتة فى الرواق الشمالى . وفى الضلع الشمالى توجد مزيرة حجبت بمقصورة من الخشب الخرط .

القبــــــة :

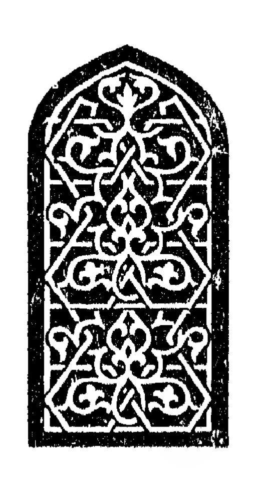
تقع القبة فى الطرف الشمالى للواجهة الغربية ، وهى عبارة عن مربع تقوم فى أركانه فى منطقة الانتقال خمسة صفوف من الدلايات والمقرنصات تحصر بينها نافذة ذات ثلاث فتحات ، اثنتان منها مستطيلتان يفصل بينهما عمود ويعلوهما عقد ذو زاوية (Keel arch) أما الفتحة الثالثة فتتوسطهما وهى معقودة من أعلى وأسفل بعقد ذى زاوية كذلك . ويحيط بهذه النافذة من الخارج عقد كبير نصف دائرى يعتمد على عمودين ويعلو منطقة الانتقال رقبة قصيرة فتحت فيها اثنتا عشرة نافذة اثنتان فوق كل ركن من أركان المربع وواحدة فى الأضلاع الأربعة الباقية من مثمن منطقة الانتقال . ويعلو القبة الرقبة وهى ذات قطاع مدبب ، وهى وإن كانت خالية من الزخارف فى الخارج إلا أن داخلها مزخرف بالزخارف الجصية على شكل دوائر بها رسوم نباتية دقيقة . كما أن باب القبة يحتوى على مصراعين من الخشب المكسى بأشرطة وجامات معدنية زخارفها نباتية وهندسية بعضها مخرم ومثل هذا الأسلوب من المصاريع غير شائع فى مصر . ويتوسط القبة تركيبة من الرخام فوق قبر المنشىء ، وفى الجهة الشرقية يوجد محراب القبة تدل بقايا الرخام الموجودة به وكذا العمودان اللذان يكتنفانه مقدار ما كانت تزخر به قبة الأمير ألماس من النقوش المتعددة الأشكال ومتعددة المواد .

أما المئذنة فهى تقع فى الواجهة الغربية كذلك وهى ليست المئذنة القديمة ، ولكنها ترجع إلى العصر العثمانى . وتتكون المئذنة من طابقين ، تقوم الطبقة الأُولى على مربع به باب معقود ، وهى مثمنة الشكل خلق فى نواصيها ثمانية أعمدة وفتح فى أربعة من أضلاعها نوافذ ذات عقود مستديرة ويتقدم كل نافذة شرفة صغيرة تقوم على صفين من الدلايات . وفى الأَضلاع الأَربعة الأُخرى توجد أربع حنايا أصغر من النوافذ عقودها تشبه عقود النوافذ ويفصل بين الطابق الأَول والثانى شرفة خشبية تقوم على أربعة صفوف من الدلايات .

أما الطابق الثانى فاسطوانى ، وفى اعتقادى أنه الجزء المجدد ، أما الطابق الأَول فيرجع إلى تاريخ الجامع الأَصلى . وينتهى الطابق الثانى بأَربعة كرانيش من الدلايات تقوم فوقها قبة صغيرة تعلو رقبة رفيعة ممتدة تنتهى بخوذة .



(شكل ١٧) جامع الماس الحاجب



الخانقاه والمدرسة الجمالية

سنة ٧٣٠ هـ

بحي الجمالية

الأمير علاء الدين بن عبد الجمالي المعروف بخزر (وهي كلمة تركية معناها الديك) اشتراه الملك الناصر محمد بن قلاوون ونقله وهو ما يزال في حداثة السن من الجامكية إلى الامرة على اقطاع الأمير صارم الدين إبراهيم الإبراهيمي نقيب المماليك السلطانية سنة ثماني عشرة وسبعمائة وصار السلطان ينتدبه في التوجه إلى المهمات الخاصة ويطلعه على سره ثم بعثه في سنة ٧١٨ هـ أمير الركب إلى الحجاز فقبض على الشريف أسد الدين رميته بن أبي نمي صاحب مكة وأحضره إلى قلعة الجبل في ثامن عشر المحرم سنة ٧١٩ هـ مع الركب فأنكر عليه السلطان سرعة دخوله لما أصاب الحاج من المشقة في الإسراع بهم . ثم أنه جعل استاداراً للسلطان لما قبض على القاضي كريم الدين عبد الكريم ناظر الخواص عند وصوله من دمشق بعد سفره إليها لإحضار شمس الدين غبريال ، وعند حضوره خلع عليه السلطان وجعله استاداراً عوضاً عن الأمير سيف الدين بكتمر العلائي وذلك في جمادى الأولى سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة ثم أضاف إليه الوزارة وخلع عليه عوضاً عن الصاحب أمين الملك عبد الله ابن الغنام بعد ما استعفى من الوزارة واعتذر بأنه رجل غنمي فلم يعفه السلطان وقال له بأنه سيجعل من يباشر معه الأمور ويعرفه ما يعمل وطلب شمس الدين غبريال ناظر دمشق منها وجعله ناظر الدولة رفيقاً للوزير الجمالي ، فرفعت قضية إلى السلطان وهو في القصر من القلعة فيها الحط على السلطان بسبب تولية الجمالي الوزارة والحجابة للماس وأنه بسبب ذلك السلطان أضاع المملكة وأهانها وفرط في أموال المسلمين والجيش وأن هذا لم يفعله أحد من الملوك قبله إذ ولى الحجابة لمن لايعرف يحكم ولا يتكلم بالعربي ولا يعرف الأحكام الشرعية

وولى الوزارة والاستادارية لشاب لايعرف يكتب اسمه ولايعرف ما يقال له ، وأنه لايحسن التصرف فى أمور المملكة ولا فى الأموال الديوانية إلّا أرباب الأقلام فإنهم يأكلون المال ويحيلون[1] على الوزير . فلما وقف السلطان على هذه القضية أطلع عليها القاضى فخر الدين محمد بن فضل الله المعروف بالفخر ناظر الجيش فقال هذه ورقة الكتاب ممن انقطع رزقه وكسر حسده وقرر مع السلطان أن يلزم الوزير ناظر الدولة وناظر الخواص الأوراق التى تشتمل على أصل الحاصل وما حمل فى ذلك اليوم من البلاد والجهات وما صرف وأنه لايصرف لأحد شيء البتة إلا بأمر السلطان وعلمه .

ولما كانت الفتنة بثغر الاسكندرية بين أهلها وبين الفرنج ، بعث السلطان بالجمالى إليها ، فسار من القاهرة سنة ٧٢٧ هـ فى سبعمائة رجل ودخل إليها واستدعى وجوه المدينة وقبض على كثير من العامة ووسط بعضهم وقطع أيدى جماعة وأرجلهم وصادر أرباب الأموال حتى لم يدع أحدًا له ثروة حتى ألزمه بمال كثير وعاد إلى القاهرة بعد عشرين يومًا وقد سفك دماء كثيرة وأخذ منها مائتى ألف دينار . وفى سنة ٧٢٨ هـ صرف عن الوزارة وبقى على وظيفة الاستدارية ، ثم سافر الجمالى إلى الحجاز فلما عاد توفى بسطح عقبة[2] أيلة فى يوم الأحد سابع عشر المحرم سنة اثنين وثلاثين وسبعمائة فصُبِّر وحمل إلى القاهرة ودفن بها فى خانقاته المعروفة بالمدرسة الجمالية .

أنشأها الجمالى بجوار درب راشد من القاهرة على باب الزقاق المعروف قديماً بدرب سيف الدولة نادر ، وجعلها منشئها مدرسة للحنفية وخانقاة للصوفية وولى تدريسها ومشيخة التصوف بها الشيخ علاء الدين على بن عثمان التركمانى الحنفى وتداولها ابنه قاضى القضاة جمال الدين عبد الله التركمانى الحنفى . وكان شأن هذه المدرسة كبيرًا يسكنها أكابر فقهاء الحنفية وتعد من أجمل مدارس القاهرة ولها عدة أوقاف بالقاهرة وظواهرها وفى البلاد الشامية . وقد تلاشى[3] أمر هذه المدرسة اسوء ولاة أمرها وتخريبهم أوقافها وتعطل منها حضور الدرس والتصوف وصارت منزلا يسكنه أخلاط ممن ينسب إلى اسم الفقه وقرب الخراب منها وكان بناؤها فى سنة ثلاثين وسبعمائة .

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣٩٢ .
(٢) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣٩٣ .
(٣) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣٩٢ .

الوصف المعمارى

تقع الواجهة الرئيسية فى الضلع الشمالى للخانقاه ويبلغ طولها ٢٠٫٥ م وتضم حنية المدخل الرئيسى وتجويفين ضحلين مستطيلين يرتفعان إلى أعلى جدار الواجهة ، يعلو كلا منهما حطة واحدة من الدلايات وبالتجويفين أربع من الفتحات اثنتان بالجزء الأسفل وهما مستطيلتان ويعلوهما عتب إحداهما زخارفها نباتية مقتبسة من زهرة الزنبق والأخرى زخارفها على هيئة قلب ويحتوى الجزء العاوى على قمريتين كل منهما عبارة عن فتحتين فوقهما طاقة ، ويتوسط الفتحات السفلية والعلوية طراز كتابى غير متكامل يتبين منه (بسم الله الرحمن الرحيم فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لاتلهيهم تجارة ولابيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وايتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب[٢] . أمر بإنشاء هذه الخانقاه المباركة السعيدة من فواضل انعام الله وجزيل عطائه المقر الكريم العالى المولوى الأميرى الأجلى الكبيرى المخدومى الاسفهسلاوى العلائى عمدة الملوك والسلاطين مغلطاى الجمالى استادار الذات العالى الملكى الناصرى وكان الفراغ فى شهر ربيع (الأول سنة ثلاثين وسبعمائة) . ويعلو الواجهة شرفتان مسننتان .

ويقع المدخل الرئيسى فى الطرف الشمالى الغربى من الواجهة وهو منخفض عن مستوى أرضية الطريق بحوالى ٢ م ، وواجهته مدببة من حجر تبلغ اتساع حنيته ٢٫١٠ م وعمقها ٠٫٦٠ م ويعلوه طاقية على هيئة عقد ذى ثلاثة فصوص مزدانة خارجها بزخارف حجرية وخلف الحنية توجد فتحة باب وهى مستطيلة وارتفاعها ٢٫٤٨ م تفضى إلى دهليز

---

(١) تقع هذه الخانقاة بين حارة الفراخة وشارع قصر الشوق .
(٢) سورة النور آية ٣٦ – ٣٨ .

ويؤدى هذا الدهليز إلى صحن مربع تقريبا إذ يبلغ طول ضلعه (١٤٫٥) مترا تقريبا يحتوى ضلعه الشمالى على مئذنة وحاصلين مساحة أحدهما ٢٫٦٠ × ٢٫٣٠ م والآخر مساحته ٢٫٧٠ × ٢ م وبالجهة الجنوبية بقايا مسكن شيخ الخانقاه وهذه البقايا أصبحت فى يومنا هذا أشبه بحواصل ثلاثة سقوفها مقببة بالطوب يبلغ مساحة أحدها ٢٫٢٥ × ٢ م ومساحة كل من الآخرين متساوية فكل منهما على هيئة مربع طول كل ضلع من أضلاعه ٢٫٢٥ مترا .

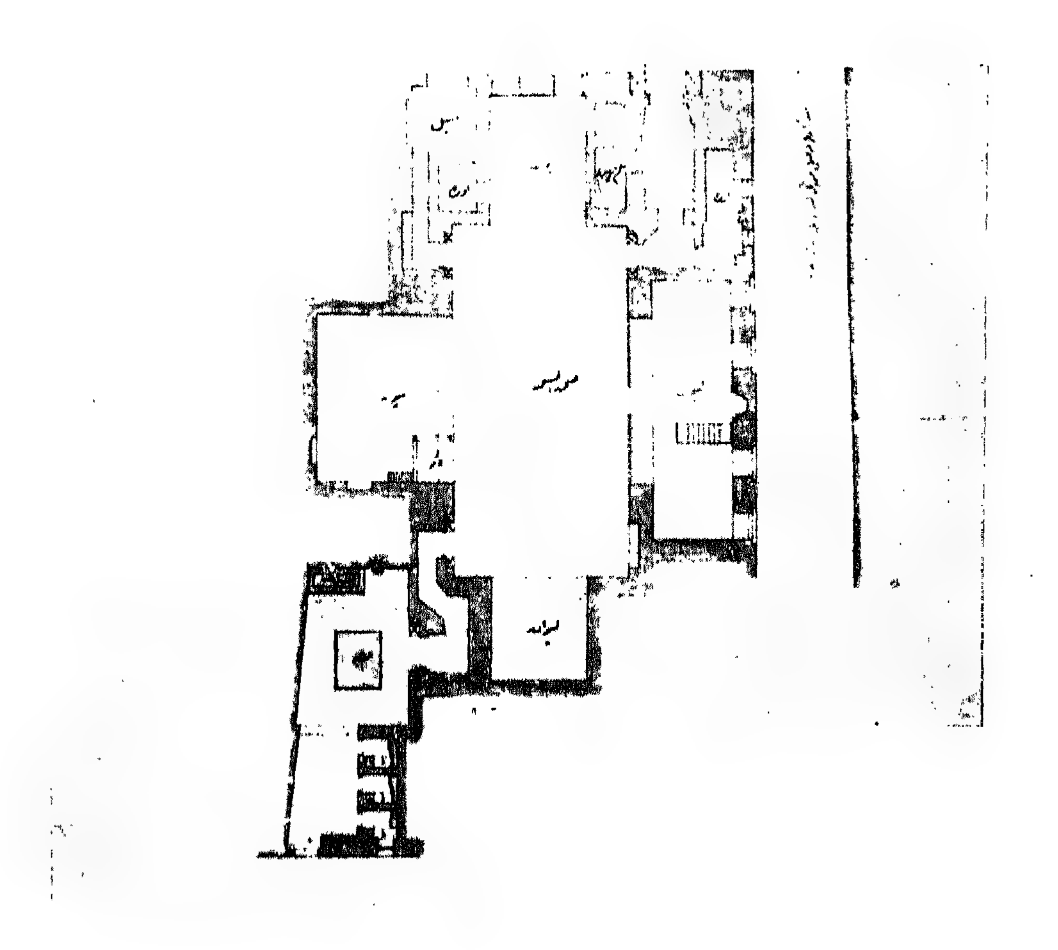
وفى الضلع الشرقى للصحن يوجد ايوان القبلة للخانقاه وهو عبارة عن مستطيل طوله ٧٫٩٠م وعرضه ٧ م ، بصدره محراب اتساع حنيته ١٫٤٠ م وعمقها ٦٠ر م طاقيته على هيئة عقد نصف دائرى ويكتنف المحراب عمودان مستديران وخزانتان للكتب اتساع كل منهما ١٫٤٠ م .

وبالواجهة الشمالية للايوان نافذة مستطيلة تطل على الضريح اتساع فتحتها ١٫٣٠ متر وعمقها ١٫١٠ م وكان بالجانب الجنوبى للايوان فتحة باب تفضى إلى مسكن شيخ الخانقاه سدت كلية بالبناء وسقف الايوان مستو تغطيه ألواح وعروق حديثة .

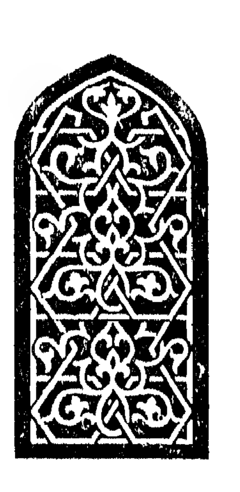
وكانت مساكن صوفية الخانقاه البالغ عددها عشرين من طلبة الحنفية ، وقد اندثرت تلك المساكن وكان موضعها خلف جدار ايوان القبلة ، وقد شغل بمنزل حديث مجاور .

القبـــــة :

وفى الضلع الشرقى للصحن وإلى يسار إيوان القبلة توجد القبة وهى عبارة عن مربع طول كل ضلع من أضلاعه ٤٫٣٠م بصدره محراب مبنى بالطوب وخلو من كل زخرف ، واتساع حنيته حوالى ١ م عمقها، ٥٠ ر م طاقيته على هيئة عقد مدبب ، ويكتنفه عمودان مثمنان من الرخام . وبالجهة الشمالية للضريح نافذة من نوفذ الواجهة اتساع فتحتها ١٫٣٠ م وعمقها ١٫٣٠ م يعلوها قمرية مستطيلة بعقد مدبب مملوءة بزخارف جصية وزجاجية ملونة . ويتوسط القبة تركيبة رخام بأربعة رءوس ويعلو الجدران المربعة منطقة انتقال مكونة من ثلاث حطات فوقها قبة ملساء من الداخل والخارج بيضاوية الشكل فتحت فى رقبتها ست عشرة نافذة عقودها مدببة .



(شكل ١٨) مدرسة جمال الدين الاستادار



الخانقاه المهمندارية(*)

٧٢٥هـ - ١٣٢٤م

تقع هذه الواجهة الرئيسية فى الضلع الشرق للخانقاه ويبلغ طولها ٢١٫٧٠م تضم حنية المدخل الرئيسى ، وخمسة تجاويف ضحلة رأسية مستطيلة ترتفع إلى أعلى جدار الواجهة ثلاثة منها شمال حنية المدخل ، والرابع جنوبه ، يعلو كلا منها دلايات متنوعة متقنة ، وبالتجاويف الأربعة صفان من الفتحات ، وتحتوى السفلية التى تعلو مستوى أرضية الطريق بمدماكين ، باتساعها واستطالتها وموجود على أعتاب وعقود عاتقة ، وقد سد اثنان من تلك الفتحات جزئيا ، أما الصف العلوى منها فيعلو الشريط الكتابى من نوافذ قنديلية تتكون كل منها من فتحة مزدوجة بينها عمود رخام صغير وقد كسيت واجهات تلك الفتحات بالرخام الأبيض المتبادل مع الأسود . أما شريط الكتابة من الجانب الشمالى للواجهة يتجاوزها ليمضى إلى الواجهة ليجتاز حنية المدخل والجانب الجنوبى الشرقى من الواجهة ، والكتابة بالخط النسخى ونصه « بسم الله الرحمن الرحيم آية الكرسى . أمر بإنشاء هذه التربة والمسجد المبارك من خالص ماله مما أفاء الله عليه وطيبه لجماعة المسلمين ابتغاء رضوان الله والدار الآخرة والرغبة فى عمارة بيوت الله وأداء فرضه وتلاوة كتابه ومداومة ذكره العبد الفقير إلى الله تعالى أحمد المهمندار نقيب نقباء الجيوش المنصورية الناصرية إذ يقول تقدس وتعالى : « فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو

(*) تقع بشارع التبانة بين جامع الماردانى وحارة اليانسية . أنشأها الأمير شهاب الدين أحمد بن أقوش العزيزى المهمندار لتكون مدرسة خانقاه .

المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٩٨ — ٤١٧ .

والآصال رجال لاتلهيهم تجارة ولابيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ليجزيهم الله أحسن ماعملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب[1] ، وذلك فى شهر المحرم سنة خمس وعشرين وسبعمائة وصلى الله على سيدنا محمد وآله » . ويعلو الواجهة صف من الدلايات فوقها صف من الشرفات الحجرية المزخرفة .

وفى الطرف الجنوبى للواجهة الشرقية يوجد المدخل الرئيسى الذى يعتبر من المداخل الرائعة لاحتوائه على مجموعة من الزخارف المتنوعة المتقنة ، وقد كسيت واجهة المدخل بالحجر والرخام الملون ، ويتقدم المدخل جلستان صغيرتان باعلاهما شريط من الكتابة النسخية نصها : « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين[2] ، واتساع المدخل ٢٫٧٠ م خلفه فتحة باب اتساعها ١٫٣٠ م وارتفاعها ٢٫٨٧ م يعلوها عتب تحتوى على صنج مزررة مزخرفة بالرخام الأبيض الملبس بالأسود ، ويعلو العتب عقد عاتق ونافذة مستديرة مغطاة بخشب الخرط ، ويحيط بها اطار بداخله زخارف هندسية قوامها عقود صغيرة متماسة ، ودوائر صغيرة على مسافات متساوية ، ويعلو النافذة المستديرة والشريط الكتابى ، نافذتان مستطيلتان يغطيهما خشب الخرط .

وتفضى فتحة باب المدخل إلى مجاز مستطيل أرضيته مفروشة ببلاطات من الحجر الجيرى وسقفه خشبى مزدان بزخارف هندسية ونباتية محورة . وينتهى المجاز بفتحة مستطيلة اتساعها ١٫٥٠ م وعمقها ٠٫٩٠م تفضى إلى داخل الخانقاه . وبالجهة الجنوبية للمجاز توجد فتحة ثانية تفضى إلى الباب الثانى للخانقاه الذى يطل على حارة اليانسية .

الصحـــن :

يتوسط الصحن الخانقاه وهو عبارة عن مستطيل طوله ٧٫٥٠م وعرضه ٦ م ، أرضيته مفروشة ببلاطات من الحجر الجيرى بالجهة الجنوبية الشرقية ايوان القبلة ومساحته

---

(١) سورة النور آية ٣٦ – ٣٨ .

(٢) سورة التوبة آية ١٨ .

۸×۵ م بالجهة الغربية ايوان الخانقاه الغربى ومساحته ۳٫٦۰×۳٫۱٥م ، ويكتنفه بابان اتساع فتحة كل منهما ۱٫۱۰ م يفضى الأيمن إلى مرقى سلم والآخر إلى مرافق الخانقاه وبكل من الجهة الشمالية والجنوبية للصحن ايوان صغير مساحته ٦ × ۳٫٦٥م ويغطى الصحن سقف خشبي حديث يتوسطه مربع مكشوف للاضاءة .

ايوان القبلة :

وهو عبارة عن ايوان مستطيل الشكل طوله ۸م وعرضه ٥م ، أرضيته مفروشة ببلاطات من الحجر الجيرى . بصدره محراب اتساع حنيته ۱٫۱۰م ، وعمقها ۰٫٥۰م ، طاقيتها على هيئة عقد نصف دائرى ويكتنف المحراب عمودان مستديران من الرخام الأبيض لكل منهما تاج بصلى الشكل ، كما يكتنف المحراب نافذتان مستطيلتان بأعلى كل منهما عقد مدبب ، ويبلغ اتساع فتحته ۱٫۳۰م ولكل نافذة مصراعان من الخشب يعلوهما زخارف هندسية قوامها طبق نجمى بعشرة رءوس . ويعلو عقود النافذتين والمحراب ثلاث قمريات مجددة الوسطى مستديرة والجانبيتان مستطيلتان وقد ملئت كلها بزخارف جصية وزجاجية ملونة ومجددة . أما الجهة الشمالية الغربية للايوان التى تطل على الصحن فيتقدمها عمودان من الرخام الأبيض يقسمانها إلى ثلاثة أقسام الجانبيان منها يعلوهما عقدان ذوا زاوية ، اتساع فتحة كل منهما ۱٫٦۰م . أما العقد المتوسط ففتحته مستطيلة اتساعها ۳٫۳۰م . وبالجهة الشمالية للايوان باب يفضى إلى ضريح المنشئ ويغطى الايوان سقف خشبي مستو تحته إزار به كتابات نسخية مطموسة .

ويتقدم الايوان الشمالى والجنوبى السابق الإشارة إليهما عمودان من الرخام يعلوهما عقدان (ذوا زاوية) .

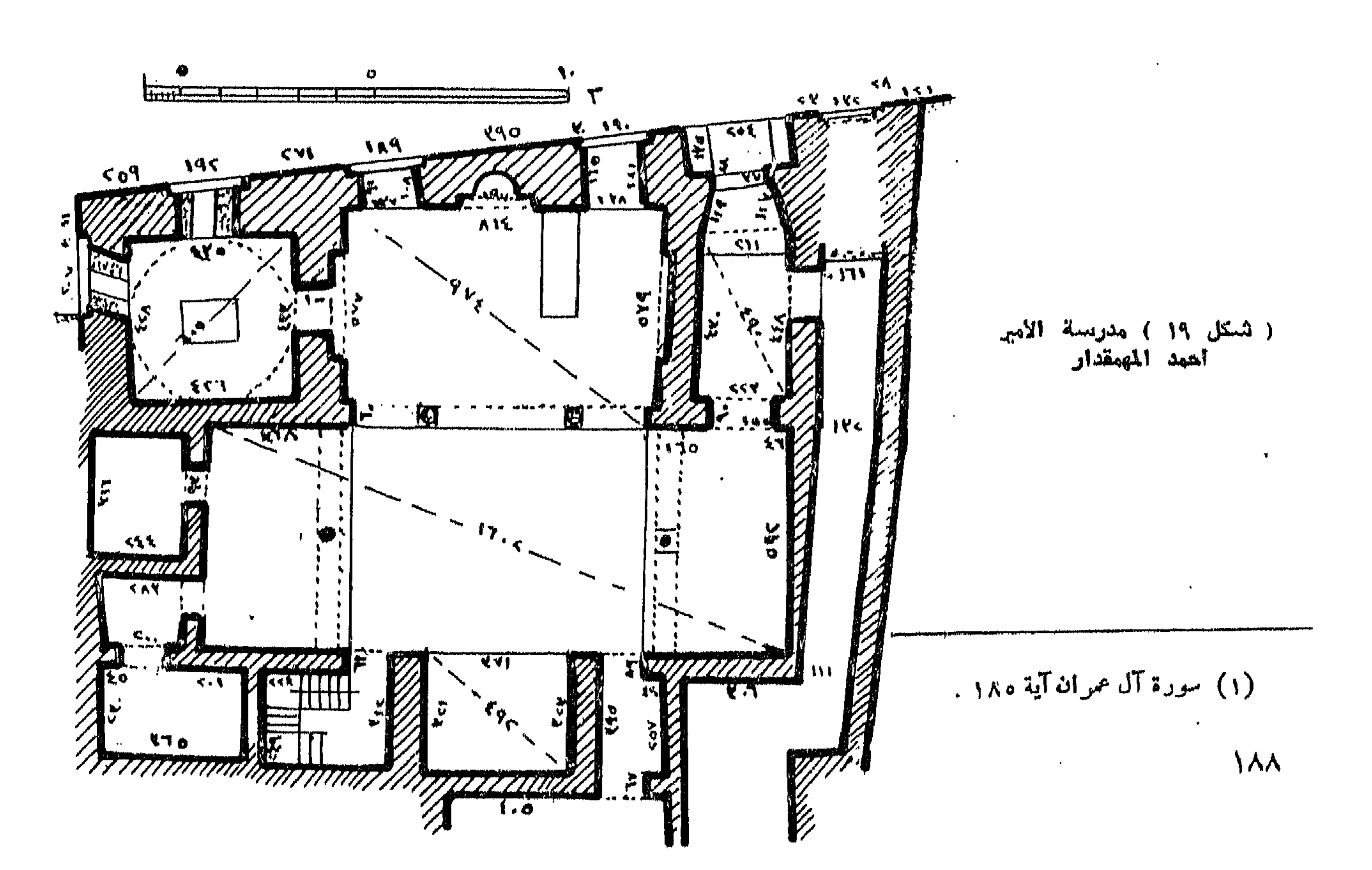
بصدر الايوان الشمالى فتحتا بابين مستطيلتان ، اتساع كل منهما ۱٫۰۰م ، تفضى الشرقية إلى حاصل مساحته ۳٫۲٥×۲٫٥۰م والغربية إلى حاصلين متداخلين بينهما فتحة باب مشتركة اتساعها ۱م ، ويغطى سقف الايوان والحاصلين ألواح خشبية مستوية حديثة .

أما الايوان الغربى وهو أصغر الإيوانين إذ يبلغ مساحته ۳٫٦۰×۳٫۱٥م فتوجد على

جانبيه فتحتان الشمالية تؤدى إلى الدور العلوى والجنوبية توصل إلى الخلاوى التى اندثر معظمها .

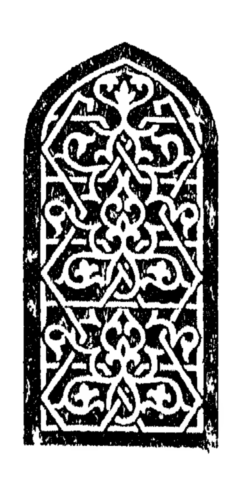
القبـــة :

يتوصل إليها من فتحة باب الجدار الشمالى لايوان القبلة ، وهى مربعة الشكل طول كل ضلع من أضلاعها ٣٠ر٤م ، بكل من الجهة الجنوبية الشرقية والشمالية نافذة مسدودة جزئيا بالبناء تعلوها قمرية شكلها الداخلى يغاير الخارجى ، وملئت بزخارف جصية وزجاجية ملونة ويتوسط القبة تركيبة رخامية بأربعة رءوس تحتوى على زخارف نباتية وكتابات نسخية بأحرف بارزة نصها «بسم الله الرحمن الرحيم . آية الكرسى . كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور(١) هذا ما أعد فى حياته العبد الفقير إلى الله تعالى أحمد أمير مهمندار وأمير نقباء الجيوش المنصورة الناصرى وله الجناب المهمندار تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جناته » . ويعلو أركان مربع القبة فى منطقة انتقال مكونة من ثلاث حطات بينها أربع مجموعات من الفتحات ويعلو منطقة الانتقال قبة مضلعة الشكل من الخارج وفتحت فى رقبتها ست عشرة نافذة عقودها ذات زاوية .



(شكل ١٩) مدرسة الأمير أحمد المهمندار

(١) سورة آل عمران آية ١٨٥ .



جامع قوصون سنة ٧٣٠ هـ
بشارع القلعة

قوصون الأمير الكبير سيف الدين الناصرى حضر من بلاد بركد[1] إلى مصر صحبة خوند ابنة أزبك زوج الملك الناصر محمد بن قلاوون فى ٢٣ ربيع الآخر سنة ٧٢٠ هـ ومعه قليل عصى وطسم ونحو ذلك مما قيمته خمسمائة[2] درهم ليتجر فيه فطاف بذلك فى أسواق القاهرة ليبيع مامعه واتفق فى بعض الأيام أن دخل إلى الاصطبل السلطانى ليبيع مامعه فأحبه بعض الاوشاقية فصار يتردد عليهم إلى أن رآه السلطان فوقع منه بموقع فسأل عنه وأمر باحضاره إليه وابتاع منه نفسه ليصير من جملة المماليك السلطانية ونال الحظوة عنده ورقاه فى جملة وظائف : من أمير عشرة إلى أمرة طبلخانة ثم أمير مائة : فمقدم ألف . وأحضر أفراد أسرته إلى مصر . وعظم مركزه عند السلطان فتزوج أخته وزوجه ابنته فى سنة ٧٢٧ هـ واحتفل بزواجه احتفالا عظيما تبارى الأمراء فى تقديم الهدايا فيه حتى بولغ فى تقدير قيمتها[3] .

ولما احتضر السلطان جعله وصيا على أولاده وعهد لابنه أبى بكر فأقيم فى الملك من بعده وأخذ قوصون فى أسباب السلطنة وخلع أبا بكر المنصور بعد شهرين وأخرجه إلى مدينة قوص ببلاد الصعيد ثم قتله وأقام كجك ابن السلطان وله من العمر خمس سنين ولقبه بالملك الأشرف وتقلد نيابة السلطنة بديار مصر ، فأمّر من حاشيته وأقاربه ستين أميرا

(١) بركد : من قرى بخارى (معجم البلدان جـ ٢ ص ٢٤٩) .
(٢) المقريزى : الخطط : جـ ٢ ص ٣٠٧ .
(٣) المقريزى : جـ ٢ ص ٧٢ ، ٣٠٧ — المنهل الصافى ، الدرر الكامنة جـ ٣ ص ٢٥٧ .

وأكثر من العطاء وبذل الأموال والأنعام فصار أمر الدولة كله بيده . هذا وأحمد ابن السلطان الملك الناصر مقيم بمدينة الكرك ، فخافه قوصون وأخذ فى التدبير عليه ، فلم يتم له ما أراد من ذلك وحرك على نفسه ما كان ساكنا فطلب أحمد الملك لنفسه وكاتب الأمراء والنواب بالمملكة الشامية والمصرية فاذعنوا له وكان بمصر من الأمراء الأمير أيدغمش والأمير آل ملك وقارى والماردانى وغيرهم فتخيل قوصون منهم وأخذ فى أسباب القبض عليهم ، فعلموا بذلك فركبوا لحربه وحصروه بقلعة الجبل حتى قبضوا عليه فى ليلة الأربعاء آخر شهر رجب سنة ٧٤٢ هـ ونهبت داره وسائر دور حواشيه وحمل إلى الاسكندرية صحبة الأمير قبلاى فقتل بها .

هذا الجامع (بشارع القلعة) خارج باب زويلة ، ابتدأ عمارته الأمير قوصون فى سنة ثلاثين وسبعمائة وكان موضعه دارا بجوار حارة المصامدة[1] من جانبها الغربى تعرف بدار أقوش نميله ثم عرفت بدار الأمير جمال الدين قتال السبع الموصلى فأخذها من ولده وهدمها وتولى بناءه شاد العمائر واستعمل فيه الأسرى . وأول خطبة أقيمت فيه يوم الجمعة من شهر رمضان سنة ٧٣٠ هـ[2] وخطب يومئذ قاضى القضاة جلال الدين القزوينى بحضور السلطان .

وعقب فتح شارع محمد على وضع المغفور له على باشا مبارك تصميما لتجديده شرعت وزارة الأوقاف فى تنفيذه ولم تتم عمارته إلا فى عصر الخديو عباس حلمى الثانى سنة ١٨٩٣ م . والمسجد مبنى بالحجر من الداخل والخارج ويتكون من أربعة أيوانات يتوسطها صحن مغطى بقبة من الخشب منقوشة كما يعلو المحراب قبة .

أما المحراب فمزخرف بالبوية الملونة ، يجاوره مبنى من الخشب المجمع بأشكال هندسية وفى الايوان الغربى دكة المبلغ وهى من الرخام . غير أن تصميمه وتفاصيله المعمارية لاتمت من الناحية الفنية بأية صلة إلى الجامع القديم .

لم يبق من المسجد القديم إلا الباب البحرى ، وهو مع ضخامته تسوده البساطة

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٠٧ .
(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٠٧ .

تجاوره بقايا الزخارف والشبابيك الجصية التى تلاصق المسجد الجديد من بحريه ، ولعلها جزء من الايوان الشرقى للجامع القديم . وتدل هذه الزخارف على أن الزخارف الجصية كانت شائعة فى المسجد القديم كما أن الافريز الزخرفى الذى كان يحيط بجدران الجامع أسفل الشبابيك لانظير له . وقد تنوعت أشكال الشبابيك كما تنوعت زخارفها ، وعقودها المدببة مرتكزة على عمد رشيقة ، وبتواشيحها زخارف مورقة ، كما أحيط بعضها بكتابات . كذلك بقى أحد أبواب المسجد وهذا الباب بشارع السروجية يتوصل منه إلى حارة خلف المسجد الجديد ، توصل إلى شارع محمد على ، تعرف بعطفة المحكمة . وهو من الأبواب الفخمة ، مبنى بالحجر وأعتابه مكسوّة بالرخام الملون ، وينتهى أعلاه بمقرنصات ذات دلايات ظريفة ، ومكتوب على جانبيه مانصه : « أمر بإنشاء هذا الجامع المبارك بكرم الله تعالى الفقير إلى الله تعالى قوصون الساقى الملكى الناصرى فى أيام مولانا السلطان الملك الناصر أعز الله أنصاره وذلك فى سنة ثلاثين وسبعمائة » .

وعلى الكتف الأيسر للباب مزولة عليها بالخط الكوفى « عمل أحمد الحريرى عام خمسة وثمانين وسبعمائة » .

وكان مركبا على هذا الباب مصراعان مغشيان بالنحاس أودعا دار الآثار العربية ، كما كان يعلوه احدى منارتى الجامع .

ونشر (فان برشم) كتابة تاريخية أخرى نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم إنما يعمر مساجد الله — الآية — أمر بإنشاء هذا الجامع العبد الفقير إلى الله تعالى السيفى قوصون الملكى الناصرى فى أيام السلطان الملك الناصر ناصر الدنيا والدين محمد بن قلاوون وذلك فى شهور سنة ثلاثين وسبعمائة من الهجرة » .

هذه هى المخلفات القديمة من جامع قوصون وهى لاتلقى ضوءا جديدا عليه بل تزيد أمره تعقيدا ، فإن المسافة بين هذا الباب وبين البقايا الزخرفية بحرى الجامع الجديد كبيرة جدا . ولا شك أن الجامع كان كبيرا كما وصفه ابن حجر العسقلانى وعلى ذلك يكون هذا الباب موصلا إلى ملحقات حول المسجد ، مما يرجح أن الأمير قوصون لم ينشئ

الجامع فى هذه المنطقة فقط بل أنشأ حوله منشآت أخرى داخلة فى حدوده لم يتعرض لذكرها واشتماله على منارتين يعزز أنه كان مسجدا كبيرا . فقد ألفنا أن نرى المساجد ذات المنارتين كبيرة جدا مثل مساجد الحاكم والسلطان حسن والسلطان برقوق بالصحراء والمؤيد .

ويقول المقريزى : إن المعمارى الذى قام ببناء منارتى الجامع فارسى[1] قدم من مدينة تبريز فبنى المئذنتين على مثال المئذنة التى عملها خواجا على شاه وزير السلطان أبى سعيد فى جامعه بمدينة توريز من بلاد فارس .

وقد ذكر الجبرتى[2] أنه فى آخر شعبان سنة ١٢١٥هـ-١٨٠١م سقطت منارة جامع قوصون ، سقط نصفها الأعلى فهدم جانبا من بوائك الجامع ونصفها الأسفل مال على الأماكن المقابلة له بعطفة الدرب النافذ لدرب الاغوات ويرجح الجبرتى أن السبب فى سقوط هذه المئذنة يرجع إلى مدافع الفرنسيين عندما قصفوا مدينة القاهرة فى ثورة القاهرة الأولى ويكمل على مبارك[3] قصة المنارة فيقول أن بقية المنارة قد اندثر عند فتح شارع محمد على سنة ١٢٩٠ هـ (١٨٧٣)م .

ومن أعظم منشآت قوصون القصر الذى يقع بجوار مدرسة السلطان حسن وله بابان ، باب من الشارع بجوار حدرة البقر وبابه الآخر تجاه باب السلسلة الذى يتوصل منه إلى الاصطبل السلطانى وقلعة الجبل ، أنشأه الأمير علم الدين سنجر الجمقدار فأخذه منه الأمير سيف الدين قوصون وصرف له ثمنه من بيت المال فزاد فيه قوصون اصطبل الأمير سنقر الطويل وأمره الملك الناصر محمد بن قلاوون بعمارة هذا الاصطبل فبنى فيه كثيرا وأدخل فيه عدة عمائر ما بين دور اصطبلات فجاء قصرا[4] عظيما إلى الغاية وسكنه الأمير قوصون مدة حياة الملك الناصر . فلما مات السلطان وقام من بعده ابنه الملك المنصور أبو بكر عمل عليه قوصون وخلعه وأقام بعده الملك الأشرف كجك ابن الملك الناصر محمد .

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٠٧ .

(٢) الجبرتى : جـ ٣ ص ١٤٣ ، ١٤٤ .

(٣) الخطط الجديدة جـ ٥ ص ٨٨ .

(٤) المقريزى : الخطط ٢ ص ٧٢ .

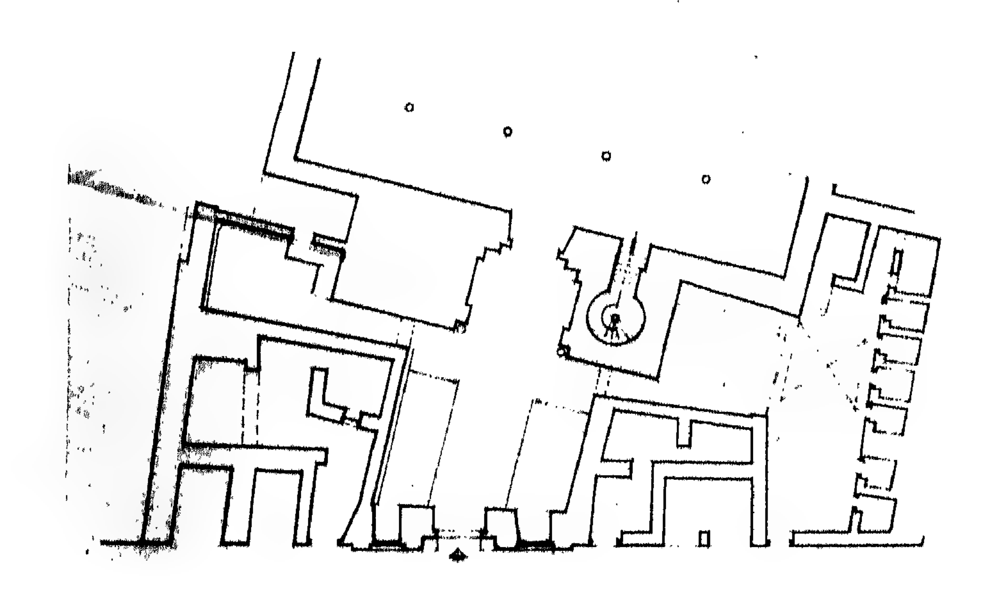
وفى سنة ٧٤٢ هـ قامت فتنة بين الأمير قوصون وبين الأمراء وكبيرهم ايدغمش فنادى ايدغمش[1] فى العامة « يا كسابه عليكم باصطبل قوصون انهبوه » هذا بينما كان قوصون محصورا بقلعة الجبل فأقبلت العامة والغلمان والجند وانتهبوا ما كان بالاصطبل وحواصله وكسروا باب القصر بالفئوس وصعدوا إليه بعد أن تسلقوا إلى القصر من خارجه فأتت النهاية على جميع ما فى الاصطبل من الخيل والسروج وحواصل المال وما كان بالقصر من الأوانى الذهبية والفضية على مالا يحد ولا يعد كثره[2] .

ومن منشآت قوصون الهامة كذلك جامع آخر بالقرافة وقد ذكره المقريزى[3] فى خططه فقال أنه داخل باب القرافة تجاه خانقاه قوصون أنشأه الأمير سيف الدين قوصون وعمّر بجانبه حمّاما فعمرت تلك الجهة من القرافة بجماعة الخانقاه والجامع ويحدد محمد رمزى مكان الجامع والخانقاه فيقول أن هذا الجامع يقع خارج باب القرافة تجاه خانقاة قوصون وليس داخل باب القرافة كما ذكر المقريزى ، وبما أن هذا الجامع يقع تجاه خانقاه قوصون وأن هذه الخانقاه لاتزال بعض آثارها قائمة ، ويقع تجاهها الآن الجامع المعروف بجامع المسيحية ، لذلك فمن المرجح أن جامع المسيحية هو بذاته جامع قوصون الذى جدده مسيح باشا والى مصر سنة ٩٨٤ هـ فنسب إليه . كما يعرف أيضا بجامع القرافى نسبة إلى الشيخ نور الدين على القرافى المدفون فيه ، وهو خارج باب القرافة بقسم الخليفة .

وتقع الخانقاه التى ذكرها المقريزى[4] فى شمال القرافة مما يلى القلعة تجاه جامع قوصون السابق ذكره ، أنشأها الأمير سيف الدين قوصون الساقى وكملت عمارتها سنة ٧٣٦ هـ وقرر بها جماعة كثيرة من الصوفية ورتب لهم الطعام والخبز والصابون والزيت وسائر ما يحتاج إليه وجعل مشيختها للشيخ شمس الدين أبى الثناء محمود بن أبى القاسم أحمد الاصفهانى ورتب له معلوما سنويا من الدراهم وسائر ما يحتاج إليه حتى جامكية غلام بغلته واستقر ذلك الوقف من بعده لكل من ولى المشيخة ومازالت على ذلك إلى أن كانت المحن فى سنة

(١) النجوم الزاهرة : جـ ١٠ ص ٤١ .
(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٧٢ .
(٣) الخطط جـ ٣ ص ٣٢٥ .
(٤) الخطط : جـ ٢ ص ٤٢٥ .

ست وثمانمائة فبطل الطعام والخبز وصار يصرف لمستحقيهما مال من نقد مصر وتلاشى أمرها بعد ما كانت من أعظم جهات البر وأكثرها نفعا وخيرا . ويحدد موقعها محمد رمزى[1] الآن فيقول : أن هذه الخانقاة قد خربت ولم يبق منها إلا القبة والمنارة المعروفة بالمنارة الكبيرة أو الوسطى الواقعة غربي مقام الشيخ جلال الدين السيوطى بشارع جلال الدين السيوطى خارج باب القرافة بقسم الخليفة . ومن آثاره الباقية أيضا وكالة بشارع باب النصر كان ينزل بها التجار الشوام الذين يبيعون النقل فى شهر رمضان .



(شكل ٢٠) جامع الامير بشتاك (فاضل باشا حاليا)

(١) النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ٢٠٧ حاشية .

الوصف المعمارى

يقع هذا الجامع بشارع القلعة (محمد على سابقا) ، وقد حل محل دار الأمير آقوش نميلة التى عرفت فيما بعد باسم دار الأمير جمال الدين قتال السباع الموصلى ، فأخذها الأمير قوصون وهدمها وأنشأ مكانها جامعه هذا .

ويتكون الجامع من مربع[1] كبير يتوسطه صحن تحيط به الأروقة من جميع الجهات كما يقول (دافين) وقد اندثرت جميع الأروقة ولم يبق منها غير ايوان القبلة . وقد كانت بوائك ايوان القبلة من أعمدة رخامية تحمل عقودا مدببة ممتدة (Stilted) ويتصدر ايوان القبلة محراب زخرف بفسيفساء رخامية (خردة) وتعلوه قبة جميلة التصميم فقد ملئت منطقة الانتقال بها بثلاث حطات من الدلايات الجميلة المنظر والدقيقة الصنع .

وفى أعلى جدار الايوان فتحت مجموعة من النوافذ ملئت بالزخارف الجصية الجميلة المعشقة بالزجاج الملون . وإلى جانب المحراب كان يوجد منبر من الخشب الجيد ، صنعت جوانبه (ريشته) بطريقة الحشوات المجمع على هيئة (أطباق نجمية) مطعمة بالعاج والصدف والابنوس . ويذكر حسن عبد الوهاب أن زخارف المنبر تشبه إلى حد كبير منبر جامع الصالح طلائع بقوص . كما كان الجامع يحتوى على كرسيين للقرآن وكذا مقصورة من الخشب الخرط الكبير .

وكان المسجد يضاء بمجموعة كبيرة من القناديل والتنانير المعدنية وكذا المشكايات الزجاجية المموهة بالميناء . ومايزال متحف الفن الإسلامى يحتفظ بتنور من جامع قوصون مصنوع من النحاس الأصفر المخرم ومكون من شكل متعدد الأضلاع تبلغ اثنى عشر ضلعا ويحتوى على أربع طبقات تحمل أربعة صفوف من المسارج والشموع . وقد زخرف التنور

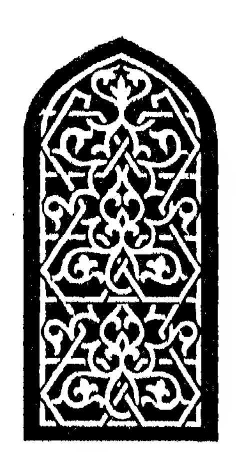
---

(١) Prisse d'Avennues : L'Art Arabe dans les monument du Kaire (Paris 1873).

برسوم هندسية قوامها الطبق النجمى ، صنعه بدر بن أبى يعلا الذى يقال إنه أتمه فى مدة أربعة عشر يوما .

وقد اندثر معظم أجزاء جامع قوصون ولم يبق منه إلى اليوم إلا الأجزاء الآتية :ـ بوابته الشرقية التى تقع فى شارع السروجية وقد نقش عليها اسم المنشئ وكذا تاريخ الانشاء سنة ٧٣٠هـ . كذلك لاتزال بقايا الباب الذى يقع فى الضلع الشمالى الذى يقع فى درب الاغوات . كما يحتفظ الجدار الشمالى بنوافذ ملئت بزخارف جصية جميلة أما باقى مبانى الجامع الحالى فكلها جديدة .

ويذكر محمد رمزى أن الجامع الحالى يشغل مكان الجامع القديم بحدوده بعد أن أخذ منه عند فتح شارع محمد على ، وأن بوابته الشرقية التى بشارع السروجية لم تكن واقعة ضمن حوائط الجامع الأصلى . بل كانت بعيدة عنه بمسافة ثمانين مترا ، كما هى الآن وكان الغرض من انشائها هو تقريب طريق الجامع لسكان الشارع الأعظم وتسهيل وصولهم إليه أوقات الصلاة ، وكانت هذه البوابة على رأس دهليز يوصل إلى الجامع ، وهذا الدهليز مكانه اليوم عطفة المحكمة الموصلة بين شارع السروجية وشارع القلعة (محمد على) .



جامع الفخر (قايتباى)
بمنيل الروضة

يقع هذا الجامع فى شمالى قرية كفر[1] قايتباى بجزيرة الروضة ، وتعرف الآن هذه باسم منيل الروضة بجزيرة الروضة . وكان الجامع يعرف قبل ذلك باسم جامع الفخر نسبة إلى منشئه الأول الأمير فخر الدين محمد بن فضل .

ويترجم المقريزى للأمير فخر فيقول : للأمير فخر الدين ثلاثة جوامع فى ثلاثة مواضع فى بولاق خارج القاهرة وفى الروضة تجاه مدينة مصر وفى جزيرة الفيل على النيل ما بين بولاق ومنية السيرج (شبرا الآن) .

ويتحدث عن الفخر فيقول : والفخر هذا هو محمد بن فضل الله القاضى فخر الدين ناظر الجيوش المعروف بالفخر . وكان الفخر نصرانيا متعصبا يصل به تعصبه هذا إلى حد التأله . ثم أكره على الإسلام فامتنع وَهَمَّ بقتل نفسه وتغيب مدة عن الناس ، ثم ظهر وأعلن إسلامه . ويضيف المقريزى فيقول : وقد حسن إسلامه وابتعد عن النصارى ، ولم يقرب أحدا منهم وحج غير مرة .

ويتحدث المقريزى عن كرمه وفضله فى آخر أيام حياته ويسهب فى وصف مظاهر بذخه فيقول : وتصدق فى آخر عمره فكان يتصدق فى كل شهر بثلاثة آلاف درهم (نقرة) وقد بنى عدة مساجد بديار مصر وأنشأ عدة أحواض ماء للسبيل فى الطرقات وبنى مارستانا

---

(١) تحفة الأحباب ص ١٥٦

(مستشفى) بمدينة الرملة ومارستانا بمدينة بلبيس وفعل أنواعا من الخير . وكان إذا خدمه أحد مرة واحدة صار صاحبه طول عمره . وكان كثير الاحسان لايزال فى قضاء حوائج الناس مع عصبية شديدة لأصحابه وانتفع به خلق كثير لوجاهته عند السلطان واقدامه عليه بحيث لم يكن لأحد من أمراء الدولة عند الملك الناصر محمد بن قلاوون ما له من الاقدام .

ومما يذكر عن حرصه على أموال الدولة هذه القصة التى يرويها ابن اياس[1] إذ يقول : قال السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، مرة لجندى طلب منه اقطاعا : ولا يمكن أن تطول شيئا ، والله لو أنك ابن قلاوون ما أعطاك القاضى فخر الدين حيزا يغل أكثر من ثلاثة آلاف درهم » .

ويقص علينا المقريزى الكثير من القصص التى تدل على سرعة بديهته وحبه الفكاهة والنكتة المستملحة فيقول على سبيل المثال : قال له السلطان فى يوم من الأيام وهو بدار العدل يا فخر الدين تلك القضية طلعت فاشوش ، فقال له الفخر : ما قلت الك أنها عجوز نحس . تعريضا ببنت كوكاى زوجة السلطان ، التى ادعت أنها حبلى .

وكان فخر الدين فى أول عهده فى سلك الوظائف السلطانية ، كاتب المماليك السلطانية ثم ارتقى من الكتابة إلى نظارة الجيش ، ونال من الوجاهة والحظوة لدى السلطان مالم ينله غيره فى زمانه ، وقد جرت عليه محبة السلطان له وحظوته لديه كثيرا من المصائب كما أدت إلى غيرة وحسد وكراهة الكثيرين له وعلى رأسهم نائب السلطنة الأمير أرغون ، الذى وصل فى كرهه له أنه إذا جلس للحكم يعرض عنه ويدير كتفه إلى وجه الفخر لذلك فقد أخذ الفخر فى تدبير الحيل للتخلص من أرغون قبل أن يقضى هو عليه ، ولذلك نجد أن الفخر انتهز فرصة سفر أرغون للحج وانفرد بالسلطان فقال له : يا خوند مايقتل الملوك إلا النواب فمثلا بيدرا قتل أخاك الملك الأشرف خليل ولاجين قتل بسبب نائبه منكوتمر » . وهنا يعلق المقريزى على هذه الرواية فيقول : وخيل للسلطان أن الدور سيأتى عليه ويغتاله نائبه الأمير أرغون ، ولذلك أمر بمسير الأمير أرغون من طريق الحجاز إلى

(١) بدائع الزهور فى وقائع الدهور .

نيابة حلب . وقد حسّن الفخر للسلطان ألا يستوزر أحدًا بعد الأمير الجمالى ، فلم يول أحدًا بعده الوزارة وصارت المملكة كلها من أحوال الجيوش وأمور الأموال وغيرها متعلقة بالفخر .

على أن دوام الحال من المحال فسرعان ما قلب له السلطان ظهر المجن وغضب عليه ونكبه وصادر أمواله التى بلغت أربعمائة ألف درهم نقرة (جيدة) وولى بدله الشيخ قطب الدين موسى ابن شيخ السلامية ، ثم عاد فرضى عنه السلطان وأمر بإعادة ما أخذ منه من المال ولكن الفخر رفض وامتنع من أخذ المال ، وقال : أنا خرجت عنها للسلطان فليبن بها جامعًا وفعلا بنى السلطان بأموال الأمير فخر الدين الجامع الناصرى الذى كان يعرف فى القرن الخامس عشر الميلادى باسم الجامع الجديد خارج مدينة مصر بموردة الخلفاء .

أما عن حياة الفخر الخاصة ، فيقول المقريزى أنه كان ورعًا تقيًا متعصبًا للإسلام كما كان للنصرانية قبل إسلامه ، وكان حنفى المذهب زار القدس عدة مرات وأحرم مرة من القدس بالحج وسار إلى مكة محرما . ويقول ابن اياس : أنه زار مرة القدس وعبر كنيسة القيامة فسمع وهو يقول عندما رأى الضوء بها « ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا » وقد باشر الفخر أعماله فى آخر أيامه كما يقول المقريزى بغير معلوم (راتب) وكان لايأخذ من ديوان السلطان معلومًا سوى (كماجه) ويقول أتبرك بها .

ولم تقتصر أعمال الفخر على المنشآت الدينية والخيرية فحسب بل تعداها إلى المنشآت المدنية فإليه تنسب قنطرة الفخر التى هى فم الخليج الناصرى المجاور لميدان السلطان بمورده الحبس وقنطرة الفخر الثانية على الخليج المجاور للخليج الناصرى

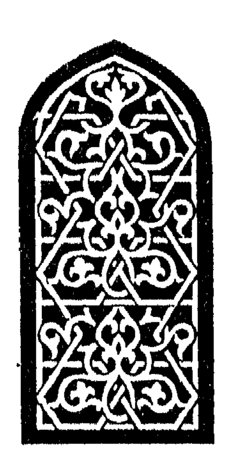
وتوفى الفخر فى الرابع عشر من رجب سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة وله من العمر ما ينيف على سبعين سنة ، ويضيف المقريزى فيقول : وترك موجودًا عظيمًا للغاية حتى أن السلطان قال : لعنه الله خمس عشرة سنة مايدعنى أعمل ما أريد ، وأوصى للسلطان بمبلغ أربعمائة ألف درهم نقرة فقط ، فأجد تركته فى النهاية أكثر من ألف ألف درهم نقرة . ويعقب المقريزى بعد ذلك فيقول : وأدركت ولده فقيرًا يتكفف الناس بعد مال لايحد كثرة».

وقد أجمع المؤرخون أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون بعد موت الفخر تسلط على الناس وأخذ أموالهم بعد أن كانوا يعيشون فى أمن وعدل واطمئنان فى عهد الفخر .

وصف الجامع

لما تخرب جامع الفخر فى أوائل القرن التاسع الهجرى جدده الشيخ شمس الدين المقسى ولازم الجلوس فيه ولما توفى دفن به فعرف منذ ذلك الحين باسم الجامع المقسى وفى أواخر القرن التاسع عشر كانت حالة الجامع سيئة فأمر بتجديده السلطان الملك الأشرف قايتباى والذى عرفت المنطقة باسمه (قرية كفر قايتباى) وكان ذلك سنة ٨٨٦ واستمرت عملية التجديد حتى سنة ٨٩١ ، ومنذ ذلك التاريخ أصبح الجامع يعرف باسم جامع قايتباى .

ويحدثنا الجبرتى أنه قد حدث حريق كبير فى هذا الجامع وذلك سنة ١٢١٦ هـ .



جـــامـــع الطبّـــاخ
بشارع الصنافيرى بعابدين

يقع جامع الطباخ بشارع الصنافيرى بقسم عابدين ، وقد عرف الشارع بهذا الاسم نسبة لوجود ضريح الشيخ إسماعيل الصنافيرى والوكالة الموقوفة عليه به . وكان شارع الصنافيرى يعرف قبل دفن الشيخ إسماعيل باسم شارع باب اللوق لأنه كان يبدأ من ميدان باب اللوق ، ويقول المقريزى أن هذا الميدان كان بستانًا يعرف ببستان الشريف بن تعلب ، فاشتراه السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بثلاثة آلاف دينار مصرية سنة ٦٤٣ هـ وجعله ميدانًا وأنشأ فيه مناظر جليلة تشرف على النيل . وصار السلطان يركب إليه ويلعب فيه بالكرة وقد أنشئت على الخليج الذى يقع شرق ميدان باب اللوق قنطرة عرفت باسم قنطرة الخرق للعبور عليها إلى الميدان ، وكان موضعها قبل إنشائها مورد سقائى القاهرة . وما برح هذا الميدان تلعب فيه الملوك بالكرة بعد الملك الصالح إلى أن انحسر ماء النيل من تجاهه وبعد عنه ، فأنشأ الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ميدانًا بطرف أراضى اللوق من جهتها الغربية ويشرف على النيل ، ويقول المقريزى ، وموضعه قنطرة قدادار (مكانها الآن مبنى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية) .

ويقول المقريزى « جامع الطباخ مسجد قديم أنشأه الأمير جمال الدين آقوش وجدده الحاج على الطباخ ، وكان الأمير جمال الدين آقوش يتولى نيابة الكرك فى عهد السلطان الناصر محمد ، وكان السلطان يثق به ويطمئن إليه ولذلك فإنه عندما فكر فى ترك السلطنة لبيبرس جاشنكير لم يجد غير الكرك للاعتكاف بها ومن هناك أرسل خطاب تخليه عن كرسى

السلطنة ولما عاد الناصر محمد إلى السلطنة للمرة الثانية ندب الأمير جمال الدين آقوش لبيع تركة بيبرس وإحضار نصف ما يتحصل للسلطان ، ودفع النصف الآخر لابنة بيبرس فإنه لم يترك سواها . وفى سنة ٧١١ هـ عين الأمير جمال الدين آقوش فى نيابة دمشق وخلع عليه فى مستهل جمادى الآخرة ، فقدمها فى رابع عشر ، وفى سنة ٧١٥ هـ أنعم عليه باقطاع الأمير حسام الدين لاجين استادارا بعد موته .

ولما استقر الأمير جمال الدين آقوش بمصر أقام مجموعة من العمائر ، منها قاعة بالمارستان (المستشفى) المنصورى (بحى الصاغة) كما نحت جدران المارستان والمدرسة المنصورية من الداخل والخارج وجدد الزخارف المذهبة فى مبانى المنصور قلاوون كلها . ويضيف المقريزى فيقول : وعمل آقوش خيمة يزيد طولها على مائة ذراع وركبها لتستر على مقاعد الأقفاص (التى توضع عليها الحلى والمجوهرات) وتستر أهلها من الحر (أى أهل حى الصاغة) . كما أقام مسجدًا فى ميدان اللوق (الذى عرف فيما بعدبالطباخ) وكان مصروف ذلك كله من ماله دون مال الوقف . وقد ذكر لنا المقريزى فى كتابه السلوك بعض ما قام به الأمير آقوش من أعمال مما يعطينا فكرة عن مدى ثرائه ، وعن بعض مظاهر الحياة الاجتماعية والمادية فى عصره ، فيقول : « جمع آقوش القضاة والفقهاء بسبب عمل منبر بالمدرسة الصالحية (التى حلت محل جزء من الضلع الغربى للقصر الفاطمى الشرقى الكبير) بين القصرين بالقاهرة لإقامة الجمعة بها ، فأفتوه بجواز ذلك . فرتب خطيبًا قرر له فى كل شهر خمسين درهما ، ورتب ستة نفر مؤذنين لكل واحد عشرة دراهم فى كل شهر ولقارىء القرآن مبلغًا سماه . وجعل آقوش المعالم المذكورة من عقار وقفه على ذلك » ويضيف المقريزى ، « وفى هذا الشهر تصدق الأمير المذكور بنحو ثلاثة آلاف أردب من الغلال » .

وقد ساءت العلاقة بين السلطان وبين الأمير جمال الدين آقوش فى آخر أيامه وذلك نتيجة للوشايات والوقيعة التى كان يدس بها حساده مما أوغر صدر السلطان عليه وأمر بزجه فى سجن الاسكندرية حيث توفى سنة ٧٣٦ هـ .

ولما تهدم مسجد الأمير آقوش جدد بناءه الحاج على الطباخ الذى كان يعمل طباخًا لدى قصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون . وقد نشأ على الطباخ بمصر وخدم الملك الناصر

محمد مدة عزله عن السلطنة فى مدينة الكرك ، فلما قدم إلى مصر جعله خوان سلار (أى المشرف على مائدة السلطان) وسلمه المطبخ السلطانى ، فكثر ماله لطول مدته وكثرة تمكنه ولم يتفق لأحد من نظرائه ما اتفق له من السعادة الطائلة . ويعلل المقريزى السبب فى ثراء الطباخ بالأسباب التالية « وذلك أن الأفراح وما كان يصنع من المهمات (الولائم) والأعراس ونحوها مما كان يعمل فى الدور السلطانية وعند الأمراء والمماليك ، مع كثرة ذلك فى طول تلك الأعوام كانت كلها إنما يتولى أمرها هو بمفرده .

ويقص علينا المقريزى فى كتابه الخطط والآثار قصة طريفة تبين لنا مقدار ما كان يحصل عليه الطباخ من الأتعاب العينية وكيف يتصرف فيها ويفعل بها فيقول : « فمما اتفق له فى عمل عرس ابن بكتمر الساقى على ابنة الأمير تنكز نائب الشام ، أن السلطان الملك الناصر استدعاه آخر النهار الذى كان يعمل فيه فى العرس المذكور وقال له : يا حاج على اعمل لى الساعة لونا من طعام الفلاحين وهو خروف رميس يكون ملهوجا . فولى الحاج على ووجهه معبس فصاح به السلطان ويلك مالك معبس الوجه فقال : كيف ما أعبس وقد حرمتنى الساعة عشرين ألف درهم نقرة (أى فضة جيدة) . فسأله السلطان : كيف حرمتك ، قال : قد تجمع عندى رءوس غنم وبقر وأكارع وكروش وأعضاء وسقط دجاج وأوز وغير ذلك مما سرقته من العرس وأريد أن أقعد أبيعه ، وقد قلت لى أطبخ ، وقبل أن أفرغ من الطبيخ يتلف الجميع . فتبسم السلطان وقال له : رح اطبخ وضمان الذى ذكر على ، وأمر باحضار والى القاهرة ووالى مصر فلما حضرا ألزمهما بطلب أرباب الزفر إلى القلعة وتفرقة ما ناب الطباخ من العرس عليهم واستخراج ثمنه » . ويستمر المقريزى فى سرد تفاصيل القصة حتى ينتهى إلى الثمن الذى بيع به ما أخذه الطباخ من العرس فيقول : « فللحال حضر المذكورون وبيع عليهم ذلك بمبلغ ثلاثة وعشرين ألف درهم نقرة » ويعقب المقريزى على ذلك فيقول : وهذا عرس واحد من ألوف (الأعراس) مع الذى كان له من المعالم والجرايات ومنافع المطبخ ».

أما عن راتبه فى قصر السلطان فيذكر ابن اياس فيقول : « يقال أن الحاج على الطباخ كان يتحصل له من المطبخ السلطانى فى كل يوم على الدوام والاستمرار مبلغ خمسمائة درهم نقرة ولولده أحمد مبلغ ثلثمائة درهم نقرة » . وقد أوغرت هذه المبالغ الطائلة التى وصلت

إلى ٢٤ ألف درهم شهريًا له ولولده . هذا بخلاف ما يحصل عليه من الأشياء العينية ، صدور باقى موظفى القصر ، وعلى رأسهم الأمير شرف الدين ، استادارًا (أى المشرف على البيوت السلطانية) المعروف (بالنشو) فأخذ على حد قول ابن حجر « يخرج عليه تخاريج وأغرى به السلطان فلم يسمع فيه كلامًا مما يدل أنه كانت له حظوة كبيرة عند السلطان الملك الناصر محمد .

واستمر على الطباخ فى خدمة أولاد الناصر محمد بعد وفاته ، فخدم المنصور أبا بكر والملك الأشرف كجك والملك الناصر أحمد والملك الصالح إسماعيل . أما الملك الكامل شعبان فقد نقم عليه وعلى ولده أحمد لكثرة الوشاية بهما فصادر أملاكه فى سنة ست وأربعين وسبعمائة وأخذ منه مالا كثيرًا وهنا يقول المقريزى : « ومما وجد له خمس وعشرون دارًا مشرفة على النيل وغيره ، فغرقت حواشى (أى حاشية) الملك الكامل أملاكه فأخذت أم السلطان ملكه الذى كان على البحر (أى النيل) وكانت دارًا عظيمة جدًا . وأخذت انقاض داره التى بالمحمودية من القاهرة ، وأقيم بدلا منه طباخ آخر بالمطبخ السلطانى وضرب ابنه أحمد » .

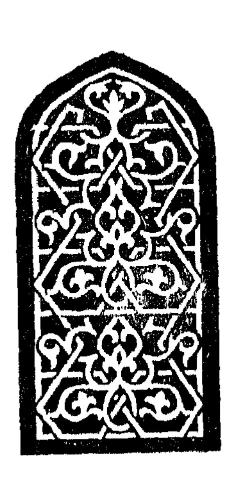
* * *

ويعتبر جامع الطباخ الذى أقامه الأمير جمال الدين آقوش وجدده الحاج على الطباخ من أقدم المساجد المملوكية ، وقد جاء فى المقريزى أن عليا الطباخ ، جدد جامع آقوش إذ لم يكن له وقف ، فقام بمصالحه من ماله . ثم وقف عليه أوقافًا كثيرة صودرت مع باقى أملاكه . ويضيف على مبارك فى وصف الجامع القديم فيقول : « وبه منبر وخطبة وله منارة وشعائر مقامة إلى الغاية من جهة الديوان (أى ديوان الأوقاف) .

والجامع الموجود حاليًا بشارع الصنافيرى قد أقيم مكان الجامع القديم ، فقد أزالت وزارة الأوقاف الجامع القديم سنة ١٣٥٠ هـ وأنشأت مكانه مسجدًا جديدًا . ويتكون المسجد الحالى من شكل غير منتظم الأضلاع يتوسطه أربع دعائم كبيرة يقوم عليها السقف الخشبى

المنقوش بالزخارف الزيتية الجميلة . ويعلو الدعائم الأربع رقبة مثمنة بها ثمانى نوافذ يعلوها قبة ضحلة .

وأضلاع المسجد المتعددة تحتوى على فتحات مملوءة بالزجاج المعشق ، وهذه الفتحات تكون كل ثلاث منها نافذة قنديلية الشكل . وبالمسجد منبر خشبى جميل مصنوع بطريقة الحشوات المجمعة ومطعم بالصدف والعاج ، وبه دكة المبلغ وأخرى للقارىء من الخشب الخرط الجميل .



جامع الأمير بشتاك ٧٣٧ﻫ
فاضل باشا حاليًا
بشارع بورسعيد

الأمير بشتاك الناصرى من أمراء الناصر محمد بن قلاوون ، اشتراه الناصر بستة[1] آلاف درهم وكانت له الحظوة عند الناصر . وكان سبب قربه من أستاذه الملك الناصر أن الملك الناصر قال يومًا فى مبدأ أمره لمجد[2] الدين السلامى التاجر الخاص بالرقيق : أريد أن أشترى لى مملوكًا يشبه بو سعيد بن خربندا ملك التتار ، فقال مجد الدين : دع ذلك فهذا بشتك يشبهه لافرق بينهما فحظى عنده لذلك . ولما مات بكتمر الساقى ورثه بشتاك فى جميع أمواله[3] وفى داره واسطبله وتزوج بامرأته أم أحمد بن بكتمر الساقى واشترى جاريته خوبى بستة آلاف دينار ، وكان معها من القماش ماقيمته عشرة آلاف دينار وأخذ ابن بكتمر عنده وكان إقليم الشرقية تحمى لبكتمر الساقى فحماها من بعده . فعظم ذلك على قوصون ولم يسعه إلا السكوت لميل السلطان إليه .

ولما ندبه السلطان للتوجه إلى الشام للقبض على بكتمر والحوطة على ماله ، طمع فى أمر دمشق غير أنه لم يجسر على مفاتحة السلطان فى ذلك . وبقى فى نفسه منها حزازة ، فلما مرض السلطان وأشرف على الموت ، ألبس بشتك مماليكه عدة الحرب لما بلغه عن قوصون أنه فعل ذلك ثم انتهى الخلاف بينهما لما علما بأن السلطان جعل ولاية العهد من بعده لابنه أبى بكر .

---

(١) الدرر الكامنة : جـ ١ ص ٤٧٧

(٢) النجوم الزاهرة : جـ ٩ ص ١٩

(٣) النجوم الزاهرة : جـ ٩ ص ١٨

فلما وقع ذلك لم يوافق عليه بشتك مفضلا عليه سيده أحمد ابن الملك الناصر الذى بالكرك . وعند وفاة السلطان قام قوصون وذكر بشتك بأصله وإن كليهما لا يصح أن يكون سلطانًا لأن الناس يعرفون أصلهما وأضاف يقول بأن أستاذهما هو الذى أوصى لمن هو أخبر به من أولاده وهذا فى ذمته ولا يسعنا إلا النزول على رأيه حيًا أو ميتًا . عند ذلك نزلا على إرادة سيدهما وتصافحا .

بدا لبشتك أن يلى نيابة الشام فعاكسه قوصون فثارت الضغائن القديمة بينهما وحرض قوصون الملك المنصور أبا بكر عليه ناسبًا إليه أنه يريد الوثوب على السلطان خصوصًا بعد ما قام بتوزيع أمواله على الأمراء والملتفين حول السلطان وكثرت القالة فيه بأنه يريد إفساد الدولة فوافق السلطان على القبض عليه فقبض عليه فى الثامن من المحرم سنة ٧٤٢ هـ واعتقل بالاسكندرية إلى أن قتل فى محبسه بها بعد أيام من سلطنة الملك الأشرف كجك ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون فى شهر ربيع الآخر سنة ٧٤٢ هـ ، وبشتك أول من أمسك[1] من أمراء الدولة الناصرية . وكان كريمًا مهابًا ، وله عدة منشآت معمارية هامة منها قصره العظيم والحمام بسوق السلاح والجامع بخط قبو الكرمانى على بركة الفيل والخانقاة تجاه جامعه المذكور .

قصر بشتاك :

هذا القصر هو الآن[2] تجاه الدار البيسرية وهو من جملة القصر الكبير الشرق الذى كان مسكنًا للخلفاء الفاطميين ويسلك إليه من الباب الذى كان يعرف فى أيام عمارة القصر الكبير فى زمن الخلفاء بباب البحر ويعرف اليوم بباب قصر بشتاك تجاه المدرسة الكاملية وما زال إلى أن اشتراه الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى المعروف بأمير سلاح وأنشأ دورًا واصطبلات ومساكن له ولحواشيه وصار ينزل إليه هو والأمير بدر الدين بيسرى عندانصرافهما من الخدمة السلطانية بقلعة الجبل فى موكب عظيم زائد الحشمة ويدخل كل منهما إلى داره وكان موضع هذا القصر عدة مساجد ، أحب الأمير بشتاك أن يكون له أيضًا دار بالقاهرة

---

(١) النجوم الزاهرة : جـ ٩ ص ٢٠

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٧٠

وذلك أن قوصون وبشتاك كانا يتناظران فى الأُمور ويتضادان فى سائر الأَحوال ويقصد كل منهما أن يسامى الآخر ويزيد عليه فى التجمل ، فأَخذ بشتاك يعمل فى الاستيلاء على قصر أمير السلاح حتى اشتراه من ورثته وأخذ من السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون قطعة أرض كانت داخل هذا القصر من حقوق بيت المال وهدم دارًا كانت قد أُنشئت هناك عرفت بدار قطوان الساقى وهدم أحد عشر مسجدًا وأربعة معابد كانت من آثار الخلفاء يسكنها جماعة من الفقراء وأُدخل ذلك كله فى البناء إلّا مسجدًا منها عمره يعرف اليوم بمسجد الفجل ، فجاء هذا القصر من أعظم مبانى القاهرة فإن ارتفاعه فى الهواء أربعون ذراعًا ونزول أساسه فى الأَرض مثل ذلك والماء يجرى بأَعلاه وله شبابيك من حديد تشرف على شارع القاهرة وينظر من أعلاه عامة القاهرة والقلعة والنيل والبساتين وهو مشرق جليل مع حسن بنائه وتأَنق زخرفته والمبالغة فى تزويقه وترخيمه وأنشأ أيضًا فى أسفله حوانيت وكان الشارع الذى يقع فى القصر يسمى قديماً شارع بين القصرين لأَنه كان به القصر الكبير الشرقى الذى قصر بشتاك من جملته وتجاهه القصر الغربى الذى الخرشتف من جملته فصار قصر بشتاك وقصر بيسرى وما بينهما من الشارع يقال له بين القصرين .

ويعلق الأُستاذ محمد[1] رمزى على ما ذكره المقريزى فى خططه[2] عن قصر بشتاك بقوله : « أنه مع مضى أكثر من ستة قرون على هذا القصر فإنه لايزال قائمًا يشرف على شارع المعز لدين الله (شارع بين القصرين سابقًا) بالقاهرة . وكان بابه القديم مكان باب البحر أحد أبواب القصر الكبير الشرقى . وموضعه اليوم مدخل حارة بيت القاضى تجاه جامع الملك الكامل بشارع المعز لدين الله . أما الباب الحالى للقصر فهو على يمين الداخل بدرب قرمز ومما يلفت النظر فى هذا القصر ارتفاعه والقاعة الكبيرة التى فى الدور الأَول فوق زاوية بين القصرين والدكاكين لها وهى من أكبر وأفخم القاعات القديمة فى القاهرة .

جامع بشتاك :

ذكر المقريزى[3] فى خططه جامع بشتاك فقال أن هذا الجامع خارج القاهرة بخط قبو

---

(١) النجوم الزاهرة : جـ ٩ هامش (٣) صفحة ١٤٩
(٢) المقريزى : جـ ٢ ص ٧٠
(٣) الخطط جـ ٢ ص ٣٠٩

الكرمانى على بركة الفيل ، عمّره الأمير بشتاك فكمل فى شعبان سنة ٧٣٦ هـ . ويعلق الأستاذ محمد[1] رمزى على ذلك فيقول : أنه يستفاد من التاريخ المنقوش على باب المئذنة المشرف على سطح هذا المسجد أن عمارته تمت فى رجب سنة ٧٢٧ هـ . وذكر ابن اياس فى تاريخه – (ص ١٦٦ جـ ١) مايفيد أن الذى أنشأ هذا الجامع هو الأمير بشتاك العمرى . والصواب أن الذى أنشأه هو الأمير بشتاك الناصرى ، كان من أقرب كبار الأمراء المقربين للملك الناصر محمد بن قلاوون . وتوفى بالاسكندرية فى سنة ٧٤٢ هـ . أما الأمير بشتاك العمرى فكان زوج بنت الملك الأشرف شعبان بن حسين وتوفى سنة ٧٧٢ هـ كما ورد فى المنهل الصافى. وأضاف الأستاذ محمد رمزى يقول : وفى سنة ١٢٧٧ هـ ، أمرت الأميرة ألفت هانم قادن والدة مصطفى باشا فاضل أخى الخديوى إسماعيل بتجديد هذا الجامع وعهدت إلى وكيلها نيازى بك بهذا العمل ، فأعاد بناء المسجد جميعه فى سنة ١٢٧٨ هـ ماعدا بابه العام القديم والمئذنة وأنشأ له وجهة جديدة بسيطة هى التى فيها بابه الحالى المشرف على شارع درب الجماميز وبين البابين القديم والجديد رحبة يرى الواقف فيها فى مواجهته الباب الأصلى القديم للجامع بتجويفه العلوى المحلى بمقرنصات مركبة ذات دوال ، وعلى يسار هذا الباب الأثرى مئذنة الجامع وهى من أعلى مآذن القاهرة وأفخمها . ورد فى الخطط التوفيقية[2] عند الكلام على هذا الجامع أن المئذنة الحالية تجددت مع الجامع فى سنة ١٢٧٨ هـ وهذا غير صحيح لأن المئذنة الموجودة هى بذاتها المئذنة القديمة كما يدل على ذلك شكلها والكتابات التى عليها ولايزال هذا الجامع قائمًا بشارع درب الجماميز بالقاهرة وعامرًا بإقامة الشعائر الدينية ويعرف بجامع مصطفى باشا فاضل من وقت أن جددته الأميرة والدته ، وعلى الأخص لأنه يجاور سراى مصطفى باشا المذكور التى فيها الآن المدرسة الخديوية .

خانقاه بشتاك :

ذكرها[3] المقريزى فى خططه باسم خانقاة بشتاك فقال انها خارج القاهرة على جانب

---

(١) النجوم الزاهرة : جـ ٩ ص ٢٠٨ هامش

(٢) الخطط التوفيقية جـ ٤ ص ٦٥

(٣) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٤١٨

الخليج من البر الشرقى تجاه جامع بشتاك أنشأها سيف الدين بشتاك الناصرى هى والجامع ونصب بينهما ساباطا يتوصل به من احدهما للآخر وكان فتحها أول يوم من ذى الحجة سنة ٧٣٦ هـ وتقرر فيها عدد من الصوفية ويضيف الأستاذ محمد[1] رمزى ويقول : أن هذه الخانقاة قد اندثرت . ومكانها اليوم سبيل الأميرة ألفت هانم قادن والدة مصطفى باشا فاضل أنشأته فى سنة ١٢٨٠ هـ بشارع درب الجماميز بالقاهرة تجاه جامع بشتاك .

حمام بشتاك :

جاء فى النجوم الزاهرة أن الأمير سيف الدين بشتاك هو صاحب القصر بين القصرين والحمام[2] بالقرب من سويقة العزى .

وعلق الأستاذ محمد رمزى بقوله أن المقريزى لم يذكر حمام الأمير بشتاك الناصرى فى خططه وهو لايزال قائماً بشارع سوق السلاح الذى كان يسمى سويقة العزى على رأس عطفة حمام بشتاك بالقاهرة وهو من الحمامات الكبيرة ووجهته مكسوة برخام ملون جميل وعليها اسمه .

---

(١) النجوم الزاهرة : جـ ٩ هامش ٢ صفحة ٢٠٨

(٢) النجوم الزاهرة : جـ ١٠ ص ٧٥

الوصف المعمارى

يقع هذا الجامع على الشاطىء الشرق للخليج المصرى الذى حل محله شارع بور سعيد الآن ، إذ يذكر المقريزى أن الأمير بشتاك أنشأ مسجدا أمام الخانقاة وأنشأ بينهما سباطا (أى قنطرة) يصل أحدهما بالآخر ، وأن هذه المنشآت كانت تشرف على بركة الفيل من جهتها الغربية .

وتقع بركة الفيل[1] هذه فيما بين القاهرة والقطائع وكانت مساحتها كبيرة جدًا ولم يخط بها مبان . فلما أنشأ جوهر الصقلى مدينة القاهرة واختط بعد ذلك خارج باب زويلة حارة السودان (أى حى) وحارة اليانسية أصبح لايفصل هاتين الحارتين عن البركة غير فضاء بسيط وفى سنة ٦٠٠ هـ[2] عمرت البركة وكثرت مبانيها وصارت مساكنها من أجمل مساكن مصر كلها فقد أعجب بها ابن سعيد[3] وقال : « أعجبت فى ظاهرها (أى القاهرة) ببركة للفيل لأنها دائرة كالبدر والمناظر فوقها كالنجوم وعادة السلطان أن يركب فيها بالليل ، وتسرح أصحاب المناظر على قدر هممهم وقدرتهم فيكون بذلك منظر عجيب وفيها أقول :

أنظر إلى بركة الفيل التى اكتنفت ... بها المناظر كالأهداب للبصر
كأنها هى والأبصار ترمقها ... كواكب قد أداروها على القمر

ويضيف ابن سعيد فيقول وقد قابلتها الشمس بالغد و فقلت :

أنظر إلى بركة الفيل التى نحرت ... لها الغزالة نحرا من مطالعها
وخل طرفك محفوفاً ببهجتها ... تهيم وجداً وحباً فى بدائعها

---

(١) المقريزى : جـ ٢ ص ٢٦٢
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣٥٨
(٣) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ص ٢٦٥

وكان ماء النيل يدخل بركة الفيل من الموضع الذى كان يعرف باسم الجسر العظيم أو قنطرة السباع (نسبة لوجود رنك السلطان الظاهر بيبرس الذى على شكل سبع) وقد حل محله الآن ميدان السيدة زينب رضوان الله عليها . كما كان يأتى لها الماء من الخليج الكبير من قنطرة كانت تعرف قديماً باسم المجنونة . وقد ظلت البركة عامرة بساكنيها طوال العصر المملوكى والعصر العثمانى حتى ردمت فى أوائل القرن العشرين[1] .

وتقع الواجهة الرئيسية للجامع فى الضلع الغربى ، وهى واجهة بسيطة أقامها مجدد المسجد والدة (مصطفى باشا فاضل) أخى إسماعيل باشا (سنة ١٢٧٨ هـ - ١٨٦١ م) وذلك بمناسبة إنشاء دارهما المجاورة له وعهد إلى نيازى بك لهذا العمل الخيرى . فقام نيازى بك بتجديد بناء الجامع من الداخل مع الاحتفاظ بالمدخل الرئيسى القديم وكذا المئذنة ولكنه أنشأ واجهة جديدة تتقدمه . يقابل باب الواجهة الجديدة باب المدخل الرئيسى القديم ، وهو عبارة عن مدخل مبنى من الحجر كثير العمق يكتنف نواصيه عمودان . وقد زخرف جانبا هذا الدخول بحنيات مستطيلة يعلوها ثلاثة صفوف من الدلايات . ويتوسط المدخل القديم باب يعلوه عتب ضيق يجىء فوقه لوح رخامى به تاريخ التجديد . وقد توج الأضلاع الثلاثة للمدخل العميق خمسة صفوف من الدلايات يتوسطها طاقية بها إشعاعات محارية . ويحيط بأعلى المدخل مستطيل يشغل ضلعه العلوى شريط من الكتابة جاء به « بسم الله الرحمن الرحيم إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله .. إلخ » .

ويؤدى الباب القديم إلى داخل المسجد وهو مجدد ويحتوى على ستة أروقة يتوسطها منور . وفى وسط الضلع الشرقى محراب من الرخام كتب فوقه : « هو العلى الأعلى » « فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب » .

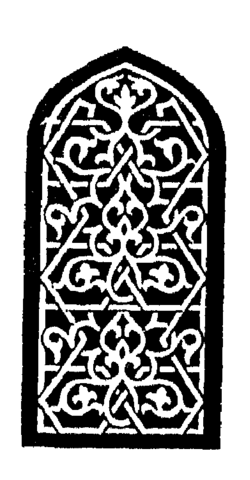
وفى الضلع الجنوبى للمسجد توجد حجرة تضم عدداً من رفات أسرة مصطفى باشا فاضل فهناك مقبرة المرحوم أحمد رشدى بك المتوفى (سنة ١٢٩٦ هـ - ١٨٧٩ م) وهو نجل مصطفى باشا ، كما نقل إلى الحجرة جثمان مصطفى باشا المتوفى (سنة ١٢٩٢ هـ - ١٨٧٦ م) .

---

(١) الخطط التوفيقية جـ ٢ ص ١٣٠

وفى مؤخر الجامع يوجد باب يوصل إلى سلم حلزونى قديم يؤدى إلى السطح حيث توجد المئذنة التى تعد من مفاخر العمارة الإسلامية فى مصر . فقد امتازت هذه المئذنة باحتوائها على كثير من النقوش والزخارف والكتابات المحفورة على الحجر . كما تمتاز بأنه يمكن اعتبارها وحدة معمارية قائمة بذاتها ، فقد احتوت قاعدتها المربعة على مدخل كثير العمق توجد على جانبيه مكسلتان ويزخرف جوانب هذا الدخول حنايا مستطيلة يعلوها صفان من الدلايات . ويتوسط هذا المدخل باب يعلوه عتب يحتوى على صنجات معشقة يأتى فوقه عقد عاتق يشتمل كذلك على صنجات معشقة . ويتوج المدخل من جوانبه الثلاثة أربعة صفوف من الدلايات مماثلة إلى حد كبير للمدخل الرئيسى القديم للجامع وفوق ذلك يأتى شريط عريض به كتابة جاء فيها : بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما مهده لنفسه المقر الأشرف بشتاك المالكى الناصرى والابتداء فى مستهل شهر رمضان المعظم سنة ست وثلاثين وسبعمائة وفرغ آخر شهر رجب الفرد سنة سبع وثلاثين وسبعمائة . أما الطابق الثانى من المئذنة فمثمن الشكل زخرفت جوانبه بحنايا مستطيلة تنتهى بعقود ذات زاوية تحتوى على ثلاثة صفوف من الدلايات . وقد فتح فى أربع منها نوافذ ترتكز على شرفات صغيرة تقوم على ثلاثة صفوف من — الدلايات . ويفصل بين الطابق الأول والثانى شرفة وتتكون من (١٦) ضلعًا تنوعت النقوش المفرغة بها وبقوائمها . أما الطابق الثانى فمكون من شكل يميل إلى المثمن زخرفت واجهاته الثمانى بحنايا مستطيلة تنتهى بعقود ذات زوايا . ويفصل بين الطابق الثانى والثالث شرفة ذات (١٦) ضلعًا مماثلة للشرفة الأولى وتقوم على أربعة صفوف من الدلايات مثل الشرفة الأولى كذلك . أما الطابق الثالث فهو اسطوانى ويدل على أنه حديث لاختلافه البين مع الطابقين الآخرين ، ويعلو شرفة بسيطة تأتى بعدها قبة صغيرة ممتدة .

وقد أقامت والدة فاضل باشا على جزء من أرض الخانقاه التى اندثرت تماماً سبيلا وكتابا فى (سنة ١٢٨٠ هـ ـ ١٨٦٣م) كسيت واجهتهما بالرخام وزخرفت بالكتابات وهو مايزال قائماً تجاه الباب الخارجى للجامع .



جامع الطنبغا المــاردانى

سنة ٧٤٠ هـ

هو الطنبغا بن عبد الله المـاردانى الساقى الأمير علاء الدين ، أحد مماليك الملك الناصر محمد بن قلاوون . كان الناصر كثير العناية به فعينه ساقيا ثم أمير طبلخانة فى مدة يسيرة ، ثم عينه أمير مائة ومقدم ألف بالديار المصرية وزوجه ابنته . وبعد وفاة الناصر محمد تولى السلطنة ابنه السلطان الملك المنصور سيف الدين أبو بكر والمنصور هو الثالث عشر من دولة المماليك البحرية وعند تولية المنصور اتفق الأمراء على إقامة الأمير سيف الدين قطز دمر الحموى حمى الملك المنصور هذا فى نيابة السلطنة ويكون الأمير قوصون الناصرى مدبر المملكة ورأس المشورة وشاركه فى الرأى الأمير بشتك الناصرى .

عكف الملك المنصور على اللهو وشرب الخمر وسماع الملاهى فشق ذلك على الأمير قوصون[1] وغيره لأنه لم يعهد من ملك قبله شرب الخمر فيما روى ، فحملوا الأمير طقز دمر النائب على محادثته فى ذلك وكفه عنه فزاده لومه اغراء وأفحش فى التجاوز باللهو حتى استنكر منه هذا العمل الفاضح جميع الأمراء وزادوا فى القول ، فأخذ جلساء الملك المنصور فى الوقيعة فى قوصون والتحدث فى القبض عليه وعلى الأمير طقز دمر النائب وآخرين ، فنم عليهم الأمير يلبغا اليحياوى لقوصون ، وكان قد استماله قوصون ، بكثرة العطاء كما استمال غيره من المماليك السلطانية وعرفه الأمير يلبغا اليحياوى قوصون أن الاتفاق قد تقرر بالقبض عليه فى يوم الجمعة وقت الصلاة ، فانقطع قوصون عن الصلاة وتحيل حتى خلع

---

(١) النجوم الزاهرة : جـ ١٠ ص ١٢

السلطان وقتله بقوص ثم جلس على تخت الملك الأشرف علاء الدين كجك[1] (وكجك لفظ أعجمى معناه بالعربى صغير ، فإن والده لحظ فيه حال التسمية أنه سيلى بعده الملك وهو صغير) وكان جلوسه باتفاق الأمراء بعد خلع أخيه أبى بكر بن الملك الناصر محمد ، ولقب بالملك الأشرف ورشح الأمراء ايدغمش أمير آخور لنيابة السلطنة فامتنع ايدغمش ووقع الاختيار على الأمير قوصون الناصرى فقبل ثم اتفق الأمراء على اخراج الأمير الطنبغا الماردانى من الحبس فافرج عنه . ولما قبض ايدغمش على قوصون وخلع الملك الأشرف كجك من السلطنة وولى الناصر أحمد كان الأمير الطنبغا الماردانى من الأمراء الذين قاموا بهذا التغيير إذ اتفق[2] مع الأمير ايدغمش أمير آخور على أن يقبض على قوصون وطلع إلى قوصون بالقلعة وشاغله وخذله عن الحركة طول الليل والأمراء الكبار المشايخ عنده وما زال يساهره حتى نام وكان من قيام الأمراء وركوبهم عليه ما كان إلى أن أمسك وأخرج إلى الاسكندرية . ولما قدم الطنبغا نائب الشام وأقام ، تقدم الماردانى وقبض على سيف قوصون ولم يجسر غيره على ذلك ، فقويت بهذه الحركات نفسه وصار يقف فوق الأمير التمرتاشى ويتقدمه فى كل الأمور فشق ذلك على التمرتاشى وكتم ذلك فى نفسه إلى أن ملك الصالح اسماعيل فتمكن حينئذ التمرتاشى[3] وصار الأمر له فانتقم من الماردانى فلم يشعر الأخير بنفسه إلا وقد أخرج على خمسة رؤوس من خيل البريد إلى نيابة حماة فى شهر ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة فسار إليها وبقى فيها نحو شهرين إلى أن مات ايدغمش نائب الشام ونقل طقزدمر من نيابة حلب إلى نيابة دمشق فنقل الماردانى من نيابة حماة إلى نيابة حلب وسار إليها فى أول رجب سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة ، وجاء الأمير يلبغا اليحياوى إلى نيابة حماة ، فأقام الماردانى فترة قصيرة فى حلب ومرض ومات فى مستهل صفر سنة أربع وأربعين وسبعمائة وكان شابا طويلا رقيقا حلو الصورة لطيفا كريما صائب الحدس عاقلا .

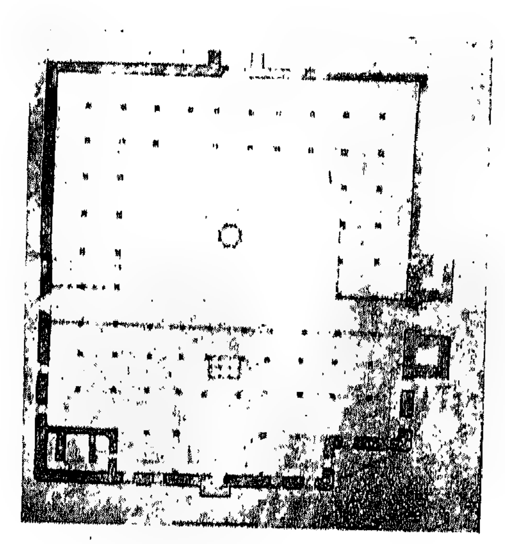
---

(١) النجوم الزاهرة : ج ١٠ هامش ٢١ فقرة (١) .

(٢) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣٠٨

(٣) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣٠٨

ومن طريف ما يحكى عن شغف السلطان[1] محمد بمملوكه الطنبغا الماردانى هذا أن تولى تمريضه بنفسه إلى أن عوفى فأحب الطنبغا أن ينشئ له جامعا تجاه ربع الأمير طغجى خارج باب زويلة ويعلق الأستاذ محمد رمزى[2] على موقع الجامع فيقول : ذكر المؤلف (ابن تغرى بردى) أن هذا الجامع تجاه ربع الأمير طغجى خارج باب زويلة والصواب أنه لم يكن أمام هذا الربع الذى كان مكانه بشارع الحلمية ، بل أنه يقع فى شارع التبانة بقسم الدرب الأحمر بالقاهرة خارج باب زويلة كما ذكر المقريزى . وفى سنة ٧٣٨ هـ اشترى الماردانى عدة دور من أربابها بغير رضاء أصحابها وندب[3] السلطان النشو لعمارة الجامع المذكور ، فطلب النشو أرباب الأملاك وقال لهم : الأرض للسلطان ولكم قيمة البناء ، وما زال بهم حتى ابتاعها منهم بنصف ما فى مكاتبهم من الثمن ، وكانوا قد أنفقوا فى عمارتها بعد مشتراها أموالا طائلة ، فلم يعتد لهم النشو منها بشئ . ثم تولى النشو عمارة جامع الماردانى حتى أتمه فى أحسن صورة وجاء مصروفه[4] ثلثمائة ألف درهم ونيف ، سوى ما أنعم به عليه السلطان من الخشب والرخام وغيره .



(شكل ٢١) جامع الماردنى

(١) النجوم الزاهرة : جـ ٩ ص ١١٢
(٢) النجوم الزاهرة : جـ ٩ ص ١١٢ هامش (٣)
(٣) النجوم الزاهرة : جـ ٩ ص ١١٢
(٤) النجوم الزاهرة : جـ ٩ ص ١١٢

وصف الجامع

يتكون الجامع من شكل مربع تقريبا إذ يبلغ عرضه (٢٠) م وطوله (٥ر٢٢) مترا يتوسطه صحن مكشوف تحيط به الأروقة من جميع الجهات . وبوسط الصحن توجد فسقية من الرخام مثمنة الشكل[1] للوضوء يعاوها قبة خشبية نقلت إليه من السلطان حسن سنة ١٣١٧ هـ سنة ١٨٩٩ م وللجامع ثلاثة أبواب ، الغربي منها يتوسط الجدار وهو مدخل تذكارى قليل البروز ويتقدمه قلبة من الدرجات ويؤدى إلى مجاز يقطع الأروقة الغربية إلى نصفين ويسير حتى الصحن . أما البابان الشمالى والجنوبى فهما متقابلان ويؤدى كل منهما إلى مجاز يسير حى الصحن ، ويفصل الأروقة الشمالية والجنوبية عن أروقة ايوان القبلة .

الواجهة الرئيسية :

تقع الواجهة الرئيسية للجامع فى الضلع الشمالى حيث يوجد المدخل الرئيسى للجامع الذى يبرز عن سمت الحائط بمقدار (٥ر٢ م) ، وهو من الأمثلة القليلة فى عمارة مصر الإسلامية التى تعرف باسم المداخل التذكارية ، فقد ظهر أول مثال لها فى مصر فى جامع الحاكم ثم فى جامع الظاهر بيبرس . ويتوسط هذا المدخل العميق باب يكتنفه مكسلتان ، عند طرفيهما الخارجى يوجد عمودان مثمنان تيجانهما على شكل (رمانة) وبعد سبع مداميك من الحجر الأبلق الذى بنيت به الواجهة يوجد عمودان مماثلان يكادان يصلان إلى نهاية الواجهة . ويعلو فتحة الباب عتب يحتوى على صنجات معشقة ملبسة بزخارف خزفية زرقاء غاية فى الدقة والابداع ، وهى نادرة المثال . ويلتف بهذا العتب شريط عرضه (٢٥) سم يحتوى على زخارف نباتية ، تشبه تلك التى عثرنا عليها فى ضريح السادات الثعالبة ثم فى المدرسة الصالحية والتى استمرت تقريبا طوال العصر الأيوبى وحتى عصر المماليك البحرية . ويعلو هذا الشريط عقد عاتق يحتوى على صنجات معشقة باللونين الأبيض والأحمر . ويعلو العقد نافذة مربعة تقريبا ملئت بمصبعات

---

(١) على مبارك : جـ ٦ ص ١١٧

معدنية ، ويكتنفها زخارف نباتية بالطوب الارابيسك وهى ملبسة بالرخام . ويعلو النافذة أربعة صفوف من المقرنصات الصغيرة والدلايات المنتظمة فى أشكال هندسية بديعة ويأتى بعد ذلك الإطار المستطيل الذى يحيط بالمدخل كله . ويحتوى هذا المدخل على كتابة نصها : بسم الله الرحمن الرحيم « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر » وكان الفراغ من هذا الجامع المبارك فى شهر رمضان المعظم سنة أربعين وسبعمائة .

ويتوسط الواجهة الغربية الباب الغربى وهو من الأبواب العظيمة حلى بمقرنصات ودلايات جميلة التنظيم تختلف عن تلك التى وجدت فى المدخل الرئيسى وقد كتب على هذا الباب النص التالى : بسم الله الرحمن الرحيم « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا » أنشأ هذا الجامع المبارك من فضل الله وكرمه العبد الفقير إلى الله تعالى ألطنبغا الملكى الناصرى وذلك فى شهور سنة تسع وثلاثين وسبعمائة للهجرة النبوية عليه السلام » .

أما الباب الجنوبى فهو أبسطها ، وقد حليت الأبواب الثلاثة من الداخل بالرخام وبزخارف حجرية نباتية كانت فى الأصل ملونة . ويعلو كل باب منها نافذة من القاشانى المرسوم باللونين الأزرق والأسود على أرضية بيضاء تحت الطلاء . وكانت مصاريع هذه الأبواب من الخشب ومصفحة بالمعدن ذى الزخارف الهندسية على شكل الأطباق النجمية المكفتة بالفضة الذهب . وقد نقلت إلى متحف الفن الإسلامى بالقاهرة الآن ، عندما قامت لجنة لحفظ الآثار العربية بإصلاح الجامع وترميمه (سنة ١٣١٤ هـ ـ ١٨٩٦ م) .

وتتكون الأروقة الثلاثة الشمالية والجنوبية وكذا الغربية من صفين من البوائك التى تقوم على أعمدة اسطوانية وأخرى ثمانية ، الأولى تيجانها عبارة عن ثلاثة صفوف من الدلايات والمثمنة تيجانها رمانية الشكل . ويعلو هذه الأعمدة عقود شبه مدببة ممتدة (Stilted) وهى مبنية من الحجر الأبلق . وقد فتح فى خواصر (Spenderels) العقود عقود صغيرة للإضاءة ولتخفيف الضغط الطارد على الأعمدة ويتوج واجهات الإيوانات شرافات مسننة محلاة بزخارف ، كسى أعلاها بقطع مفرغة من الخزف ، وعلى أبعاد مختلفة أقيم فوق بعض الشرافات حوذ مخوصة انتهت بالحلية الخزفية ، تشبه تلك الموجودة

بجامع الناصر محمد بالقلعة . كما حليت واجهات العقود بزخارف هندسية مستديرة ونجمية وعقود محارية تشبه تلك الموجودة بالجامع الطولونى وجامع الأزهر .

أما الرواق الشرقى وهو رواق القبلة فهو أكبرها إذ يحتوى على أربع بوائك تحتوى كل بائكة على عشرة عمد تحمل أحد عشر عقدا فيما عدا البائكة المجاورة لحائط القبلة إذ تحتوى على أربعة أعمدة فقط فقد شغل الركن الجنوبى الشرقى حجرة لها باب يفتح فى الرواق الأول أما الركن الشمالى الشرقى فقد ترك واقتطع من مساحة الجامع . والرواق الشرقى غنى بزخارفه المتعددة ، فقد أقيمت عقود على عمد من الرخام والجرانيت الأحمر الوردى . وقد زخرفت الحوائط التى تعلو هذه العقود وكذا السقوف بزخارف زيتية مذهبة . كما كسيت الجدران إلى ارتفاع ثلاثة أمتار بفسيفساء رخامية وصدفية وبرسوم هندسية بديعة كما احتوت على كتابات بالخط الكوفى المربع بالرخام الأخضر جاء فيها : لا إله إلا الله محمد رسول الله » « واسم « محمد » مكرر ، ويتوسط بعضها دوائر كتب حولها «بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون » ثم ينتهى بافريز رخامى على شكل شرافات .

ويعد محراب جامع الماردانى من أروع الأمثلة الموجودة بالقاهرة فقد زخرف تجويفه بمجموعة كبيرة من زخارف الفسيفساء الرخامية والصدفية الدقيقة الجميلة التنسيق والترتيب . كما يتوجه طاقية زخرفت كذلك بالرخام الأسود والأحمر والفيروزى . ويجاور المحراب منبر خشبى مكون من حشوات مجمعة على أطباق نجمية مطعمة بالعاج والصدف . وقد حدث أن سرق نحو من أربعين حشوة من حشواته ونقلت إلى أوربا ثم أعيدت إلى مصر لبيعها فاشترتها لجنة[1] حفظ الآثار العربية (سنة ١٣٢٠ هـ - ١٩٠٢ م) وأعادتها إلى منبرها الأصلى .

ويتقدم المحراب قبة كبيرة تمتد إلى رواقين وتقوم على ثمانية أعمدة من الجرانيت الأحمر تيجانها عبارة عن زهرة اللوتس المفتوحة ، وتقوم القبة على مقرنصات خشبية

---

(١) حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ص ١٥١

مطلية بزخارف مذهبة ، ويحيط بمربعها افريز خشبي عليه كتابات مذهبة . وقد انحصر بين أركان القبة نوافذ ملئت بزخارف جصية معشقة بالزجاج المتعدد الألوان .

كما يوجد برواق القبلة دكة للمبلغ من الرخام تقوم على اثنى عشر عمودا من الرخام . ويحيط بجدار هذا الرواق نوافذ طليت حوافها بطلاء مذهب وملئت بمصبعات معدنية ، ويعلو هذه النوافذ المعدنية أخرى من الجص المغشق بالزجاج الملون . ويحتوى هذا الرواق على ثلاثة نصوص كتابية تشمل اسم المنشئ وتاريخ الانشاء ، لعل أهمها الشريط الذى يقع على يمين المنبر ، جاء فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذا الجامع المبارك العبد الفقير إلى الله تعالى الراجى عفو ربه الطنبغا الساقى الملكى الناصرى وذلك فى شهور سنة أربعين وسبعمائة وصلى الله على سيدنا محمد وآله » ، ويفصل هذا الرواق عن الصحن مقصورة من الخشب الخرط يعلوه شريط عريض حفرت فيه زخارف نباتية جميلة يتخللها آيات قرآنية من سورتى الفتح والنجم .

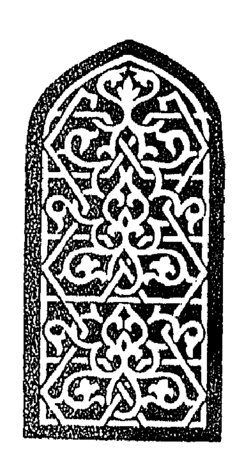
وتقع مئذنة الجامع فى الضلع الشمالى له بجوار المدخل الرئيسى من جهته اليمنى وهى تتكون من ثلاثة طوابق حفلت أبدانها بزخارف متعددة محفورة فى الحجر . وتقوم المئذنة على قاعدة مربعة فوق سطح الجامع ثم يأتى الطابق الأول وهى مثمنة يحتوى كل ضلع منها على حنية معقودة فتح فى أربع منها نوافذ تتقدمها ساقطات . أما الطابق الثانى فهو مثمن ولكنه خال من الحنيات والفتحات ، أما الطابق الثالث فهو عبارة عن جوسق يقوم على ثمانية عمد يعلوها خوذة . ويفصل بين الطابق الأول والثانى والثالث شرفة ذات ستة عشر ضلعا من الحجر المخرم ويرتكز على ثلاثة صفوف من الدلايات .

ويحدثنا المقريزى[1] عن المهندس الذى كان له الفضل فى إنشاء هذا الجامع الذى يعتبر من الدرر التى أنشئت فى عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون فيقول : كان ابن السيوفى كبير مهندسى دولة الناصر محمد ، فهو مهندس المدرسة الاقبغاوية بالأزهر

---

(١) المقريزى : ج ٢ ص ٣٨٤

وهى التى تقع على يسار الداخل إلى الأزهر من بابه الكبير المعروف باسم باب المزينين . وهى الآن مقر الخزانة الأزهرية . وقد وصفها المقريزى فقال : وجعل بجوارها قبة ومنارة من حجارة منحوتة ، وهى أول مئذنة بديار مصر من الحجر بعد المنصورية ، وإنما كانت قبل ذلك تبنى بالآجر ، بناها هى والمدرسة المعلم ابن السيوفى رئيس المهندسين فى الأيام الناصرية ، وهو الذى تولى بناء الجامع الماردينى خارج باب زويلة وبنى مئذنته أيضا .



مسجد الست مسكة

بحى الحنفى بالسيدة زينب

كانت الست مسكة من جوارى السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، كما يقول المقريزى ولكنها استطاعت رغم قلة شأنها الاجتماعى أن تلعب دورا هاما فى حياته الخاصة وحياته العامة ، فقد كانت هى الجندى الذى يشد من أزره فى كل النوائب والشدائد التى توالت عليه من خلع وتشريد المرة تلو الاخرى ، فكانت هى التى تجلسه على كرسى السلطنة فى كل مرة ولكن من وراء ستار .

لقد تزوج السلطان منصور قلاوون بعد توليه الحكم بسنتين بزوجة ثانية تسمى (أشلون خوندا) وهى أميرة مغولية كانت تعيش مع والدها الذى وفد إلى مصر فرارا من غضب سلطان المغول عليه ، وعند مجيئه إلى مصر أحضر معه جميع أفراد أسرته من النساء والأطفال بصفة خاصة ومن بينهم فتاة فائقة الحسن والجمال تقرب من سن ابنته الأميرة (أشلون) تدعى (جلشانة) وهى التى عرفت فيما بعد باسم الست مسكة . ولعل هذا الاسم مأخوذ من اسمها القديم إذ أنه بعض معناه ، لأن لفظ (جلشاه) فارسى مكون من كلمتين جل بمعنى الورد وشأن مثل أى مثل الورد .

وعاشت (أشلون خاتون) مع زوجها قلاوون فى قلعة الجبل عيشة سعيدة هانئة فى قصر غاية فى الابهة والعظمة يتناسب مع عظمة عمائر قلاوون حتى سمى بحق المعمارى الأكبر . فقد كانت سقوف القصر مذهبة وجدرانه منمقة بالألوان الزيتية والفسيفساء الزجاجية وأرضيته مرخمة بأجود أنواع الرخام ونوافذه مغشاة بالزجاج (المعشق) المتعدد

الألوان ونافورات قاعاته تفيض بالماء فتضفى على المكان سحرا وجمالا . وفى هذا القصر وفى منتصف المحرم من سنة أربع وثمانين وستمائة بعد الهجرة (١٢٨٥ م) ولد للسلطان قلاوون ولده الناصر محمد ، وكان من الطبيعى أن تختار الملكة (أشلون) مربية أمينة تثق بها لكى تضع بين يديها وليدها وفلذة كبدها فلم تجد خيرا من قريبتها مسكة . وهكذا نرى أن الست مسكة تولت رعاية الناصر محمد منذ أن كان طفلا رضيعا فى لفائفه . وقد أظهرت مسكة حزما وعناية خاصة فى تربية الناصر محمد فلما توفى أخوه السلطان خليل ، لم تكن شخصية الناصر محمد قد تكونت بعد ، فهو لايزال صغيرا فى التاسعة من عمره ، فلم يكن له على الأمراء نفوذ ، ولكن الست مسكة استطاعت بفضل ذكائها وقوة شخصيتها وحنكتها السياسية أن تأخذ البيعة من الأمراء لابن قريبتها ، وأصبح سلطانا على مصر . وقد ظهر اخلاص الست مسكة ووفاؤها للناصر محمد فى كفاحها وسعيها المستميت فى المرات الثلاث التى خلع فيها لإعادته إلى عرش السلطنة .

ولما تقدمت السن بالست مسكة صارت قهرمانة لقصر السلطان يقتدى برأيها فى عمل الاعراس السلطانية والمهمات الجليلة التى تعمل فى الأعياد والمواسم وترتيب شئون حريم السلطان وقد امتد بها العمر واستطاعت أن تجمع ثروة كبيرة من الأموال والهدايا التى كان يغدقها عليها السلطان وحاشيته طمعا فى التقرب من السلطان أو رغبة فى قضاء حاجياتهم عنده . وكانت الست مسكة كريمة خيرة فقد حبست كثيرا من الأموال الجارية على الفقراء ، كما قامت بكثير من أعمال البر والصدقة .

وجاء فى السلوك للمقريزى فى أحداث اثنتين وعشرين وسبعمائة «أهل المحرم ووصل أوائل الحجاج ، وفى اليوم الحادى عشر وصل القاضى كريم الدين الكبير والأمير فبجليس صحبه خاتون طغاى (زوجة السلطان) وخرج السلطان إلى لقائها ببركة الحاج ومد سماطا عظيما ، وخلع على سائر الأمراء وأرباب الوظائف القهرمانات ، مثل الست حدق المعروفة بالست مسكة ونساء الأمراء ودخل الجميع إلى منازلهم فكان يوما مشهودا » . وجاء فى الدرر الكامنة لابن حجر «حدق القهرمانية الناصرية ، كان الناصر محمد جعل

إليها أمور نسائه فتحكمت فى داره تحكما عظيما حتى صار لايقال لها ، إلا الست حدق ، وحجت مرة فضرب المثل بما فعلته من الخيرات وعمرت جامعا ظاهر القاهرة ، وكان يقال لها ست مسكة ، فربما قيل للجامع ست مسكة » ومن النصوص السابقة يتبين لنا أن حدق ومسكة اسمان لشخصية واحدة هى مربية السلطان الناصر محمد بن قلاوون .

ويذكر المقريزى فى خططه عند كلامه عن الاحكار « أن الست حدق كان لها حكر يعرف اليوم (أى فى القرن الخامس عشر) بالمريس وكان بساتين من بعضها بستان الخشاب (وهو الحى المعروف الآن بالمنيرة وجاردن سيتى) فعرف بالست حدق من أجل أنها أنشأت هناك جامعا كان موضعه منظره السكرة فبنى الناس حوله وأكثر من كان يسكن هناك السودان ، وصار به عدة مساكن وسوق كبير يحتاج محتسب القاهرة أن يقيم به نائبا عنه للكشف عما يباع من المعايش » .

ثم يتكلم بعد ذلك عن حكر الست مسكة فيقول «هذا الحكر بسويقة السباعين بقرب جوار حكر الست حدق عرف بالست مسكة لأنها أنشأت به جامعا وهذا الحكر كان من جملة بستان الزهرى ثم أفرد وصار بستانا تنقل إلى جماعة كثيرة وحل محله الآن حى جنينة قاميش وجنينة لاظ بالسيدة زينب ، فلما عمرت الست مسكة فى هذا الحكر الجامع بنى الناس حوله حتى صار متصلا بالعمارة من سائر جهاته وسكنه الأمراء والأعيان وأنشأوا به الحمامات والأسواق وغير ذلك » ثم يضيف المقريزى ، « وكانت حدق ومسكة من جوارى السلطان الناصر محمد بن قلاوون نشأتا فى داره » . من هذا يتبين لنا أن حدق ومسكة اسمان لسيدتين وليسا لسيدة واحدة .

إلا أن المقريزى يعود مرة أخرى فيذكر فى كتابه السلوك فى حوادث سنة ٧٤١ هـ «أنشأ السلطان الناصر محمد الميدان الكبير على النيل ، وخرب ميدان اللوق الذى أنشأه الظاهر بيبرس وعمله بستانًا حملت إليه الأشجار من دمشق وغيرها (ميدان الأزهار الآن) . واقتدى به الأمراء فى العمارة فحكروا الأراضى وعمروها للناس ليسكنوا فيها . وأخذ بقية الأمراء جميع ما كان من البساتين والجنينات ظاهر القاهرة وحكروها ، وحكرت الدادة حدق ،

وهى المعروفة باسم الست مسكة القهرمانية حكرين عرفا بها فجاءا من أحسن الأحكار ، وأنشأت لكل واحد منهما جامعًا تقام به الجمعة » . يتضح لنا الآن بعد هذه الروايات المتضاربة أن حدق ومسكة اسمان لشخص واحد وإذا افترضنا جدلا أنهما شخصان فإنهما متماثلتان تمامًا فى كل شىء وأن ما يقال عن إحداهما ينطبق على ما يقال عن الأخرى .

وكانت الست مسكة علمًا من أعلام عصر الناصر محمد وأبنائه من بعده ، لذلك فقد عمد المؤرخون على ذكر اسمها فى كل الأحداث التى تتعلق بحياة السلطان الخاصة أو بقصره ، فقد جاء فى السلوك مثلا عند الكلام عن مرض السلطان « فلما عوفى (السلطان) زينت القاهرة ومصر وتفاخر الناس فى الزينة بحيث لم تعهد زينة مثلها ، وأقامت أسبوعًا تفنن أهل البلد فيه بأنواع الترف ، ونزلت ست مسكة فى عدة من الخدام والجوارى حتى رأت الزينة ، وقد اجتمع أرباب الملاهى فى عدة أماكن بجميع آلات المغنى » .

وكانت للست مسكة حظوة ومكانة جليلة عند السلطان ، ومن ثم فقد كان الناس يسعون إليها للتوسط لهم لدى السلطان . فقد حدث أن توسط جماعة من الأمراء الأكابر فى حق جماعة من التجار فلم يسمع السلطان لأحد منهم قولا . وتوسطت ست مسكة وأم آنوك ابن السلطان فى رفع الظلم عن تاجر الزمه الأمير شرف الدين استادار القصر السلطانى بألفى دينار فطلب السلطان الاستادار وأنكر عليه ذلك وتجهم له ، فانصرف على غير رضى » .

وكما تفانت الست مسكة فى خدمة السلطان الناصر محمد ، كذلك حفظت له الود فى أبنائه أحفاد قريبتها (الملكة أشلون) . فقد حدث عندما أراد المماليك خلع السلطان الناصر حسن ، أن أرسلوا إليه الأمير صرغتمش (أحد خواصه) ليأخذه ويحبسه ، وهنا يقول المقريزى « فطلعوا إلى القلعة راكبين إلى باب القصر الأبلق ودخلوا إلى الناصر حسن وأخذوه من بين حريمه ، فصرخ النساء صراخًا عظيمًا ، وصاحت الست مسكة على صرغتمش صياحًا منكرًا وسبته وقالت « هذا جزاؤه منك » فأخرجه صرغتمش وقد غطى وجهه إلى الرحبة ، ووكل به من يحفظه » وقد أصرت ست مسكة على ملازمته وخدمته فى سجنه فرتب لها فى كل يوم مائة درهم تصرفه على خدامه من خزانته الخاصة .

ولعل خير ما نختم به ترجمة حياة هذه الست الفاضلة وسيرتها العطرة ، موقفها الأخير

من السلطان حسن الذى عبر أصدق تعبير عن حنان فياض ووفاء منقطع النظير خاصة فى العصر المملوكى . وذلك عندما ضيق أمراء المماليك على الناصر حسن فى سجنه ، فسدت عنه أماكن كثيرة كان ينظر منها ويحدث من يريد ، وكما يقول المقريزى « احتفظ به احتفاظًا زائدًا » ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل ذهبوا إلى ست مسكة (أكبر وأقوى أنصاره) وخيروها إما أن تتركه فى سجنه وترحل أو تلتزم بأن لاتجتمع أو ترى أحدًا . ولكنها بطبيعة الحال فضلت الأمر الثانى على أن تتركه بمفرده ، وانتهى بها الأمر أن توفيت فى السجن معه .

* * *

(شكل ٢٢)

(شكل ٢٣)

وصف الجامع

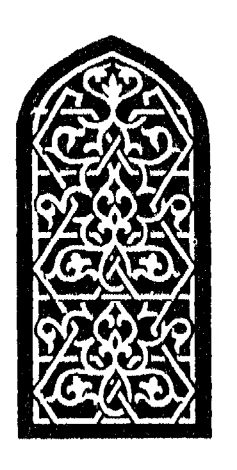
يقع جامع الست مسكة كما يقول المقريزى بالقرب من قنطرة آق سنقر التى على الخليج الكبير ومكان هذه القنطرة الآن فى شارع بور سعيد (الخليج سابقًا) محطة ترام سنقر التى تصل بين شارع بور سعيد والحلمية من جهة وبينه وبين حى الحنفى فى السيدة زينب من جهة أخرى ، ومنشىء القنطرة هو الأمير شمس الدين آقسنقر (شاد العمائر) أكبر مهندسى السلطان الناصر محمد بن قلاوون .

وجاء فى الخطط التوفيقية أن جامع الست مسكة بسوق مسكة قرب جامع الشيخ صالح أبى حديد بخط الحنفى . ويتكون الجامع من مستطيل يتوسطه صحن مكشوف وتحيط به الأروقة من جميع الجهات . ويحتوى إيوان القبلة على ثلاث من البوائك تقسمه إلى ثلاثة أروقة ، وتتكون البوائك الداخلية من أعمدة رخامية تعلوها عقود نصف دائرية ، أما البوائك التى تحيط بالصحن من جميع جهاته فتتكون من دعائم مبنية من الحجر يعلوها عقود نصف دائرية وقد فتحت فى خواصر العقود (كوشة العقد) نوافذ عقودها ذات زوايا ، القصد منها إضاءة الإيوانات الأربعة إلى جانب الزخرفة . وفى الجدار الشمالى والجنوبى لإيوان القبلة توجد فتحات قنديلية الشكل مغشاة بالزجاج الملون ، سقط معظمه الآن .كما يوجد فى الجدار الشمالى بابًا حجرتين سدتا الآن .

ومنبر الجامع من خشب الساج الهندى والأبنوس ومطعم بالصدف والعاج ومصنوع بطريقة الحشوات المجمعة على الأطباق النجمية ومكتوب على بابه « إنما يعمر مساجد الله . . . . إلى آخر الآية » وكان الفراغ من الجامع المبارك سنة ست وأربعين وسبعمائة وقد زخرفت حنية قبلته بالفسيفساء الزجاجية والرخامية وفصوص من الذهب الخالص . وأذكر بهذه المناسبة أن مجلة أسبوعية أشارت منذ بضع سنين إلى وجود فصوص ذهبية فى قبلة الجامع ، فكانت النتيجة خلع اللصوص لمعظم هذه الفصوص الذهبية .

وسقف الجامع من الخشب المنقوش برسوم زيتية غاية فى الابداع إلا أنهابحالة سيئة للغاية الآن . ودكة المبلغ محمولة على ثمانية أعمدة رخامية ، ويحيط بجدران المسجد من الداخل أزار خشبي نقشت عليه بالخط الثلث المملوكى أبيات من نهج البردة ، ولكن للأسف فقد اختفى معظم هذا الأزار .

وبالركن الشمالى الغربى يوجد ضريح الست مسكة وأحد أتباعها ، وهو عبارة عن غرفة مربعة تعلوها قبة تشبه قبة الإمام الشافعى وقبة الصالح نجم الدين أيوب ، وفوق المقبرة مقصورة خشبية ، وللجامع بابان أحدهما بالجهة الغربية وهو المدخل الرئيسى والثانى بالجهة الجنوبية وما يزال يحتفظ بالكتابات التى نقشت عليه منذ إنشائها ونصها كما يلى : « بسم الله الرحمن الرحيم أمرت بإنشاء هذا الجامع المبارك الفقيرة إلى الله تعالى الحاجة إلى بيت الله الزائرة قبر رسول الله عليه الصلاة والسلام الست الرفيعة مسكة سنة ست وأربعين وسبعمائة » ويحيط بالجامع من الخارج شريط حجرى منقوش فيه بالخط الثلث المملوكى سورة يس .



الجامع الإسماعيلى

بالناصرية بالقاهرة

أنشأ هذا الجامع الأمير أرغون شاه الإسماعيلى الكاملى نائب مدينة حلب ودمشق . وكان أرغون أحد مماليك الملك الناصر محمد بن قلاوون فلما توفى الناصر محمد وزعت مماليكه على أبنائه الذين بلغ عددهم أحد عشر ولدا تولى السلطنة بعده ثمانية منهم . وكان أرغون من نصيب ابنه الملك الصالح إسماعيل ، الذى كان ترتيبه الرابع فى تولى عرش السلطنة بين أبناء الناصر محمد بن قلاوون . وكان أرغون حسن الخلقة والخلق ذكيًا شجاعًا مقدمًا فتبناه الملك الصالح إسماعيل وزوجه أخته من أمه ، وهى الأميرة خوند العلائلى ابنة الأمير أرغون العلائلى وكان ذلك فى سنة ٧٤٥ هـ . وقد عرف أرغون منذ زواجه باسم أرغون الصغير للتفرقة بينه وبين حميه أرغون العلائلى ، فلما تولى نيابة حلب ودمشق حذف اسم الصغير وأصبح يطلق عليه اسم أرغون شاه . وبرغم وفاة السلطان الصالح إسماعيل ، فإن الأمير أرغون بقى محافظًا على مكانته لدى السلاطين الأربعة اخوة الصالح إسماعيل الذين تولوا بعده .

وقد يكون من المفيد أن نذكر الوصف الدقيق الذى أورده المقريزى فى كتابه الخطط والآثار للوظائف التى تقلدها أرغون الإسماعيلى حتى نعطى فكرة واضحة عن بعض وظائف الدولة وماهيتها فى مصر فى العصر الوسيط .

يقول المقريزى : لما مات الملك الصالح إسماعيل وقام من بعده أخوه الملك الكامل شعبان أعطى أرغون « امرة مائة (مملوك) وتقدمه بألف (مملوك) » ونهى أن يدعى أرغون

الصغير وتسمى أرغون الكاملى . وفى عهد السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون تولى أرغون نيابة حلب فقام بالنيابة على أحسن ما يكون من الحرمة والمهابة ، وهابه التركمان والعرب ومشت الأحوال به ثم جرت له فتنة مع أمراء حلب فخرج منها » . وهنا يؤكد ـ المقريزى ما كان يتمتع به الأمير أرغون من حظوة لدى السلطان فيقول « لما وصل أرغون مصر سنة ٧٥٢ هـ بعد فتنة أمراء حلب ، أنعم عليه السلطان ، وأعاده معززًا مكرمًا مع جند السلطان إلى حلب مرة ثانية فأقام بها حتى نقل منها إلى نيابة دمشق وأقام بها فلم يصف له بها عيش فاستعفى فلم يجب لفرط ثقة السلطان فيه . وما زال بدمشق حتى ثار (يلبغا) على السلطان وخرج بجيش واستولى على دمشق فخرج أرغون إلى (اللد) فذهب السلطان بنفسه على رأس عساكره والتقى بأرغون فأخذه معه إلى دمشق فاضطر (يلبغا) إلى الفرار وبذلك قضى السلطان الملك الصالح على الفتنة التى أحدثها (يلبغا) . وفى هذه المرة استجاب لرغبة أرغون وأعفاه من العمل فى نيابة دمشق وأعاده للمرة الثالثة إلى نيابة حلب وكان ذلك سنة ٧٥٤ هـ .

وقد وقف الأمير أرغون مواقف إنسانية كثيرة فى النزاع الذى كثيرًا ما يحدث بين السلاطين ومماليكهم ومن ذلك ما نشأ بين السلطان الكامل شعبان وبين أخويه الأمير حاجى والأمير حسين فقد ورد فى ابن اياس فى حوادث سنة ٧٤٧ هـ : أن السلطان طلب أخويه الأمير حاجيا والأمير حسينا ، فأرسل إليهما الساقى سرور الزينى فقال لهما أمضيا ، كلما السلطان . فقالا نحن اليوم ضعاف وقد شربنا الدواء . ولكن السلطان أعاد الكرة وأرسل رسولا آخر وألح فى طلب حضورهما ، ولكنهما رفضا بحجة المرض وكان عدم حضورهما للسلطان سببًا فى غضبه غضبًا شديدًا . وأرسل إليهما الأمير أرغون العلائى زوج أم السلطان ، فأخرجهما غصبًا وهما يتباكيان ، فلما حضرا بين يدى السلطان قبلا له الأرض وقالا له (يا مولانا السلطان لاتؤاخذنا فإننا كنا شربنا الدواء » فقال لهما السلطان كذبتما ما أنتما إلا مخامران على» فأخرج الأمير حاجى ختمة كانت معه وحلف عليها أنه ما امتنع عن الحضور إلا لكونه ضعيفًا وشرب الدواء ، فلم يصدقه السلطان فى ذلك ، ثم جاءت أماهما وحلفتا للسلطان وكشفتا رموشا مؤيدتين رواية الأميرين ، فلم يقبل السلطان منهما ذلك ، ثم أمر بإدخال أخويه فى موضع الدهيشة (بالقلعة) وأمر أن يبنى عليهما بالحجر والجير والجبس

ويجعل ذلك المكان قبرًا لهما . فلما سمع بذلك الأمير أرغون عقد العزم هو وجماعة من أمراء المماليك على منع السلطان من القيام بهذه الفعلة الشنعاء مع أخويه البريئين ، استعدوا لمحاصرته فى قصره ومنعوه من إتمام فعلته وكانت النتيجة ، خلعه من العرش وتولية أخيه حاجى مكانه .

وقد اشتهر أرغون شاه بين زملائه بالوفاء بالعهد وكرم الأخلاق إلى جانب ما اتصف به منذ نعومة أظفاره بالورع والتقوى ومع ذلك فإن أرغون لم ينج من المؤامرات التى كانت تحاك حوله والتى كان آخرها المؤامرة التى أودت بحياته والتى جاء وصفها فى ابن اياس فى أحداث سنة ٧٥٨ هـ إذ يقول : فيها جاءت الأخبار بأن أرغون شاه نائب الشام قتل تحت الليل وسبب ذلك أن الأمير نائب طرابلس دخل دمشق فى جماعة كثيرة من عسكر طرابلس. وكان أرغون شاه نائب الشام مقيمًا بالقصر الأبلق بدمشق ، فدخل عليه نائب طرابلس وهو نائم بين عياله فقبض عليه وقيده وسجنه بقلعة دمشق ، فلما أصبح الصباح ، طلب نائب طرابلس القضاة والأمراء بدمشق وأخرج لهم مرسوم السلطان بالقبض على أرغون شاه نائب الشام فعند ذلك سكن ما كان بين الناس من اضطراب ، وظنوا أن ذلك صحيح . ولم يمض أرغون يومين فى السجن حتى وجدوه مذبوحًا ، فأحضر نائب طرابلس القضاة وكتب محضرًا فى شأن ذبح أرغون شاه بأنه وجد فى السجن مذبوحًا ولا يعلم من فعل ذلك » ولما علم أمراء دمشق أن السلطان لم يكن له علم بكل ماحدث للأمير أرغون بعثوا إليه رسولًا يحيطه علمًا بما جرى لنائبه فى دمشق فأرسل أمرًا إلى عسكر دمشق بمحاربة نائب طرابلس وجاء فى مراسيم السلطان التى جاءت إلى دمشق ، إذا ظفرتم به فاشنقوه على باب دمشق ، فلما ظفروا به شنقوه وعلقوه على باب قلعة دمشق كما رسم السلطان » . وهكذا انتهت حياة الأمير أرغون شاه هذه النهاية الأليمة .

ويختلف المقريزى مع ابن اياس فى ذكر المؤامرة التى أودت بحياة الأمير أرغون فيقول : فلما خلع الملك الصالح وتولى أخوه الملك الناصر حسن للمرة الثانية سنة ٧٥٥ هـ ، وطلب الأمير أرغون من حلب فحضر إلى مصر وعمل (أمير مائة ومقدم ألف) حتى سنة ٧٥٦ هـ عندما كاد له بعض حساده لدى السلطان ، فأمسك وحمل إلى الاسكندرية ومعه زوجته ،

ثم نقل من الاسكندرية إلى القدس فأقام بها بطالا ، وبنى هناك تربة ومات بها سنة ٧٥٨ هـ » .
ومع اختلاف روايتى ابن اياس والمقريزى فى كيفية موت الأمير أرغون ، إلا أنهما اتفقا على أنه مات ودفن بدمشق وليس بمصر .

ويقول المقريزى أن الأمير أرغون كانت له دار بالجسر الأعظم على بركة الفيل أنشأها سنة ٧٤٧ هـ وأدخل فيها من أرض بركة النيل عشرين ذراعًا . . ويضيف على مبارك فى خططه فى تعيين مكان الدار فيقول : ومحلها الآن الحوش المقابل لجامع الجاولى المعروف بحوش إبراهيم شركس وما جاورها إلى الحوض المرصود . ومن منشآت الأمير أرغون الإسماعيلى الهامة فى القاهرة جامعه المعروف باسم (الجامع الإسماعيلى) الذى أنشأه على بركة الناصرية فى شعبان سنة ٧٤٨ هـ ، والذى يعرف الآن بحى الناصرية .

أما عن تاريخ حى الناصرية فيقول المقريزى : كان هذا الحى من جملة أراضى بستان الخشاب الذى يقع بين المدينة ومصر (أى الفسطاط والعسكر والقطائع) وكان هذا الموضع قبل ذلك مغمورًا بمياه النيل . وفى سنة ٧١٤ هـ أنشأ السلطان الناصر محمد بن قلاوون ميدانًا فى هذا المكان عرف بالميدان الناصرى . وغرست فيه الأشجار وأحيط بالبساتين والمتنزهات وكان من أجمل الميادين لأنه يطل على النيل ، وكان السلطان يركب إليه من القلعة دائمًا كل يوم سبت فى الأيام الشديدة الحرارة بعد وفاء النيل ، ويستمر تردده على هذا الميدان مدة شهرين من كل عام . وكان خروجه إلى هذا الميدان فى موكب رسمى يعتبر بناء على وصف المقريزى له ، استعراضًا لقوات السلطان وجنده : إذ كانت تخرج معه فرق الخيالة من الأمراء ، واستجد (استحدث) ركوب الأوجاقية بكوافى (جمع كوفية) الزركش على صفة الكاسات فوق رءوسهم فيركب منهم اثنان بثوبى حرير أطلس أصفر وعلى رأس كل منهما كوفية ذهب وتحت كل واحد فرس أبيض بحلية ذهب ويسيران معا بين يدى السلطان .

وفى سنة ٧٢٠ هـ أراد الناصر محمد بناء زريبة (حديقة) بجانب الجامع الطيبرسى فاحتاج فى بنائها إلى طين ، فركب إلى مكان قريب من الميدان الناصرى ، فى مكان كان يعرف فى ذلك الوقت باسم جنان الزهرى ، ثم خربت وصار موضعها كوم تراب ، وعين مكان الحفر . فلما تم الحفر هناك ظهرت بركة عرفت بالبركة الناصرية ، ونقل ماخرج

منها من الطين إلى الزريبة ثم أجرى الماء إلى البركة من قناطر السباع (ميدان السيدة زينب الآن) فلما امتلأت بالماء صارت مساحتها سبعة أفدنة ، فحكر الناس حولها وبنوا عليها الدور العظيمة وما برح خط (حى) البركة الناصرية عامرًا إلى أن كانت حوادث انخفاض مياه النيل وحدوث مجاعة عظمى سنة ٨٠٦ هـ ، فشرع الناس فى هدم ما كان عليها من الدور فهدم كثير مما كان هناك وردمت البركة ، ولكن سرعان ما عادت الحياة إلى الحى مرة أخرى وعمر مرة أخرى بالدور والمساكن .

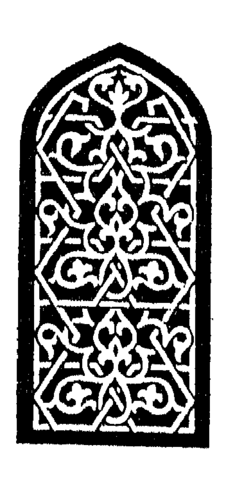
* * *

وصف الجامع

يقع جامع أرغون الإسماعيلى فى شارع الجامع الإسماعيلى ، ويقول على مبارك أن طوله يبلغ ثلثمائة وأربعين مترًا يبتدىء من شارع الدواوين وينتهى عند شارع عماد الدين . والجامع تجاه درب القرودى ويتكون من مستطيل به صف واحد من الدعائم تقسم المسجد إلى رواقين موازيين لحائط القبلة ، والجزء المستعمل الآن للصلاة نصف الجامع القديم والنصف الثانى تشغله الميضأة ودورات المياه . وقد سقطت المئذنة القديمة وأقيم مكانها مئذنة أخرى فى العصر العثمانى على شكل المسلة أو (رأس القلم الرصاص) . والشعائر الدينية مقامة فى المسجد من إيراد الأوقاف الكثيرة المحبوسة عليه . وبالمسجد منبر خشبى كتب على بابه : « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر . . الآية » وكان الفراغ فى شهر شعبان المكرم سنة ٧٤٨هـ

ويحتوى المسجد على بابين فى الجهة الجنوبية الشرقية فى جدار القبلة ، نقش على الجنوبى منهما النص التالى : « أمر بإنشاء هذا الجامع المبارك الفقير إلى الله تعالى أرغون الإسماعيلى وكان الفراغ من ذلك فى شهر شعبان سنة ٧٤٨ . والمسجد بحالة سيئة لاتتفق وماله من أوقاف محبوسة عليه لذا أرجو أن تعيره وزارة الأوقاف شيئًا من اهتمامها خاصة وهى المتصرفة فى أوقافه .

* * *



جامع آق سنقر (جامع النور)

سنة ٧٤٨هـ

بشارع باب الوزير

الأمير آق سنقر الناصرى أحد مماليك الناصر محمد بن قلاوون عينه فى عدة وظائف من أمير مائة إلى مقدم ألف وأمير شكار . شكار كلمة فارسية بمعنى صيد ، وأمير شكار إذن هو أمير الصيد[١] ، وهى وظيفة عرفت فى العصر العباسى وشاعت عند السلاجقة وانتقلت إلى المغول والمماليك .

وكانت هذه الوظيفة من الوظائف التى يشغلها عسكريون فى عصر المماليك ، وكانت عند القلقشندى الثانية والعشرين بين الوظائف العسكرية بحضرة السلطان ، وكان يشغلها فى عصره أمير عشرة[٢] ويبدو أن قيمتها ارتفعت بعد ذلك وصار يشغلها أمراء طبلخانات .

ومهمة أمير شكار هى الإشراف على الجوارح من الطيور وغيرها وسائر الصيود السلطانية وأحواش الطيور ، وتنظيم جميع أمور الصيد . ولم يقتصر استخدام هذه الوظيفة على السلطان بل كان لبعض الأمراء فى عصر المماليك أيضًا أمير شكار .

تقلب آق سنقر فى عدة وظائف ، فكان من جملة الأوشاقية فى أول أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون وكانت مهمة الأوشاق فى عصر المماليك العناية بالخيل وركوبها للتسيير والرياضة وقد ذكر القلقشندى أن الأوجاقية تركب وراء سلطان المماليك فى أسفاره مع

---

(١) السبكى : معيد النعم ص ٣٧ حاشية القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٢٢

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٢٢

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٤٨ — الضوء اللامع ص ٢٥٧

حمل السلاح . ثم أصبح آق سنقر بعد ذلك أمير أخور[1] وكان هذا الاسم يطلق على القائم على أمر الدواب من خيل وبغال وابل وغيرها فى الاصطبلات السلطانية ونقله الملك الناصر محمد بن قلاوون من تلك الوظيفة إلى وظيفة شاد العمائر السلطانية وبقى بها مدة فأثرى ثراءً كبيرًا .

وشاد العمائر السلطانية إحدى الوظائف التى كان يشغلها عسكريون بحضرة السلطان المملوكى ، وموضوعها أن يكون صاحبها متحدثًا على العمائر السلطانية مما يختار السلطان إحداثه أو تجديده من القصور والمنازل والأسوار والمساجد وغير ذلك وكان يشغل هذه الوظيفة أمير عشرة فى أول[2] الأمر ثم صار يشغلها قوم بغير أمره وكان يعاون شاد العمائر موظف آخر يسمى ناظر العمارة عند إنشاء الأماكن المهمة وكان لهذا الأخير الأمر على المهندسين والحجارين وصناع العمائر ونحوهم .

أنشأ آق سنقر جامعه الذى يقع بسويقة السباعين على البركة الناصرية وإليه تنسب قنطرة آق سنقر التى على الخليج الكبير بخط قبو الكرمانى قبالة الحبانية وأنشأ أيضًا دارًا جليلة وحمامين بخط البركة الناصرية[3] .

ولى آق سنقر أيضًا ولاية غزة بعد وفاة الناصر محمد بن قلاوون وفى دولة الكامل شعبان تلألأ نجمه وعمل على انتقال الملك إلى المظفر حاجى بن الناصر محمد ، حتى صار نافذ الكلمة ولعب دورًا كبيرًا فى سياسة الدولة[4] . وكان الناصر محمد قد زوجه إحدى بناته ، فقد كان عفيفًا عن أموال الرعية وكان حسن الحظ محبوبًا من الجميع . وقد شرع آق سنقر فى ١٦ رمضان سنة ٧٤٧ هـ[5] فى بناء جامعه بشارع باب الوزير الذى نحن بصدد الحديث عنه وأنشأ بجواره مكتبًا وسبيلا ومكانا ليدفن فيه ونقل إليه ابنه . وقد عنى بعمارته عناية كبيرة حتى أنه كان يشرف عليه بنفسه ويشجع العمال . وقد عين له المدرسين وافتتحه للصلاة فى ربيع الأول سنة ٧٤٨ هـ[6] ووقف عليه ضيعة من قرى حلب للصرف عليه وتعميره.

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٠٩
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٢٢
(٣) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٠٩
(٤) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٠٩ ، النجوم الزاهرة : جـ ٩ ص ٣٢٢
(٥) ابن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة جـ ١ ص ٣٩٤
(٦) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ص ٢٢٦

وصف الجامع

يقع هذا الجامع بشارع باب الوزير ، وهو مربع الشكل تقريبًا تقع واجهته الرئيسية فى الجهة الغربية يتوسطه المدخل الرئيسى الذى يدخل عن سمت جدران الواجهة بنحو مترين ، ويعلوه عقد محمول على كوابيل . ويتوسط المدخل باب يعلوه عتب يحتوى على صنجات معشقة من رخام أخضر وأبيض . وعلى يمين الباب يوجد صف من النوافذ حليت أعتابها بصنجات معشقة من الرخام الأبيض والأخضر كذلك ويحيط بها من أعلى حنية كبيرة مقعرة. وإلى يسار الباب نجد صفًا آخر من النوافذ مماثلة للنوافذ السابقة وهى بقبة علاء الدين كجك .

ويؤدى باب المدخل إلى استطراق نجد عن يساره قبة ، قد أنشئت قبل إنشاء الجامع ليدفن فيها السلطان الملك الأشرف علاء الدين كجك ابن السلطان الناصر محمد بن قلاوون المتوفى فى جمادى الأولى سنة ٧٤٦ ﻫ . وهى قبة مربعة فتحت فيها مجموعة من النوافذ ذات صنجات من الرخام الأبيض والأخضر تعلوها فتحات مستديرة يحيط بها إطار من الرخام الأبيض والأخضر كذلك . ويحيط بمربع القبة أفريز جصى مكتوب عليه آية الكرسى واسم المتوفى وألقابه . أما منطقة الانتقال فتحتوى على صف واحد من المقرنصات . وبالقبة لوحة من الرخام كتب عليها « بسم الله الرحمن الرحيم كل نفس ذائقة الموت ، هذه القبة المباركة عمرت لدفن الفقير إلى الله تعالى مولانا السلطان السعيد الشهيد الملك الأشرف علاء الدين كجك وكانت وفاته فى شهر جمادى الأولى سنة ست وأربعين وسبعمائة .

وللجامع واجهة جنوبية يتوسطها باب كتب عليه النص التالى : بسم الله الرحمن الرحيم إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر أمر بإنشاء هذا الجامع العبد الفقير إلى الله تعالى آقسنقر الناصرى تغمده الله برحمته وكان ابتداء عمارته سادس رمضان المعظم سنة سبع وأربعين وسبعمائة وكانت الصلاة فيه يوم الجمعة ثالث ربيع الأول سنة ثمان وأربعين

وسبعمائة وتوفى إلى رحمة الله تعالى تاسع عشر ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين وسبعمائة » .
ويجاور الباب الجنوبى مربع بسيط من البناء بداخله قبر تسوده البساطة به لوحة كتب عليها « هذا قبر المرحوم آق سنقر الناصرى المعروف بجامع النور وكان ابتداه سادس عشر رمضان سنة ٧٤٧ هـ والفراغ فى سنة ٧٤٨ هـ » .

يعلق حسن عبد الوهاب(١) على هذه المقبرة فيقول : ومن المؤكد أن هذه المقبرة حديثة ، لأن المعلوم أن آق سنقر أعد لنفسه مقبرة بجوار الجامع حلت محلها الآن الأبنية التى تحجب باقى الواجهة الجنوبية على ما أرجح . والتربة فى وضعها الحالى هى وتربة إبراهيم أغا يشغلان جزءا كبيرا من الإيوان الجنوبى ، ولم يسبق إقامة قباب أو قبور فى مثل هذا الموضع فى المساجد ، فهى من عمل إبراهيم أغا الذى بخل على المنشىء الأصلى بمقبرة تناسب عمله الخيرى العظيم وفى سنتى ١٠٦١ هـ-١٠٦٢ م أحدث إبراهيم أغا مستحفظان عمارة كبيرة بهذا الجامع عندما كان ناظرا عليه ، فغيّر فى عقود السقف التى كانت من الحجر واستبدل ما اختل منها بسقوف من الخشب وكسا الحائط الشرقى الذى فيه المحراب إلى السقف - بالقاشانى الأزرق الجميل .

ويوجد على يمين الداخل بمؤخر الإيوان الجنوبى حجرة أنشأها إبراهيم أغا ، وكسا جدرانها بالقاشانى حتى السقف ويتوسطها قبر من الرخام أنشأه فى حياته سنة ١٠٦٤ هـ ، ثم دفن فيه بعد موته ، لذلك عرف هذا الجامع باسم إبراهيم أغا مستحفظان من ذلك الوقت ويعرف على السنة العامة بالجامع الأزرق نسبة إلى مجموعة القاشانى العظيمة ذات اللون الأزرق الموجودة فيه . وكتب عليه « أنشأ هذا المكان الراجى عفو ربه ستر الله عيوبه وغفر ذنوبه هو الغفور الرحيم إبراهيم أغا مستحفظان حالا بتاريخ شهر شعبان المبارك فى سنة ١٠٦٤ هـ » .

ومثبت فوق نافذة المدفن من الخارج لوحة رخامية بتاريخ عمارته للمسجد جاء فيها : « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله » عمر وجدد هذا الجامع الشريف المبارك إبراهيم أغا مستحفظان حالا بتاريخ سنة إحدى وستين

---

(١) تاريخ المساجد الأثرية ص ١٥٤ .

وألف من الهجرة النبوية » . كما توجد لوحة أخرى على الواجهة الشمالية للمدفن نصها : « أنشأ هذا المدفن المبارك من فضل الله تعالى فى زمن عبد الرحمن باشا حاكم مصر المحروسة إبراهيم أغا مستحفظان حالا بتاريخ سنة ١٠٦٢ هـ » .

ويتكون المسجد من صحن مكشوف تحيط به الأروقة من جميع الجهات ، أكبرها رواق القبلة الشرقى الذى يحتوى على ثلاث بوائك مكونة من دعائم حجرية مثمنة الشكل باللون الأبيض والأحمر ويعلو البوائك عقود مدببة تحيط بها صنجات باللونين الأبيض والأحمر . وهذه البوائك تقسم إيوان القبلة إلى ثلاثة أروقة ، تعلوها قباب ضحلة ، ـ أما الجوانب الثلاثة الأخرى فتحتوى كل منها على رواق واحد . ويتوصل إلى صحن الجامع عن طريق ثلاثة أبواب فى واجهاته الثلاث الغربية والشمالية والجنوبية والأخيران غير متعامدين إذ أن الباب الشمالى منحرف إلى الجهة الغربية .

وقد أقام فى وسط الصحن سنة ٨١٥ هـ الأمير طوغان الدوادار فسقية للوضوء وأقام فوقها مظلة تقوم على عمد . ولم تكن هذه الفسقية موجودة فى الأصل ، كما أنها زالت الآن وربما يكون محلها الحديقة الموجودة الآن بوسط الصحن .

ويعتبر الإيوان الشرقى السابق الإشارة إليه أكبر الإيوانات وأهمها كما أنه مايزال يحتفظ بمبانيه القديمة لم يتغير اللهم إلا الرواق الثانى المشرف على الصحن فإن عقوده قد استبدل بها سقف من الخشب وبقى طرفاه على أصلهما ، واستبدلت دعائمه بعمد رخامية وأكتاف حجرية مربعة . كذلك حدثت تغييرات جوهرية فى الرواقين الشمالى والجنوبى ، أما الرواق الغربى الذى يلى الواجهة الرئيسية والمدخل الرئيسى مباشرة فإنه ما يزال يحتفظ بالكثير من تفاصيله القديمة .

ويحتوى إيوان القبلة على مجموعة كبيرة من القاشانى الملون الجميل التى عملت خصيصًا لهذا الجامع ولذلك فإننا نجد أطرافها كاملة ونقوشها متماثلة فبعضها يمثل محرابا يعلوه قنديل كتب فيه « ياالله محمد » ويكتنفه عمودا سرو وبداخله زهرية تفرعت منها فروع نباتية تحمل زهورًا . كما يوجد بالرواق الشرقى منبر من الرخام الملون زخرفت جوانبه برسوم بارزة من عناقيد العنب والأزهار المورقة وهو أقدم منبر رخامى باق فى مصر حتى الآن . ويتصدرالإيوان

الشرق محراب مكسى بأشرطة دقيقة من الرخام والصدف ويتخلله محاريب صغيرة محمولة على عمد . ويعلو المحراب طاقية مكسية بفسيفساء رخامية . وقد ثبت على يسار المحراب لوح من الرخام جاء فيه : « رؤى النبي صلى الله عليه وسلم فى هذا المحراب المبارك فى ليلة السبت تاسع شهر ذى القعدة الحرام سنة ثمان وستين وثمانمائة وهو قائم يصلى عمر هذا الجامع الشريف إبراهيم أغا مستحفظان حالا فى تاريخ سنة ١٠٦٢ هـ » .

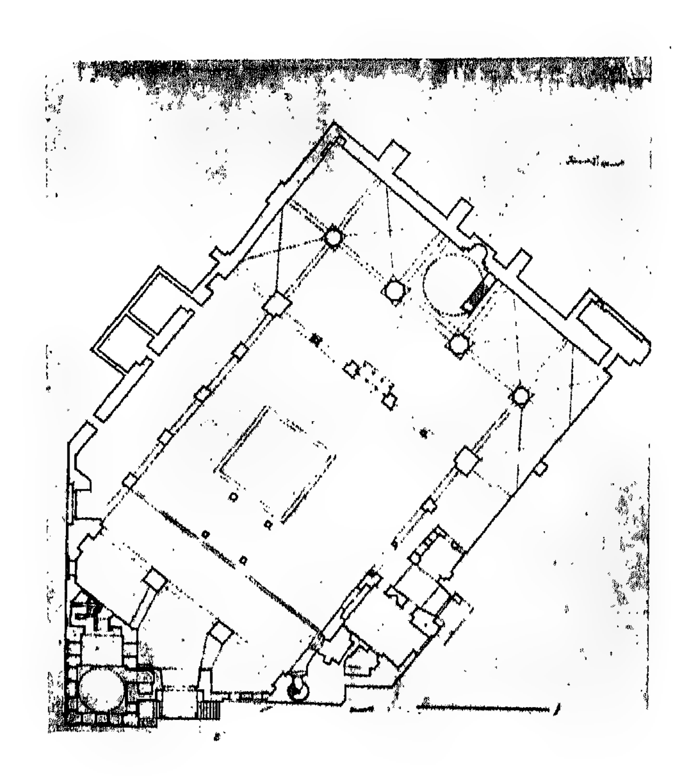
ويتقدم المحراب قبة كبيرة تقوم على مقرنص واحد فى منطقة الانتقال . ومما يسترعى النظر فى هذه القبة أن منطقة الانتقال تحتوى على مقرنص واحد ، وقد اختفت هذه الظاهرة منذ أوائل العصر الفاطمى ، وإن كانت قد تكرر وجودها فى مساجد ومدارس معاصره لجامع آق سنقر مثل قبة تنكر بغا ومسجد أم السلطان شعبان . كما يوجد فى هذا الايوان دكة للمبلغ وهى من الرخام كذلك .

وتوجد مئذنة الجامع فى الواجهة الغربية وهى مئذنة رشيقة مبنية من الحجر وتتكون من ثلاثة طوابق ، الطابق الأول اسطوانى يقوم على نافذة مربعة وهو خلو من الزخرف ويفصل بينه وبين الطابق الثانى شرفة ذات (١٦) ضلعا من الحجر المخرم وتقوم على مثلثات من الدلايات الجميلة التنسيق . ويتكون الطابق الثانى من ستة عشر فصا مستطيلا يمتد بارتفاع الطابق ويفصل بين الطابق الثانى والثالث شرفة مماثلة لشرفة الدور الأول . أما الطابق الثالث فيتكون من ستة أعمدة تعلوها خوذة خشبية مغلفة بالرصاص وذلك لتخفيف الضغط الطارد على الأعمدة .

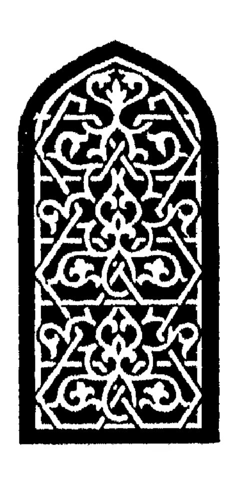
ويعلق محمد[1] رمزى على الخلط الذى حدث بالنسبة لتاريخ هذا الجامع فيقول : لقد لاحظت بعض أخطاء تاريخية فى كتاب الخطط للمقريزى خاصة بهذا الجامع ، أهمها ، أن المقريزى لما أراد الترجمة لمنشئه أتى بترجمة آق سنقر السلارى المتوفى سنة ٧٤٤ هـ فى حين أن منشئ الجامع هو آق سنقر الناصرى المتوفى سنة ٧٤٨ هـ . ولما تكلم على مبارك فى خططه عن هذا الجامع ، ذكر أن البدء فى عمارته كان فى سنة ٧٢٧ هـ والفراغ منه سنة ٧٢٨ هـ[2] ، وصواب التاريخين هو سنة ٧٤٧ ، ٧٤٨ هـ .

---

(١) النجوم الزاهرة : جـ ١٠ ص ١٧٩ (الهامش) .
(٢) الخطط التوفيقية جـ ٤ ص ٤٤



(شكل ٢٤) جامع آق سنقر



خانقاه خوند طغاى ٧٤٩هـ

أنشأت هذه الخانقاه طغاى الخونده الكبرى زوجة السلطان الملك الناصر محمد ابن قلاوون وأم ابنه الأمير أنوك ، كانت من[1] جملة إمائه فأعتقها وتزوجها ويقال إنها أخت الأمير اقبغا عبد الواحد وكانت بديعة الحسن باهرة الجمال ، رأت من السعادة مالم يره غيرها من نساء المماليك ولم يدم السلطان على محبة امرأة سواها وصارت خونده .

وخوند لفظ فارسى وأصله (خُدا وند) ومعناه السيد أو الأمير ويخاطب به الذكور والإناث[2] وقد انتشر استعمال هذا اللقب عند المسلمين بمعنى السيدة أو الأميرة وفى هذه الحالة تضاف إليه تاء التأنيث[3]. وقد استعمل هذا اللقب فى عصر المماليك كلقب من ألقاب النساء التى تتفرع على الأصول المؤنثة تأنيثاً حقيقيا . وكان هذا اللقب يطلق أيضا على زوج السلطان[4]

وقد كانت خوند طغاى أكبر نساء السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون حتى من ابنه الأمير تنكز . وحج بها القاضى كريم الدين الكبير واحتفل بأمرها وحمل لها البقول فى محاير طين على ظهور الجمال ، وأخذ لها الأبقار الحلابة فسارت معها

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٤٢٥
(٢) قاموس محيط المحيط ، المقريزى السلوك جـ ١ ص ٢٢٤ (حاشية) .
(٣) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٦ ص ٧٨
(٤) خليل الظاهرى : زبدة كشف الممالك ص ٢٧

طول الطريق لأجل اللبن الطرى وعمل الجبن وكان يقلى لها الجبن فى الغداء والعشاء . وكان القاضى كريم الدين والأمير مجلس وعدد من الأُمراء يترجلون عند النزول ويمشون بين يدى محفتها ، ويقبلون الأَرض لها كما يفعلون بالسلطان ، ثم حج بها الأَمير بشتاك فى سنة تسع وثلاثين وسبعمائة وكان الأَمير تنكز إذا جهز من دمشق تَقْدمة إلى السلطان لابد أن يكون لخوند طغاى منها جزء وافر ، فلما مات السلطان الملك الناصر استمرت عظمتها من بعده إلى أن ماتت فى شهر شوال سنة تسع وأربعين وسبعمائة أيام الوباء عن ألف جارية وثمانين خادماً خصيا وأموال كثيرة جداً وكانت عفيفة طاهرة كثيرة الخير والصدقات والمعروف جهزت سائر جواريها وجعلت على قبر ابنها بقبة المدرسة الناصرية بين القصرين قراء ووقفت على ذلك وقفا وجعلت من جملته خبزاً يفرق على الفقراء ودفنت[1] بهذه الخانقاه .

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٤٢٦

الوصف المعمارى

لاتوجد لهذه الخانقاه[1] واجهة فقد اندثر معظمها ولم يبق بها إلا الضلع الشرقى الذى يبلغ طوله ٧٠ر٢٦م ، يضم هذا الضلع تجويفين وحنية ضحلة رأسية مستطيلة ، يعلو كلا منها ثلاثة صفوف من المقرنصات ، وبالتجويفين صفان من الفتحات ، تتميز السفلية التى تعلو عن مستوى أرضية الطريق بحوالى متر باتساعها ووجود أعتاب ذات صنجات مزررة وعقود عاتقة ، أما العلوية التى أسفل الشريط الكتابى فعبارة عن فتحات قنديلية صغيرة يتكون كل منها من فتحتين بعقدين صغيرين ترتكز أرجلهما على أعمدة صغيرة مستديرة . ونص الكتابة قوله تعالى : «بسم الله الرحمن الرحيم يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم تنزيل العزيز الرحيم لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون لقد حق القول على أكثرهم فهم لايؤمنون إنا جعلنا فى أعناقهم اغلالا فهى إلى الاذقان فهم مقمحون وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لايبصرون وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم إنا نحن نحى الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شىء أحصيناه فى امام مبين واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شئ إن أنتم إلا تكذبون قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون وما علينا إلا البلاغ المبين[2] » .

ويتوسط الجدار الشرقى للخانقاه ايوان القبلة وهو عبارة عن مستطيل طوله ١٠ م وعرضه ٥٠ر٨م بصدره محراب اتساع حنيته ٦٠ر١ م وعمقها ١٠ر١ م طاقيته على هيئة عقد مدبب ، بداخلها زخارف نباتية جصية بارزة متقنة قوامها سعف نخيلية

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٤٢٤

(٢) سورة يس آية ١ — ١٧

وفروع متشابكة يحيط بها إطار مستطيل بداخله زخارف نباتية متقنة بارزة . ويمتد أعلى جدران الايوان شريط به كتابة نسخية بارزة على أرضية مزهرة نصها قوله تعالى « بسم الله الرحمن الرحيم يس والقرآن الحكيم إلى قوله تعالى . . . البلاغ المبين[1] » . كما يزدان جدران الايوان بجامات كبيرة على شكل جامات بداخلها زخارف نباتية وكتابية جصية متقنة وهى تشبه الدوائر الحجرية على واجهة الأقمر . ويكتنف المحراب فتحتا نافذتين سدتا حاليا بالبناء .

ويتقدم الايوان عقد كبير مدبب يطل على المساحة الخربة اتساع فتحته بعرض الايوان قد نقش خارجه بزخارف كتابية جصية بأحرف نسخية بارزة تتضمن آيات من سورة يس .

وبالجهة الشمالية للايوان يوجد باب معقود بعقد مدبب سعته ٤٫٣٠م يفضى إلى قبة مربعة طول ضلعها ٤م يحتمل أنه موضع مرقى سلم لمئذنة[2] يعلوه منطقة انتقال مقرنصة . ويغطى الايوان قبو كبير مدبب .

مساكن الصوفية :

اندثرت معالمها ، بيد أننا عثرنا على خلوتين بالجانب الجنوبى للمساحة الخربة لعلهما كانتا للصوفية .

القبـــــة :

تقع إلى يمين الايوان ، ويدخل إليها من باب يقع فى الضلع الغربى لها ويبلغ اتساع حنية مدخلها ٢٫٥٠م بأعلاها زخارف من المقرنصات الدقيقة من حطتين ، ويكتنف المدخل جلستان صغيرتان يعلوهما شريط من الكتابات النسخية البارزة نصها قوله تعالى : بسم الله الرحمن الرحيم « إن المتقين فى مقام أمين فى جنات وعيون يلبسون من سندس واستبرق[3] متقابلين » وخلف الحنية فتحة باب مستطيلة اتساعها ٢٫٣٠م وارتفاعها

---

(١) سورة يس آية ١ — ١٧

(٢) هدم الفرنسيون المئذنة عند دخولهم القاهرة .

الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار جـ ٤ ص ١٦٢

(٣) سورة الدخان آية ٥١ — ٥٢

٢ر٤٠ م تفضى إلى قاعة مربعة طول كل ضلع من أضلاعها ٧ م بصدرها محراب اتساع حنيته ١ م وعمقها ٨٠ر م . طاقيته على هيئة عقد مدبب قد ازدانت بأشكال الصنجات المزررة . ويكتنف المحراب نافذتان مستطيلتان لكل منهما عقد مدبب اتساع كل منهما ١ر٤ م وعمقها ٨ر م . وبالجهة الشمالية للضريح نافذة مستطيلة اتساعها ١ر٦ م وعمقها ١ر٨ م تطل على ايوان الخانقاه . وبالجهة الجنوبية نافذة ثالثة اتساعها ١ر٦ م وعمقها ١ر٢ م تطل على الطريق . ويعلو أركان مربع الضريح منطقة انتقال مكونة من ثلاثة صفوف من الدلايات تضم بين حناياها أربع مجموعات من الفتحات ، كل على هيئة مثلث تتميز العلوية بشكلها السداسى وباقيها خماسية الأضلاع ، ويعلو منطقة الانتقال قبة مضلعة من الخارج قد ازدانت رقبتها بشريط كتابى بأحرف نسخية بيضاء على أرضية خزفية زرقاء تتضمن البسملة وآية الكرسى .

ويشبه هذا الخزف الزجاج الملون كل قطعة مقطوعة على اوح ملون بلون واحد تتبع ما حولها من الرسومات ، وقد انتشرت التغطية بالخزف فى رقاب القباب المصرية فى أمثلة سابقة تجدها فى ضريح طشتمر ٧٣٥ هـ ـ ١٣٣٤ م ومسجد أصلم البهائى ٧٤٥ هـ ـ ١٣٤٥ م .

الأمير شيخون

الأمير شيخون هو شيخون العمرى الناصرى ، أحضره إلى مصر الخواجا عمر ؛ فاشتراه الناصر محمد بن قلاوون ، حظى عند الملك المظفر حاجى[1] بن محمد بن قلاوون وزادت وجاهته حتى شفع فى الأمراء وأخرجهم من سجن الاسكندرية . ثم أصبح فى أول دولة الملك الناصر حسن أحد أمراء المشورة وفى أيام الخدمة صارت القصص تقرأ عليه بحضرة السلطان وصار زمام الدولة بيده فساسها أحسن سياسة وكان يمنع كل حزب من الوثوب على الآخر .

وفى سنة ٧٥١ هـ عين نائبا لطرابلس . ولما وصل إلى دمشق فى طريقه إليها صدرت الأوامر بإقامته بها . ولم يلبث أن قبض عليه وأحضر إلى الاسكندرية وسجن بها . وظل الأمير شيخون معتقلا بسجن الاسكندرية إلى أن خلع السلطان الملك الناصر حسن وتولى أخوه الملك الصالح صالح ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون فافرج عنه . ولما ورد الرسول إلى شيخون مبشرا باطلاق سراحه ، خرج من الاسكندرية وهو ضعيف وركب الحراقة وفرح أهل الاسكندرية[2] لخلاصه وسافر فوافاه كتاب الأمير صدغتمش بأنه إذا أتاك ايدمر بنيابة حماة ، لاترجع وأقبل إلى القاهرة فأنا والأمير طاز معك فلما قرأ شيخون الكتاب تغير وجهه وعلم أنه قد حدث فى أمره شىء . ولم يمض إلا وقت قليل حتى

---

(١) المقريزى : جـ ٢ ص ٣١٤

(٢) النجوم الزاهرة : جـ ٩ ص ٢٥٩ وما بعدها .

لاحت له حراقة أيدمر ، فمرّ شيخون وهو مقلع وأيدمر منحدر إلى أن تجاوزه والأخير يشير إليه بمنديله فلا يلتفتون إليه وتراجع أيدمر للحاق بشيخون فلم يلحقه الاّ صباح اليوم التالى . وفى اللحظة التى قرأ فيها شيخون المرسوم الذى مع أيدمر بتولية شيخون نيابة حماه ، إذ بالخيل يتبع بعضها بعضا والمراكب قد ملأت وجه الماء مستبشرة بعودة شيخون للقاهرة ، فسار حتى رسا بساحل بولاق بعد أن مشت إليه الناس إلى منية السيرج وكانت المراكب التى غصت بها صفحة النيل يهلل راكبوها فرحا بمقدمه وركب الأمراء إلى لقائه وزينت الصليبة وأشعلت الشموع وخرجت مشايخ الصوفية بصوفيتهم إلى لقائه ، فسار فى موكب مهيب حتى طلع القلعة وقبل الأرض بين يدى السلطان الملك الصالح ، فأقبل عليه السلطان وخلع عنه[1] ثياب السجن وألبسه تشريفا جليلا وخرج شيخون إلى منزله والتهانى تتلقاه .

اشترك شيخون مع الملك الصالح والأمير طاز وارغون الكامل فى قتال الأمير يلبغاروس والتوجه خلفه إلى حلب ولم يعد إلى القاهرة حتى أمسك بيلبغاروس ومن معه من الأمراء وحز رؤوسهم ثم أنه خرج بنفسه فى طلب الأحدب الذى خرج بالصعيد وتجاوز فى سفره قوص وأمسك عدة كثيرة منهم ووسطهم حتى سكنت الفتنة بأرض مصر وذلك فى سنة أربع وخمسين وسبعمائة وأول سنة خمس وخمسين .

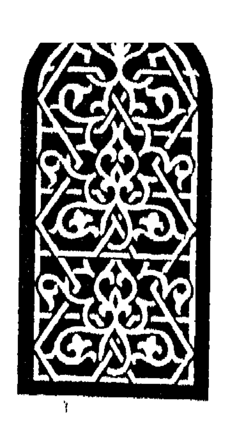
اشترك الأمير شيخون فى خلع الملك الصالح وأقام بدله الملك الناصر حسن كما أخرج الأمير طاز من مصر إلى حلب نائبا بها ومعه إخوته ، وصارت الأمور كلها راجعة إليه وزادت عظمته وكثرت أمواله وأملاكه حتى قيل له قارون زمانه وعزيز مصر .

وفى الثامن من شهر شعبان سنة ٧٥٨ هـ خرج عليه شخص من المماليك السلطانية المرتجعة عن الأمير منجك الوزير يقال له باى ووثب عليه وهو جالس فى دار العدل بالقلعة وضربه بالسيف فى يده وفى وجهه ، فحمل إلى بيته فأقام بها عليلا نحو ثلاثة أشهر عاده فيها السلطان غير مرة وقبض على المعتدى وقتل وفى ليلة الجمعة ٢٦ ذى القعدة سنة ٧٥٨ هـ توفى الأمير شيخون متأثرا بجراحه ودفن بالخانقاه الشيخونية .

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٨٤٩

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣١٤



جامع الأمير شيخون

(سنة ٧٥٠هـ - ١٣٤٩م)

يقع هذا الجامع تجاه الخانقاه الشيخونية بسويقة منعم فيما بين الصليبة والرميلة ويفصل بينهما شارع شيخون . . . هذا الجامع أول منشآت الأمير شيخون فى هذه المنطقة . والواقع أن تاريخ البدء فى هذا الجامع غير معلوم ولم يذكره أحد من المؤرخين ولا يوجد به نص تاريخى يفيد تاريخ البدء فيه بينما وجد تاريخ الفراغ من بنائه فى شهر رمضان سنة ٧٥٠ هـ - ١٣٤٩ م . ولكن إذا رجعنا إلى ترجمة المنشئ نجد أن الأمير شيخون بدأ يفكر فى إنشاء جامع يخلد اسمه فى أوائل دولة السلطان الملك الناصر حسن ، أى أن بدء تاريخ الانشاء كان سنة ٧٤٩ هـ[١] .

أما تاريخ الانتهاء من تلك العمارة فهو مؤكد بعام ٧٥٠هـ . كما دلت على ذلك الكتابة التاريخية التى على المدخل ونصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر . . . الآية .. وكان الفراغ من ذلك الجامع فى شهر رمضان المعظم سنة خمسين وسبعمائة » .

وقد كان الأمير شيخون سهلا مع عمال البناء فاعطاهم أجورهم بزيادة الثلث عما جرت به العادة فى زمنه[٢] وجعل فيه دروساً للحنفية وعين بالجامع فى سنة ٧٥٣ هـ العلامة أكمل الدين محمد الرومى الحنفى وجعل بالجامع درسا للمالكية أيضا وولى تدريسه نور الدين السخاوى المالكى وقرر له « ثلثمائة درهم كل شهر ورتب به قراء ومؤذنين وغير ذلك من أرباب الوظائف وقرر لهم معاليم بلغت فى الشهر ثلاثة آلاف درهم وكل ذلك

---

(١) تاريخ المساجد الأثرية حسن عبد الوهاب - جـ ١ ص ١٥٦ الذى يرجع تاريخ البدء ٧٤٨ هـ ١٣٤٧ م ، فى أواخر دولة الملك المظفر حاجى وذلك اعتماداً على ما عثر عليه من معادن مكفتة بالجامع سنة ١٩٣١ عليها اسم (الملك المظفر) منقوشاً .

(٢) مخطوط قطف الأزهار فى الخطط والآثار - محمد بن أبى السرور البكرى (بدار الكتب رقم ٤٥٧ جغرافيا) ص ١٧٣

قبل أن تبنى الخانقاه تجاه الجامع المذكور[1]. ويقول المقريزى « إن هذا الجامع يقع فيما بين الصليبة والرميلة تحت قلعة الجبل أنشأه الأمير الكبير سيف الدين شيخون الناصرى - رأس نوبة الأمراء فى سنة ٧٥٦هـ وجعل فيه خطبة وعشرين صوفيا ثم لما عمل الخانقاه تجاه الجامع نقل الصوفية إليها وزاد عدتهم[2] » .

ويبدو أمامنا خطأ قد وقع فيه المقريزى حين ذكر تاريخ الجامع فى سنة ٧٥٦هـ.... ذلك أن الكتابة التاريخية على الجامع توضح بطريقة لاتقبل الشك أنه بنى سنة ٧٥٠هـ. وإذا كان المقريزى على حق فى تاريخه فلابد أن الحفار الذى نقش التاريخ على الجامع قد ترك العدد ٦ سهوا أثناء كتابته للنص.... ولكن ليس هناك فراغ على الحجارة نفسها مما يجعلنا نؤكد أن الحفار قد أخطأ سهوا بل أن السهو من هذا النوع نادر جدا فى النصوص مما يجعلنا على العكس من ذلك نرجح أنه خطأ من المقريزى نفسه[3]

كما أن الأمير شيخون بعد بناء الجامع وضع فيه مجموعة من الصوفية وبعد ذلك نقلهم إلى الخانقاه التى بناها أمام الجامع ... معنى ذلك أن الجامع بنى قبل الخانقاه ولكننا نرى أن الأعمال فى الخانقاه بدأت فى أول شهر من عام ٧٥٦هـ وبذلك يكون الجامع قد بنى قبل هذا التاريخ أى سنة ٧٥٠هـ .

(شكل ٢٥) واجهة جامع الأمير شيخو

(١) النجوم الزاهرة - ابن تغرى بردى جـ١٠ ص ٢٦٩

(٢) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزى جـ ٢ ص ٣١٣

(٣) سعاد حسين : أعمال الأمير شيخون المعمارية بالقاهرة (مخطوطة رسالة ماجستير من كلية الآثار سنة ١٩٧٥

الوصف المعمارى

وهو جامع تطل واجهته الجنوبية – وهى الواجهة الرئيسية – على شارع شيخون بقسم الخليفة ويبلغ طولها ٤٣٫٨٠ مترا وقد كانت هذه الواجهة مماثلة لواجهة الخانقاه فى الطول كما كانت مماثلة لها فى كثير من التفاصيل المعمارية

وتنقسم الواجهة المبنية من الحجر المصقول إلى قسمين ، الأسفل وهو القسم الذى تشغله النوافذ وطوله ٢٣٫٧٠ مترا وبهذا الجزء خمس حنيات ترتفع بارتفاع جدران الواجهة وهى ١٣٫٥٠ متر وعرض كل دخلة منها ٢٫٢٠ متر وعمقها ٠٫٢٠ متر ... وهذه الدخلات يوجد بجزئها الأسفل شبابيك ملئت بمصبعات حديدية ويعلو فتحة الشباك عتب حجرى معشق وعقد عاتق مكون من صنجات مزررة وبينهما طبله عقد خالية من الزخرفة .

أما الجزء العلوى من الحنيات فبكل حنية توجد نافذة قنديلية مكونة من نافذتين مستطيلتين لهما عقود نصف دائرية ترتكز على ثلاثة أعمدة صغيرة بعضها دائرى البدن والآخر مثمنها ولها تيجان وقواعد رومانية الشكل وتعلو تلك النافذتين الصغيرتين قمرية دائرية بالوسط وقد زخرفت هذه النوافذ بزخارف جصية مفرغة وزجاج معشق وزخارفها الجصية على هيئة خطوط متشابكة ومتداخلة مكونة أشكالا هندسية ومن أطباق نجمية . وفوق هذه النوافذ يمتد شريط كتابى بالخط النسخى على طول الواجهة وهو من آيات قرآنية . . . وتنتهى هذه الحنيات بثلاثة صفوف من المقرنصات بعضها مقرنصات مضلعة ذات زوايا والبعض الآخر من مقرنصات مقعرة ذات دلايات وذلك بالتبادل ثم تأتى الشرفات المسننة التى اندثر معظمها الآن .

ويقع المدخل الرئيسى فى القسم الثانى من الواجهة ويبلغ طول هذا الجزء حوالى ٨٫١٠ أمتار ويبرز عن القسم الأول من الواجهة بمقدار ٠٫٢٠ متر . ويقع المدخل الرئيسى داخل حنية

عرضها ٣٫٦٠ أمتار ويكتنفها من الجانبين مكسلتان حجريتان طول كل منهما ٢٫١٠ متر وعرضها ٠٫٥٥ متر وارتفاعها عن الأرض بحوالى ٠٫٦٥ متر وتنتهى هذه الحنية بعقد ثلاثى الفصوص وقد ملئ هذا العقد بزخارف من مقرنصات مقعرة ذات دلايات . وزخرفت المقرنصات من الداخل بزخارف نباتية مورقة وهندسية محفورة بالبارز ومطلية بالألوان مما زاد المدخل بهاء .

ويقع الباب بصدر هذه الحنية وعرضه ٢٫١٥ متر وبه ضلفتان خشبيتان عرض كل منهما ١متر وهما خلو من الزخرفة إلا من شريطين من النحاس الخالى من الكتابة وإن كانت مزخرفة من الأطراف بأوراق ثلاثية الفصوص .

ويعلو الباب عتب حجرى من أسفل من الحجر أيضا وقد جلب هذا الحجر من مدينة منف وأكمل به الأمير شيخون أعماله المعمارية بالقاهرة ولكنه خال تماما من الزخارف أو النقوش .

ويعلو هذا العتب وإطاره عاتق مكون من صنجات مزررة من الرخام الملون بألوان الأحمر والأبيض والأزرق بالتبادل وفوق هذا العقد العاتق نافذة كبيرة مستطيلة مزخرفة .

وعلى جانبي هذا الشباك عمودان حجريان ذوا بدن مستدير يرتكز على كابولى حجرى من أسفل يحمل كورنيشا مكونا من صفين من المقرنصات المضلعة ذات الزوايا الصغيرة والمشعة . . . وعلى جانبي تلك الأعمدة الصغيرة زخرف الحائط بثلاثة أشرطة من الرخام الملون باللونين الأزرق والأبيض بالتبادل ... وعلى جانبي حنية المدخل بارتفاع ٢٫٥٥ متر يوجد شريط غائر عرضه ٠٫٣٠ متر ينتهى من الجانبين بزخرفة على شكل ورقة ثلاثية.. وبه كتابة بارزة بالخط النسخ زالت معظم معالمها كما يعلو شريط آخر من الكتابة النسخية المحفورة بالبارز ويمتد فوق صف الكرانيش من المقرنصات فوق المدخل وعلى جانبيه وقد كتب به « بسم الله الرحمن الرحيم إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله . . . الآية وكان الفراغ من ذلك الجامع فى شهر رمضان المعظم سنة خمسين وسبعمائة » .

وفوق هذه الزخارف وحولها من الجانبين يوجد إطار زخرفى بارز يلتف حول هذا الجزء ولكنه أسفل مقرنصات عقد حنية المدخل ويصل فى التفافه إلى أسفل عند المكاسل الحجرية وهو ما نجده فى الخانقاه من زخرفة المدخل الرئيسى .

ثم يأتى شريط كتابى نسخى وينكسر عدة انكسارات ليبدو محيطا بالعقد الثلاثى ذى المقرنصات ويمتد على طول الواجهة إلى نهايتها من الناحية الشرقية . ونأتى إلى نهاية الواجهة حيث المئذنة التى تعلو المدخل وقد كانت الواجهة تمتد حوالى ١٢ مترا حتى حارة درب الشيخ خليل حيث تشغل هذه المساحة ثلاثة حوانيت[1] وقد أشارت إدارة حفظ الآثار العربية فى قرار لها بتاريخ : ٤ر١٠ر١٩٥٠ بأن المنزل رقم ١ بدرب الشيخ خليل التابع لوقف شيخو الخيرى الذى يقع إلى يسار المدخل الرئيسى للجامع يعتبر جزءا من جامع شيخو الاثرى[2] وقد حول هذا المنزل الآن إلى ثلاثة حوانيت بالجهة الجنوبية وثلاثة حوانيت بالجهة الغربية .

وتؤدى فتحة المدخل الرئيسى إلى دركاه طولها ٣ر٦٠ أمتار وعرضها ٢ر٥٠ متر بنيت جدرانها من الأحجار وغطى سقفها بكتل خشبية مدهونة بطلاءات متعددة الألوان .

القبــــــة :

وتؤدى الدركاه إلى ردهة غير منتظمة الأضلاع بها باب تدخل منه إلى القبة وهى حجرة مربعة طول ضلعها ٤ر٩٠ أمتار يعلوها قبة تقوم على مقرنصات من صفين بالصف الأول ثلاث حطات والصف الثانى فوقه ثلاث حطات أيضا وتحصر هذه المقرنصات نافذة بوسط كل ضلع من الأضلاع الأربعة . وهى من ثلاث فتحات ذات عقود منكسرة ويعلو هذه المنطقة بمقرنصاتها وشبابيكها ست عشرة حنية من الحنايا ذات العقود ذات الزوايا فتحت حنية وأغلقت أخرى بالتبادل . وهذه الحنايا تبدو من الخارج كرقبة القبة . ثم تأتى القبة فوق هذا الجزء وهى من الداخل خالية من الزخارف تماما . أما من الخارج فهى مضلعة ومبنية من الآجر ومغطاة بطبقة جصية سميكة .

---

(١) سعاد حسين : أعمال الأمير شيخون المعمارية بالقاهرة ص ١٣٩

(٢) ملف جامع شيخون البحرى رقم ١٤٧ بمصلحة الآثار رقم القرار ٣٥٧٢

وعلى ارتفاع ثلاثة أمتار من أرضية الحجرة يوجد شريط كتابى بالخط النسخ يحيط بجدران الحجرة الأربعة وهو شريط جصى بارز تبدأ كتاباته بالبسملة فى الضلع الشرقى ثم جزء من سورة «يس» الكريمة . وليس بهذا الشريط اسم شخص معين أو تاريخ محدد وإنما بنيت هذه القبة لتكون مدفنا للمنشئ ولكنه عندما بنى الخانقاه تجاهلها ونقل إليها الصوفية وبنى ضريحه بداخل تلك الخانقاه مع شيوخ الصوفية تبركا وتيمنا .

وفى وسط كل من الضلعين الشرقى والشمالى من تلك الجدران يوجد شباك له دخلة عميقة وهى سمك الحوائط حوالى ٠٫٩٥ متر . وسقف هذه الدخلة من الخشب المدهون بالألوان زال معظمها .

ويطل الشباك الشرقى على الرواق الأول من ايوان القبلة أما النافذة الشمالية فتطل على الرواق الجنوبى المطل على صحن المسجد (اللوحة رقم ٧١) أما الجدار الغربى للقبة فيوجد به الباب يفتح فى الردهة وبالجدار الجنوبى توجد النافذة التى تطل على الواجهة الرئيسية .

أما أرضية القبة فمغطاة ببلاطات حجرية متوسطة الحجم ولا يوجد بها أى تركيبات حجرية أو رخامية . وفى أعلى جدران الضلع الشمالى والضلع الجنوبى ومنتصف كل منهما توجد نافذة مستطيلة لها عقد نصف مستديرة ومزخرفة بستائر جصية مخرمة قوامها رسوم نباتية وهندسية وكتابات نسخية نصها « لا إله إلا الله محمد رسول الله » وقد جددت مصلحة الآثار هذه النوافذ .

صحن المسجد :

ونصل من الدركاه إلى الصحن وهو مستطيل الشكل طوله ١٦٫٥٥ مترا وعرضه ١٠٫٥٥ أمتار يحيط به أربعة إيوانات أعمقهم الايوان الشرقى والغربى وبوسط الصحن فسقية للوضوء وهى عبارة عن مثمن مبنى من الآجر ومغشى بألواح رقيقة من الرخام الأبيض والأزرق طول كل ضلع من أضلاعه الثمانية ٠٫٦٥ متر وارتفاعه ١ متر . وبكل ضلع من أضلاع المثمن فتحة تنساب مياه الحوض عبر هذه الفتحات لوضوء المصلين .

وأرضية الصحن مفروشة بالرخام الملون بزخارف هندسية عبارة عن مربعات أو مستطيلات بداخل أحد المربعات أجزاء رخامية مثمنة تحصر فيما بينها شكل نجمة صغيرة باللون الأحمر والأزرق ويحيط بالجميع إطار من الرخام الأزرق . وتحيط بأعلى جدران هذا الصحن أى أعلى جدران عقود الاواوين الأربعة شرفات مسننة .

وفى الجهة الشرقية يوجد ايوان القبلة وهو عبارة عن مستطيل عرضه ٢٠ر٤٠ مترا وعمقه ١٠ر١٤ مترا يرتفع عن أرضية الصحن بمقدار ٢٠ر٠ متر ويقسمه إلى رواقين صفين من البائكات كل بائكة مكونة من ثلاثة عقود نصف مستديرة ترتكز عقودها على عمودين . .

ويتصدر الايوان محراب كبير مجوف وعلى يمينه المنبر الحجرى ويعلو المحراب قمرية مستديرة مغطاة بالجص المخرم والزجاج المعشق . وعلى جانبى المحراب يوجد باب خشبى إلى اليمين وآخر إلى اليسار عرض كل منهما ٩٥ر٠ متر وطوله ٢٠ر٢ متر استعملا كدولاب حائطى صغير «كتبية» يحفظ فيها متطلبات شيوخ الصوفية أو الكتب الدينية فقد أوقف على الجامع مجموعة من الكتب الأمير الصالح أحمد جاويش ارناؤدباش اختيار المتوفى سنة ١٢٠١ هـ - ١٧٨٦ م .

وبالركن الجنوبى الغربى من الايوان الشرقى نجد فتحة الشباك الذى بالجدار الشرقى من جدران القبة ويبلغ اتساعه ١٥ر١ متر والذى سبقت الإشارة إليه .

ويتوسط جدار القبلة المحراب وهو عبارة عن حنية نصف مستديرة عمقها ٤٠ر١ متر ذات عقد نصف دائرى وعرضها ٨٥ر٢ متر يكتنفه من الجانبين عمود فى كل جهة وهو عمود رخامى ذو لون أصفر معرق باللونين البنى والأحمر وهو مثمن البدن وله تاج كورنثى الشكل .

أما طاقية المحراب فمزخرفة بعدة قطاعات من الزخارف المشعة باللون الأحمر والأبيض والأزرق وبوسط منطقة الاشعاع كلمة « الله » وحافة دخلة المحراب مكونة من صنجات معشقة وأسفل طاقية المحراب شريط كتابى بالخط النسخ من آيات قرآنية .

أما الحنية نفسها فمزخرفة بعدة شرائط من الرخام والفسيفساء الرخامية الملونة فنجد أنه مكون من إطار أول من أسفل ارتفاعه ٠٫٨٠ متر ومزخرف ببلاطات صغيرة طول ضلعها ٠٫١٠ متر خزفية ملونة بألوان الأسود والأزرق والأبيض والأصفر وهى عبارة عن أطباق نجمية كاملة وبينها خطوط حلزونية ومشبكة فى شكل هندسى جميل .

وسقف هذا الإيوان من الخشب على هيئة حقاق خشبية (اللوحة ٦٨ – ٧٧٢) فى وضع أفقى ورأسى تحصر بينها مربعات غائرة وكلها مطلية بالألوان المختلفة وزخارفه نباتية وهندسية كما يحيط بهذه الزخارف كتابات قرآنية بالخط النسخ (بسم الله الرحمن الرحيم الله نور السموات والأرض.... الآية) . كما توجد روابط خشبية بين الأعمدة لتعليق المشكاوات .

أما الإيوان الغربى فيتكون من مستطيل عرضه ١٥٫٨٠مترا وعمقه ١١٫٥٥يحتوى على رواقين وصفين من البوائك وبكل بائكة ثلاثة عقود مدببة محمولة على عمودين . ويحيط بإطارها إطار بارز ومزخرفة باللونين البنى والأبيض والأعمدة الرخامية ذات قواعد مربعة رخامية أيضا وذات أبدان مستديرة وتيجانها كورنثية .

أما البائكة الثانية فهى مكونة من خمسة عقود مدببة محمولة على عمودين فى الوسط ودعامتين فى كلا الجانبين . واتساع فتحة العقد الأوسط من الإيوان أكبر من العقود الجانبية إذ يبلغ اتساعها ٥٫٤٥ أمتار بينما فتحات العقود الجانبية كل منها ٤٫٦٥ أمتار .

وأرضية هذا الإيوان مرتفعة عن أرضية الصحن بمقدار ٠٫٢٠ متر ماعدا الجزء الأوسط من الإيوان فهو غير مرتفع وإنما يمتد داخل الإيوان عبر البلاطة الوسطى فى مستوى سطح أرضية الصحن .

ويبلغ طول الإيوان الشمالى ٩٫٢٥ أمتار وعمقه ٢٫٢٠ متر ويطل على الصحن ببائكة مكونة من عقدين نصف مستديرين وتبلغ فتحة العقد ٤٫٨٠ أمتار (اللوحة رقم ٦٣) .

ويتكون سقف هذا الإيوان من كتل خشبية مزخرفة بالألوان المختلفة والرسوم المختلفة من هندسية وكتابية ونباتية . ويوجد بابان عرض كل منهما ١٫١٥ متر .

الباب الشرقى منهما يؤدى إلى استطراق طوله ٥ أمتار يقع خلف ذلك الإيوان الشمالى وجزء من الإيوان الشرقى ولها سقف خشبى .

والباب الغربى يؤدى إلى باب آخر يصل إلى دورة المياه وبين البابين يوجد استطراق طوله ٣ر٨٥ أمتار سماوى مكشوف، بجدارها الشرقى نافذتان مستطيلتان تطلان على الغرفة التى بالبلاطة الثانية من الإيوان الشرقى .

وبأعلى الجدران بهذا الإيوان نافذتان مستطيلتان ذواتا عقود نصف مستديرة بها زخارف جصية وزجاج ملون .

أما الإيوان الجنوبى وهو المقابل له فعمقه ٢ر١٥ متر وطوله ٧ر٢٠ أمتار ويطل هذا الإيوان على الصحن ببائكة واحدة مكونة من عقدين نصف مستديرين محمولين على عمودين ذوى ابدان مستديرة وتيجان كورنثية وقواعد مربعة رخامية ولكن فتحات العقود غير متساوية

وتشبه مئذنة الجامع مئذنة الخانقاة فهى تتكون من ثلاث دورات : الدورة الأولى تقوم على قاعدة مربعة عرض ضلعها ٤ر٣٠ أمتار وارتفاعه حوالى ٢ر٢٥ متر بضلعه الجنوبى باب فتحته ٠ر٨٠ متر ذو عقد مدبب ويحيط بالعقد المدبب إطار من صنجات حجرية .

وتقوم فوق هذه القاعدة الدورة الأولى وهى عبارة عن جزء مثمن الأضلاع وهذه الدورة بها زخرفة مكررة فى الأضلاع الثمانية عبارة عن منطقة غائرة مربعة من أسفل ومستطيلة من أعلى ينتهى هذا المستطيل بعقد مدبب أما الدورة الثانية والثالثة فمستديرتان . وتنتهى المئذنة بطاقية على شكل قبة .

ويوجد بإيوان القبلة دكة المبلغ وهى من الحجر أيضًا عبارة عن مستطيل طوله ٤ر٥٠ أمتار وعرضه ٢ر١٥ متر وترتفع على أربعة جدران تحملها سمك كل جدار منها ٠ر٣٠ متر وبكل جدار من الناحية الشرقية والغربية التصق به عمودان يفصل بينهما شريط بارز من الحجر غير المزخرف وبين اثنين من الجدران الجنوبية سدت الجوانب كلها إلا بابا واحدا من الناحية الشرقية عرضه ٠ر٢٣ متر وبه عمود أوسط التف حوله سلم حلزونى من عشر درجات . صغيرة تؤدى إلى سطح الدكة . ويلتف حولها شريط كتابى بالخط النسخ هذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم إنا فتحنا لك فتحًا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطًا مستقيما وينصرك الله نصرًا عزيزًا » .

وبالجدار الشمالى للدكة كتب :

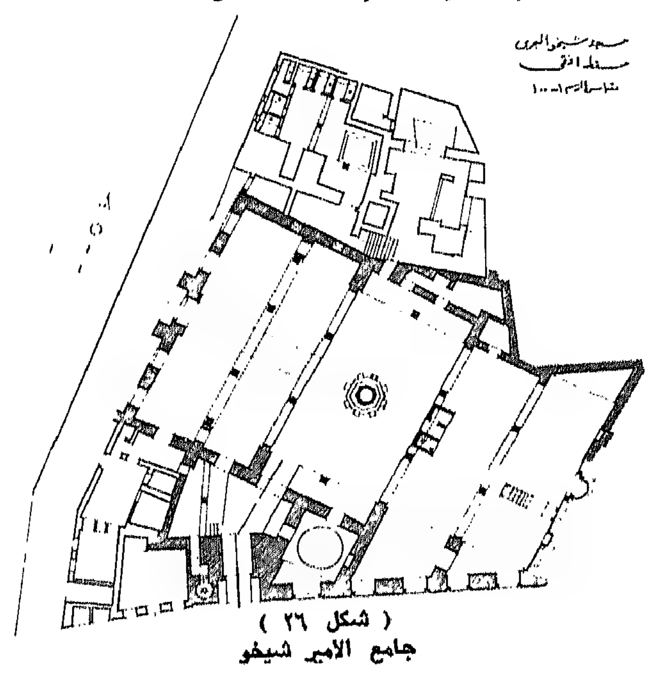
(هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليمًا حكيما ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزًا عظيما ويعذب المنافقين) .

وكتب بالجدار الشرقى للدكة :

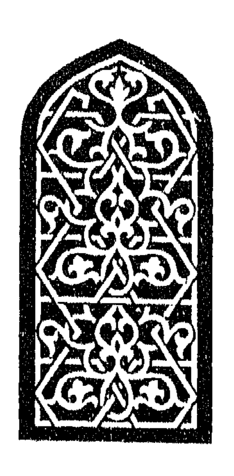
(والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرًا ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزًا حكيما إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله) .

أما الجدار الجنوبى للدكة فقد كتب عليه :

(أنشأ هذه الدكة المباركة الحج شعبان بن محمد بن سعيد النقلى غفر الله لهم وللمسلمين وكان الفراغ من ذلك فى شهر صفر سنة إحدى وستين وتسعمائة) .



(شكل ٢٦)
جامع الأمير شيخو



خانقاه شيخون (٧٥٦هـ - ١٣٥٥م)

أنشأ الأمير شيخون خانقاه فى خط الصليبية خارج القاهرة تجاه جامعه ، فى سنة ست وخمسين وسبعمائة كان موضعها من جملة قطائع أحمد بن طولون وآخر ما عرف عنها أنها كانت مساكن للناس ، فاشتراها الأمير شيخون من أربابها وهدمها ، وكانت مساحة أرضها أكثر من فدان فاختط فيها الخانقاه وحمامين وعدة حوانيت يعلوها بيوت لسكنى العامة ، ورتب بها دروسًا عدة منها أربعة دروس لطوائف الفقهاء الأربعة هم الشافعية والحنفية ، والمالكية والحنابلة ودرسًا للحديث النبوى ودرسًا لإقراء القرآن بالروايات السبع وجعل لكل درس مدرسًا وعنده جماعة من الطلبة وشرط عليهم حضور الدروس وحضور وظيفة التصوف ورتب لكل من الطلبة فى اليوم الطعام واللحم والخبز وفى الشهر الحلوى والزيت والصابون ، ووقف عليها الأوقاف الجليلة ، فعظم قدرها واشتهر فى الأقطار ذكرها ، وتخرج فيها كثير من أهل العلم ، وأربت عمارتها على كل وقف بديار مصر إلى أن مات شيخها الشيخ أكمل الدين فى سنة ٧٨٦ هـ فوليها من بعده جماعة ، ولما حدثت المحن كان بها مبلغ كبير من المال الذى فاض من مصروفها فأخذه الملك الناصر فرج وأخذت أحوالها[١] تتناقص .

ومن أهم منشآت شيخون جامعه الذى يقع بسويقة منعم فيما بين الصليبة والرميلة تحت قلعة الجبل أنشأه الأمير الكبير سيف الدين شيخون الناصرى رأس نوبة الأمراء فى سنة[٢] ست

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٤٢١

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣١٣

وخمسين وسبعمائة ورفق بالناس فى العمل فيه وأعطاهم أجورهم ، وجعل فيه خطبة وعشرين صوفيًا وأقام الشيخ أكمل الدين محمد بن محمود الرومى الحنفى شيخهم ، ثم لما عمّر الخانقاة تجاه الجامع نقل حضور الأكمل والصوفية إليها وزاد عدتهم . وهذا الجامع من أجل جوامع ديار مصر .

ويعلق الأستاذ محمد رمزى على ما ذكره المقريزى فيقول[1] : إن ماذكره المقريزى من أن هذا الجامع أنشىء فى سنة ٧٥٦ هـ لايتفق مع الواقع ، فإن هذا التاريخ هو تاريخ بناء خانقاه شيخون الواقعة تجاه هذا الجامع ، وقول المقريزى : عن الجامع إنه من أجل جوامع ديار مصر ينطبق كذلك على الخانقاه وليس على الجامع المذكور .

أما هذا الجامع فإنه أنشىء فى سنة ٧٥٠ هـ يؤيد ذلك أنه يوجد فى نهاية طراز الوجهة العمومية للمسجد كتابة مذكور فيها : وكان الفراغ من هذا الجامع فى شهر رمضان المعظم سنة خمسين وسبعمائة » .

وهذا الجامع لايزال باقيًا إلى اليوم تقام فيه الشعائر الدينية ويعرف بجامع شيخون البحرى لوقوعه تجاه الخانقاه التى تعرف اليوم بجامع شيخون القبلى ويفصل بينهما شارع شيخون بقسم الخليفة بالقاهره .

---

(١) النجوم الزاهرة : جـ ٩ هامش ٢٦٩

الوصف المعمارى

تقع الواجهة الرئيسية فى الضلع الغربى للخانقاه ويبلغ طولها ٧٧٫٨٠ مترًا وتتكون من جزءين ، أحدهما طوله ٦٨ م ، والآخر طوله ٩٫٨٠ م ويبرز الثانى عن الأول بمقدار ٣٫٥٠ م ويضم القسم الأول من الواجهة حنية المدخل الرئيسى . كما يضم ثمانية تجاويف رأسية مستطيلة ضحلة ترتفع إلى أعلى جدار الواجهة يعلو كلا منها ثلاثة صفوف من المقرنصات .

وتحتوى التجاويف على صفين من النوافذ السفلية منها تعلو عن مستوى أرضية الطريق بحوالى نصف متر ، يعلوها أعتاب من صنج رخامية مزررة وعقود عاتقة ، أما العلوية فهى عبارة عن فتحات قنديلية ترتكز أرجلها على أعمدة رخامية دقيقة ويعلو كلا منها طاقة صغيرة ، وقد غطيت الفتحات القنديلية من الخارج بمصبعات مكونة زخارف هندسية .

والقسم الثانى من الواجهة يضم ثلاثة تجاويف رأسية مستطيلة ضحلة ، اثنان بالوسط والثالث بالجهة الشمالية الغربية ، ويتخلل التجاويف صفان من الفتحات كذلك .

والواجهة مبنية بالحجر الأبلق الأبيض المتعاقب مع الأحمر ، ويعلو الواجهة شريط من الكتابة النسخية بحروف بارزة ونصها من قوله تعالى : « بسم الله الرحمن الرحيم آية الكرسى ثم . « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون» « لله ما فى السموات وما فى الأرض وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شىء قدير آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير لايكلف الله نفسًا إلاوسعها لها ماكسبت وعليها

(*) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣١٣ ، ٤٢٠

ما اكتسبت ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولاتحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولاتحملنا مالا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين[1] ». «الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم[2]». ويتوج الواجهة صف من مشرفات مسننة.

ويوجد بالركن الجنوبى الغربى المدخل الرئيسى وهو عبارة عن عقد كبير ذى ثلاثة فصوص تبلغ اتساع فتحته ٣٫٦٠ م وسمك باطنه ٢٫٥٠ م ملئت طاقيته بدلايات متقنة ، وواجهة المدخل مغطاة بالرخام الأبيض المتعاقب مع الأسود ، ويكتنف العقد جلستان طويلتان علوهما طراز به كتابة نسخية بارزة من قوله تعالى : « بسم الله الرحمن الرحيم إن المتقين فى جنات وعيون أدخلوها بسلام آمنين ونزعنا مافى صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين لايمسهم فيها نصب وماهم منها بمخرجين نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم[3] » صدق الله العظيم وخلف حنية المدخل فتحة باب مستطيلة سعتها ٢٫٦٠ م وارتفاعها ٣٫٨٢ م فوقها لوحة تأسيسية من الرخام الأبيض مساحتها ٢٫١٠ م × ٠٫٧٠ م ، بها ستة أسطر من الكتابة النسخية البارزة بأحرف قصيرة نصها : بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذا المكان المبارك والموطن الذى ساهم فيه النية وشارك العبد الفقير إلى ربه جل وعلا المغترف من بحر نواله المغترف من أفضاله بكل لطف تدارك الأمير شيخو العمرى الناصرى عمر الله ببقائه ونصره وضاعف أسباب ثوابه وأجره وعوضه بقصور الجنة بعد امتداد عمره وتقبل أعماله الصالحة فى سر القول وجهره وجعله خالصًا لوجهه الكريم جائزًا به على الصراط المستقيم يوم معاده وحشره وتقرب به إلى ربه احتسابًا وإيمانًا وابتغى به فوزًا عند ربه وغفرانًا وأوى به كل أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره فأولاه احسانًا وجمع به قومًا كفاهم همّ المئونة فكفاهم الله شر

---

(١) أواخر سورة البقرة .

(٢) سورة النور آية ٢٥

(٣) سورة الحجر آية ٤٦ – ٤٩

يوم الفزع الأكبر ولقاه امانًا يواصلون العمل بالعلم ويقطعون الله تسبيحًا وقرآنًا تراهم ركعًا سجدًا يبتغون فضلا من الله ورضوانًا وكان ابتداء الشروع فيه فى شهر ربيع الأول سنة ست وخمسين وسبعمائة والفراغ مما حواه فى شهر شوال من السنة المذكورة ، ويعلو اللوحة التأسيسية فتحة نافذة مستطيلة يكتنفها عمودان غليظان قصيران ، ويغلق على فتحة الباب مصراعان من الخشب .

ويؤدى باب المدخل الرئيسى إلى دركاة مستطيلة الشكل طولها ١٥ر٤ م وعرضها ٧٠ر٣م ، أرضيتها مفروشة ببلاطات من الحجر الجيرى وسقفها مغطى بقبو حجرى متقاطع ، وبصدر الدركاة عقد كبير مدبب اتساع فتحته ٢٠ر٣ م ، بداخله مصطبة مساحة قاعدتها ٢٠ر٣×٦٠ر١م أرضيتها مفروشة ببلاطات من الحجر الجيرى ، ويكتنفها كتفان وبالدركاة فتحة من جهة الشرق باب يعلوه عقد مدبب اتساع فتحته ٧٥ز١ م ، ويؤدى إلى دهليز الخانقاه .

وهذا الدهليز غير منتظم الأضلاع ، أرضيته مفروشة ببلاطات من الحجر الجيرى ، بعض سقفه مغطى بألواح خشبية مستوية والبعض الآخر مكشوف . وبالجهة الجنوبية الشرقية للدهليز يوجد بابان معقودان يؤدى الأول إلى صحن الخانقاه ، واتساع الجنوبى ٤٠ر١ م وسمك باطنه ٣٠رم ويفضى الثانى إلى مرقى سلم حجرى . وبالجهة الغربية للدهليز قليلًا جهة الجنوب يوجد ثلاثة أبواب معقودة ويفضى الأول إلى ممر منكسر بنهايته قاعة أرضية مستطيلة مساحتها ٧٥ر٨×٧ م ، والأوسط يفضى إلى مرقى سلم ، والثالث يفضى إلى حمام الصوفية ، وبالجهة الشمالية للدهليز فتحة باب مستطيلة اتساعها ٧٠ر٣ م تؤدى إلى قاعة أرضية على شكل شبه منحرف سقفها مغطى بألواح خشبية مستوية وبها نافذة من نوافذ الواجهة ، وبالجهة الجنوبية للدهليز فتحة مستطيلة اتساعها ١٠ر٢ م تفضى إلى مساكن الصوفية .

الصحن :

مربع الشكل تقريبًا طوله ١٥ر٢٠ مترا وعرضه ٦٥ر١٩ مترا ، ويتوسطه فسقية ماء لها داير حجر مثمنة الشكل ويحيط بها ثمانية أعمدة مستديرة من الرخام ، ويعلوها ثمانية عقود

خشبية بينها روابط خشبية . وكان يعلو الفسقية قبة من عمل الأمير نوروز الحافظى[1]، ويغطيها حاليًا سقف خشبي مسطح بنهايته شرفات خشبية مزخرفة . والجهة الجنوبية الشرقية للصحن طولها ١٩٫٦٥ م خلفها رواق الخانقاة ومساحته ٤٣٫٥٠ × ٢٠ م ، وبالجهة الشمالية الغربية ست فتحات أبواب عقودها مدببة لخمس خلاو . أما السادسة فهى تخص الممر الصغير المقبي الذى يصل دهليز الخانقاة بصحنها ، والجهة الشمالية للصحن طولها ٢٠٫١٥ م يتوسطها إيوان صغير كانت تشغله مزيرة ، ويغطى سقفه ألواح وعروق خشبية مستوية . وقد ثبت بالجدار الجنوبى للإيوان لوحة خشبية من أربعة أسطر بها كتابات نسخية من قوله تعالى : « بسم الله الرحمن الرحيم إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرًا يوفون بالنذر ويخافون يومًا كان شره مستطيرًا ويطعمون الطعام على حبه مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا إنما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولا شكورا إنا نخاف من ربنا يومًا عبوسًا قمطريرا[2] » . ويجاور المزيرة من الجهة الجنوبية فتحتا بابين معقودتان تفضى كل منهما إلى خلوة أرضية على شكل شبه منحرف . أما الجهة الجنوبية للصحن فتحتوى على سبعة أبواب معقودة ، وتفضى كل منها إلى خلوة ماعدا الباب الجنوبى الشرقى فيفضى إلى ممر طويل مقبى مساحته ١٩٫٣ × ٧٢٠م ويعلو فتحات الأبواب بالصحن طابقان يخصان مساكن الصوفية .

رواق القبلة :

مستطيل الشكل طوله ٤٧٫٥٠ م وعرضه ٢٠ م أرضيته مفروشة ببلاطات من الحجر الجيرى وهو فى الواقع مسجد ذو ثلاثة أروقة ومن ثم فإننا نستطيع القول بأن خانقاه شيخون تمثل طراز الخانقاه للمسجد .

والرواق ينقسم إلى ثلاثة أقسام بواسطة بائكتين موازيتين لجدار القبلة ، وتحتوى كل بائكة على ستة أعمدة رخامية مابين مثمنة ومستديرة ، تعلو كلا منهما سبعة عقود حجرية مدببة اتساع فتحاتها يتراوح بين ٥٫٣٠ ، ٥٫٨٠ م ويفتح الرواق على الصحن بواسطة مدخل يحتوى على عمودين يقسمانه إلى ثلاثة عقود الأوسط منها أوسعها .

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ٣٢١

(٢) سورة الإنسان آية ٥ — ١٠

وبصدر الرواق محراب اتساع حنيته ٥٠ر١ م وعمقها ١٠ر١ م ، طاقيته على هيئة عقد مدبب بقاعدتها نصف دائرة تنبثق منها خطوط اشعاعية بارزة ، ويكتنف المحراب عمودان مثمنان من الرخام يعلوهما زخارف نباتية بارزة ، وبجانب المحراب يوجد منبر مضاف ، جانباه مكونان من الحشوات الخشبية المجمعة بهما زخارف هندسية قوامها أطباق نجمية وقطع خشب خرط ، ويعلو المنبر جوسق وقبة خشبية . وبأعلى جدار المحراب توجد سبع قمريات ، الوسطى منها مستديرة أما الباق فمستطيل وذو عقود مدببة قد ملئت بزخارف جصية وزجاجية ملونة . ويتوسط الرواق الأوسط دكة من الخشب الخرط . وبالجهة الشمالية للرواق ضريح المنشىء ومساحته ٦٠ر٩×٦ م ، تعلوه قبة خشبية مجددة ، وإلى يمين القبة حجرة شبه منحرفة لها فتحات تطل على الطريق والجهة الجنوبية للرواق يتوسطها ثلاث فتحات مستطيلة ، تفضى الفتحة الوسطى إلى قاعة مكونة من إيوانين متقابلين بينهما در قاعة .

مساكن الصوفية :

توجد ثلاث وحدات سكنية بالجهة الجنوبية الخلفية الخانقاه ، تتكون كل منها من ثلاثة طوابق :

والوحدة الأولى بأقصى الحد الجنوبى وهى فردية ، وهى عبارة عن ثلاث خلاو متجاورة كل على شكل شبه منحرف .

والوحدة الثانية مزدوجة وهى تضم خمس خلاوى متجاورة حبيس ، كل على هيئة مستطيل طوله ٤ م وعرضه يتراوح بين ٨٠ر٢ م ، ٥٠ر٢ م .

والوحدة الثالثة مزدوجة ، يطل القسم الشمالى على الصحن ويتكون من ثلاثة طوابق ، الطابق الأرضى يتكون من خمس خلاوى حبيس مستطيلة ، وأعلى مدخل كل منها فتحة ضيقة كالسهم وسقوفها مقبية . والقسم الجنوبى يتكون من خمس خلاو مستطيلة وسقوفها مقبية ، ويعلو تلك الوحدة السكنية الثالثة طابقان يحتفظان ببعض معالمهما ، بكل طابق عشر غرف متقابلة ، بينها ممر طويل مسقوف .

وهناك مساكن تطل على صحن الخانقاه بكل من الجهة الشمالية الغربية والشمالية . فبالشمالية خلوتان وبالشمالية الغربية أربع خلاو مستطيلة .

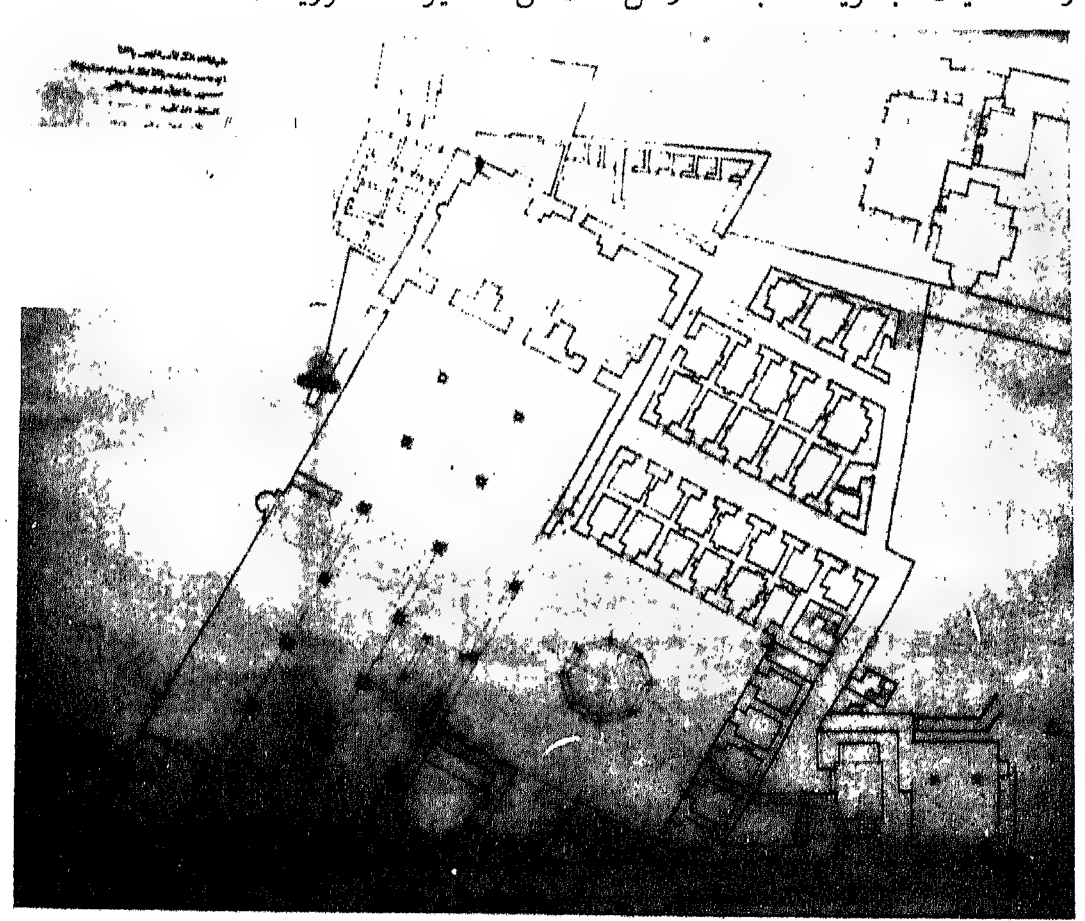
المئـذنة :

توجد خلف المدخل الرئيسى للخانقاه ويبلغ ارتفاعها حوالى ٢٠ م ، وتتكون من ثلاثة طوابق ، الطابق الأول مثمن الشكل ويوجد بارتفاعه طاقات صماء تنتهى بعقود مدببة (زاوية) .

أما الطابق الثانى فيزداد بأشكال دالية ، ويتقدم كلا من الطابقين شرفة خشبية ترتكز على أفاريز متدرجة على شكل مدرج .

ويعلو الطابقين جوسق بأعمدة حجرية تنتهى بمنطقة مقرنصة ، ترتكز عليها خوذة بصلية متطورة : من النوع المشاهد فى أواخر عصر دولة المماليك البحرية .

ومما يجدر ملاحظته أن مئذنة الشيخونية مبنية كلها بالحجر على غير المألوف فى مآذن دولة المماليك البحرية السابقة ، ولعل ذلك من التأثيرات السورية .



(شكل ٢٧) خانقاه الأمير شيخو

مدرسة صرغتمش

بشارع الخضيرى سنة ٧٥٧ هـ

الأمير صرغتمش هو سيف الدين صرغتمش الناصرى رأس نوبة جلبة الخواجا الصواف فى سنة سبع وثلاثين وسبعمائة فاشتراه السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون بمائتى ألف درهم فضة ثمنها يومئذ نحو أربعة آلاف مثقال ذهب وخلع على الخواجا تشريفًا كاملًا بحياصة ذهب . كان صرغتمش خامل الذكر إذ عينه الملك الناصر جمدارًا[1] إلى أن كانت أيام المظفر حاجى بن محمد بن قلاوون فبدأ نجمه يتلألأ وترقى فى الخدمة وتمكن عند المظفر . وفى مدة حكم الملك الصالح بن محمد بن قلاوون توجه فى خدمته إلى دمشق فى نوبة يلبغاروس وصار السلطان يرجع إلى رأيه ولما عاد من دمشق أمسك[2] الوزير علم الدين عبد الله بن زنبور بغير أمر السلطان وأخذ أمواله ومن وقتها عظم أمره واستقر رأس نوبة كبيرًا فى رتبة الأمير شيخون باختيار شيخون ، وجعل إليه التصرف فى أمور الدولة كلها من الولاية والعزل والحكم ، ماعدا مال الخاص فجعل التحدث فيه للأمير شيخون ، فقصد الناس صرغتمش لقضاء أشغالهم[3] وكثرت مهابته وعارض الأمراء فى جميع أفعالهم وأراد ألا يعمل شىء إلا من بابه وبإشارته ، فإن تحدث غيره غضب وأبطل ماتحدث فيه ، فأجمع الأمراء باستبداد السلطان بالتصرف وأن يكون ما يرسم به على لسان الأمير صرغتمش واستطال وعظم ترفعه على الناس فتنكرت له الأمراء وكثرت الأراجيف بوقوع فتنة .

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٤٠٤ (وكلمة جام دار) مركب من كلمتين : جام أى مرآة ودار أى حامل . فهو الذى يحمل المرآة أمام الملك ويتولى خدمته .

(٢) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٤٠٥

(٣) النجوم الزاهرة : ج ٩ ص ٢٦٨

ولما عاد السلطان حسن بن محمد بن قلاوون إلى الملك بعد خلع أخيه الملك الصالح ورأى تدخل صرغتمش وعظم نفوذه وتصرفه فى شئون الدولة قبض عليه فى ٢٠ رمضان سنة ٧٥٩ هـ وحبسه بالاسكندرية حيث مات فى محبسه بعد شهرين واثنى عشر يومًا ثم نقلت جثته إلى قبة مدرسته[١].

وكان صرغتمش مليح الصورة[٢] ، جميل الهيئة يقرأ القرآن الكريم ويشارك فى الفقه على مذهب الحنفية ويبالغ فى التعصب لمذهبه ويقرب العجم ويكرمهم وكانت أخلاقه شرسة ونفسه قوية ، فإذا بحث فى الفقه أو اللغة اشتط وإذا تحدث فى الأوقاف وفى البريد خاف الناس منه واشتد فى أمر الأوقاف فعمرت فى مباشرته ولما قبض عليه السلطان أخذ أمواله وكانت شيئًا كثيرًا يجل عن الوصف .

وتقع هذه المدرسة الصرغتمشية خارج القاهرة بجوار جامع الأمير أبى العباس أحمد ابن طولون فيما بينه وبين قلعة الجبل كان موضعها[٣] قديمًا جملة قطائع ابن طولون ثم صار عدة مساكن فأخذها الأمير سيف الدين صرغتمش الناصرى رأس نوبة النوب وهدمها وابتدأ فى بناء المدرسة يوم الخميس من شهر رمضان سنة ست وخمسين وسبعمائة وانتهت فى جمادى الأولى سنة سبع وخمسين . وقد جاءت من أبدع المبانى وأجلها وأحسنها قالبًا وأبهجها منظرًا ، فركب الأمير صرغتمش فى يوم الثلاثاء تاسعة وحضر إليه الأمير سيف الدين شيخون العمرى مدبر الدولة والأمير طاشتمر القاسمى صاحب الحجاب والأمير توقتاى الدوادار وعامة أمراء الدولة وقضاة القضاة الأربعة ومشايخ العلم ، ورتب مدرس الفقه بها قوام الدين أمير كاتب ابن أمير عمر العميد بن العميد أمير غازى الاتقانى ، فألقى القوام الدرس ثم مد سماط جليل بالهمة الملوكية وملئت البركة التى بها سكر قد أذيب بالماء فأكل الناس وشربوا وأبيح مابقى من ذلك للعامة فانتهبوه . وجعل الأمير صرغتمش هذه المدرسة وقفًا على الفقهاء الحنفية الآفاقية ورتب بها درسًا للحديث النبوى وأجرى لهم جميعًا المعاليم من وقف رتب لهم .

---

(١) الملوك : جـ ٣ ص ٣٦ .

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٤٠٥

(٣) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٤٠٣ ، ٤٠٤

دار صرغتمش :

هذه الدار بخط بئر[1] الوطاويط بالقرب من المدرسة الصرغتمشية المجاورة لجامع أحمد ابن طولون من شارع الصليبة ، كان موضعها مساكن فاشتراها الأمير صرغتمش وبناها قصرًا واصطبلا فى سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة وحمل إليه الوزراء والكتاب والأعيان من الرخام وغيره شيئًا كثيرًا وهذه الدار عامرة إلى زمن المقريزى يسكنها الأمراء وفى سنة ٨٢٧ هـ وقع الهدم فى القصر خاصة .

ويعلق الأستاذ محمد[2] رمزى على ذلك فيقول : من هذا الوصف يتضح أن هذه الدار كانت بخط بئر الوطاويط ومشرفة على شارع الصليبة بالقرب من المدرسة الصرغتمشية . وبما أن الشارع المذكور لايزال محتفظًا باسمه والمدرسة الصرغتمشية لاتزال قائمة وخط بئر الوطاويط لايزال معروفًا بهذا الاسم ، ويدل عليه شارع بئر الوطاويط ، فقد بحثت فى تلك المنطقة على دار صرغتمش واصطبله فتبين لى أن هذه الدار قد اندثرت ، ومكانها اليوم دار راشد باشا حسنى المعروف بأبى شنب فضة رقم ٩ بشارع الصليبة بالقاهرة وقد آلت هذه الدار إلى ولده أحمد بك احسان وهى بالقرب من جامع صرغتمش ويشغلها اليوم كلية الشريعة الاسلامية أحد أقسام الجامعة الأزهرية .

وأضاف الأستاذ محمد رمزى قوله : إن المقريزى[3] تكلم فى خططه على بئر[4] الوطاويط فقال : إن هذه البئر أنشأها الوزير أبو الفضل جعفر بن الفضل بن جعفر بن الفرات المعروف بابن حنزابة ، لينقل منها الماء إلى السبع سقايات التى أنشأها بخط الحمراء وحبسها لجميع المسلمين ، فلما طال الأمر وخربت السقايات التى كانت بخط السبع سقايات ، بنى فوق البئر المذكورة وتولد فيها كثير من الوطاويط فعرفت ببئر الوطاويط ، ولما أكثر الناس من بناء الأماكن حول مكان هذه البئر عرفت الخطة إلى اليوم بخط بئر الوطاويط ثم قال المقريزى : وهو خط عامر .

---

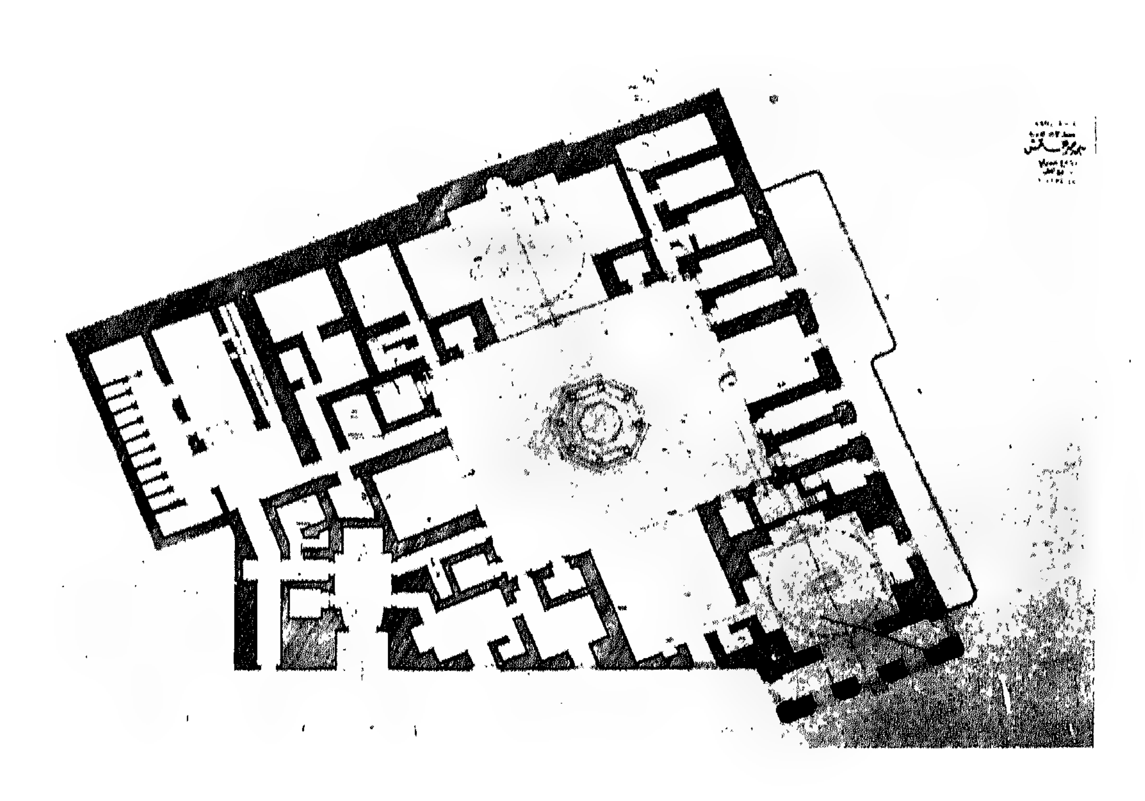
(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٧٤

(٢) النجوم الزاهرة : جـ ٩ هامش صفحة ٢٦٧

(٣) النجوم الزاهرة : جـ ٩ هامش صفحة ٢٦٧ فقرة (٢)

(٤) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٣٥

وقال الأستاذ محمد رمزى إن بحثه قد دل على أن هذا الخط كان يشمل المنطقة التى يحدها اليوم من الغرب جامع أحمد بن طولون ومن الجنوب درب البزابيز ومن الشرق حارة الأربعين ومن الجنوب شارع الصليبة . وكانت هذه المنطقة يخترقها شارع بئر الوطاويط من الشمال إلى الجنوب . ولأن المبانى التى كانت واقعة بين هذا الشارع وبين جامع ابن طولون كانت مزاحمة ومشوهة لواجهة الجامع فأزالتها مصلحة التنظيم فى سنة ١٩٢٥ م وأقامت فى مكانها متنزهًا عامًا أصبح فاصلا بين الجامع وبين طريق شارع بئر الوطاويط وأطلق عليه ميدان أحمد بن طولون .



(شكل ٢٨) مدرسة صرغتمش

الوصف المعمارى

تشغل المدرسة مساحة من الأرض تكاد تكون مربعة تقريبًا ، تقوم على مبان قديمة اتخذها المعمار قاعدة وأساسا للمدرسة بعد أن سدت فتحاتها وأبوابها كما يظهر ذلك واضحًا من الواجهة الجنوبية . وللمدرسة واجهتان جنوبية وغربية ، الجنوبية منها يتوسطها باب يؤدى إلى دركاة مغطاة بأقباء متقاطعة وإلى يسارها يوجد استطراق يسير بحذاء الإيوان الجنوبى ويصل بنا إلى صحن المدرسة ، ويشغل الواجهة الجنوبية مجموعة من الحوانيت أمامها سلم بعرض (٦ر٤) متر يصعد منه إلى الرحبة أمام الضلع الغربى لجامع أحمد بن طولون . ويعلو مجموعة الحوانيت مجموعة من النوافذ على عدة صفوف تقابل طوابق المدرسة الثلاثة .

وتقع الواجهة الرئيسية للمدرسة فى الجهة الغربية حيث يوجد بها المدخل الرئيسى الذى يبرز قليلا عن سمك الحائط . ويتوسط المدخل باب يعلوه عتب مزخرف بنقوش نباتية وجاء فوق العتب عقد عاتق به صنجات معشقة ملونة بالأبيض والأحمر على التوالى ، ويعلو العقد نافذة صغيرة يكتنفها زخارف نباتية محفورة فى الحجر . ويحيط بالباب وما عليه وما يكتنفه من زخارف ونقوش عقد كبير ذو ثلاثة فصوص ومملوء بمجموعة من الدلايات ومقرنصات جميلة التنسيق . وعلى جانبى الباب يوجد شريط به كتابة جاء فيه « أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة المقر الأشرف العالى المولوى العالمى العادلى الفاضلى السيفى صرغتمش رأس نوبة الملكى الناصرى (مربى العلماء) مقوى الضعفاء بانى المدارس والمساجد فى ربيع الآخر سنة سبع وخمسين وسبعمائة » .

ووظيفة رأس نوبة التى كان يشغلها الأمير صرغتمش تعتبر الوظيفة الثالثة من حيث القدر والأهمية بالنسبة للوظائف العسكرية بحضرة السلطان فى عصر المماليك البالغ عددها خمسا وعشرين وظيفة[1] . وقد كان يختار لهذه الوظيفة عادة أمراء الخاصكية نظرًا لأهميتها.

---

(١) صبح الأعشى : جـ ٤ ص ١٨

وكان عددهم فى أول الأمر أربعة[1] ثم زادوا إلى أكثر من عشرة[2]. وكان كبير رؤس النواب يسمى رأس نوبة .

ويؤدى باب المدخل الرئيسى إلى دركاة على يسارها توجد ميضأة ، وعلى اليمين باب يؤدى إلى حجرة كبيرة تطل على الواجهة بنافذة كبيرة . كما يوجد باب ثالث يؤدى إلى صحن المدرسة ، ولما كانت المدرسة مرتفعة عن المدخل الرئيسى لذلك فإننا نجد قلبة بها خمس درجات يصعد عليها لنصل إلى الصحن .

وتقع القبة فى الطرف الجنوبى الغربى للمدرسة وهى بارزة قليلا عن سمت الواجهة الرئيسية فتح فى ضلعها الغربى صفان من الفتحات الصف السفلى يتكون من نوافذ مستطيلة الشكل ملئت بمصبعات نحاسية والصف العلوى يتكون من نوافذ معقودة ملئت بزخارف جصية جميلة التكوين . وينتهى أعلى جدار القبة وكذا الواجهة الرئيسية بشرفات مدرجة ويعلو مربع القبة رقبة ممتدة يحيط بها افريز يحتوى على بحور بها كتابات تتخللها زخارف نباتية وقد فتح فى الرقبة من الخارج ثمانى نوافذ ملئت بزخارف جصية معشقة بالزجاج المتعدد الألوان أما منطقة الانتقال فقد ملئت بخمسة صفوف من المقرنصات .

وتمتاز قبة مدرسة صرغتمش بظاهرة يندر وجودها فى عمائر القاهرة وهى احتواؤها على قبة مزدوجة البناء ، قبة داخلية قطاعها شبه دائرى وتقوم على رقبة متوسطة الارتفاع وقبة خارجية ذات قطاع مدبب وتقوم على رقبة ممتدة الارتفاع بحيث أنها تبدأ فى منتصف النوافذ السابق الإشارة إليها .

ويتوسط القبة تركيبة رخامية نادرة المثال كذلك، دفن تحتها الأمير صرغتمش وابنه الأمير إبراهيم[3] المتوفى سنة ٧٧٠ هـ . وتحتوى القبة على إيوان يقع فى الضلع الغربى منها سقف مكون من أقبباء متقاطعة ، سد مدخله بمقصورة من الخشب الخرط يعلوه أفريز عريض يحتوى على زخارف نباتية وبحور تحتوى على كتابات قرآنية .

---

(١) السخاوى : الضوء اللامع ص ٣٤٦

(٢) الظاهرى : زبدة كشف الممالك ص ١١٥

(٣) المقريزى : الملوك جـ ١ قسم (٣) ص ٦٨

وفى الركن الجنوبى للقبة توجد المئذنة التى يبلغ ارتفاعها عن أرض الشارع (٤٠) م وترفع فوق سطح المدرسة بمقدار (٢٤٫٦٠) م وهى مبنية من الحجر ورشيقة التكوين . وتشتمل المئذنة على ثلاثة طوابق ، الطابق الأول مثمن الشكل ويقوم على قاعدة مربعة مرتفعة بها باب معقود . وقد زخرف هذا الطابق باستعمال مداميك حجرية ملونة بالأبيض والأحمر وعلى ارتفاع عشرة مداميك زخرف كل ضلع من أضلاع المثمن بحنية ضحلة معقودة ملئت برسم زهرة كبيرة ذات ثلاث بتلات ثم يأتى بعد ذلك خمسة مداميك وينتهى الطابق الأول الذى يفصل بينه وبين الطابق الثانى شرفة ذات (١٦) ضلعا ملئت كلها بزخارف هندسية ونباتية مخرمة . وتقوم هذه الشرفة على مجموعة من الدلايات والمقرنصات الجميلة الترتيب والتكوين . ويتكون الطابق الثانى من شكل ثمانى مبنى من مداميك أبيض وأحمر بعضها متعرج ، وينتهى بشرفة ذات (١٦) ضلعًا مماثلة للشرفة الأولى . أما الطابق الثالث فمكون من ثمانية عمد تحمل جوسقا تعلوه خوذة .

ويتكون صحن المدرسة من مربع مكشوف تحيط به الإيوانات من أربع جهات ويتوسطه فسقية للوضوء على شكل مثمن يقوم على كل ركن من أركانه عمود رخامى ويعلو الأعمدة سقف مسطح ومن الواضح أنه قد حدث ترميم وتغيير فى هذه الفسقية[1] .

ويعتبر الإيوان الشرقى أكبر الإيوانات لاحتوائه على القبلة التى تتوسط الضلع الشرقى منه . ويتكون محراب القبلة من تجويف كثير العمق مزخرف بفسيفساء رخامية ملونة يحتوى بعضها على زخارف نباتية دقيقة . ويكتنف تجويف المحراب عمودان من الرخام الأخضر المجزع ، ويعلوه طاقية منقوشة ومكتوب عليها آية الكرسى . ويجاور المحراب منبر خشبى مكون من حشوات خشبية مجمعة على شكل أطباق نجمية . ويدل أسلوب — الحشوات المجمعة وكذا الزخارف التى يحتويها وكذلك الكتابة على أنه أحدث من المدرسة ، فقد جاء فى الكتابة فى بابه « أنشأ هذا المنبر من فضل الله تعالى قبو مجى أحمد كتخداى عزبان عمره الله سنة ١١١٨ هـ » . ويتقدم الإيوان الشرقى عقد مدبب أبلق يكتنفه أربعة أبواب ، اثنان منها يوصلان إلى المدارس واثنان إلى خلوات . وقد قسم الإيوان إلى ثلاثة

---

(١) حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ص ١٦١

أجزاء المتوسط منها أوسعها وتقوم عليه قبة تتقدم المحراب تقوم على دعائم . وقد شغلت منطقة انتقال القبة بمقرنصات خشبية ، ويعلو منطقة الانتقال رقبة مرتفعة فتحت فيها ثماني نوافذ معقودة يحيط بها من الخارج إطار مستطيل . وقد ملئت هذه النوافذ بزخارف جصية معشقة بزخارف متعددة الألوان معظمه مجدد.

ويحتوى كل قسم من القسمين الجانبيين للإيوان الشرقى على حنية مستطيلة عميقة تشبه تلك الموجودة بخانقاه بيبرس جاشنكير. وقد امتاز الإيوان الشرقى عامة باحتوائه على زخارف ونقوش متعددة ، إذ نرى على جانبي المحراب بقايا وزرة مكونة من ألواح رخامية يتخللها جامات بها (رنكة) شارة صرغتمش وهى (جمدار) أى المرآة . وقد أحيطت الوزرة بزخارف نباتية مكتوب بها : مما عمل برسم المقر العالى السيفى الملكى الناصرى صرغتمش أسبغ الله عليه ظلاله » كما وجدت رسوم تحتوى على شكل قناديل وعناقيد عنب وأوراق عنب . كذلك وجد فى هذا الإيوان دائرة رخامية بها زخارف نباتية مذهبة ومحفورة حفرًا بارزًا حولها أربعة تواشيح من الرخام الملون .

ويقابل الإيوان الغربى إيوان القبلة وهو مماثل له من حيث الاتساع إلا أنه أقل عمقًا . إذ يتقدم الإيوان عقد مدبب مكون من صنجات أبيض وأحمر ويكتنفه أربع خلوات . وإلى الشمال من الإيوان الغربى توجد حجرة مستطيلة يغطيها سقف خشبى حافل بالنقوش الزيتية المتعددة الزخارف والألوان .

أما الإيوان الشمالى والإيوان الجنوبى فمتماثلان يتقدمهما عقدمدبب يحتوى على صنجات مبنية بطريقة الأبلق كباق الإيوانات الأربع . ويكتنف الإيوان الجنوبى أربع خلوات أما الإيوان الشمالى فيكتنفه أربعة أبواب اثنان يؤديان إلى المدارس الجانبية واثنان أبواب خلوات . ويحيط بجدران الإيوانات الأربع وكذا الصحن أزار خشبى ، كما يحتفظ السقف الخشبى للإيوان الجنوبى على بقايا زخارف زيتية متعددة الألوان تعطى فكرة واضحة عما كانت عليه بقية سقوف المدرسة ، كما حليت أعتاب الألوان (والدواليب) الحائطية التى تزخر بها الإيوانات بالعديد من الزخارف المحفورة وكذا رنك المنشىء .

ويصف لنا المقريزى الاحتفال بافتتاح المدرسة[1] فيقول : إن صرغتمش احتفل بافتتاحها بحضور الأمراء وقضاة القضاة الأربعة والعلماء وعين أستاذ الفقه بها قوام الدين أمير كاتب الاتقانى ورتب بها درسًا للحديث النبوى ورصد عليها أوقافًا[2] منها منية[3] حلفا . وكان الفراغ من بناء هذه المدرسة فى شهر ربيع الآخر[4] سنة ٧٥٧ هـ (سنة ١٣٥٦ م) وهى من المدارس الجليلة التى أعدت لتدريس فقه السادة الحنفية ، على خلاف المدارس الأيوبية والمملوكية التى كانت دائمًا تخصص لتدريس المذهب الشافعى أو المالكى . فقد خصصت مدرسة صرغتمش لعلماء المذهب الحنفى وخاصة الفرس منهم فى القرنين الثامن والتاسع الهجرى . فقد تولى التدريس منهم محمد بن قطلوشاه أرشد الدين المتوفى سنة ٧٧٥ هـ ومحمد ابن التلمسانى المتوفى سنة ٧٨١ هـ ومولانا زادة أحمد بن أبى يزيد المتوفى سنة ٧٩١ هـ وجلال الدين التيزنى المتوفى سنة ٧٩٣ هـ وعبد الرحمن التفهنى المتوفى سنة ٨٣٥ هـ . ولما توفى الشيخ العلامة قوام الدين الاتقانى فقيه المذهب الشافعى دفن بالإيوان الغربى للمدرسة .

---

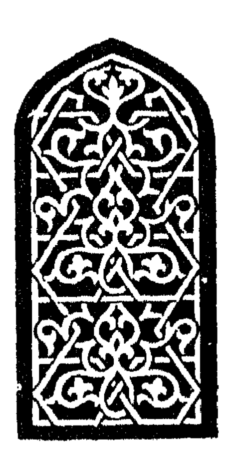
(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٤٠٤

(٢) ابن دقاق جـ ٥ ص ٤٧

(٣) منية حلفا : قرية بمديرية القليوبية من مركز قليوب على الشاطىء الشرقى لأبى المنجا ، شمال منية نما . وهى تقع على بعد أربعة آلاف متر شرقى قليوب وبها جامع له مئذنة مرتفعة . ويتكسب أهلها من الزراعة .

المرجع — الخطط التوفيقية جـ ١٦ ص ٦٢

(٤) المقريزى : الملوك جـ ٣ قسم (١) ص ٣٦



مدرسة السلطان الملك الناصر حسن

سنة ٧٦٠ هـ

هو السلطان الملك الناصر حسن ابن السلطان الملك الناصر محمد ابن السلطان الملك المنصور قلاوون . ولد فى سنة ٧٣٥ هـ وأمه أم ولد ماتت عنه وهو صغير فتولى تربيته خوند أردو ، وكان أولا يدعى قمارى . ولى الملك فى ١٤ رمضان من سنة ٧٤٨ هـ وعمره ثلاث[1] عشرة سنة . ولما جلس على تخت الملك لقبوه بالملك الناصر سيف الدين قمارى غير أنه لم يرض بهذا اللقب وقال إنما اسمى حسن ، فاستلطفه الناس لصغر سنه ولذكائه فصاحت الحجاب فى الحال باسمه وشهرته وتم أمره وحلف له الأمراء وهو السلطان التاسع عشر من ملوك الترك بالديار المصرية والسابع من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون[2] .

وكان أمر المشورة فى الدولة والتدبير لتسعة أمراء هم : بيغا أرس القاسمى والجيبغا المظفرى وشيخون العمرى وطاز الناصرى وأحمد شاد الشراب خاناه وأرغون الاسماعيلى وثلاثة أخر ، فاستقر الأمير شيخون رأس قوبة كبيرًا وشارك فى تدبير المملكة .

وفى السنة الثانية لحكم السلطان حسن ظهر الوباء والفساد بمصر والشام من كثرة قطع الطريق وارتباك الأمور لانفراد الأمير منجك وأخيه بيبغا أرس بتدبير المملكة وفرضهما

---

(١) المقريزى : جـ ٢ ص ٣١٧ وجاء فى النجوم الزاهرة أن عمره وقت ولاية الملك إحدى عشرة سنة — النجوم الزاهرة : جـ ٩ ص ١٨٧

(٢) النجوم الزاهرة : جـ ٩ ص ١٨٧

(٣) النجوم الزاهرة : جـ ٩ ص ١٩٥

الأتاوات على الرعية ، أضف إلى ذلك ظهور الوباء الذى لم يقع مثله ، فما أهل المحرم من سنة تسع وأربعين حتى اشتد بديار مصر فكان يموت بالقاهرة ومصر مابين عشرة آلاف إلى خمسة عشر ألف نفس فى كل يوم ، وعملت الناس التوابيت والدكك لتغسيل الموتى حسبة لوجه الله بغير أجر وحفرت الحفائر والقيت فيها الموتى ، فكانت الحفرة يدفن فيها الثلاثون والأربعون وأكثر واتصل الوباء (الطاعون) ببلاد الشرق جميعها .

وفى سنة ٧٥١ هـ أثبت القضاة أن السلطان قد بلغ سن الرشد . فتولى تدبير أمور الملك بنفسه وعند ذلك قبض على الأميرين منجك وبيغاروس مما دعا الأمراء إلى التآمر عليه وإقصائه عن الملك ، وتفصيل ذلك أن السلطان لزم الفراش أياماً لوعكة أصابته فبلغ الأمير طاز ومغلطاى ومنكلى بغا أنه أراد باظهار توعكه القبض عليهم إذا دخلوا إليه وأنه قد اتفق مع قشتمر والطنبغا الزامر وملكتمر المارديني وتنكربغا[1] على ذلك ، وأن ينعم عليهم – باقطاعاتهم .

تواعد الأمراء المتآمرون عند قبة النصر ولبسوا ملابس القتال فبعث السلطان يسألهم عن سبب ركوبهم فقالوا له : « أنت اتفقت مع مماليكك على القبض علينا ولابد من إرسالهم إلينا فبعثهم السلطان إليهم فقبضوا عليهم وسجنوهم ثم دخلوا على السلطان الناصر حسن بالقصر الأبلق وأخذوه من بين حرمه ووكل به من يحفظه بعد أن تنازل عن السلطنة وكان ذلك سنة اثنين وخمسين وسبعمائة . وكانت مدة ولايته ثلاث سنين وتسعة أشهر وأربعة عشر يوماً ، منها مدة الحجر عليه ثلاث سنين ومدة انفراده بالملك تسعة أشهر . وكانت أيامه شديدة الوطأة مع الرعية إذ كثرت فيها المغارم بالنواحى وخربت عدة أملاك على النيل واحترقت مواضع كثيرة بالقاهرة ومصر وخرجت عربان[2] العايد وثعلبة وعشير الشام وعرب الصعيد عن الطاعة ، واشتد فسادهم وكثر قطعهم الطرقات ثم كان الفناء العظيم (وباء الطاعون) الذى استشرى فى البلاد بما لم تعهد البلاد مثله ، وقيام ابن واصل الأحدب ببلاد الصعيد والعجز عنه .

---

(١) السلوك : جـ ٢ ص ٨٤١

(٢) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٨٤٣

أما الملك الناصر حسن فكان فى نفسه مفرط الذكاء عاقلا وفيه رفق بالرعية متدينًا شهمًا لو وجد ناصرًا أو معينًا ، لكان أجل[1] الملوك كما تبين ذلك فى سلطنته الثانية .

وفى سنة ٧٥٥ هـ اتفق صرغتمش مع الأمير شيخون على خلع الملك الصالح صالح ابن الملك الناصر محمد الذى حل فى الملك مكان أخيه الملك الناصر -- عن الملك وسلطنة الملك الناصر ثانية ، فأبرموا ذلك ثم دخلوا إلى القلعة وأرسلوا فى طلب الملك الصالح ، فلما توجه إليهم أخذ من الطريق وحبس وقالوا بأنه خلع نفسه من السلطنة ثم طلبوا الملك الناصر حسن من محبسه بالقلعة وكلموه فى العودة على شروط قبلها وبايعوه ثانية بالسلطنة وأقبل عليه الأمراء مظهرين الولاء والطاعة .

دام السلطان حسن فى السلطنة ولم يحرك ساكنًا إلى سنة ٧٥٨ هـ التى ضرب فيها شيخون وهو بحضرة السلطان فى دار العدل والأمراء جلوس فى الخدمة والقضاء إذ وثب مملوك يدعى قطلو خجا السلاح دار على الأمير شيخون وضربه بالسيف ثلاث ضربات أصابت وجهه ورأسه وذراعه ، فوقع شيخون مغشيًا عليه ونقل إلى داره وعاده فى الصباح السلطان الملك الناصر حسن وحلف له أن الذى وقع لم يكن بتدبيره ولا علم له به وكان الظن السائد أن السلطان هو الذى سلّط الجانى لارتكاب فعلته ثم تحقق الناس من براءة السلطان إذ قرر الجانى أن السبب الذى دعاه إلى الاعتداء على الأمير شيخون أنه طلب منه خبزًا فمنعه منه وأعطاه لغيره وقد اقتص السلطان منه بأن أمر بتسميره فسُمِّر ثم[2] وُسِّط .

لزم شيخون الفراش من جراحه إلى أن مات سنة ٧٥٥ هـ بعد ثلاثة أشهر من إصابته وبموت شيخون خفت عن السلطان أشياء كثيرة ، لأنه كان ثقيل الوطأة على السلطان إلى الغاية بحيث أن السلطان كان لايفعل شيئًا حتى يشاوره فى حقير الأمور وجليلها ، فلما مات التفت السلطان حسن إلى إنشاء مماليكه ، فأمّر منهم جماعة كثيرة .

انفرد صرغتمش بتدبير المملكة بعد موت شيخون وعظم أمره واستطال فى الدولة ، وأخذ وأعطى وزادت حرمته وأثرى وكثرت أمواله ، ولما صفا له الوقت بغير منازع لم يقنع

---

(١) النجوم الزاهرة : جـ ٩ ص ٢٣٣

(٢) النجوم الزاهرة : جـ ٩ ص ٣٠٥

بذلك بل رغب فى الوثوب على الملك الناصر حسن وانتزاع الملك منه ، فبلغ الناصر ذلك ، فاتفق مع جماعة من الأمراء على مسكه عند دخوله على السلطان ، فلما كان وقت دخوله وقفوا له فى مكان رتبهم السلطان فيه ، فلما دخل صرغتمش احتاطوا به وقبضوا عليه ، فلما بلغ مماليكه خبر القبض عليه ركبوا بالسلاح وطلعوا إلى الرميلة ، فنزل إليهم المماليك السلطانية من القلعة وقاتلوهم إلى أن كان النصر لمماليك السلطان إذ أخذتهم السيوف السلطانية ثم نهبت دار صرغتمش كما نهبت دكاكين الصليبة وقبض على جماعة من الأعجام من صوفية المدرسة الصرغتمشية لأنهم ساعدوا الصرغتمشية وحموهم عند انكسارهم ثم سكنت الفتنة وأخرج صرغتمش ورفاقه فى القيود إلى الاسكندرية ، فسجن بها حتى مات ، فأصبح الملك الناصر حسن هو سلطان مصر بلا منازع وصفا له الجو فقرب من اختار وأبعد من أبعد ورقى مماليكه وأنعم عليهم ، وكان يميل إلى التقرب من أولاد الناس غير المماليك وترقيتهم إلى الرتب السنية ، لا لحبه لهم ، بل كان يقول : هؤلاء مأمونو العاقبة وهم فى طى علمى وحيث وجهتهم إليه توجهوا ومتى أحببت عزلهم أمكننى ذلك بسهولة وكان يفضلهم ارفقهم بالرعية ومعرفتهم بالأحكام .

وقال المقريزى[1] : أمّر السلطان حسن لأول مرة فى تاريخ الدولة التركية أولاد الناس ليستعيض بهم عن الجند التركى ولكنه عوجل قبل ذلك ولم يأت بعده من أحيا تلك الفكرة إلّا ابن أخيه الأشرف شعبان بن حسين فإنه اتخذ من المصريين أمراء المماليك ، ولكنه عوجل كعمه وخمدت الفكرة بموتهما » .

وفى سنة اثنين وستين وسبعمائة بلغ الملك الناصر حسن أن مملوكه يلبغا العمرى ينتقد أعماله فأراد القبض عليه وكان ذلك بناحية الجيزة عند خروج السلطان للصيد ومعه غالب أمرائه ومنهم يلبغا ، فنم بعض خدم السلطان بذلك إلى يلبغا ، فاستعد للأمر ، ولما قارب السلطان لمخيم يلبغا للقبض عليه خرج إليه يلبغا بمن معه وقاتله ، فلم يثبت السلطان لقلة من كان معه من مماليكه وانكسر وهرب وانتقل إلى البر الشرقى من النيل وطلع إلى قلعة الجبل ليلا وتبعه يلبغا ومن معه إلى القلعة . ولما لم يجد السلطان حسن قوة كافية بالقلعة يلاقى

---

(١) الخطط : جـ ٢ ص ٣١٨ والمنهل الصافى : جـ ٢ ص ٣٥ ، ابن إياس : جـ ١ ص ٢٣٥

بها يلبغا تخفى هو وايدمر الدوادارى فى زى الأعراب وعزما على الهرب للشام ، فنزلا من القلعة عند الفجر فلقيهما بعض المماليك فأمسكوهما فى الحال وأحضروهما إلى بيت الأمير شرف الدين الأزكشى فحملهما إلى يلبغا حال صعود يلبغا إلى القلعة فقتلهما[1] .

وكان عمر السلطان يوم قتله نيفا وثلاثين سنة وكانت مدة ملكه فى سلطنته الثانية هذه ست سنين وسبعة أشهر وكان قتله وزوال ملكه على يد أقرب الناس إليه من مماليكه وخواصه.

وأهم عمائر السلطان حسن مدرسته المعروفة به تجاه قلعة الجبل ، التى لم يبن فى الإسلام نظيرها ولا حكاها معمار فى حسن عملها . وتقع مكان دار الطنبغا الماردانى ويلبغا اليحياوى بالرميلة التى هدمها[2] السلطان فى سنة ثمان وخمسين وسبعمائة هجريًا وأضاف إليها دورًا واسطبلات أخر . ولما شرع فى عمارتها جعل عليها مشدين ومهندسين واجتهد فى عملها .. أما مصروفها وما اجتمع بها من الصناع والمعلمين فكثير جدًا لايدخل تحت حصر .

وذكر المقريزى[3] فى خططه أن السلطان حسن ابتدأ فى عمارة مدرسته سنة ٧٥٧ هـ واستمر العمل بها ثلاث سنوات بدون انقطاع ثم أضاف المقريزى قوله أن بهذا الجامع عجائب من البنيان منها أن ذراع إيوانه الكبير خمسة وستون ذراعًا فى مثلها ، ويقال أنه أكبر من إيوان كسرى الذى بالمدائن فى العراق . ومنها القبة العظيمة التى لامثيل لها فى البلاد الإسلامية ومنها المنبر الرخام الذى لانظير له . ومنها البوابة العظيمة والمدارس الأربع بدور قاعة الجامع.

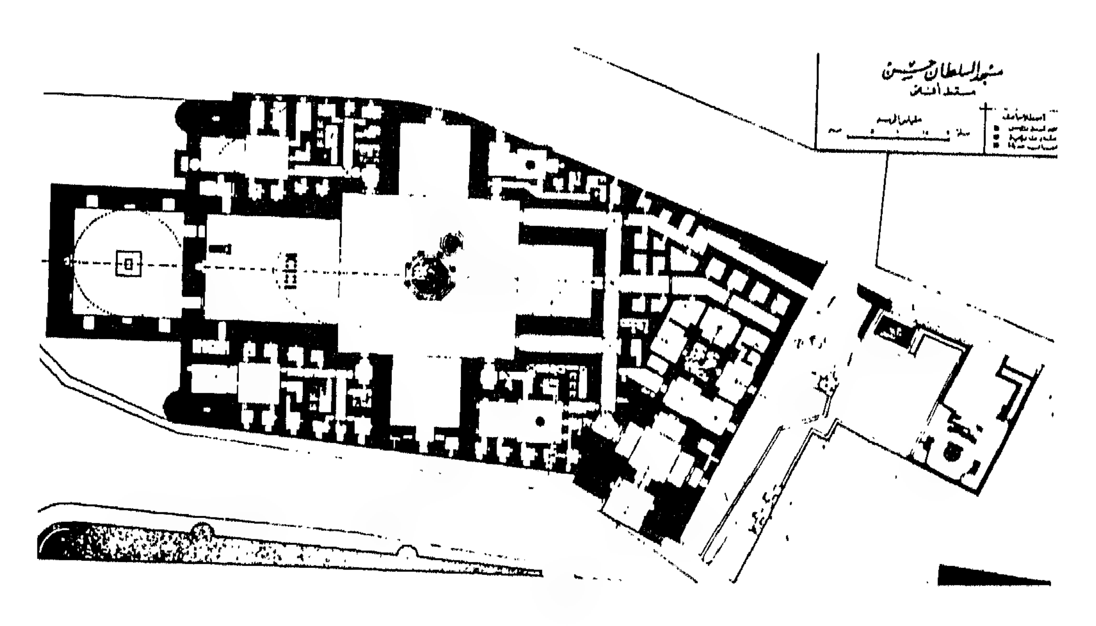
وأضاف الأستاذ[4] محمد رمزى قوله : هذا الجامع لايزال موجودًا بميدان محمد على تجاه باب العزب من قلعة الجبل وهو أضخم مساجد مصر عمارة وأعلاها بنيانًا وأكثرها فخامة وأحسنها شكلًا وأجمعها لمحاسن العمارة وأدلها على عظم الهمة وغاية العناية التى بذلت فى إنشائه طوله ١٥٠ متراً وعرضه ٦٨ متراً ومساحته ٧٩٠٦ أمتار مربعة وارتفاعه عند بابه ٣٧٫٧٠ متراً . وعلى جوانب صحن الجامع أربعة إيوانات معدة لإقامة الشعائر الدينية .

---

(١) النجوم الزاهرة : جـ ٩ ص ٣١٣ — السلوك جـ ٣ ، ٤ ص ٣٥
(٢) النجوم الزاهرة : جـ ٩ ص ٣٠٦
(٣) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣١٦
(٤) النجوم الزاهرة : جـ ٩ هامش صفحة ١٢٣

وفى كل زاوية من زواياه باب يوصل إلى إحدى المدارس الأربع التى شيدها منشىء الجامع ليدرس فى كل مدرسة منها مذهب من المذاهب الأربعة . وإيوانه الشرقى من أكبر الإيوانات سقفه معقود عقدًا ستينيًا فوق نصف الدائرة وهو أكبر عقد بنى على إيوان فى مصر . والثلاثة إيوانات الأخرى سقف كل واحد منها على شكل نصف اسطوانة من الحجر ، ومساحتها متقاربة ، وفى وسط الإيوان الشرقى محراب جميل ، وعلى يمينه منبر من الرخام الأبيض ، وبجانبى القبلة التى فى الواجهة الشرقية بابان يوصلان إلى القبة العظيمة ومساحتها ٧٥١ متراً مربعاً ، وارتفاع جدرانها ٢٠ر٣٠ متراً إلى مبدأ القبة التى تبلغ وزرتها ٤٨ متراً وبالجانب القبلى الشرقى المنارتان العظيمتان التى يبلغ ارتفاع كبراهما ٦٠ر٨١ متراً .

وبالجملة فإن هذا الجامع من أحسن الآثار العربية ، فإن جميع الزخارف وآثار الصناعة التى فى داخل المسجد وخارجه تسترعى النظر ، وخاصة باب الدخول العام والواجهة القبلية الشرقية التى تعلوها المنارتان والرفرف الكبير المركب من ستة مداميك مقرنصات والعلو الشامخ فى سائر الوجهات مع مافيها من النوافذ على ثمانى طبقات . وهو من أهم الجوامع التى يحرص على زيارتها السائحون .



(شكل ٢٩) مدرسة السلطان حسن

الــوصفــ المعــمارى

إذا كان لمصر الفرعونية أن تفخر بـأهراماتها فإن لمصر الإسلامية أن تتيه عجبًا بمدرسة السلطان التى لايضاهيها أى أثر إسلامى آخر ، فقد حوت كل غريب وجديد وفريد كما تمثلت فيها كل مقومات المدرسة الإسلامية من الناحية الدينية والمعمارية على السواء .

تقع هذه المدرسة فى نهاية شارع القلعة (محمد على) فى مواجهة جامع الرفاعى ، كما تطل واجهتها الشرقية على ميدان صلاح الدين (الرماحة) .

وتشغل المدرسة مساحة كبيرة من الأرض فهى مايقرب من فدانين ، إذ تبلغ مساحتها (٧٩٠٦) أمتار مربعة . وهى على شكل مستطيل غير منتظم الأضلاع : وهى خالية من جميع الجهات ولذلك فهى تحتوى على أربع واجهات .

وتقع الواجهة الرئيسية للمدرسة فى الضلع الشمالى ويبلغ طوله (١٤٥) متراً ، وقد زخرفت هذه الواجهة باثنتى عشرة حنية تمتد بارتفاع الواجهة الذى يبلغ ٣٧٫٨٠ متراً . ولما كانت المدرسة تحتوى على أربعة طوابق ولذلك فإن كل طابق يفتح فيه صفان من النوافذ صف نوافذه مستطيلة والصف الثانى صغير ومربع الشكل . وقد حصرت كل النوافذ بحيث أصبحت داخل الحنايا وعلى ذلك فقد أصبحت كل حنية من الحنايا تحتوى على ثمانى نوافذ ومعنى هذا أن الواجهة تحتوى على (٩٦) نافذة . وقد وزعت هذه الحنايا بحيث أصبحت واجهة المدرسة الشافعية تحتوى على ست حنايا ، أما إيوان المالكية الذى يطل على هذه الواجهة فتتوسطه حنية بها ثمانى نوافذ كذلك . كذلك تحتوى واجهة المدرسة المالكية على خمس حنايا . ويتوج هذه الحنايا ثلاثة صفوف من الدلايات الدقيقة ، كما تنتهى الواجهة بستة صفوف من الدلايات تمتد بطول الواجهة كلها .

ويوجد المدخل الرئيسى للمدرسة فى الطرف الغربى للواجهة الشمالية ، التى يبلغ ارتفاعها (٣٧٫٧٠) متراً وعرضها (٢٠) متراً تقريباً . وينقسم المدخل إلى ثلاثة أقسام الأوسط منها

وهو الذى يوجد فيه فتحة الباب إذ يبلغ اتساعه (١٢) متراً ، أما الجانبان فيبلغ اتساع كل قسم (٧) أمتار تقريباً وقد زخرفت هذه الأقسام الجانبية للمدخل الرئيسى بزخارف منقوشة فى الحجر على شكل مربعات ومستطيلات فى ترتيب هندسى جميل . أما فتحة باب المدخل فتوجد فى تجويف عميق تعلوه طاقية تنتهى بنصف كرة وملئت منطقة الانتقال من المربع إلى الدائرة بصفوف من الدلايات بلغ عددها عشرون صفًا ، وقد جمعت بعض هذه الصفوف على هيئة مثلثات مما أكسبها منظرًا جميلًا خلابًا لامثيل له فى الواجهات المصرية وإن كان يشبه إلى حد كبير زخارف الواجهات فى العمارة السلجوقية . ويكتنف هذا المدخل حنيتان يعلوهما دلايات رصعت بالرخام الأحضر بأشكال هندسية جميلة وكتب أعلاهما بالخط الكوفى المزدهر قوله تعالى « إنا فتحنا لك فتحًا مبينا ليغفر لك الله » يعلوهما تربيعتان كتب على أحداهما بالخط المربع « لا إله إلا الله محمد رسول الله » وعلى الثانية اسم الخلفاء الراشدين الأربعة « أبو بكر عمر عثمان على » . وقد كان لباب المدخل مصراعان من الخشب المصفح بالنحاس المكفت بالفضة والذهب نقلهما السلطان المؤيد شيخ إلى مسجده بالغورية سنة ٨١٩ هـ (١٤١٦ م) بعد أن دفع ثمنًا لهما مبلغ (٥٠٠) دينار وأوقف على مدرسة السلطان حسن مدينة قها . ويتوج المدخل الرئيسى ستة صفوف من الدلايات تبرز عن سمت الواجهة بمقدار (٥ر١) متر .

أما الواجهة الجنوبية فيبلغ طولها (١٥٠) متراً وتحتوى على نوافذ المدرسة الحنفية ومدرسة الحنابلة التى ترتفع إلى أربعة طوابق (٣٥) متراً وكذا إيوان الحنفية الذى يطل على الواجهة الجنوبية يتوسطه نافذة كبيرة . أما الضلع الغربى للمدرسة فيطل على حديقة وساقية توصل المياه للمدرسة كما تطل على مغسل بناه الأمير يشبك بن مهدى عندما انتشر وباء الطاعون بالبلاد سنة ٨٨٤ هـ . أما الواجهة الشرقية التى تحوى القبلة فيبلغ طولها (٦٨) متراً ويقع خلفها القبة ومئذنتان يبلغ ارتفاعهما (٨١ر٦٠) متراً عن سطح الصحن ، وقد سقطت الشمالية منهما سنة ١٠٧٠ هـ (١٦٥٩ م) وجددها إبراهيم باشا سنة ١٠٨٢ هـ[1] .

ويؤدى الباب الرئيسى إلى مدخل ربع تحيط به ثلاثة إيوانات يعلوها مقرنصات ، ويتوسط سقف المدخل قبة مكسية بحجر أحمر . وبصدر المدخل مصطبة حليت بالرخام

---

(١) على مبارك : جـ ٤ ص ٨٣ — ٨٧

الملون . وبالجهة الشرقية لهذا المدخل توجد قلبة من خمس درجات تؤدى إلى دهليز معقود يثنى إلى اليسار وينتهى إلى صحن المدرسة . ويتكون الصحن من مربع كبير تقريبًا إذ يبلغ طوله (٣٤٫٦٠) متراً وعرضه (٣٢٫٥) متراً ، وهو مفروش بالرخام ويتوسطه فسقية للوضوء تعلوها قبة خشبية تقوم على ثمانية أعمدة . وقد كتب بدائر قبة الفسقية آية الكرسى وتاريخ الفراغ منها .

ويحيط بالصحن من جهاته الأربع إيوانات المدرسة ، أكبرها إيوان القبلة إذ تبلغ سعته (١٩٫٢٠) متراً وعمقه (٢٨) متراً . ويحيط به أفريز من الجص نقشت عليه كتابات بالخط الكوفى على أرضية مورقة نصها « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم. إنا فتحنا لك فتحًا مبينا إلى قوله فوزًا عظيما » . ويتوسط الإيوان دكة المبلغ وهى من الرخام . وفى الصدر يوجد المحراب وهو من المحاريب الكبيرة الكثيرة العمق زخرف بالرخام الملون . وعلى جانبى المحراب لوحتان نقش عليهما « جدد هذا المكان المبارك حسن أغا خزيندار الوزير إبراهيم باشا بيد الفقير محمد سنة ١٠٨٢ هـ » . ويكتنف المحراب بابان يوصلان إلى القبة التى تقع خلفه ويحتويان على مصراعين مصفحين بالنحاس ومكفتين بالذهب والفضة على غرار باب المدخل الرئيسى ، إلا أن الباب الشمالى منهما فقد الآن .

وقد صممت إيوانات المدرسة الأربعة على شكل متعامد ، فيقابل إيوان القبلة وعلى نفس محوره الإيوان الغربى (الحنابلة) وهو مساو له من السعة إلا أنه أقل منه عمقًا . كذلك يقابل الإيوان الشمالى (المالكية) الإيوان الجنوبى (الحنفية) وعلى نفس محوره والإيوانان متماثلان من حيث السعة والعمق . ويقع بجوار كل إيوان من الأواوين الأربعة المدارس المذهبية الأربع والتى تكون كل واحدة منها وحدة معمارية متكاملة ومستقلة عن غيرها من المبانى ، إذ تتكون كل مدرسة من صحن يتوسطه فسقية كما تحتوى على إيوان . وتحتوى كل مدرسة على ثلاثة طوابق تشتمل على غرف الطلبة والدرس ويطل بعضها على صحن المدرسة والبعض الآخر على الواجهات الخارجية . وتعتبر المدرسة الحنفية أكبر المدارس إذ تبلغ مساحتها (٨٩٨) متراً . وتحتوى بعض الإيوانات على شريط من الكتابة يحيط بصحنها جاء فيه « بسم الله الرحمن الرحيم الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا

بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأُمور ، اللهم أكثر الخير واتبع العطا نسأَلك وأنت خير مسئول دوام دولة من أُسس هذا الخير وأَصله مولانا السلطان الأَعظم الما . . . والمساكين... فى عقبه » – كما كتب فى المدرسة الحنفية النص التالى : « بسم الله الرحمن الرحيم إن المتقين فى جنات وعيون أُدخلوها بسلام آمنين ونزعنا ما فى صدورهم إلى قوله ، وما هم منها بمخرجين . اللهم يا دائم لايفنى يا من نعمه لاتحصى أدم العز والتمكين والنصر والفتح المبين ببقاء من أيدت به الإسلام والمسلمين وأَحييت . . . . حسن ابن مولانا السلطان الـ . . . عنه على ما وليته وخلده فى ذريته كتبه حامى دولته وشاد عمارته محمد بن بيليك المحسنى[1] » .

ولما كان السلطان قد قتل (سنة ٧٦٢ هـ – ١٣٦١ م) قبل أن يتم بناء المدرسة ، فقد قام الطواشى بشير الجمدار بأَعمال تكميلية كثيرة منها أعمال الرخام الملون للأَرضيات وللوزرات وكذا تكسية أبواب المدارس بالرخام الملون ، وقد سجل هذا على أبواب المدارس جميعها وفيما يلى النص : بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة مولانا السلطان الشهير الناصر حسن ابن مولانا السلطان الشهير المرحوم الملك الناصر محمد بن قلاون وذلك فى شهور سنة أربع وتسعين وسبعمائة .

وتقع القبة خلف جدار القبلة ، وهى مربعة الشكل يبلغ طول ضلعها (٢١) متراً وارتفاعها إلى نهاية القبة (٤٨) متراً . وقد زخرف مربع القبة وعلى ارتفاع ثمانية أمتار شريط من الكتابة مدهون على خشب نصها : « بسم الله الرحمن الرحيم الله لا إله إلا هو الحى القيوم لاتأْخذه سنة ولا نوم حتى نهاية آية الكرسى » . كما جاء فى الشريط الكتابى تاريخ الانتهاء من بناء القبة « وكان الفراغ من هذه القبة المباركة فى شهور سنة أربع وستين وسبعمائة وصلى الله على محمد » . ويأْتى بعد الشريط الكتابى منطقة الانتقال التى ملأَت الأَركان بالمقرنصات الخشبية المحلاة بزخارف مدهونة بطلاء ذهبي كما طليت كذلك النوافذ التى تفتح بها أركان – المقرنصات بطلاءات متعددة الأَلوان يغلب عليها اللونان الذهبي والأَزرق الداكن . وقد كانت القبة الأَصلية خشبية ومغطاة من الخارج بطبقة من الرصاص على غرار قبة الإمام الشافعى

---

(١) حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ص ١٧٣ (أول من قرأ اسم المهندس هو حسن عبد الوهاب) .

وجامع بيبرس بالظاهر وقبة قلاوون . وقد سقطت هذه القبة (سنة ١٠٧١ هـ - ١٦٦١ م) وحلت محلها قبة ذات قطاع مدبب ويحيط بها من الخارج دعامات اسطوانية الشكل ، وباطنها حامل بالزخارف والرسوم الزيتية وكانت أكثر ارتفاعا مما هى عليه الآن ، ثم نقص ارتفاعها عندما جددها إبراهيم باشا سنة ١٠٨٢ هـ - ١٦٧١ م) .

ويتوسط القبة تركيبة من الرخام نقش عليها تاريخ إنشائها فقد جاء فيها : أنشئت (سنة ٨٧٦ هـ - ١٣٨٤ م) برسم تربة السلطان السعيد الشهيد الملك الناصر حسن وذريته . ولكن من المعروف أن السلطان حسن لم يدفن فيها ، كما سبق أن ذكرنا فى ترجمته ، ولكن دفن فيها ابنه الشهاب[1] أحمد المتوفى (سنة ٧٨٨ هـ - ١٣٨٦ م) . وفى الضلع الشرقى من القبة يوجد محراب مجوف كسى بالرخام الملون الدقيق الصنع ، كما وجد بالقبة كرسى مصحف من الخشب المصنوع بطريق الحشوات المجمعة والمطعم بالصدف والعاج .

وكانت مدرسة السلطان حسن تحتوى على الكثير من المشكاوات والتنانير المعدنيق كما يدل على ذلك السلاسل التى ما تزال تتدلى من أقباء الإيوانات الأربعة وقد فقد معظمها ولم يبق منها غير (٣٤) مشكاة من الزجاج المموه بالمينا . التى تعتبر من روائع الفن الإسلامى بالنسبة للتحف الزجاجية ، كما بقى تنوران من النحاس المخرم الدقيق الصنع حفظا فى متحف الفن الإسلامى بالقاهرة .

وقد ظلت مدرسة السلطان حسن فترة طويلة من الزمن مغلقة لا تؤدى فيها وظيفة التدريس ولا شعيرة الصلاة وذلك لأن المماليك قد اتخذوا منها حصنًا يدافعون به أنفسهم ضد أعدائهم بالقلعة . فقد حدث سنة ٧٩١ هـ (١٣٨٩ م[2]) فى عهد السلطان برقوق أن نصب المماليك أعلى المدرسة المكاحل (المدافع) ورموا بها على باب السلسلة بالقلعة . فلما تكررت مثل هذه

---

(١) على بن داود الخطيب الجوهرى : نزهة النفوس والأبدان جـ ١ ص ٧١

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ٢٧٨

الحوادث أمر السلطان برقوق سنة ٧٩٣ هـ بهدم السلم الموصل إلى سطح المدرسة وسد ما وراء الباب النحاسي[١] الكبير ، ثم فتح نافذة من نوافذ المدرسة كمدخل لها .

ولما تولى السلطان المؤيد شيخ صرح (سنة ٨٢٥ هـ - ١٤٢٢ م) بالأذان وأعيد بناء السلم وركب باب بدل الذى أخذه لجامعه الملاصق لباب زويلة ، السابق الإشارة إليه . فلما عاد المماليك إلى مهاجمة القلعة من مئذنة المدرسة سنة ٨٤٢ هـ (١٤٣٨ م) أمر السلطان[٢] جقمق بهدم السلالم الموصلة إلى المئذنة . وفى عهد السلطان أبى النصر إينال رفعت القبة (سنة ٨٥٨ هـ - ١٤٥٤ م) لتصدعها[٣] من كثرة إصابتها بالمكاحل أثر الحروب المتكررة ، وبقيت المدرسة بدون قبة . وفى موقعة اقبردى (سنة ٩٠٢ هـ - ١٤٩٧ م) حاصر المماليك القلعة من أعلى المدرسة وضربوها بالمكاحل ، فقوبل الاعتداء بالمثل فصوبت المكاحل على المدرسة[٤] ، فأصيب شباك المدرسة ونهبت بسط المدرسة وقناديلها ورخامها . ثم جدد الأمير طومانباى الدودار الثانى سنة ٩٠٣ هـ جدران المدرسة وأصلح ماتلف منها وأعاد لها الخطبة وإقامة - الشعائر[٥] . وقد حاول الأشرف جنبلاط[٦] هدم جزء بسيط خلف محراب القبة لكنه أوقف العمل لصعوبته . ولما تولى السلطان الملك العادل طومانباى ملك مصر أمر بترميم مدرسة السلطان حسن .

وقد ظلت مدرسة السلطان حسن قرابة واحد وخمسين[٧] عامًا مغلقة فى العصر العثمانى حتى (سنة ١٢٠٠ هـ - ١٧٨٥ م) حيث أصلحها سليم أغا وفتح بابها وأزال الحوانيت التى أنشئت بأسفلها وبنى لها سلالم ومصطبة جديدة[٨] .

أما عن نظام التدريس بالمدارس فيحدثنا عنها على مبارك[٩] فيقول : لقد رتب السلطان

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣١٦
(٢) النجوم الزاهرة : جـ ١٤ ص
(٣) ابن تغرى بردى : حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور قسم (٢ (ص ٢١٩ (كاليفورنيا) .
(٤) ابن إياس : جـ ٢ ص ٣٢٦
(٥) المرجع السابق جـ ٢ ص ٣٤١
(٦) المرجع السابق جـ ٢ ص ٣٨١
(٧) الخطط التوفيقية جـ ٤ ص ٨٦
(٨) الجبرتى : جـ ٢ ص ١٠٧
(٩) الخطط الجديدة جـ ٤ ص ٨٤

حسن فى وقفيتيه كل مايخص المدرسة من الطلبة والمدرسين والخدم فجعل لكل مذهب من المذاهب الأربعة شيخًا ومائة طالب من كل فرقة خمسة وعشرون متقدمون وثلاثة معيدون . ورتب لكل شيخ ثلثمائة درهم نقرة[1] فى الشهر ولكل معيد مائة درهم نقرة وخصص لطلبة كل مذهب من المذاهب الأربعة أربعة آلاف درهم ومائتين وخمسين درهما نقرة شهريًا . ويزاد لطالب من كل فرقة فوق راتبه الشهرى عشرون درهما نقرة برسم كونه نقيبًا عليهم . ويزاد لطالب شاق عشرة دراهم برسم كونه داعيًا للسلطان عقب كل قراءة (أى قراءة القرآن).

كذلك عنى السلطان حسن أن يسجل فى وقفيتيه تخصص المدرسين فرتب مدرسا لكتاب وتفسيره يصرف له فى الشهر ثلثمائة درهم ورتب معه ثلاثين طالبًا يصرف لكل منهم عشرة دراهم نقرة على أن يعطى واحد منهم زيادة عن معلومه عشرة دراهم برسم كاتب الغيبة (أى ملاحظ يدون الغياب والحضور) وطالب آخر يصرف له عشرة دراهم ليكون داعيًا . ورتب مدرسا للحديث النبوى وجعل له ثلثمائة درهم أيضًا ورتب له قارئا بكونه أهلا لقراء الحديث الشريف ورتب لقاضى القضاة تاج الدين أبى نصر عبد الوهاب الزخزرجى السبكى الشافعى الحاكم بدمشق المحروسة مدة حياته فى كل شهر ثلثمائة درهم نقرة ثم من بعد وفاته تكون لقاضى القضاة الشافعى بالشام وهكذا ينتقل ذلك من قاض إلى قاض .

كما خصص للإيوان القبلى وهو إيوان الشافعية مواعيد معينة يحضر شيخ الشافعية ورتب

---

(١) النقرة : السكة ، أى المعدن المسكوك . وأول من ضرب الدراهم النقرة هو الملك الكامل ابن الملك العادل الأيوبى بعد أن أبطل الدرهم الناصرى ، وهى التى ضربها صلاح الدين وكانت من فضة خالصة ومن نحاس نصفين بالسوى . أما الكامل فقد أمر فى ذى القعدة سنة ٦٢٢ ﻫ . بضرب دراهم مستديرة ، وجعل الدرهم الكامل ثلاثة أثلاث ، ثلثاه من فضة وثلثه من نحاس ، فاستمر ذلك بمصر والشام مدة ملوك بنى أيوب . فلما جاءت دولة المماليك البحرية اقتدوا بالدولة الأيوبية فى جميع أحوالهم وأبقوا سائر شعائرهم ، وأقروا نقدهم على حاله . فلما ولى السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى ، ضرب دراهم ظاهرية جعلها كل مائة درهم من سبعين درهماً فضة خالصة ، وثلاثين نحاساً ، وجعل رنكه على الدرهم وهو صورة سبع . ولم تزل الدراهم الظاهرية والكاملية بديار مصر والشام إلى أن فسدت فى سنة ٧٨١ ﻫ .

المقريزى : كتاب النقود القديمة والإسلامية ص ١٥

ويعرف الأب أنستاس مارى الكرملى الدراهم النقرة فى كتابه (النقود العربية وعلم النميات ص ١١٣ (ويبين قيمتها من الدينار أى العملة الذهبية فيقول : الدرهم النقر من الدينار نصفه وخمسه وإن شئت قلت سبعة أعشاره فيكون كل سبعة مثاقيل عشرة دراهم . وجاء فى صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٣ : الدراهم النقرة يكون ثلثاها من فضة وثلثها من نحاس وتطبع بدور السكة السلطانية ، ويكون كل خروبتين ثمن درهم وهى أربع حباب من حب البر المعتدل .

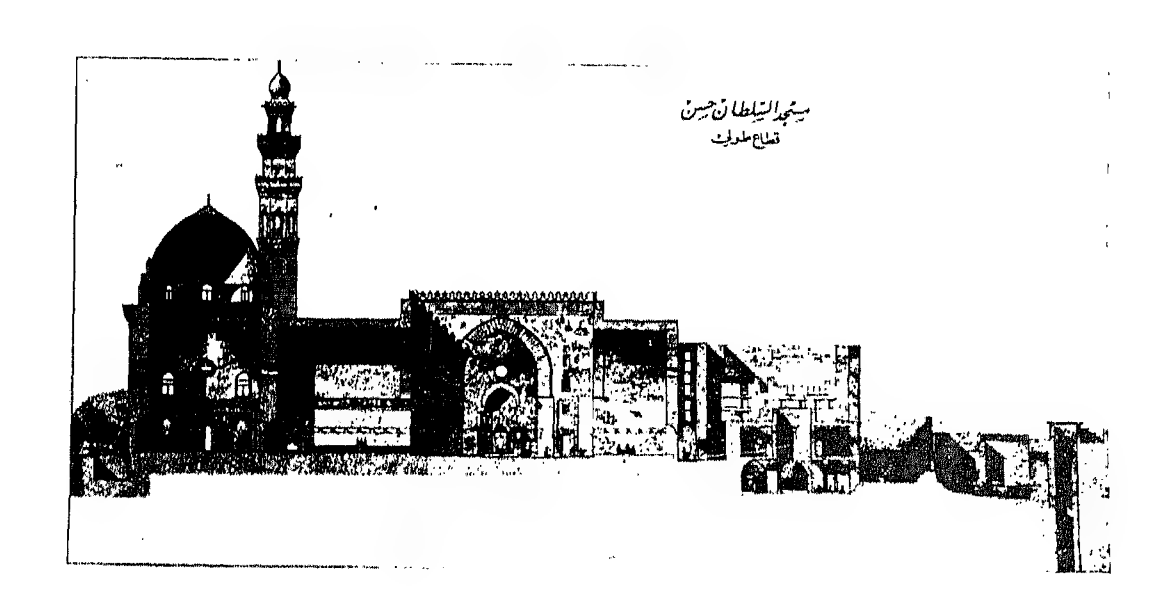
معه قارئًا يحضران أربعة أيام من كل أسبوع منها يوم الجمعة بعد صلاة الجمعة ، فيقرأ القارىء ما تيسر من القرآن ومن الحديث النبوى الشريف . كما رتب مادحًا يمدح الرسول صلى الله عليه وسلم بعد الفراغ من القراءة ثم يدعو للسلطان الواقف ولوالديه ولذريته ولجميع المسلمين . كما رتب لعالم القراءات السبع أن يجلس كل يوم مابين صلاة الصبح والزوال بالإيوان القبلى كذلك . ورتب لحافظ لكتاب الله العظيم لتحفيظ الناس القرآن فى الإيوان القبلى ، كما رتب إمامًا بهذا الإيوان ومؤذنين من أصحاب الأصوات الحسنة ومؤقتين عالمين بالمواقيت . كما رتب أربعة أئمة بالمدارس الأربعة .

أما القبة فقد حظيت باهتمام كبير من الواقف على اعتبار أنه سيدفن بها ، فقد رتب بها ستين من القراء يتناوبون القراءة ليلا ونهارًا . وكان بالقبة مصحف شريف صنع له كرسى خاص كما رتب له رجلا لحمله ووضعه على الكرسى للقراءة كل يوم بعد صلاة الصبح وقبل صلاة الجمعة ويعيده إلى موضعه بعد فراغ القراءة . كما رتب خازنًا للمكتبة ورجلين لخدمة المزملة (المزيرة) وحفظ أوانيها وتنظيفها وملء الكيزان وسقى من يرد إليها .

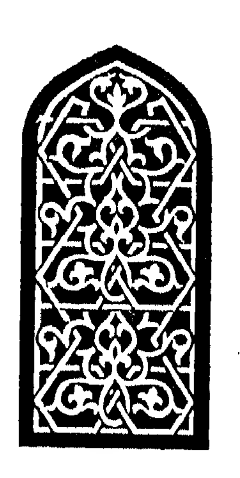
وخصص عشرين فراشًا كل عشرة فى يوم وستة بوابين للحفظ وغلق الأبواب وفتحها . كما عمل على محو أمية الأطفال اليتامى ، فجعل فى المدرسة مكتبين بمؤدبين وعريفين ومائة يتيم يتعلمون القرآن والخط وقرر للأيتام ثلاثة آلاف درهم نقرة لنفقة الأيتام وكسوتهم ، وإذا أتم اليتيم حفظ القرآن يعطى خمسين درهما ويعطى مؤدبه خمسين أيضًا . ويشترى للأطفال مايلزم من الحصر والألواح والمداد والمحابر والأقلام مع نقل مايلزم من الماء لشربهم وغسل وجوههم ، وشرط أن من بلغ من الأيتام يستبدل بغيره .

كما عنى الواقف عناية خاصة بالناحية الصحية لأهل المدرسة فرتب حكمين مسلمين أحدهما خبيرًا بمعالجة الأبدان والآخر عارف بصناعة الكحل (خاص بالعيون) يحضر كل منهما كل يوم ليداوى من يحتاج إليهما من أرباب الوظائف والطلبة وغيرهم ، كما عين مع الطبيبين جراحًا . كما عنى بذكر أدوات الإضاءة فقرر شراء أربع موكبيات من الشمع الأبيض المشغول على القطن المفتول كل موكبة عشرة أرطال مصرية ، اثنان لمحراب القبلة ، كذا فرش المسجد بالحصر والبسط والقناديل وزيت الوقود . كما قرر فى كل ليلة جمعة

صرف خمسة قناطير من اللحم الضانى وثمن عشرين قنطارا من الخبز والقرصة غير الأُرز والعسل والحبوب وحب الرمان والأَدهان والحطب وأُجرة من يتولى طبخ ذلك وغرفه . ويصرف نصف ما صنع لأَرباب الوظائف ونصفه يفرق على الفقراء والمساكين . هذا وهناك مقررات خاصة بالمواسم والأَعياد عنى الواقف على ذكرها موضحًا مقدار كل صنف من ـ الأَصناف وأَوجه البر التى تصرف فيه ، كما قرر أن يصرف كل سنة قيمة أَلف قميص وأَلف طاقية وأَلف مداس تفرق على الطلبة وأَرباب الوظائف والفقراء .



(شكل ٣٠) قطاع راسى



ضريح ابن هشام النحوى الأنصارى

بقرافة الصوفية خارج باب النصر

ومن يصطبر للعلم يظفر بنيله ومن يخطب الحسناء يصبر على البذل
ومن لم يذل النفس فى طلب العلا يسيرًا يعش دهرًا طويلًا أخا ذُل

هو عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام الأنصارى(1) ، وكان معاصروه يعرفونه بلقبه (جمال الدين(2)) الذى ظل يعرف به عند جميع الدارسين ، مما جعله يسجله على أكثر مؤلفاته المطبوعة والمخطوطة . أما بالنسبة لجمهور النحاة فإنه كان يعرف باسم ابن هشام .

ويقول السيوطى(3) ، ابن هشام جماعة كثيرة أشهرهم ثمانية ، ومنهم شيخنا ابن هشام(4) كذلك نسب ابن هشام إلى الأنصار فعرف بها عمن اشتهروا باسم ابن هشام . ويضيف يوسف اليان سركيس كلمة الخزرجى .

ولد ابن هشام فى ذى القعدة سنة ٧٠٨ هـ بمدينة القاهرة ، ونشأ بها وتلقى بها دراسته الأولى ، فقد التحق بالمكاتب الملحقة بالمدارس والخانقاوات ، حيث تعلم العلوم الدينية حفظ القرآن الكريم وعلوم اللغة العربية وقواعدها . وبعد أن أتم هذه المرحلة التمهيدية

---

(١) ابن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة حـ ٢ ص ٤١٥ (الطبعة الثانية سنة ١٩٦٦ القاهرة) .

(٢) تاج الدين السبكى : طبقات الشافعية جـ ٦ ص ٣٣ ، ٢٦٦

(٣) بغية الوعاة جـ ٢ ص ٣٩٠ (أبو الفضل إبراهيم) .

(٤) معجم المطبوعات العربية والمعربة جـ ١ ص ٢٧٣

التحق بالمدارس التى تطور فيها تعليمه ، فدرس أصول الدين كالفقه والحديث والتفسير وكذا علوم اللغة كالنحو والصرف والبيان فضلًا عن الدراسات العقلية كالفلسفة والمنطق .

وكانت حياة ابن هشام العلمية حافلة بألوان من النشاط الفكرى ، إذ لم يقصر جهده على التدريس بمصر فحسب ، بل رحل إلى مكة وجاور بها وقرأ ودرس كتاب سيبويه عدة مرات[1] ، وقد أقام بمكة سنة تسع وأربعين وسبعمائة ، وفى تلك الرحلة ألف كتابًا فى الأعراب فقده فى رحيله إلى مصر . ورحل ابن هشام مرة ثانية عام ستة وخمسين وسبعمائة إلى مكة وجاور بها وفى هذه المرة ألف كتابه المغنى .

وقد تزوج ابن هشام من مصر وأنجب ولدين أكبرهما محمد الملقب (بمحب الدين) قرأ العربية على أبيه وغيره كما درس غيرها من العلوم وتصدى لاقراء النحو سنين وانتفع بعلمه جماعات غير قليلة من الطلبة ، وذكره السيوطى فقال : كان أوحد عصره فى تحقيق النحو ، وكان خيرًا دينًا . توفى فى رجب سنة ٧٩٩ هـ عن نحو خمسين سنة » .

أما ولده الثانى عبد الرحمن الملقب (بتقى الدين) فقد أنجب ولدين الصغير منهما أحمد ولقبه (شهاب الدين) ويعرف كذلك بابن هشام ، ذكره السخاوى فقال أنه كتب شرحًا على التسهيل ووصفه بأنه غاية فى الذكاء ، وأنه فاق فى العربية وغيرها ، مع أنه اشتغل بالعلم كبيرًا . ووصفه عز الدين بن بدر الدين بن جماعة وكان قد تتلمذ عليه ، فقال : كان لذكائه مجيدًا للعب الشطرنج ، بل كان غالبه فيه مع حسن الشكالة ومزيد الكرم والحدة المفرطة ، وقد سكن شهاب الدين فى آخر أيامه دمشق وتوفى بها سنة ٨٣٥ هـ عن نحو — أربعين سنة .

وشقيقه الكبير محمد ولقبه « ولى الدين » ويعرف كأخيه بابن هشام ، ولد فى القاهرة سنة ٧٨٦ هـ فحفظ القرآن والعمدة والمنهاج ، واشتغل قليلا فى النحو على عمه محب الدين وغيره ، إلا أنه فضل الاشتغال بالتجارة وارتحل بسببها إلى بلاد كثيرة فقد سافر إلى الاسكندرية والصعيد بل غادر القطر إلى الشام وغيرها من المدن والبلاد . وعرف ولى الدين بالتقوى والورع والثقة والأمانة ، وتحرى الدقة فى معاملاته التجارية والمالية وتوفى سنة ٨٦٦هـ

---

(١) أعيان العصر : الصفدى جـ ٣ ص ٢٥٩

واشتهر كثير من أحفاد ابن هشام بالعلم والفقه والأدب ، فقد تتلمذ على يديهم كثير من علماء وفقهاء وشيوخ عصرهم وفى ذلك يقول صاحب جعفر : وهكذا ظلت غرسة العلم التى استنبتها ابن هشام بكده وكدحه ، فى أسرته يتوالى على العناية بها من بعده أبناؤه وأحفاده إلى زمن غير قصير ويستظل بها طلاب العلم والمعرفة فى أكثر من جيل .

ومن أساتذة ابن هشام الذين لازمهم مدة دراسته المتقدمة الشيخ شهاب الدين عبد اللطيف ابن المرحل ، وعلى بن السراج ، وسمع من أبى حيان ديوان زهير بن أبى سلمى ولكنه لم يلازمه ولا قرأ عليه . كذلك حضر دروس الشيخ تاج الدين البربرى وقرأ على الشيخ تاج الدين الفاكهانى (شرح الإشارة) كما حدّث (بالشاطبية) عن ابن جماعة[1] .

وقد أخذ ابن هشام من شيوخه السابق ذكرهم الشىء الكثير ، فقد انتفع بما لديهم من علوم العصر وفنونه ، وكان خير عدة وذخيرة انتفع بها فى حياته العلمية والدينية على حد سواء ، فأثبت جدارة فى مهمة التدريس والتأليف فى مختلف العلوم الدينية واللغوية .

لقد درس ابن هشام العربية على ابن المرحل الذى كان إماماً فى النحو مدققًا فيه ، عارفًا باللغة وعلم البيان والقراءات ، وعلى الشيخ تاج الدين الفاكهانى الحديث والفقه والأصول العربية والأدب وسمع من الشيخ شمس الدين بن السراج ، الذى وصفه ابن الجزرى بأنه كان ينقل القراءات نقلاً جيداً وإليه انتهت الرياسة فى تجديد الكتابة (الخط) وإسناد القراءات بالديار المصرية .

وكذلك تفقه فى الحديث على يد قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة الذى كان محدثًا فقيهًا ، كما حضر دروس الشيخ تاج الدين التبريزى ، الذى يقول عنه الاسنوى أنه كان متضلعًا بغالب الفنون من المعقولات والفقه والنحو والحساب والفرائض .

أما عن مذهب ابن هشام الدينى فيحدثنا ابن إياس[2] فيقول ، أنه كان شافعى المذهب فقد نشأ عليه ودرس الفقه الشافعى عندما كان يقرأ « الحاوى الصغير » كذلك كان يُدَرِّس

---

(١) الدرر الكامنة ج ٢ ص ٤١٥

(٢) بدائع الزهور ص ١٩٩

التفسير فى القبة المنصورية[1] » على المذهب الشافعى . غير أنه انتقل إلى المذهب الحنبلى قبل وفاته بخمس سنوات وحضر مدارس الحنابلة ، وحفظ « مختصر الخرقى » .

على أن ابن هشام لم يكن الفقيه الوحيد الذى تنقل من مذهب إلى آخر ، فهناك الشيخ أبو حيان المالكى الذى تحول إلى المذهب الشافعى فلما سئل عن السبب فى ذلك فأجاب : « بحسب البلدة[2] » وغيره كثير من العلماء والفقهاء مثل الشيخ ابن مالك المالكى الذى تحول إلى المذهب الشافعى وابن الدهان البغدادى الذى تفقه على مذهب أبى حنيفة أولا ثم انتقل إلى مذهب الشافعى لما تولى تدريس النحو بالمدرسة النظامية ببغداد ، التى ينص واقفها على أن يكون واجبًا على من يتولى تدريس النحو بها أن يكون شافعيًا .

ويذكر ابن تغرى بردى أن ابن هشام انتقل إلى المذهب الحنفى ، عندما وضع كتابًا فى الفقه شرح به « الجامع الصغير » فى الفروع ، لمحمد بن الحسن الشيبانى الحنفى صاحب أبى حنيفة ،وأخيرًا تحول إلى المذهب الحنبلى الذى استقر عليه هو وأبناؤه وأحفاده ــ من بعده[3] .

وقد كان ابن هشام موضع تقدير واعجاب معاصريه من العلماء والفقهاء والمؤرخين فقد قال عنه معاصره التاج السبكى : أنه نحوى هذا الوقت كما لقبه الصلاح الصفدى (بشيخ النحو[4]) وترجم له ابن مفلح المقدسى فقال : إن ذِكْرَه سار فى الآفاق وانتهت إليه مشيخة النحو فى الديار المصرية ، وأنه كان فردًا فى هذا الفن[5] .

وتحدث عنه ابن تغرى بردى[6] فقال : وأما العربية فكان من المشار إليه فيها والمعول على كلامه وهو فارسها ومالك زمامها ، وله فيها التصانيف المفيدة الجيدة .و يضيف ابن

---

(١) قبة المنصور قلاوون بالصاغة .

(٢) النجوم الزاهرة : جـ ١ ص ٣٣٦

(٣) صاحب جعفر أبو جناح : أوضح المسالك لابن هشام الأنصارى (رسالة ماجيستير سنة ٦٨) .

(٤) طبقات الشافعية للسبكى جـ ٦ ص ٣٣

(٥) المقصد الأرشد ص ١٤٢

(٦) المنهل الصافى : جـ ٢ ص ٢٧٧ ، النجوم الزاهرة : جزء ١٠ ص ٣٣٦

حجر[1] فيقول : أنه انفرد بالفوائد الدقيقة والاستدراكات العجيبة والتحقيق البالغ — والاطلاع المفرط والاقتدار على التصرف فى الكلام .

ولم يقتصر الاعجاب بابن هشام على معاصريه من المصريين فحسب ، بل طبقت شهرته الآفاق حتى أن شيخ مؤرخى المغرب ، ابن خلدون ذكره فى مقدمته فقال : « مازلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له ابن هشام أنحى من سيبويه » ويضيف عند حديثه عن كتاب (مغنى اللبيب) لابن هشام فيقول : فوقفنا منه على علم جم يشهد بعلو قدره فى هذه الصناعة ووفور بضاعته فيها » .

مما تقدم نخلص إلى أن شخصية ابن هشام العلمية كانت موضع احترام وتقدير من كل من تحدث عنه أو ترجم له هذا بالإضافة إلى صفاته وأخلاقه التى وصفها ابن حجر فقال أنه كان فاضلًا متواضعًا ، برًا مع دماثة فى الخلق ورقة فى القلب وشفقة وأنه كثير الديانة والعبادة ولعل ماكان عليه من علم وما اتصف به من مكارم الأخلاق مع الورع والتقوى هو الذى جعل أحدًا لم يعرض له بنقد شخصى أو تعريض كما عرضوا لغيره بالذم والانتقاد

توفى ابن هشام[2] فى الخامس من ذى القعدة سنة ٧٦١ هـ بعد حياة دامت بضعًا وخمسين سنة ودفن بمقابر الصوفية خارج باب النصر بالقاهرة بعد صلاة الجمعة وقد رثاه ابن نباته المصرى بقوله :

سقى ابن هشام فى الثرى نوء رحمة ... يجر على مثـــواه ذيل غمـــــام
سأروى له من سيرة المــدح سيـــرة ... فمـــا زلت أروى سيرة ابن هشام

(١) الدرر الكامنة : جـ ٢ ص ٤١٦
(٢) المقريزى : جـ ٤ ص ٣٤٨ ، النجوم الزاهرة : جـ ١٠ ص ٣٣٦

وصف الضريح

يذكر المقريزى(1) فى خططه المقابر التى تقع خارج باب النصر (أحد أبواب أسوار القاهرة الفاطمية وهو مايزال قائمًا بالضلع الشمالى للسور بحى باب الشعرية الآن) .

« وتتابع دفن الناس موتاهم فى الجهة التى هى اليوم بحرى مصلى الأموات إلى نحو الريدانية ، وكان مافى شرقى هذه المقبرة براحًا واسعًا يعرف بميدان القبق وميدان العيد والميدان الأسود ، وهو مابين قلعة الجبل إلى قبة النصر تحت الجبل الأحمر . فلما كان بعد سنة ٧٢٠هـ ترك الملك الناصر محمد بن قلاوون النزول إلى هذا الميدان وهجره » ويضيف المقريزى فيقول وأول من ابتدأ فيه بالعمارة الأمير شمس الدين قرا سنقر فاختط تربته التى تجاور اليوم تربة الصوفية ، وبنى حوض ماء للسبيل وجعل فوقه مسجدًا وهذا الحوض بجوار تربة الصوفية » .

ولما كانت المراجع التاريخية السابق ذكرها قد أجمعت على أن ابن هشام الأنصارى النحوى قد دفن بمقابر الصوفية ، لذلك فقد رجعنا إلى تعليق أحمد رمزى فى حاشية كتاب النجوم الزاهرة(2) حيث يقول : « ودلنى البحث على أن مقابر الصوفية مكانها اليوم المقابر المعروفة الآن بجبانة باب النصر فى المنطقة الواقعة على جانبى القسم الجنوبى من شارع نجم الدين الموصل من باب النصر إلى العباسية » .

ويذكر السخاوى(3) فى حديثه عن تاريخ جبانة باب النصر مايلى : « يجد السالك هناك قبرين متقابلين لبعضهما أحدهما عن يمينه تجاه شارع نجم الدين والآخر عن يساره على ناصية الطريق حيث شارع القصاصين المسلوك منه إلى الحسينية وباب الفتوح . فالقبر الأول فيه الشيخ عبد الغنى السعدى ، أحد فقراء السعدية ، متأخر الوفاة ، والقبر الثانى

---

(١) المقريزى : جـ ٤ ص ٣٤٨

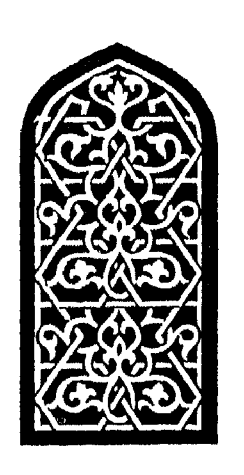
(٢) النجوم الزاهرة : جـ ١٠ ص ٣٣٦

(٣) تحفة الأحباب وبغية الطلاب ص ٤٢ (حاشية) .

فيه الإمام ابن هشام جمال الدين عبد الله بن يوسف المصرى أحد أئمة النحو المشهورين المتوفى سنة ٧٦١ ه . وَيَصِفُ السخاوى هذه المنطقة فيقول : « وكانت هذه المنطقة وماقبلها طريقًا مطروقًا للقوافل يمرون بها عند مسيرهم من الفسطاط إلى عين شمس (المطرية) ولم يكن بها من المواضع التى تستحق الذكر إلا البستان الكافورى (وهو المنطقة الواقع بها الآن جزء من ظاهر باب الفتوح وشارع البنهاوى ويمتد إلى شارع الشعرانى الجوانى حيث المدرسة — الباسطية) .

ثم يتحدث السخاوى عن قبر ابن هشام فيقول : « كان قبر ابن هشام النحوى هذا دارسًا فأظهره رجل معروف بالبر والإحسان كان ساكنًا بقربٍ من هذه الجهة .

وبالبحث والتحرى عن مقبرة ابن هشام النحوى المصرى ، عثرت على مقبرة فى مواجهة باب النصر خارج سور القاهرة القديم وعلى بعد مائة متر تقريبًا ، تعرف باسم مقبرة الشيخ ابن هشام ، ويقوم فوق المقبرة تركيبة حجرية ويحيط بها مقصورة خشبية مساحتها ٣×٥ر٣ أمتار ويعلوها قبة خشبية أيضًا . وقد غطيت تركيبة القبر بغطاء قبر أخضر كتب عليه بطريقة النسيخ المضاف (طريقة الخيم) اسم ابن هشام الأنصارى فلما رفعت الغطاء وجدت على أحد شاهدى القبر كتابة منقوشة بطلاء زيتى به اسم ابن هشام الأنصارى وتاريخ وفاته سنة ٧٦١ ه وليس من المستبعد أن يكون هذا الضريح هو قبر شيخنا ابن هشام . .



مدرسة أم السلطان شعبان

سنة ٧٧٠هـ

بشارع باب الوزير

السلطان الملك الأشرف أبو المفاخر[١] زين الدين شعبان ابن الملك الأمجد حسين ابن السلطان الملك الناصر محمد ابن السلطان الملك المنصور قلاوون . تسلطن باتفاق الأمير يلبغا العمرى وطيبغا الطويل مع الأمراء على سلطنته بعد خلع ابن عمه الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر حاجى وهو السلطان الثانى والعشرون من ملوك الترك بالديار المصرية .

ولما اتفق الأمراء على سلطنته أحضر الخليفة المتوكل على الله أبو عبد الله محمد والقضاة الأربعة وأفيض عليه الخلعة الخليفتية السوداء بالسلطنة وجلس على تخت الملك وعمره عشر سنين فى يوم الثلاثاء خامس عشر شعبان سنة أربع وستين وسبعمائة من غير هرج فى المملكة ولا اضطراب فى الرعية ، بل فى أقل من قليل وقع خلع المنصور وسلطنة الأشرف وانتهى أمرهما ونزل الخليفة إلى داره وعليه التشريف ولم يعرف الناس ما وقع إلّا بدق البشائر والمناداة باسمه وزينت القاهرة وتم أمره على أحسن حال .

وولد الأشرف فى سنة أربع وخمسين وسبعمائة بقلعة الجبل[٢] . وفى سنة سبع وستين وسبعمائة أخذ الفرنج مدينة اسكندرية فى يوم الجمعة ٢٣ المحرم وخبر[٣] ذلك أنه لما كان يوم الجمعة المذكور طرق الفرنج مدينة الاسكندرية على حين غفلة فى سبعين قطعة

---

(١) فى السلوك للمقريزى : (جـ ٣ ص ٤٠ أ) : أبو المعالى

(٢) النجوم الزاهرة : جـ ١٠ ص ٢٤

(٣) النجوم الزاهرة : جـ ١٠ ص ٢٩ وما بعدها .

ومعهم صاحب قبرس وعدة الفرنج تزيد على ثلاثين ألفًا وخرجوا من البحر المالح إلى بر الاسكندرية فخرج أهلها إليهم فتقاتلوا فقتل من المسلمين نحو أربعة آلاف نفس واقتحم الفرنج الاسكندرية وأخذوها بالسيف واستمروا بها أربعة أيام وهم يقتلون وينهبون ويأسرون وجاء الخبر بذلك إلى الأتابك يلبغا وكان السلطان بسرياقوس ، فقام من وقته ورجع إلى القلعة ورسم للعساكر بالسفر إلى الاسكندرية ومعهم السلطان والأتابك يلبغا وعدّوا النيل وجدوا فى السير حتى وصلوا إلى الطرّانة (إحدى قرى مركز كوم حمادة بمحافظة البحيرة) ، فلما وصل إليها أرسل مقدمة من جيشه بقيادة بعض الأُمراء وهم قطلوبغا المنصورى وكوندك وخليل بن قوصون وجماعة من الطبلخانات والعشرات وغيرهم وجدوا فى السير ، وبينما هم فى ذلك ، جاء الخبر بأن العدو انسحب من الاسكندرية لما علم بقدوم السلطان ، ففرح الناس بذلك وقرر السلطان عمارة ماتهدم منها وإصلاح أسوارها وأخلع السلطان على الشريف بكتمر بنيابة الاسكندرية وأعطاه أمره مائة وتقدمه ألف وبكتمر هذا هو[1] أول نائب ولى نيابة الاسكندرية من النواب ، وما كانت أولا إلا ولاية ؛ فمن يومئذ عظم قدر نوابها وصار نائبها يسمى ملك الأُمراء ثم أمر يلبغا فنودى بمصر والقاهرة بأن البحارة والنقاطة كلهم يحضرون إلى بيت الأتابك يلبغا للعرض والنفقة ليسافروا فى المراكب التى تنشأُ ، وبدأ يلبغا فى عمارة المراكب وبعث مراسيم إلى البلاد الشامية والحلبية بإخراج جميع النجارين إلى جبل شغلان[2] وهو جبل عظيم فيه أشجار كثيرة من الصنوبر والقرو ونحو ذلك وهذا الجبل بالقرب من مدينة انطاكية ، وأنهم يقطعون الألواح وينشرون الأخشاب للمراكب ويحملونها إلى الديار المصرية .

أراد الأمير يلبغا أن يستبد بتصريف شئون البلاد دون طيبغا الطويل فأخذ يحيك له المؤامرات ليبعده عن الخدمة السلطانية التى كانا يتوليانها سويا وقد أحس العامة بذلك وصاروا يقولون : ياطويل حسك من هذا القصير . فكان طيبغا يلتفت إلى يلبغا ويقول وهو يضحك : ما يقول هؤلاء ! فيقول يلبغا : هذا شأن العامة يثيرون الفتن .

---

(١) النجوم الزاهرة : جـ ١٠ ص ٣٠

(٢) النجوم الزاهرة : جـ ١٠ ص ٣٠ وما بعدها .

تحين يلبغا فرصة خروج طيبغا الطويل إلى الصيد جهة العباسة ، فأرسل إليه مع بعض الأمراء تشريفا له بنيابة دمشق . فلما علم طيبغا ذلك غضب وأبى قبول الخلعة وأيده فى ذلك بعض الأمراء . فلما بلغ يلبغا ذلك ركب إليه ومعه السلطان الملك الأشرف شعبان ومزودين بالجند، فساروا حتى قدموا عليه وساقوه من العباسة حتى نزل بقبة النصر، وذكر المقريزى[1] فى الجزء الثانى من خططه عند الكلام على قبة النصر : أن هذه القبة كانت زاوية يسكنها فقراء العجم وهى خارج القاهرة بالصحراء تحت الجبل الأحمر تجاه قبة الأمير يونس الداودار الظاهرى . ويضيف الأستاذ محمد رمزى[2] ويقول أن هذه القبة كانت واقعة فى الفضاء الكائن شرقى خانقاة السلطان برقوق وقبة الأمير يونس الداودار بينهما وبين الجبل الأحمر وقد اندثرت هذه القبة .

وعند قبة النصر اقتتل عساكر يلبغا مع جند طيبغا الطويل وانهزم طيبغا الطويل وألقى القبض عليه وعلى أتباعه وأرسلوا إلى سجن الاسكندرية وأخذ يلبغا اقطاع ولدى طيبغا الطويل ثم أفرج السلطان عن طيبغا الطويل وقبل شفاعة الأمراء فيه وذلك فى سنة ٧٦٧ هـ وأبعد إلى القدس .

وفى سنة ٧٦٨ هـ أمر السلطان أن يكون الأمراء على الشوانى التى أنجز عملها كاملى العدد والسلاح والرجال على هيئة القتال ليشاهد السلطان والناس ماتم انجازه تجاه تجديد الأسطول فامتثل الأمراء للمرسوم السلطانى وشحنوا المراكب بالعدد والسلاح والرجال الملبسة وضربوا الطبلخاناة بها وصارت فى أبهى[3] زى ولعبوا بها فى البحر أمام السلطان والأتابك يلبغا وخرج الناس للتفرج من كل فج وكان يوم من الأيام المشهودة لم ير مثله فى سالف الأعصار .

ويقول ابن مماتى[4] المتوفى سنة ٦٠٦ هـ فى كتابه قوانين الدواوين فى وصف الأسطول المصرى : ومن أسماء مراكبه الطريدة والحمالة والشينى . . . إلخ . وفسر الطريدة بأنها مركب

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٤٣٣

(٢) النجوم الزاهرة : جـ ٧ ص ٤١ هامش (١) .

(٣) النجوم الزاهرة : جـ ١٠ ص ٣٦

(٤) النجوم الزاهرة : جـ ١٠ ص ٣٥ هامش ٤

برسم حمل الخيل وأكثر ما يحمل فيها أربعون فرسًا ، كما فسر الشيني وسماه الغراب أيضًا بأنه يجدف بمائة وأربعين مجدافًا . وفيه المقاتلة والجدافون .

سار السلطان والأتابك يلبغا بالجند من بر الجيزة قاصدين البحرين وعند قرية الطرانة (من قرى كوم حمادة (التى باتوا بها ، عزم مماليك يلبغا على قتله فى تلك الليلة لنفور قلوبهم منه لكثرة ظلمه وعسفه وتنوعه فى العذاب الذى كان ينزله بهم لأدنى جرم ، غير أنه ماكاد يشعر بدنوهم إلى خيمته حتى هرب بخواصه وعدى النيل إلى القاهرة ومنع المراكب من أن تعدى أحدا . أما مماليك يلبغا فقد نجحوا فى استمالة الملك الأشرف إلى ناحيتهم فى قتال يلبغا وكان قد تردد أولا ثم وافق لما فى نفسه من حجر يلبغا عليه وحجبه عن تصريف الأمور فى المملكة . وما كاد يلبغا بذلك حتى ثارت حفيظته فأنزل من قلعة الجبل آنوك ابن الملك الأمجد حسين أخى الملك الأشرف شعبان وسلطنه ولقبه بالملك المنصور وذلك بخيمة بجزيرة آروى[1] المعروفة بالجزيرة الوسطانية تجاه بولاق التكرورى فسمته العوام سلطان الجزيرة والملك الأشرف بمماليك يلبغا بالبر الشرقى ، ثم اتفق عساكر الملك الأشرف على تعدية الملك الأشرف من الوراق وهى بلد واقعة على الشاطىء الغربى للنيل بمركز إمبابة تجاه ساحل روض الفرج إلى جزيرة الفيل ويقول الأستاذ محمد[2] رمزى أن مكانها اليوم الأرض التى عليها مساكن قسمى شبرا وروض الفرج . فلما علم بذلك يلبغا وبلغه هروب الأمراء الذين كانوا معه ورجوعهم إلى الملك الأشرف ، رجع إلى القاهرة ووقف بسوق الخيل تحت قلعة الجبل ونزل عن فرسه وصلى العصر ونزع سيفه وأعطاه للأمير طيبغا الحاجب وقصد بيته بالكبش فرجمه العوام بالحجارة وفى اليوم التالى أخذه بعض الأمراء إلى القلعة فسجن بها إلى ما بعد العشار ثم أخذه بعض الأمراء وأنزلوه من القلعة وهو يستعد لركوب فرس أحضروه له .

وفى مدة حكم السلطان الأشرف قصد الفرنج مدينة طرابلس الشام سنة ٧٦٩ هـ فى ١٣٠ مركبًا من الشوانى والقراقير والغربان والطرائد وصحبهم صاحب قبرس ، وكان نائبها

(١) النجوم الزاهرة : جـ ١٠ ص ٣٧ هامش (٣) تعرف اليوم بالجزيرة الكبرى أو جزيرة بولاق الواقعة وسط النيل تجاه بولاق القاهرة يتوصل إليها بكوبرى قصر النيل وبواسطة كوبرى بولاق .

(٢) النجوم الزاهرة : جـ ١٠ ص ٣٨

وأكثر عسكرها غائبين . فاغتنمت الفرنج الفرصة وخرجوا من مراكبهم إلى الساحل واقتتلوا مع من وجد من عساكر المسلمين الذين تقهقروا لقلة عددهم فدخل المدينة طائفة من الفرنج ونهبوا بعض الأسواق وقد جدد المسلمون الكرة على الفرنج وألقى الله الرعب فى قلوب الفرنج فرجعوا[1] خائبين بعد أن قتل منهم نحو الألف .

قوى أمر الملك الأشرف فى السلطنة وصار هو المرجع الأول والأخير فى تدبير شئونها يعزل ويولى دون مشورة الأمراء وصار هو الملك من غير منازع ولا معاند وحسنت سيرته وأحبته الرعية .

وفى سنة ٧٦٩ هـ حجت خوند بركة والدة السلطان الملك الأشرف وكان أمير الحاج فى هذه السنة بهادر الجمالى ، فخرجت بتجمل زائد ورخت عظيم وبرك هائل ويعلق الأستاذ محمد[2] رمزى على لفظى البرك والرخت فيقول : « هما لفظان فارسيان معناهما المتاع الخاص من ثياب وقماش الأمراء وسلاطين المماليك) وخرج فى خدمة والدة السلطان من الأمراء الألوف بشتك العمرى وبهادر الجمالى أمير الحاج وماية مملوك من المماليك السلطانية الخاصكية وكان من جملة ما معها بدرب الحجاز كوسات وعصائب سلطانية وعدة محفات بأغطية زركش وعدة محاير ويفسر الأستاذ محمد[3] رمزى لفظ محاير فيقول : « هو جمع محاورة وهى مرادفة للمحفة ، صندوقان يشدان إلى جانب الرحل كالهوادج مكان للمحاير سوق خاص بالقاهرة : اسمه سوق المحايريين اشتهر تجاره بتحديد أثمان بضائعهم بغير مساومة ومكانه قرب الجامع الأقمر واستحدث آخر قرب الجامع الطواونى على عهد المقريزى . وكان مع والدة السلطان عند ذهابها للحج : قطر جمال عليها مزروع خضر وغير ذلك وحجت وغادت إلى الديار المصرية بعد أن احتفل جميع الأمراء وخفوا إلى ملاقاتها .

ومما عمله الملك الأشرف أنه قرر فى سنة ٦٧٣ هـ أن الأشراف بالديار المصرية والبلاد الشامية يسمون عمائمهم بعلامة خضراء بارزة يميزهم بها الخاصة والعامة ويولونهم الاجلال

---

(١) النجوم الزاهرة : جـ ١٠ ص ٥٣
(٢) النجوم الزاهرة : جـ ١٠ ص ٥٤ هامش (٢) .
(٣) النجوم الزاهرة : جـ ١٠ ص ٥٥ هامش (١) .

والتعظيم ويقابلون بالقبول والاقبال ويمتازون عن غيرهم من المسلمين وقد تم ذلك ولبس الاشراف العلائم الخضر ، التي هي إلى الآن مستمرة على[1] رءوسهم .

مرضت والدة السلطان ثم توفيت في ذي الحجة سنة أربع وسبعين وسبعمائة وهي في عصمة الجاي اليوسفي وصلى عليها الملك الأشرف ودفنت بمدرستها التي عمرتها بخط التبانة خارج القاهرة بالقرب من باب الوزير ، وحزن عليها ولدها الملك الأشرف حزناً شديداً لأنها كانت من خيار نساء عصرها ديناً وخيراً وصدقة ومعروفاً[2] .

ويصف المقريزي[3] هذه المدرسة فيقول : هذه المدرسة خارج باب زويلة بالقرب من قلعة الجبل يعرف خطها بالتبانة وموضعها كان قديماً مقبرة لأهل القاهرة أنشأتها الست الجليلة الكبرى بركة أم السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين في سنة ٧٧١ هـ وعملت بها درساً للشافعية ودرساً للحنفية وعلى بابها حوض ماء للسبيل وهي من المدارس الجليلة وقبرها موجود بقبة المدرسة التي دفن فيها ابنها الملك الأشرف شعبان بعد قتله .

وهذه المدرسة لاتزال قائمة إلى اليوم باسم جامع أم السلطان بشارع باب الوزير الذي أصله من خط التبانة . وهو عامر بإقامة الشعائر الدينية . وبوابة المدرسة مرتفعة ذات حجر كبير مربع ، بها مكسلتان وعقد الإيوان من أجمل العقود المكونة من المقرنصات المتنوعة ذات الدوالي ، وكانت مطلية بالنقوش المذهبة . ويستفاد من الكتابة المنقوشة في الحجر أن الذي أمر بإنشاء المدرسة والسبيل لوالدته هو الملك الأشرف شعبان في سنة ٧٧٠ هـ . والظاهر أنه بدأ في العمارة سنة ٧٧٠ هـ وأقيمت الشعائر سنة ٧٧١ هـ ، كما يذكر المقريزي ، لأن المدرسة كبيرة ولابد أن عمارتها استغرقت شهوراً من السنتين المذكورتين .

---

(١) النجوم الزاهرة : جـ ١٠ ص ٥٦

(٢) النجوم الزاهرة : جـ ١٠ ص ٥٩

(٣) الخطط جـ ٢ ص ٣٩٩

الوصف المعمارى

تقع الواجهة الرئيسية للمدرسة فى الضلع الشرقى وهى حافلة بمجموعة من العمائر الملحقة بالمدرسة . ففى الطرف الشمالى الشرقى يوجد حوض لشرب الدواب يكاد يكون منفصلا عن الواجهة فهو يكون وحدة بنائية قائمة بذاتها حيث يعلو الحوض كتاب لتحفيظ الأطفال اليتامى القرآن والخط العربى . وفى الطرف الآخر للمدرسة أى الجنوب الشرقى يوجد سبيل وفى الركن توجد المئذنة المكونة من ثلاثة طوابق ، سقط الطابق الثالث منها الآن .

ويتوسط الواجهة الشرقية المدخل الرئيسى للمدرسة ، إذ نجد بابًا يعتبر تحفة فنية رائعة بما يحويه من زخارف محفورة فى الحجر . ويبلغ سعة الباب (٥ر١) متر وارتفاعه (٥ر٢) متر يعلوه عتب نقشت فيه زخارف نباتية ذات طراز متأثر إلى حد كبير بالأسلوب الصينى . ويحيط بهذا العتب إطار عرضه (٢٠ سم) يلتف حوله حتى بداية فتحة الباب وقد بدأنا نرى هذه الظاهرة منذ ضريح السادات الثعالبة . ويعلو العتب عقد عاتق طرفه العلوى مسطح يحتوى على اثنتى عشرة صنجة معشقة من اللونين الأبيض والأحمر . ويأتى فوق العقد العاتق نافذة قنديلية مكونة من فتحتين تعلوهما دائرة ، وقد أحاط بالنافذة عقد نصف دائرى . تأتى بعد ذلك منطقة الانتقال التى تأتى دخول المدخل العميق الذى يكون نصف مربع ، وتحتوى على صفين من المقرنصات . ويعلو ذلك قبة هرمية الشكل مكونة من دلايات نظمت فى مثلثات صغيرة فى وضع هندسى بديع التكوين .

وفى تجويف المدخل الذى يبلغ عمقه (٧٥ر١) متر يكتنف الباب مكسلتان يعلوهما حنيتان يعلوهما عقدان مفصصان ، وقد زخرف طاقية العقد إشعاعات تنتهى بفصوص العقد ويحيط بالباب شريط من الكتابة الكوفية على أرضية مورقة ، نصها « بسم الله الرحمن الرحيم الله لا إله إلا هو الحى القيوم إلى نهاية آية الكرسى . كما كتب على جانبى الباب : بسم الله الرحمن الرحيم الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة » حتى نهاية الآية . أمر بإنشاء هذه

المدرسة المباركة لوالدته مولانا السلطان الملك الأشرف شعبان ابن المرحوم حسين سلطان الإسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين محيي العدل فى العالمين مظهر الحق بالبراهين حامى حوزة الدين عز نصره » . ويعلو هذا الشريط شريط آخر يحيط بالحنايا والعقود الحانبية مكتوب فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة لوالدته مولانا السلطان المالك الملك الأشرف شعبان ابن المرحوم حسين سلطان الإسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين محيي العدل فى العالمين مظهر الحق بالبراهين حامى حوزة الدين سيد الملوك والسلاطين قسيم أمير المؤمنين قاهر الخوارج والمتمردين كنز الغزاة والمجاهدين منصف المظلومين من الظالمين ذخر الأرامل والمحتاجين صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية والحصون الإسماعيلية والثغور السكندرية والقلاع الساحلية والأقطار الحجازية والأعمال الفراتية ناصر الملة المحمدية أعز الله أنصاره وذلك فى شهور سنة سبعين وسبعمائة للهجرة النبوية وصلى الله على سيدنا محمد وآله » .

كذلك نجد اسم المنشىء وتاريخ الإنشاء على الحجاب الخشبي الموجود أمام السبيل السابق الإشارة إليه وهو مكون من خشب مخرم زخارفه على شكل الأطباق النجمية نقش عليه : « أمر بإنشاء هذا السبيل المبارك لوالداته مولانا السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين عز نصره فى شهور سنة سبعين وسبعمائة » .

ويؤدى المدخل العام للمدرسة إلى طرقة مربعة الشكل يبلغ طول ضلعها ٨ أمتار مغطاة بقبة ضحلة زخرفت أركانها بمقرنصات بديعة مذهبة ، ويتصدر الطرقة صفة وبها لوحة من الرخام مثمنة الشكل كتب عليها « الحمد لله أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة مولانا السلطان الملك الأشرف أعز أنصاره لوالدته تقبل الله منهما فمن أبطل شيئًا منها أو من أوقافها كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خصمه يوم القيامة « فمن بدّله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم » .

وإلى يسار الطرقة يوجد باب يوصل إلى دهليز مستطيل . ويعلو هذا الباب صفان من — الدلايات فوقهما شريط من الكتابة جاء فيه : أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة لوالدته سيدنا

ومولانا ومالك رقنا السلطان المالك الملك الأشرف شعبان بن حسين أعز أنصاره بمحمد وآله وسلم » .

وإلى اليمين من الدهليز يوجد باب يوصل إلى الطابق العلوى ، وفى نهاية الدهليز يوجد باب آخر يؤدى إلى صحن المدرسة . ويتكون الصحن من مربع كبير يبلغ طول ضلعه (١٨) مترًا وهو مكشوف وتحيط به من جهاته الأربع إيوانات متعامدة وبجانب كل إيوان مدرسة المذهب المخصص لها . وقد زخرفت أعتاب المدارس المذهبية وعقودها العاتقة بزخارف نباتية وهندسية بديعة مذهبة كما نقش على جوانب تلك الأبواب الكتابة الآتية : أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة لوالدته مولانا وسيدنا السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين عز نصره » .

ويعتبر الإيوان الشرقى أهم الإيوانات وأكبرها إذ تبلغ سعته (١٥) م وعمقه (٢٠) م ويتصدره محراب كسى بالرخام الملون كما يكتنفه عمودان مثمنا البدن ، أما تيجانهما فقد حفرت فيهما زخارف نباتية غاية فى الدقة والابداع . ويكتنف المحراب نافذتان زخرفت خواصرهما بنقوش مماثلة لزخارف تيجان الأعمدة والمحراب . وإلى جانب المحراب يوجد منبر خشبى بسيط أمر بعمله الأمير على أحد أمراء المماليك الجراكسة .

وفى طرف الضلع الشرقى من الداخل توجد قبتان ، خصصت الجنوبية منهما لدفن السلطان شعبان كما دفن[1] فيها كذلك ابنه الملك المنصور حاجى المتوفى سنة ٨١٤ هـ وهى قبة صغيرة بنيت من الحجر وتبلغ منطقة الانتقال فيها من مقرنص كبير على شكل نصف دائرة كاملة التكوير وبين هذه الأركان توجد نوافذ قنديلية تتكون من فتحتين معقودتين يعلوهما دائرة . ويعلو منطقة الانتقال رقبة القبة التى تحتوى على ستة عشر عقدًا فتح منها ثمانية أما الثمانية الأخرى فمصمته . أما القبة فهى ذات قطاع مدبب ممتد ، وهى مضلعة من الخارج .

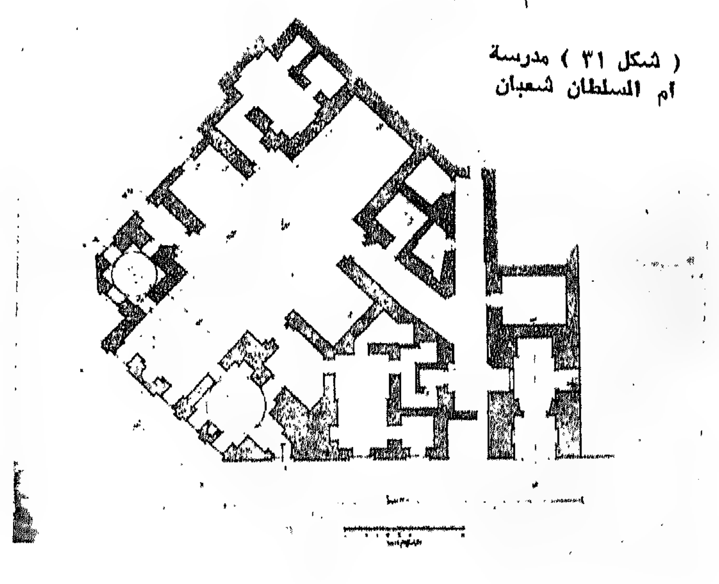
أما القبة الشمالية فقد أعدت لدفن خوند بركة وقد دفنت معها ابنتها خوند زهرة كما هو ثابت من الكتابة التى تحيط بالقبر الذى يتوسط القبة فقد جاء فيه : هذا ضريح ريحانة الجنة الست المرحومة الدرة المكنونة ست الستات زين الخواتين الست زهرة ابنة

---

(١) ابن إياس : جـ ١ ص ٢٩٠

المقام المرحوم الأمجد سيدى حسين ولد المقام الشهيد المرحوم الملك الناصر كريمة سيدنا ومولانا المقام الشريف المالك الملك الأشرف ناصر الدنيا والدين شعبان بن حسين توفيت فى يوم الاثنين ثامن عشرين جماد الآخر سنة إحدى وسبعين وسبعمائة » . ومما يجدر الإشارة إليه فى النص السابق أنه قد ورد فيه عن السيدة خوند زهرة أنها ابنة السلطان حسين وفى نفس الوقت ذكرت أنها كريمة السلطان شعبان . ولعل المقصود هنا بكلمة كريمة هو أخت فقد سبق أن استعمل فى مقبرة السيدة تتر الحجازية حسين فقد نقش عليها أنها ابنة الناصر محمد وكريمة السلطان . حسن والقبة الشمالية أكبر وأكثر ارتفاعاً من القبة الجنوبية ولكن تشبهها من حيث التصميم الخارجي والداخلى ، إلا أن الأخيرة تحتوى على محراب يكتنفه عمودان مثمنان حليت تيجانهما بزخارف مذهبة . وتطل القبتان على إيوان القبلة الشرق عن طريق نافذتين يحتويان على مصاريع خشبية مكونة من حشوات مجمعة على شكل (أطباق نجمية) طعمت بالعاج والصدف .

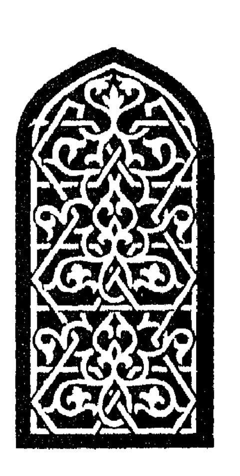
وقد كانت هذه المدرسة تحتوى على مجموعة من المشكايات الزجاجية المموهة بالمينا وكذا كرسى عشاء مسدس الشكل مطعم بالعاج والأبنوس ، نقلت كلها إلى متحف الفن الإسلامى .



(شكل ٣١) مدرسة أم السلطان شعبان

---

(١) ابن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة جـ ١ ص ٤٧٤ ، حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية جـ ١ ص ١٨٦



رباط المشتهى
(أو زاوية الكازرونى)
بجزيرة الروضة

يجدر بنا قبل أن نتناول رباط المشتهى بالبحث والدراسة أن نذكر شيئًا عن صفة جزيرة الروضة فى العصر الإسلامى . يقول السيوطى[1] : هى من أحسن المواضع هواءً ومنظرًا وماء النيل يضرب فيها من جميع الجوانب ، وبسبب استحكامها وقربها من التخت (مركز الحكم) تقلبت بين أمرين فتارة كانت تجعل حصنًا للمدافعة وتارة تجعل منتزها .

ويحدثنا المقريزى[2] عن جزيرة الروضة ابان فتح عمرو بن العاص لمصر فيقول : إن الروم تحصنت بها لما فتح عمرو بن العاص مصر وأقاموا بها مدة طويلة وبعد ذلك تركوها فخرب عمرو بعض أبراجها وأسوارها وكانت مستديرة ، ويعلق على ذلك المقريزى فيقول : « ومن ذلك يعلم أنها كانت من النقط الحصينة وكان بينها وبين الضفة الشرقية للنيل وفى مقابل الحصن (أى حصن بابليون) جسر أى قنطرة مجعولة من المراكب .

ويصف الجزيرة ابن عبد الحكم[3] فى العصر الأموى فيقول : كانت فى زمن عبد العزيز ابن مروان أمير مصر عامرة بالدور المشرفة على النيل من كل جهة وكان بها خمسمائة فاعل مخصوصة بحصول حريق أو هدم يقع فى البلد » .

وقد أُنشئت فى جزيرة الروضة أول ترسانة فى مصر الإسلامية ، إذ يقول المقريزى :

---

(١) كوكب الروضة ص ٨٥

(٢) الخطط والآثار : ج ٣ ص ٣١٩

(٣) فتوح مصر : ص ٢٢٣

هذه الصناعة (أى صناعة السفن) كانت بجزيرة مصر التى تعرف اليوم بالروضة وهى أول صناعة عملت بفسطاط مصر . بنيت فى سنة أربع وخمسين من الهجرة . ثم اعتنى الامير أبو العباس أحمد بن طولون بإنشاء المراكب الحربية فى هذه الصناعة (أى المصانع) ولم تزل هذه الصناعة إلى أيام الملك الأمير أبى بكر محمد بن طغج الأخشيد الذى أنشأ صناعة بساحل فسطاط مصر وجعل موضع هذه الصناعة البستان المختار . كما بنى بها ابن طولون حصنًا منيعًا فى سنة ثلاثة وستين ومائتين وجعله معقلا لما لهِ وحريمه وذخائره . واهتم ابن طولون فى بنائه بنفسه وصرف عليه ثمانين ألف دينار .

ولما تحولت صناعة السفن إلى ساحل الفسطاط وحل محلها البستان المختار فى عصر الدولة الأخشيدية بقى هذا البستان حتى مجىء الدولة الفاطمية وأصبحت جزيرة الروضة متنزه الخليفتين المعز والعزيز . وفى عهد الخليفة المستنصر أنشأ وزيره الأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش بدر الجمالى فى شمال الجزيرة مكانًا للنزهة سماه الروضة وتردد إليها كثيرًا ومنذ ذلك الوقت أصبحت الجزيرة كلها تعرف باسم الروضة . ولم تزل الجزيرة متنزه الملوك والسلاطين إلى أن ولى الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل ، فأنشأ القلعة بالروضة فعرفت بقلعة المقياس وبقلعة الروضة والقلعة الصالحية ، ووصل بين الجزيرة والفسطاط جسر ما يزال حتى الآن يعرف باسم (كوبرى الملك الصالح) . ولم تزل هذه القلعة عامرة حتى زالت دولة بنى أيوب وقد تربى فيها المماليك الذين عرفوا بالبحرية نسبة إلى المياه التى تحيط بالجزيرة من جميع الجهات . فلما ملك السلطان عز الدين أيبك التركمانى أول ملوك دولة المماليك سنة ٦٤٩ هـ أمر بهدمها .

وما تزال تحتفظ جزيرة الروضة على أثر يعتبر من أقدم الآثار الإسلامية التى ما تزال باقية حتى الآن ونعنى به مقياس الروضة الذى أنشأه أحمد بن محمد الحاسب بأمر الخليفة المتوكل على الله . وهو مايزال يحتفظ بأقدم كتابة محفورة على الحجر فى أثر إسلامى ونص الكتابة (بسم الله الرحمن الرحيم الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقًا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا

نعمة الله لاتحصوها إن الإنسان لظلوم كفار) « بسم الله الرحمن الرحيم مقياس يمن وسعادة ونعمة وسلامة أمر ببنائه عبد الله جعفر الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين أطال الله بقاءه وأدام عزه وتأييده على يد أحمد بن محمد الحاسب سنة سبع وأربعين ومائتين » .

أما عن الشيخ الكازرونى الذى نسبت إليه الزوية فهو كما يقول السيوطى والمقريزى فهو الصوفى محمد بن عبد الله الكازرونى قدم مصر فأخذ عن أحمد الحريرى خادم ياقوت العرش خادم أبى العباس المرسى وزوج ابنته عن الشيخ أبى الحسن الشاذلى وصحبه زمانا » .

ويقول ابن حجر العسقلانى[٢] محمد بن عبد الله الكازرونى قدم مصر وصحب الشيخ أحمد الحريرى صاحب الشيخ ياقوت العرش تلميذ الشيخ أبى العباس المرسى ، وانقطع بعده فى المشتهى من الروضة وكان الناس يترددون إليه ويعتقدونه » .

ويضيف ابن حجر فيقول : وكان الشيخ أكمل الدين شيخ خانقاةالشيخونية (بالصليبة بحى طالون) كثير التعظيم له وانقطع إليه البدر البشتكى وكتب له أشياء كثيرة من تصانيف الشيخ محيي الدين بن العربى وكان يكثر الثناء عليه .

ويذكر المقريزى تاريخ وفاته فيقول : وكانت وفاته فى ذى الحجة سنة أربع وسبعين وسبعمائة ودفن بزاويته المشتهى .

ويسمى المقريزى الزاوية باسم الرباط مما يدل على أنها كانت بناء كبيرًا يشتمل على مجموعة من الغرف لإقامة المريدين والمنقطعين العبادة من الصوفية المتلمذ على يدى شيخنا الصوفى الكازرونى ، إذ يقول المقريزى فى وصفها : هذا الرباط بروضة مصر يطل على النيل وكان به الشيخ السالك الكازرونى . ولله در شيخنا العارف بالله شهاب الدين أحمد الشاطر الدمنهورى حيث يقول[٣] :

بروضـــة المقيـــاس صوفيـــة ... هم منيـــة الخاطـــر والمشتهى
لهم عـــلى البحـــر اياد علـــت ... وشيخهم ذاك لـــه المنتـــهى

(١) كوكب الروضة ص ١٩٣ ، السلوك جـ ٢ ص ٢٣٢
(٢) أنباء الغمر بأبناء العمر ص ٣٣٥
(٣) الخطط جـ ٣ ص ٣٢٠

وقال الإمام العلامة شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن الصائغ الحنفى :

يا ليلـــة مـــرت بنـــا حلـــوة   إن رمت تشبيهـــاً لهـــا عتبهـــا

لايبلـــغ الـــواصف فى وصفهـــا   حـــــدًا ولا يلقى لــــه منتهى

بت مع المعشـــــوق فى روضـــــة   ونلت من خـــرطـــومـــه المشتهى

ويكمل على مبارك[1] تاريخ هذا الرباط فيقول : وفى زماننا هذا يعنى سنة إحدى وتسعين ومائتين وألفا فإن الرباط المذكور مشهور بزاوية الشيخ الكازرونى ، وموضعها غربى سراى الخديو إسماعيل بنتها (لعله يعنى جددتها) سعادة والدة باشا والدة الخديو المذكور » .

ويضيف على مبارك فيقول : وأقام بها الشيخ على القشلان أحد المشاهير من رجال الطريقة القدرية ومعه سبعة دراويش . ورتبت بها مولدًا سنويًا وفى كل شهر ثلثمائة قرش ديوانية . ورتبت لها من الشمع والبن والفحم والزيت مايلزم لها يوميًا .

---

(١) الخطط التوفيقية جـ ١٨ ص ١٤

وصف الرباط

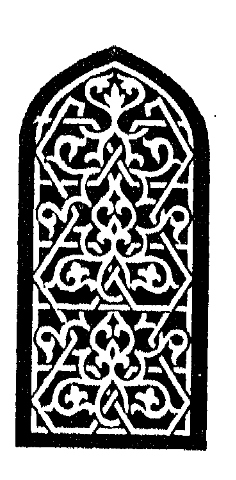
كذلك وصف على مبارك الرباط[1] فى عصره فقال : زرنا هذا الرباط بجزيرة الروضة بلصق السور الغربى لقصر الخديو إسماعيل ، ووجدنا الشيخ الكازرونى مدفونًا تحت قبة الحائط الجنوبى للزاوية . وعلى قبره تابوت من الخشب مغطى بستر أخضر من عمل أُم الأمير حسين بن الخديو إسماعيل .

وللأسف فقد أُزيل الرباط وأُقيم مكانه مدرسة تقع فى شارع قايتباى بمنيل الروضة وتعرف المدرسة باسم مدرسة الأشراف .

وقد نقل التابوت وكذا المقصورة الموجودة فوق التابوت إلى جامع قايتباى المجاور له .

---

(١) الخطط التوفيقية جـ ٦ ص ٥٣



مدرسة الجاى اليوسفى
بشارع سوق السلاح

هو الجاى بن عبد الله اليوسفى الأمير سيف الدين ، انتقل فى الخدم حتى صار من جملة الأمراء بديار مصر فلما قام الأمير أسندمر الناصرى بأمر الدولة بعد قتل الأمير يلبغا الخاصكى العمرى فى شوال سنة ثمان وستين وسبعمائة تعاظم على المماليك والناس ، فاتفق[1] جماعة من الأمراء العزية مع طغيتمر النظامى وأقبغا حلب على القبض على أسندمر ودبروا عليه إلى أن كانت ليلة الأحد سابع شهر شوال من سنة ثمان وستين المذكورة . ركبوا نصف الليل وضربوا الكوسات وأنزلوا الملك الأشرف شعبان إلى الاسطبل السلطانى وقصدوا مسك أسندمر الناصرى وبعض مماليك يلبغا العمرى الأشرار وبلغ ذلك أسندمر فمكث فى بيته إلى طلوع الشمس ثم ركب من بيته بالكبش وتوجه بمن معه إلى قبة النصر ومنها إلى القرافة إلى باب الدرفيل من وراء القلعة ، ويعلق الأستاذ[2] محمد رمزى على باب الدرفيل فيقول : يقصد بذلك قرافة المماليك المعروفة الآن بجبانة أبى سبحة الواقعة من الجهة الجنوبية من قلعة الجبل وأما باب الدرفيل فهو أحد أبواب القلعة فى سورها الشرقى المشرف على جبل المقطم ذكره المقريزى فى خططه (ص ٢٠٥ جـ ٢) فقال : أن هذا الباب بجانب خندق القلعة ويعرف أيضًا بالباب المدرج (وهو غير باب المدرج الغربى الأصلى) ثم قال : وكان يعرف قديمًا بباب سارية ويتوصل إليه من تحت دار الضيافة وينتهى منه إلى القرافة وهو فيما بين سور القلعة والجبل .

---

(١) النجوم الزاهرة : جـ ١٠ ص ٤٢

(٢) النجوم الزاهرة : جـ ١٠ هامش ص ٤٣

ثم قال وباب الدرفيل هذا ينسب إلى الأمير حسام الدين لاجين الأيدمرى المعروف بالدرفيل وكان دوادار الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى . ومات سنة ٦٧٢ هـ » .

فوجىء الأمراء بأسندمر الناصرى وهو تحت الطبلخانة السلطانية من القلعة فهجم عليهم من الصوة ويقول الأستاذ[١] محمد رمزى : « أن الصوة اسم يطلق على المنطقة الجبلية الواقعة من الجهة الشمالية البحرية من قلعة القاهرة فيما بين القلعة وجامع الرفاعى ويتوسطها الطريق المعروف بسكة المحجر ودرب المارستان بخط القلعة » - فهرب أكثر الأمراء وانتصر أسندمر عليهم وهربوا جميعًا إلا الجاى[٢] اليوسفى وأرغون ططر فإنهما ثبتا وقاتلا أسندمر وليس معهما غير سبعين فارسًا ، ولما لم يرجع إليهما أحد من أصحابهما هزما وانتصر عليهم أسندمر الناصرى الذى ذهب عند ذاك إلى القلعة وقبل الأرض بين يدى الملك الأشرف شعبان الذى أمر استمراره أتابكا ومدبر المماليك كما كان يبلغا الخاصكى .

قبض أسندمر على جماعة من الأمراء المتآمرين عليه وقيدهم وأرسلهم إلى ثغر الاسكندرية فحبسوا بها ومنهم : الجاى اليوسفى فسجنوا إلى عاشر صفر سنة تسع وستين وسبعمائة فأفرج الملك[٣] الأشرف شعبان بن حسين عن الجاى اليوسفى وأعطاه أمره مائة وتقدمه ألف وجعله أمير سلاح برانى ثم جعله أمير سلاح أتابك العساكر وناظر المارستان المنصورى عوضًا عن الأمير منكلى بغا الشمس . وفى سنة أربع وسبعين وسبعمائة تزوج بخوند بركة أم السلطان الملك الأشرف فعظم قدره واشتهر ذكره وتحكم فى الدولة .

مرضت خوند بركة والدة السلطان الملك الأشرف فنزل بها السلطان وهى متمرضة إلى الروضة تجاه مصر القديمة فى السادس عشر من ذى القعدة سنة أربع وسبعين وسبعمائة وأنزلها بنظرة الأمير طشتمر الدوادار ، فأقام فيها يومين وصحبته جميع الأمراء ، وعاد فى اليوم الثالث إلى القلعة واستمرت أم السلطان متمرضة إلى أن ماتت فى ذى الحجة وهى فى عصمة الجاى اليوسفى . ومن الاتفاق العجيب أن نظم الأديب شهاب الدين السعدى بيتين من الشعر تفاءل بهما على الجاى اليوسفى وهما :

---

(١) النجوم الزاهرة : جـ ١٠ هامش ص ٤٣

(٢) النجوم الزاهرة : جـ ١٠ ص ٤٤

(٣) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٩٩

في مستهل العشر من ذى الحجة كانت صبيحة موت أم الأشرف
فالله يرحمهـا ويعظم أجـره ويكون فى عاشور موت اليوسفى

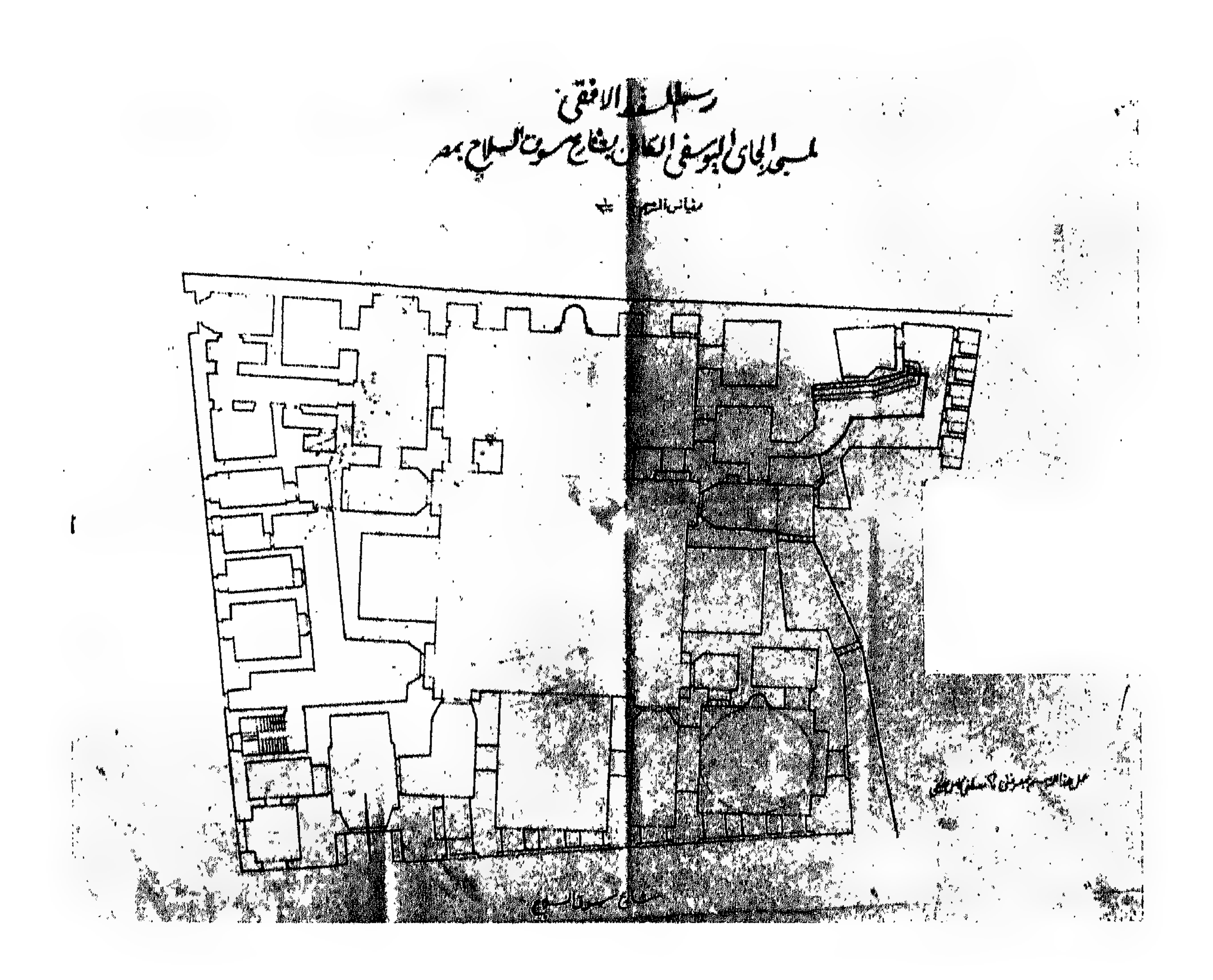
فكان الأمر على ما ذكر الشاعر وهذا من الاتفاق الغريب وهو أنه لما ماتت خوند بركة وقع بين الملك الأشرف وبين زوج أمه الجاى اليوسفى كلام من أجل التركة الخاصة بخوند بركة المذكورة وكثر الكلام بين السلطان والجاى اليوسفى حتى غضب الجاى وخرج عن طاعة الملك الأشرف ولبس هو ومماليكه آلة الحرب وتبعهم مماليك السلطان فتقاتل الملك الأشرف ورجاله والأتابك الجاى اليوسفى ومماليكه وعظم القتال بينهما حتى دارت الدائرة فى النهاية على الجاى اليوسفى الذى انهزم إلى بركة الحبش ثم تراجع وعاد بمن معه عن طريق الجبل الأحمر إلى قبة النصر ، فطلبه السلطان الملك الأشرف فأبى فأرسل إليه خلعه بنيابة حماة فقال : بأنه يشترط أن يأخذ كل ما يملكه معه وكذلك جميع مماليكه ، فأبى السلطان ذلك . وفى المساء هرب جماعة من مماليك الجاى اليوسفى منه وانضموا إلى الملك الأشرف .

أرسل السلطان إلى قبة النصر بعض مماليكه ومماليك أولاده وبعض المماليك السلطانية والأمراء حيث يعسكر الجاى اليوسفى ، فلما رآهم الأخير هرب فاقتفوا أثره إلى الخرقانية ويقول الأستاذ محمد رمزى أنها من القرى القديمة وهى الآن إحدى قرى مركز قليوب بمحافظة القليوبية بمصر . وجاء فى نزهة المشتاق للأدريسى : (الخرقانية) بين بيسوس (باسوس) وشلقان ، قال : « وهى قرية عامرة لها مزارع وضياع وبساتين كثيرة للملك » . ولما رأى الجاى أنه مدرك رمى نفسه وفرسه إلى البحر ، ظنًا منه أنه يعدى به إلى البر ، وكان الجاى عوّامًا ، فثقل عليه لبسه وقماشه فغرق[1] فى النيل وخرج فرسه وبلغ السلطان الخبر فشق عليه موته وتأسف عليه ، ثم أمر بإخراجه من النيل فنزل الغواصون وأخرجوه وأحضروه إلى القلعة فى يوم الجمعة تاسع المحرم ، ثم دفن فى القبة التى أنشأها بمدرسته برأس سويقة المعزى خارج القاهرة . ويقول الأستاذ[2] محمد رمزى : هذه السويقة تعرف الآن بشارع سوق السلاح وكان الجاى من أجل الأمراء وأحسنهم سيرة .

---

(١) النجوم الزاهرة : جـ ١٠ ص ٦١
(٢) النجوم الزاهرة : جـ ١٠ هامش ٣ ص ٦١

قبض السلطان بعد موت الجاى على مماليكه ونودى بالمدينة إن كل من لقى أحدًا منهم يحضره إلى السلطان ويأخذ جائزة نظير ذلك . ثم أخذ السلطان أولاد الجاى وهم أخوة السلطان لأمه ورتب لهم ما يكفيهم واحتاط على سائر موجود الجاى وأخذ جميع مماليكه وصفح عنهم وجعلهم فى خدمة ولديه : أمير على وأمير حاج ثم قبض السلطان على جماعة من الأمراء ممن كانوا يلوذون بالأمير الجاى .



(شكل ٣٢) مدرسة الجاى اليوسفى

وصف المدرسة

تعد مدرسة الجاى اليوسفى من المدارس الكبيرة نسبيًا فهى تشغل مساحة مقدارها — (٣٤٠٠) متر مربع تقريبًا . وهى على شكل مربع وتقع الواجهة الرئيسية لها فى الضلع الغربى منها ويبلغ طولها (٦٠) م تقريبًا وتحتوى على تسع حنايا مستطيلة تمتد بارتفاع المبنى التى تحتوى على ثلاثة طوابق . وقد فتحت فى كل حنية ثلاث نوافذ تقابل كل نافذة طابقا من الطوابق الثلاثة ، الصف الأول منها مستطيل الشكل يعلو عتبته صفان من الدلايات والصف الثانى معقود أما الصف العلوى من النوافذ فهو قنديلى الشكل . وقد نظمت هذه الحنايا بحيث أصبحت القبة التى تقع فى الطرف الجنوبى الغربى تحتوى على ثلاث منها ثم واحدة فى الاستطراق الذى يفصل بين القبة والإيوان الغربى ثم ثلاث فى الإيوان الغربى ثم واحدة فى الدهليز التى يفصل بين الإيوان والمدخل الرئيسى وواحدة فى السبيل فى الطرف الشمالى الغربى للمدرسة . ويعلو الحنايا أربعة صفوف من الدلايات ثم تنتهى الواجهة بشرفات على شكل الزخارف النباتية ، التى حلت محل الشرفات المسننة .

ويتوسط الواجهة الغربية المدخل الرئيسى للمدرسة وهو متسع إذ تبلغ سعته (٦) أمتار وكثير العمق يصعد إليه عن طريق قالبة من الدرجات يبلغ عددها أربعا ويتوسط المدخل باب قد كسى بالرخام الملون كما رسم عليه رنك (شارة) المنشىء وكتب على جانبيه : بسم الله الرحمن الرحيم إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين . صدق الله العظيم وصدق رسوله الكريم أمر بإنشاء هذا الجامع والمدرسة المباركة المقر الأشرف العالى المولوى الأميرى السيفى الحاى أتابك العساكر المنصورى الملكى الأشرفى عز الله نصره بتاريخ شهر رجب سنة أربع وسبعين وسبعمائة » .

كما يعلو الباب لوح رخامى نقش فيه « بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذا الجامع

والمدرسة المباركة المقر[1] الأشرف العالى المولوى الأميرى السيفى الجاى أتابك[2] العساكر المنصورة الملكى الأشرفى عز الله نصره بتاريخ شهر رجب سنة أربع وسبعين وسبعمائة » .

ويؤدى الباب إلى طرقة مستطيلة فى صدرها مصطبة وتغطيها أقباء متقاطعة عولجت بطريقة هندسية غاية فى الابداع ، وتفتح من الجهة اليسرى على السبيل ومن الجهة اليمنى على دهليز مثنى على شكل (ـــ) يؤدى إلى صحن المدرسة . ويتوسط المدرسة صحن مكشوف مربع الشكل يبلغ طول ضلعه عشرين مترًا ، ويحيط به الأروقة من جميع الجهات .

ويعتبر إيوان القبلة أكبر الإيوانات إذ يبلغ سعة فتحته المعقودة (١٣/٥) م يكتنفها كتفان فتحت فيهما نافذتان . أما عرض الإيوان بعد مدخله فيبلغ (٢٠) م وعمقه (١٦) مترًا وفى صدر الإيوان محراب حجرى بسيط خواصره مملوءة بالزخارف الجميلة ويكتنفه حنيتان من كل جانب ، كما توجد حنيتان فى الضلع الشمالى للإيوان وبابان فى الضلع الجنوبى يؤديان

---

(١) المقر : هو من الألقاب الأصول فى عصر المماليك وكان يلى فى المرتبة تنازلياً لقب المقام » ولذلك فإنه يستعمل للسلطان . وقد ظل اللقب من اختصاص السلطان حتى أواخر القرن السابع فقد أطلق لقب « المقر العالى » على السلطان منصور قلاوون سنة ٦٧٨ هـ . وكان ذلك من إنشاء القاضى محى الدين بن عبد الظاهر . على أن لقب « المقر » لم ينفرد به السلطان وحده فى بداية عصر المماليك بل استعمل كذلك لكبار الأمراء ، فقد أطلق لقب « المقر العالى » سنة ٦٧٥ هـ . على سيف الدين ساطلمش فى نص إنشاء فى سبيله بدمشق .

وفى القرن الثامن الهجرى كان اللقب يختص بكبار الأمراء وأعيان الوزراء من العسكريين ، وكان يستعمل لهم فى المكاتبات الرسمية ، وقد أضافت هذه المراجع أنه كان يستعمل للمدنيين من الوزراء والكتاب فى المكاتبات غير الرسمية . أما فى القرن التاسع فقد أجيز استعمال اللقب لأصحاب الوظائف الدينية ومشايخ الصوفية وأهل الصلاح فى المكاتبات غير الرسمية . بالإضافة إلى استعمالاته السابقة .

القلقشندى ج ٥ ص ٤٩٤ ، ج ٦ ص ١٥٤ ، حسن الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف ج ٣ ص ٤٩٠ .

(٢) أتابك : كلمة تركية تتكون من « أطا » بمعنى أب « بك » أى أمير ، ومعناها الولد الأمير أو أمير أب أو الأب الأمير (القلقشندى ج ٦ ص ٦ ، ج ١١ ص ١٦٧) وقد قلبت الطاء تاء فى الاستعمال ، وقد استعمل هذا اللفظ فى العصر المملوكى كاسم وظيفة للدلالة على « أتابك العساكر » ، كما يذكر ابن فضل الله العمرى ، أن اللفظ استعمل كذلك من أعلى الألقاب الفخرية المضافة إلى لفظة الجيوش ، وجعله ضمن ألقاب النائب الكافل . وكانت وظيفة أتابك من أرقى الوظائف العسكرية بحضرة السلطان فى عصر المماليك ومتوليها أكبر الأمراء المقدمين بعد النائب الكافل وربما وليها النائب الكافل نفسه كما سبق القول . وربما أسند إلى أتابك العساكر فى عصر المماليك الوصاية على ولى العهد أو السلطان القاصر .

(المراجع القلقشندى ج ٤ ص ١٨ ، ج ٦ ص ٦) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص ١٤٦ ، حسن الباشا الألقاب المملوكية ص ١٢٢ ، النجوم الزاهرة : ج ٩ ص ١٢١ (حاشية) ، فليب حتى : العرب ص ٦٢٣ ، الظاهرى : زبدة كشف الممالك ص ١١٢ .

إلى غرفتين الشرقية منهما خالية من الفتحات أما الغربية فيوجد بها باب يؤدى إلى الطرقة التى تفصل بينها وبين الإيوان الجنوبى . وإلى جانب المحراب يوجد منبر خشبى مصنوع بطريقة الحشوات المجمعة ومطعم بالعاج والصدف كما يعلو (ريشته) إطار عريض من الخشب الخرط . وقد كتب على بابه « بسم الله الرحمن الرحيم فى بيوت إذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال وكان الفراغ فى شهور سنة أربع وسبعين وسبعمائة » .

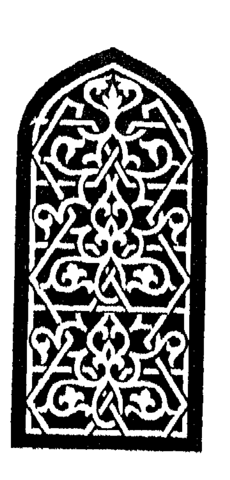
ويقابل الإيوان الشرقى الإيوان الغربى وهو يماثله إلا أنه أقل منه من حيث المساحة ، كما أن الأخير يحتوى على ثلاث نوافذ تطل على الواجهة ونافذة فى الضلع الجنوبى تطل على طرقة القبة ونافذة فى الضلع الشمالى تطل على دهليز المدخل . كما يكتنف الإيوان الغربى بابان ، أحدهما يؤدى إلى القبة والثانى إلى دهليز المدخل ، وتقابل هذه الأبواب نوافذ الإيوان الشرقى . والإيوان الشمالى والجنوبى متماثلان ويكتنف كلا منهما بابان يؤديان إلى المدارس والغرف الجانبية والعليا وكذا القبة والسبيل والمئذنة . وقد غطيت النوافذ العليا فى الزوايا الأربع للصحن بمقرنصات ذات دلايات بديعة التنظيم . أما عن سقوف الأواوين فإن سقف الإيوانين الشرقى والغربى قد طرأ عليهما تغير ولم يبق إلا سقف الإيوانين الشمالى والجنوبى .

القبـــــة :

ويشغل الطرف الجنوبى الغربى من الواجهة قبة شاهقة الارتفاع ، يوجد بابها فى صحن المدرسة وهو يؤدى إلى طرقة صغيرة غطى سقفها بحقاق خشبية مثمنة ويحيط بمربع القبة أزار يحتوى على كتابة مرسومة بقى منها مايلى : « تبارك الذى إن شاء جعل لك خيرًا من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورًا » . . أتابك العساكر المنصورة الأشرفى ختم الله بالصالحات أعماله . ويعلو المربع منطقة الانتقال التى يشغلها خمسة صفوف من المقرنصات البديعة ، وتحصر أركان المربع بينها نافذة كبيرة تحتوى على ثلاث فتحات معقودة ملئت بالجص . ويعلوها ثلاث دوائر فى وضع هرمى . ويعلو منطقة الانتقال بها (٣٢) عقدًا ذات زاوية فتح منها (١٦) نافذة ، وتأتى فوقها قبة مدببة القطاع مضلعة من الخارج تضليعًا حلزونيًا ، وهى بذلك تعتبر النموذج الأول ويأتى بعدها قبة ايتمس البجاسى .

وتقوم المئذنة على يمين المدخل الرئيسى للمدرسة وهى مبنية من الحجر وتتكون من ثلاثة طوابق ، الأول مثمن والثانى اسطوانى والثالث على شكل جوسق يقوم على ثمانية أعمدة وقد استعمل فى هذه المئذنة الرشيقة تلبيس الحجر الملون الأصفر فى الأبيض أو الأحمر . كما أن طابقها الثالث عمدها رخامية وتحمل خوذة ، كما استبدلت (الدرابزين) حول قاعدة الخوذة شرفات صغيرة وقامت رأس الخوذة على ترس تحته صف مقرنص .

وعلى يسار المدخل سبيل ناصيته قائمة على عمودين أحدهما فوق الآخر وسقفه مغطى بحقاق خشبية طعمت بالصدف يقوم على صف من الدلايات ومكتوب على السبيل لوحة تذكارية جاء فيها : جدده الأمير محمد أغا سنة ست وأربعين وألف » . وكان مصراعًا الباب مغشيين بالنحاس المزخرف برسوم هندسية قوامها الأطباق النجمية .



مدرسة سابق الدين مثقال

سنة ٧٧٦ هـ

بدرب قرمز بالجمالية

هو الطواشى سابق الدين مثقال خادم السيدة تذكار باى خاتون بنت الملك الظاهر بيبرس . وهو الذى أقام لها مسجدها المعروف باسم[1] جامع بنت الملك الظاهر بالجزيرة قبالة الخور . فقد ذكر المقريزى[2] أن الذى أنشأه هو الطواشى مثقال خادم السيدة تذكار ابنة الملك الظاهر بيبرس بالجزيرة الوسطى وهو عامر (أى فى عصر المقريزى) ويبدو كما يعلق محمد رمزى[3] ، أن الذى أنشأ الجامع الذى نسب إلى ابنة الظاهر بيبرس هو الطواشى مثقال من ماله الخاص ، لأن المقريزى عندما تكلم عن حكر العلائى[4] قال أن بعضه كان وقف تذكار باى خاتون ابنة الملك الظاهر وقفته فى سنة ٧٣٤ هـ على ما أنشأته من الأماكن الخيرية ثم عدد المقريزى أسماء تلك الأماكن ولم يكن من بينها هذا الجامع .

---

(١) النجوم الزاهرة : جـ ٩ ص ٢٠٦

(٢) الخطط : جـ ٢ ص ٣٢٥

(٣) هامش النجوم الزاهرة : جـ ٩ ص ٢٠٦

(٤) حكر العلائى (المقريزى : جـ ٢ ص ١٢٠) هذا الحكر يجاور حكر تكان من بحريه وكان بستاناً جليل القدر ثم حكر وصار بعضه وقف تذكار باى خاتون ابنة الملك الظاهر بيبرس وقفته فى سنة أربع وثلاثين وسبعمائة على نفسها ثم من بعدها على الرباط الذى أنشأته داخل الدرب الأصفر تجاه خانقاه بيبرس وهو الرباط المعروف برواق البغدادية وعلى المسجد الذى بحكر سيف الإسلام خارج باب زويلة وعلى تربتها التى بجوار جامع ابن عبد الظاهر بالقرافة وصار بعض هذا الحكر وقف الأمير سيف الدين بهادر العلائى متولى البهنساء وكان وقفه فى سنة إحدى وأربعين وسبعمائة فعرف بالحكر العلائى المذكور وقال المقريزى أنه أدرك هذا الحكر وهو من أعمر الأحكار وفيه درب الأمير عز الدين أيدمر الرزاق أمين جاندار ووالى القاهرة وداره العظيمة ومساكنه الكثيرة فلما حدثت المحن فى سنة ست وثمانمائة خرب هذا الحكر وأخذت أنقاضه وبقيت دار الرزاق إلى سنة سبع عشرة وثمانماية فشرع فى الهدم فيها لأجل أنقاضها الجليلة .

ويقع هذا الجامع الذى أنشأه مثقال ونسب إلى ابنة الملك الظاهر بيبرس بالجزيرة الوسطى وهى المعروفة بالوسطانية أنشأه مثقال سنة ٧٢٠ هـ ومكانه اليوم جامع الجزيرة الحالى ، وقد تجدد عدة مرات آخرها تجديد الخاصة الملكية بأمر الخديو إسماعيل سنة ١٢٨٨ هـ وهو عامر بإقامة الشعائر الدينية وواقع على النيل فى حديقة النهر بأرض الجزيرة الكبيرة بالقاهرة[1] .

والجزيرة الوسطانية أو الوسطى هى بذاتها جزيرة أروى[2] التى وصفها المقريزى وحدد موقعها فقال أنها واقعة فى وسط النيل بين بولاق وبر القاهرة وجزيرة الروضة وبر الجيزة . انحسر عنها الماء حول سنة ٧٠٠ هـ وبنى فيها الناس الدور الجليلة والأسواق والجوامع ، والطواحين والأفران وغرسوا فيها البساتين ، وحفروا الآبار وصارت من أحسن متنزهات القاهرة يحف بها الماء من جميع جهاتها ثم تلاشى منها أغلب ما كان بها فى شراقى سنة ٨٠٦ هـ وأضاف المقريزى قوله : وفيها إلى اليوم بقايا حسنة » .

ويضيف الأستاذ محمد رمزى[3] أنه تبين له بالبحث أن جزيرة أروى (بسكون الراء وألف مقصورة فى آخرها) أو الجزيرة الوسطى أو الجزيرة الوسطانية هى المبينة فى خريطة القاهرة رسم سنة ١٨٠٠ م باسم جزيرة بولاق ، وعرفت بهذا الاسم لوقوعها تجاه بولاق ، وتعرف اليوم باسم الجزيرة أو الجزيرة الكبيرة أو جزيرة الزمالك أو جزيرة المعرض أوجزيرة السباق ، وهى الآن من أحسن المواقع السكنى ومن أجمل متنزهات القاهرة ، ويشمل القسم البحرى منها المعروف بخط الزمالك قصورًا وعمارات فاخرة ذات بساتين زاهرة ، ويشمل القسم المتوسط منها ميدان السباق وحديقة النهر وحديقة مورو . ويقع فى القسم الجنوبى منها سراى المعارض ودار الجمعية الزراعية والجزيرة الصغيرة . وبلا جدال فهى من أكبر وأحسن الأماكن المعدة للرياضة والنزهة فى مصر . ولمناسبة ذكر اسم الزمالك أقول : أن الزمالك كلمة تركية معناها العشش التى تنصب من القش أو البوص لإقامة العسكر بدلا من الخيام ، ويماثلها فى الوقت الحاضر العشش التى تقام سنويًا للمصيفين برأس البر بمصر .

---

(١) النجوم الزاهرة : جـ ٩ ص ٢٠٦ (الهامش) .
(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٨٦
(٣) النجوم الزاهرة : جـ ٩ ص ١٢٦ هامش .

ومن ألقاب سابق الدين مثقال الطواشى . والطواشى لقب عام للخصيان[1] من الغلمان[2] أما فى عصر المماليك فكان لقب (الطواشى) يطلق على جند الأمراء فى المكاتبات إليهم بتوقيع أو نحوه[3] مع ملاحظة أن الجند لم يكونوا يكاتبون عن الأبواب السلطانية[4] .

وكان الأمير الطواشى الأمير سابق الدين مثقال الأنوكى ، يشغل وظيفة مقدم المماليك السلطانية الأشرفية . وقد أطلق لقب المقدم على كثير من الوظائف فى الدولة المماليك : فعرف المقدم كقلب لكبار جند الحلقة . وقد جاء فى مسالك الأبصار للعمرى أنه كان لكل أربعين نفساً من جند الحلقة مقدم منهم ليس له عليهم سلطان إلا إذا خرجت العسكر كانت مواقفهم معه . وترتيبهم فى مواقفهم إليه .

وكان اقطاع مقدم الحلقة يصل أحياناً إلى ألف وخمسمائة دينار ، وربما أعطى بعض مقدمى الحلقة فرساً عوض ما مات له[5] ؛ وكان يكتب لمقدمى الحلقة مربعات من ديوان الجيش إلى ديوان الإنشاء لتخريج المنشورات على نظيرها لاقطاعهم . وكان رسم المكاتبة إليهم « مجلس الأمير » أسموه أمراء العشرات ثم صار يكتب لهم (المجلس السامى) وكان يسند إليهم فى بعض الأحيان بعض الوظائف .

حدث بعد موت السلطان الناصر محمد بن قلاوون أن ساءت أحوال أجناد الحلقة فكان

---

(١) جورجى زيدان : التمدن الإسلامى ج ٥ ص ٢٦ : ولما شاع الحجاب بين المسلمين إبان سلطانهم واستخدموا الخصيان فى دورهم ، عمد تجار الرقيق وأكثرهم من اليهود إلى خصاء بعض الأرقاء وبيعهم بأثمان غالية فراجت تلك البضاعة وكثر المشتغلون بها وأنشأوا (لاصطناع) الخصيان معامل عديدة أشهرها (معمل) الخصيان فى فردون بمقاطعة اللورين فى فرنسا . كانوا يخصون أولئك المساكين وهم أطفال فيموت كثيرون منهم على أثر العملية فمن بقى حياً أرسلوه لم إلى أسبانيا فيشتريه الكبراء بثمن كبير . وأصبحوا بتوالى الأزمان يتهادون الخصيان كما يتهادون الخيل أو الأثاث والآنية فكان ملوك الأفرنج إذا أرادو التقرب من خليفة المسلمين فى الأندلس أو غيرها أهدوه التحف ومن جملتها الخصيان كما فعل ملكا برشلونة وطركونة لما طلبا تجديد الصلح من المستنصر خليفة الأندلس فإنهما أهدياه ٢٠ خصياً من الصبيان و ٢٠ قنطاراً من صوف السمور ... إلخ. فتكاثر الخصيان فى بلاط الخلفاء حتى تألفت منهم فرق لحراسة الخاصة كما تألفت الفرق من سائر المماليك والعبيد . فإذا احتفل الخليفة ببيعة أو نحوها كان المماليك والخصيان زينة ذلك الاحتفال .

(٢) أبو شامة : الروضتان ج ١ ص ١٣

(٣) ابن فضل الله العمرى : التعريف ص ٧٤

(٤) القلقشندى : الضوء ص ٢٧٦

(٥) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٥٤

بعضهم ينزل عن اقطاعه لآخر نظير مال أو مقايضة حتى كثر الدخيل من الأجناد واشترى الباعة وأصحاب الصنائع الاقطاعات .

وقد أطلق لقب (المقدم) على قائد الجيش الذى كان يرسل إلى جهة من الجهات فقد جاء فى بعض المصادر الأدبية أن الجيش الذى كان يرسل إلى جهة من الجهات كان يقام له مقدم . كما أطلق لقب (المقدمون) على الأمراء الذين كانوا يتوجهون من الأبواب ـ السلطانية لكشف الجسور والمساحة وقبض الغلال إذ كان يقال لهم : (الأمراء المقدمون[1]) . وعرف أيضًا بالمقدم رجل كان يقوم بباب الوالى يراقب ويفحص فى أمرهم ويكف عن الخلق شرهم وكان يشترط فيه أن يجانب الهوى والميل ؛ وكان يسمى أيضًا بالبواب ويطلق عليه أهل الشام اسم المعرف[2] .

ولقب المقدم كان يطلق أيضًا على رؤساء طوائف الجند مثل مقدم التركمان ، ومقدم الأكراد ، ومقدم العرب ومقدم الجبلية ومقدم الفداوية . وكان هؤلاء يعتبرون من العسكريين وأطلق لقب المقدم فى عصر المماليك أيضًا على بعض قواد السفن الحربية .

ومن الأحداث الهامة التى تعرض لها الأمير الطواشى سابق الدين مثقال الأنوكى مقدم المماليك السلطانية هو أن الأتابك يلبغا الخاصكى القائم بدولة الملك الأشرف شعبان ألقى القبض عليه وضربه داخل القصر بقلعة الجبل ستمائة عصاه ونفاه[3] إلى اسوان ، وسببه ظهوره كذلة له ، وولى مكانه مختار الدمنهورى المعروف بشاذروان ، وكان مقدم الأوجاقية بباب السلسلة ، كل ذلك والعمل فى المراكب مستمر إلى أن كملت عمارة المراكب من الغربان والطرائد لحمل الغزاة والخيول وكانوا نحو مائة غراب وطريدة ، عمرت فى أقل من سنة مع عدم الاخشاب يوم ذاك .

ولما قتل الأمير يلبغا استدعى الأشرف[4] ، سابق الدين من قوص ، وصرف ظهير الدين

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٨ ص ٢٣٠

(٢) السبكى : معيد النعم ص ٤٦

(٣) النجوم الزاهرة : جـ ١١ ص ٣٥

(٤) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٩٤

مختار المعروف بشاذوران عن التقدمة وأعاده إليها فاستمر إلى أن مات سنة ست وسبعين وسبعمائة .

ويستبين من قصة الأتابك يلبغا مع سابق الدين مثقال السابق الإشارة إليها أن سابق الدين مثقال كان يشغل وظيفة قائد السفن الحربية وجاء فى النجوم[1] الزاهرة تأييدًا لذلك أن السلطان الأشرف توجه إلى سرحة الأهرام بالجيزة وعند عودته إلى قلعة الجبل أخلع على الطواشى سابق الدين مثقال مقدم المماليك السلطانية قباء حرير أزرق صافيا بطرز زركش عريضا أسوة بالأمراء الخاصكية وهذا شيء لم يلبسه مقدم قبله » . وأفراد الخاصكية هم من ينضمون إلى خدمة السلطان وهم صغار ، وكان السلطان هو الذى يتولى تربيتهم وعتقهم وبذلك كانوا أقرب إليه من سائر مماليكه . وكان الخاصكية يلازمون السلطان فى خلواته وفراغه وينالون من ذلك مالا يناله أكابر المقدمين ، ويحضرون طرفى كل نهار فى خدمة القصر والاسطبل ، ويركبون لركوب الملك ليلًا ونهارًا ولايتخلفون فى قرب ولابعد ، ويدخلون عليه فى خلوته بغير إذن وكانوا يقفون عن يمين السلطان ويساره إذا جلس بدار العدل لخلاص الحقوق وإزالة المظالم . ويلاحظ أن الخاصكية كانت من المؤهلات للوظائف ـ الكبرى بل وللسلطنة فى بعض الأحيان[2] .

المدرسة السابقية : تقع هذه المدرسة داخل قصر الخلفاء الفاطميين من جملة القصر الكبير الشرقى الذى كان داخل دار الخلافة ويتوصل إلى هذه المدرسة الآن من تجاه حمام[3] البيسرى بخط بين القصرين . وكان يتوصل إليها أيضًا من باب القصر المعروف بباب الريح من خط الركن المخلق وموضعه الآن قيسارية الأمير جمال الدين يوسف الاستادار .

بنى هذه المدرسة الطواشى الأمير سابق الدين مثقال الأنوكى مقدم المماليك السلطانية الأشرفية وجعل بها درسًا للفقهاء الشافعية قرر فى تدريسه شيخ الشيوخ سراج الدين عمر ابن على الأنصارى المعروف بابن الملقن الشافعى وجعل فيها خزانة كتب وكتابًا يقرأ فيه أيتام المسلمين وبنى بينها وبين داره التى تعرف بقصر سابق الدين ، حوض ماء للسبيل هدمه الأمير جمال الدين يوسف الاستادار لما بنى داره المجاورة لهذه المدرسة .

---

(١) النجوم الزاهرة : جـ ١١ ص ٥٨

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٤٤ ، السخاوى : الضوء اللامع ص ٢٥٤

(٣) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٩٣

الوصف المعمارى

تشغل المدرسة السابقية قطعة من الأرض مربعة تقريبًا ، إذ يبلغ طولها ٢١ مترًا فى ٢٠ مترًا . ويقع المدخل الرئيسى للمسجد فى الضلع الشمالى منه ، وهى من المدارس المعلقة إذ يصعد إليها بواسطة سبع درجات نصف دائرية . ويكتنف المدخل الرئيسى نافذتان ، إحداهما تفتح فى الإيوان الشرقى والثانية تفتح فى الدهليز الذى يقع خلف الإيوان الشمالى ، كما توجد فى هذه الواجهة الشمالية نافذتان آخريتان توجدان إلى الغرب من المدخل وتفتحان على الإيوان الغربى .

ويبلغ عرض المدخل الرئيسى ثلاثة أمتار وعمقه مترًا . أما باب المدرسة الذى يبلغ سعة فتحته (٥ر١) متر فى ارتفاع (٥ر٢) متر . فيؤدى إلى در قاعة مربعة الشكل إذ يبلغ طول ضلعها (٥ر٢) متر مفتوحة من جهاتها الأربع . فهى تؤدى من جهتها الشرقية إلى إيوان القبلة ومن جهتها الغربية إلى دهليز يقع خلف الإيوان الشمالى به سلم يصعد منه إلى المئذنة والفتحة الشمالية هى التى تقع خلف المدخل الرئيسى ، أما الفتحة الجنوبية فتؤدى إلى صحن الجامع .

الصحن :

يتوسط المدرسة صحن مربع الشكل إذ يبلغ طول ضلعه (٥ر٧) أمتار وتحيط به الأواوين من جهاته الأربع .

ايوان القبلة :

يشغل إيوان القبلة معظم الواجهة الشرقية للمسجد إذ تبلغ مساحته (١٥ متر × ٥ر٥ أمتار) تتقدمه فتحة معقودة تفتح على صحن الجامع تبلغ سعتها ٥ر٦ أمتار . وينقسم إيوان القبلة إلى قسمين كبيرين ، تبلغ مساحة الجزء الأكبر منه ١٠ر٢٥ أمتار عرضًا فى عمق ٥ر٢٥ أمتار

ويشغل الضلع الشرقى من هذا الجزء محراب كبير العمق إذ يبلغ عمقه ٥ر١ متر وسعته٢٥ر٢١ يكتنفه عامودان من الرخام مثمنا الشكل . وعلى جانبي المحراب توجد حنيتان مستطيلتان اليمنى منهما كثيرة العمق إذ يبلغ عمقها ٧٥ر١ متر أما اليسرى فصغيرة إذ يبلغ عمقها نصف متر .

ويفتح الضلع الجنوبى من إيوان القبلة على حجرتين خاليتين من النوافذ ، الغربية منهما مربعة الشكل ، إذ يبلغ طول ضلعها مترين وبضلعيها الجنوبى والشرقى حنيتان . — أما الحجرة الشرقية فتبلغ مساحتها (٢ × ٥ر٢ متر) وبضلعها الجنوبى حنية صغيرة تفتح من جهتها الشرقية كلية على حجرة أخرى غير منتظمة الأضلاع تكاد تكون مماثلة فى مساحتها للغرفة الشرقية ، تحتوى على حنية مربعة كثيرة العمق تبلغ مساحتها ١ × ١ متر .

أما الجزء الثانى من إيوان القبلة وهو الذى يقع فى الجهة الشمالية منه فتبلغ مساحته ٤ × ٥ر٤ أمتار ، توجد فى الجهة الشرقية منه حنية مربعة . أما الضلع الشمالى فتوجدبه نافذتان تطلان على الواجهة الرئيسية سُدت الشرقى منهما أما النافذة الثانية فهى التى تكتنف المدخل الرئيسى السابق الإشارة إليه .

الإيوان الغربى :

تبلغ مساحته ٥ر١٢ × ٥ر٣ أمتار ، تتقدمه فتحة معقودة تطل على صحن المسجد تبلغ سعتها ٥ر٦ أمتار ويتصدر الإيوان الغربى حنية كبيرة تبلغ سعتها ٥ر٢ متر فى عمق (٤٠) سم . وينتهى الإيوان الغربى من جهته الجنوبية بشبه حجرة مربعة الشكل يبلغ طول ضلعها مترين بها حنيتان مستطيلتان فى الضلع الشرقى والغربى . وينتهى الإيوان من جهته الشمالية بشبه حجرة مماثلة للجنوبية ، بها نافذة كبيرة تفتح على الواجهة الرئيسية للمدرسة سبق الإشارة إليها . وفى الضلع الغربى للإيوان وإلى الجهة اليمنى من الحنية التى تتصدره توجد فتحة تؤدى إلى دهليز على شكل حرف (ـا) ينتهى بنافذة تطل على الواجهة الرئيسية للمدرسة .

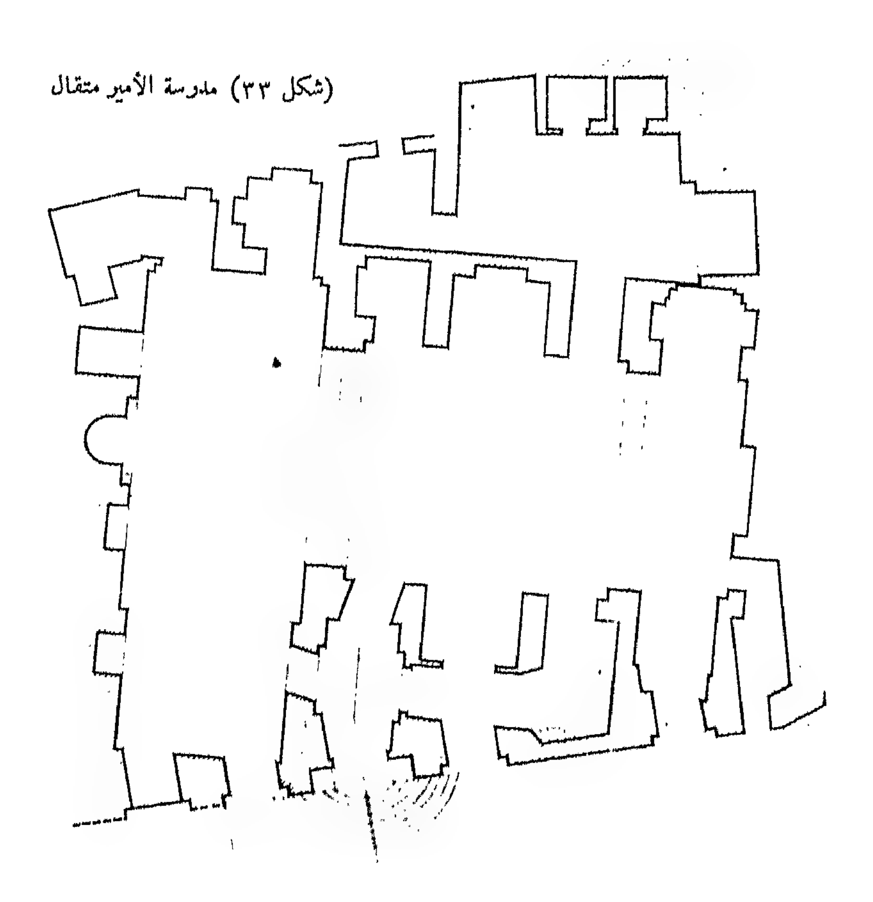
الإيوان الجنوبى :

تبلغ سعة الإيوان الجنوبى ٣ أمتار وعمقه ٥ر٢ متر) تتصدره حنية مستطيلة . وإلى الشرق من هذا الإيوان توجد غرفة مربعة يبلغ طول ضلعها مترين . وإلى الغرب منه توجد فتحة

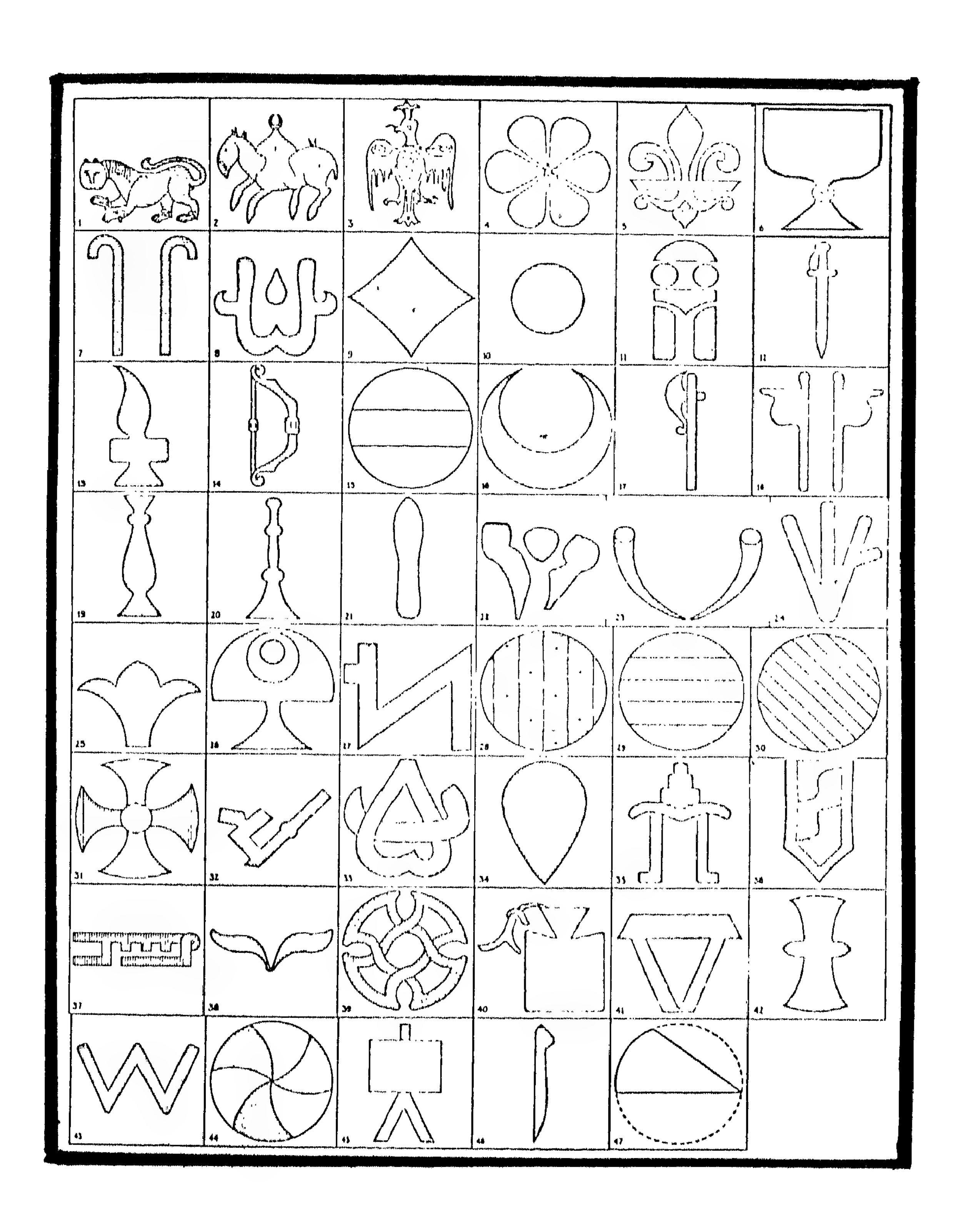
سعتها ٥ر١ متر تؤدى إلى صحن كبير يحتوى فى جهتيه الشرقية والغربية على إيوانين وفى جهته الجنوبية على خلوتين .

الإيوان الشمالى :

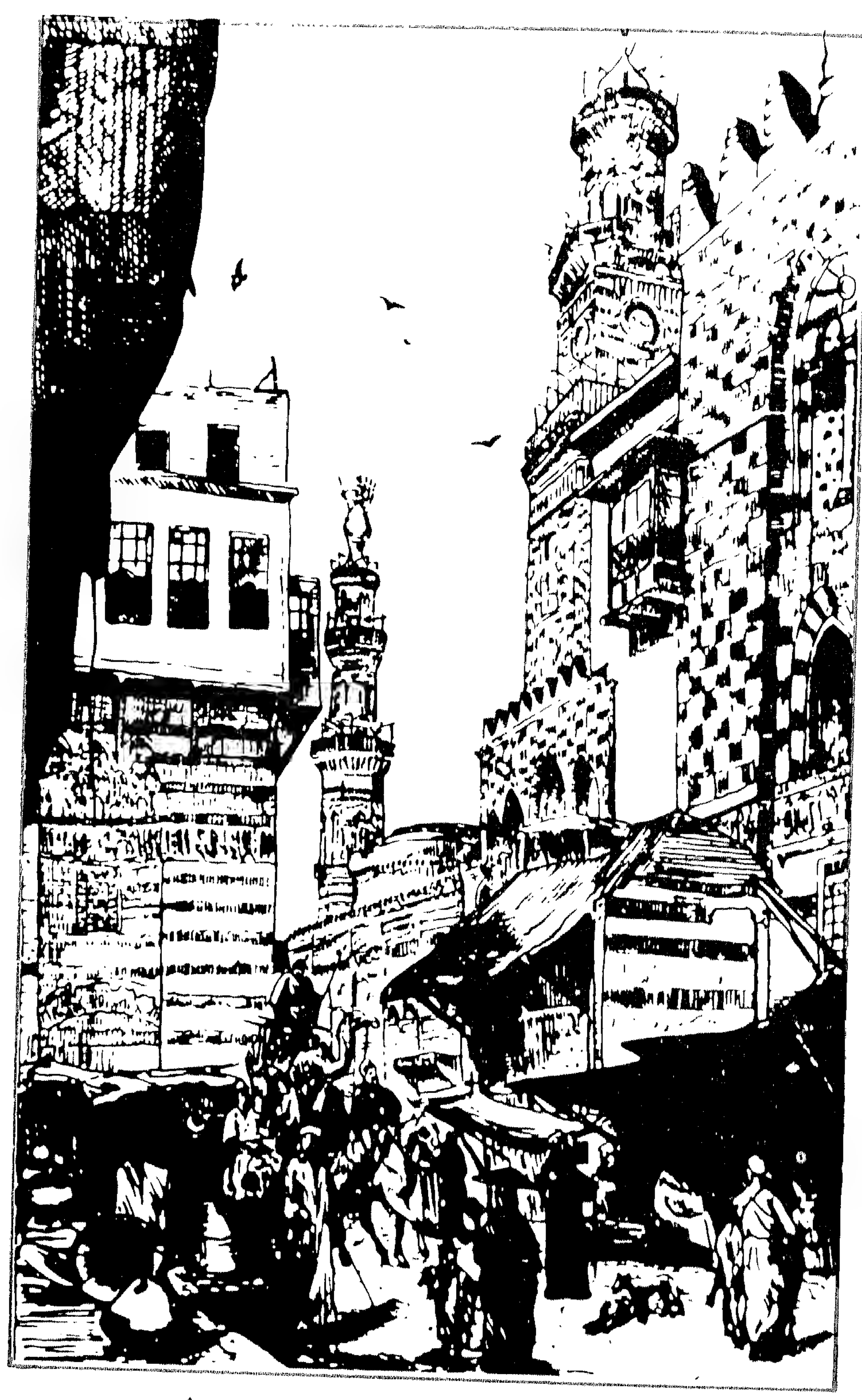
وهو مماثل فى مساحته للإيوان الجنوبى ويكتنفه من جهتيه الشرقية والغربية فتحتان تؤدى الشرقية منهما إلى در قاعة المدخل الرئيسى ، وتؤدى الغربية منهما إلى دهليز على شكل حرف (L) يقع خلف الإيوان ، وبضلعه الشمالى توجد نافذة تكتنف المدخل الرئيسى السابق الإشارة إليه . ولهذا الدهليز سلم من قلبتين يؤدى إلى سطح المدرسة حيث تقوم المئذنة .



(شكل ٣٣) مدرسة الأمير متقال



لوحة ١ – تبين مختلف الشارات (الرنوك) المملوكية



لوحة ٢- شارع النحاسين



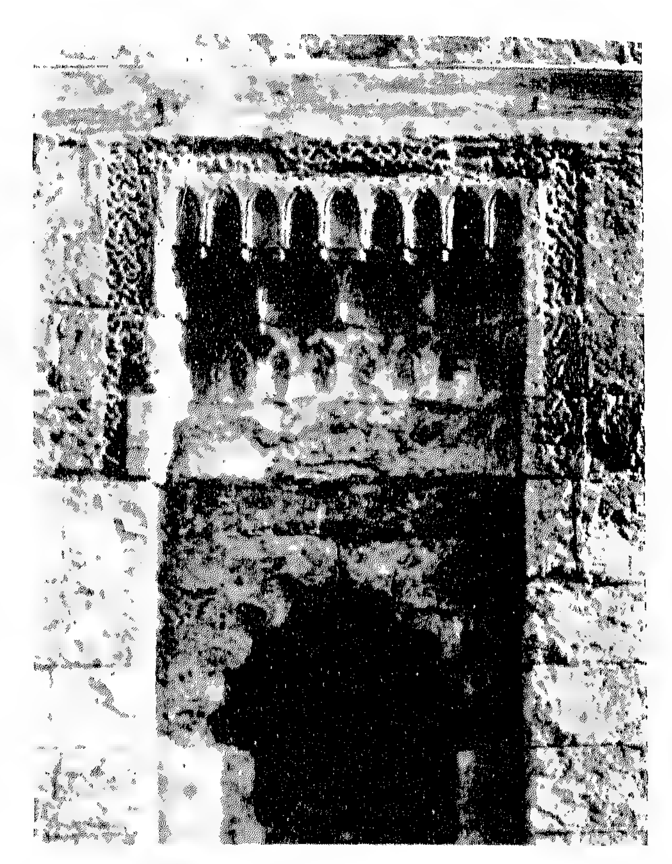
لوحة ٣ – مدرسة الظاهر بيبرس بالنحاسين



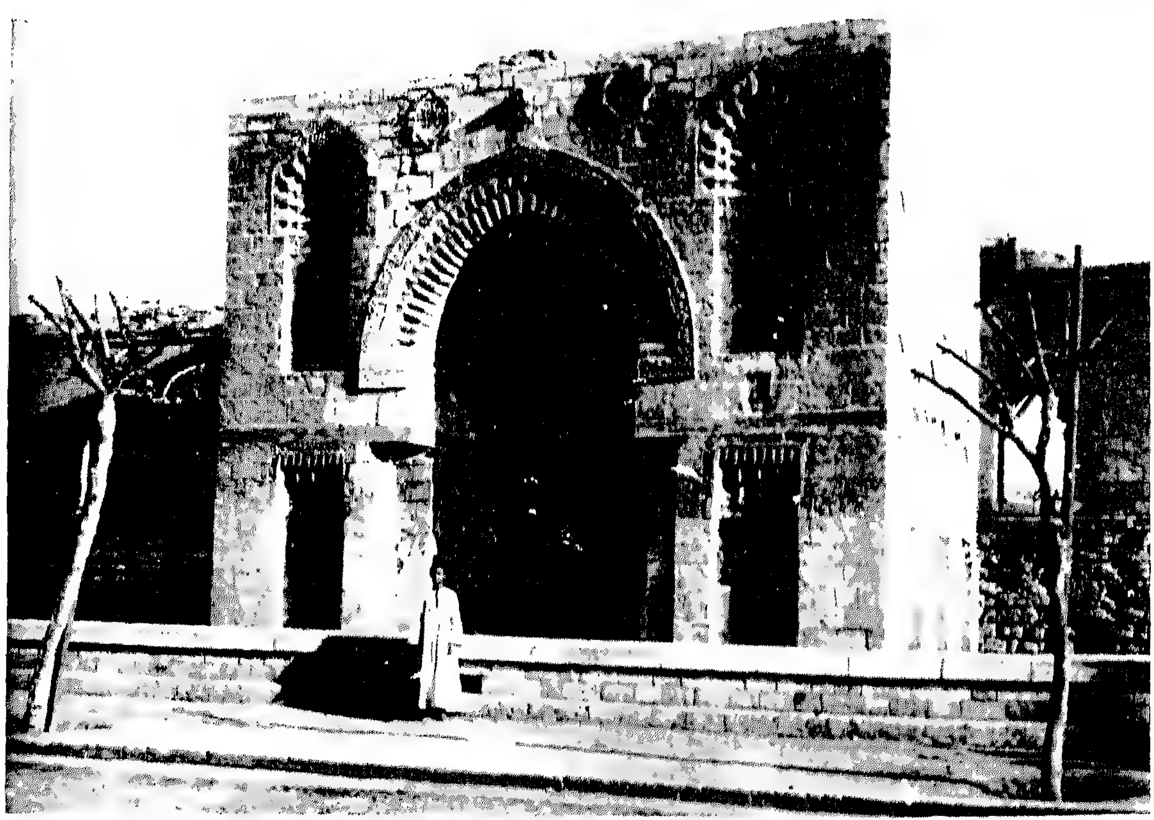
لوحة ٤ – جامع الظاهر بيبرس بالظاهر

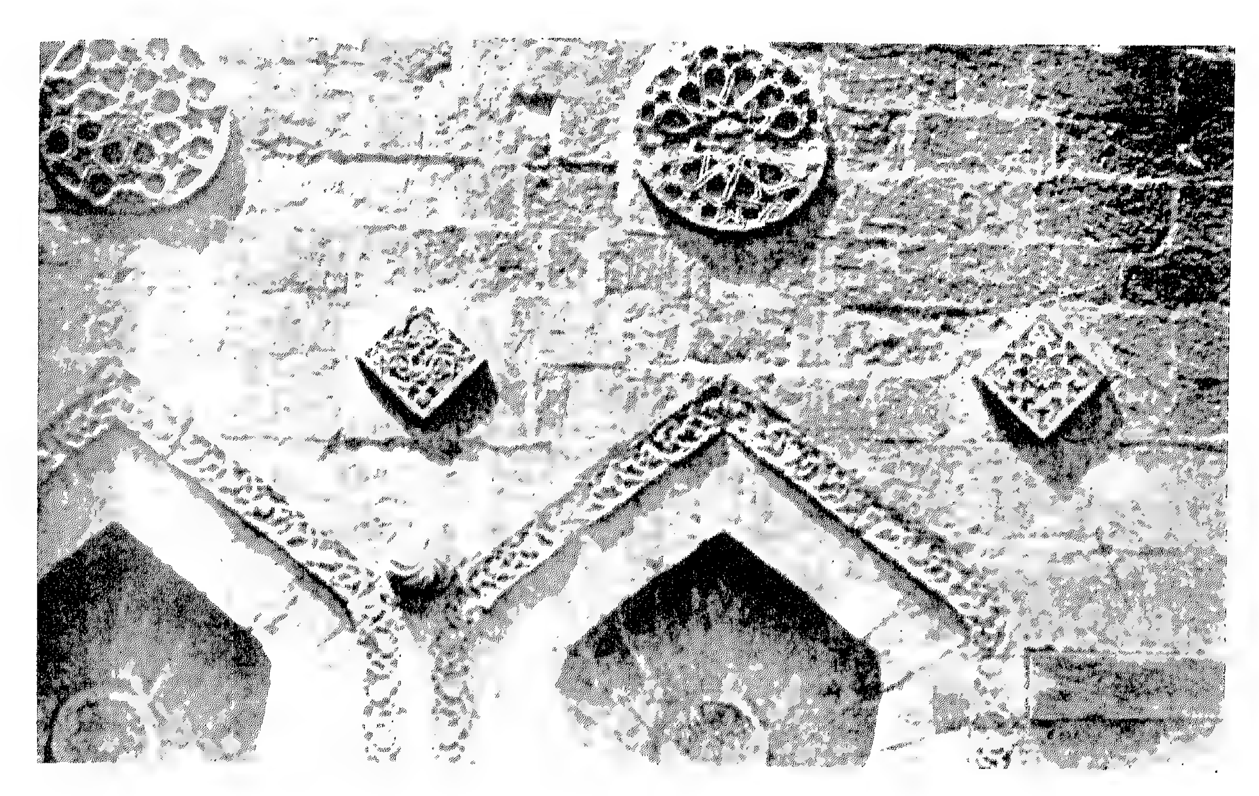


لوحة ٥ — حنية بالواجهة الرئيسية لجامع
الظاهر بيبرس فى الجهة الغربية

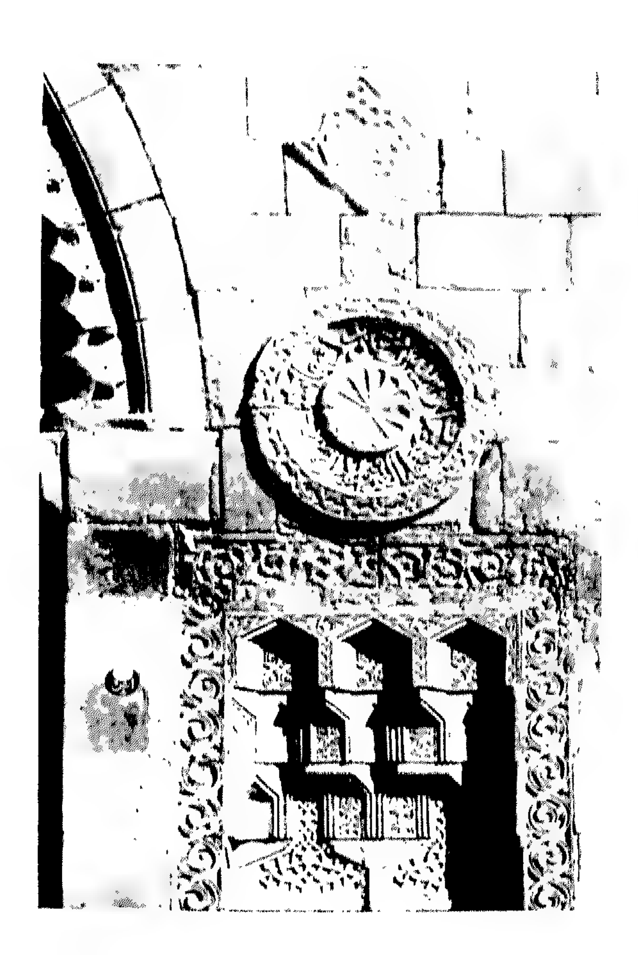


لوحة ٦ — المدخل التذكارى الذى
يتقدم الواجهة الرئيسية





لوحة ٧ — تفصيل المدخل التذكارى فى الضلع الغربى

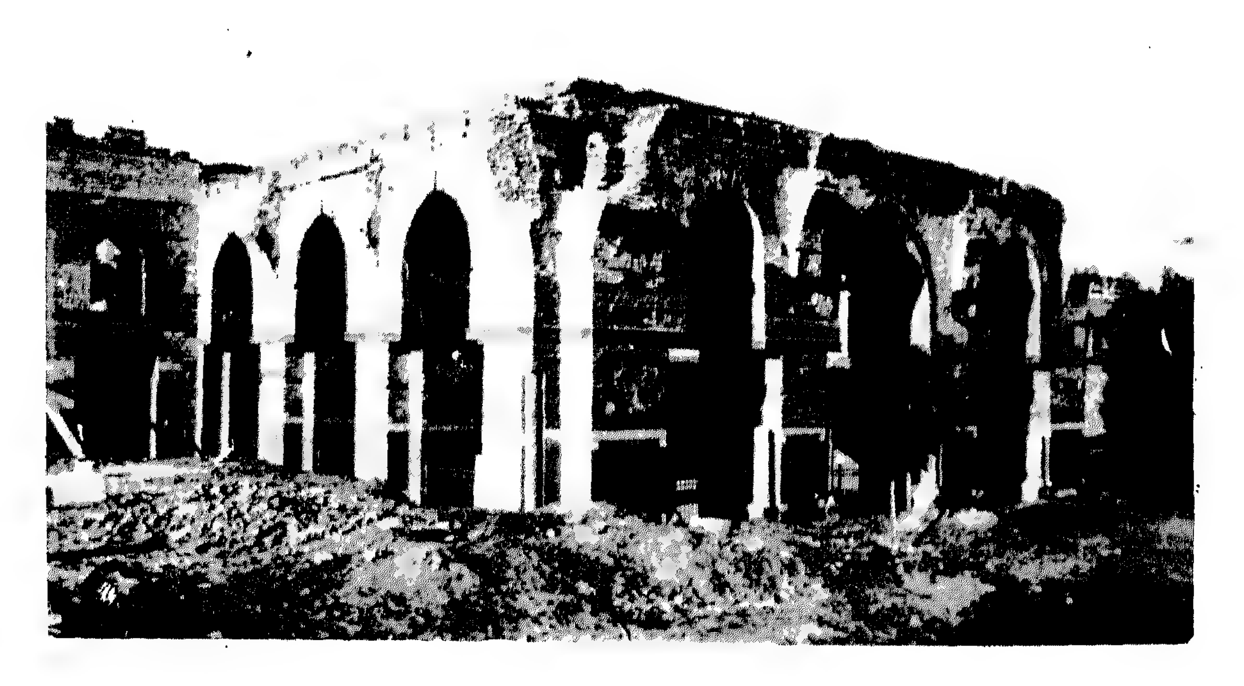


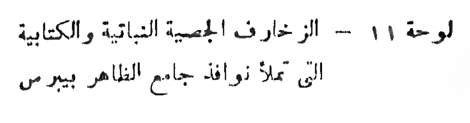
لوحة ٨ — المدخل التذكارى فى الضلع الشمالى

لوحة ٩ – قبو المدخل الرئيسى لجامع الظاهر بيبرس



لوحة ١٠ – جامع الظاهر بيبرس

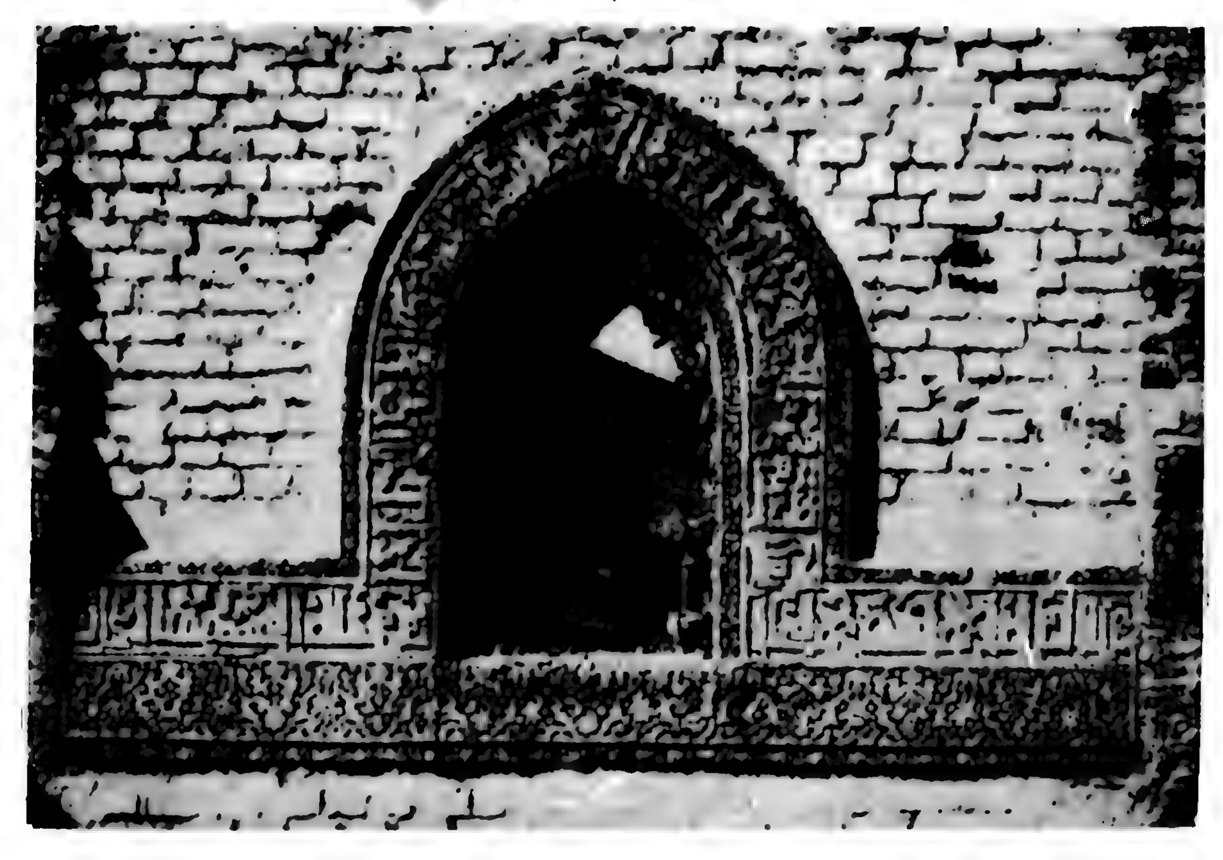


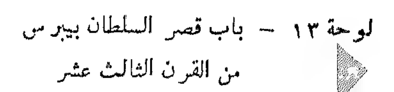


لوحة ١١ — الزخارف الجصية النباتية والكتابية التى تملأ نوافذ جامع الظاهر بيبرس

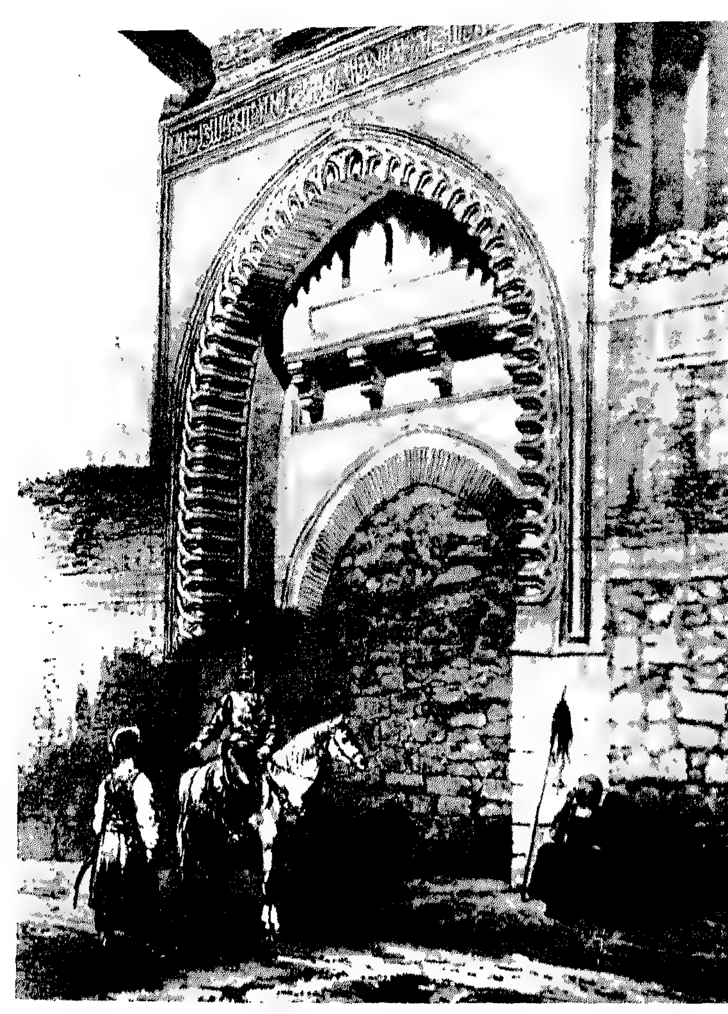


لوحة ١٢ — الزخارف النباتية والكتابية التى تملأ نوافذ جامع الظاهر بيبرس

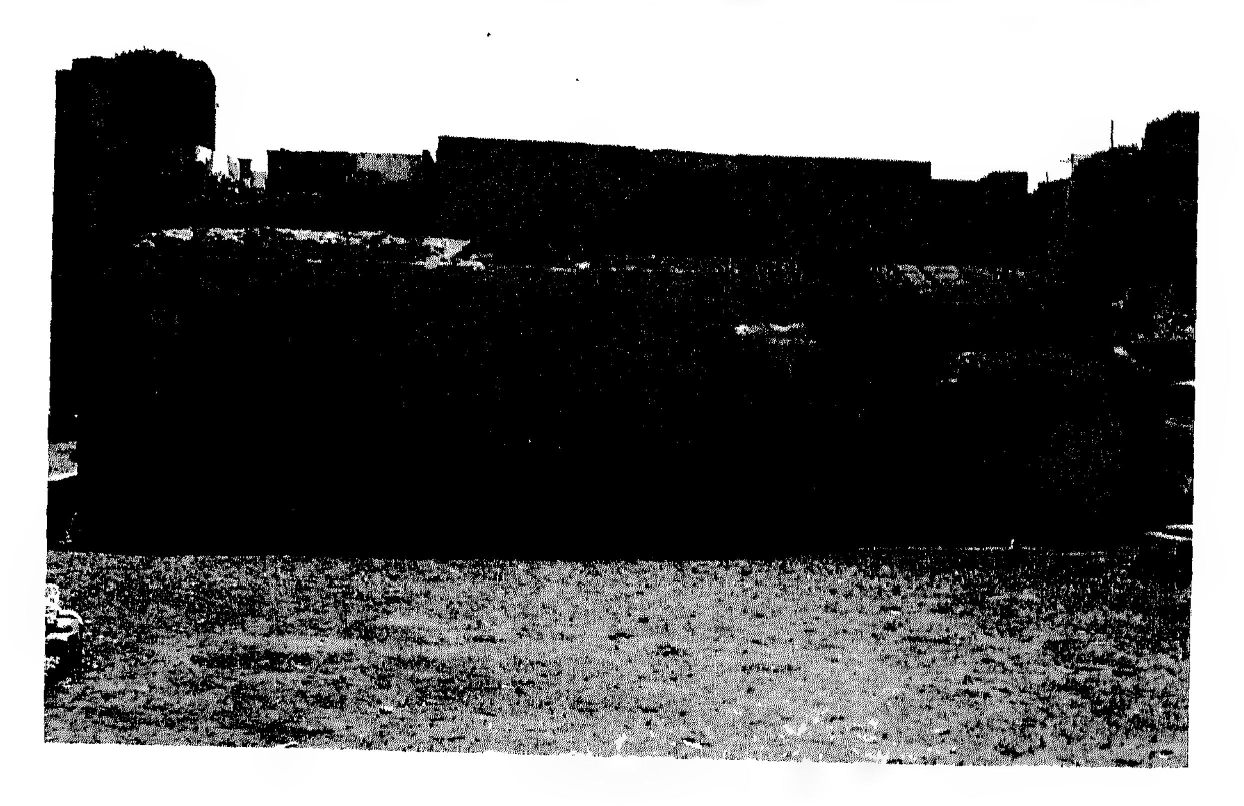




لوحة ١٣ – باب قصر السلطان بيبرس
من القرن الثالث عشر



لوحة ١٤ – ضريح مصطفى باشا



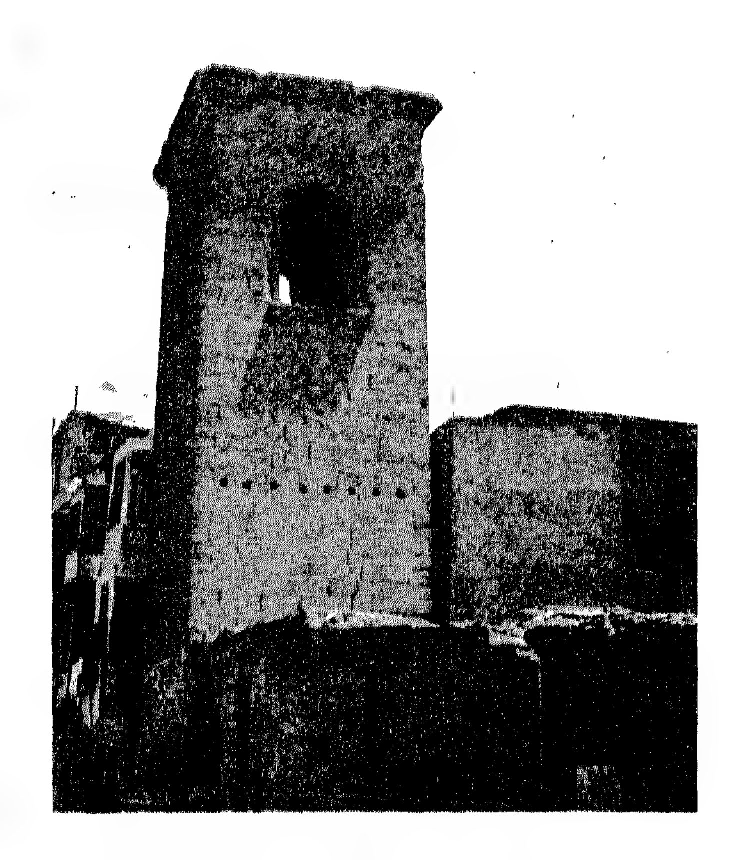


لوحة ١٥ ضريح فاطمة خاتون

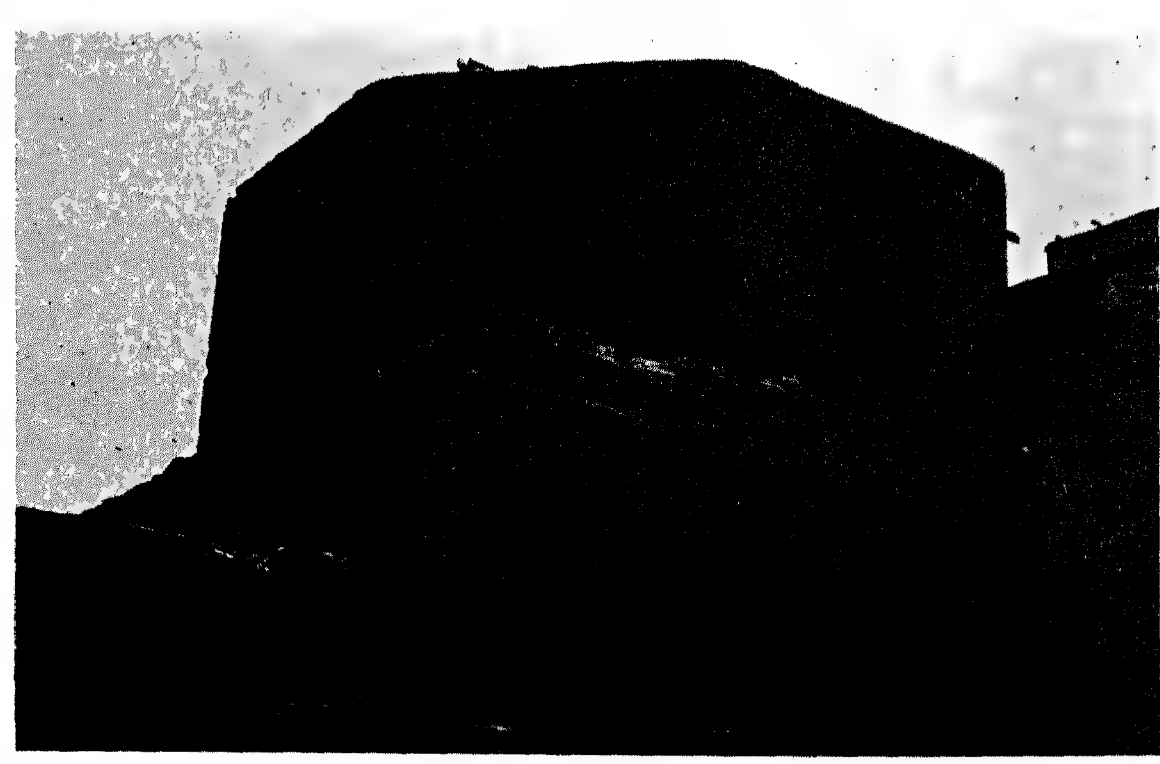


لوحة ١٦ -- داخل قبة فاطمة خاتون

لوحة ١٧ – ضريح فاطمة خاتون المنارة



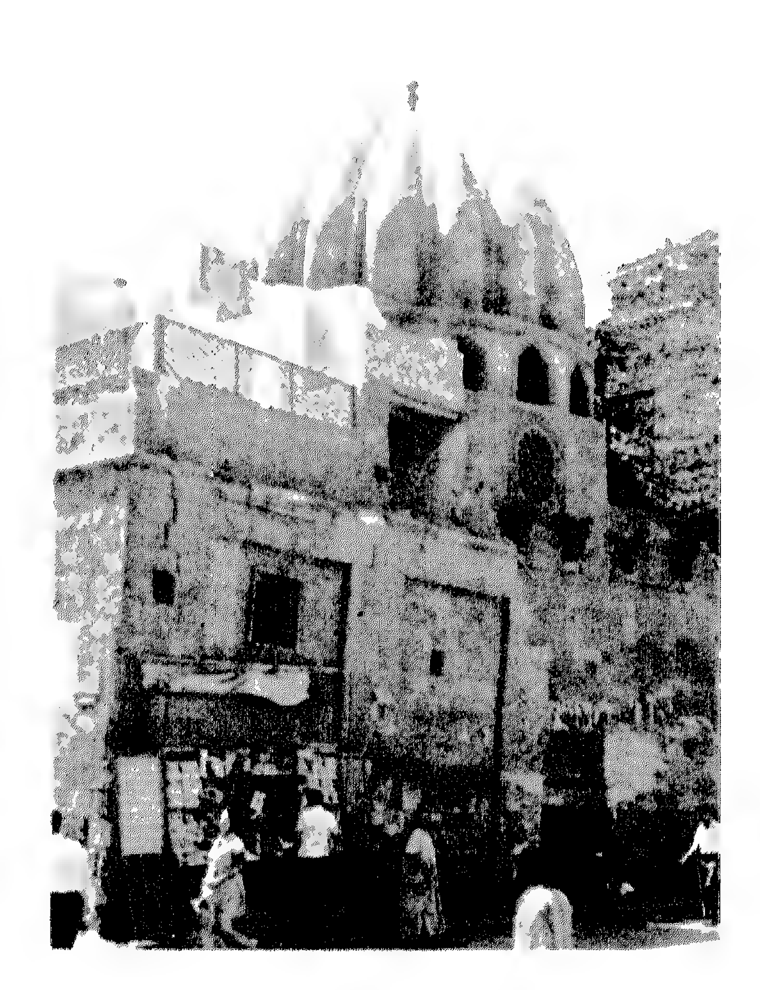
لوحة ١٨ – رقبة قبة فاطمة خاتون



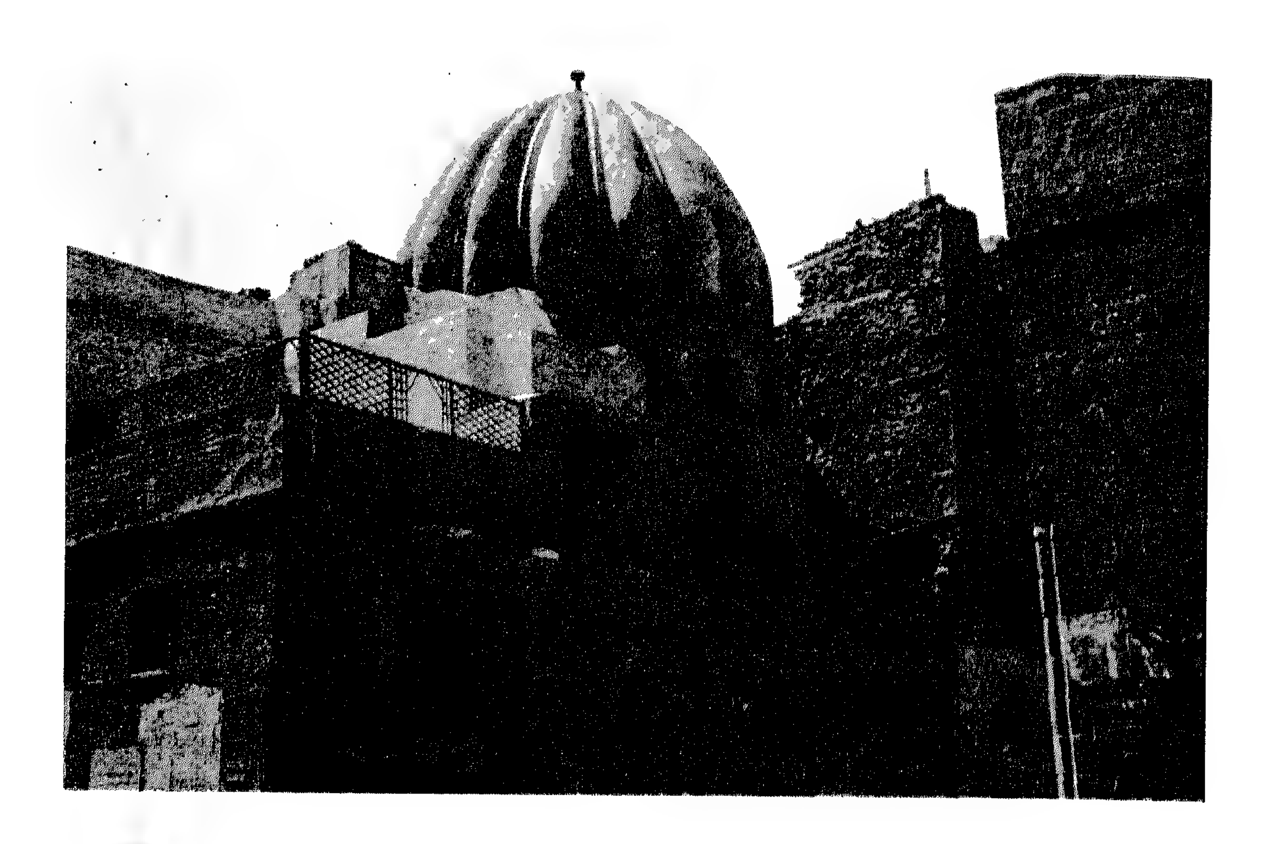




لوحة ١٩ — واجهة خانقاه البندقدارية المطلة على الشارع . وقد ظهر شريط الكتابة الذى يعلو الجدار يتخلله (رنك) شارة البندقدار .



لوحة ٢٠ — خانقاه البندقدارية

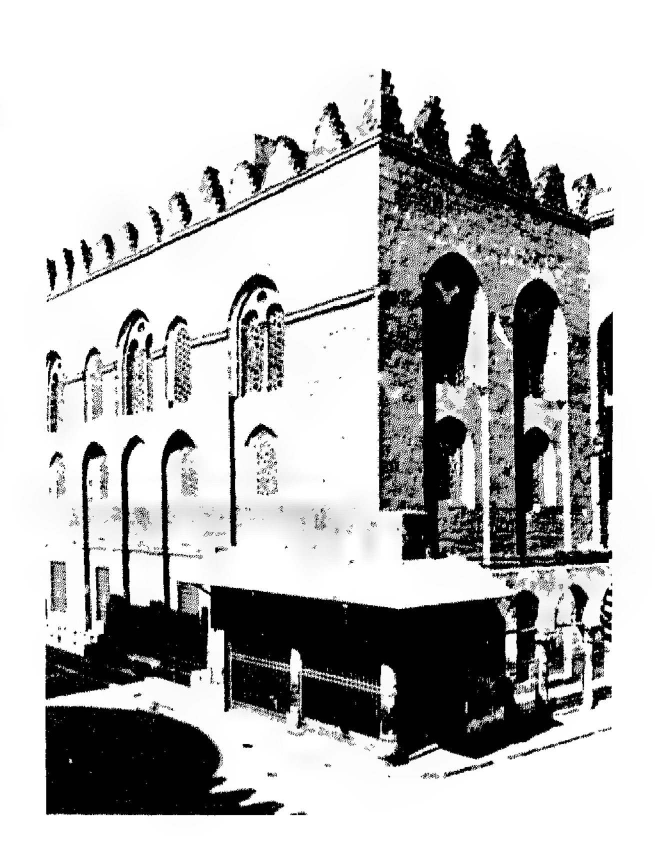


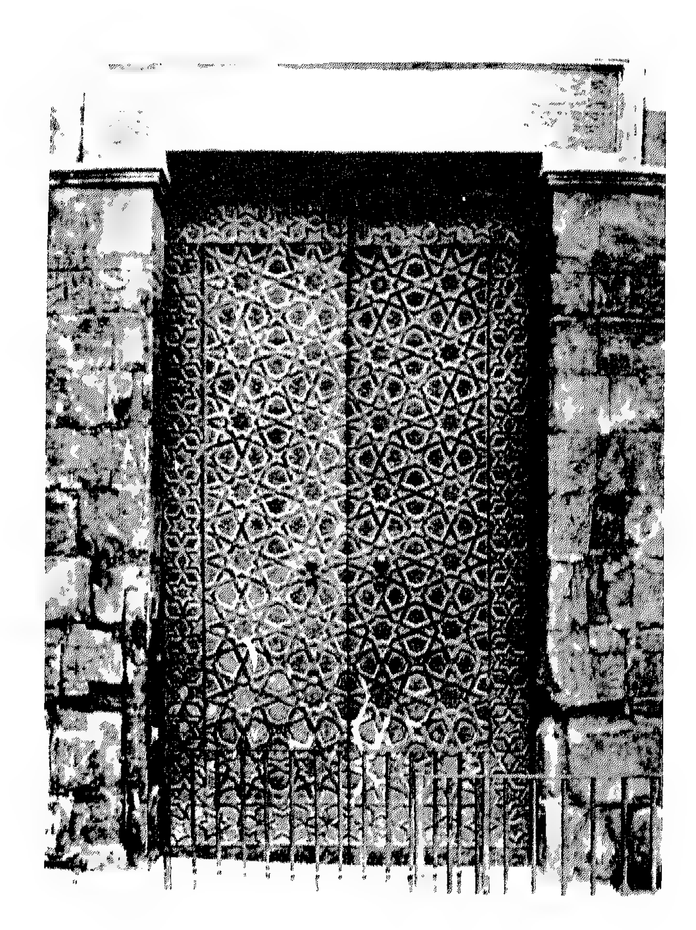
لوحة ٢١ – خانقاه البندقدارية

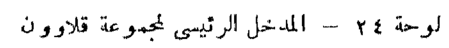


لوحة ٢٢ – الواجهة الشرقية لإيوان القبلة
لمدرسة المنصور قلاوون

لوحة ٢٣ – الواجهة الشرقية والشمالية لمدرسة قلاوون







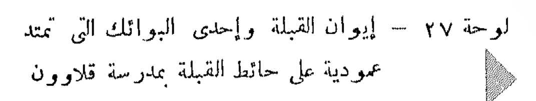
لوحة ٢٤ – المدخل الرئيسى لمجموعة قلاوون



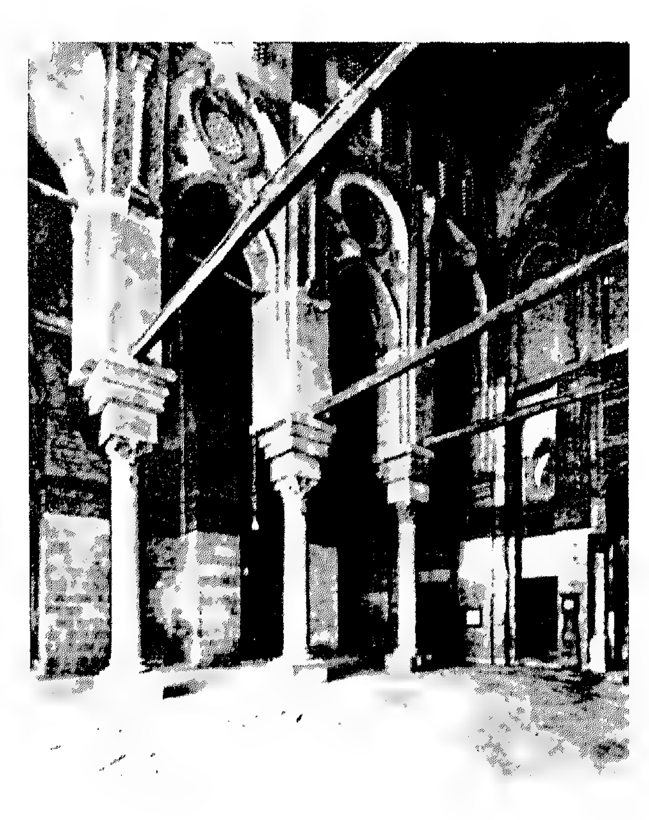
لوحة ٢٥ — سقف الدهليز الذى يفصل بين مدرسة وقبة قلاوون .



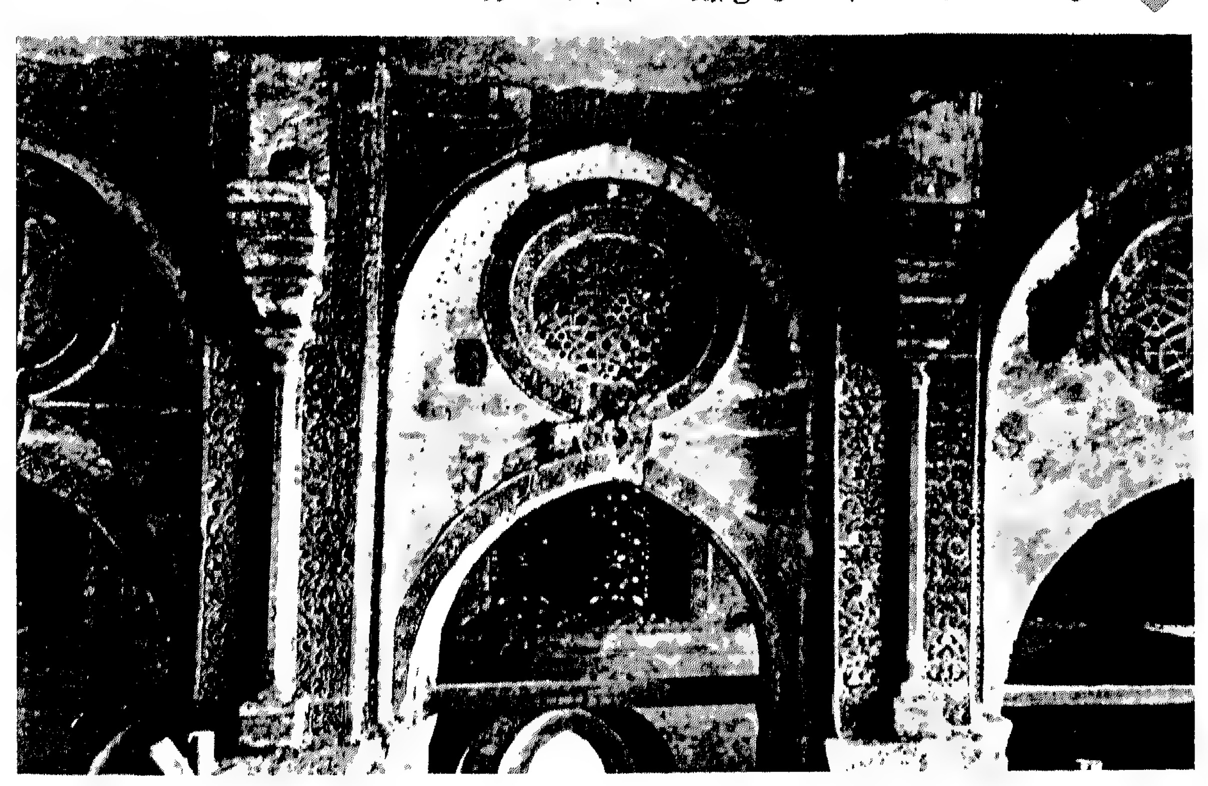
لوحة ٢٦ — واجهة إيوان القبلة المطل على صحن المدرسة



لوحة ٢٧ – إيوان القبلة وإحدى البوائك التي تمتد عمودية على حائط القبلة بمدرسة قلاوون

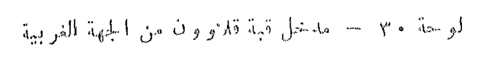


لوحة ٢٨ – زخارف البائكة الوسطى بإيوان القبلة بمدرسة قلاوون

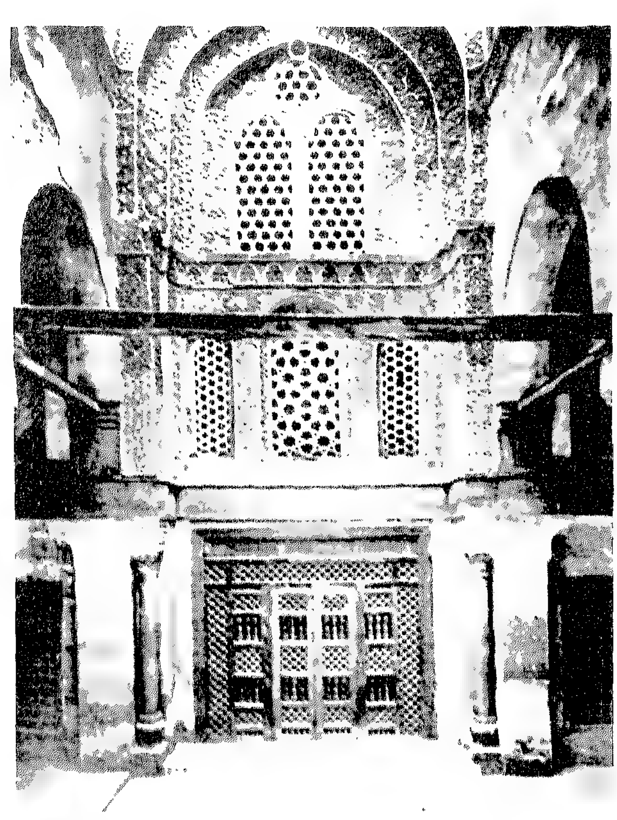


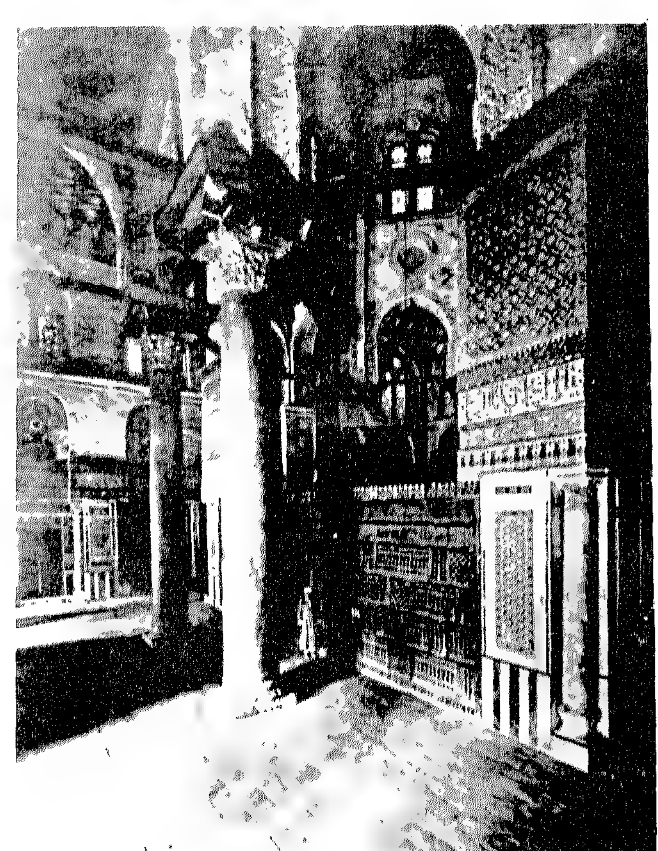


لوحة ٢٩ الواجهة الشرقية لقبة قلاوون يعلوها المئذنة والقبة



لوحة ٣٠ – مدخل قبة قلاوون من الجهة الغربية





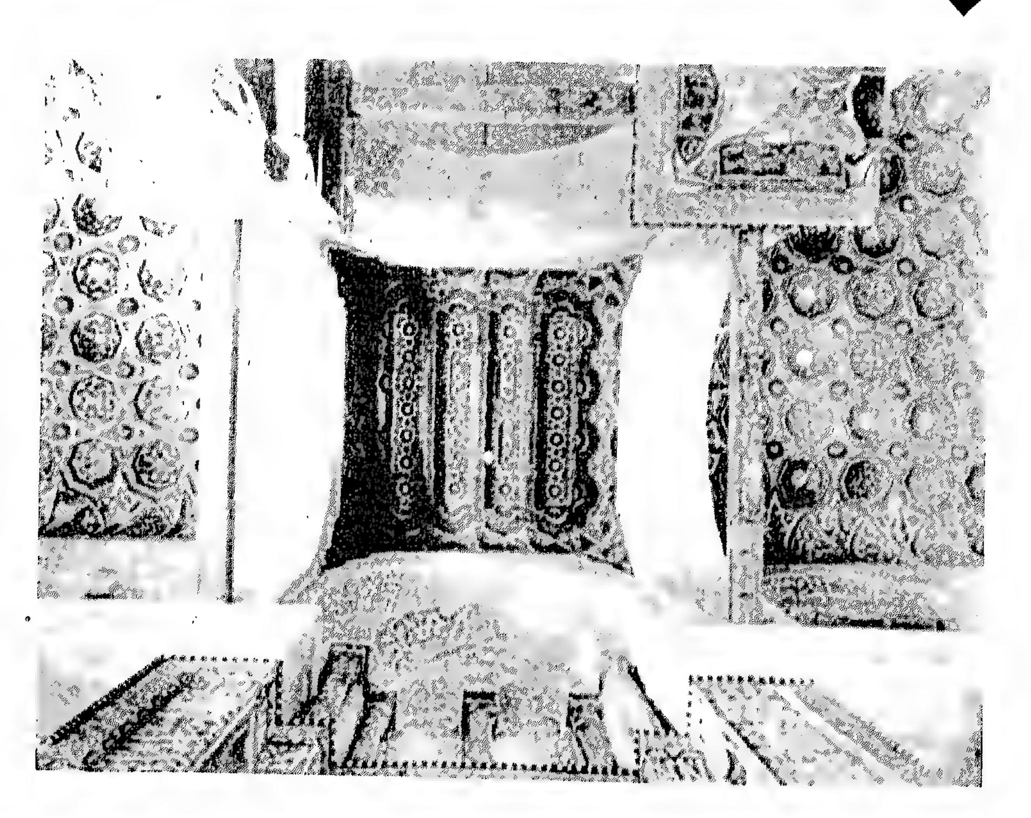


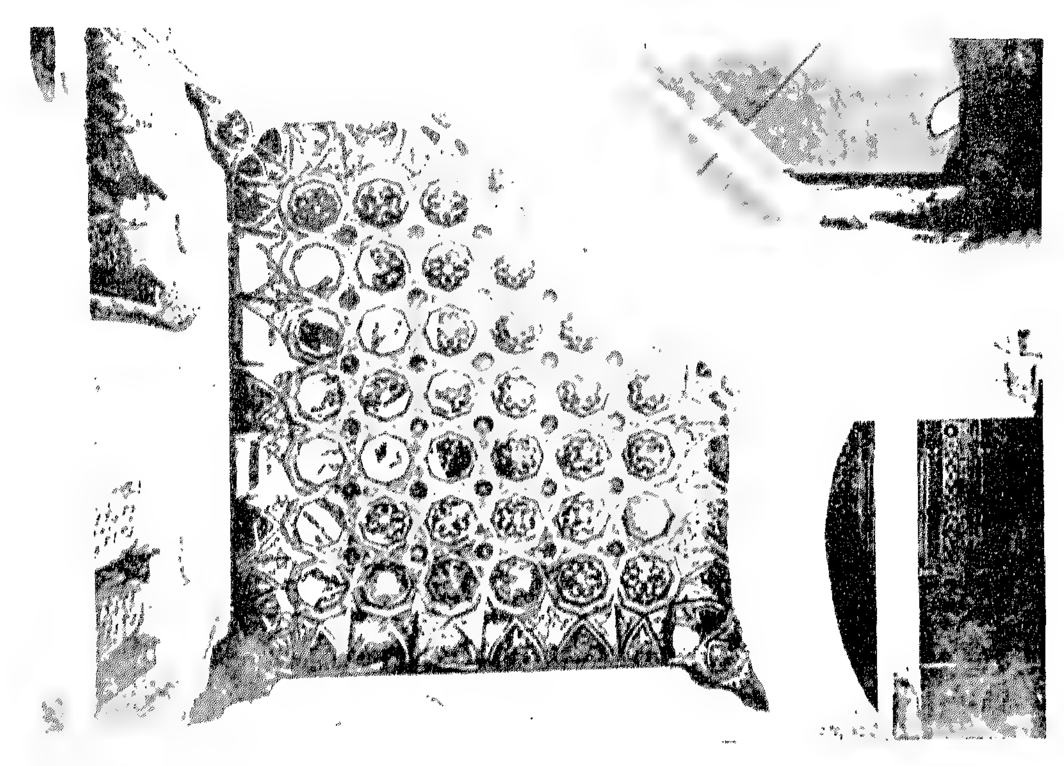
لوحة ٣١ – مقبرة المنصور قلاوون داخل قبته



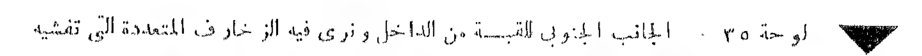
لوحة ٣٢ — المقصورة الخشبية التي تحيط بمقبرة قلاوون داخل القبة

لوحة ٣٣ — سقف الركن الجنوبي الشرقي لقبة قلاوون

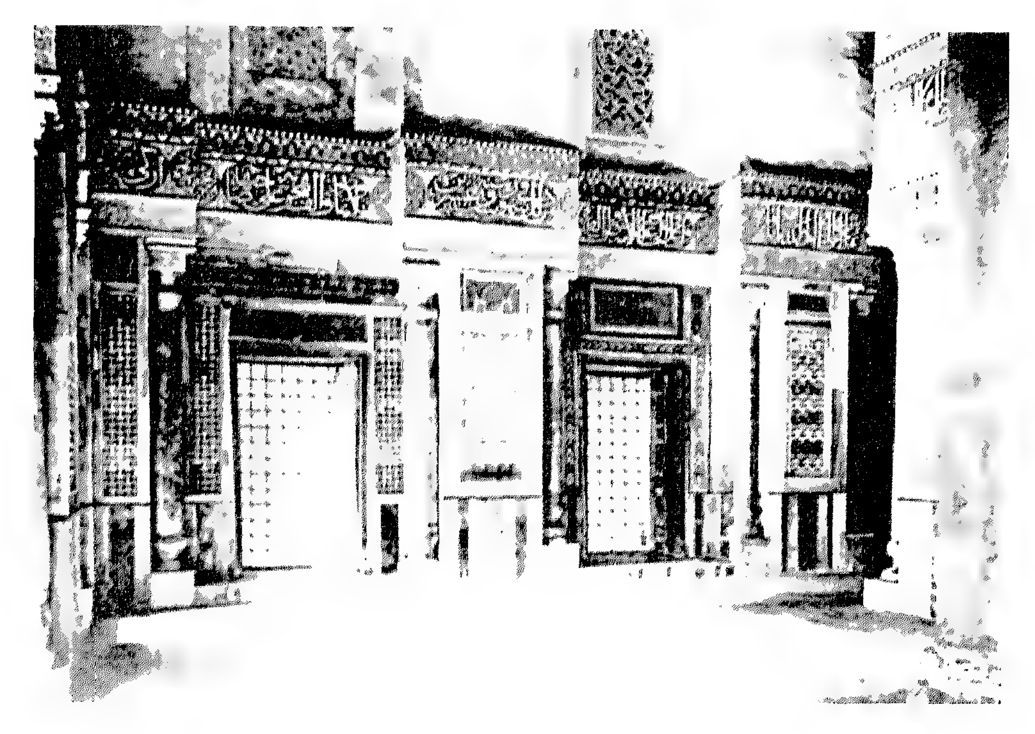


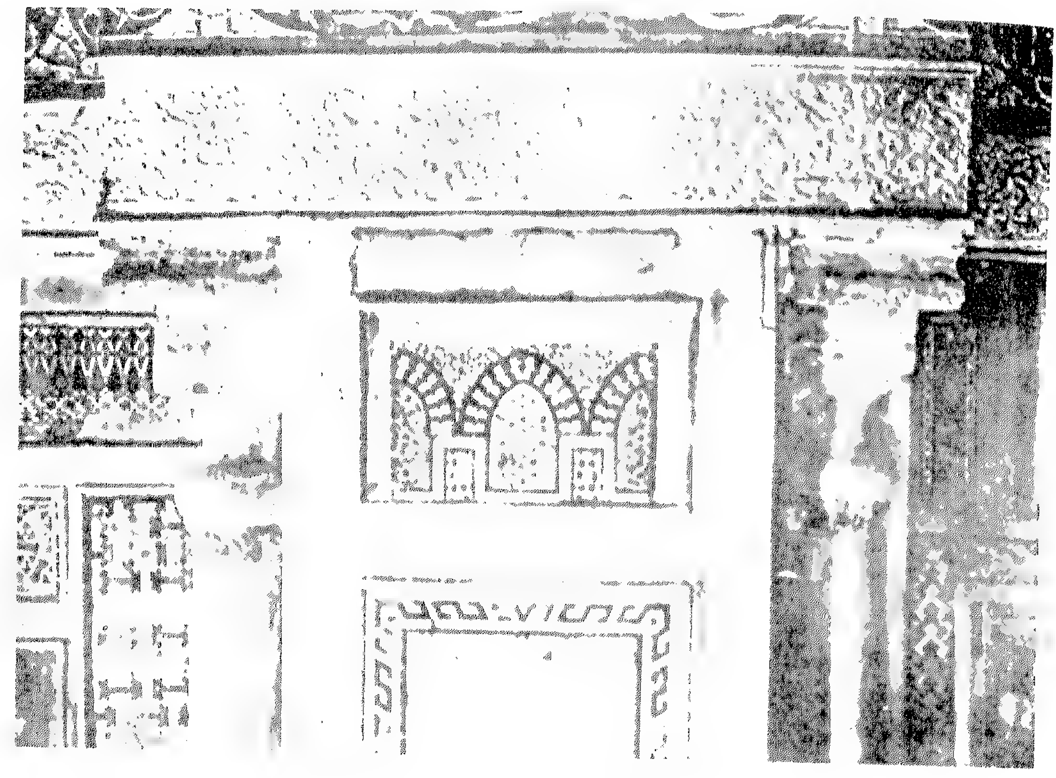


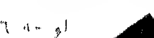
لوحة ٣٤ — سقف الركن الجنوبي الغربي لقبة قلاوون وقد ظهرت به الحقاق (Coffers)



لوحة ٣٥ — الجانب الجنوبي للقبـــة من الداخل ونرى فيه الزخارف المتعددة التي تغشيه

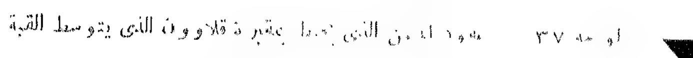




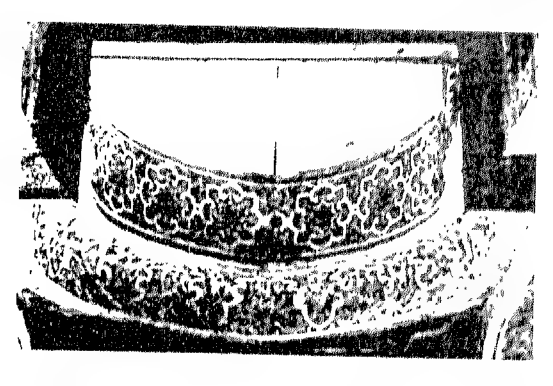


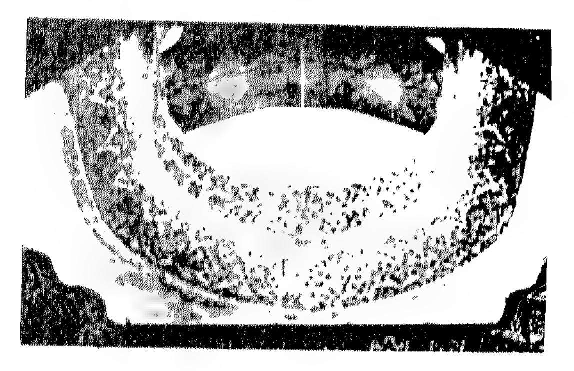
لوحة ٣٦ تفاصيل زخارف الشباك الجنوبي لقبة قلاوون

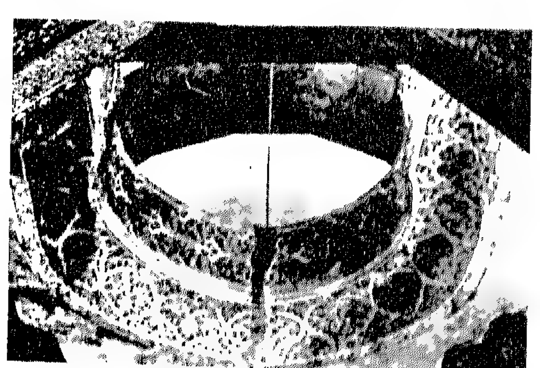




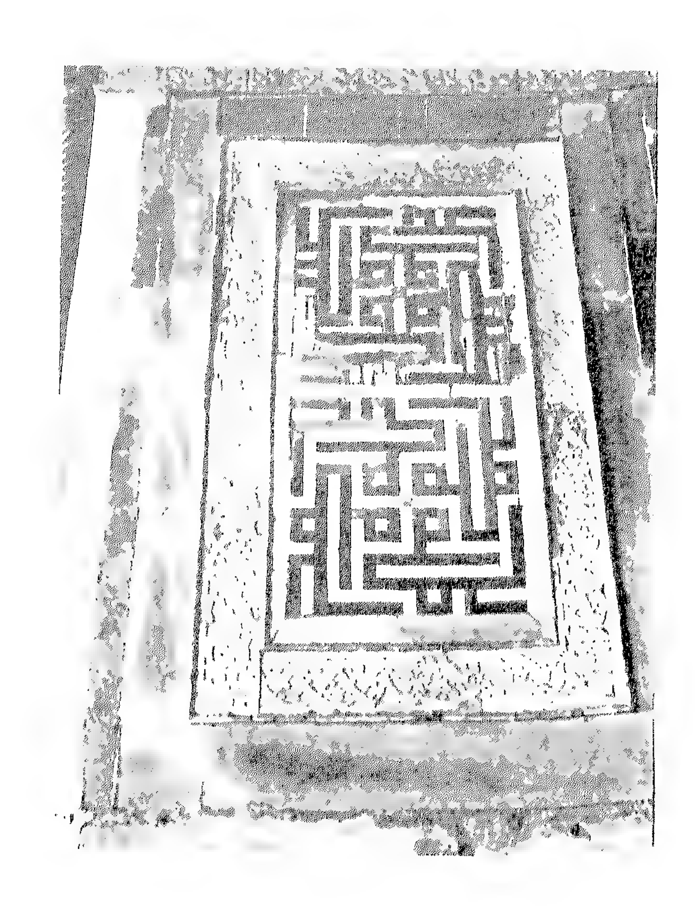
لوحة ٣٧ عمود الدرابزين الذى يحيط بمقبرة قلاوون الذى يتوسط القبة



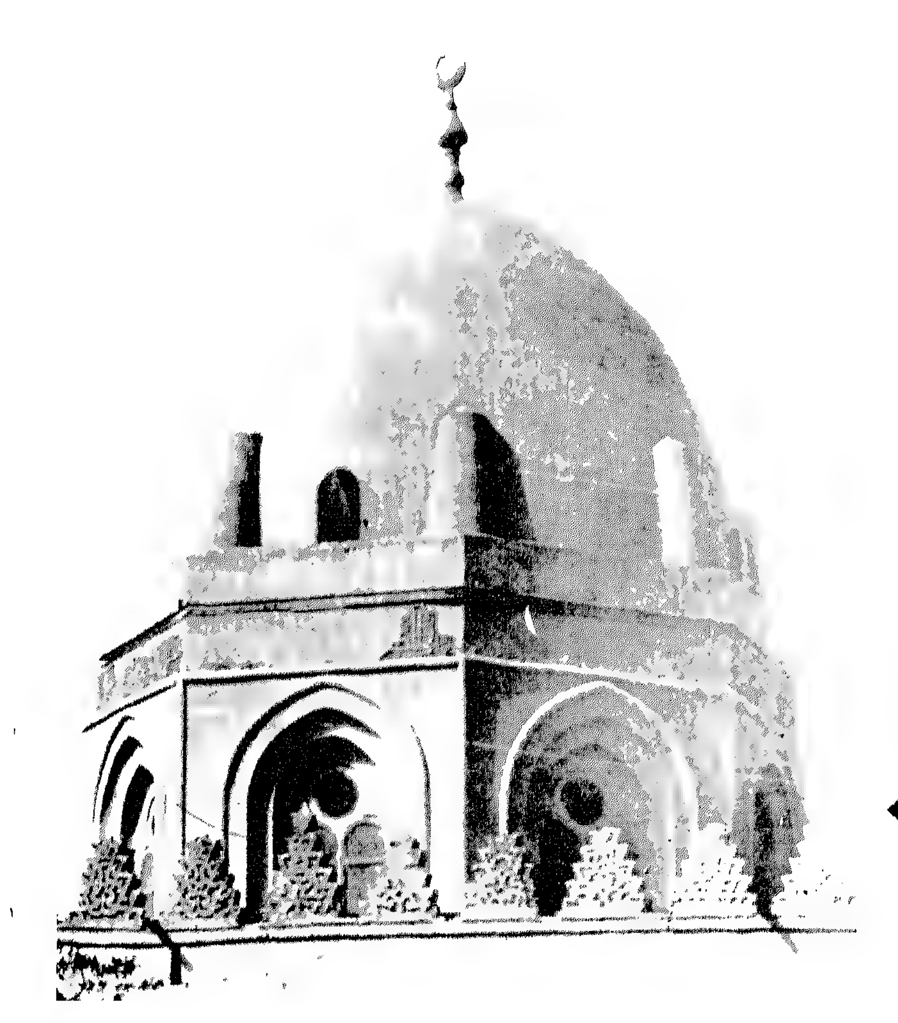








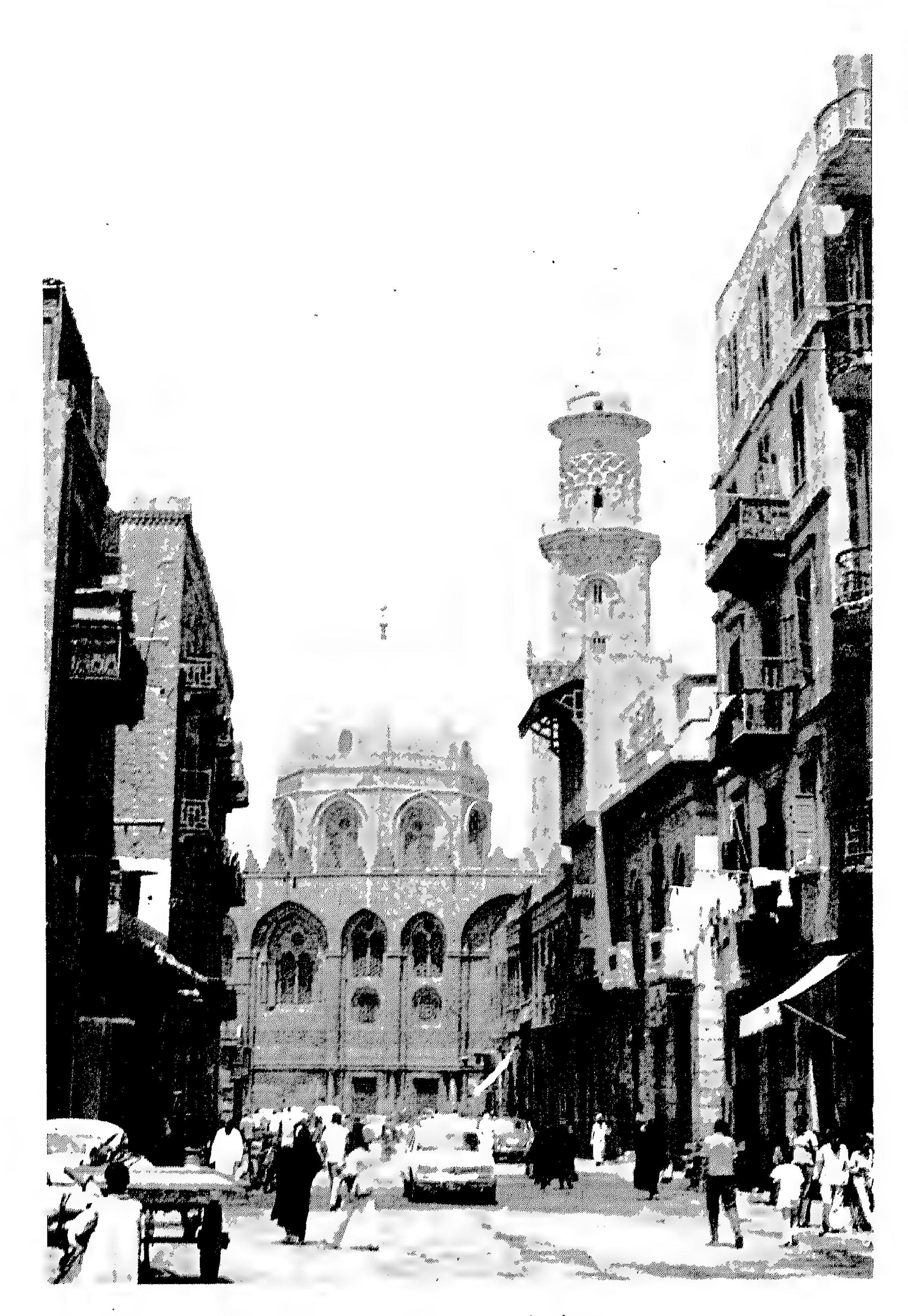
لوحة ٣٨ – وزرة رخامية تكسو جدار قبة قلاوون بها كتابات كوفية مربعة مكونة من كلمة « محمد » مكررة أربع مرات



لوحة ٣٩ – قبة قلاوون من الخارج



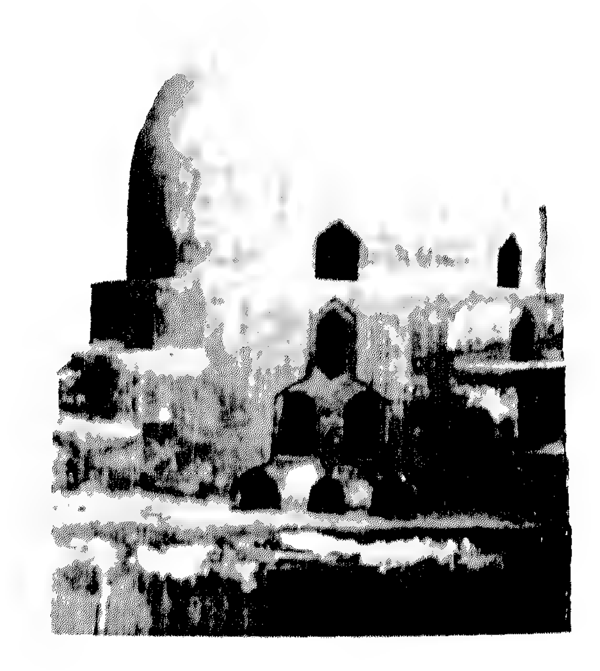
لوحة ٤٠ المدخل الرئيسي لمجموعة قلاوون



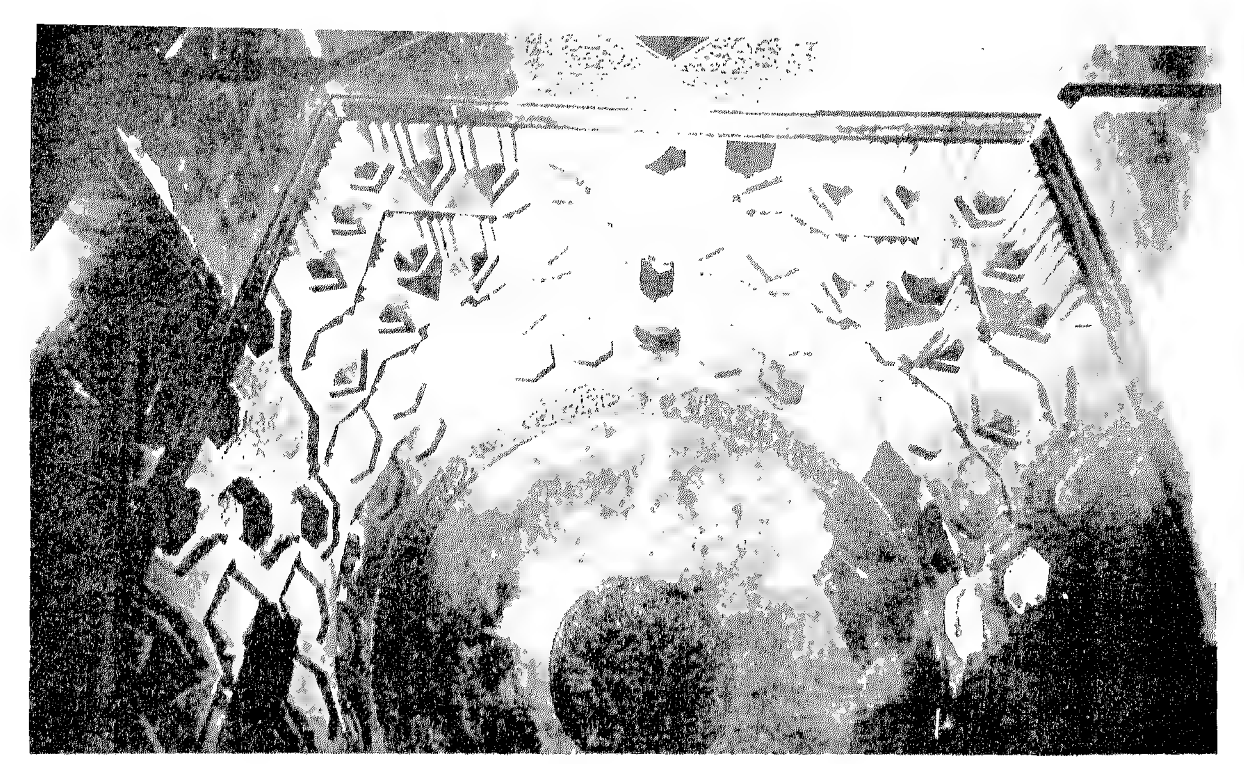
لوحة ٤١ — قبة قلاوون



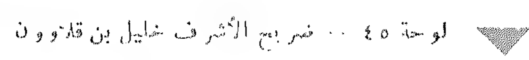
لوحة ٤٢ — مئذنة المنصور قلاوون



لوحة ٤٣ — قبة الأمير حسام الدين
طرنطاى من الخارج (١)



لوحة ٤٤ - قبة الأمير حسام الدين طرنطاى من الداخل



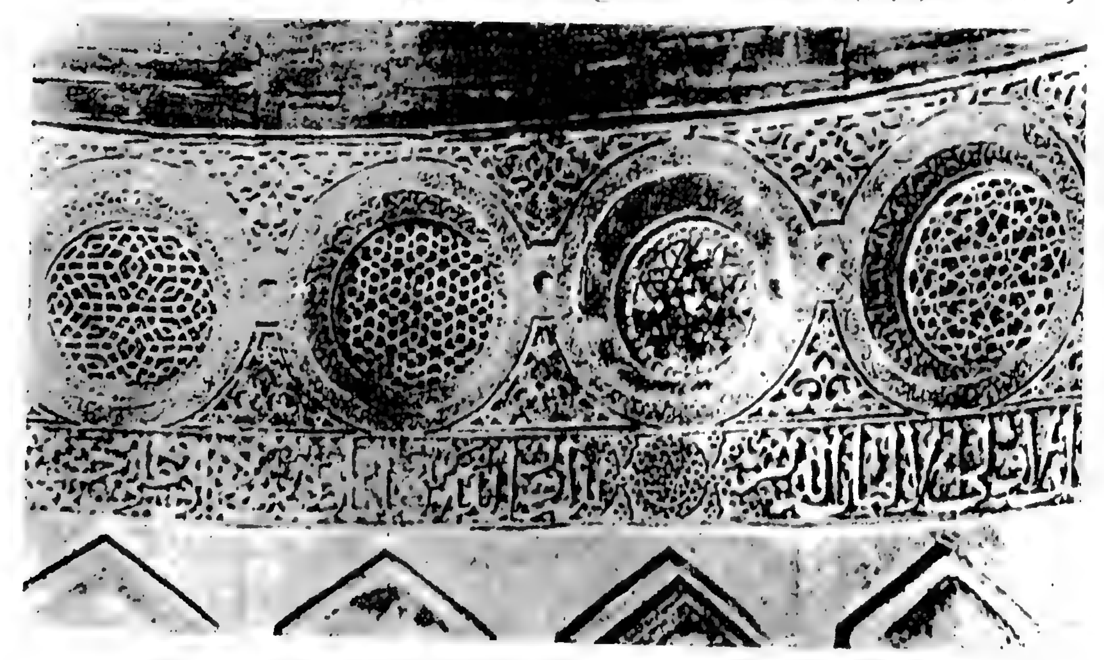
لوحة ٤٥ - ضريح الأشرف خليل بن قلاوون





لوحة ٤٦ قبة السلطان الأشرف خليل بن قلاوون

لوحة ٤٧ النقوش التي تزخرف رقبة قبة ضريح الأشرف خليل



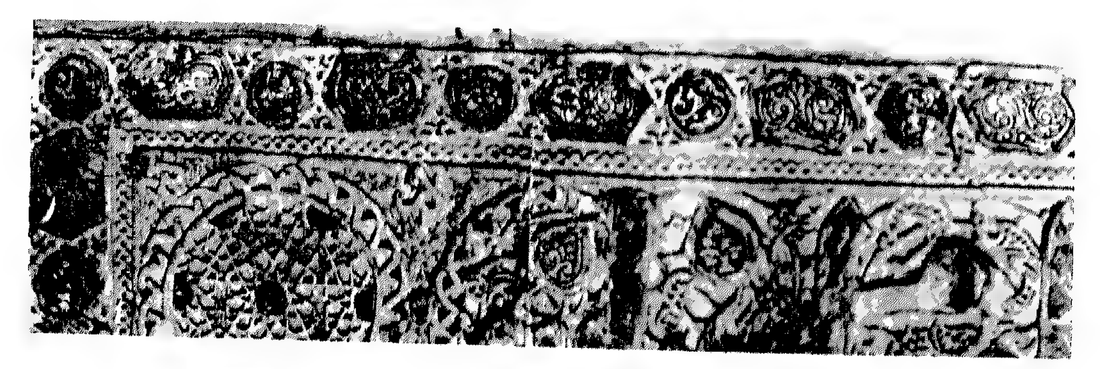


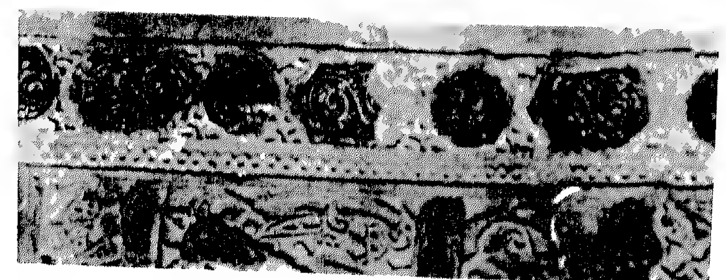
لوحة ٤٨ - قبـة الأشرف خليل



لوحة ٤٩ ضريح أحمد بن سليمان الرفاعى

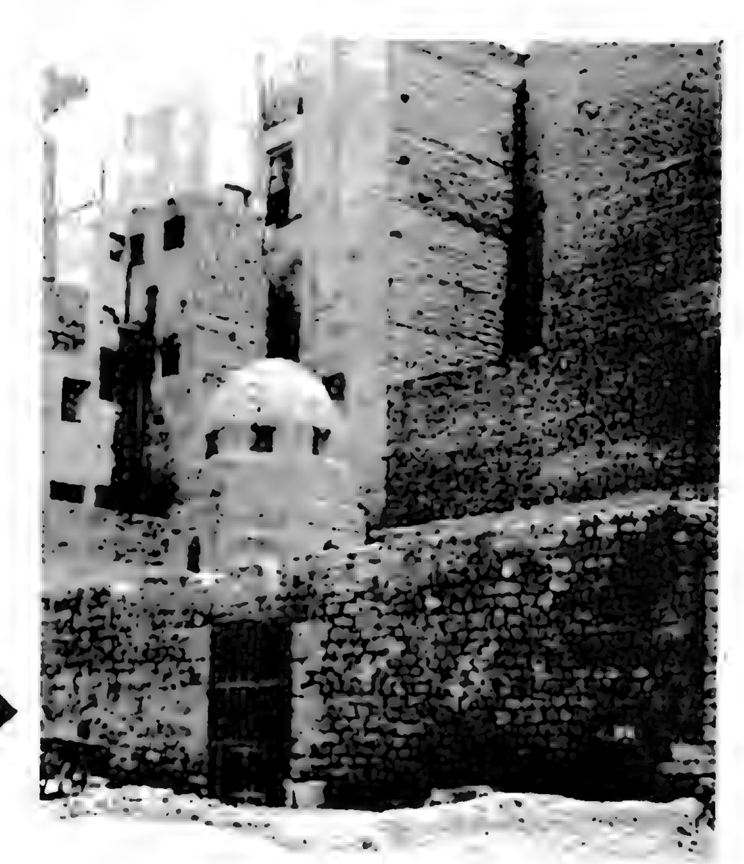
لوحة ٥٠ زخارف محراب ضريح احمد بن سليمان الرفاعى



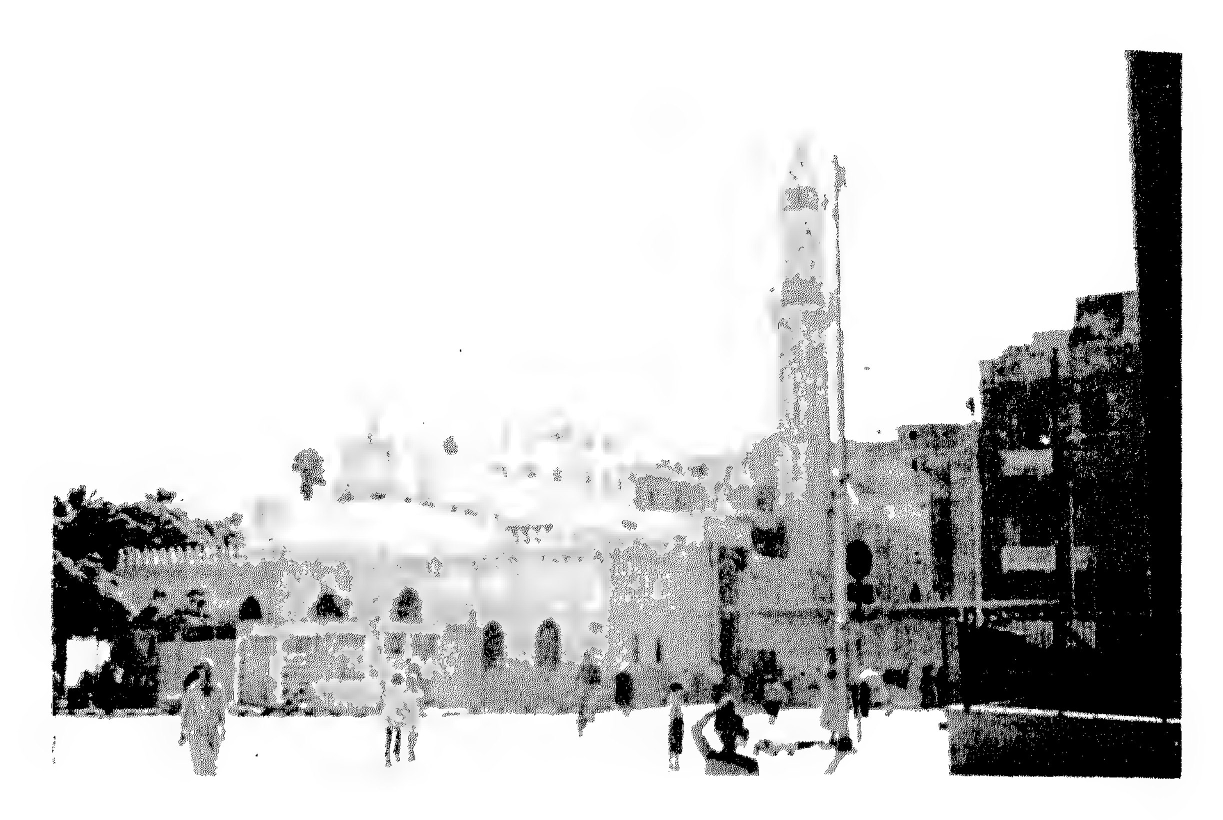




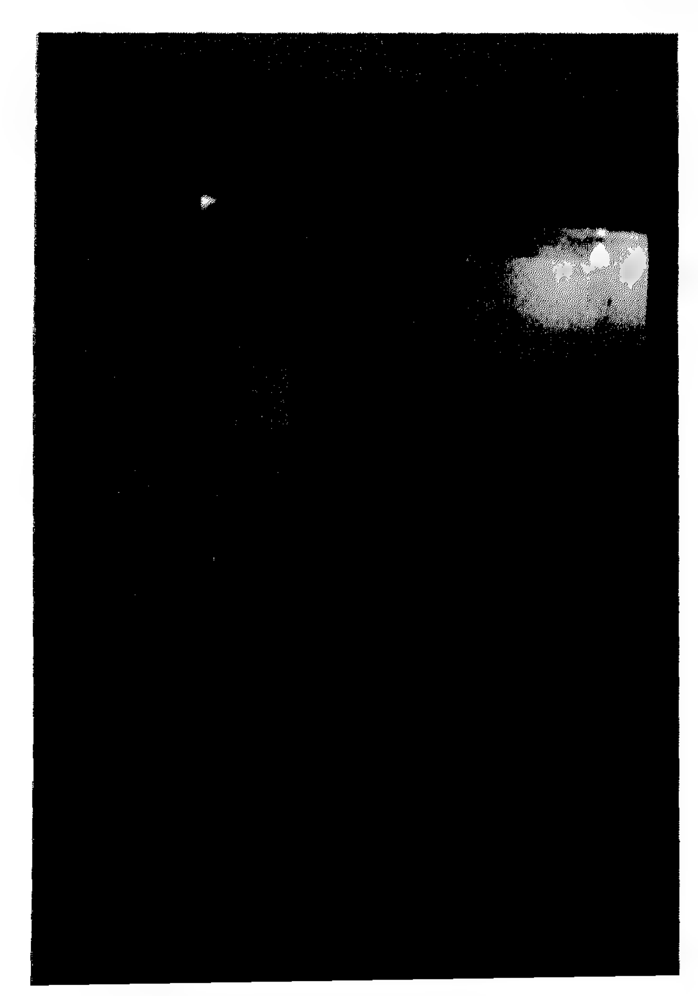
لوحة ٥١ — ضريح أحمد بن سليمان الرفاعى



لوحة ٥٢ — ضريح أحمد بن سليمان الرفاعى



لوحة ٥٣ واجهة مسجد الأباصيري بالإسكندرية



لوحة ٥٤ مقصورة الأباصيري



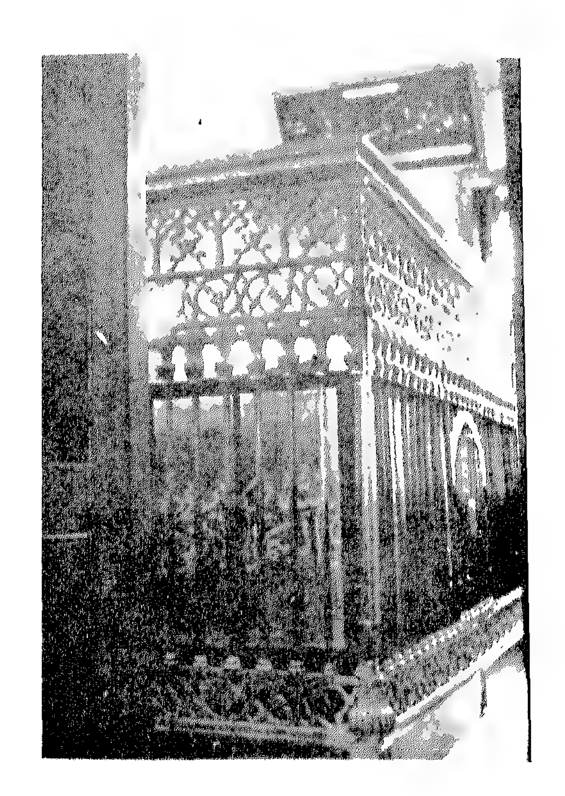
لوحة ٥٥ – الواجهة الرئيسية لمسجد سيدى جابر





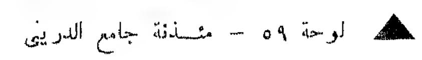
لوحة ٥٦ – مسجد سيدى جابر من الداخل





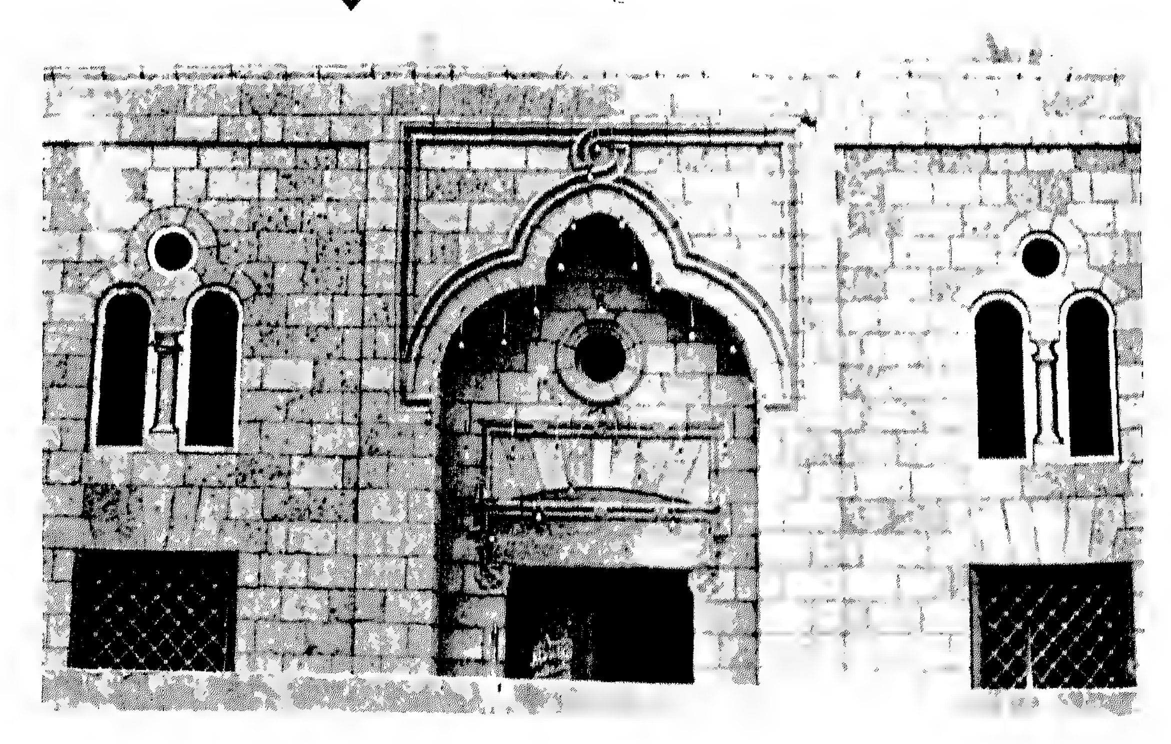
لوحة ٥٧ – المقصورة المعدنية لسيدى جابر





لوحة ٥٩ – مئذنة جامع الدرينى

لوحة ٥٨ – جامع الدرينى بالقصر العينى



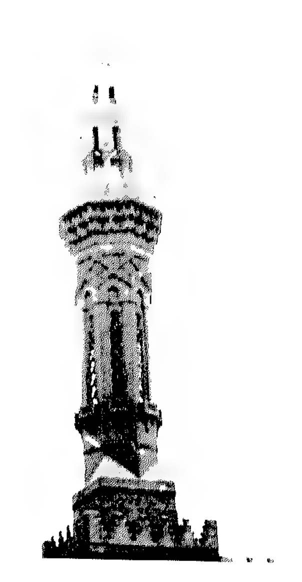


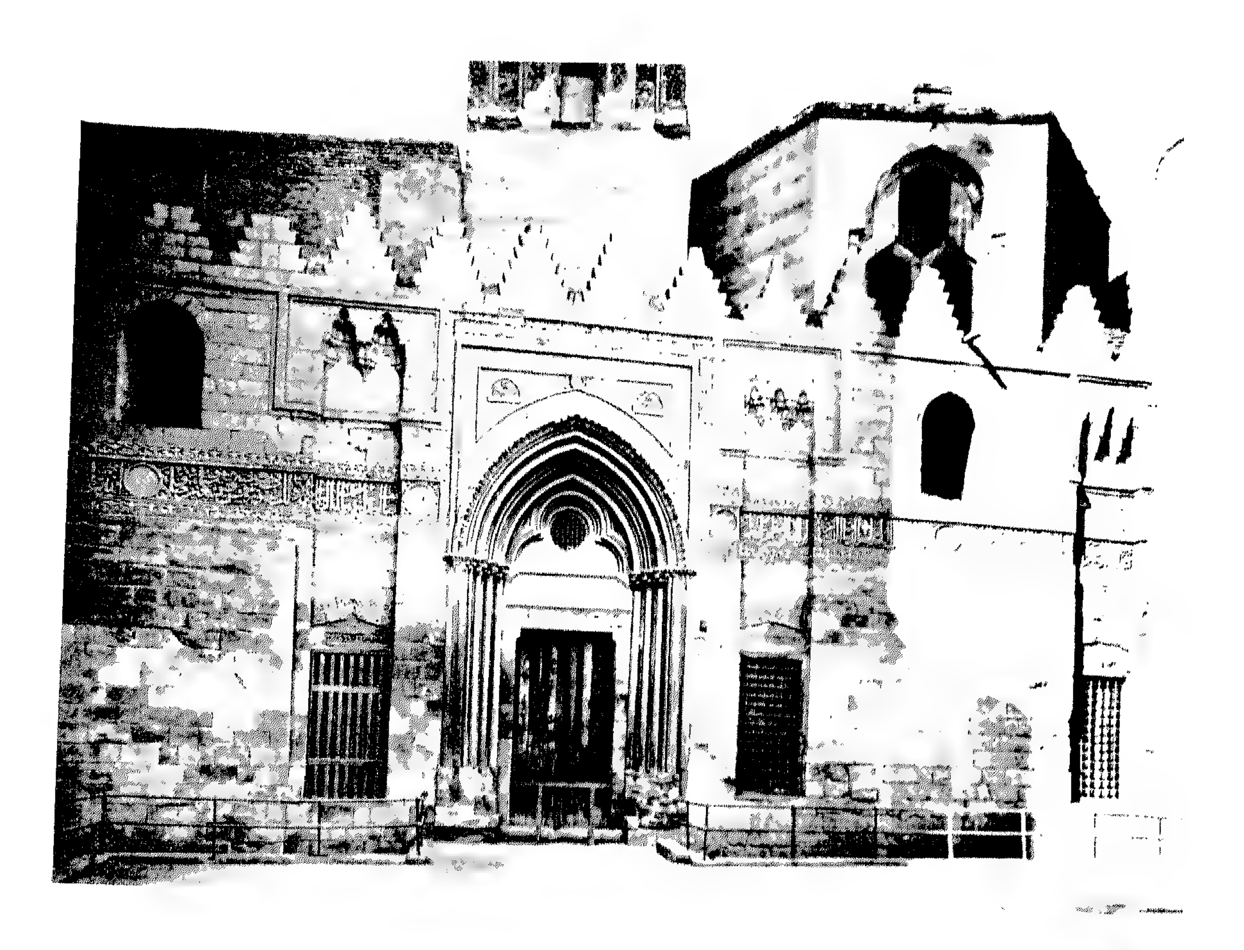
لوحة ٦٠ – جامع عمر مكرم بميدان التحرير

لوحة ٦١ – مئذنة جامع عمر مكرم

لوحة ٦٢ – ضريح ابن دقيق العيد بالقرافة الكبرى بجبل المقطم

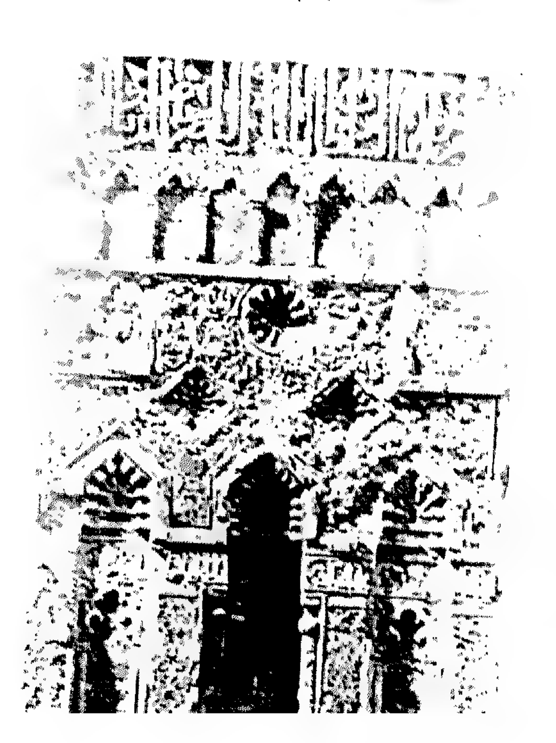




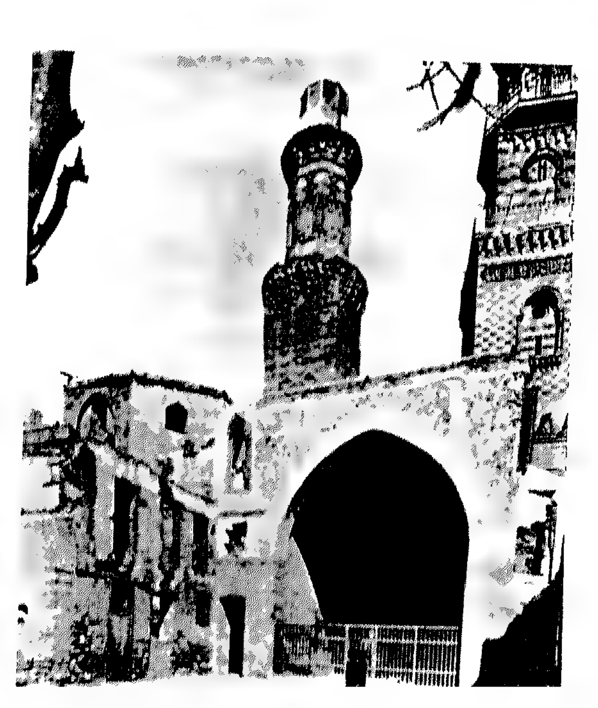


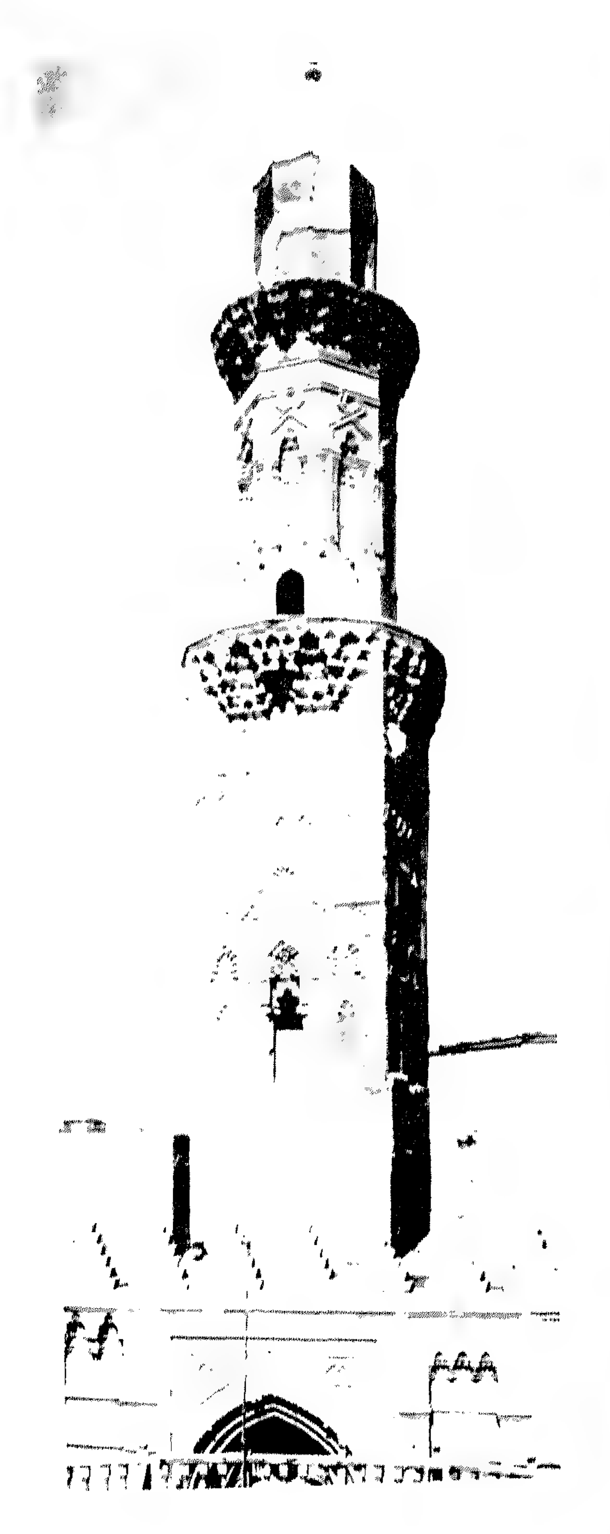
لوحة ٦٣ - الواجهة الرئيسية لمدرسة الناصر محمد بن قلاوون

لوحة ٦٥ - زخارف جصية تغشى واجهة القبلة بمدرسة الناصر محمد



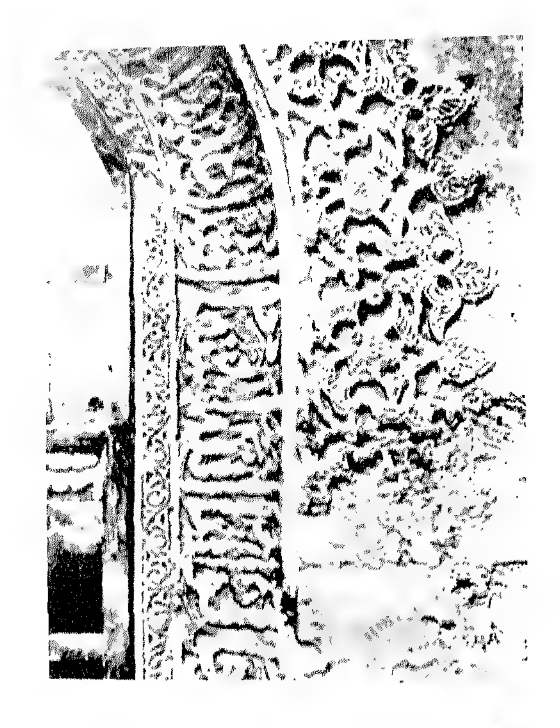
لوحة ٦٤ صحن مدرسة وضريح الناصر محمد بن قلاوون





لوحة ٦٧ – مئذنة مدرسة الناصر محمد

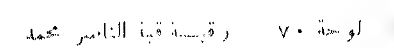
لوحة ٦٦ – محراب المدرسة الناصرية



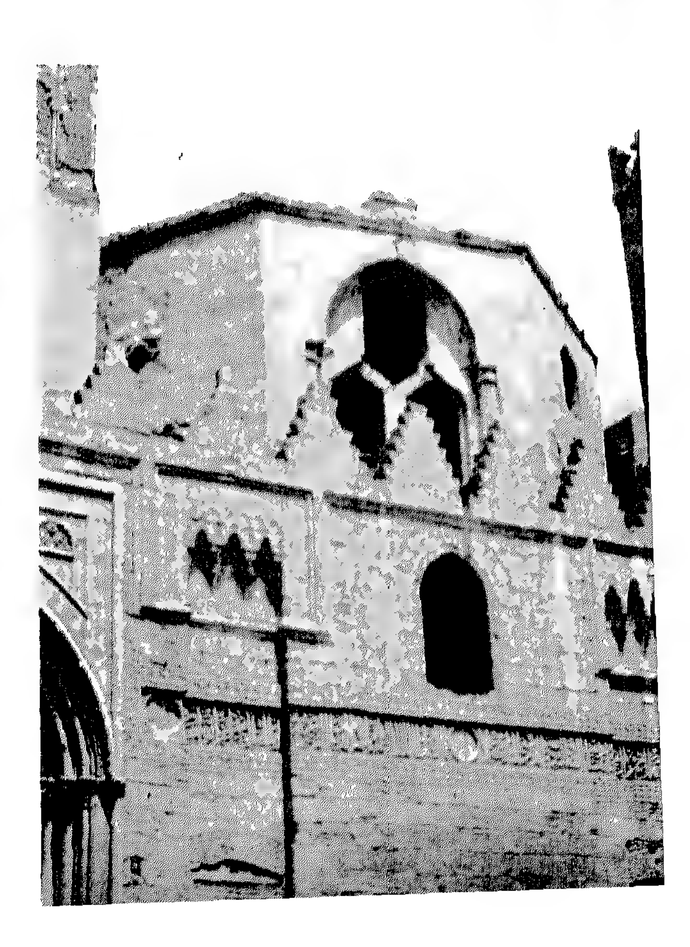
لوحة ٦٨ — الزخارف الجصية التي تحيط بنافذة الإيوان الشمالي الغربي بالمدرسة الناصرية



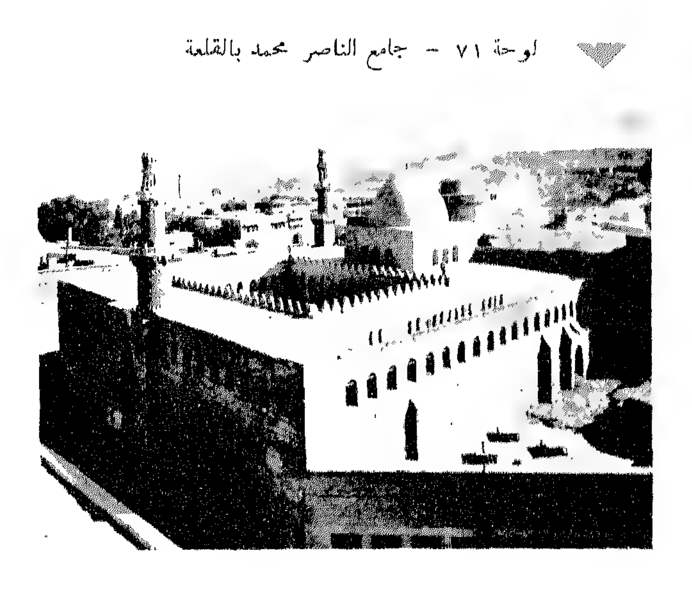
لوحة ٦٩ -- المدخل الرئيسي للمدرسة الناصرية



لوحة ٧٠ — رقبة قبة الناصر محمد

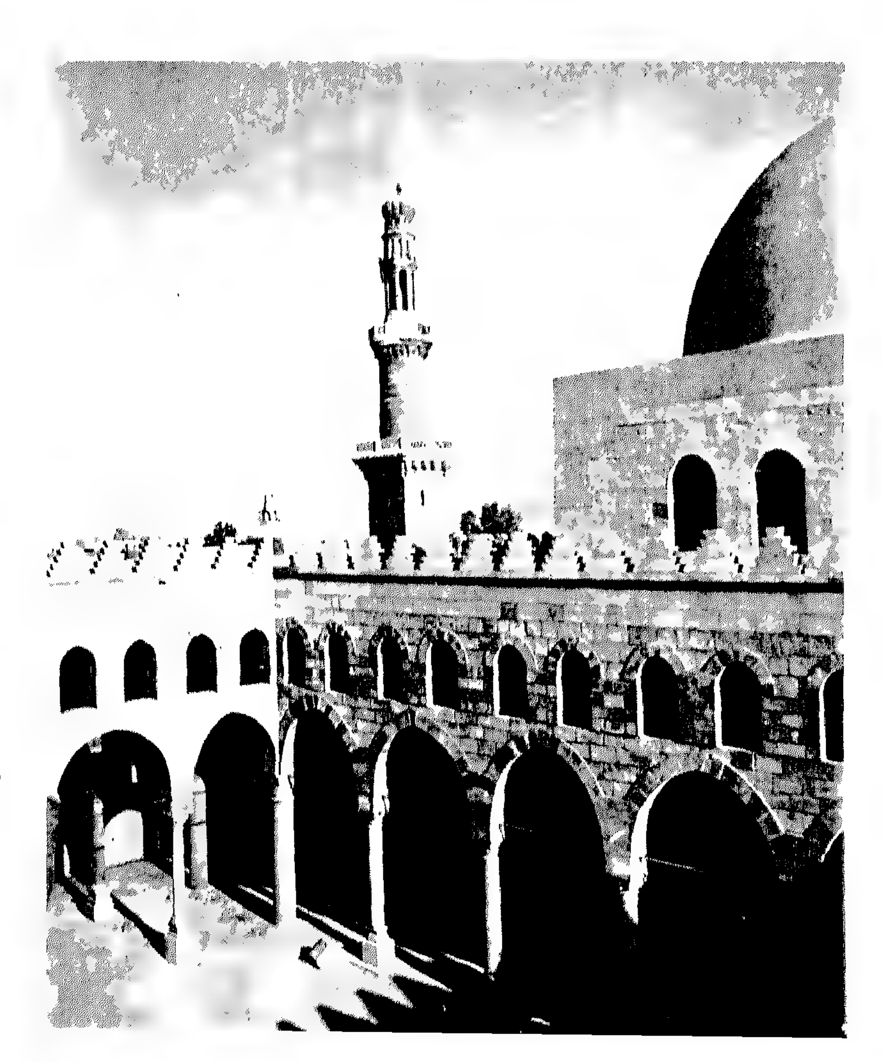


لوحة ٧١ — جامع الناصر محمد بالقلعة





لوحة ٧٢ — المدخل الرئيسى لجامع الناصر محمد

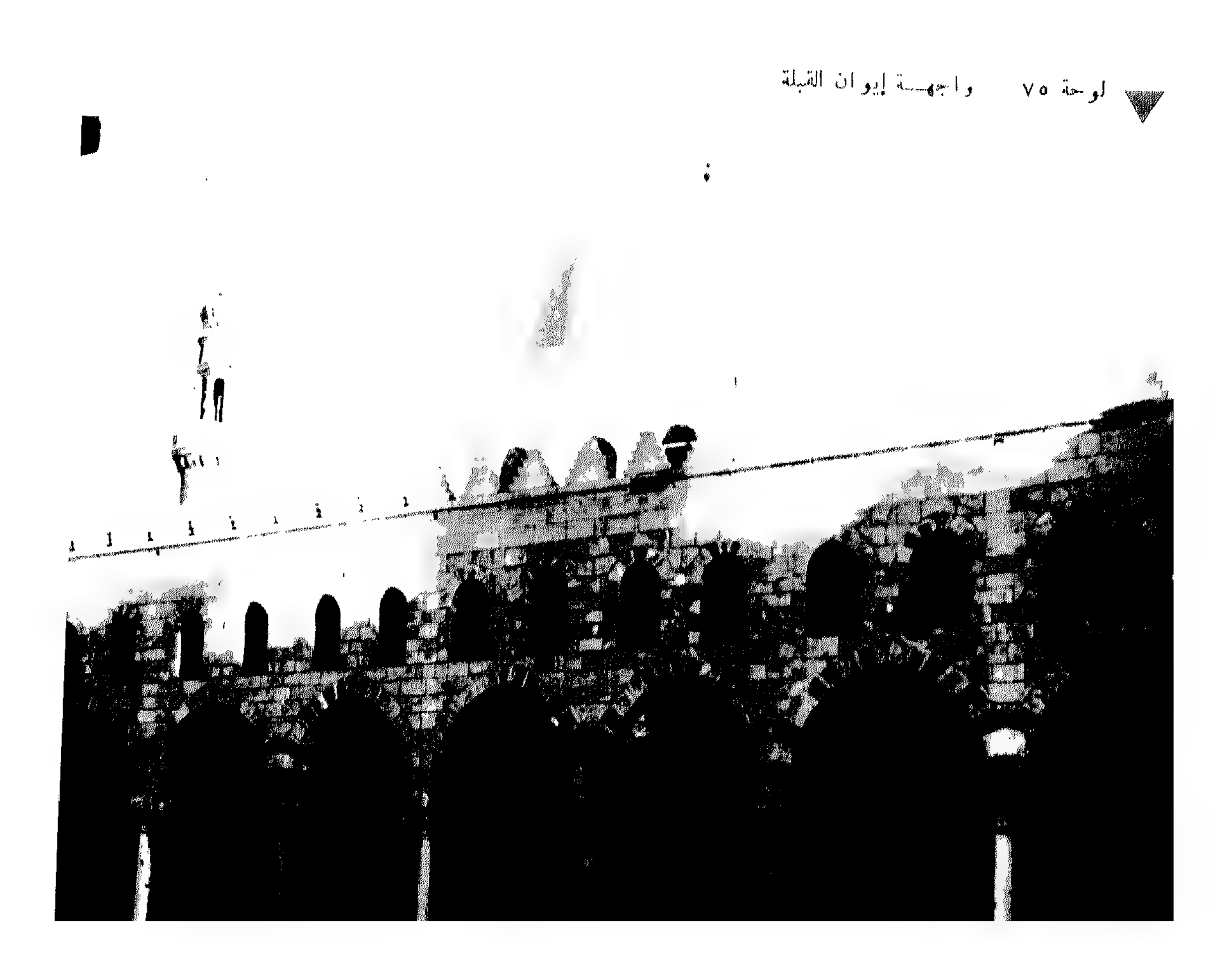


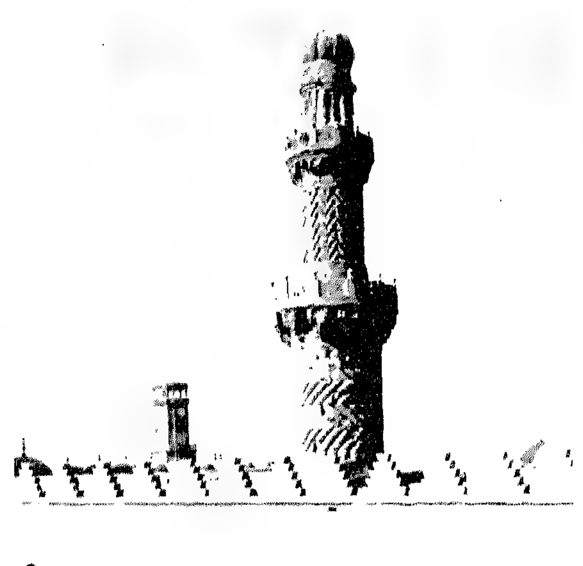
لوحة ٧٣ — صحن جامع الناصر محمد

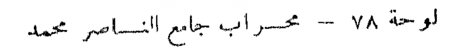


لوحة ٧٤ — داخل جامع الناصر محمد

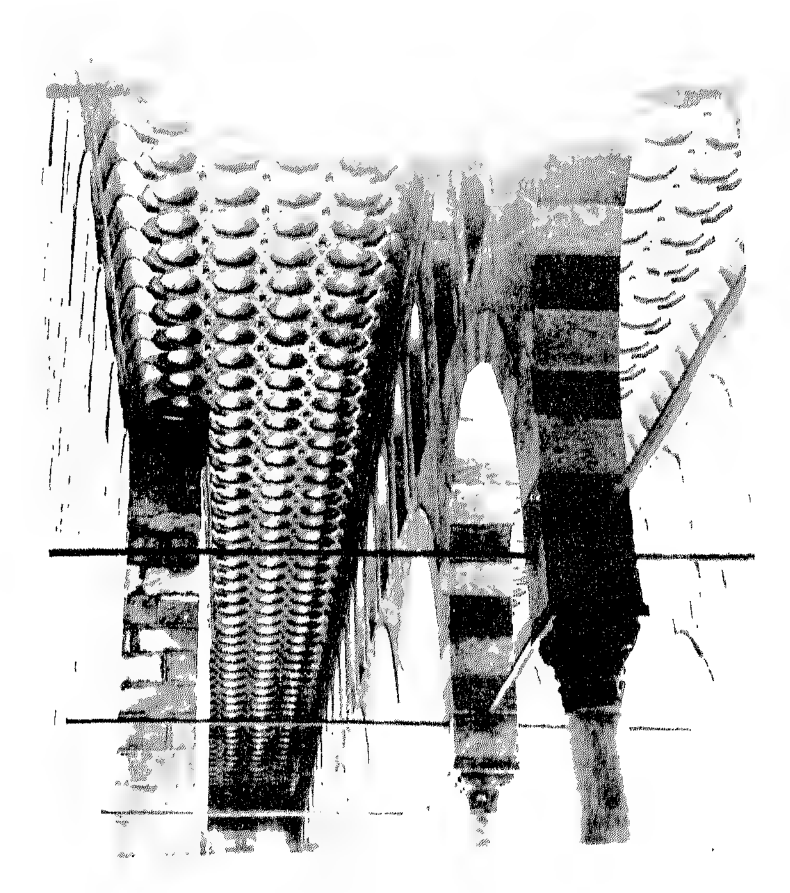
لوحة ٧٥ واجهة إيوان القبلة

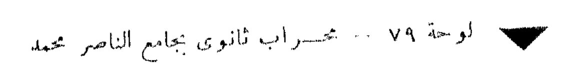






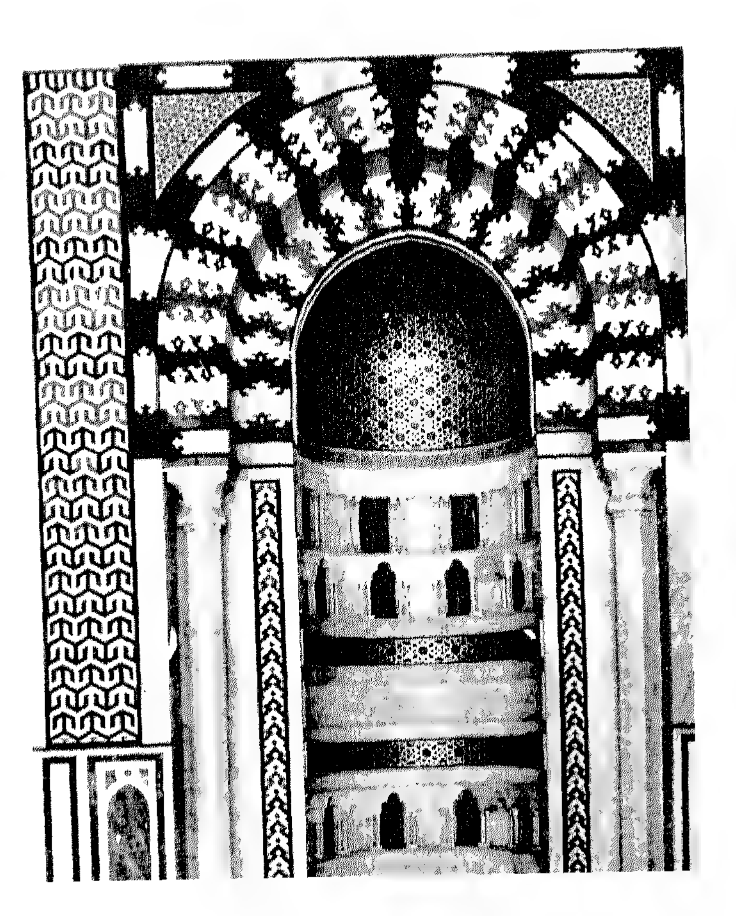
لوحة ٧٦ – واجهة الايوان الغربي لجامع الناصر محمد



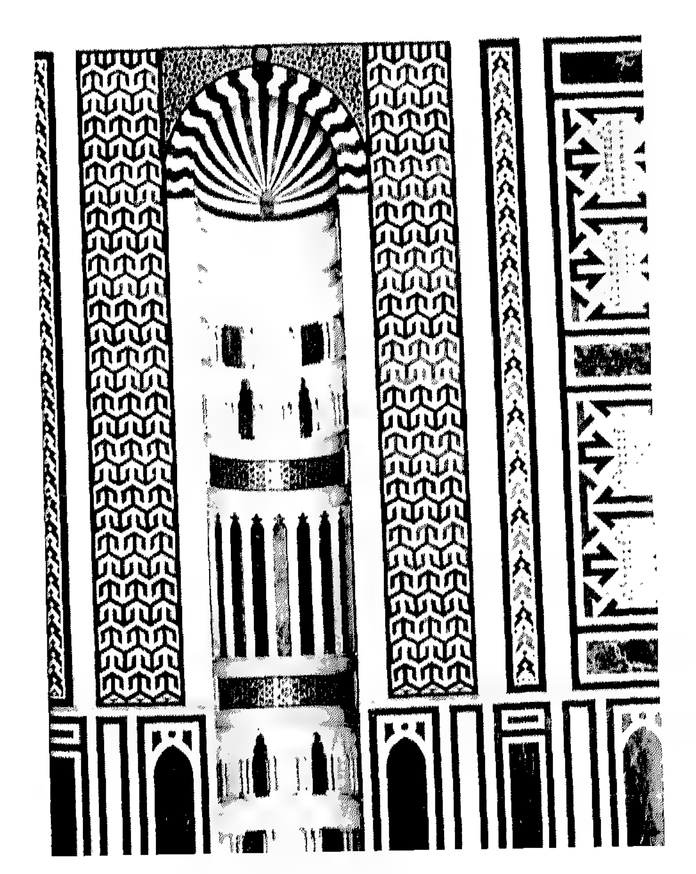


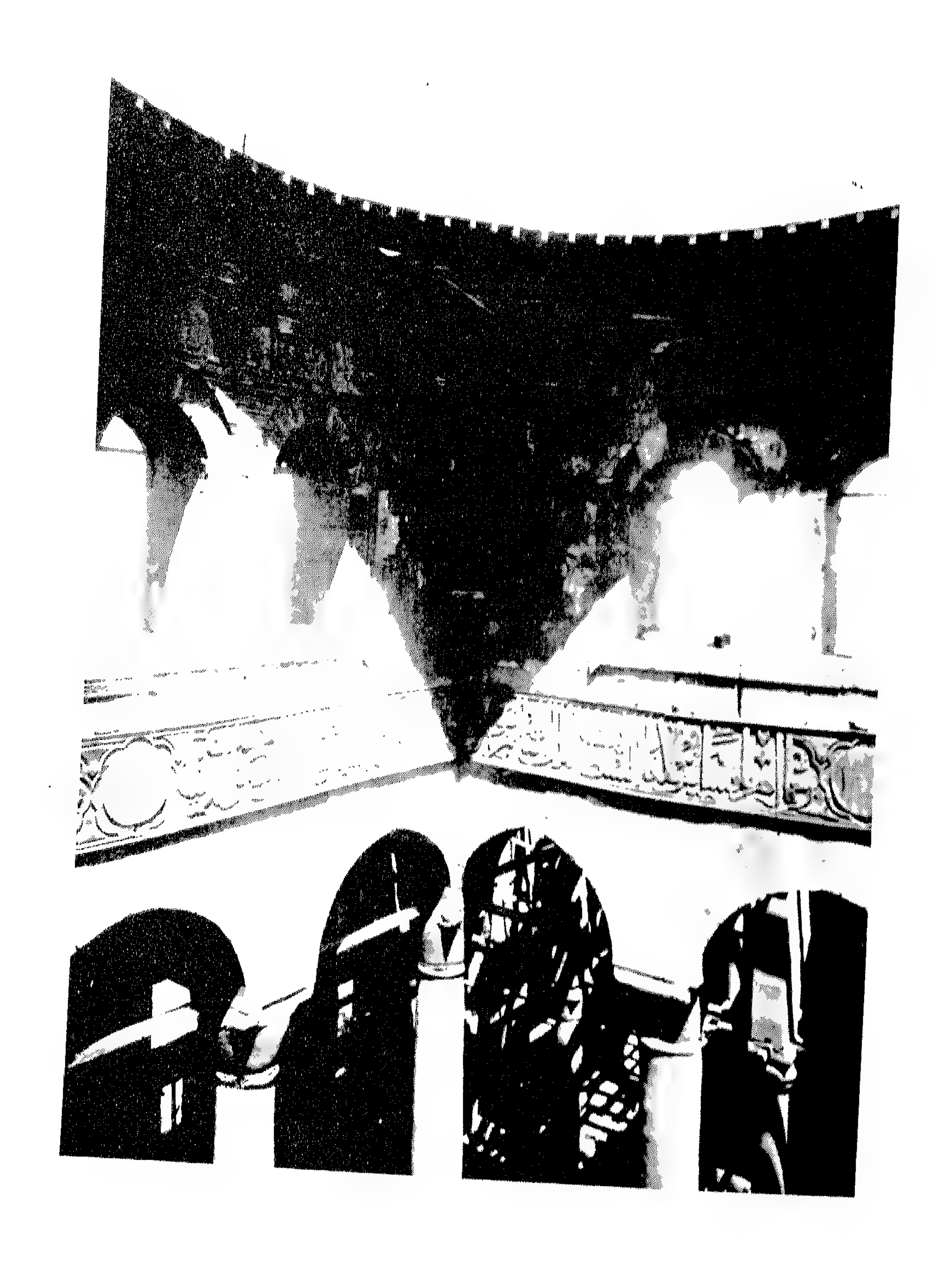
لوحة ٧٧ — سقف الأروقة بجامع الناصر محمد

لوحة ٧٨ – محراب جامع الناصر محمد



لوحة ٧٩ – محراب ثانوى بجامع الناصر محمد





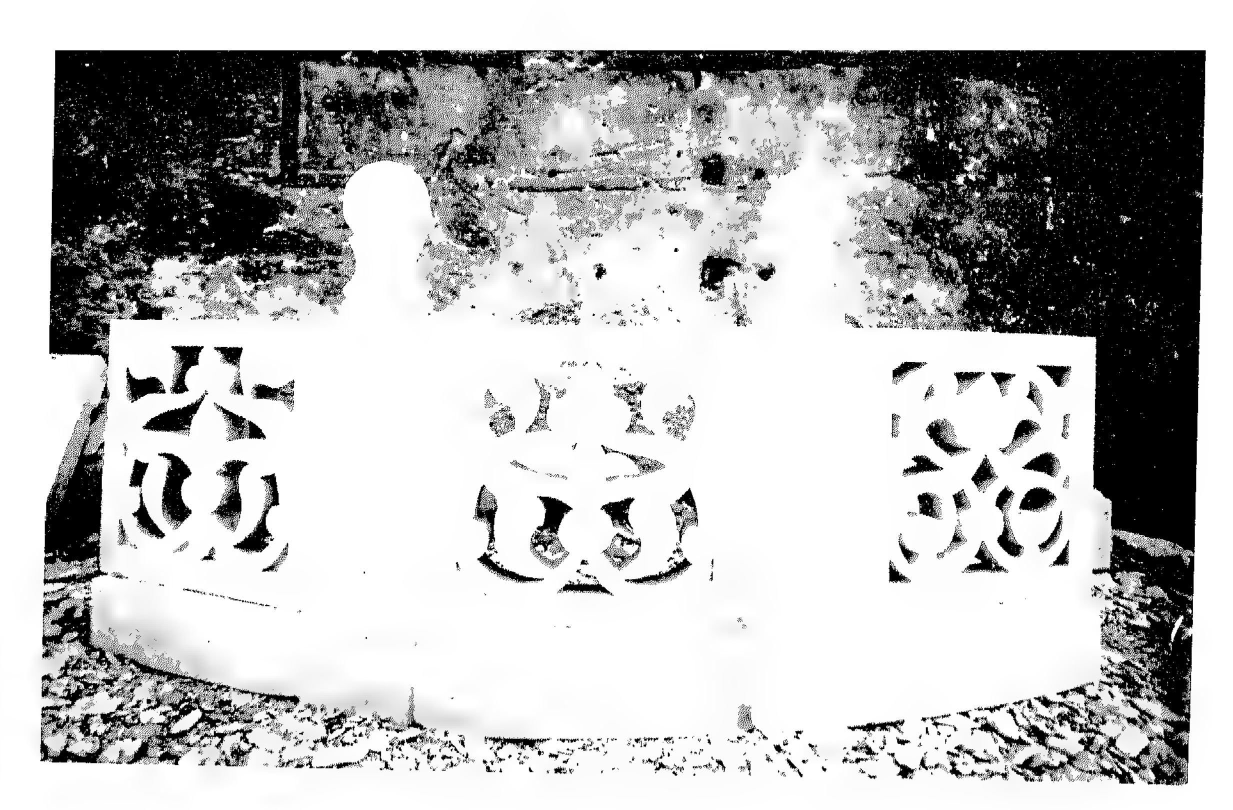
لوحة ٨٠ مقرنصات القبة التي تتقدم محراب الجامع وقد ظهر تحتها
شريط من الكتابة عليه اسم السلطان الناصر محمد



لوحة ٨١ - الشبابيك الجصية بجامع الناصر محمد من الداخل



لوحة ٨٢ - شرفة مئذنة جامع الناصر محمد



لوحة ٨٣ – تفصيل شرفة مئذنة جامع الناصر محمد



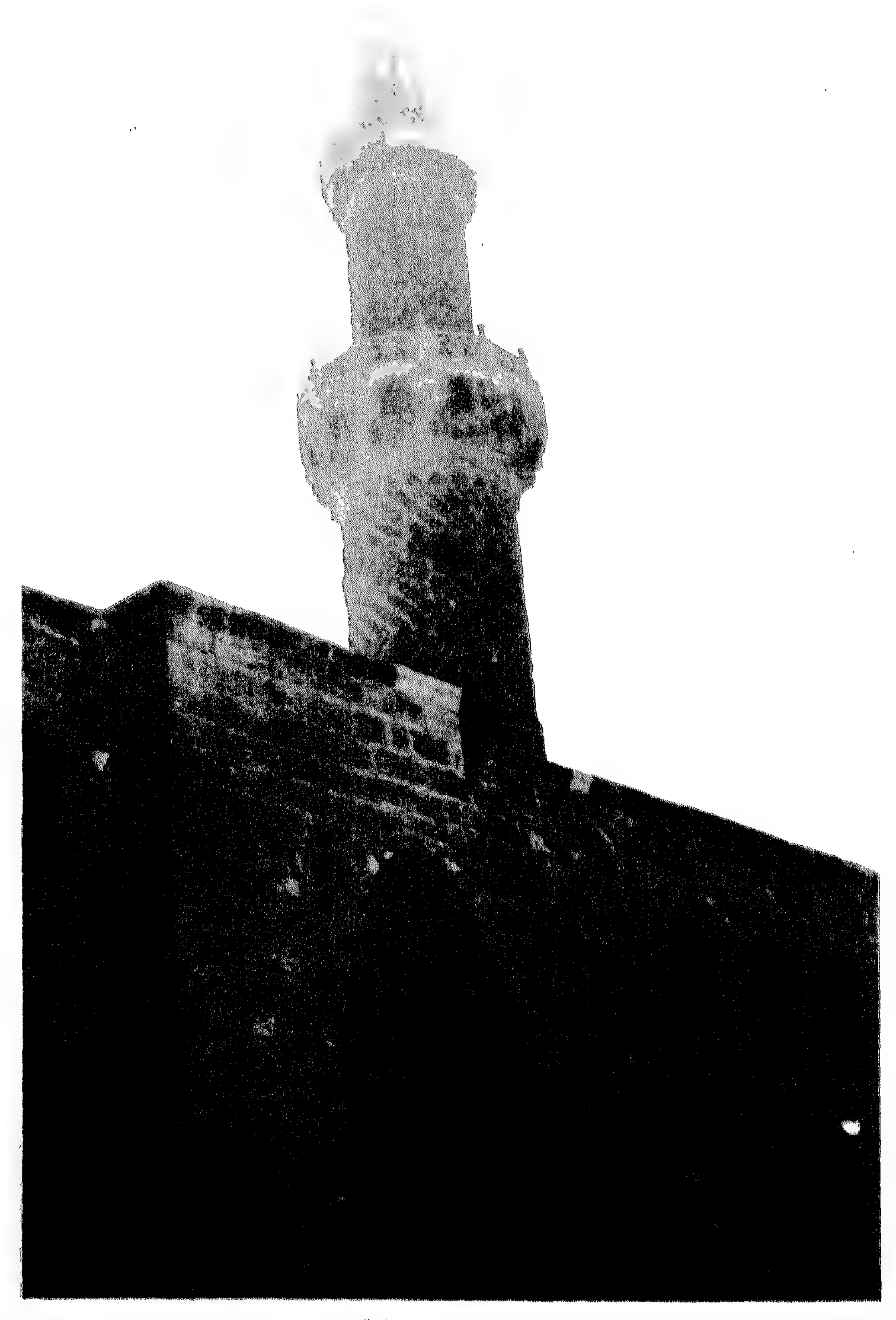
لوحة ٨٤ – تاج عمود بإيوان القبلة



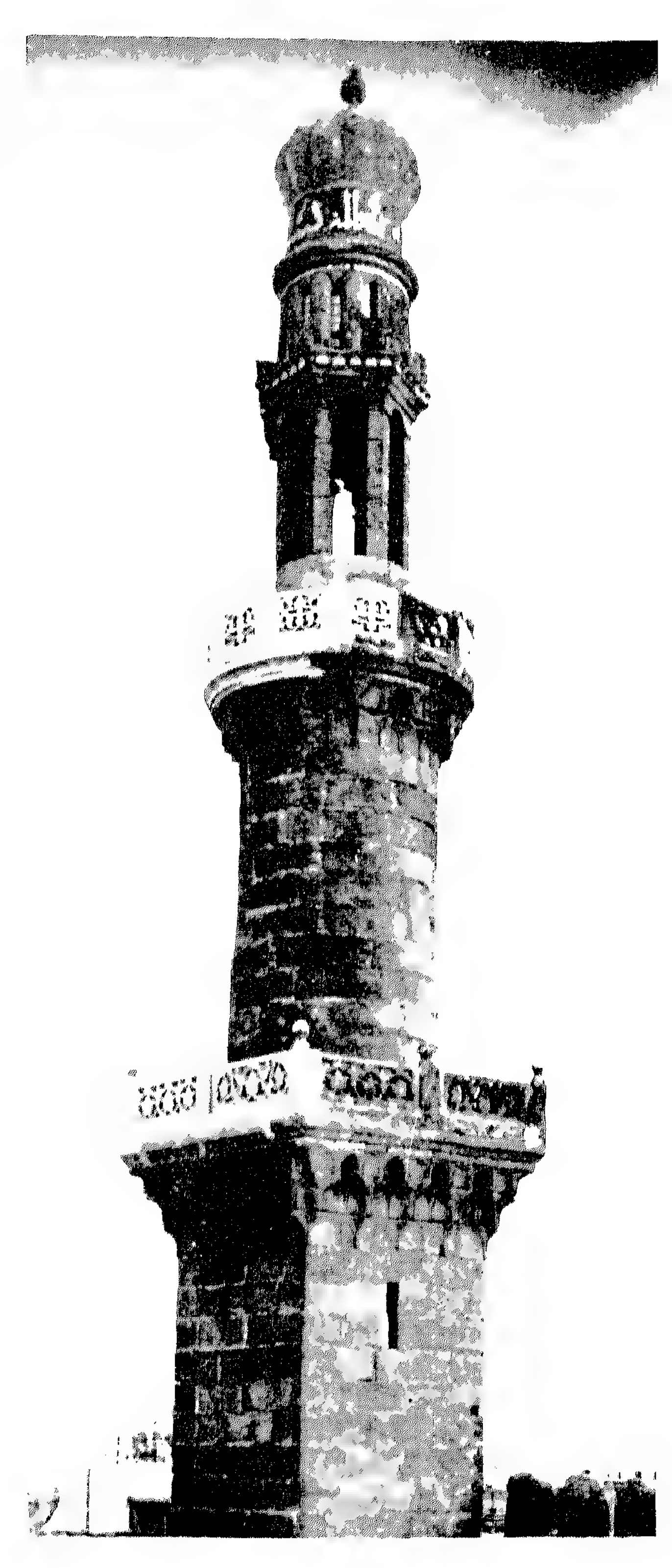
لوحة ٨٥ – جدار القبلة من الخارج



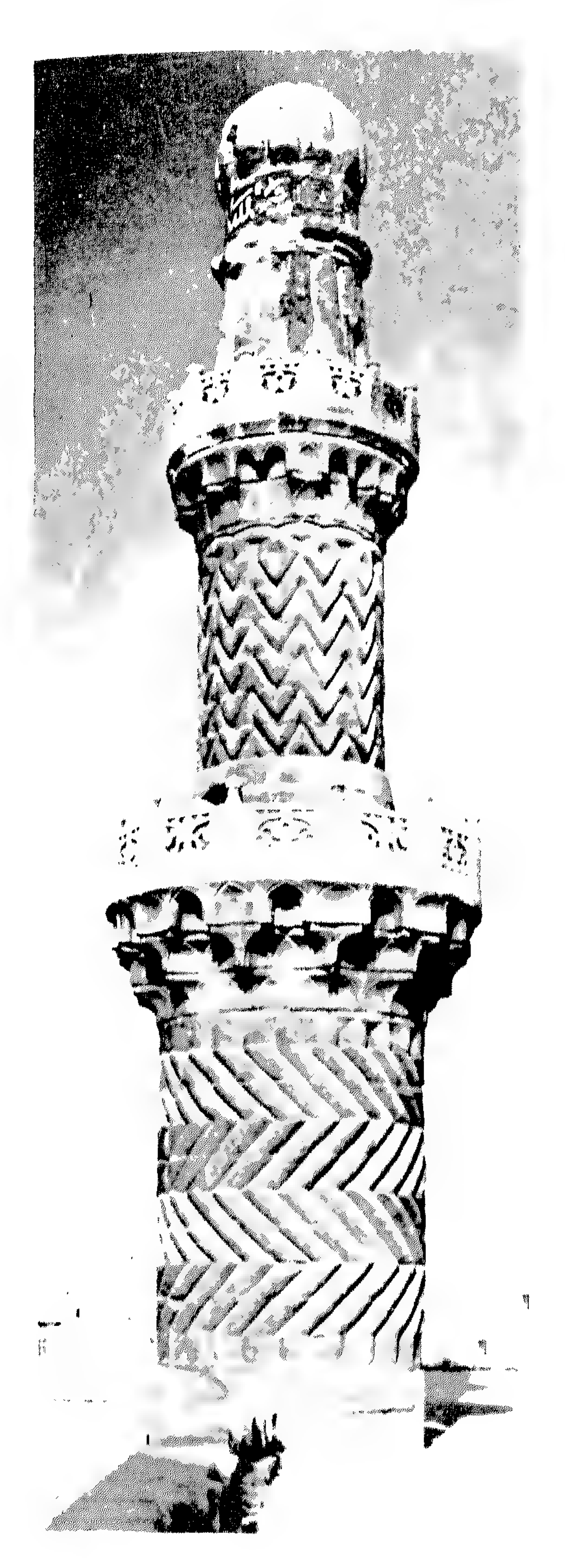
لوحة ٨٦ – شرافه تعلو أحد أركان جامع الناصر محمد

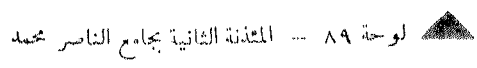


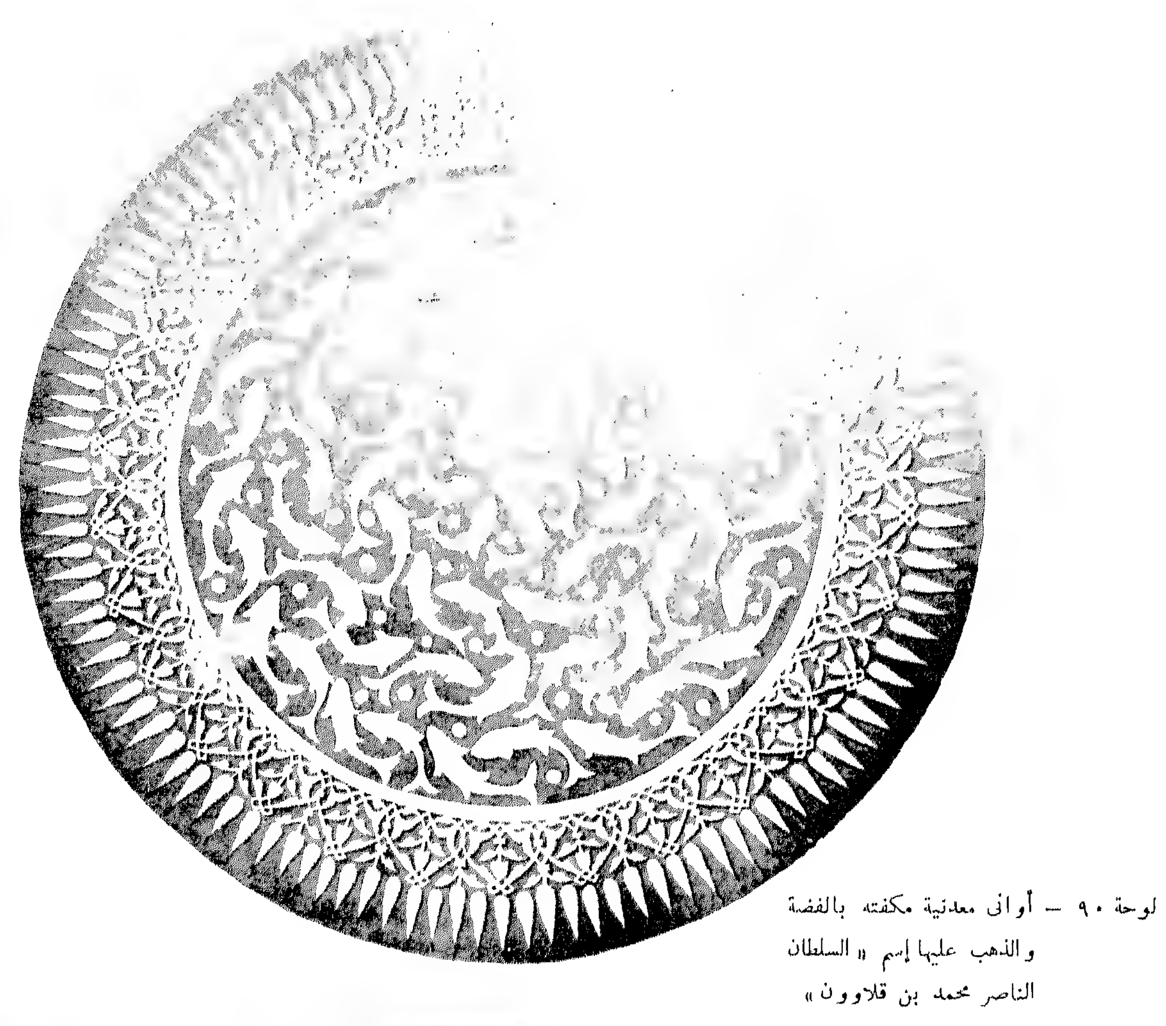
لوحة ٨٧ — المئذنة تعلو المدخل الرئيسى



 لوحة ٨٨ — أحد مئذنتي جامع الناصر محمد

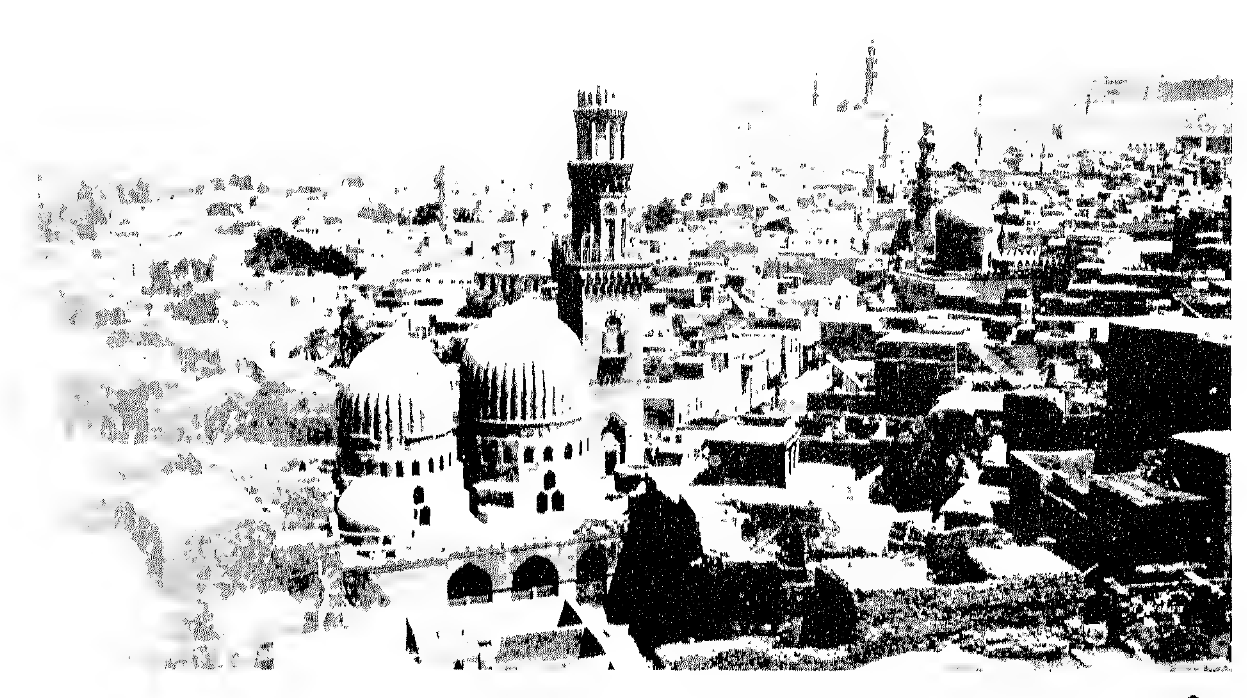



لوحة ٨٩ — المئذنة الثانية بجامع الناصر محمد

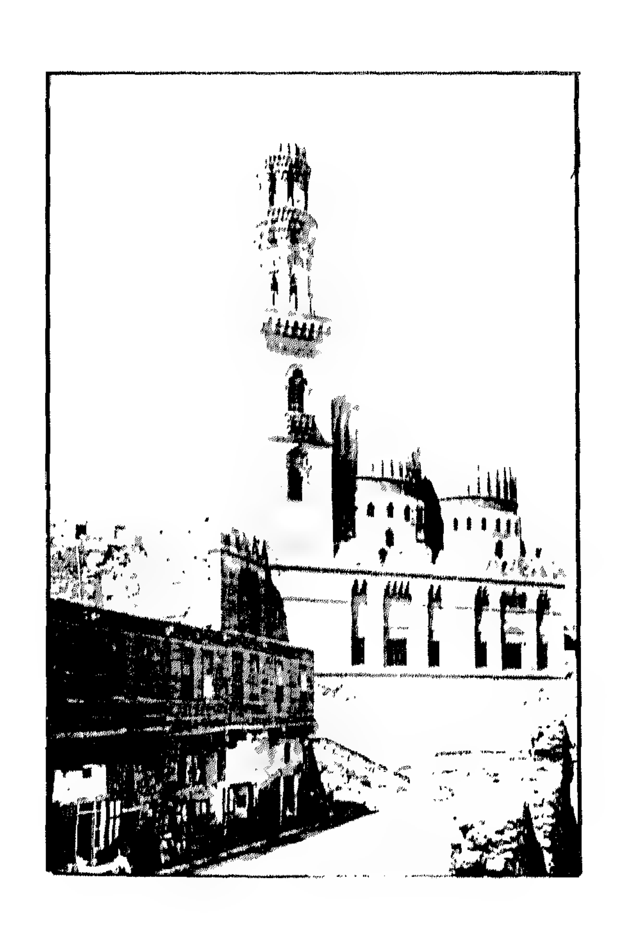


لوحة ٩٠ — أوانى معدنية مكفتة بالفضة والذهب عليها إسم « السلطان الناصر محمد بن قلاوون »





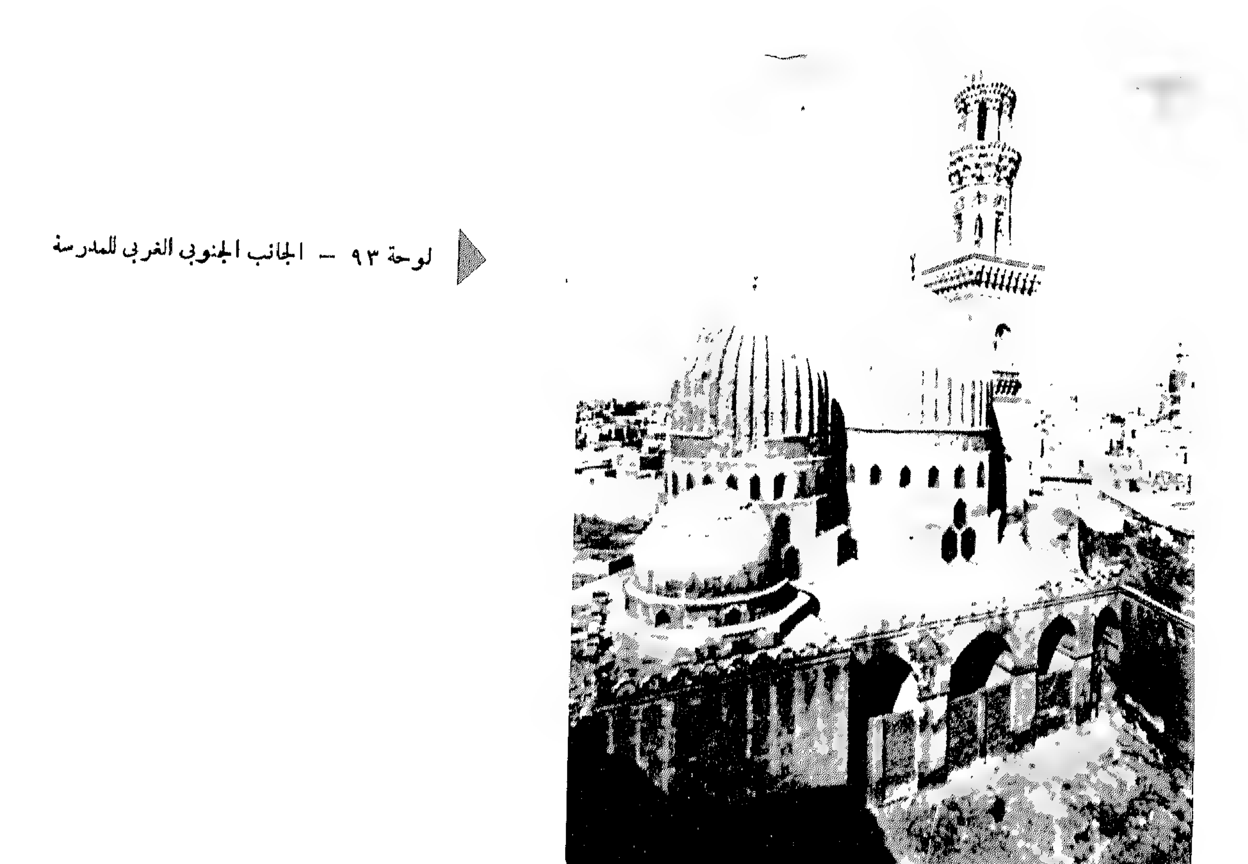
لوحة ٩١ — منظر عام للمدرسة وضريح سلار وسنجر الجاولى



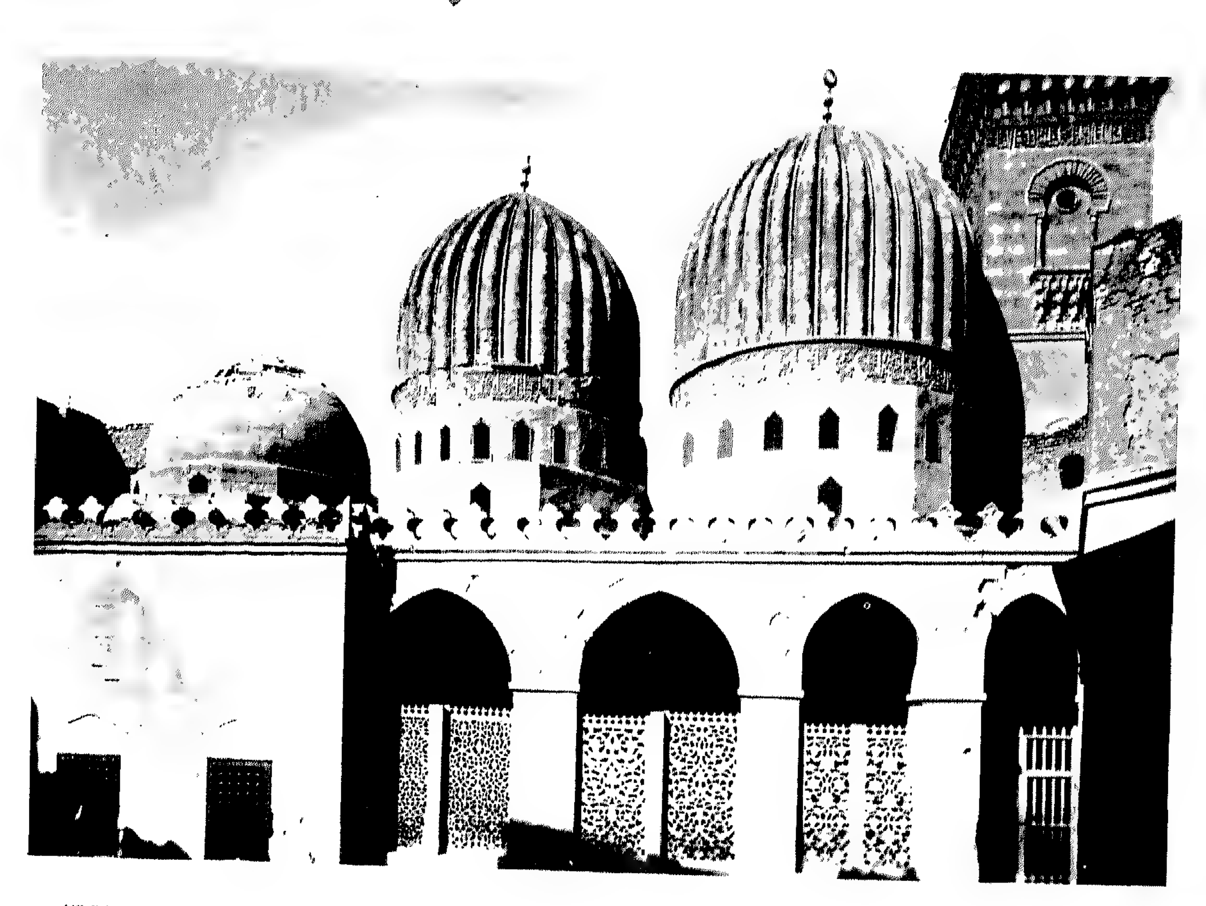
لوحة ٩٢ — الواجهة الشمالية الشرقية

لمدرسة سلار وسنجر الجاولى

لوحة ٩٣ - الجانب الجنوبي الغربي للمدرسة



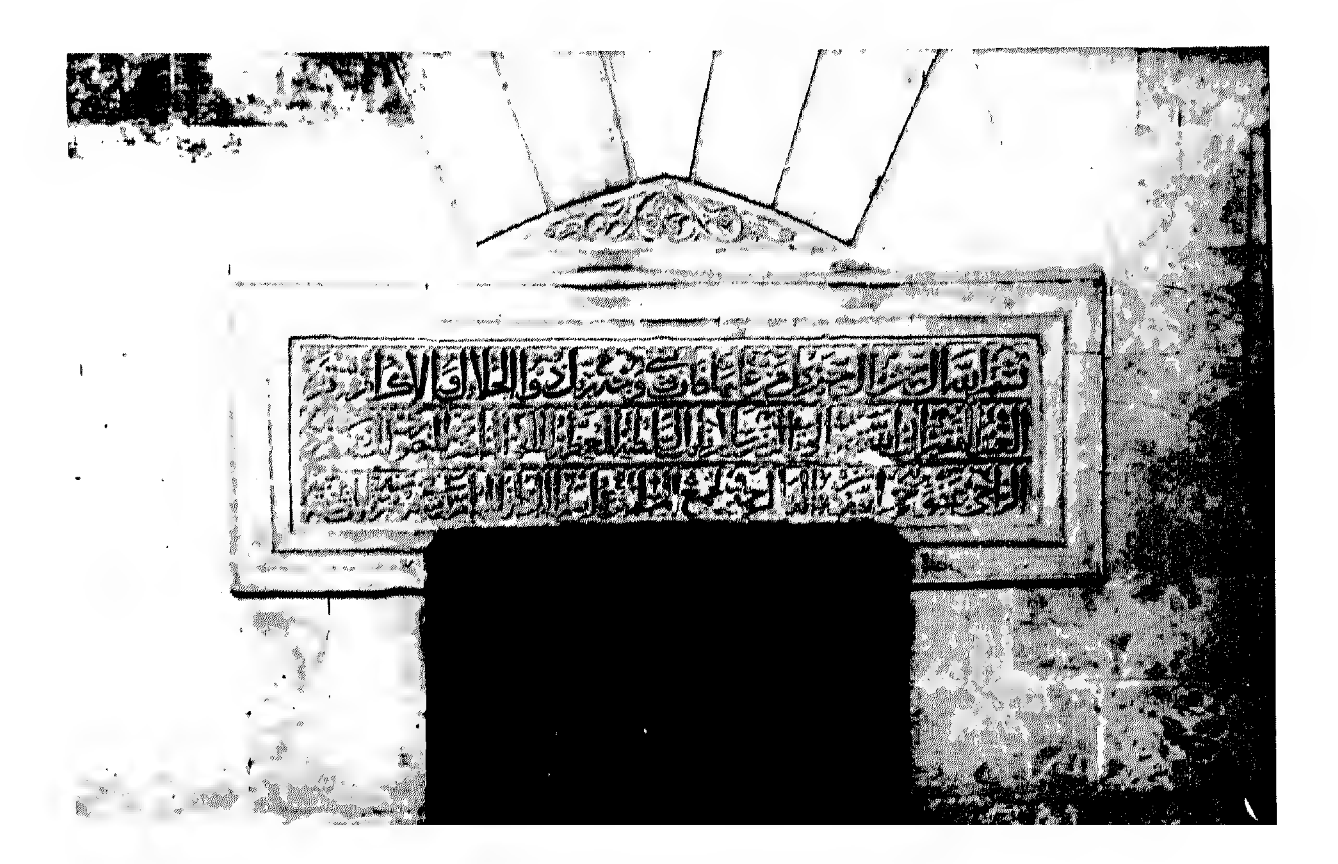
لوحة ٩٤ - الواجهة القبلية للمدرسة

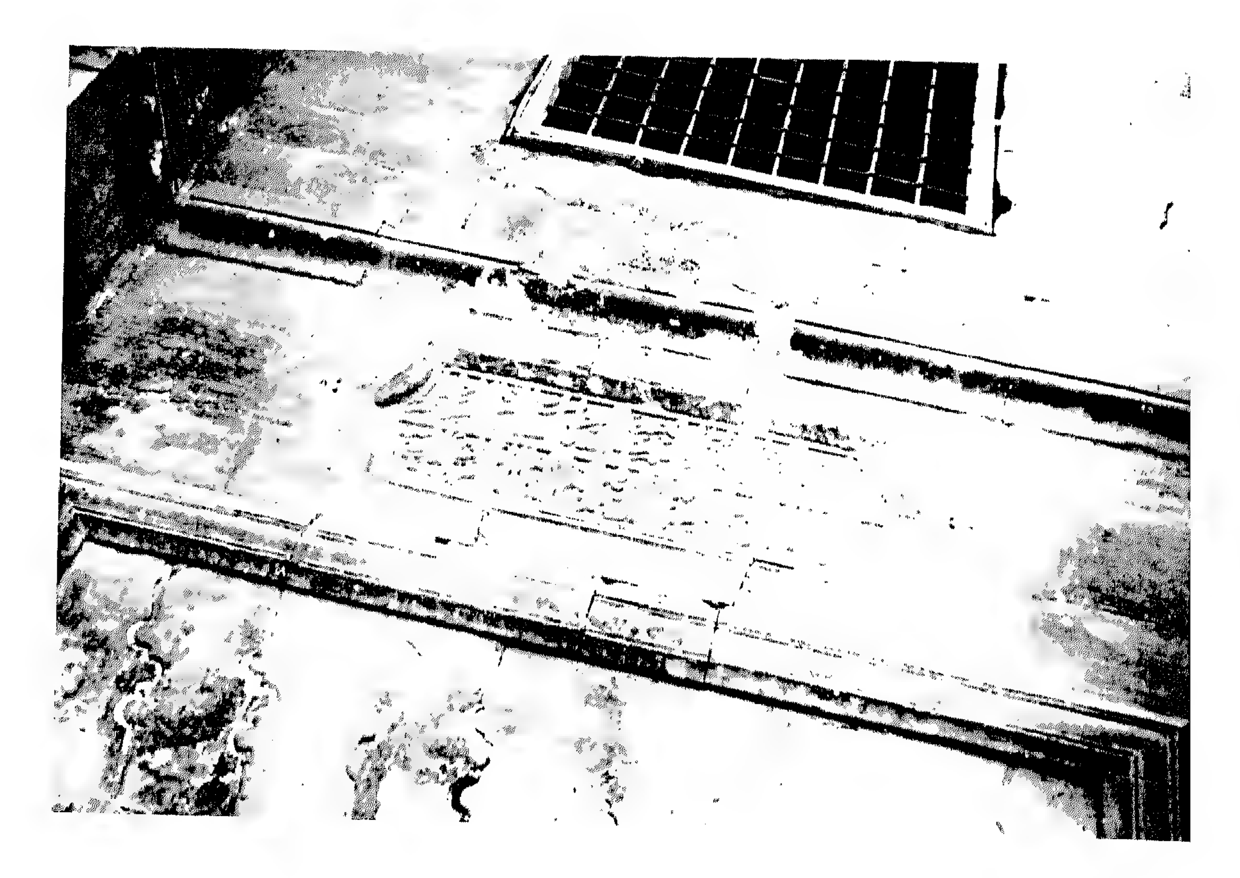


لوحة ٩٥ – المدخل الثانى لمدرسة سلار وسنجر
المطل على حارة (قلعة الكبش)



لوحة ٩٦ – مدخل ضريح سلار وقد نقش عليه النص التذكارى





لوحة ٩٧ — عتب المدخل الرئيسى ويعلوه لوحة تذكارية تبين تاريخ البناء سنة ٧٠٣ هـ

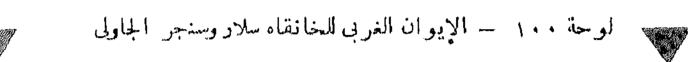


لوحة ٩٨ — الايوان الشرقى لخانقاه سلار وسنجر الجاولى



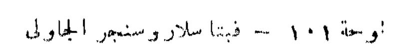


لوحة ٩٩ — الايوان القبلي لخانقاه سلار وسنجر الجاولي

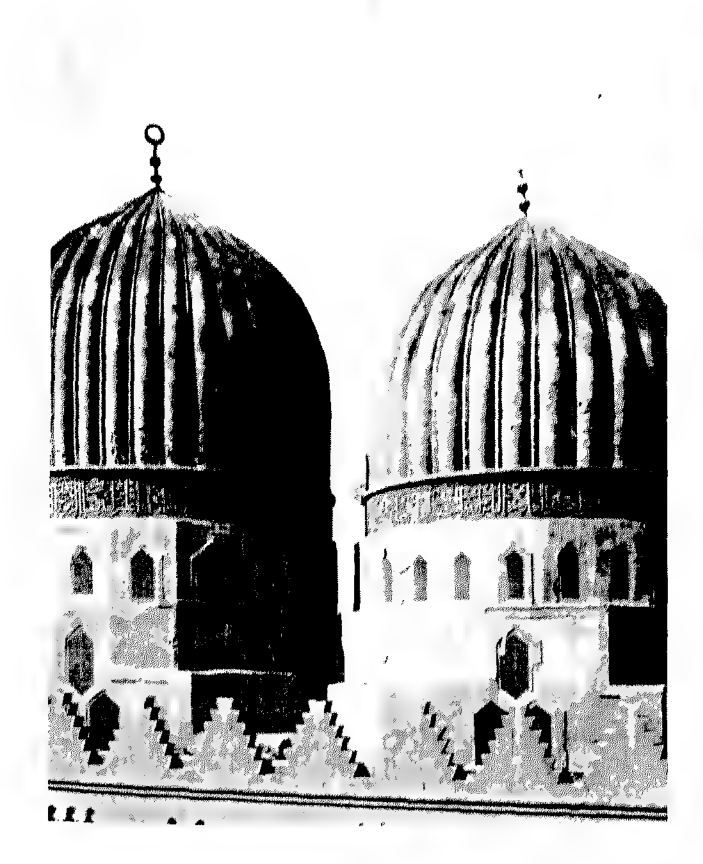


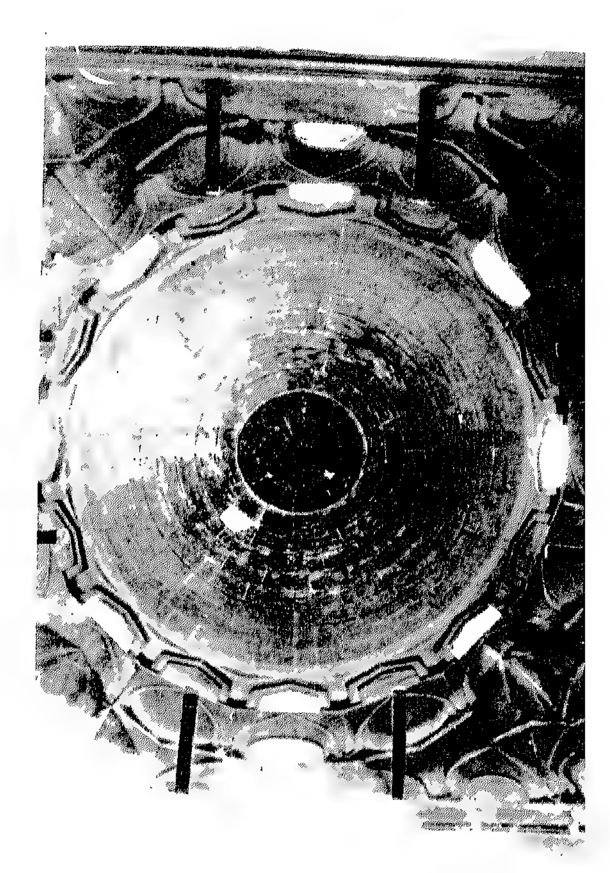
لوحة ١٠٠ — الإيوان الغربي للخانقاه سلار وسنجر الجاولي



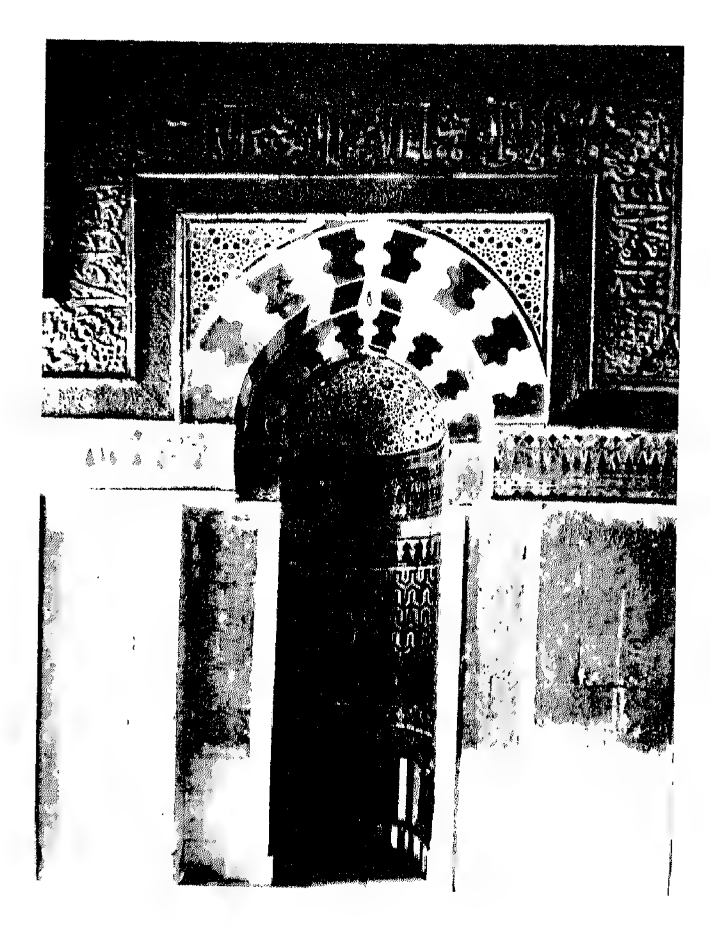


لوحة ١٠١ — قبتا سلار وسنجر الجاولي





لوحة ١٠٢ – داخل قبة ضريح الجاولى

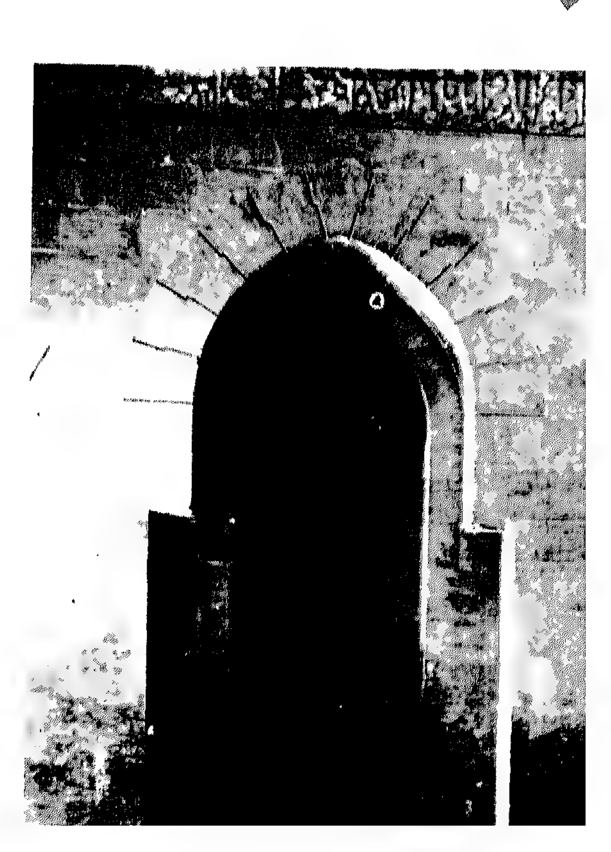


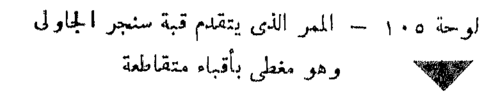
لوحة ١٠٣ – محراب ضريح الجاولى



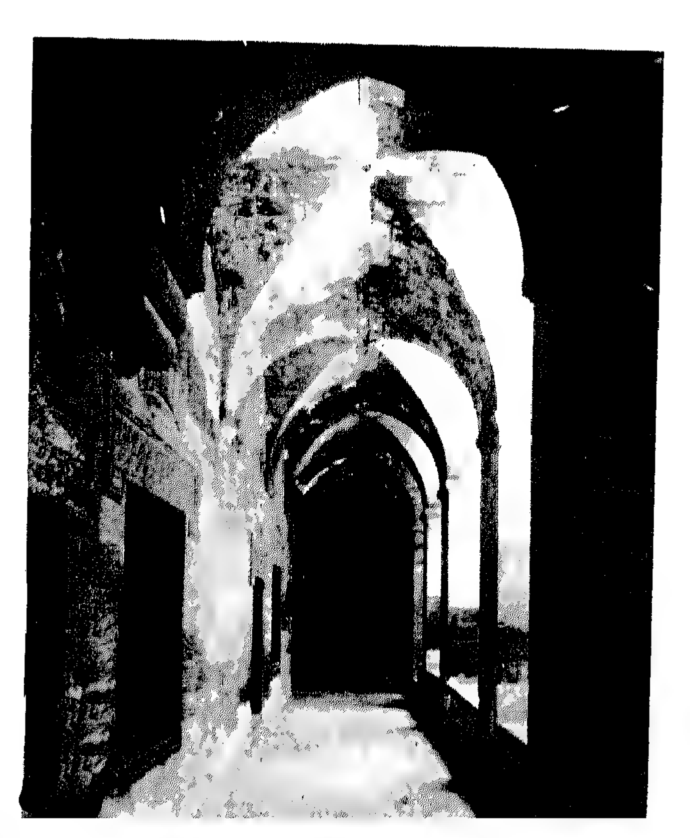


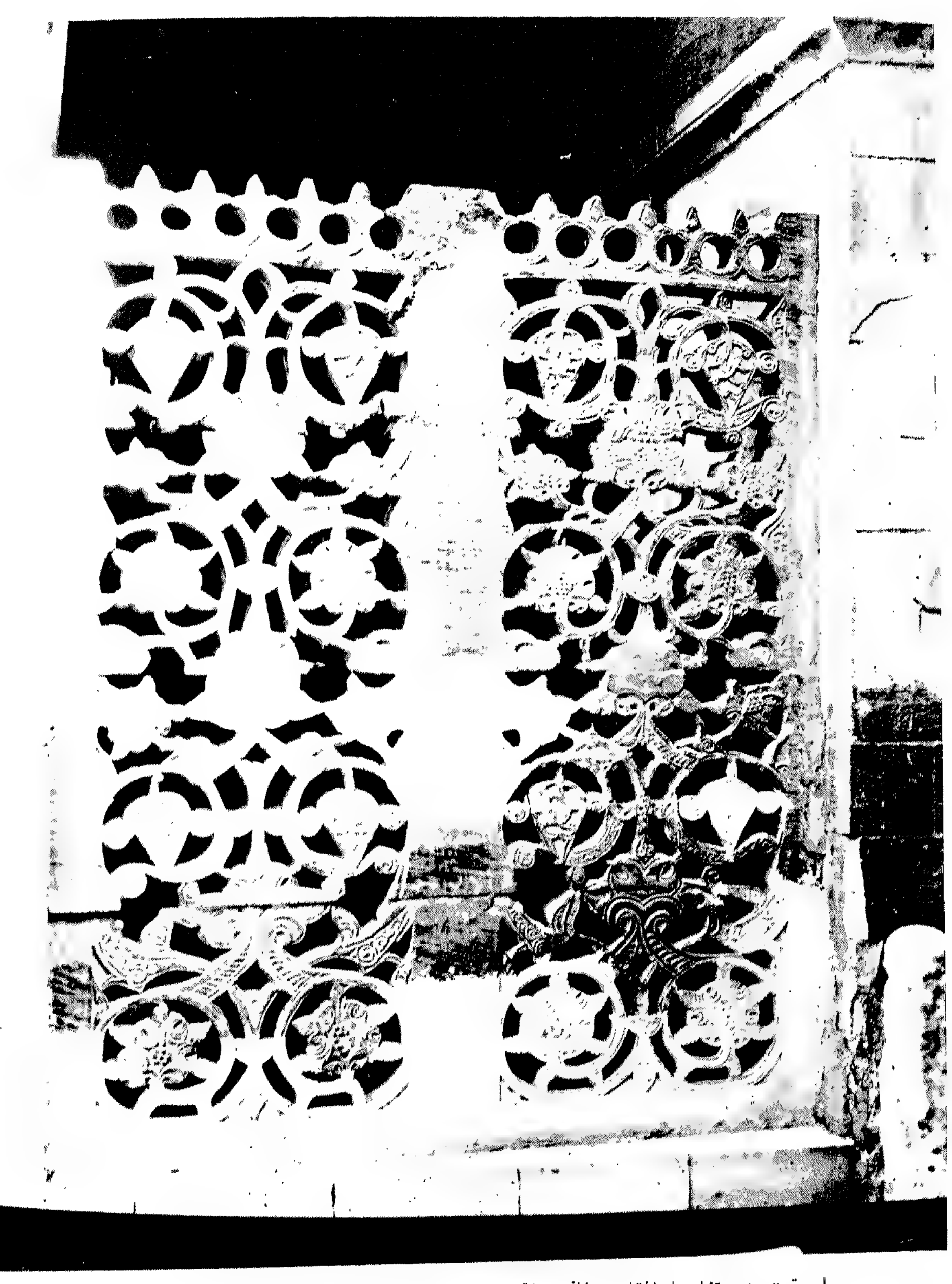
لوحة ١٠٤ – محراب قبة سلار





لوحة ١٠٥ – الممر الذى يتقدم قبة سنجر الجاولى
وهو مغطى بأقباء متقاطعة

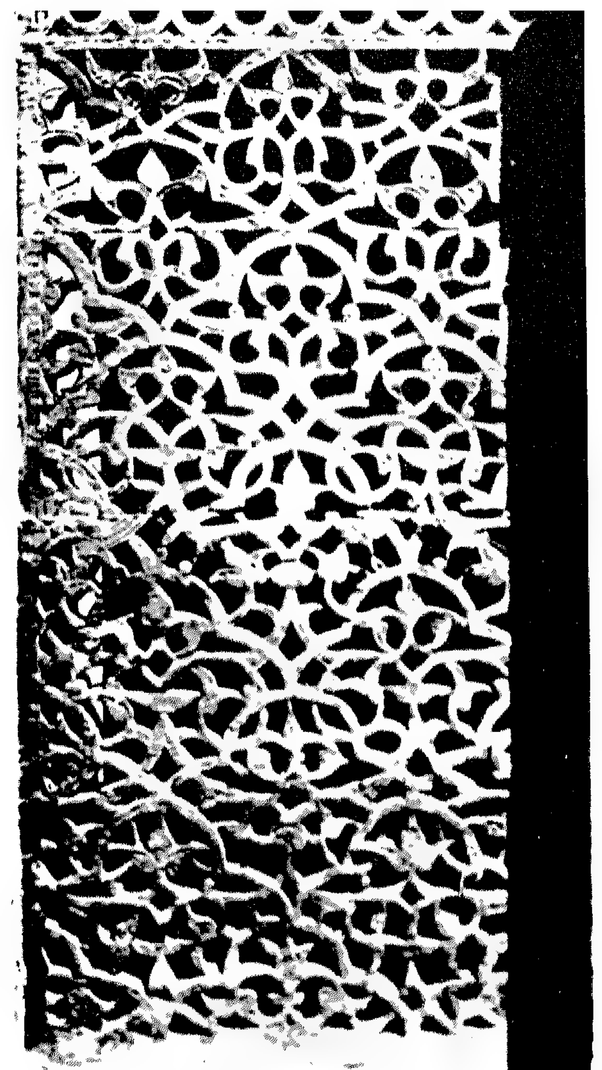




لوحة ١٠٦ – تفاصيل المقاصير المخرمة التي تغطي عقود الممر الذي يتقدم قبة سلار وسنجر الجاولي



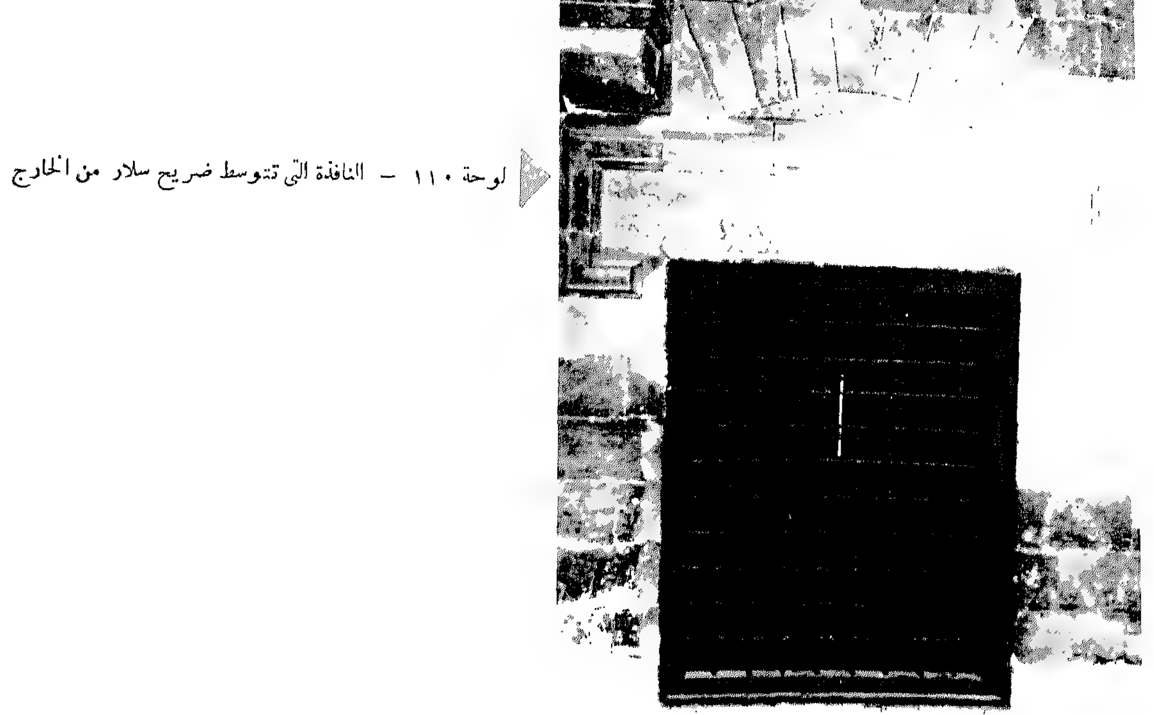
لوحة ١٠٧ — تفاصيل المقاصير الحجرية التى تغطى العقود والفتحات



لوحة ١٠٨ – زخارف حجرية مخرمة تملأ النوافذ

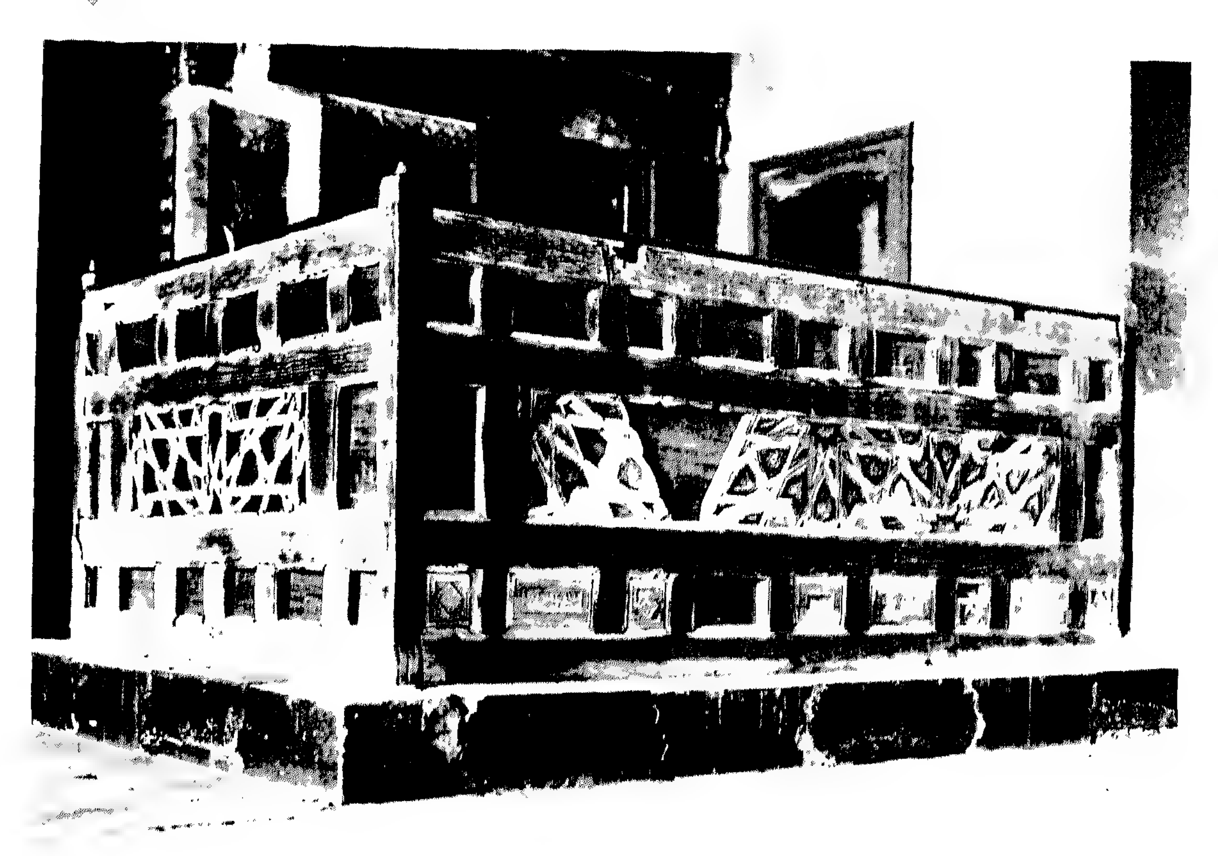


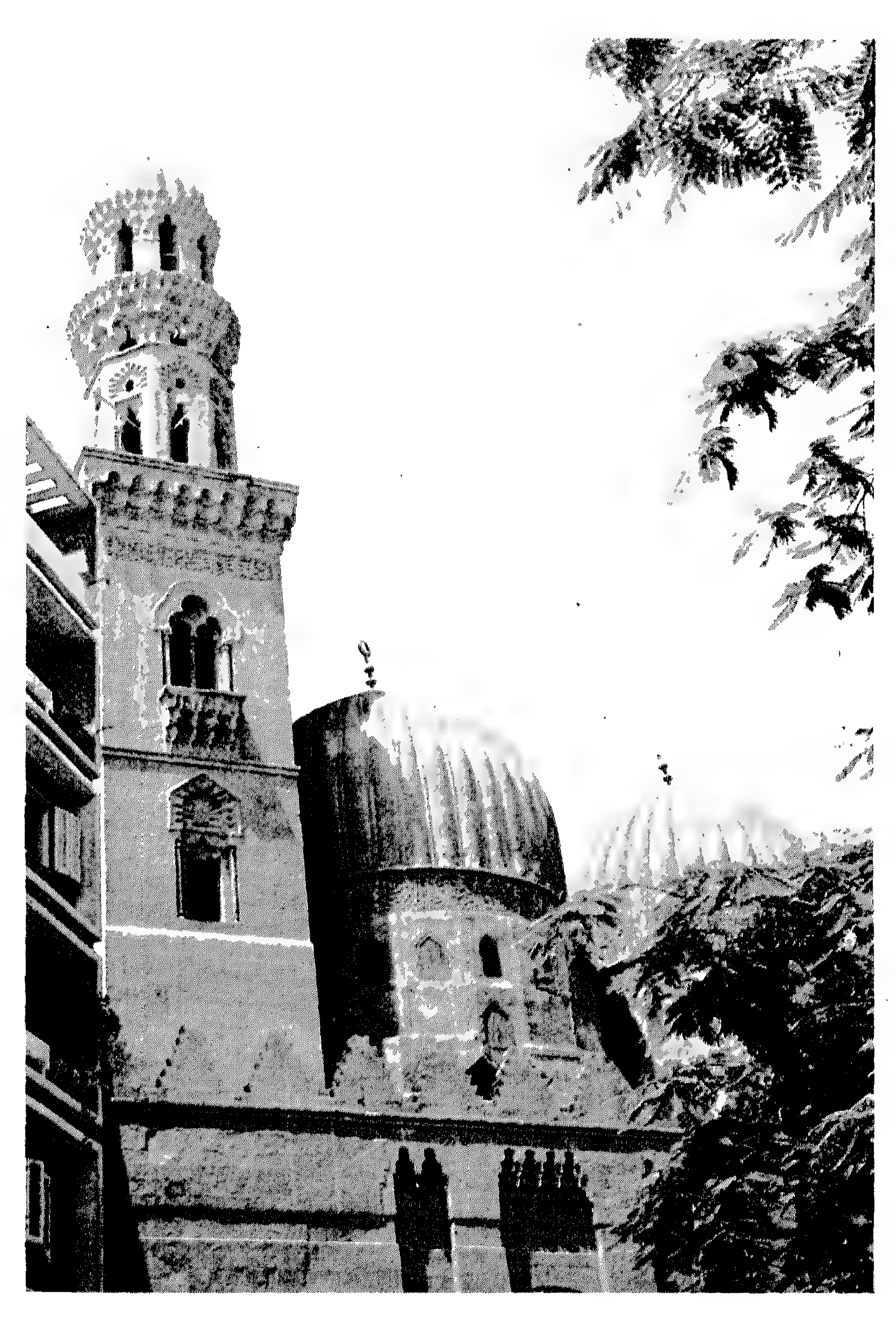
لوحة ١٠٩ – مشكاة الأمير سيف الدين سلار



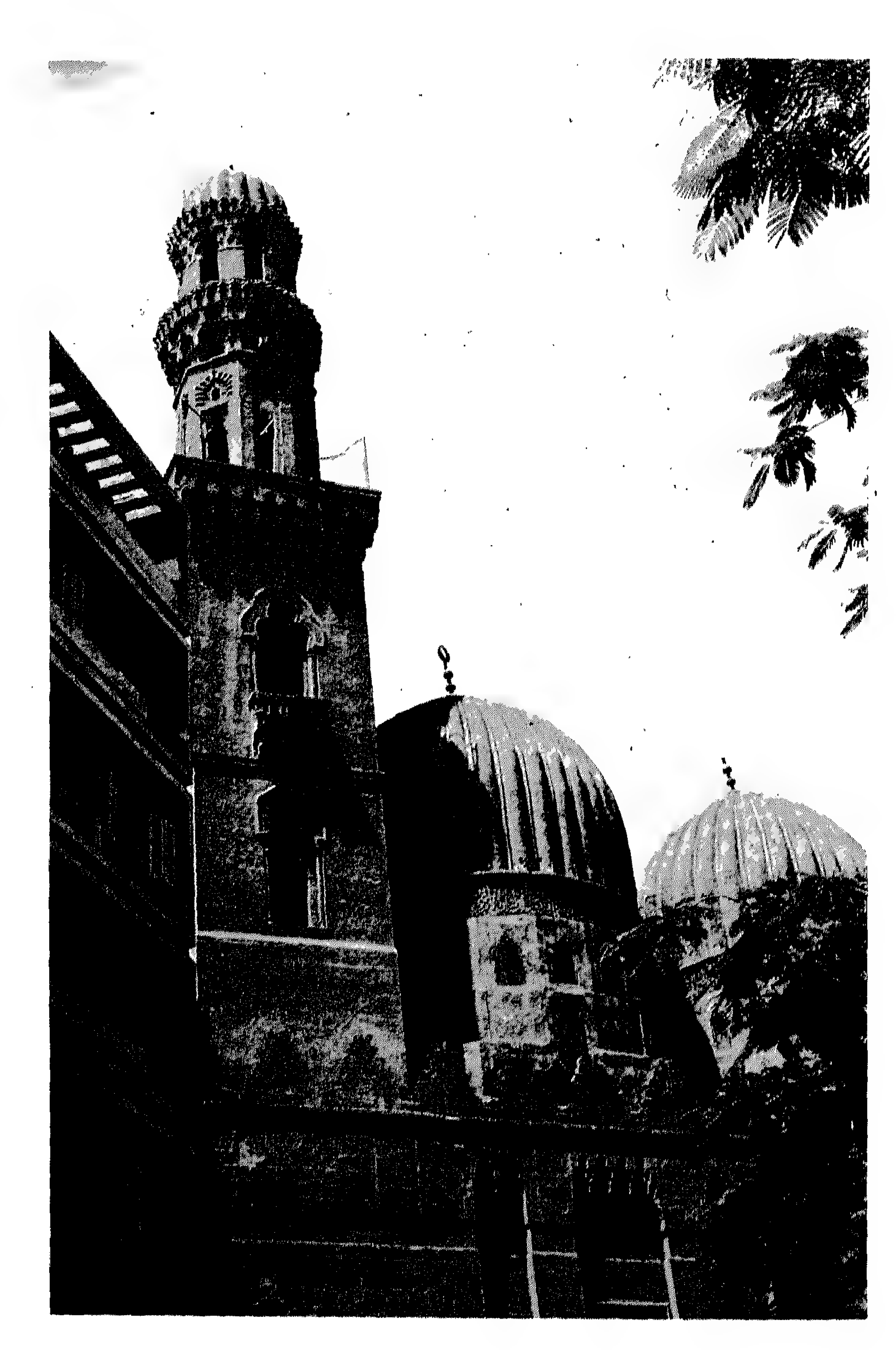
لوحة ١١٠ – النافذة التي تتوسط ضريح سلار من الخارج

لوحة ١١١ – تابوت خشبي خاص بضريح سلار وسنجر الجاولي

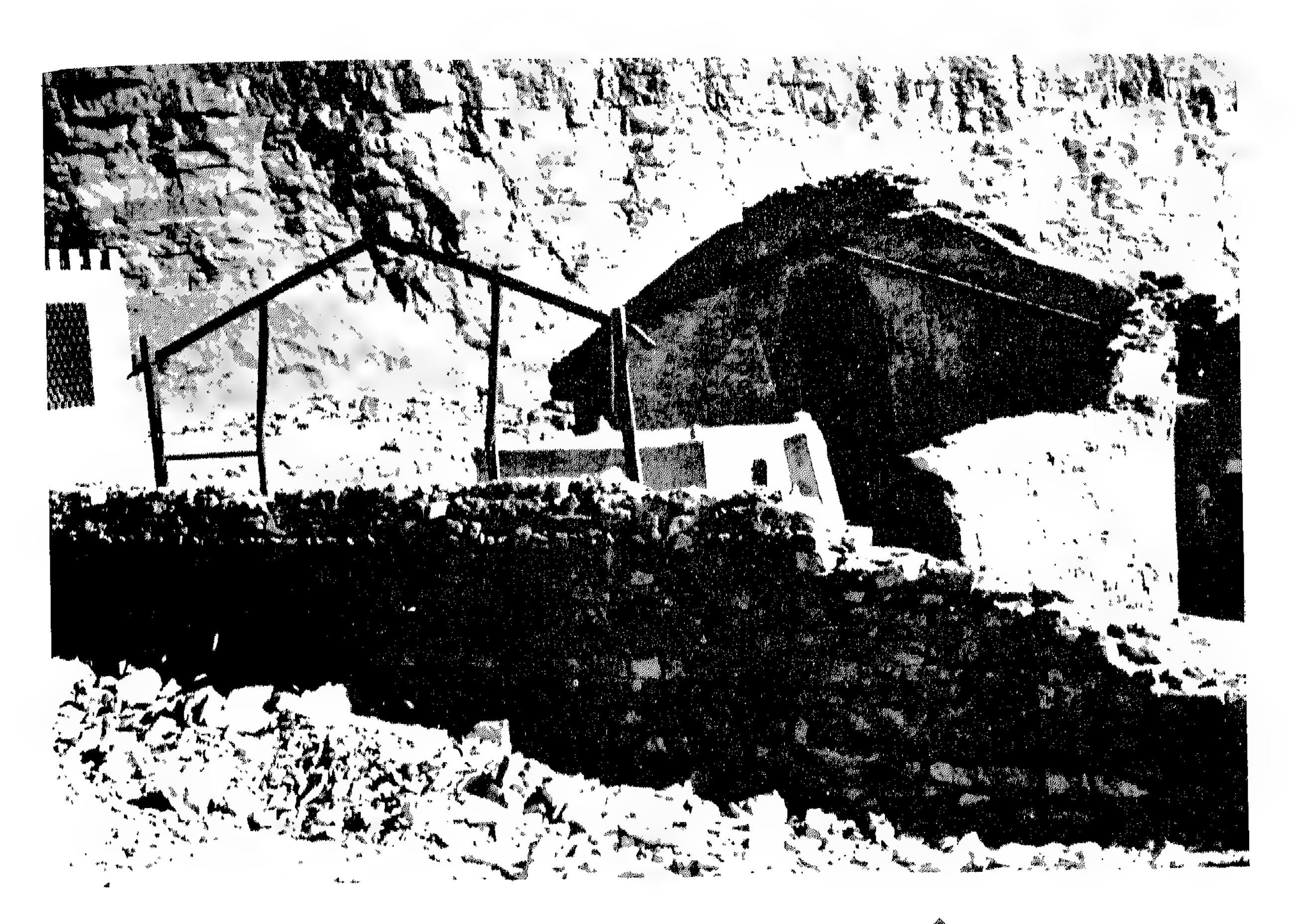




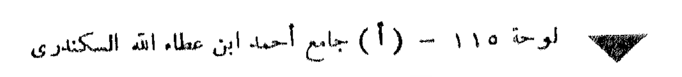
لوحة ١١٢ – منظر خارجي لقبتا سلار وسنجر الجاولي



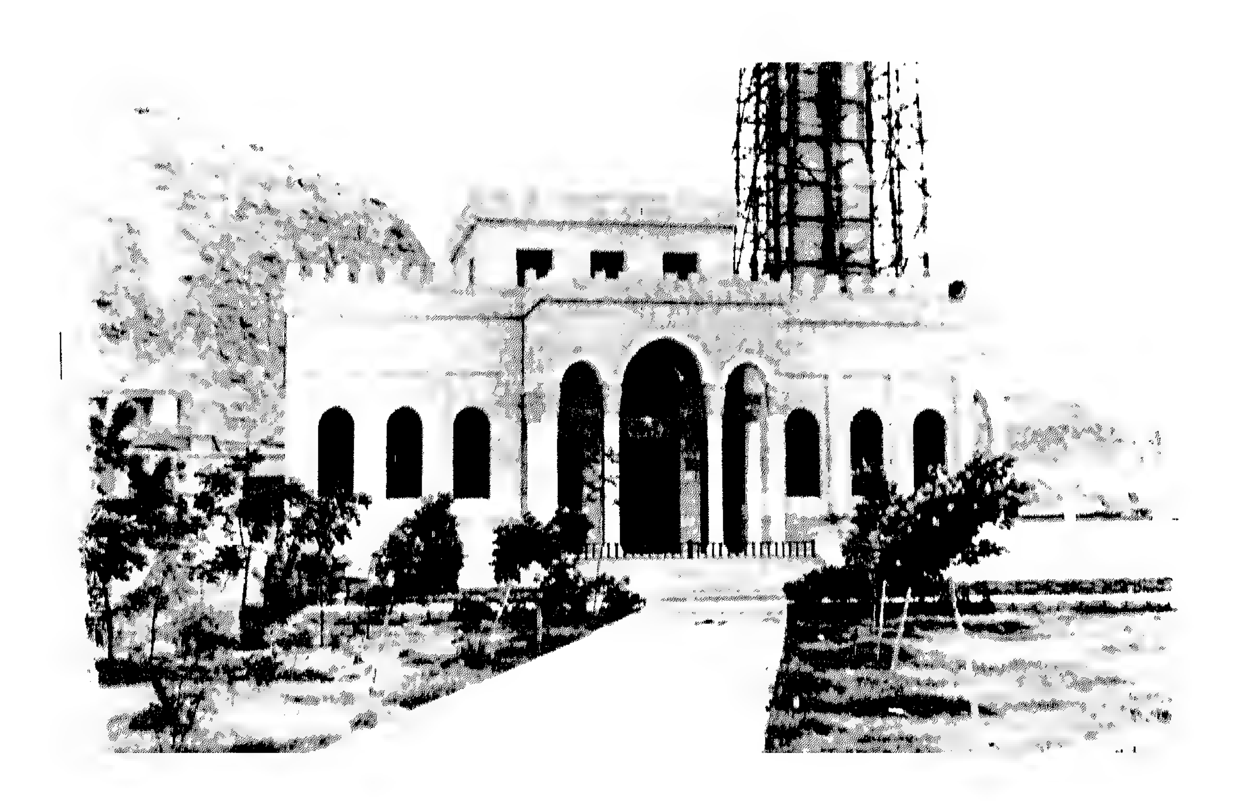
لوحة ١١٣ — منظر مئذنة مدرسة سلار وسنجر الجاولى

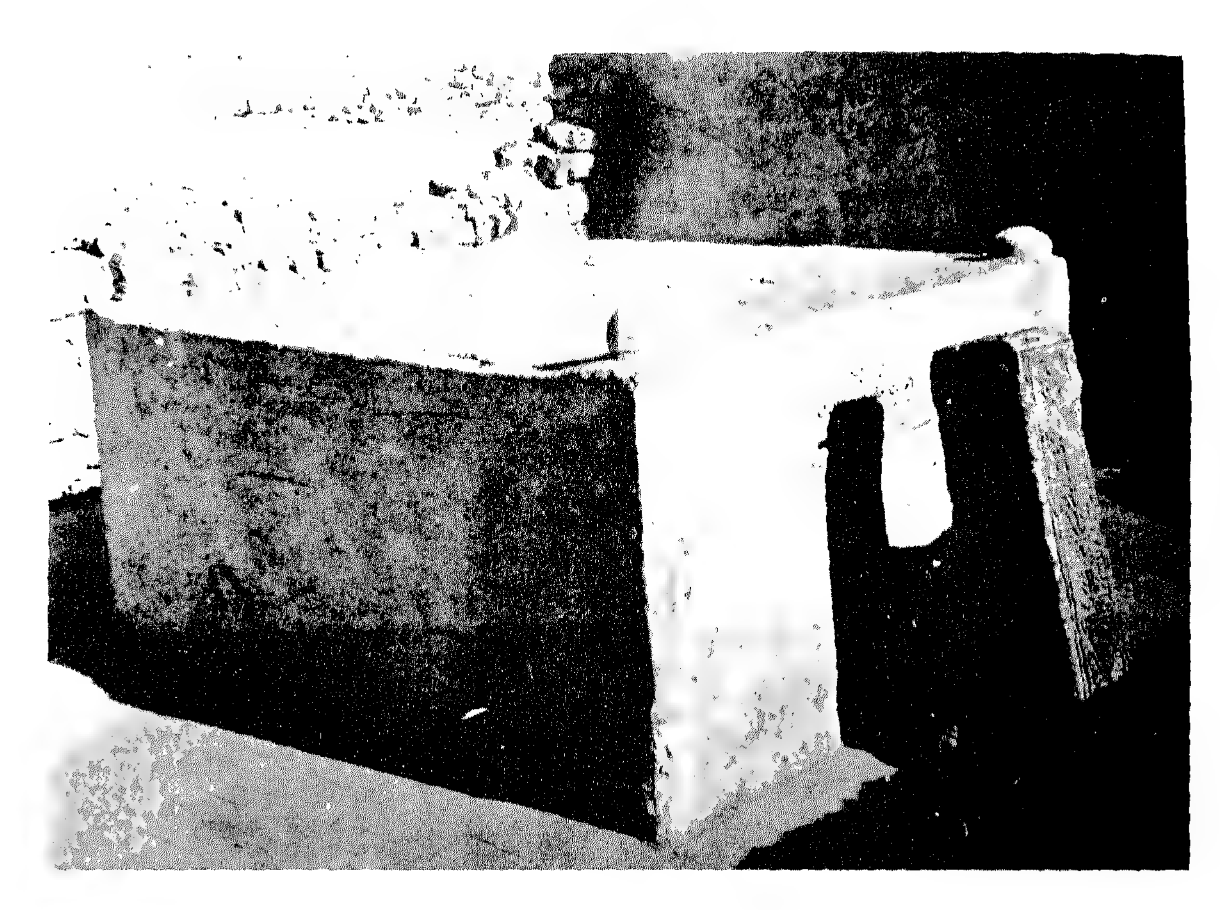


لوحة ١١٤ — ضريح أحمد بن عطاء الله السكندري بصحراء البساتين



لوحة ١١٥ — (أ) جامع أحمد ابن عطاء الله السكندري

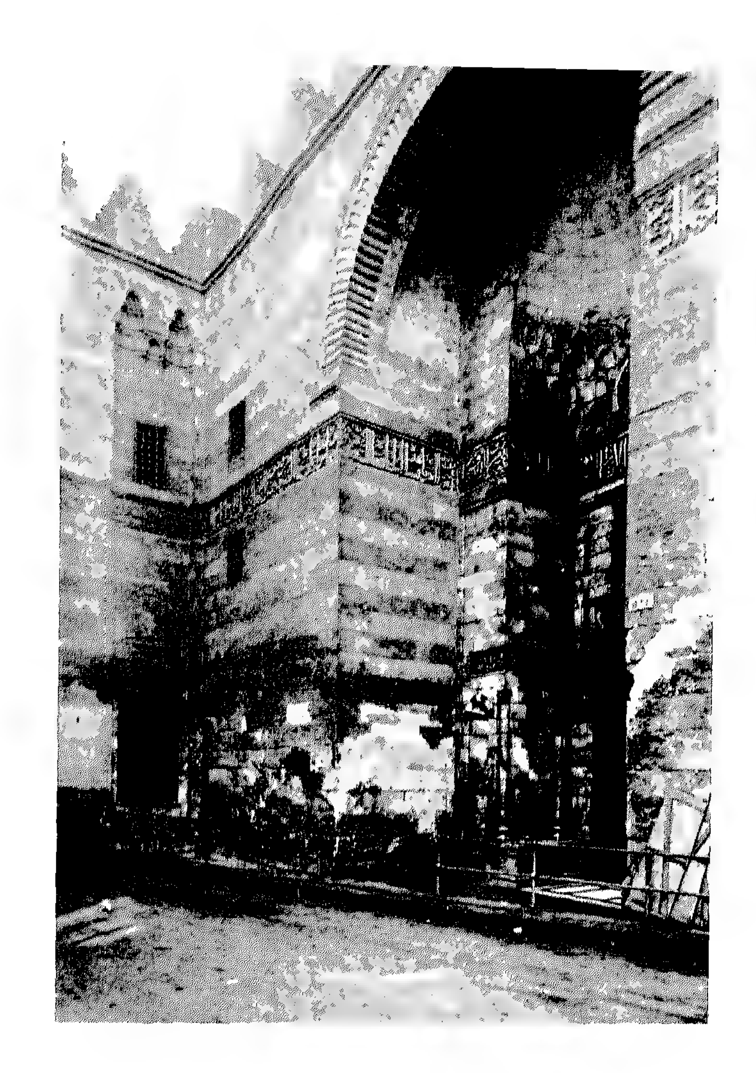




لوحة ١١٦ – تابوت ابن عطاء الله السكندرى

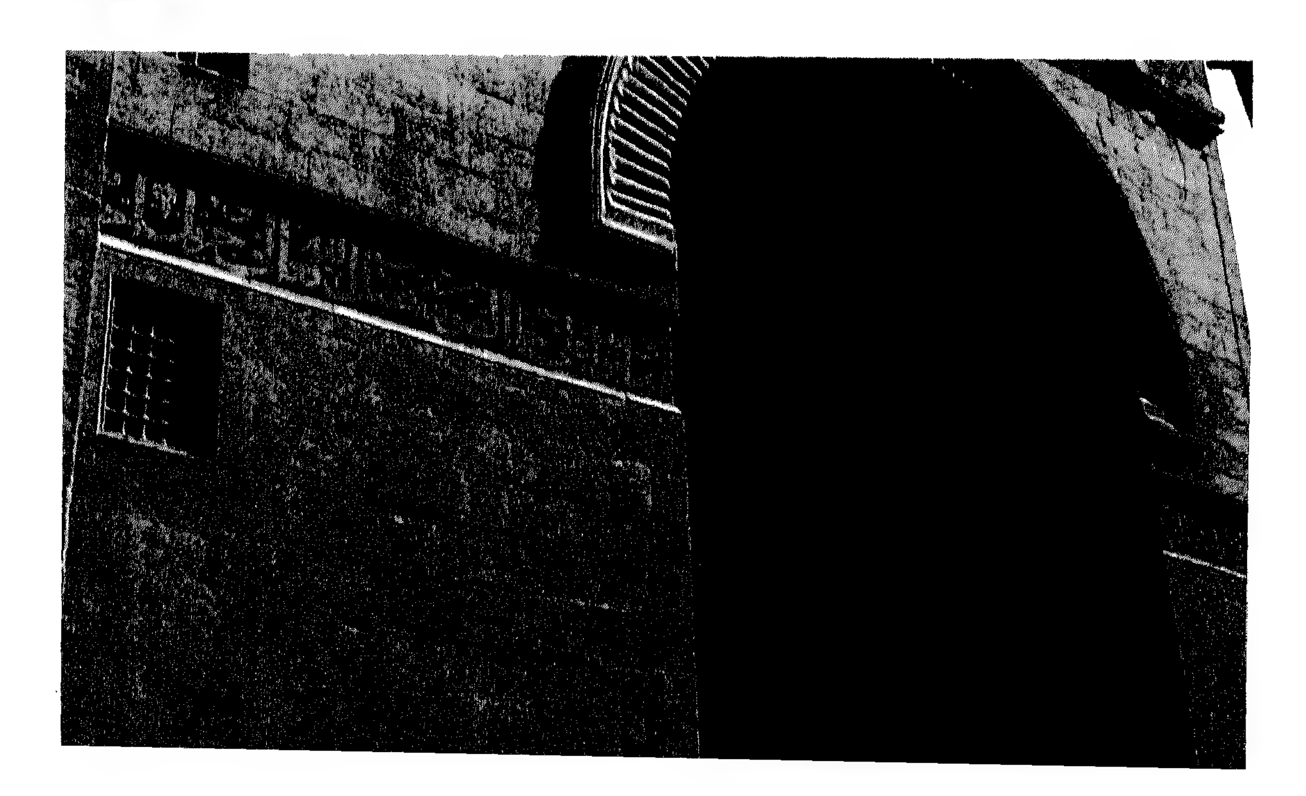


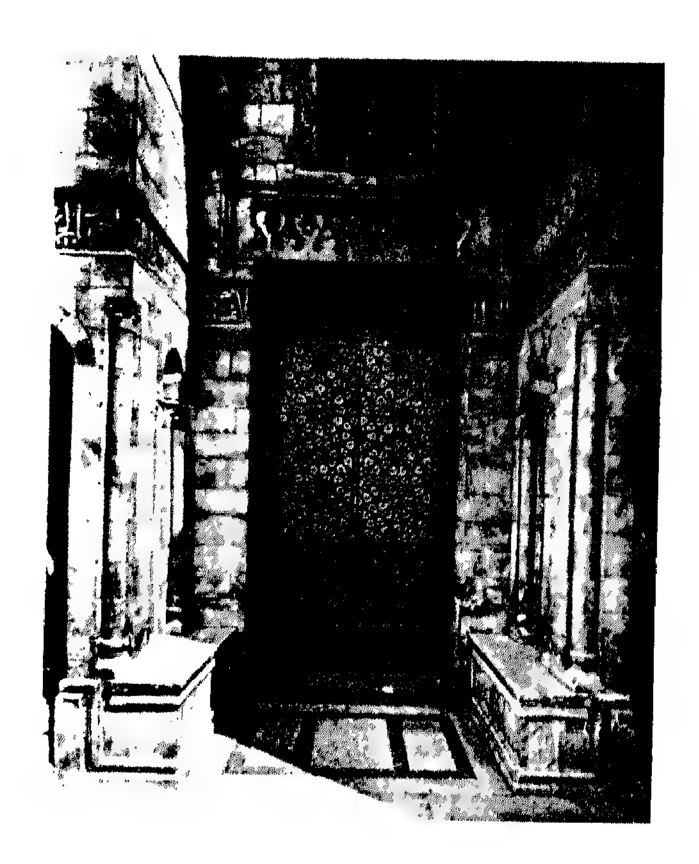
لوحة ١١٧ – جزء من الواجهة الرئيسية لخانقاه بيبرس الجاشنكير



لوحة ١١٨ – المدخل الرئيسى لخانقاه بيبرس الجاشنكير

لوحة ١١٩ – شريط الكتابة على الواجهة

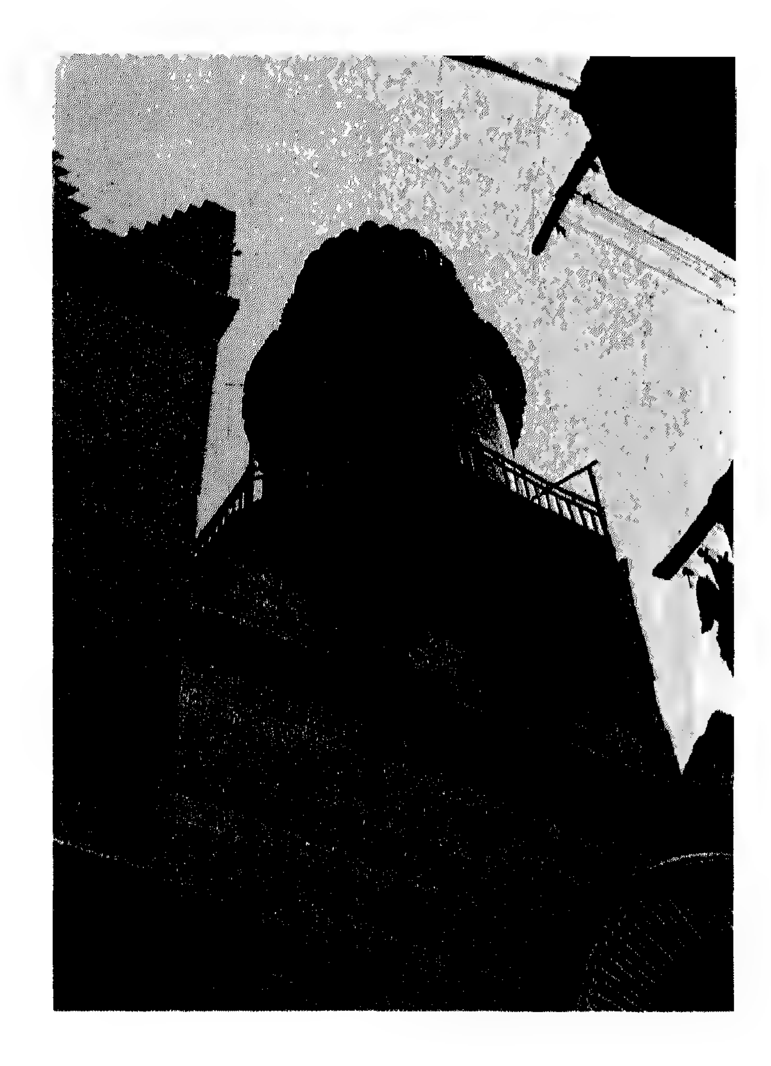




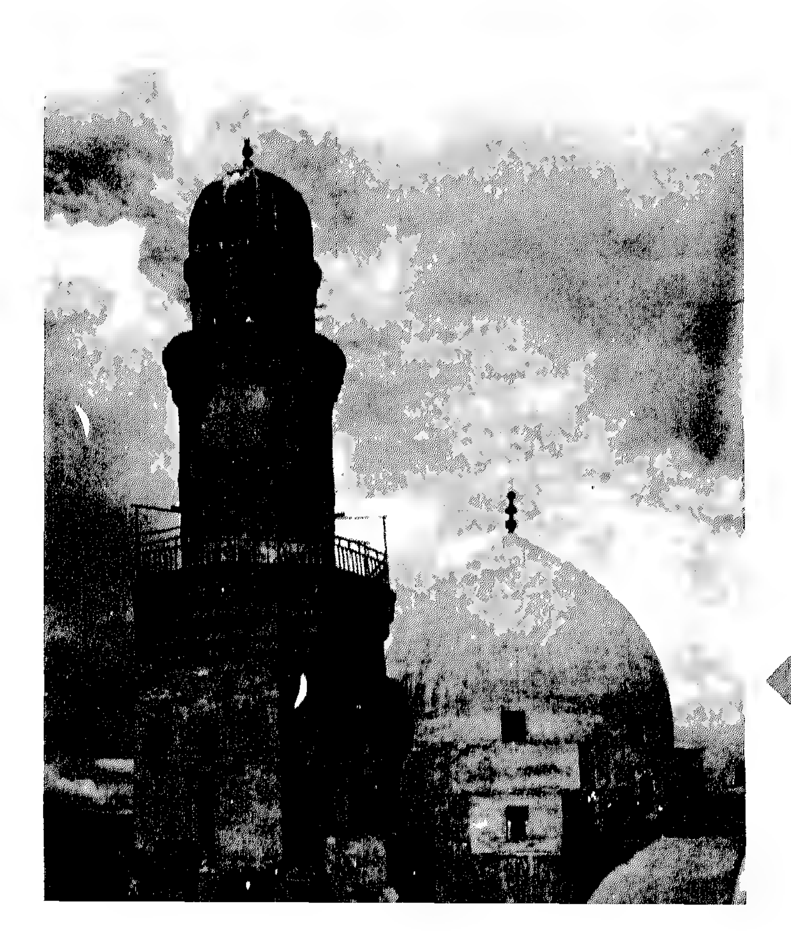
لوحة ١٢٠ – باب الخانقاه الخشبى المصفح والمزخرف بالطبق النجمى المكفت بالفضة و الذهب



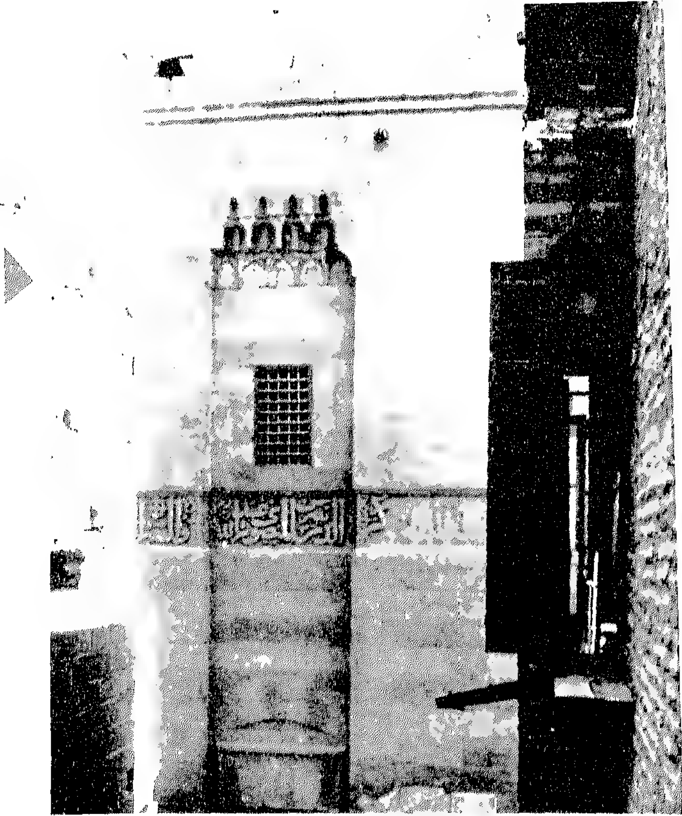
لوحة ١٢١ – عقد الباب الرئيسى الذى تعلوه المئذنة



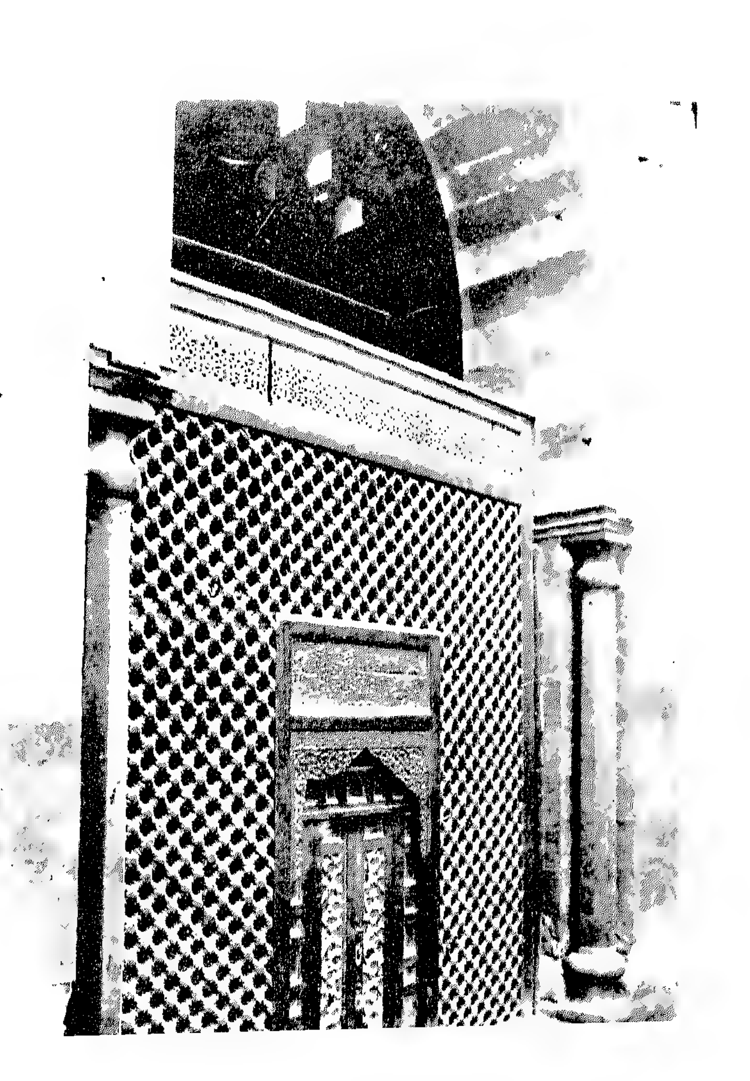
لوحة ١٢٢ — المئذنة تعلو الواجهة الرئيسية



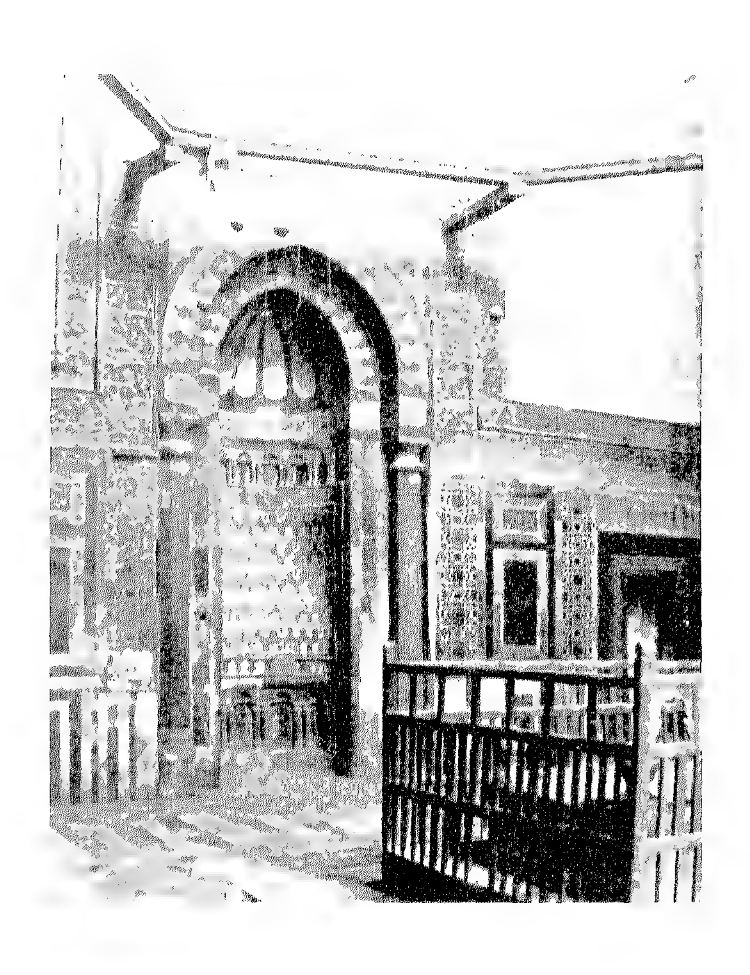
لوحة ١٢٣ — مئذنة وقبة خانقاه بيبرس الجاشنكير



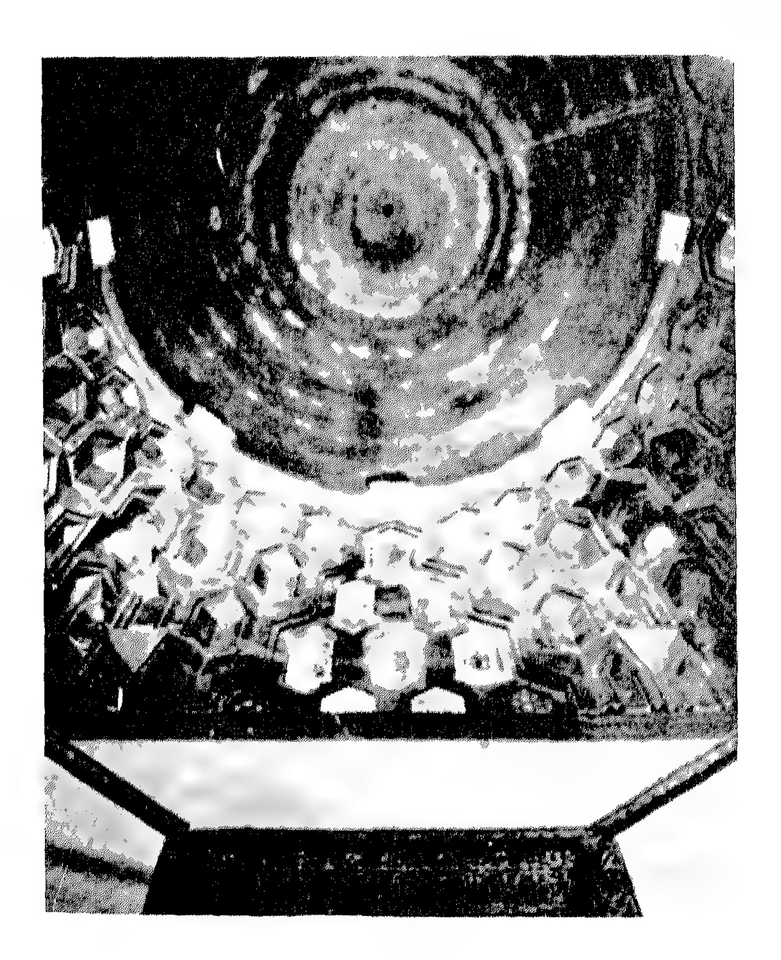
لوحة ١٢٤ — واجهة خانقاه بيبرس الجاشنكير الغربية



لوحة ١٢٥ — مقصورة خشبية تتقدم باب ضريح بيبرس الجاشنكير



لوحة ١٢٦ — محراب قبة بيبرس جاشنكير
الملحقة بالخانقاه



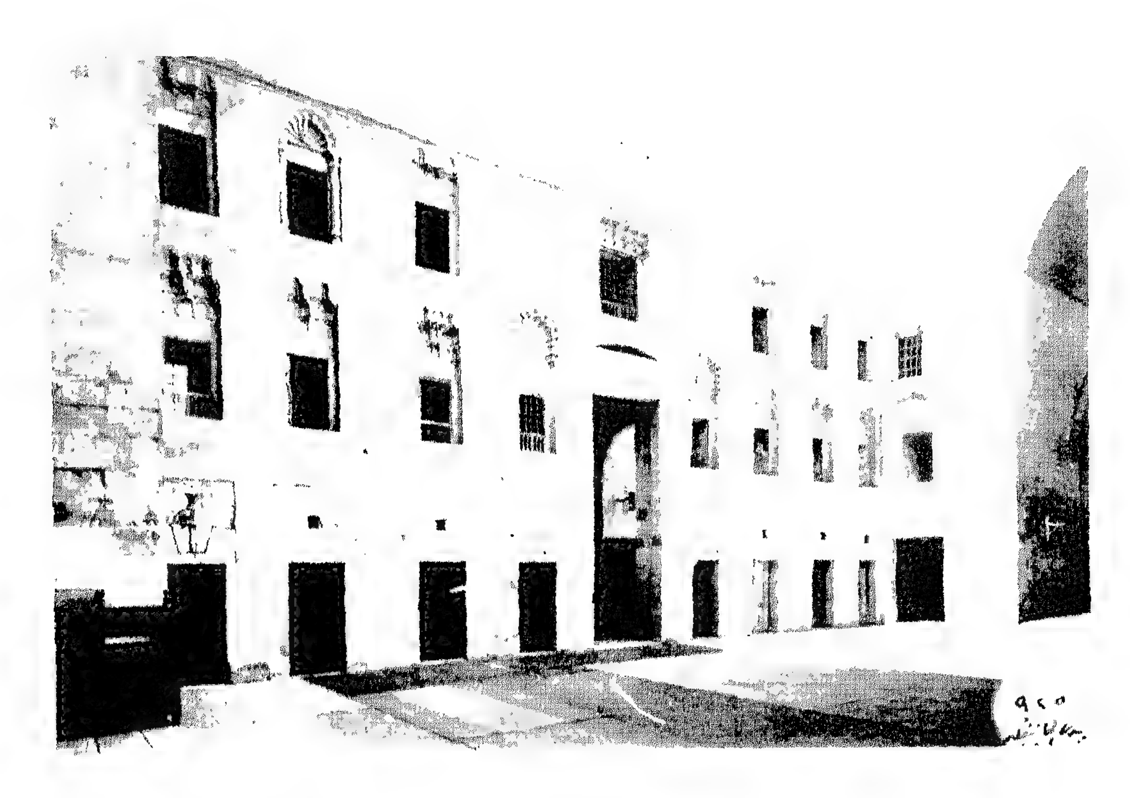
لوحة ١٢٧ — قبة بيبرس جاشنكير من الداخل



لوحة ١٢٨ — أرض قبة بيبرس جاشنكير المكسى بالرخام الملون



لوحة ١٢٩ — الإيوان الغربى للخانقاه



لوحة ١٣٠ – صحن الخانقاه وقد ظهر به أبواب الخلاوى



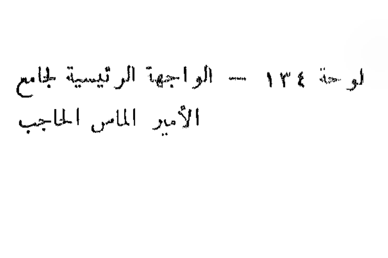
لوحة ١٣١ – المدخل الرئيسى للخانقاه

لوحة ١٣٢ — مئذنة الخانقاه

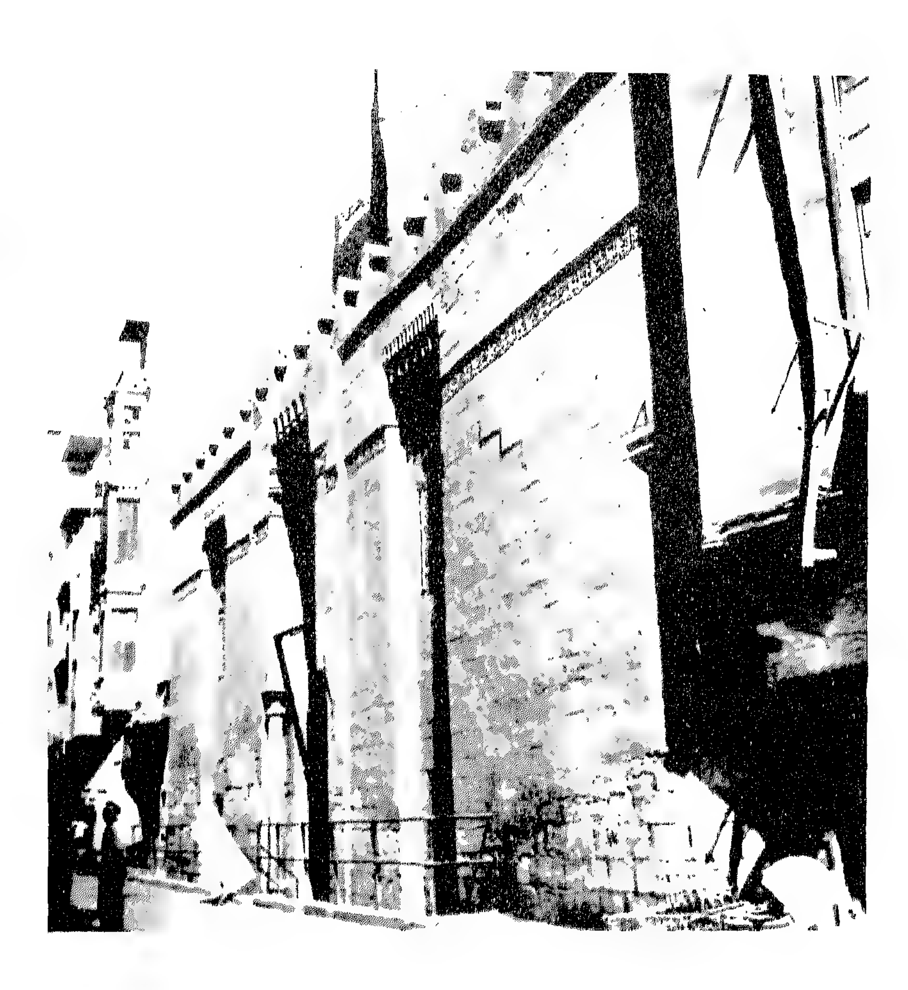


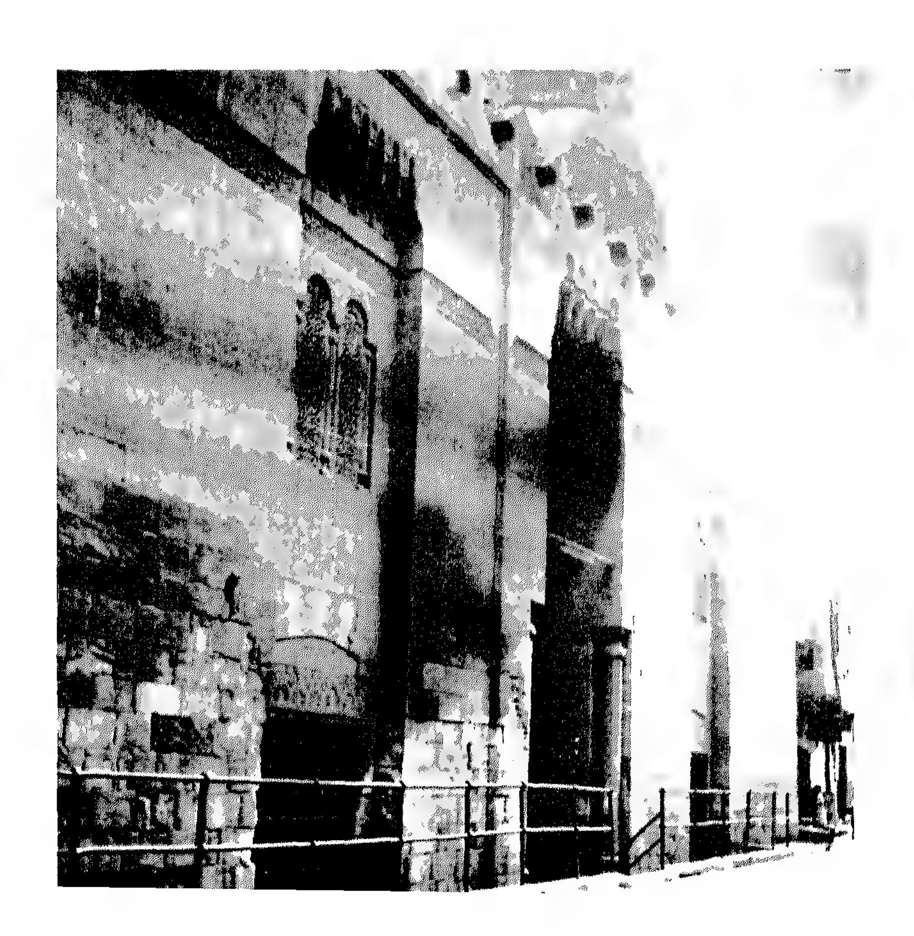


لوحة ١٣٣ — تفصيل للمئذنة



لوحة ١٣٤ — الواجهة الرئيسية لجامع
الأمير الماس الحاجب





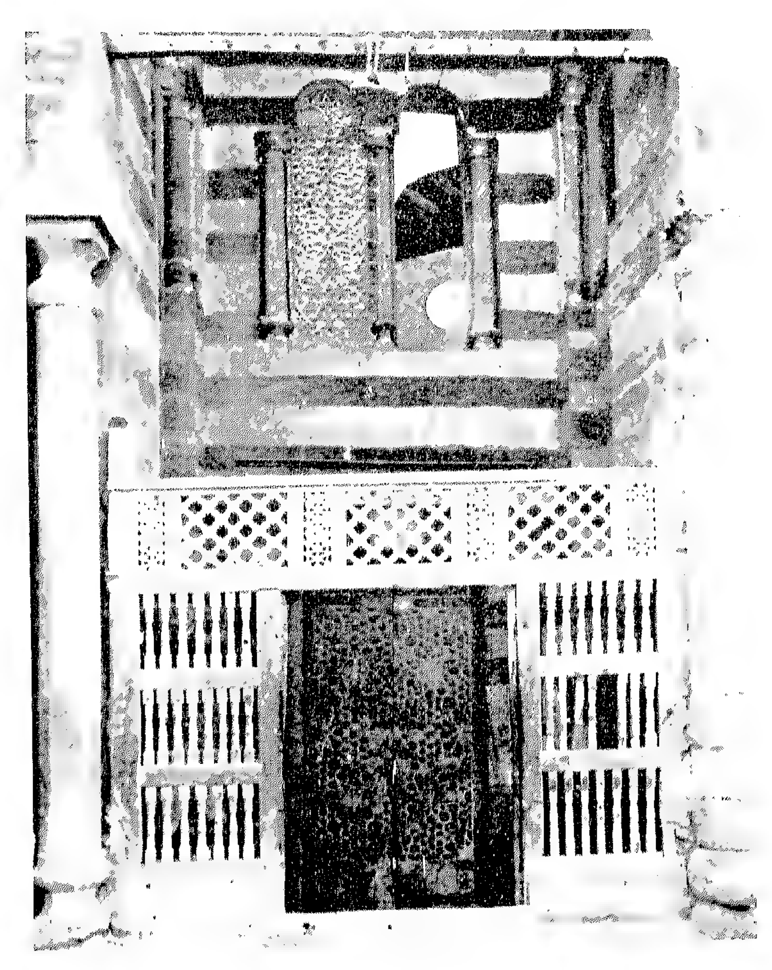
لوحة ١٣٥ —المدخل الرئيسي يتوسط الواجهة



لوحة ١٣٦ – تفاصيل المدخل الرئيسى



لوحة ١٣٧ – تفاصيل الواجهة الرئيسية

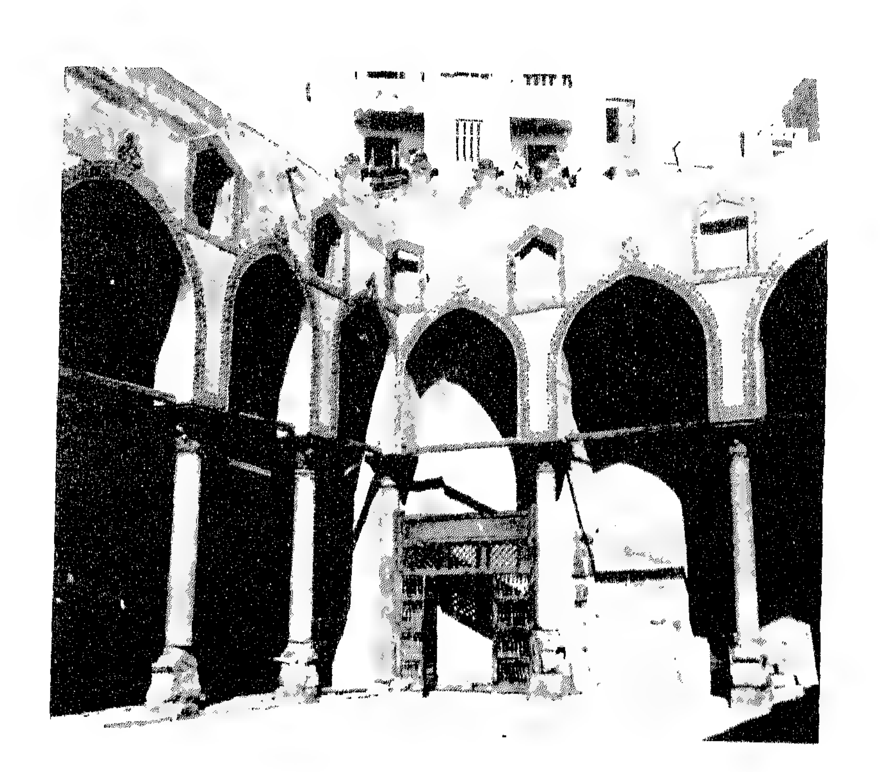


لوحة ١٣٨ — واجهة المسجد يتوسطها الباب المصفح تتقدمه المقصورة الخشبية

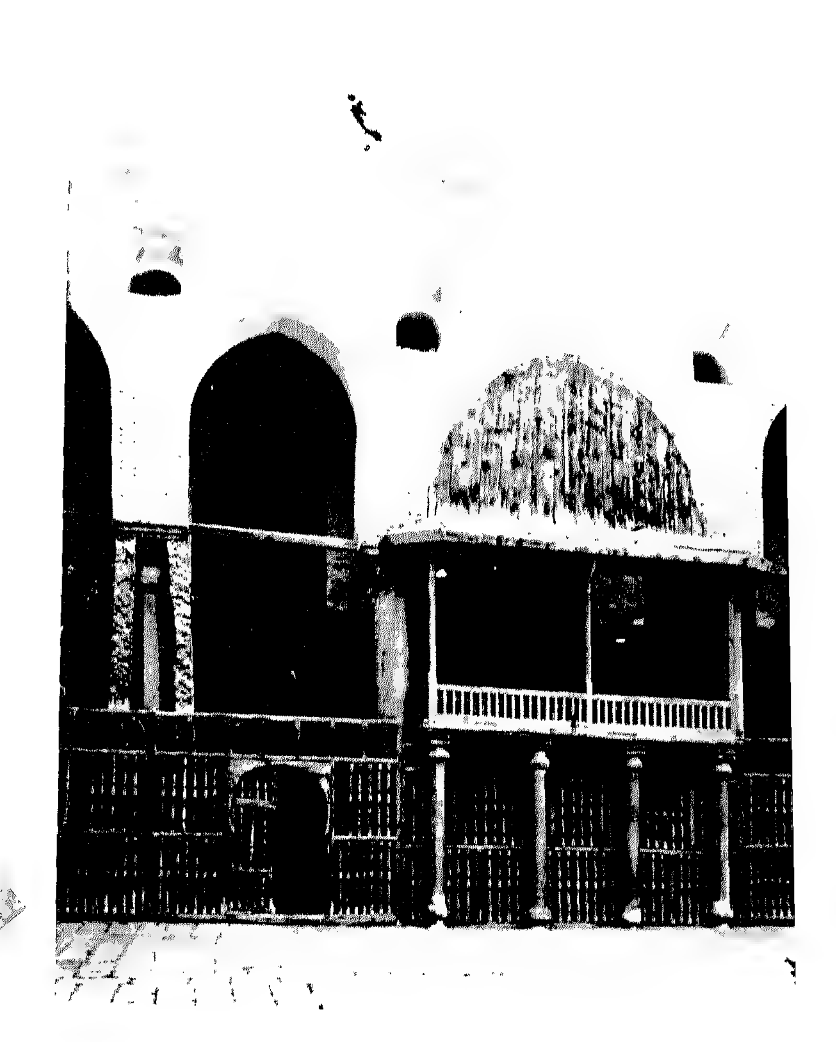




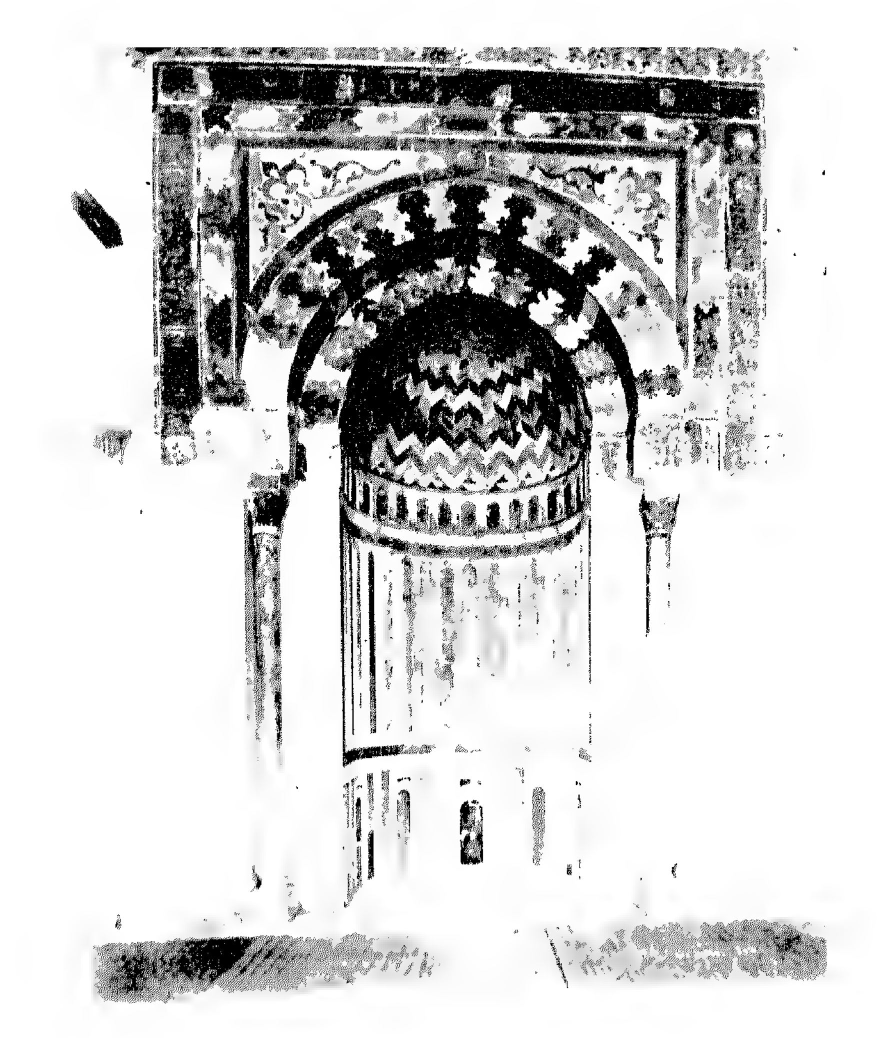
لوحة ١٣٩ — باب المسجد الخشبى المصفح



لوحة ١٤٠ — صحن المسجد



لوحة ١٤١ — واجهة إيوان القبلة
يتوسطه دكة المبلغ



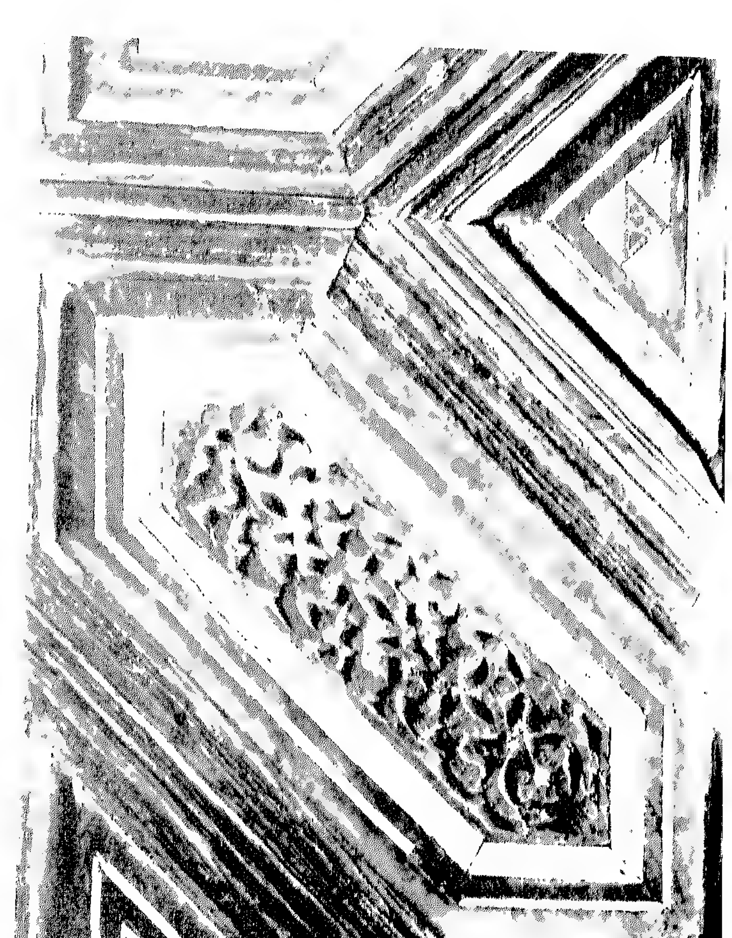
لوحة ١٤٢ — محراب المسجد



لوحة ١٤٣ — عقود الواجهة الغربية لصحن المسجد

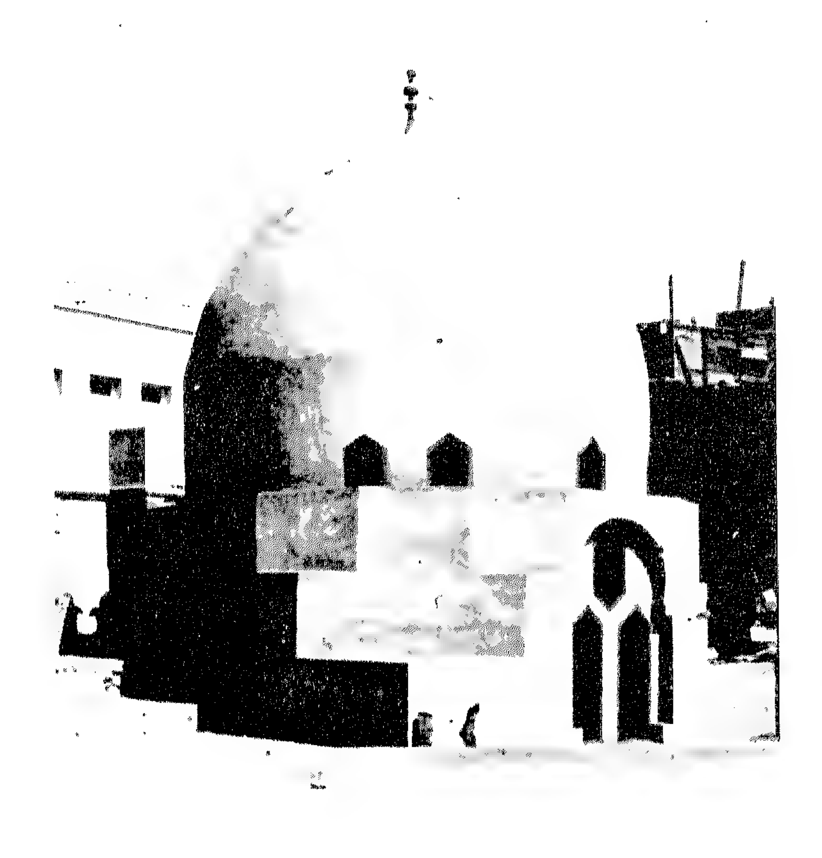


لوحة ١٤٤ - تاج عمود بمسجد الماس



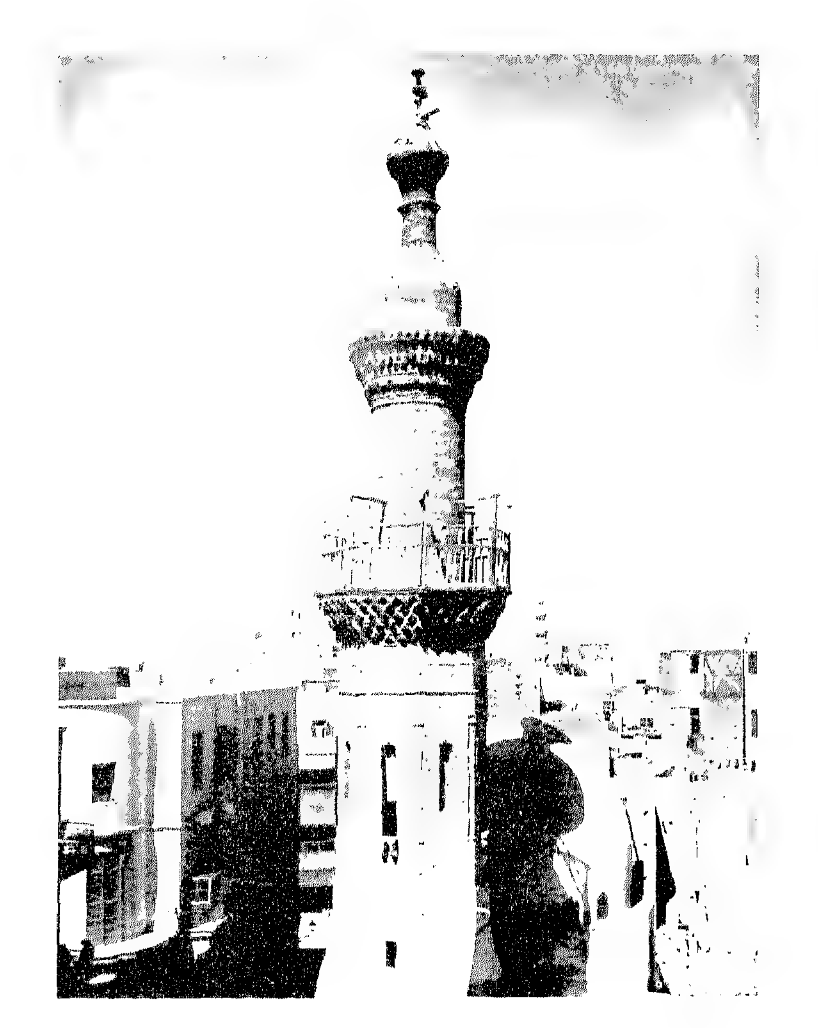
لوحة ١٤٥ — حشوات خشبية مجمعة بمسجد الماس

لوحة ١٤٦ — قبة الأمير الماس

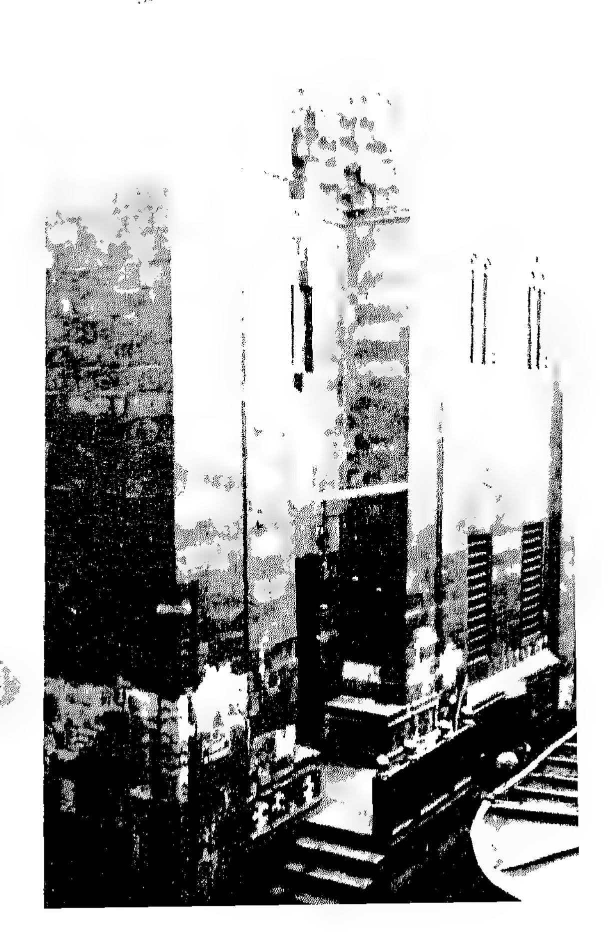




لوحة ١٤٧ — مئذنة جامع الماس



لوحة ١٤٨ – مئذنة وقبة الماس



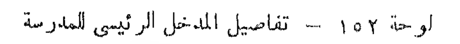
لوحة ١٤٩ – واجهة مدرسة جمال الدين الأستادار بالجمالية



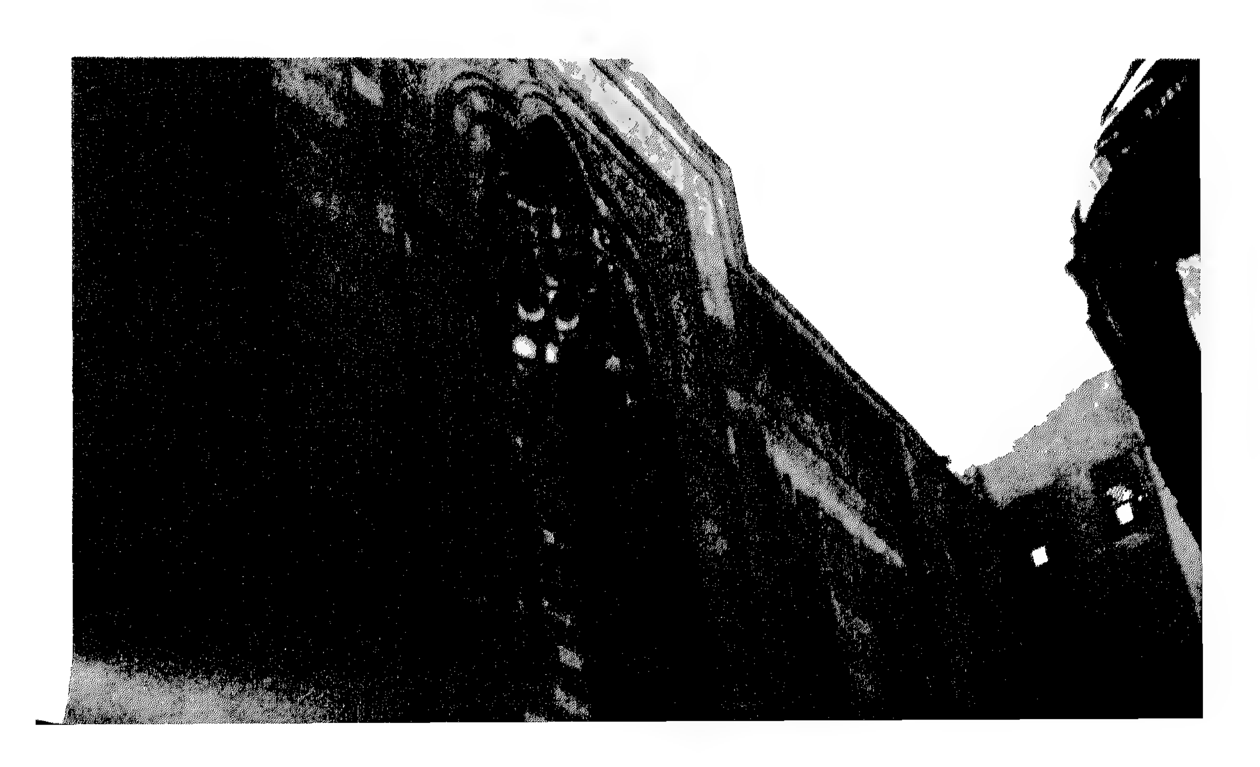
[illegible] الجنوبي الغربي لواجهة مدرسة جمال الدين

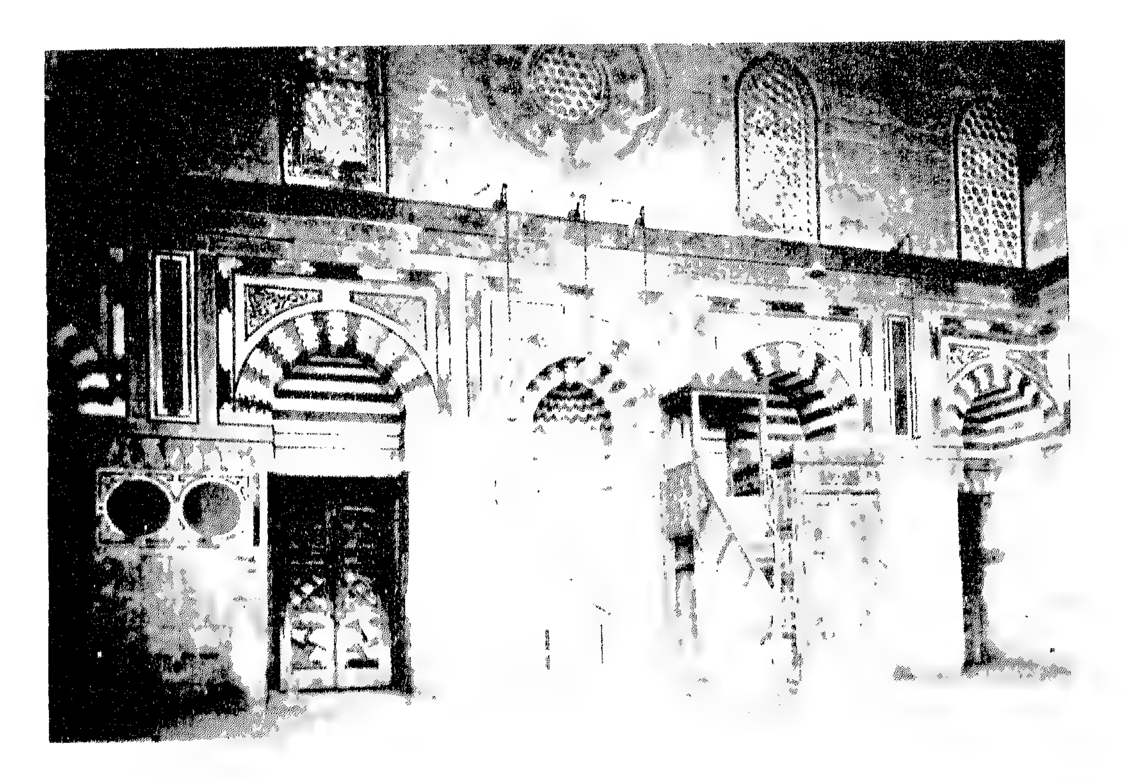


لوحة ١٥١ — صحن المسجد تحيط به الإيوانات



لوحة ١٥٢ — تفاصيل المدخل الرئيسى للمدرسة





لوحة ١٥٣ – حائط إيوان القبلة



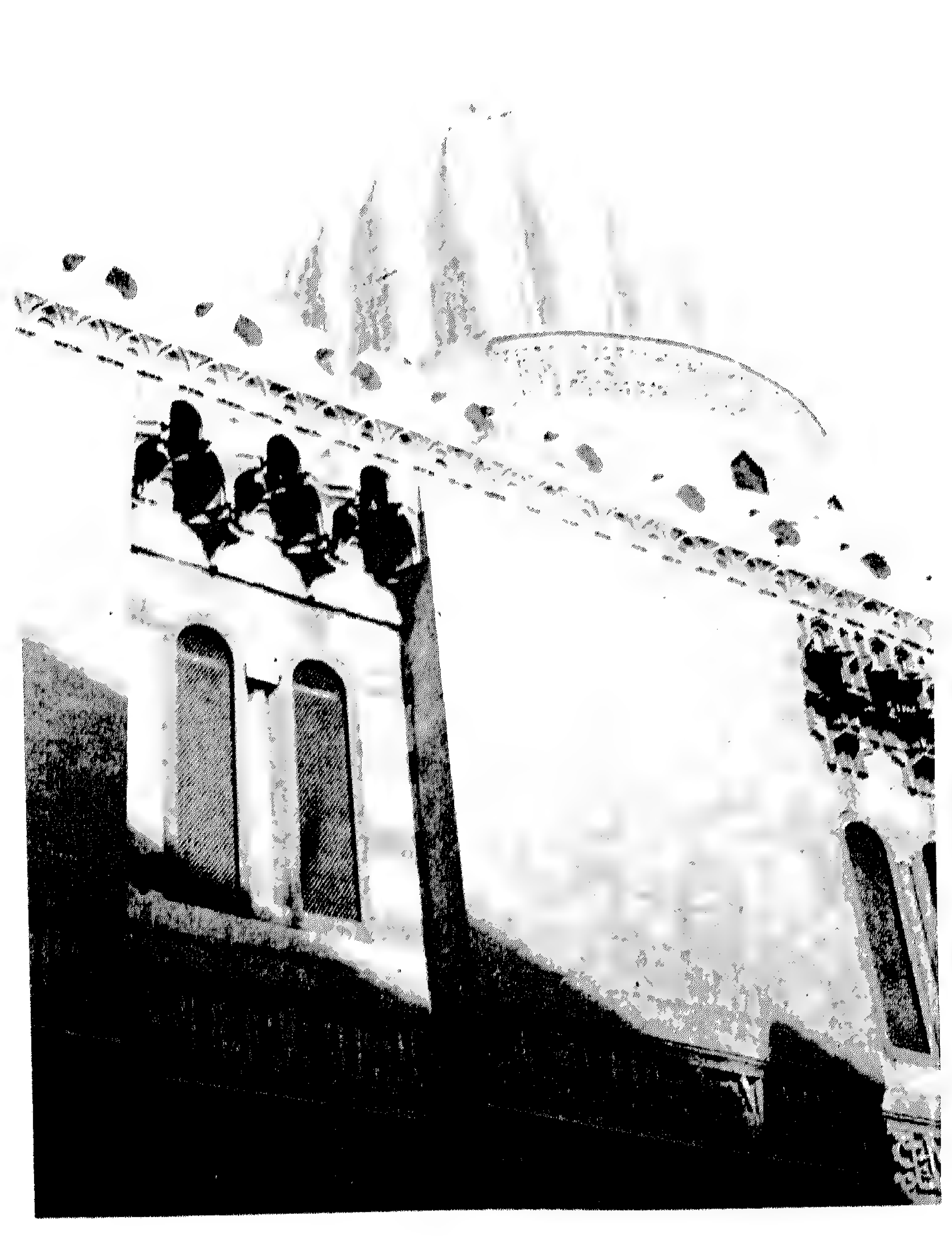
لوحة ١٥٤ – مدرسة وخانقاه أحمد المهمندار



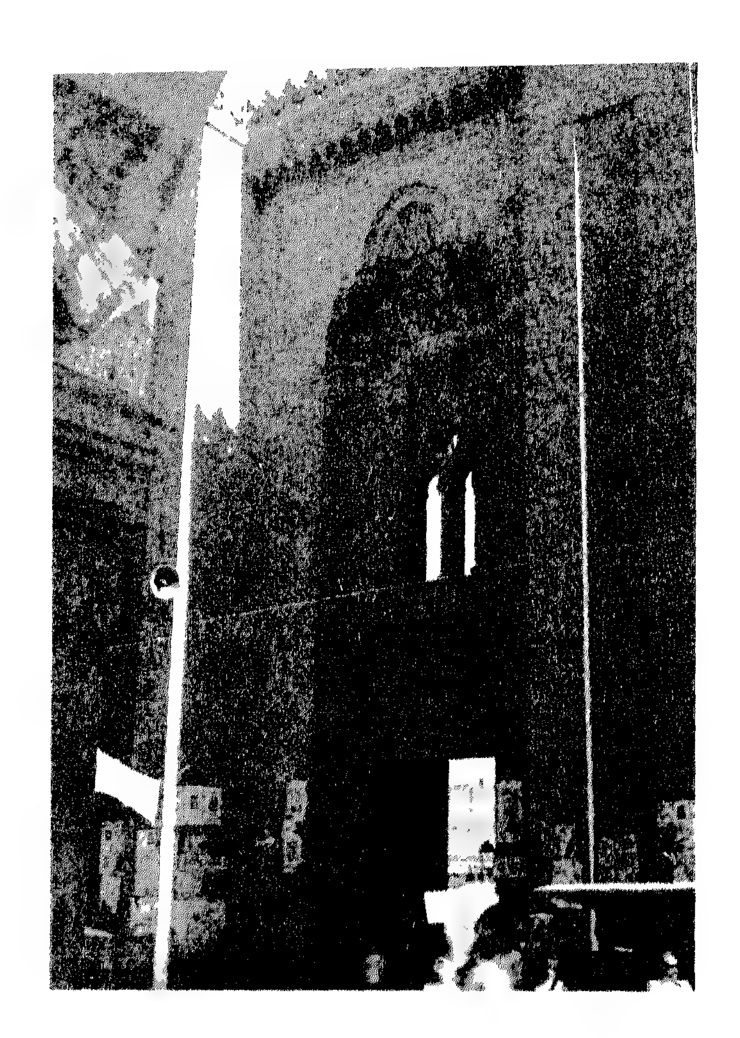
لوحة ١٥٥ – الواجهة الرئيسية للمدرسة والخانقاه



لوحة ١٥٦ – مئذنة المهمندار

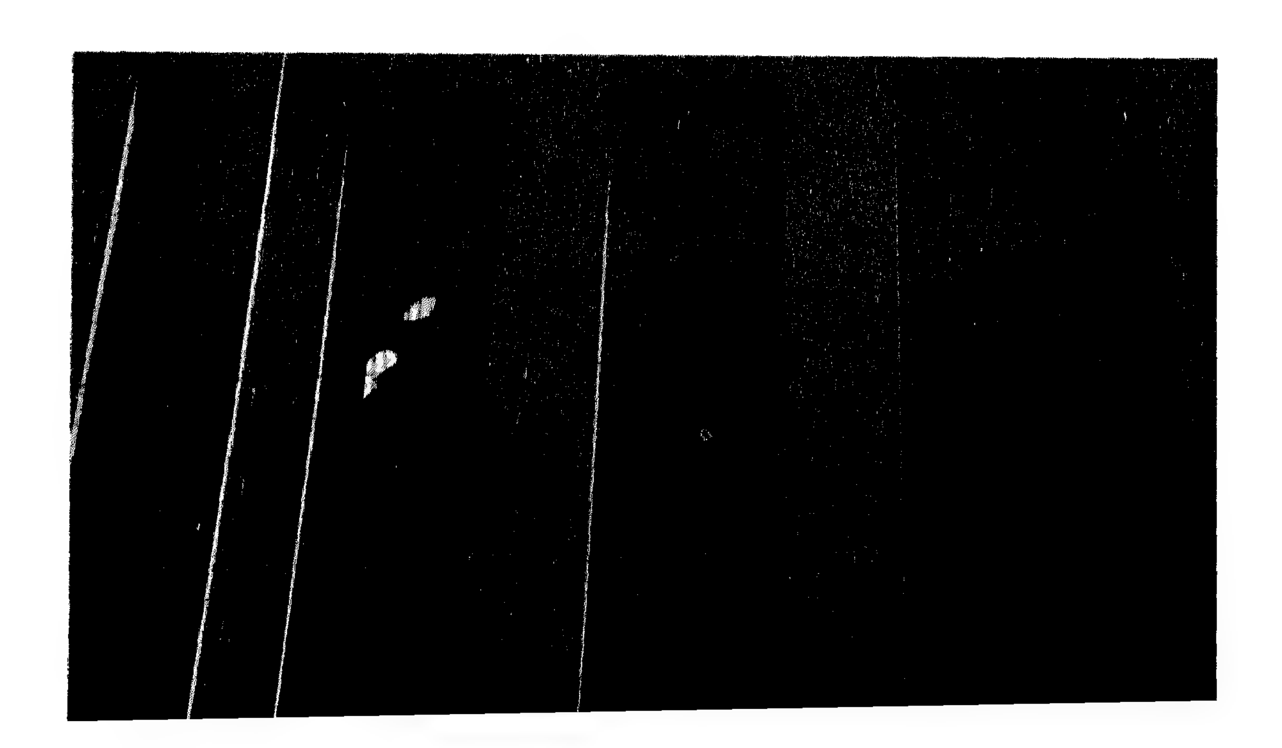


لوحة ١٥٧ — قبة المهمندار

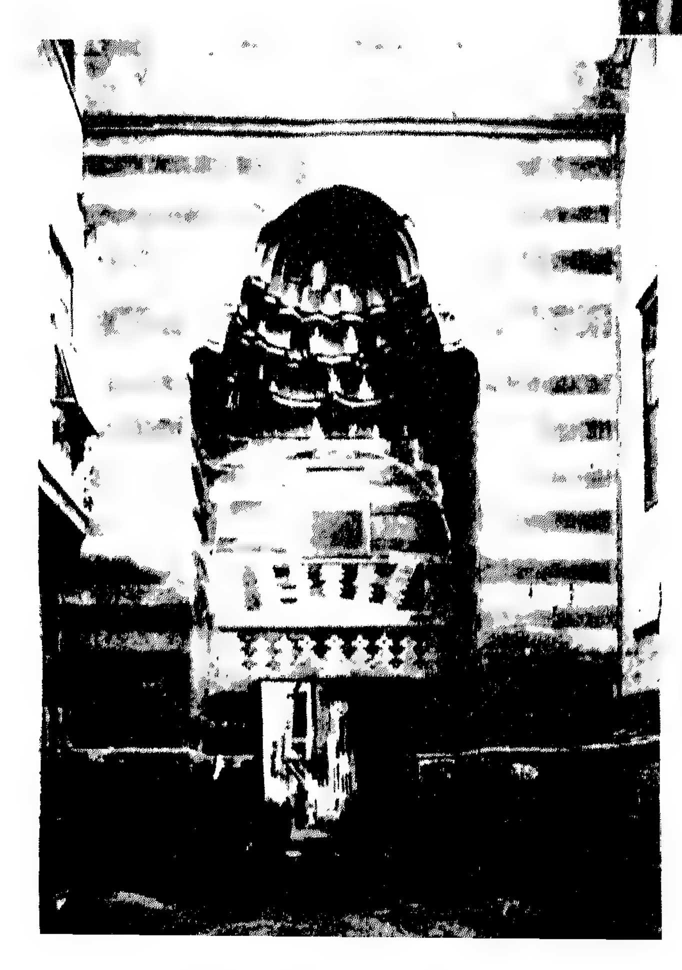


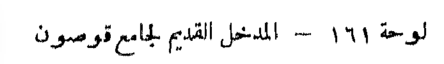
لوحة ١٥٨ – جامع قوصون بشارع محمد على

لوحة ١٥٩ – واجهة جامع قوصون



لوحة ١٦٠ — المدخل الرئيسى لجامع قوصون

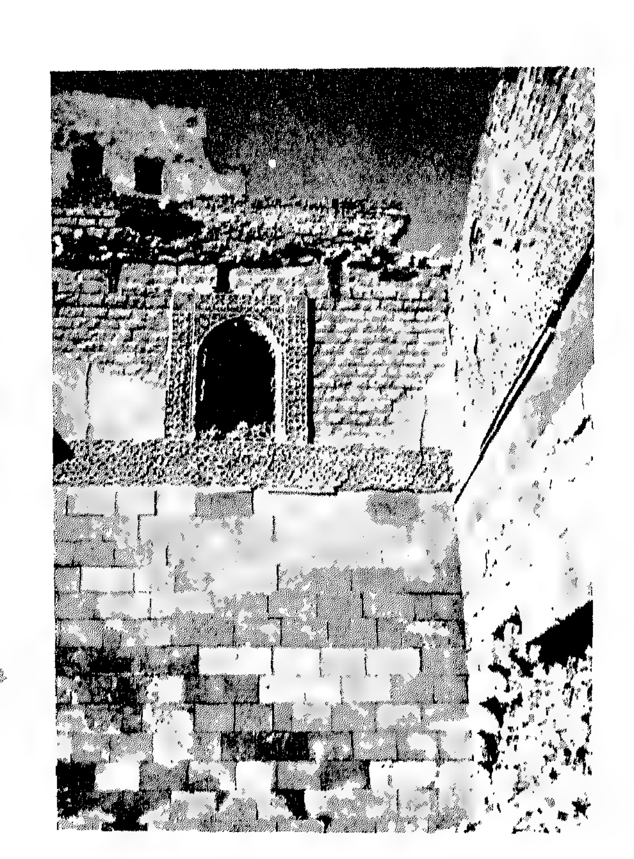




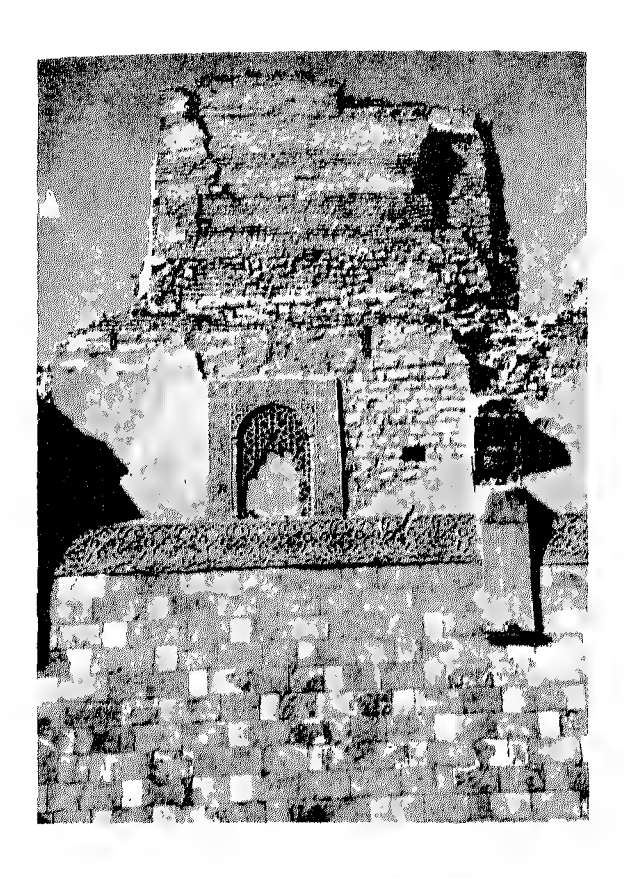
لوحة ١٦١ — المدخل القديم لجامع قوصون



لوحة ١٦٢ - داخل الجامع

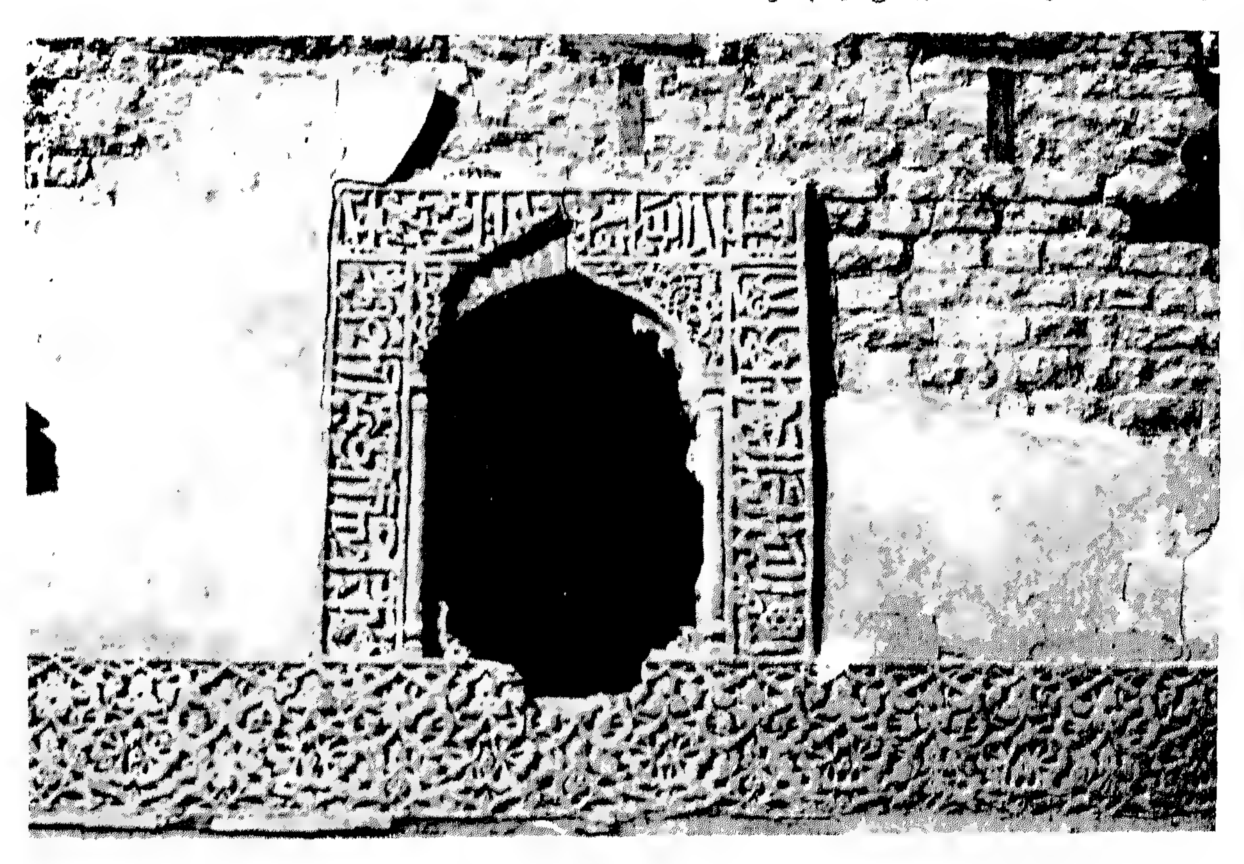


لوحة ١٦٣ - الزخارف الجصية بالداخل



لوحة ١٦٤ — الزخارف النباتيه التى تحيط بالنوافذ

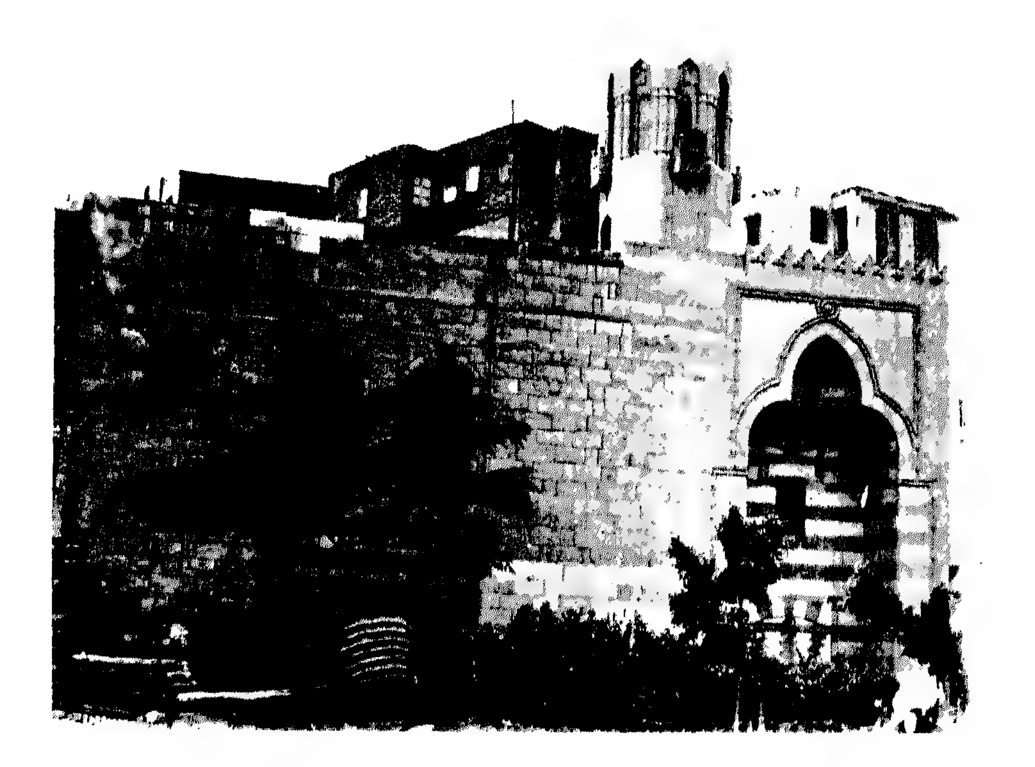
لوحة ١٦٥ — الزخارف الكتابية التى تحيط بالنوافذ

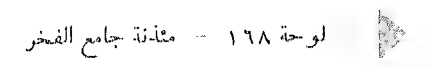


لوحة ١٦٦ – البوابة الأثرية لجامع قوصون

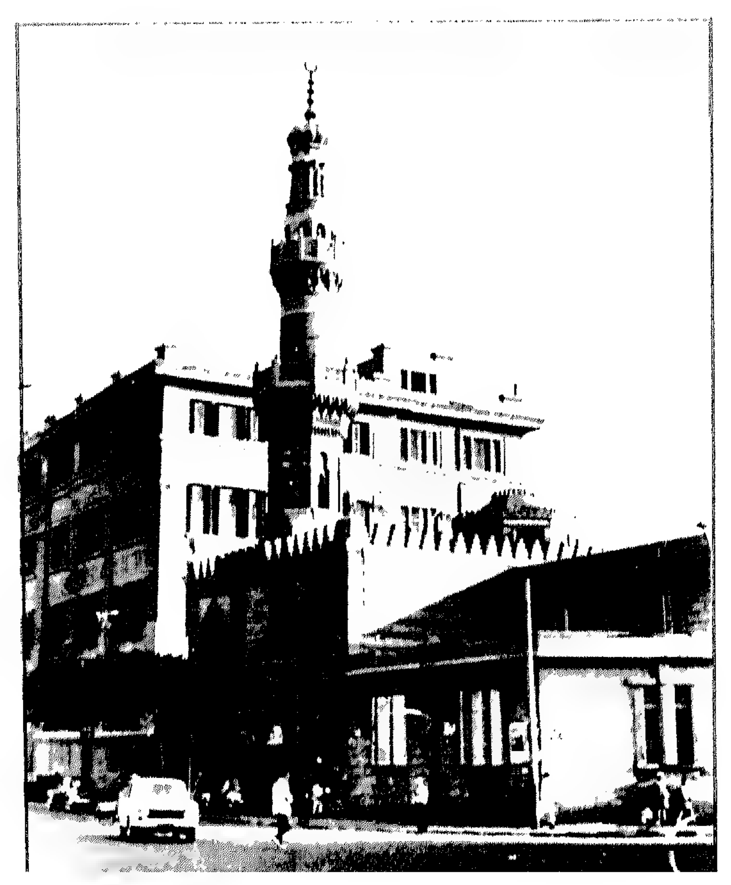


لوحة ١٦٧ – واجهة جامع الفخر (قايتباى) بمنيل الروضة



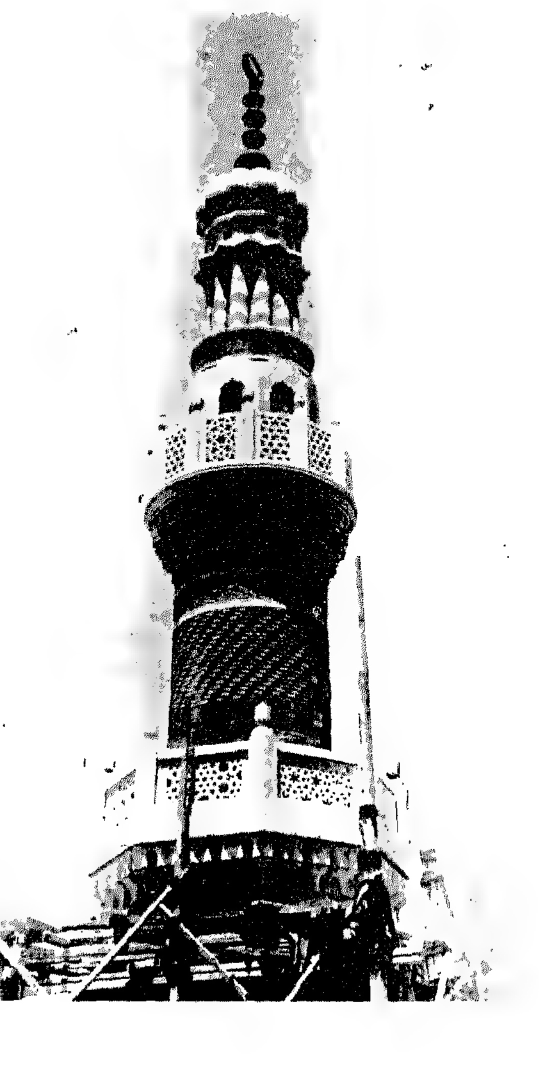

لوحة ١٦٨ – مئذنة جامع الفخر





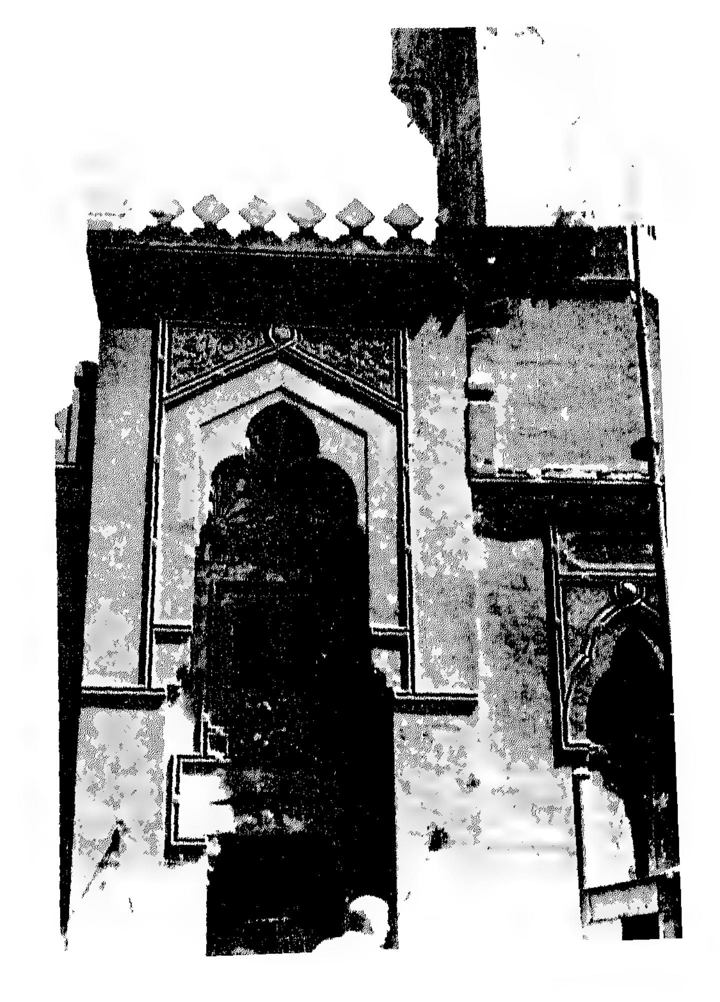
لوحة ١٦٩ – جامع الطباخ بعابدين



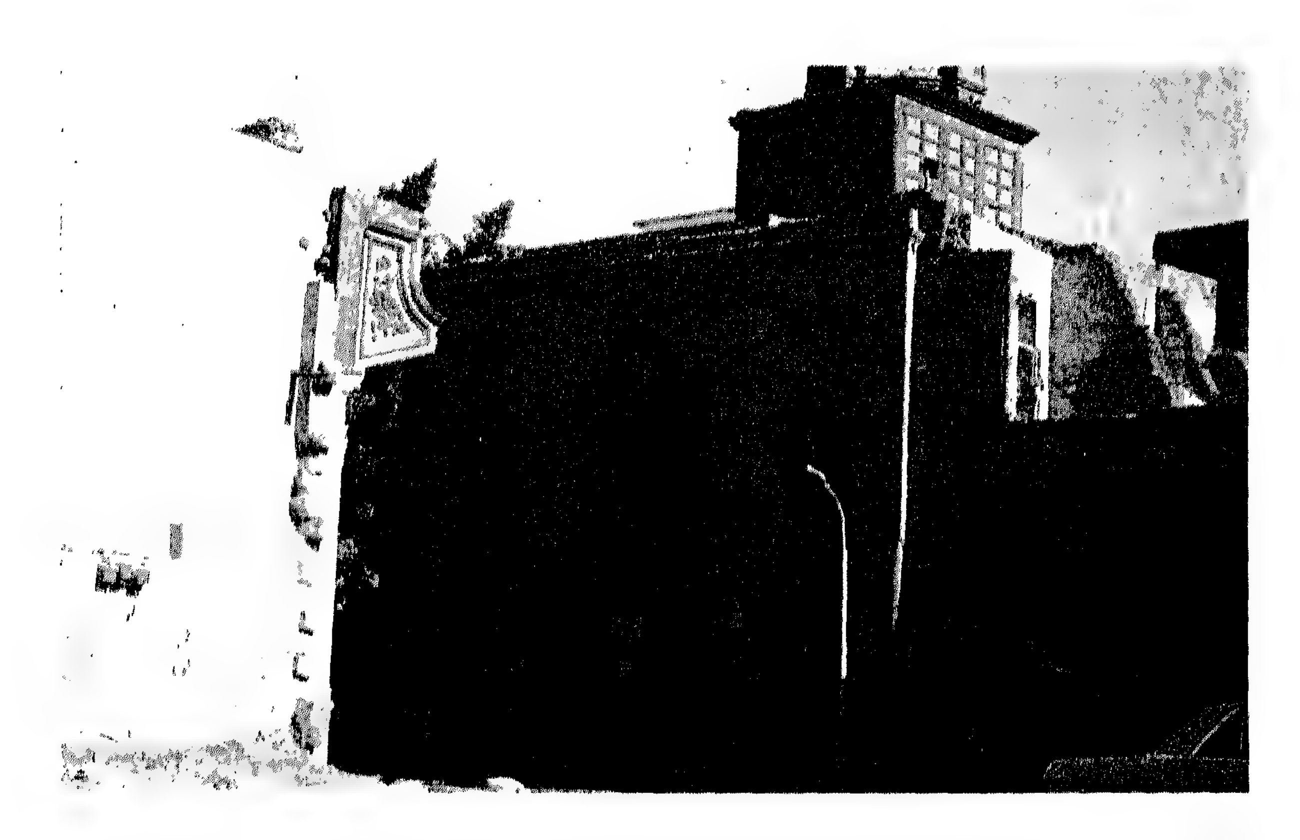


لوحة ١٧٠ — مئذنة جامع الطباخ





لوحة ١٧١ — واجهة مسجد بشتاك الرئيسية
(فاضل باشا حالياً)





لوحة ١٧٢ - تفصيل الواجهة الرئيسية

لوحة ١٧٣ - المدخل الرئيسى لمسجد بشتاك





لوحة ١٧٤ – داخل مسجد بشتاك



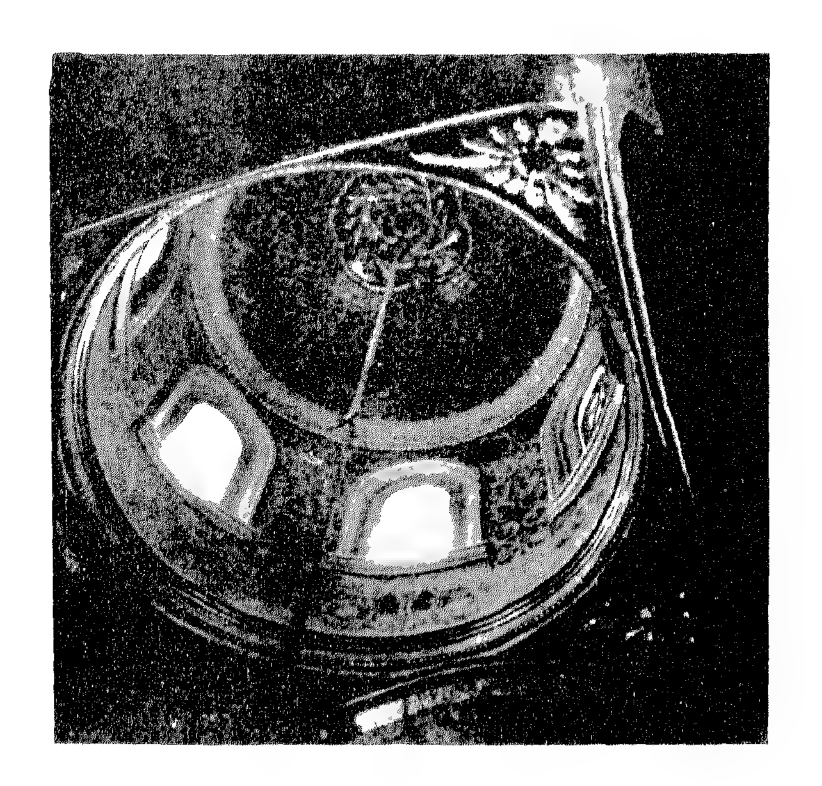
لوحة ١٧٥ – الباب الموصل إلى ضريح فاضل باشا و أسرته التى الحقت بمسجد بشتاك

لوحة ١٧٦ – ضريح فاضل باشا

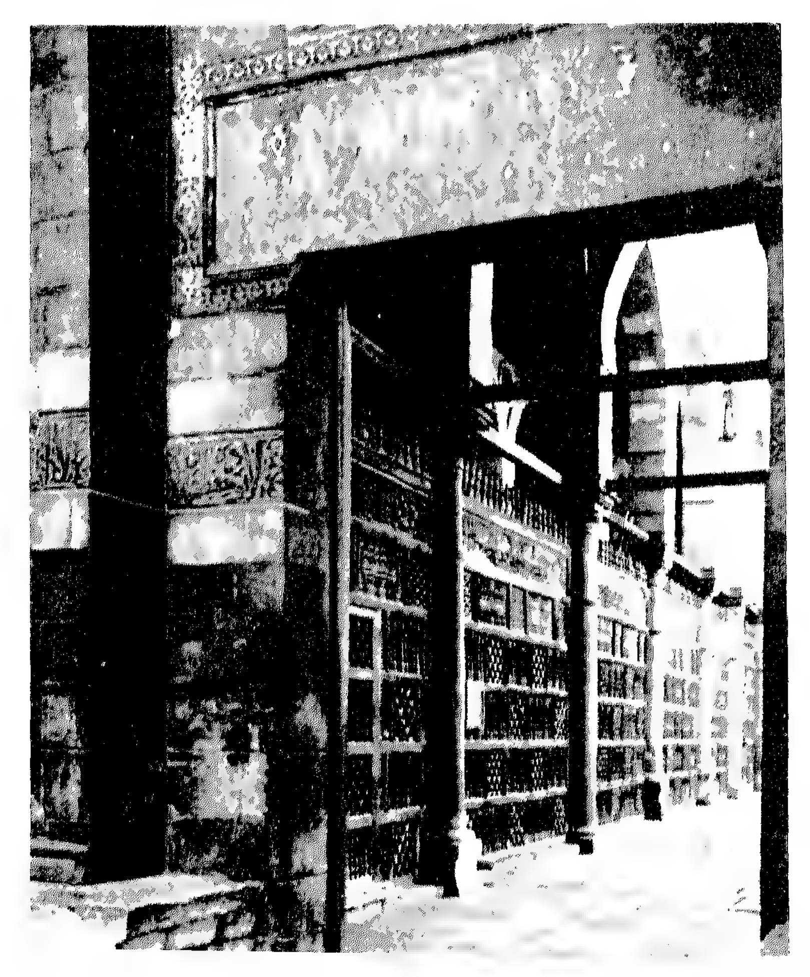


لوحة ١٧٧ – مقبرة فاضل باشا





لوحة ١٧٨ — القبة التى تعلو ضريح فاضل باشا

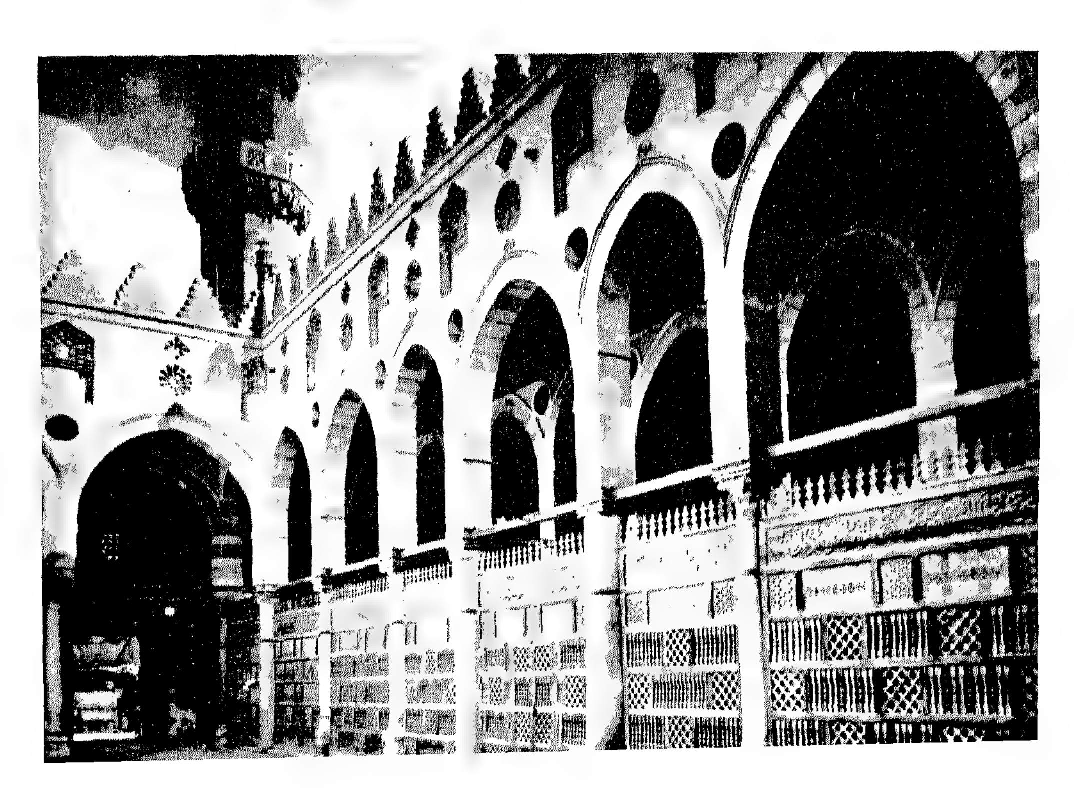


لوحة ١٧٩ — المدخل الرئيسى لجامع طنبغا الماردانى

لوحة ١٨٠ – تفاصيل المدخل الرئيسى

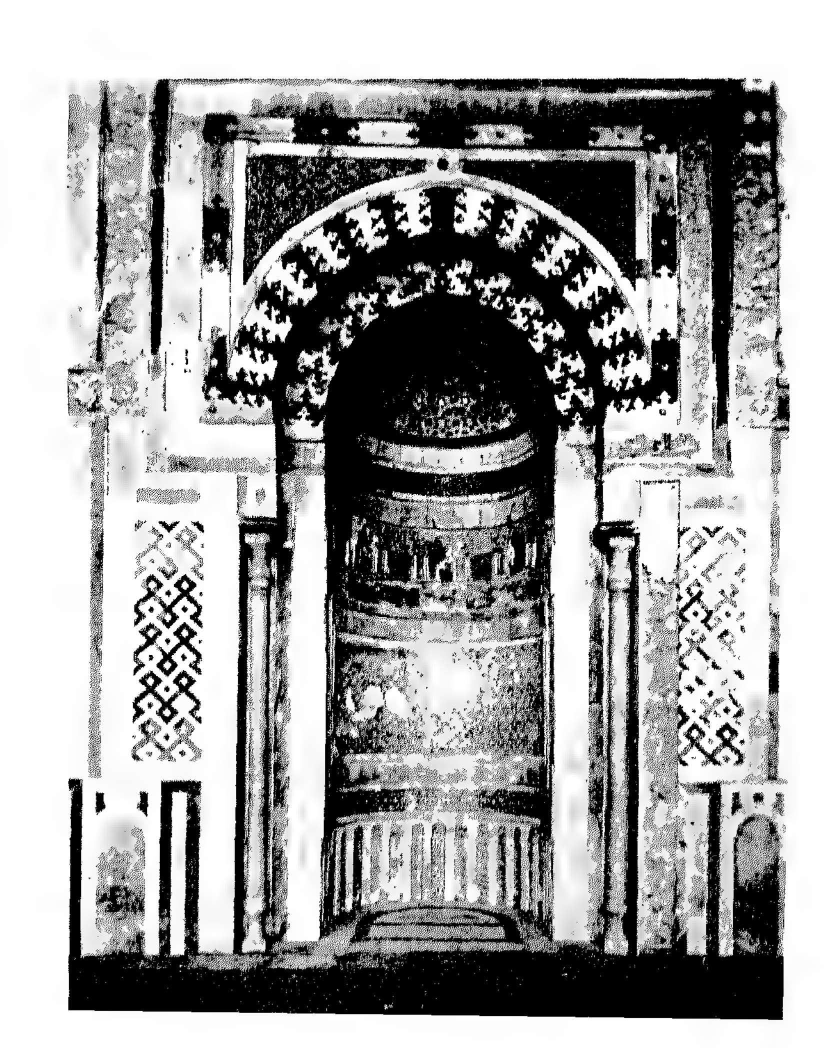


لوحة ١٨١ – صحن الجامع





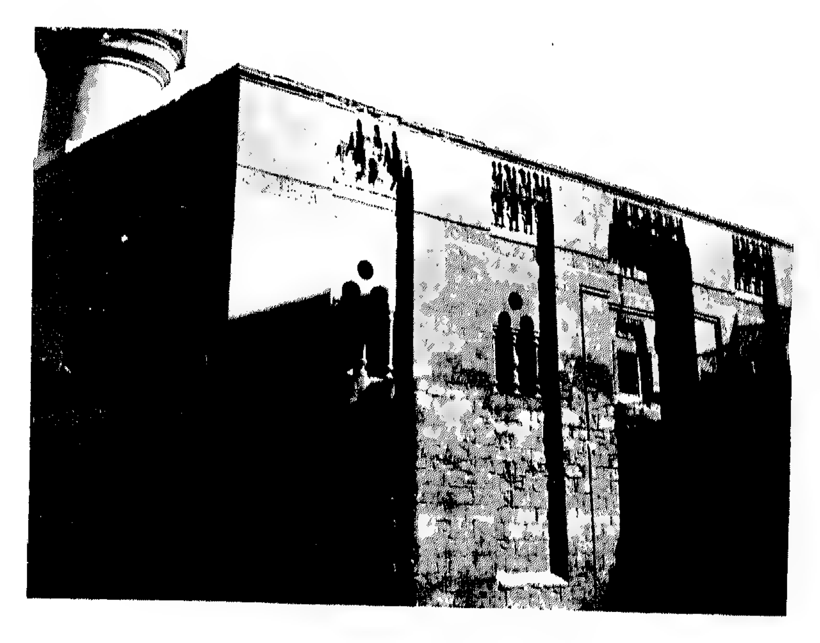
لوحة ١٨٢ — رواق القبلة بالجامع



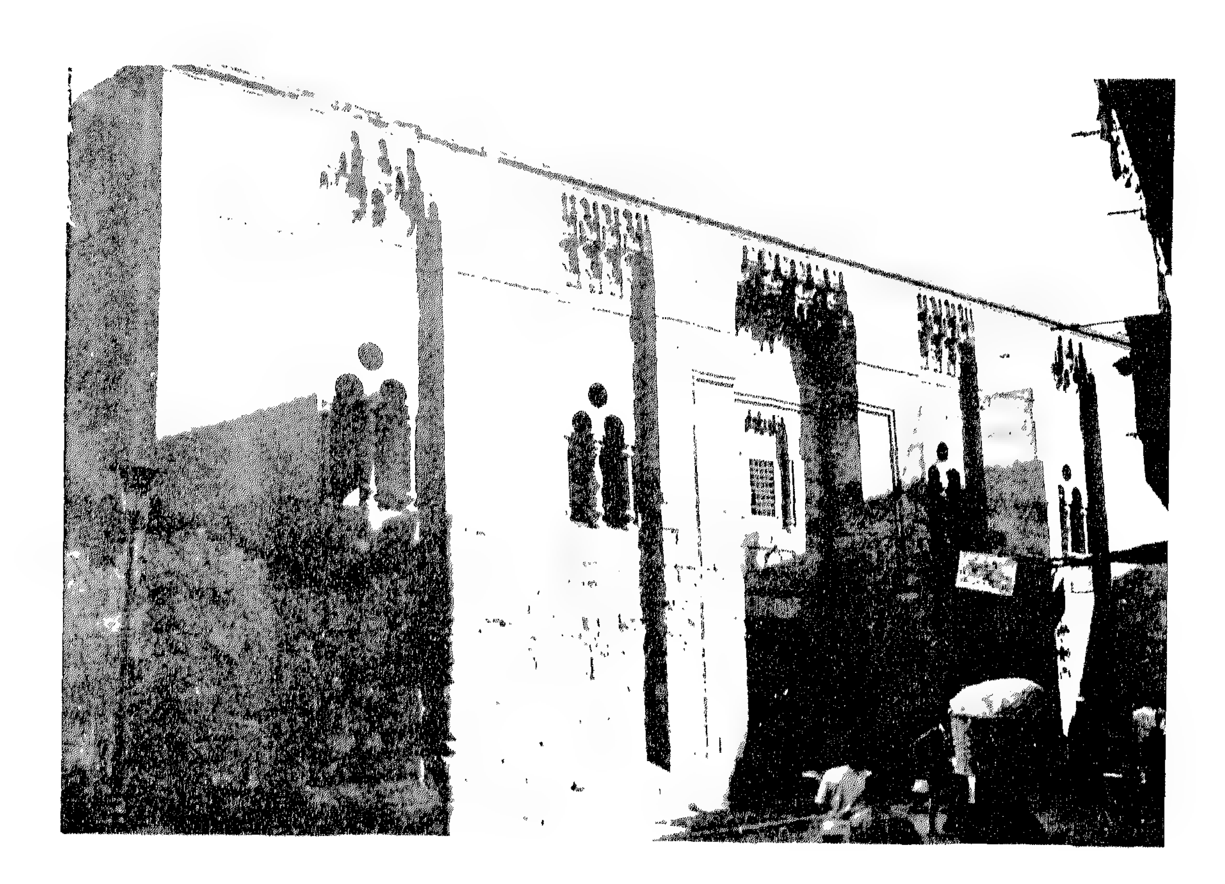
لوحه ١٨٣ — محراب الجامع



لوحة ١٨٤ – مئـذنة الجامع



لوحة ١٨٥ – الواجهة
الرئيسية لمسجد الست مسكة



لوحة ١٨٦ المدخل الرئيسي للمسجد

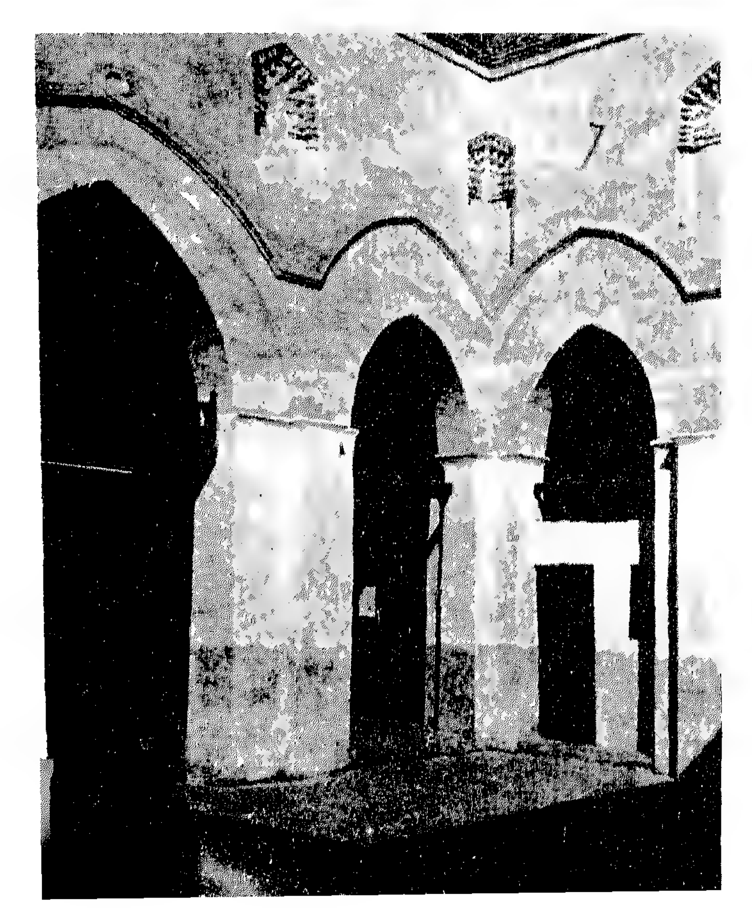


لوحة ١٨٧ – الواجهة الشمالية

لوحه ١٨٨ — الزخارف التي تزين واجهه المسجد

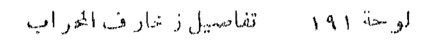




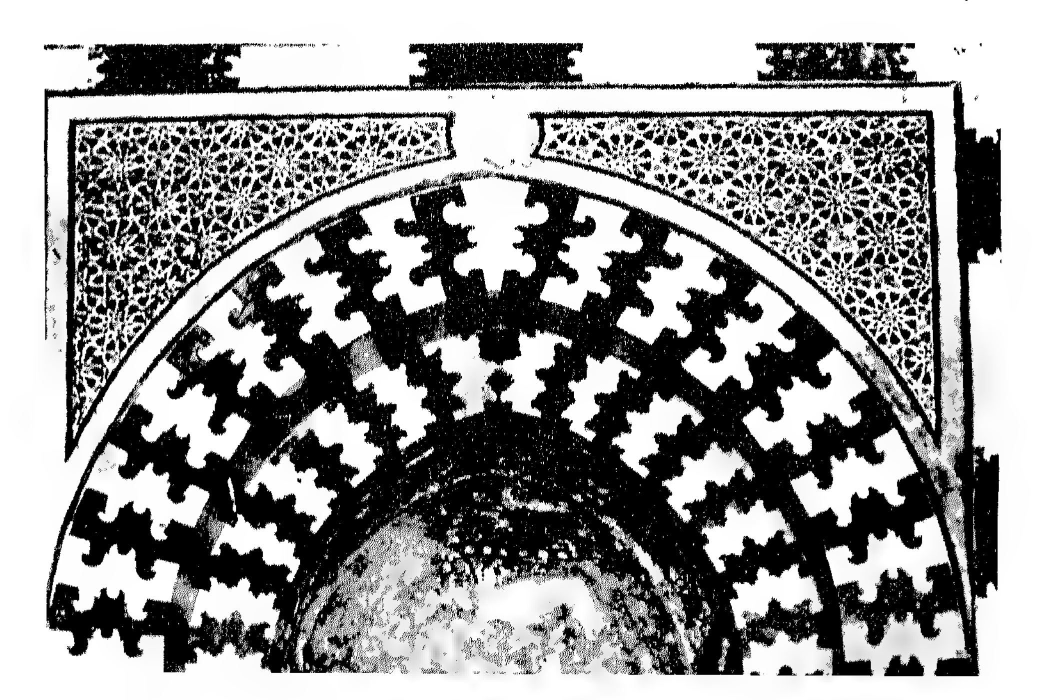


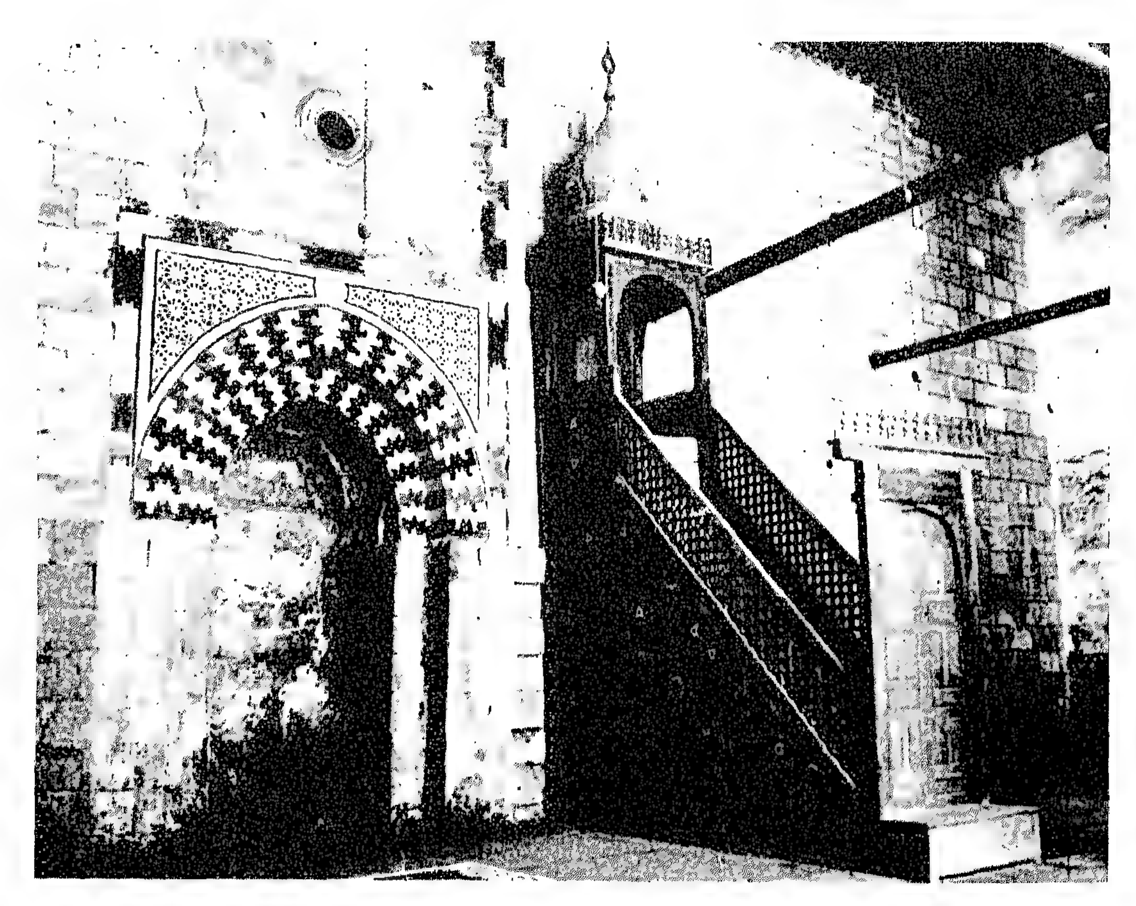
لوحة ١٨٩ — صحن مسجد الست مسكة

لوحة ١٩٠ - محراب المسجد

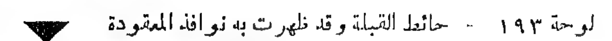


لوحة ١٩١ تفاصيل زخارف المحراب

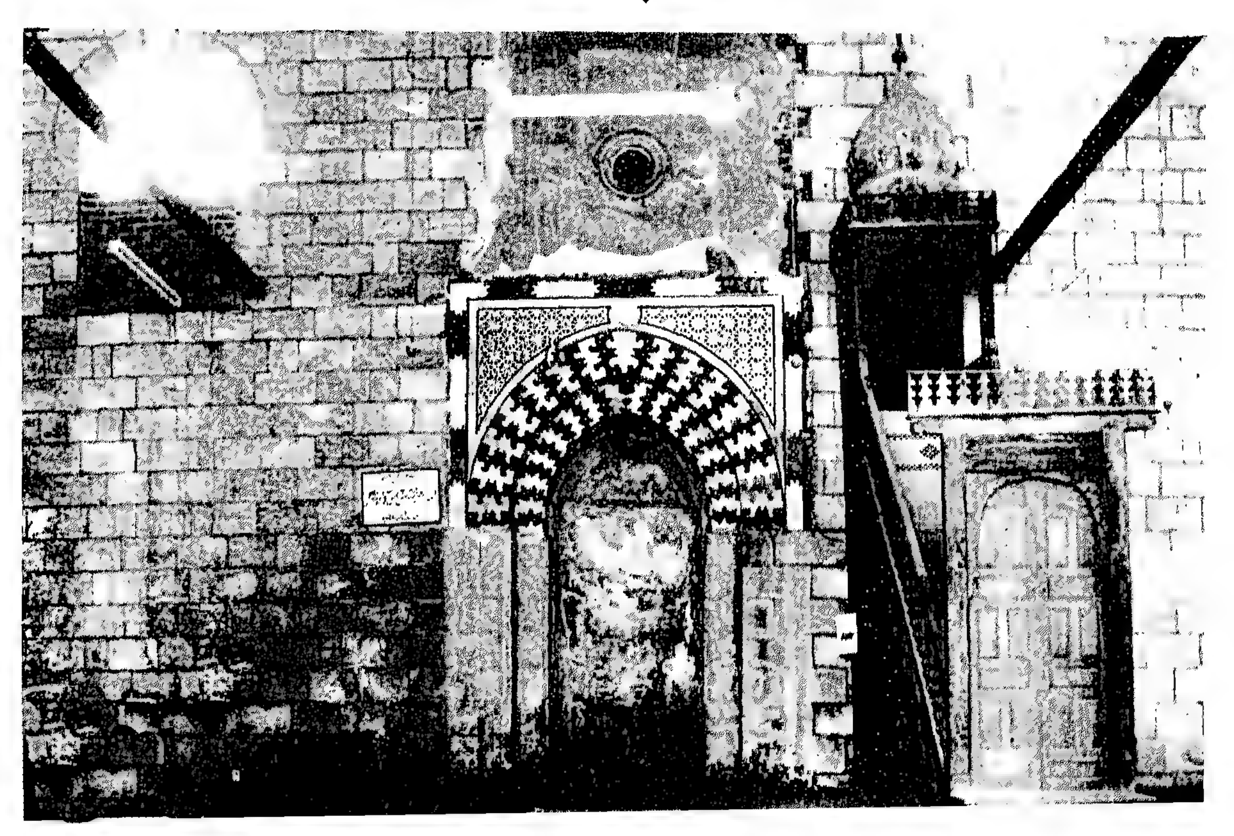




لوحة ١٩٢ — المنبر الخشبى المجاور لمحراب المسجد

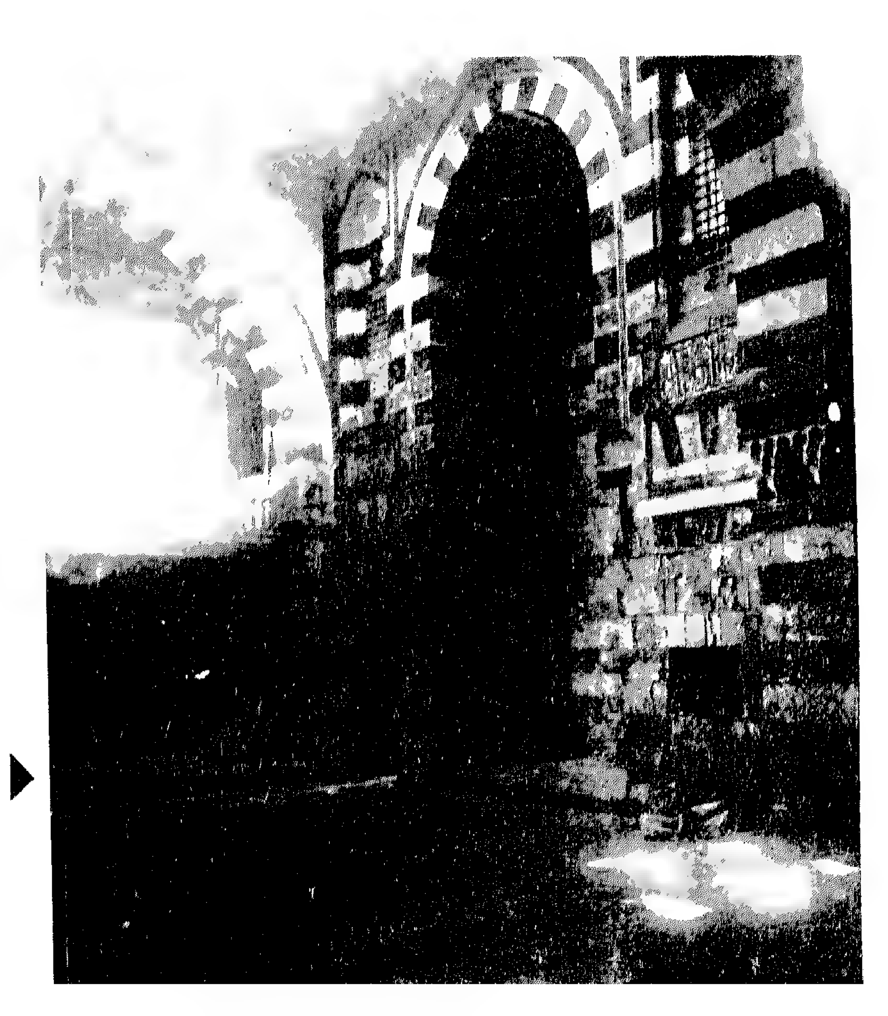


لوحة ١٩٣ - حائط القبلة وقد ظهرت به نوافذ المعقودة

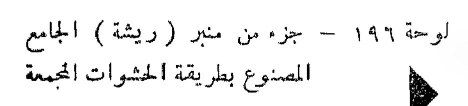




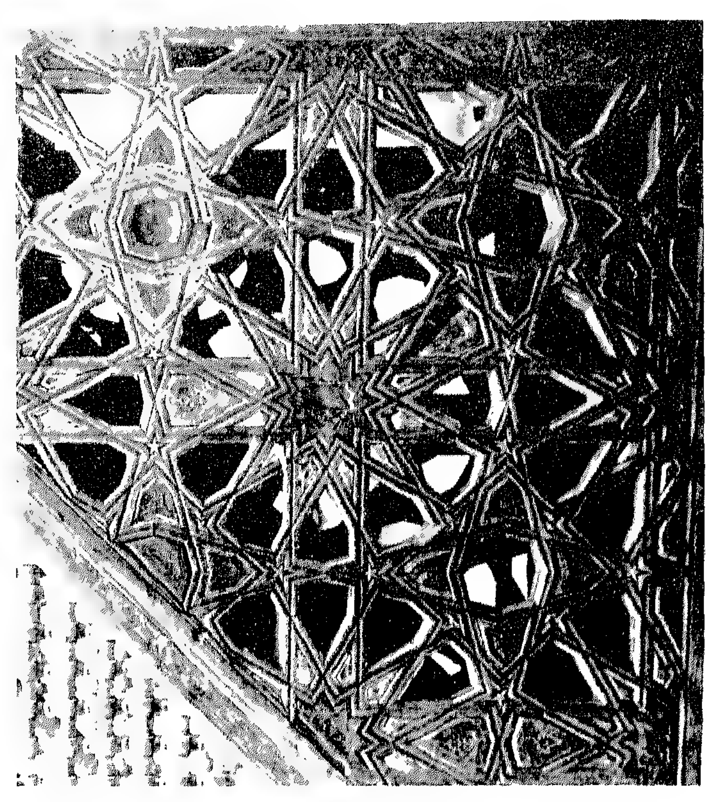
لوحة ١٩٤ - الواجهة الرئيسية لجامع أرغون شاه الإسماعيلي



لوحة ١٩٥ - صحن الجامع



لوحة ١٩٦ – جزء من منبر (ريشة) الجامع
المصنوع بطريقة الحشوات المجمعة



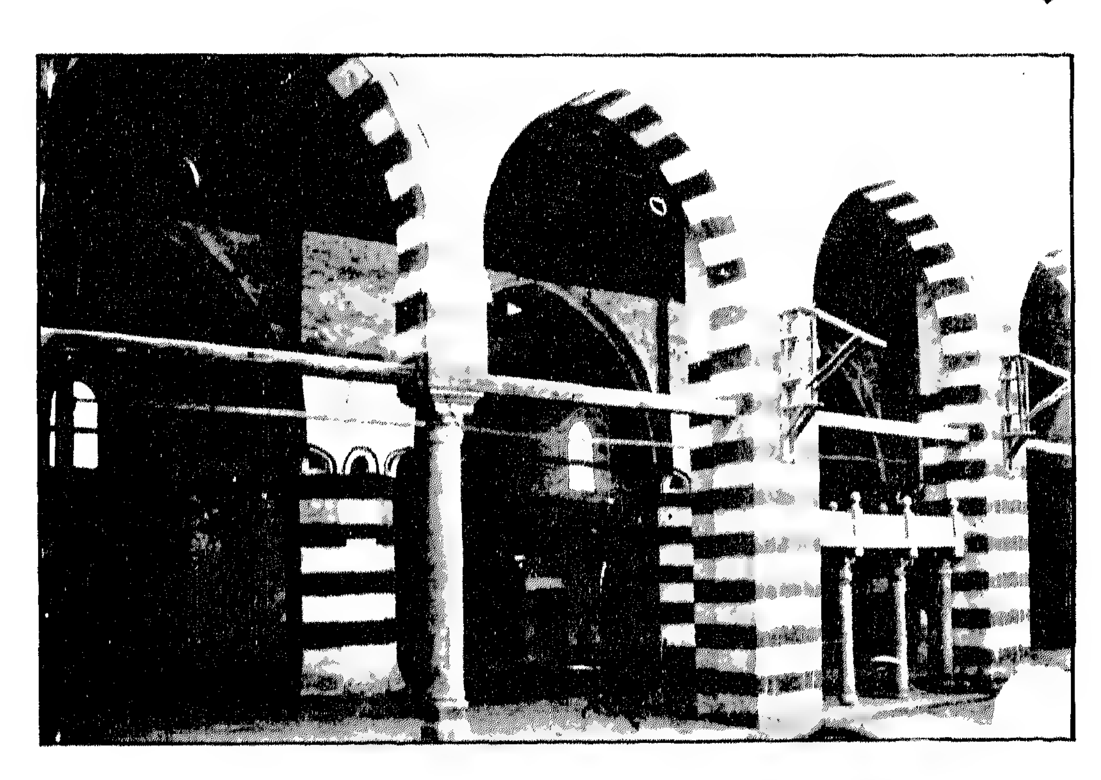


لوحة ١٩٧ – مئذنة الجامع



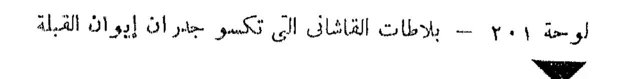
لوحة ١٩٨ - داخل جامع آق سنقر

لوحة ١٩٩ -- إيوان القبلة

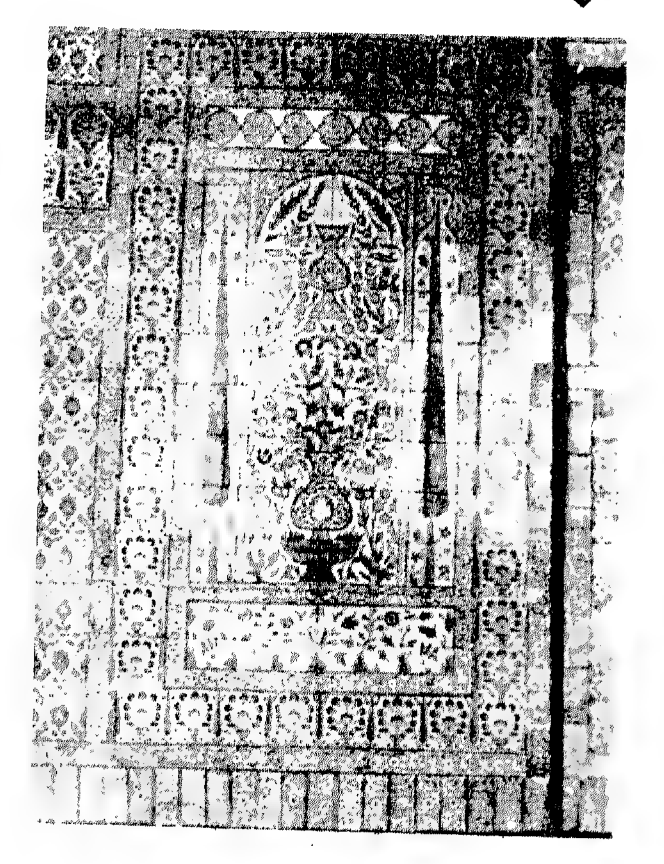


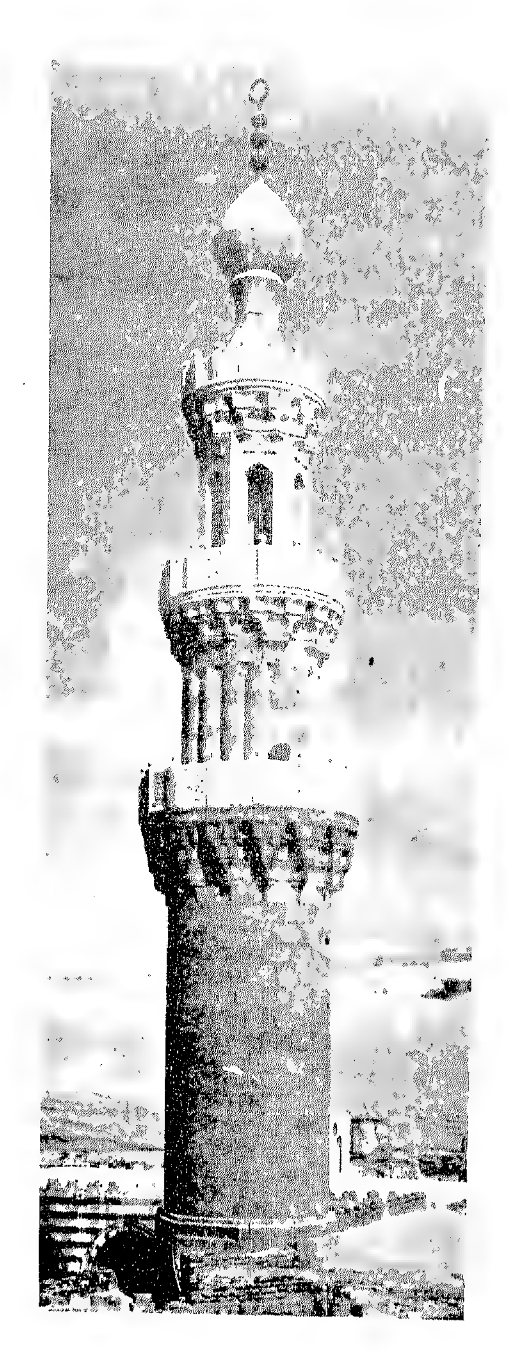


لوحة ٢٠٠ — قبلة المسجد ومنبره

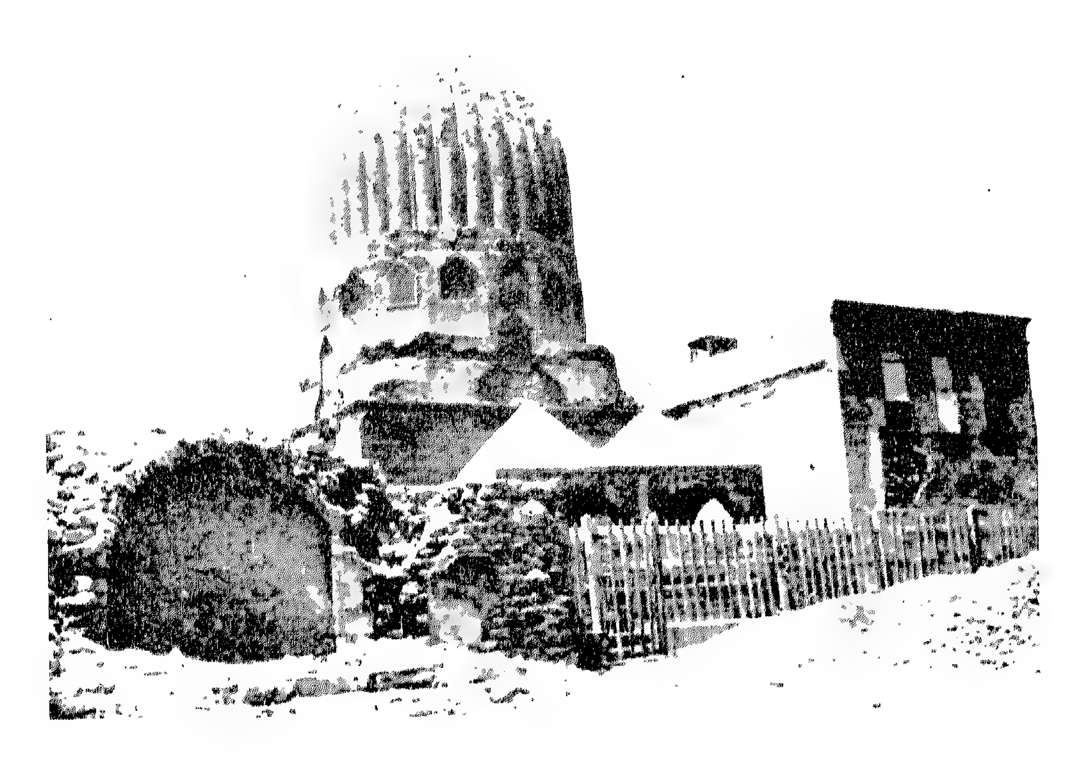


لوحة ٢٠١ — بلاطات القاشاني التي تكسو جدران إيوان القبلة



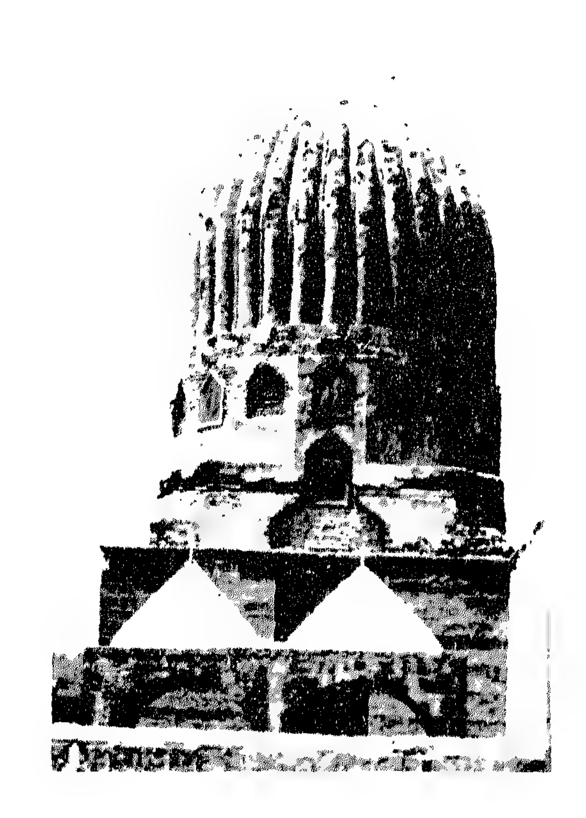


لوحة ٢٠٢ — مئذنة جامع آق سنقر

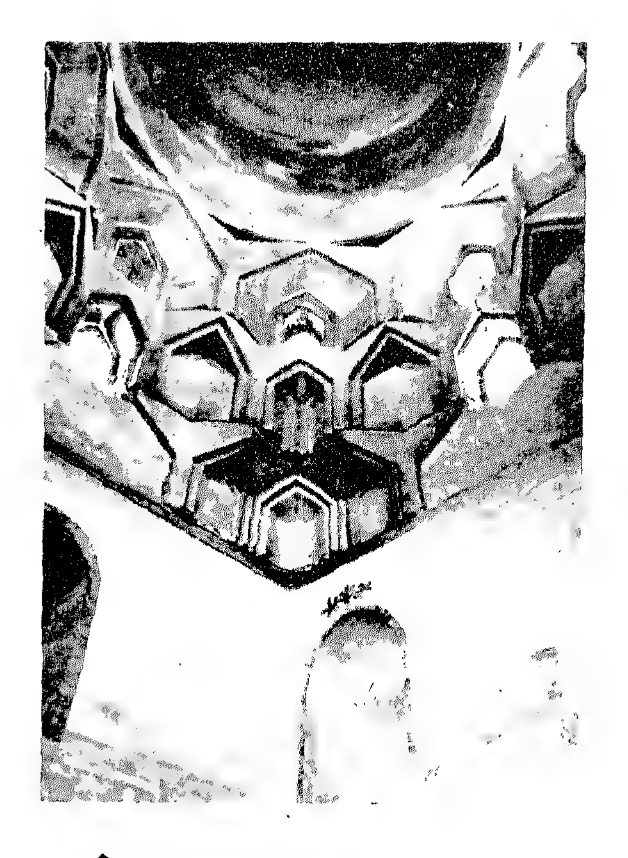


لوحة ٢٠٣ — خانقاه وقبة خوند طوغاي

لوحة ٢٠٤ — مقبرة خوند طوغاي

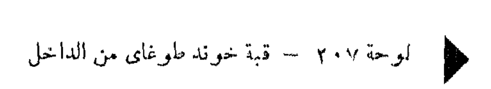


لوحة ٢٠٥ — قبة خوند طوغاى من الخارج ▲

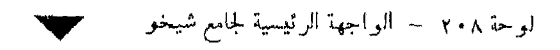


لوحة ٢٠٦ — مقرنصات قبة خوند طوغاى ▲





لوحة ٢٠٧ — قبة خوند طوغاى من الداخل ◀

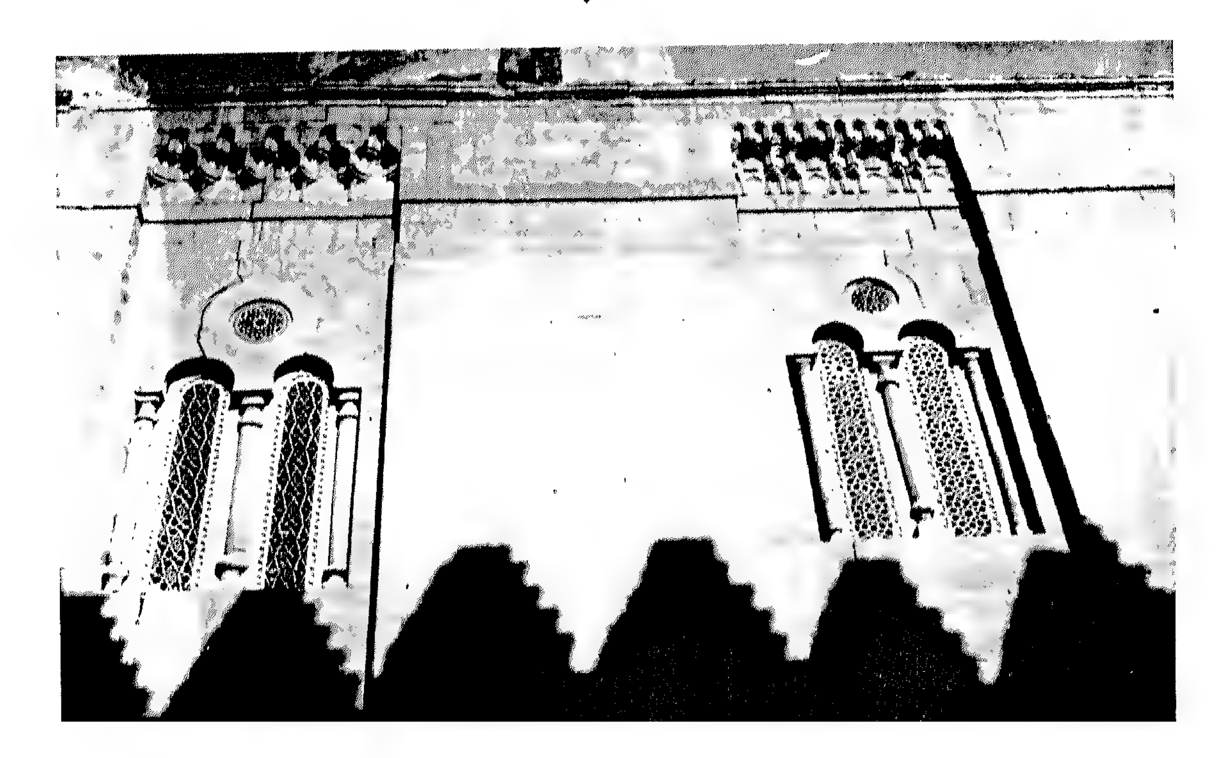


لوحة ٢٠٨ — الواجهة الرئيسية لجامع شيخو ▼



لوحة ٢٠٩ — المدخل الرئيسى لجامع شيخو

لوحة ٢١٠ — النوافذ القنديلية بالواجهة الرئيسية

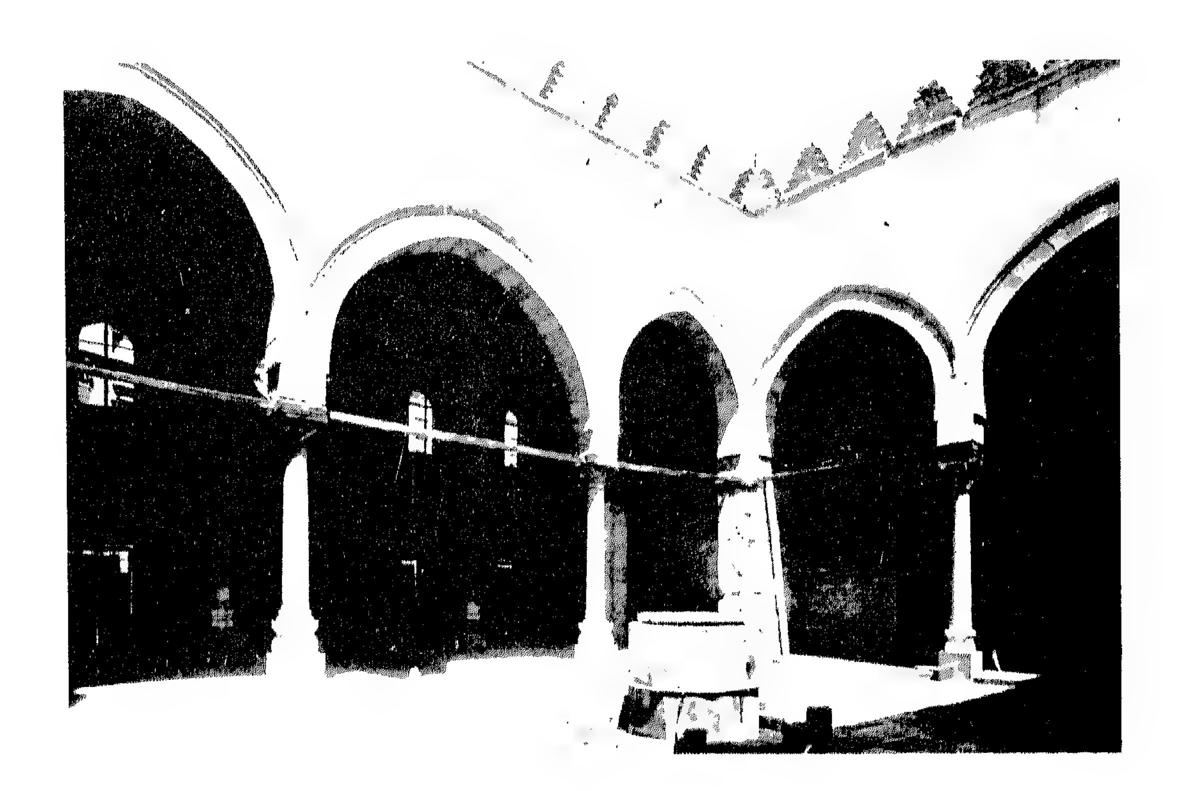




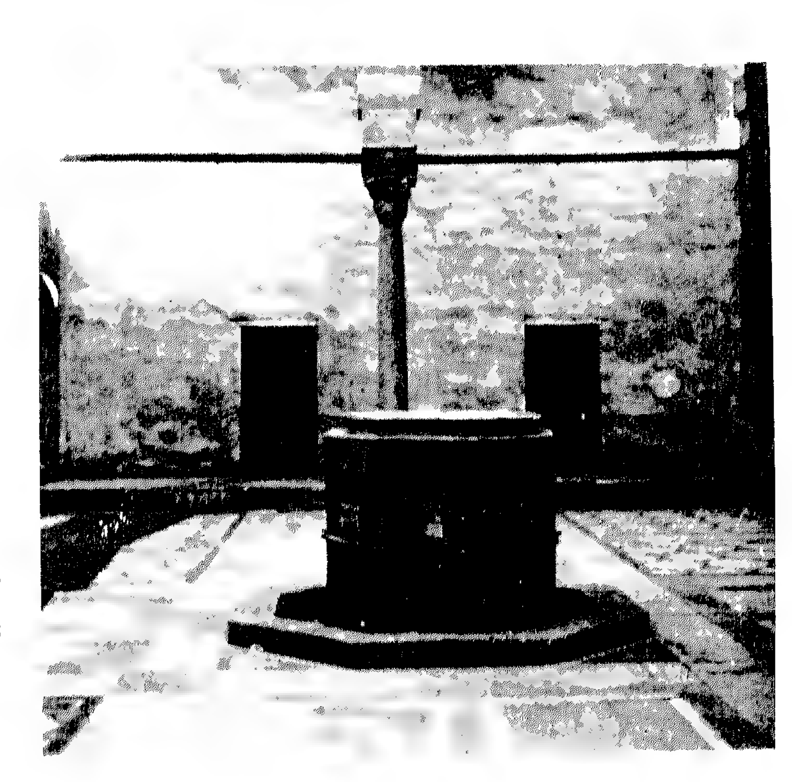
لوحة ٢١١ – القبة التى تفتح بابها فى ردهة الجامع



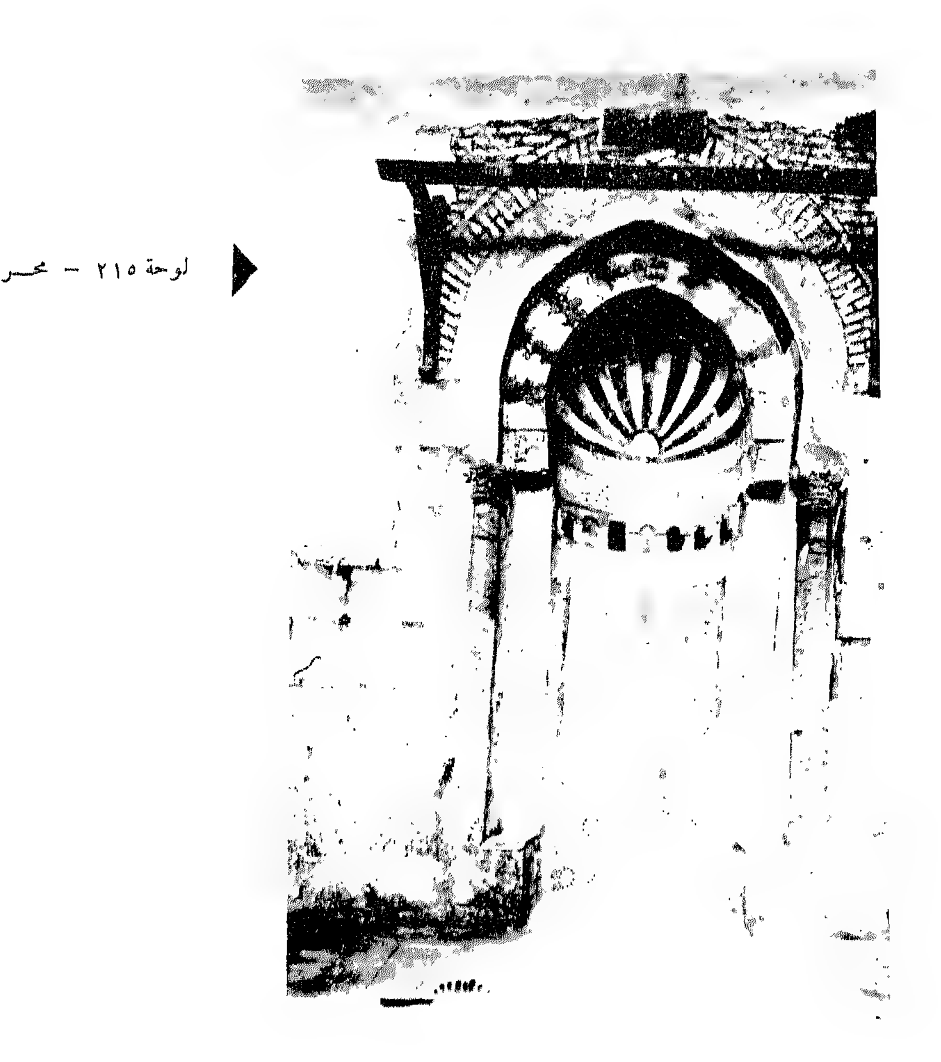
لوحة ٢١٢ – قبة شيخو داخل الجامع



لوحة ٢١٣ — الميضاه التى تتوسط صحن الجامع ▲

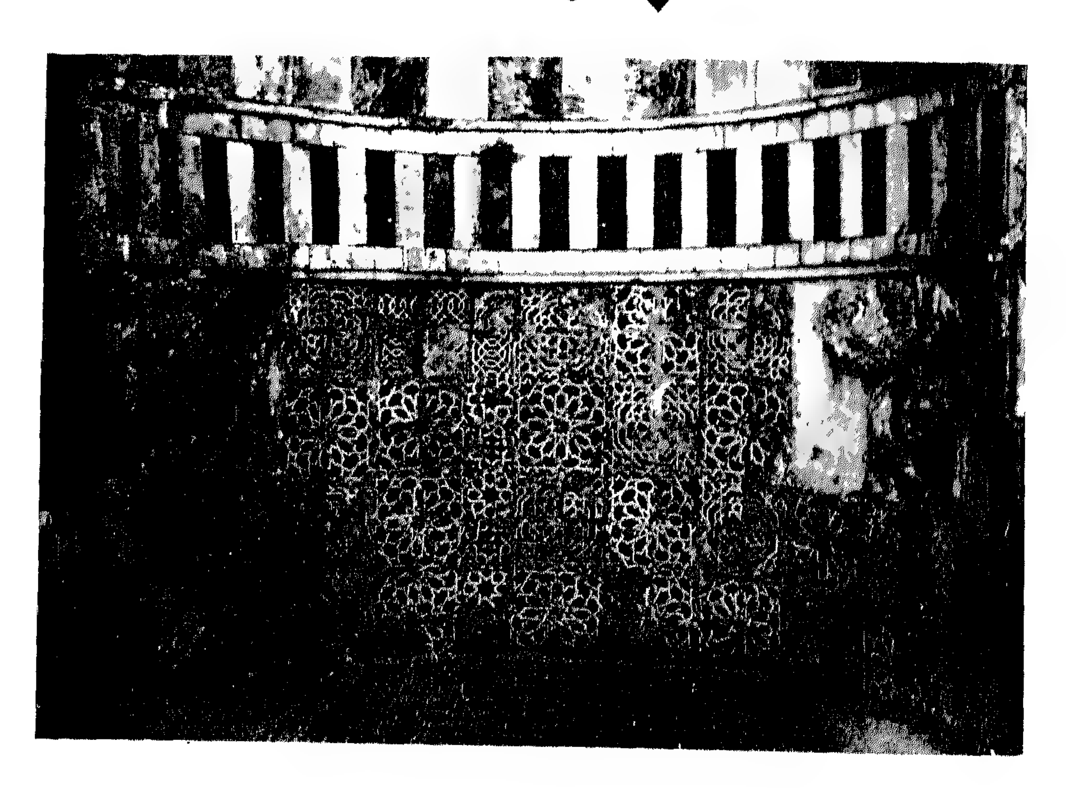


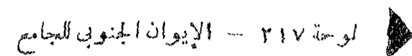
◀ لوحة ٢١٤ — عقود ونوافذ الرواق الشمالى



لوحة ٢١٥ – محـراب جامع شيخو

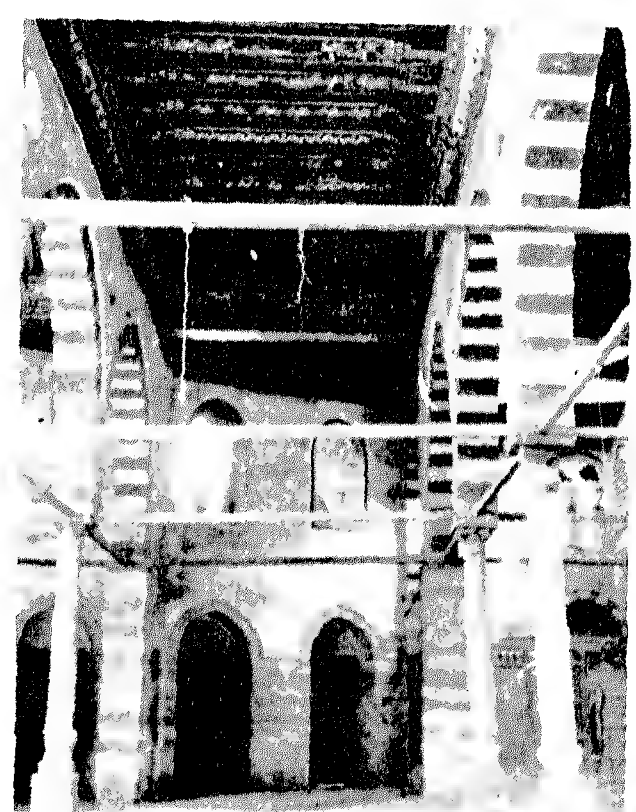
لوحة ٢١٦ – بلاطات قاشانى تكسو أسفل المحــراب





لوحة ٢١٧ — الإيوان الجنوبي للجامع

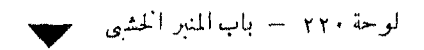




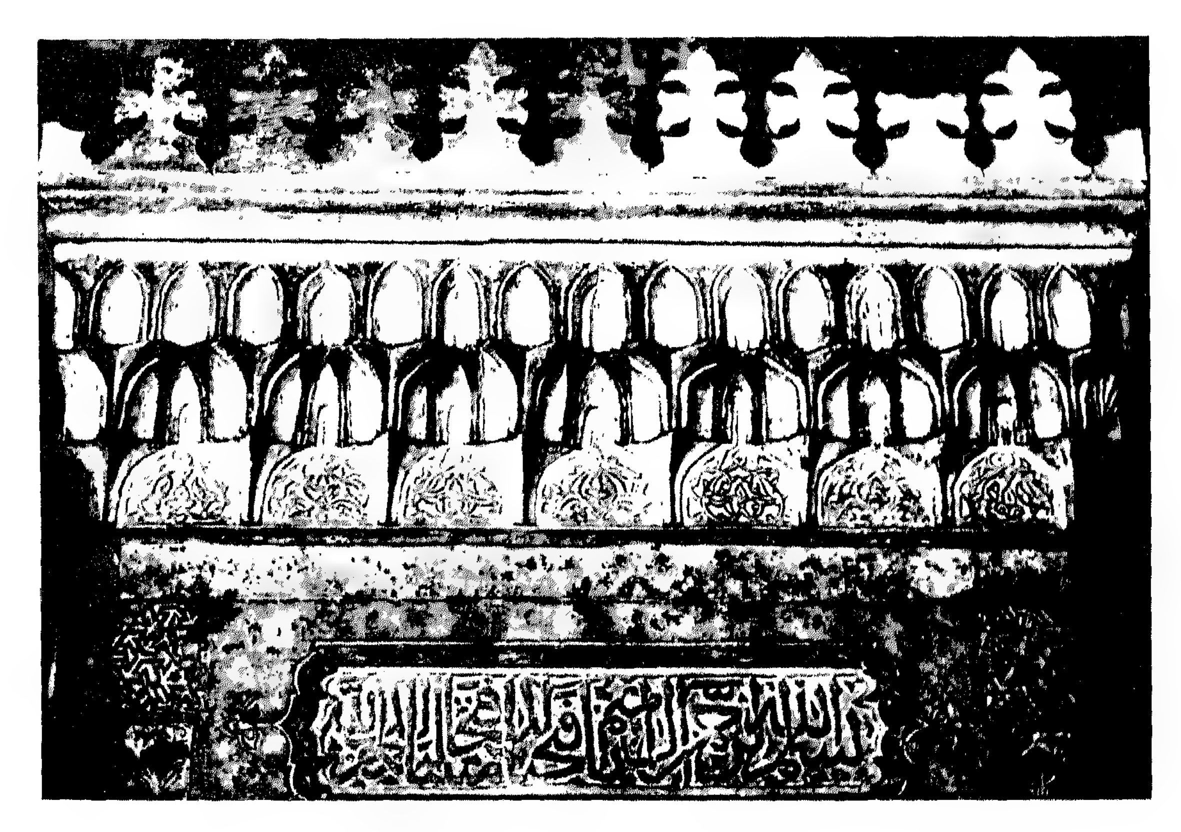
لوحة ٢١٨ — إيوان القبلة

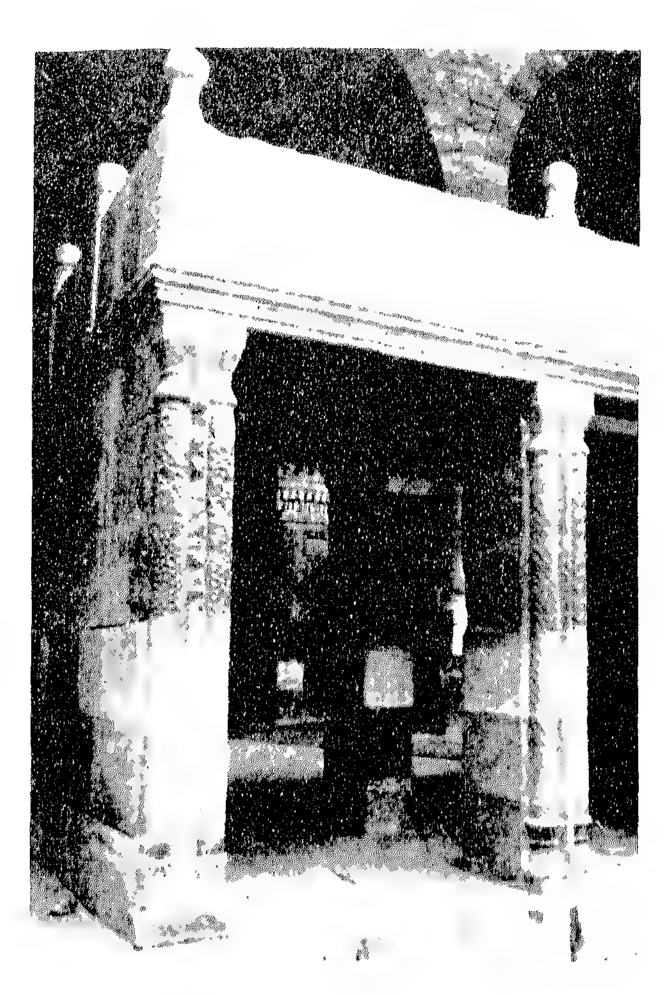


لوحة ٢١٩ – دولاب حائطى مزخرف
بطريقة الحشوات المجمعة

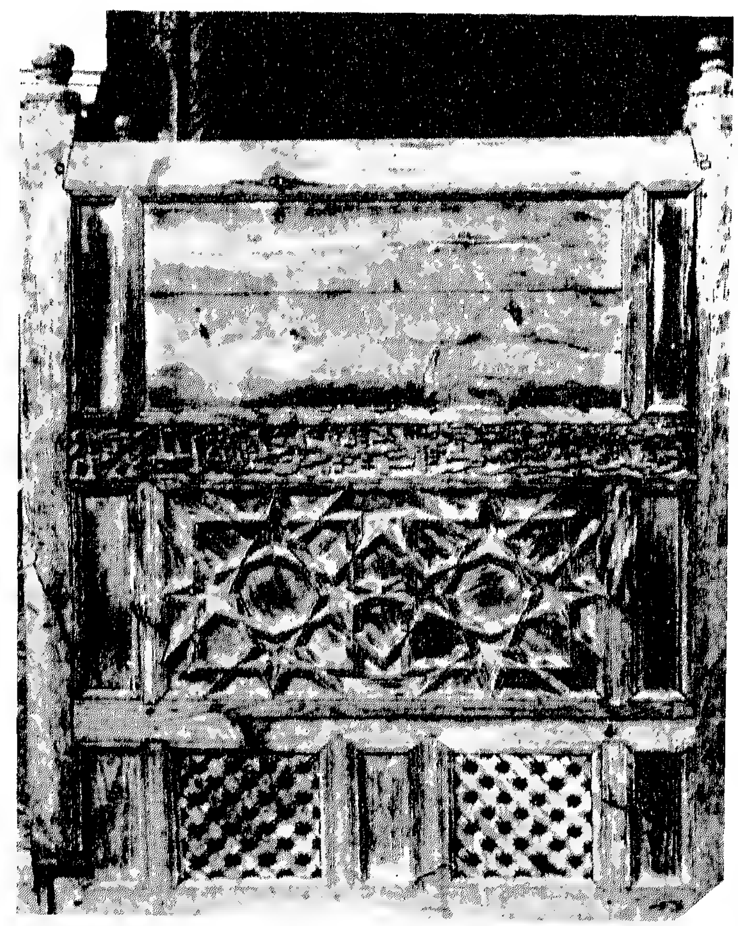


لوحة ٢٢٠ – باب المنبر الخشبى



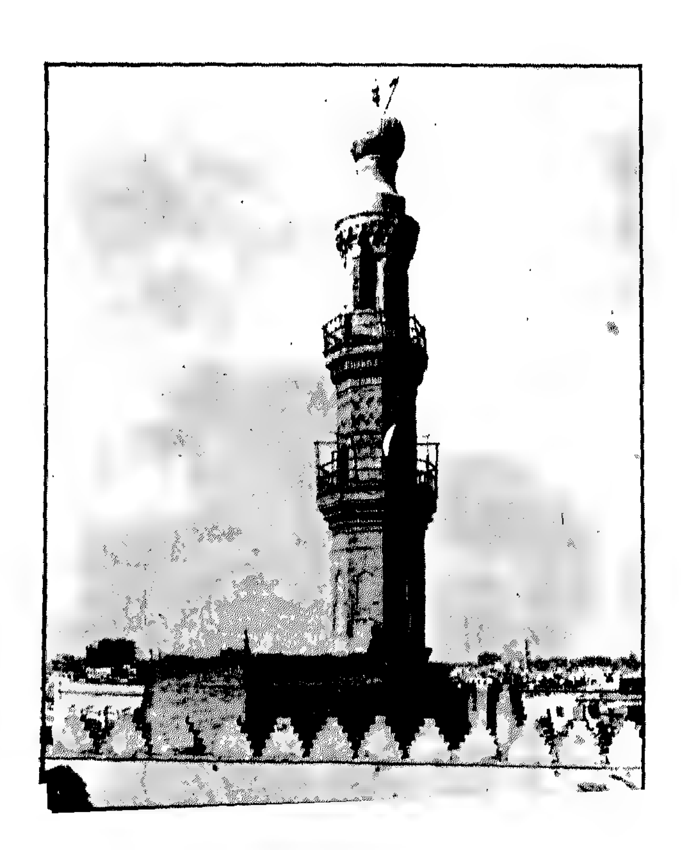


لوحة ٢٢١ – دكة المبلغ الحجرية



لوحة ٢٢٢ – جزء من كرسي مصحف

لوحة ٢٢٣ – مشكاة من الزجاج المموه بالمينا



لوحة ٢٢٤ – مئـذنة جامع شيخو

لوحة ٢٢٥ — المدخل الرئيسى لخانقاه شيخو

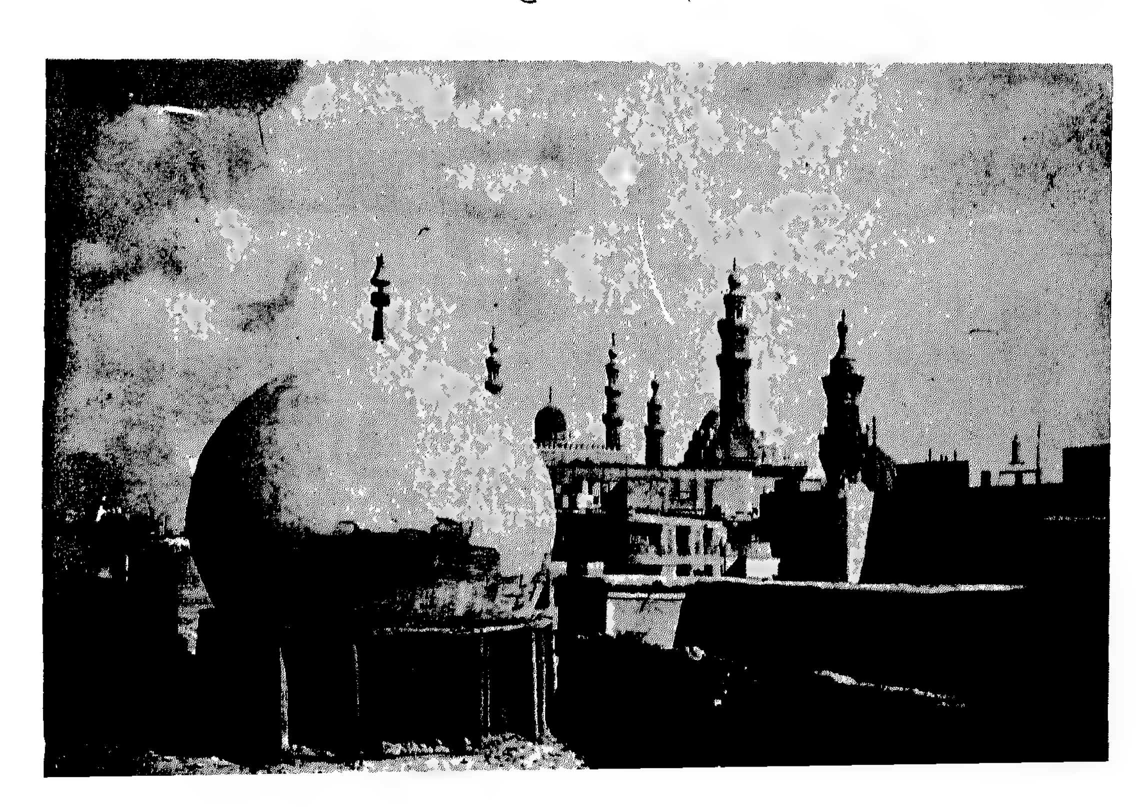
لوحة ٢٢٦ — صحن خانقاه شيخو

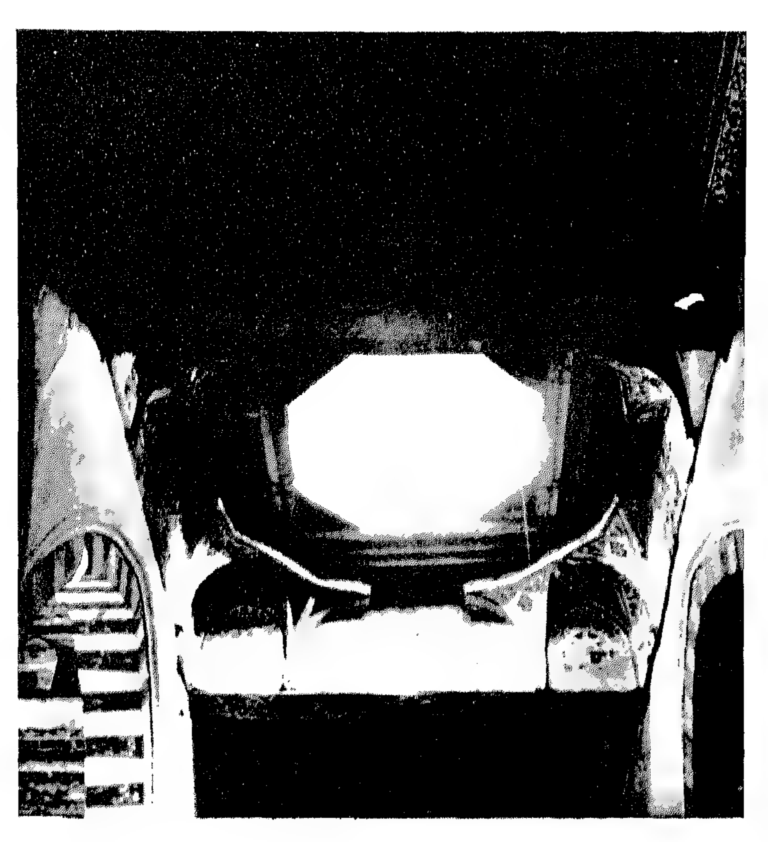




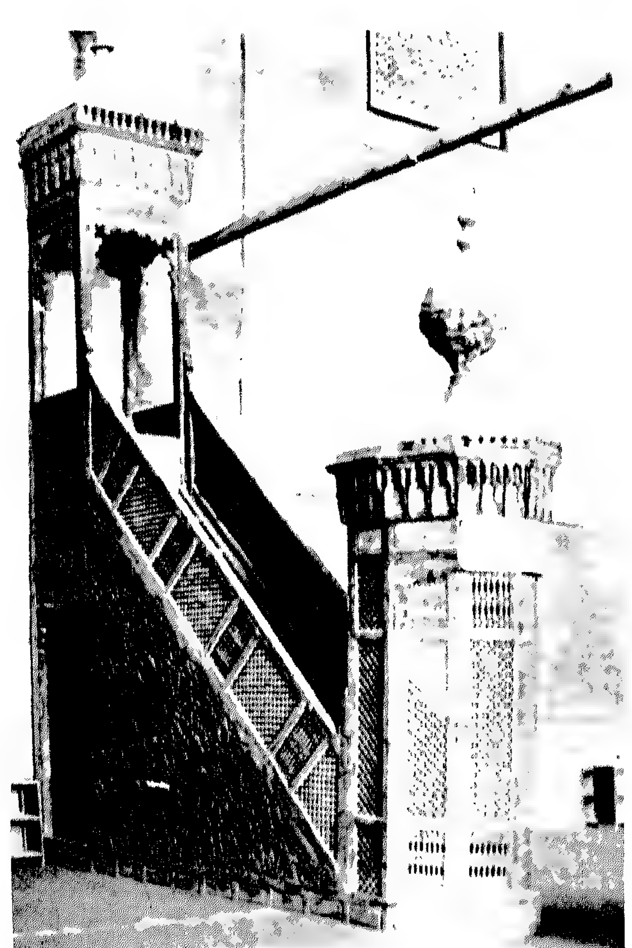
لوحة ٢٢٧ – الضلع الغربي للصحن وقد ظهرت به خلاوى الصوفية

لوحة ٢٢٨ – القبة الخشبية التي تتقدم المحراب من الخارج

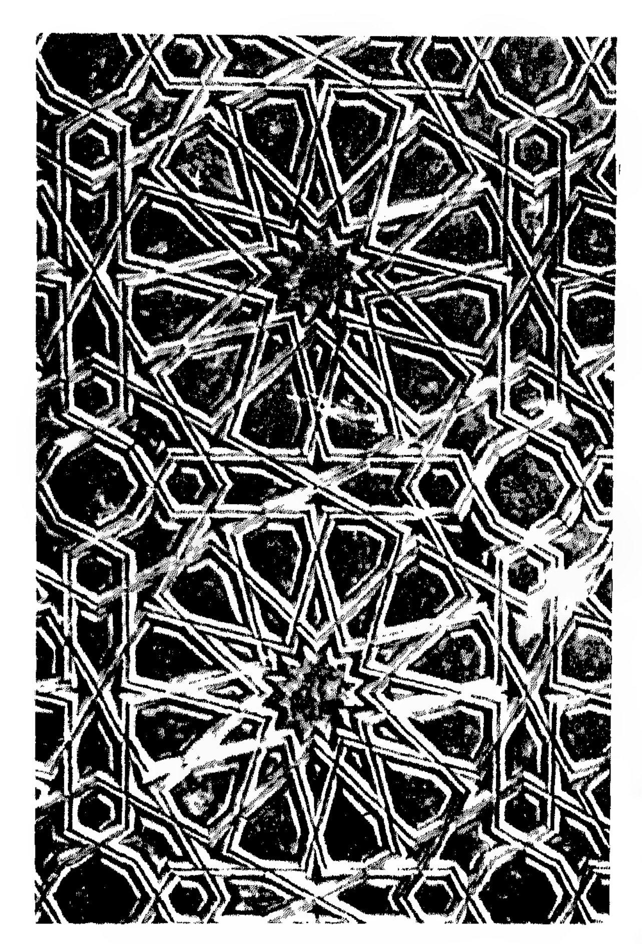




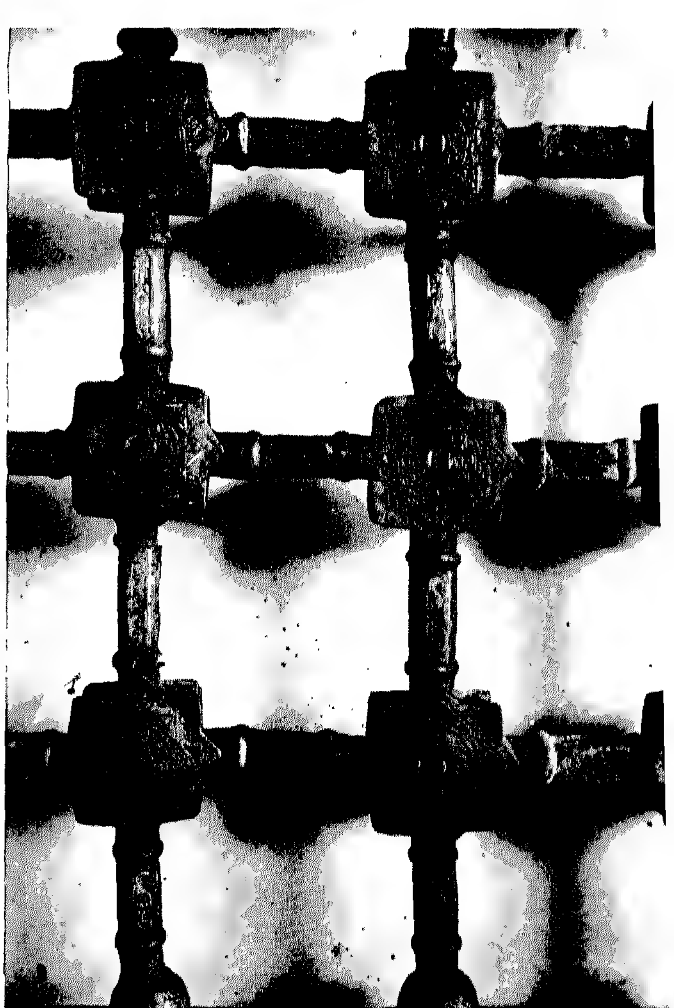
لوحة ٢٢٩ – القبة الخشبية من الداخل



لوحة ٢٣٠ – منبر الخانقاه الخشبى



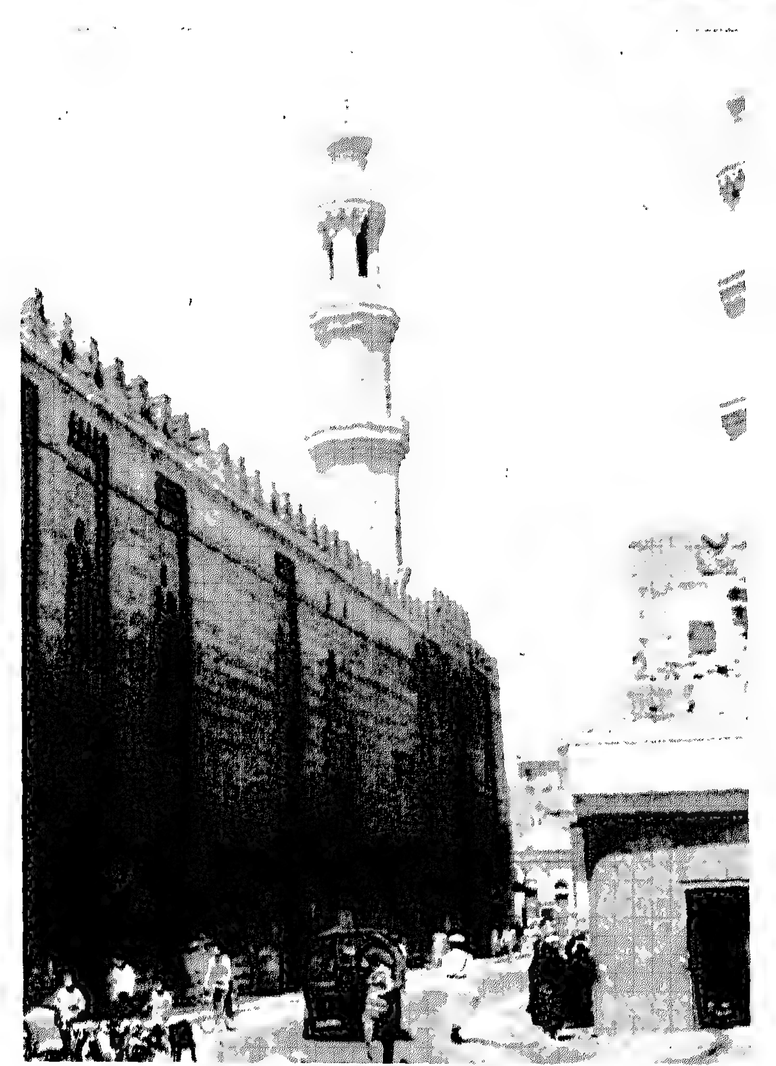
لوحة ٢٣١ – تفاصيل المنبر الخشبى



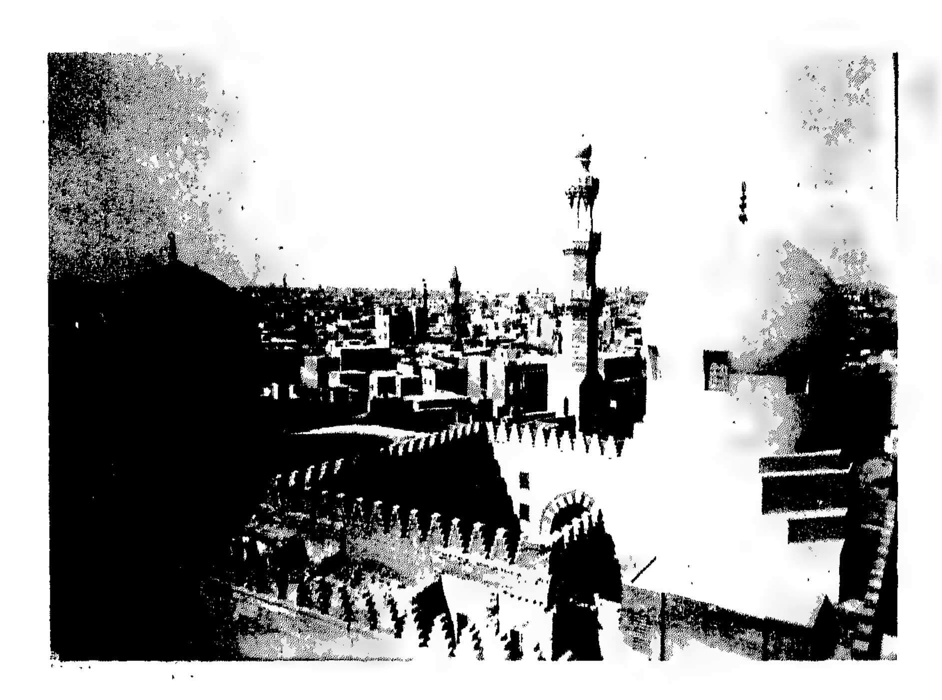
لوحة ٢٣٢ – المصبعات الحديدية التى تملأ نوافذ واجهة جامع وخانقاه شيخو



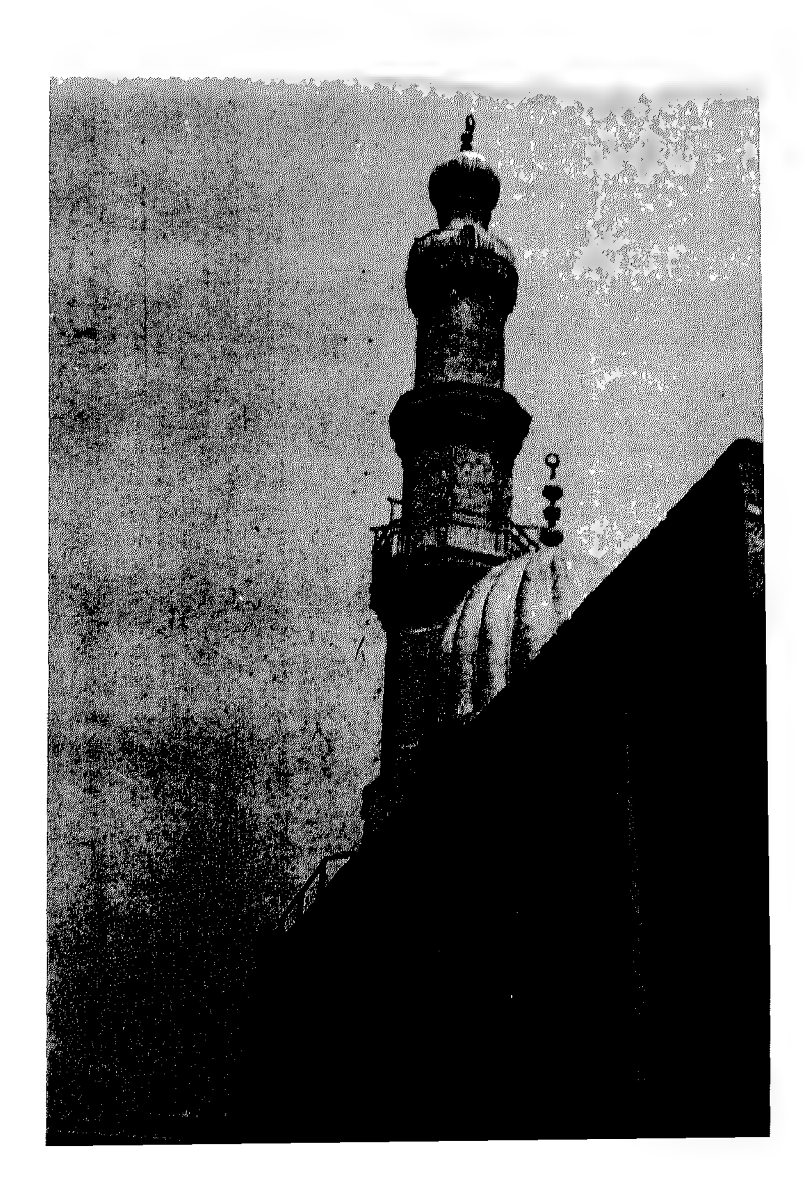
لوحة ٢٣٣ - مئذنتي جامع وخانقاه شيخو



لوحة ٢٣٤ - واجهة الخانقاه



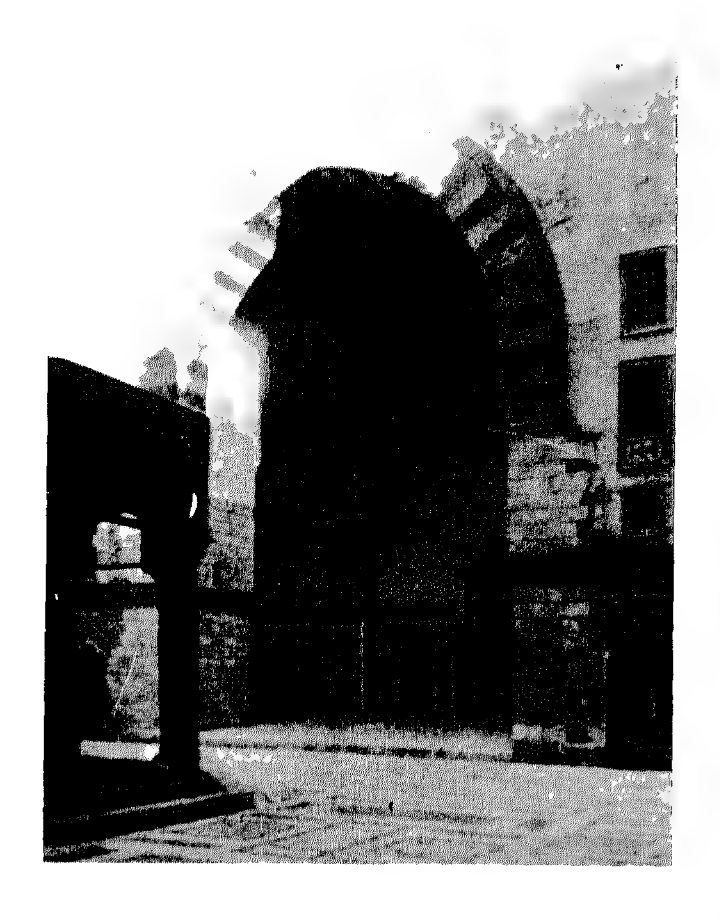
حة ٢٣٥ – منظر عام لمدرسة صرغتمش

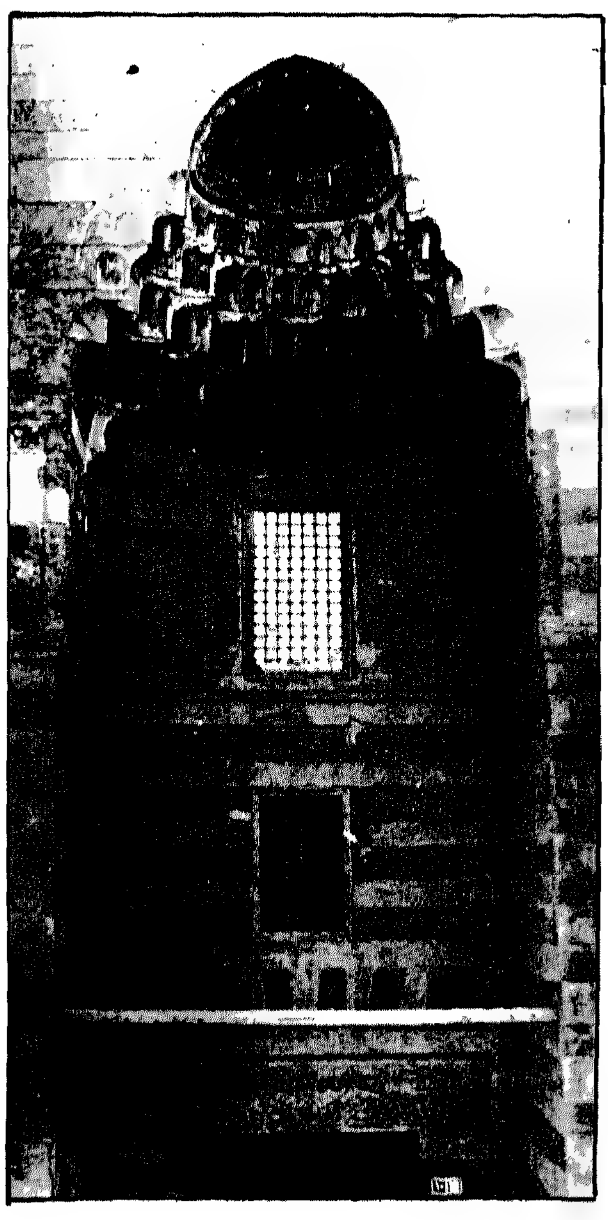


لوحة ٢٣٦ – مئذنة الخانقاه



لوحة ٢٣٨ – صحن المدرسة

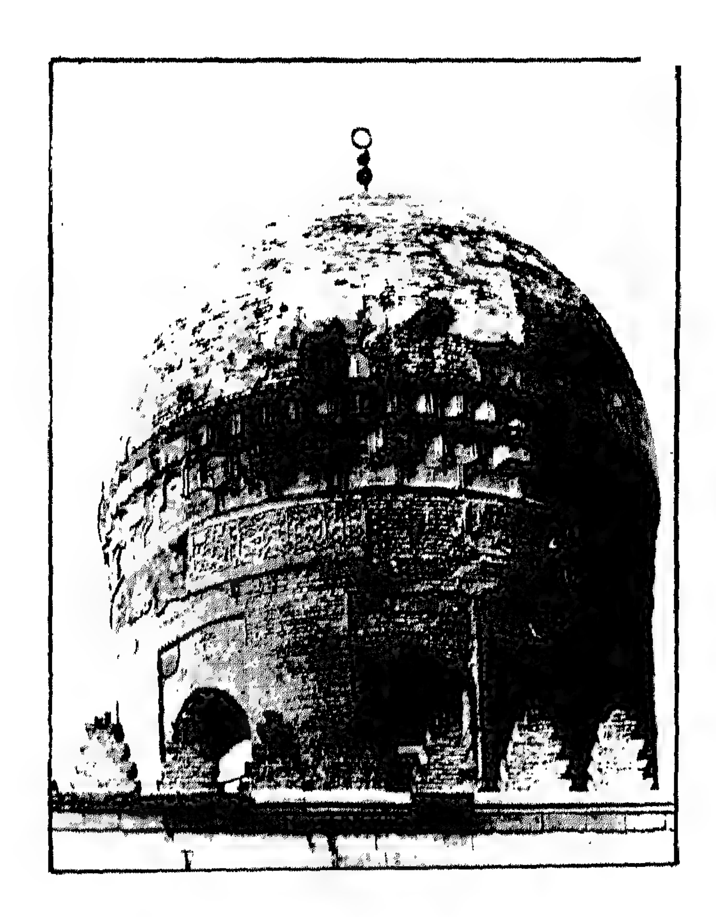




لوحة ٢٣٧ – المدخل الرئيسى للمدرسة



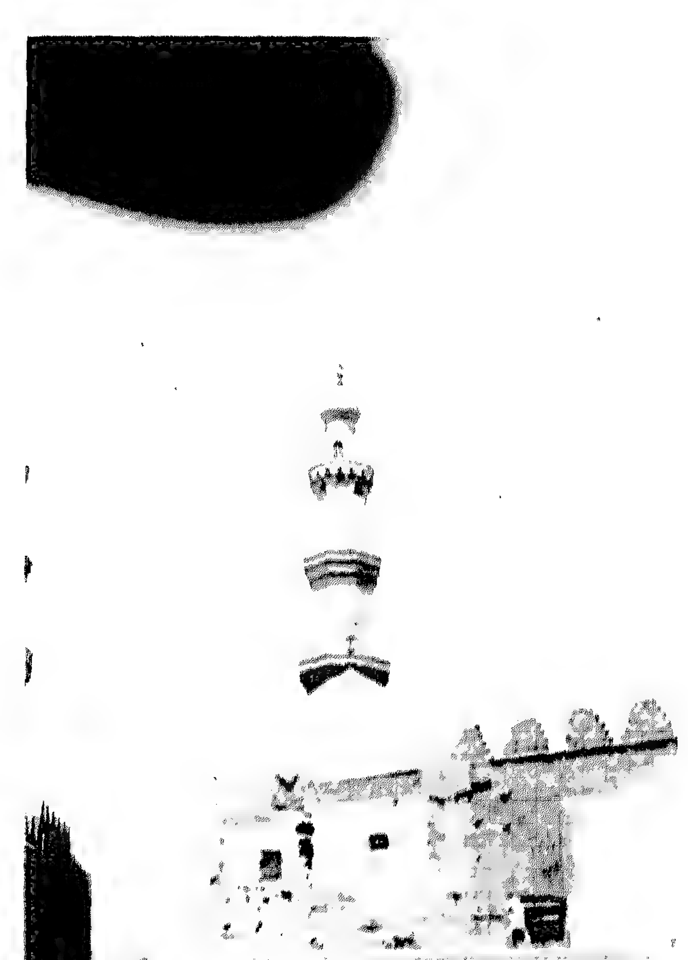
لوحة ٢٣٩ — الميضا تتوسط صحن المدرسة ▲





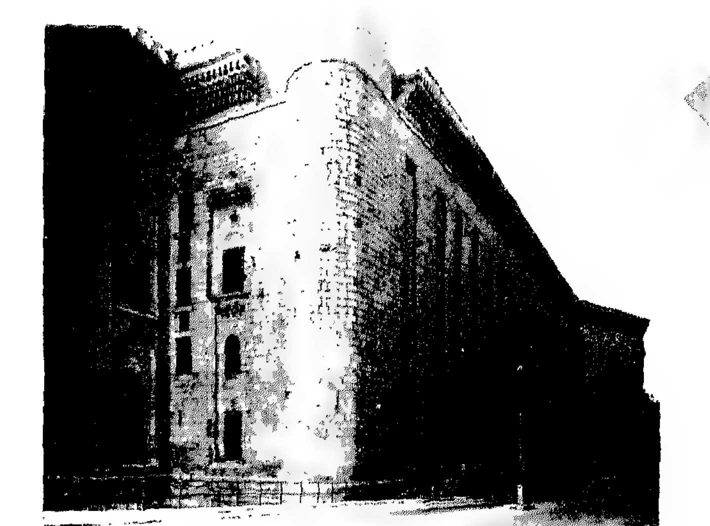


لوحة ٢٤٠ — قبة مدرسة صرغتمش

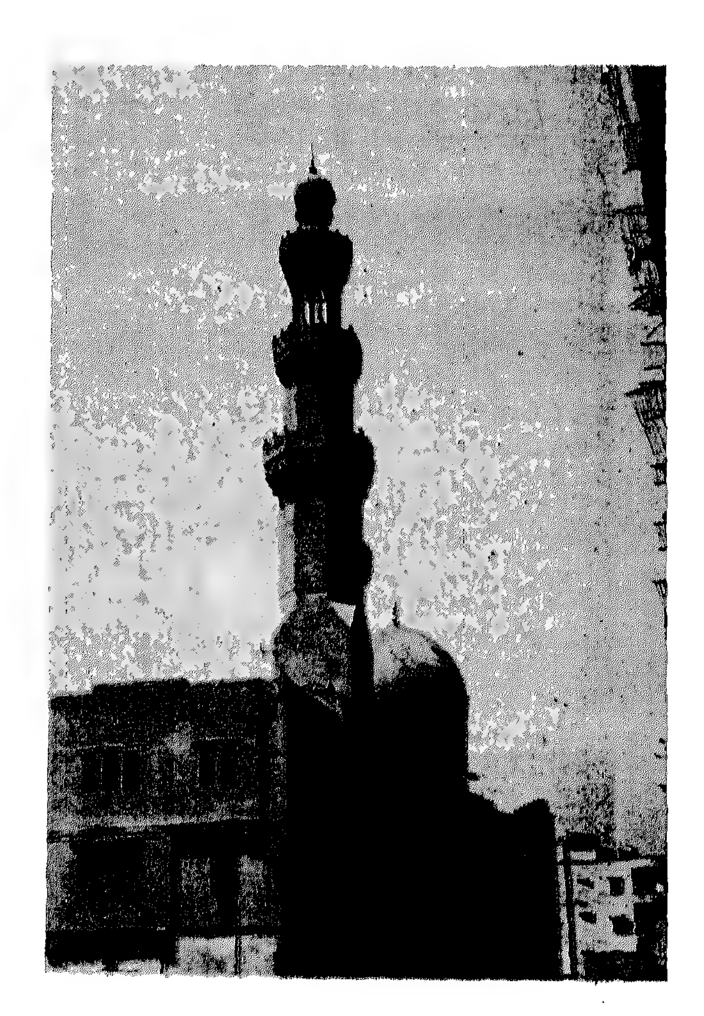




لوحة ٢٤١ — جامع شيخون

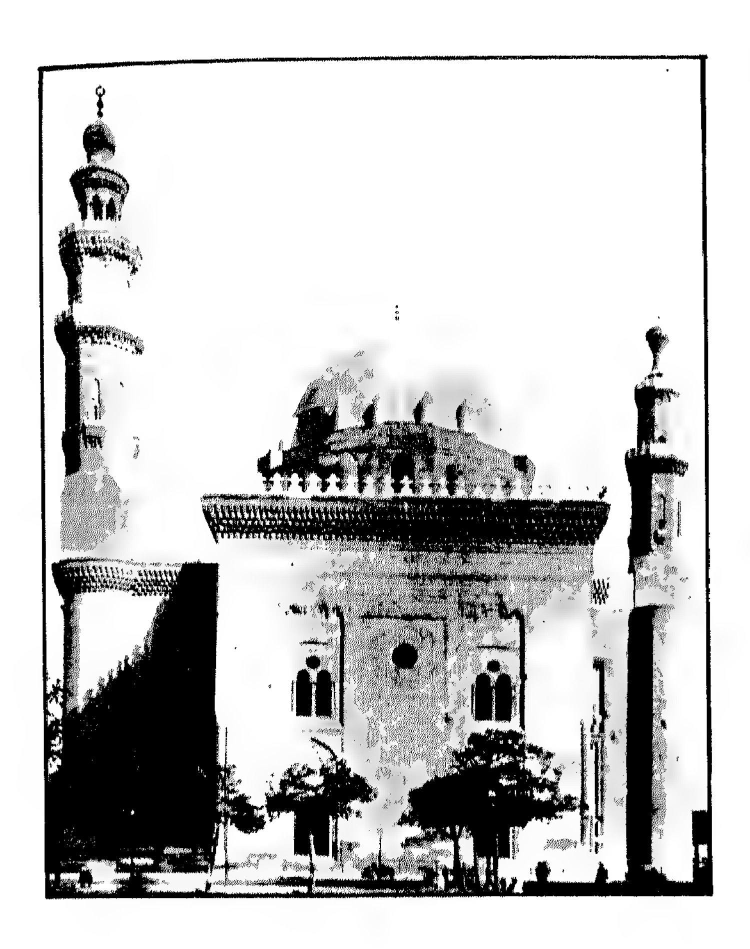


لوحة ٢٤٣ – الواجهة الرئيسية لمدرسة السلطان حسن

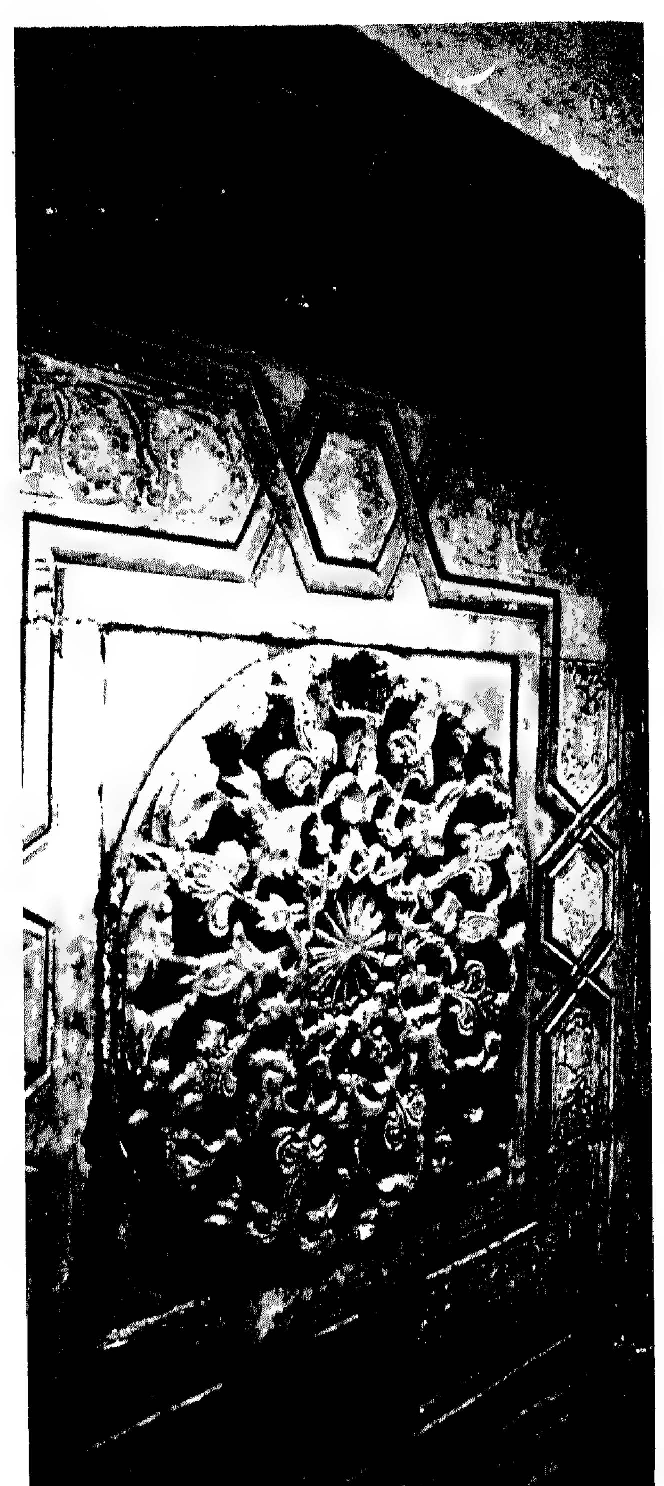




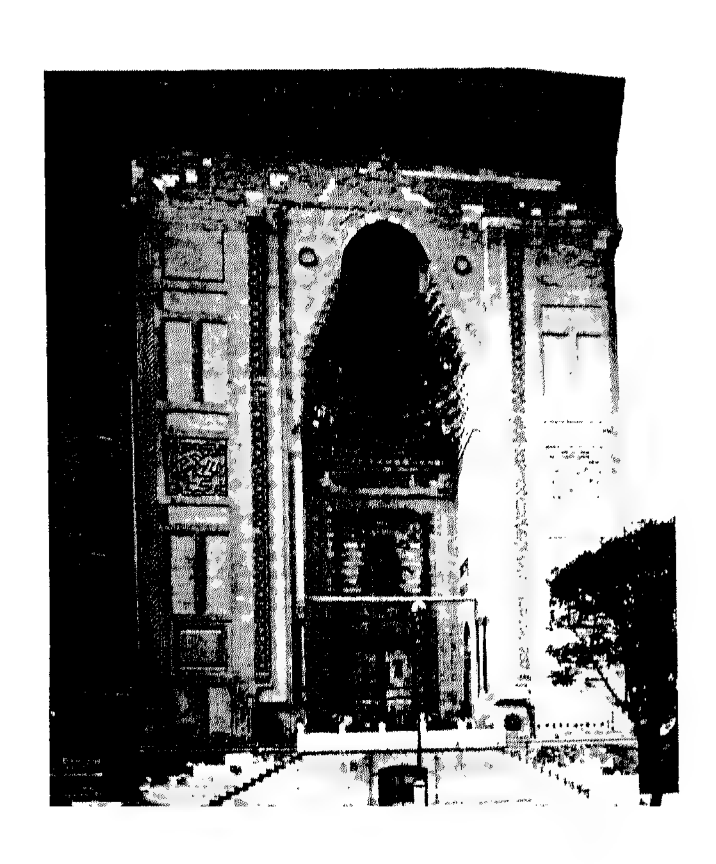
لوحة ٢٤٢ – مئذنة وقبة مدرسة صرغتمش



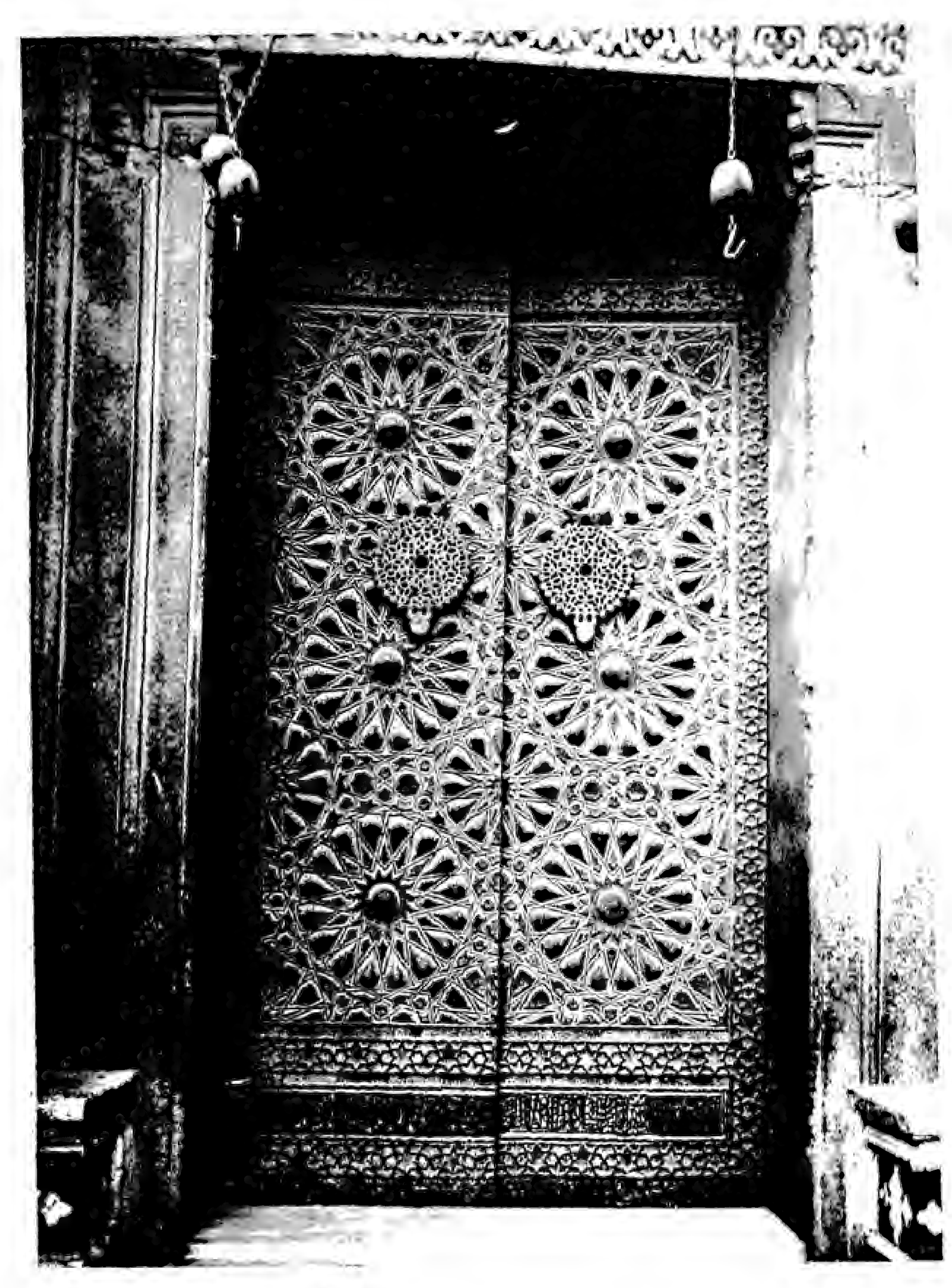
لوحة ٢٤٥ – الواجهة الشمالية للمدرسة



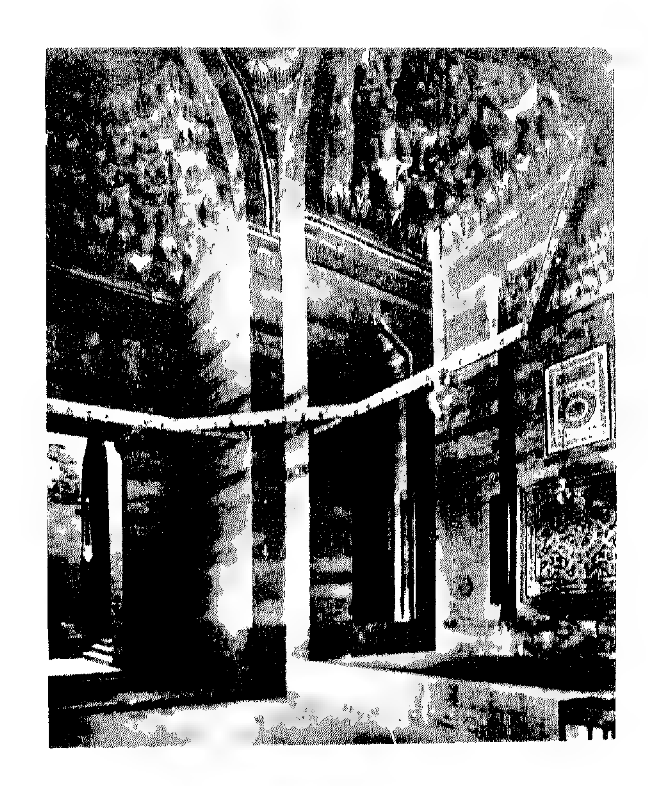
لوحة ٢٤٤ – زخارف محفورة فى الحجر بمدرسة السلطان حسن



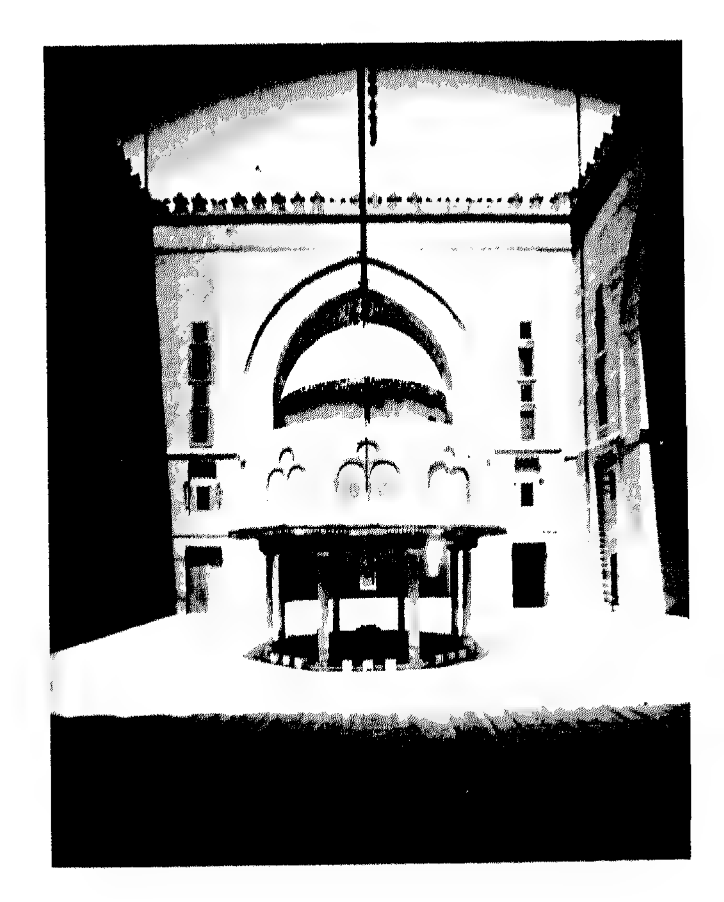
لوحة ٢٤٦ – المدخل الرئيسى للمدرسة



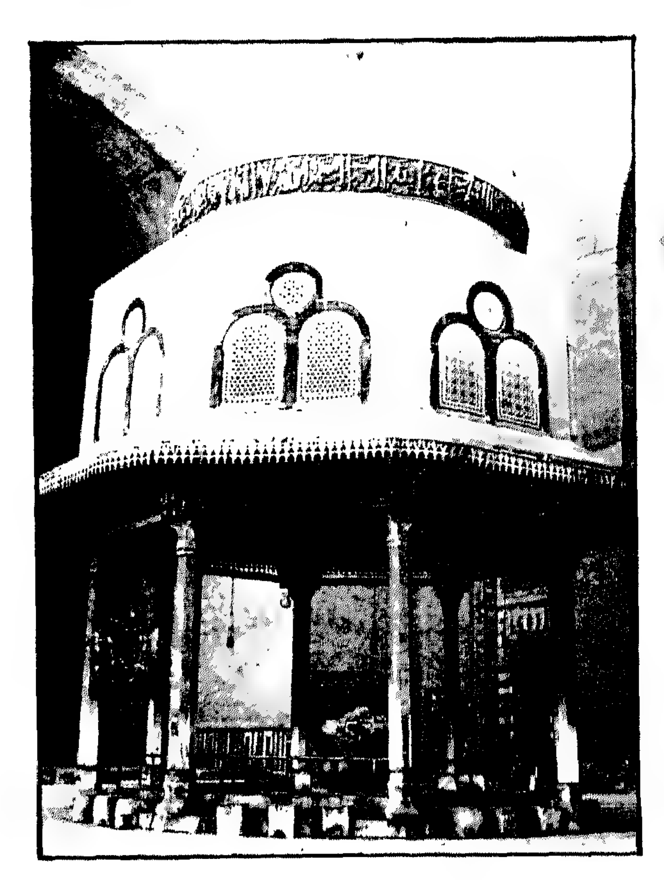
▲ لوحة ٢٤٧ – باب مدرسة السلطان حسن



لوحة ٢٤٨ – دركاه مدرسة السلطان حسن



لوحة ٢٤٩ – صحن مسجد السلطان حسن

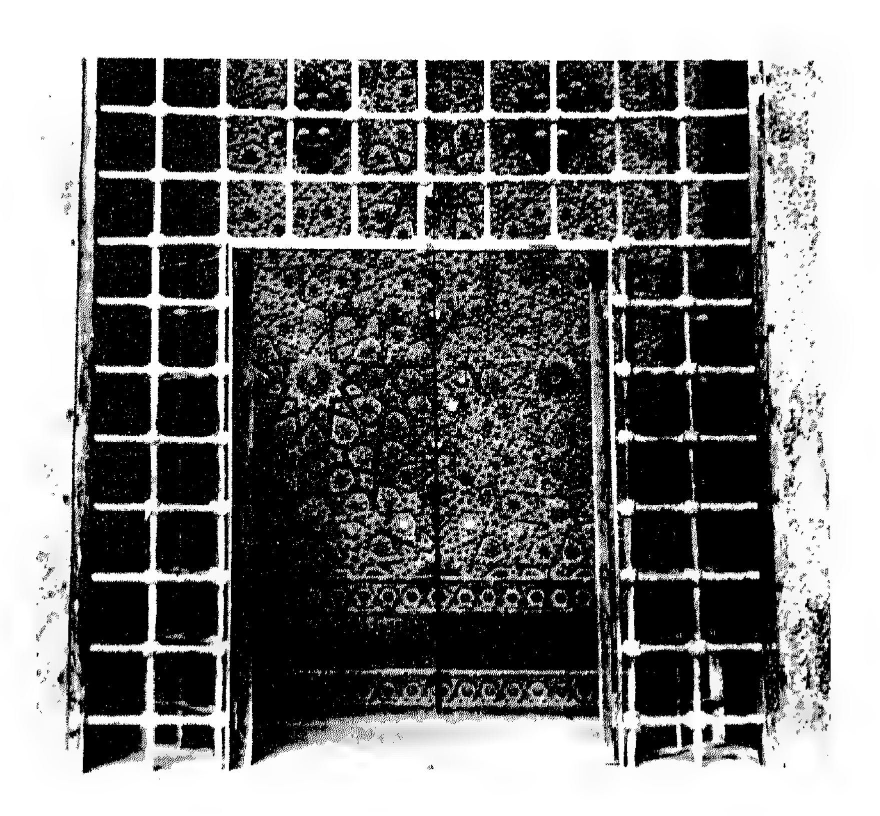


٢٥٠ - الميضأة التي تتوسط مدرسة السلطان حسن

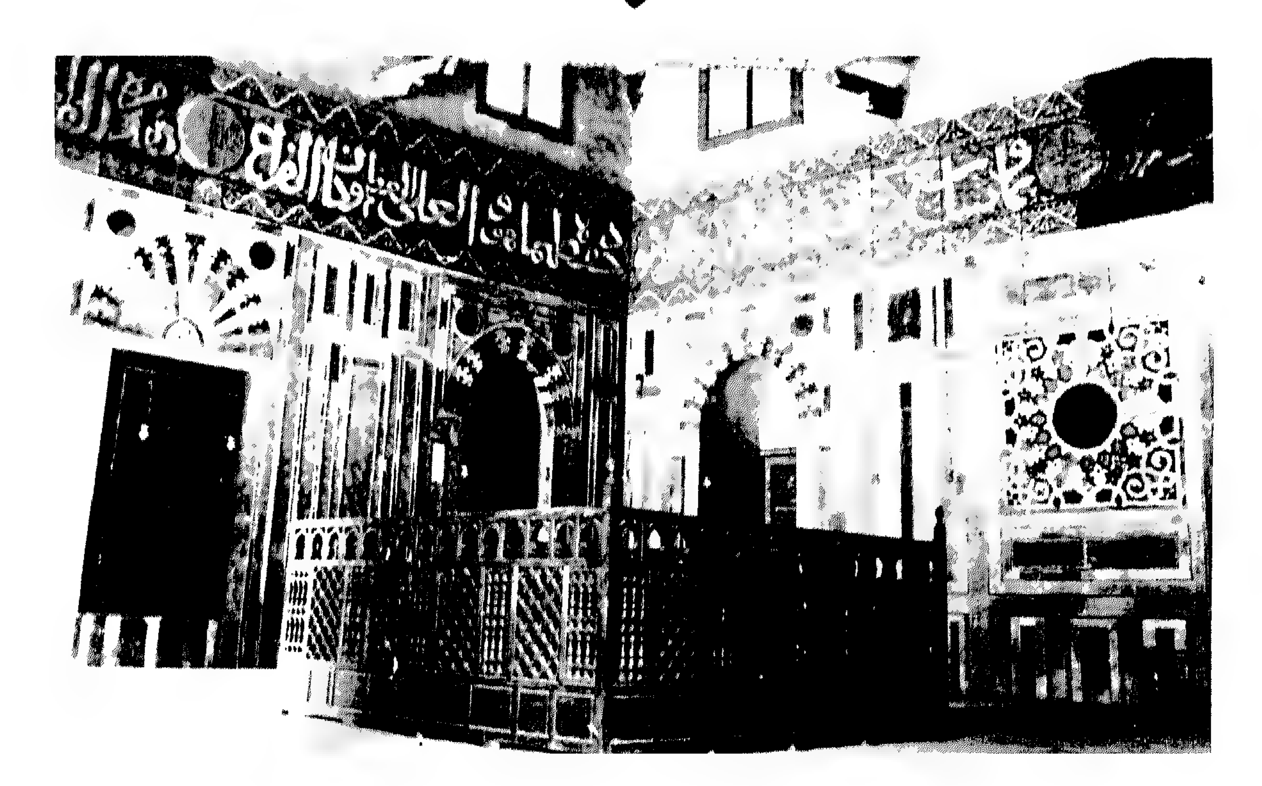
لوحة ٢٥١ - إيوان القبلة بمدرسة السلطان حسن

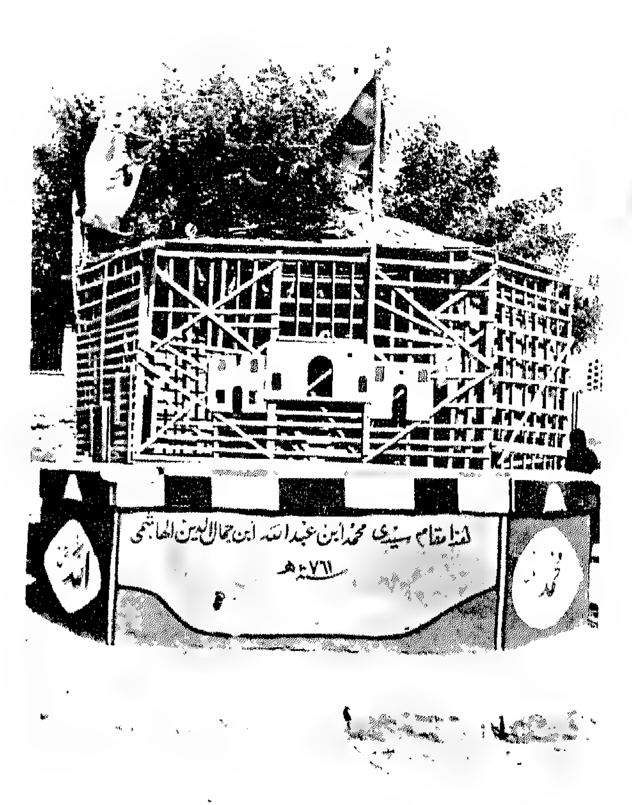


لوحة ٢٥٢ – أحد أبواب المدرسة التي تفصل بين إيوان القبلة ، والقبة



لوحة ٢٥٣ – القبة الملحقة بمدرسة السلطان حسن





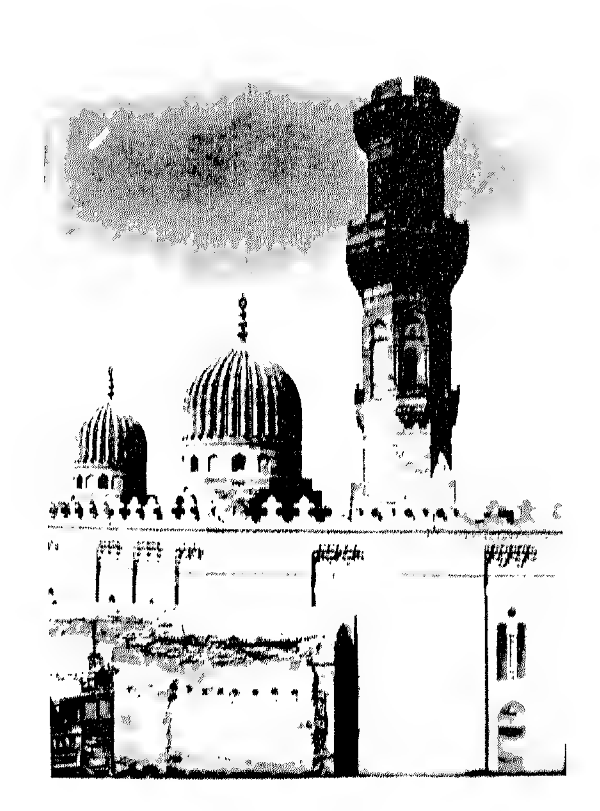
لوحة ٢٥٤ -- ضريح ابن هشام الأنصارى أمام باب النصر

لوحة ٢٥٥ -- ضريح ابن هشام الأنصارى

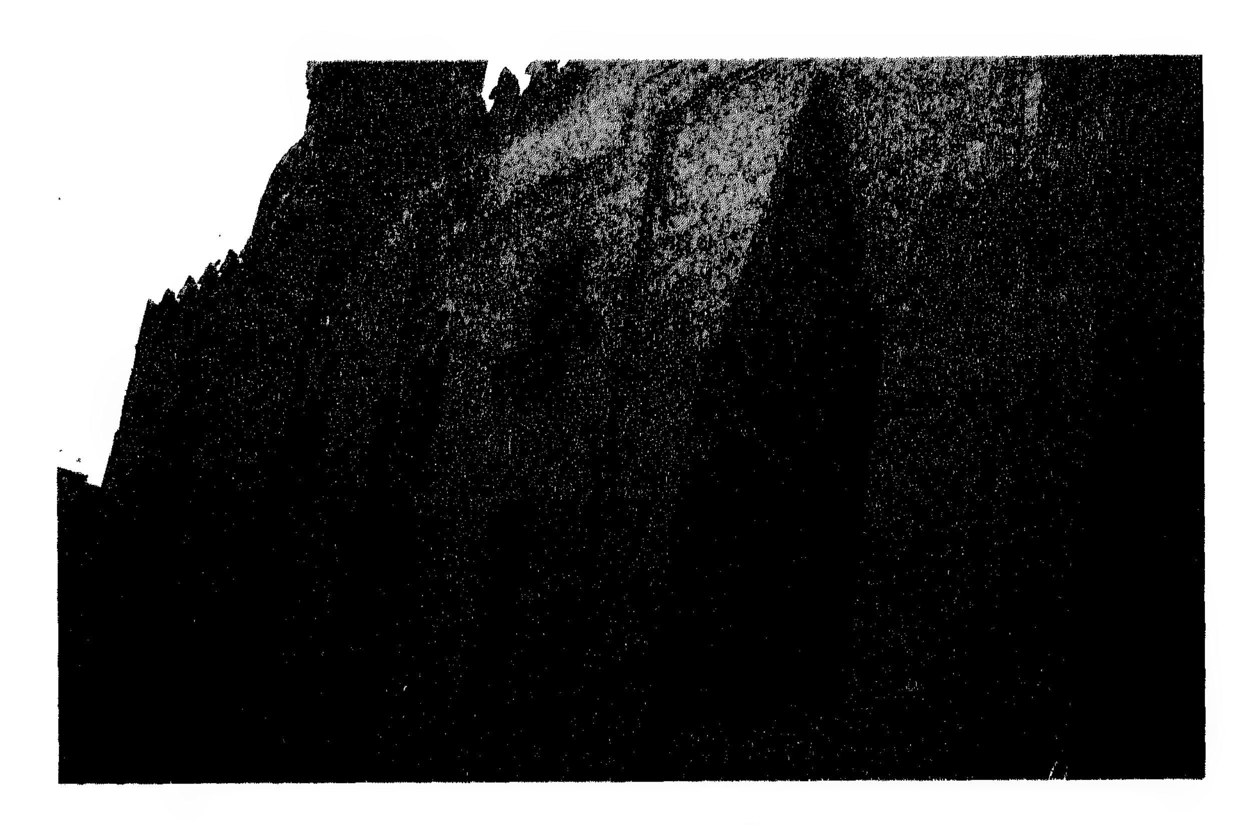




لوحة ٢٥٦ - مقبرة ابن هشام الأنصارى

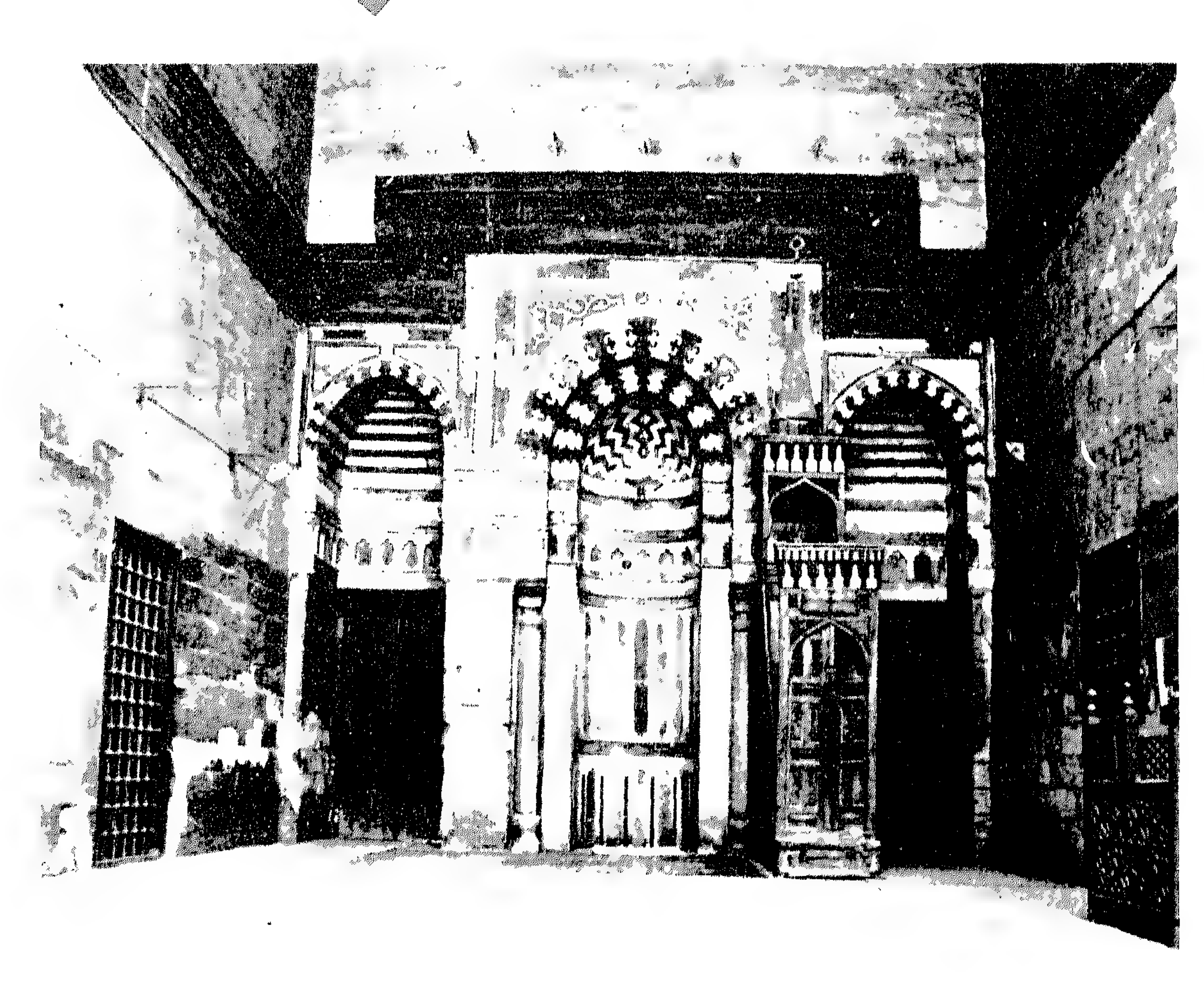


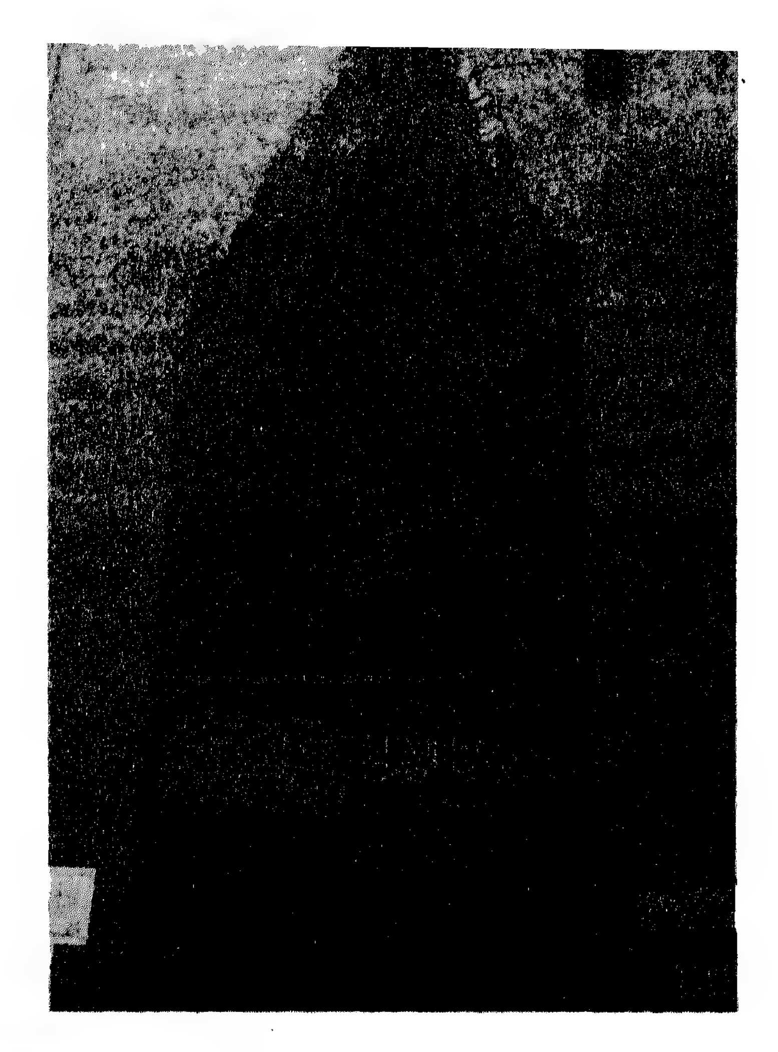
لوحة ٢٥٧ - الواجهة الرئيسية لمدرسة أم السلطان شعبان



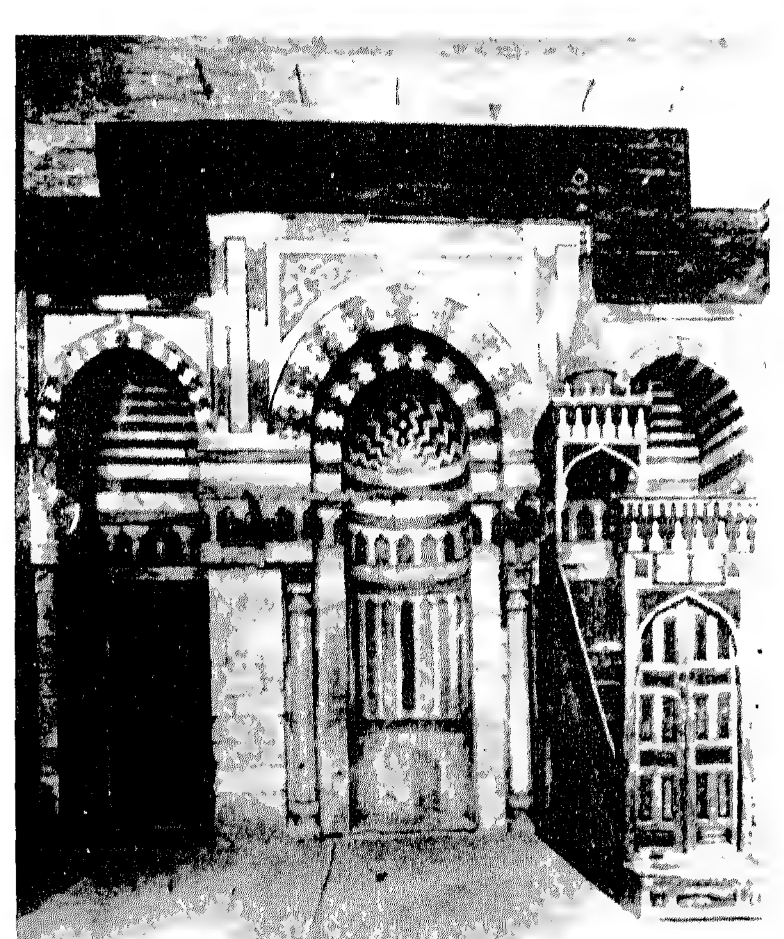
لوحة ٢٥٨ تفاصيل الواجهة الرئيسية

لوحة ٢٥٩ - إيوان القبلة

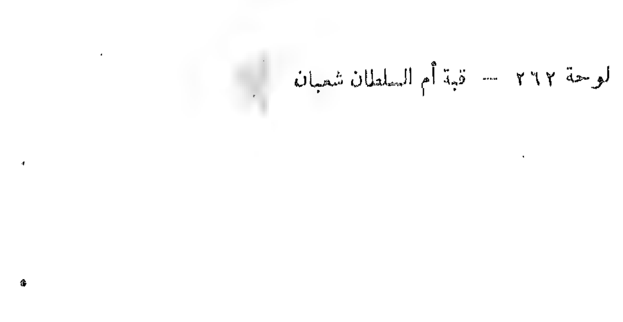


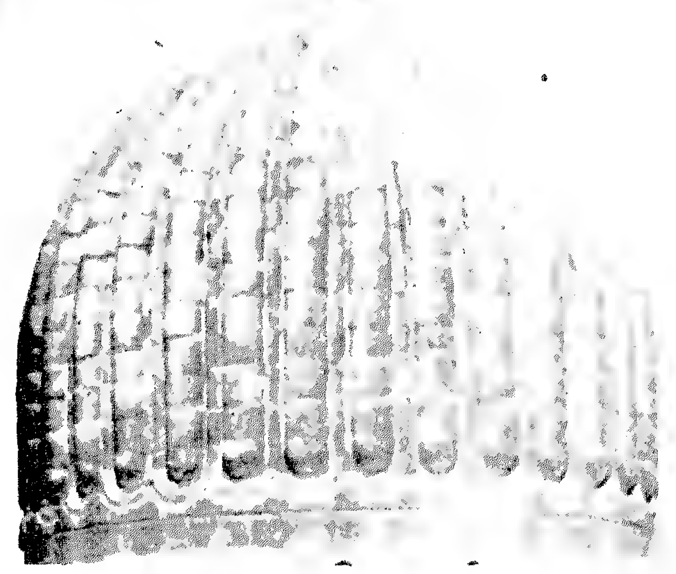


لوحة ٢٦٠ المدخل الرئيسي للمدرسة

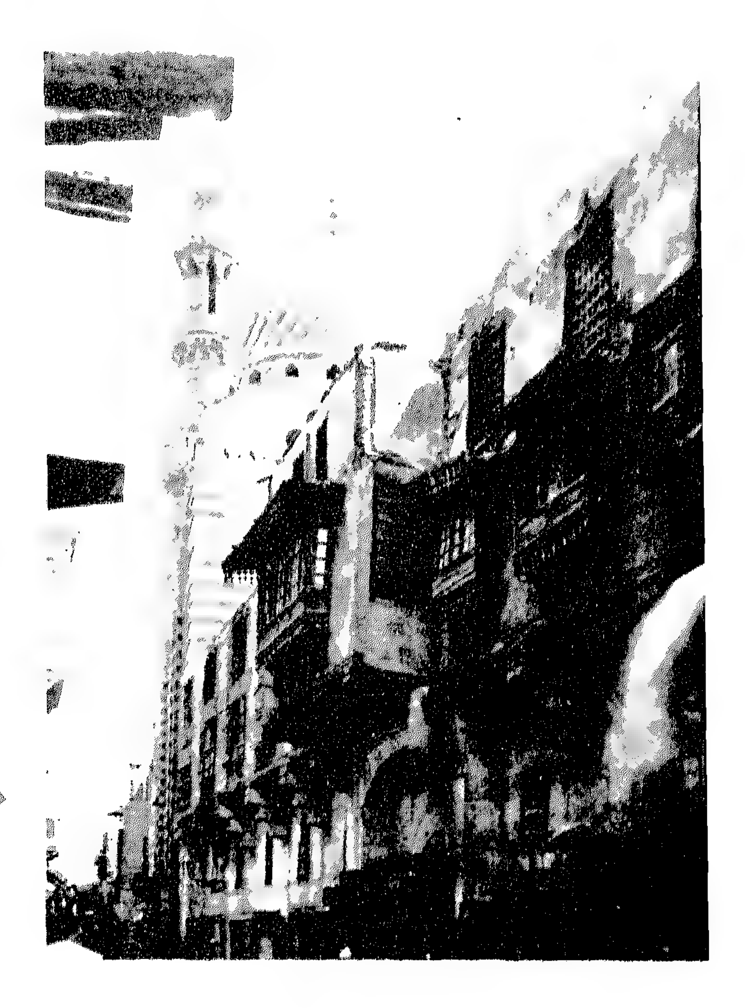


لوحة ٢٦١ - محراب ومنبر المدرسة

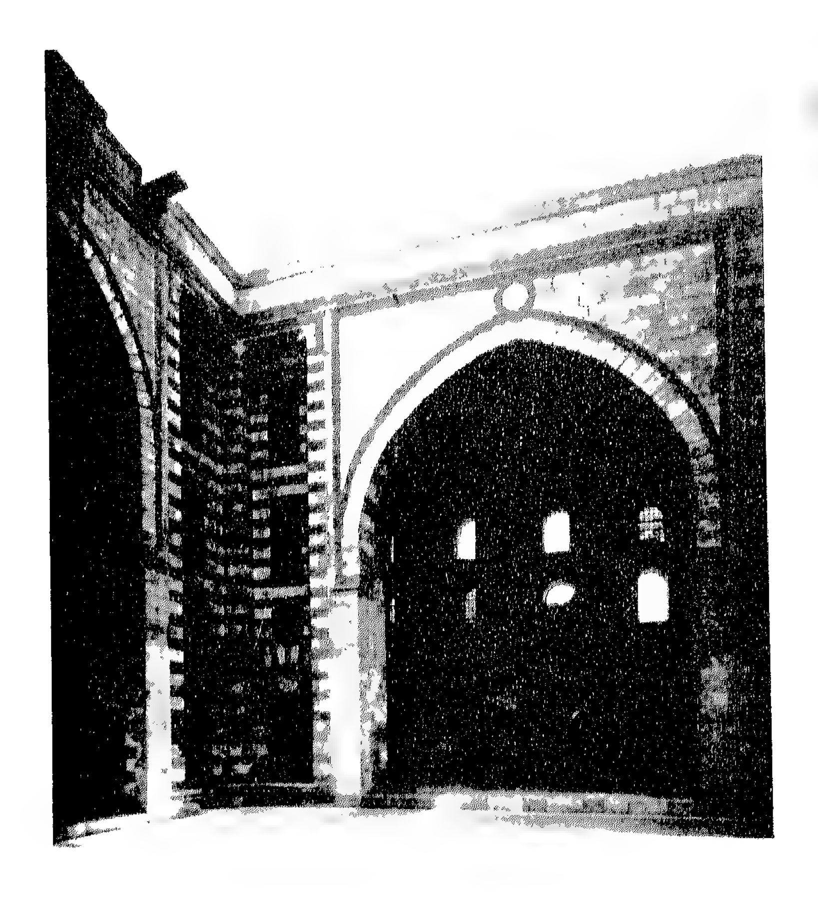




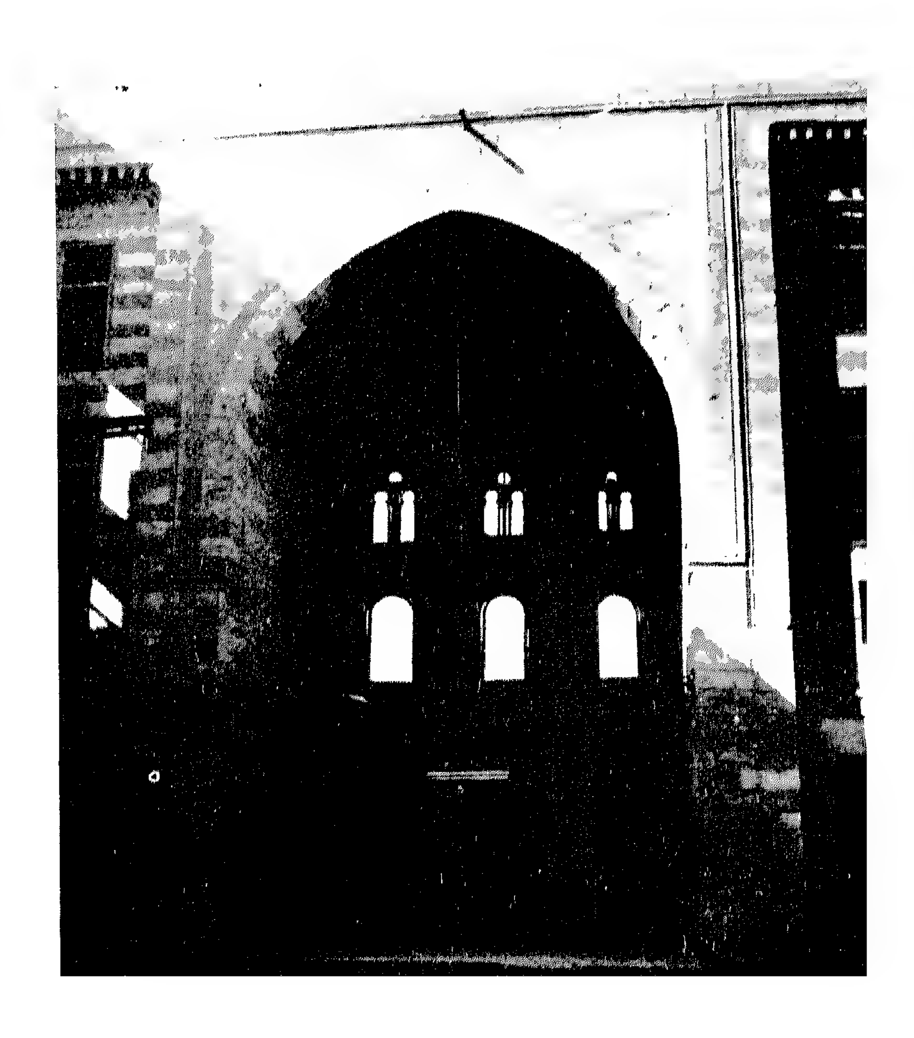
لوحة ٢٦٢ — قبة أم السلطان شعبان



لوحة ٢٦٣ – الواجهة الرئيسية لمدرسة
الجاى اليوسفى

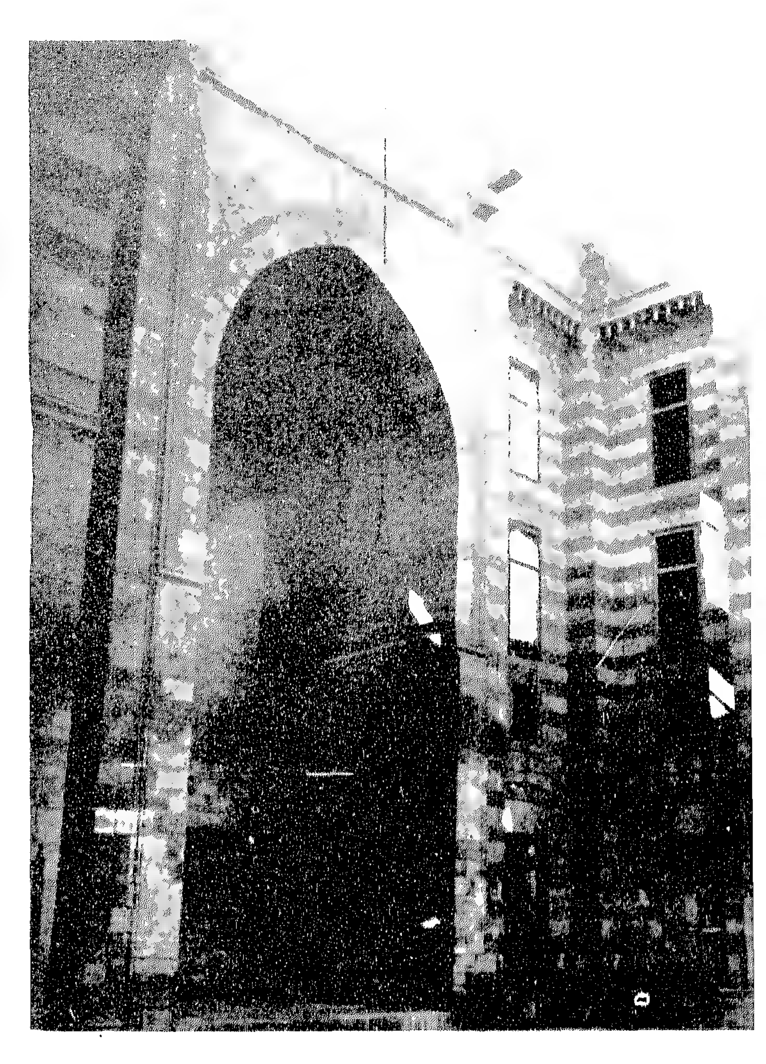


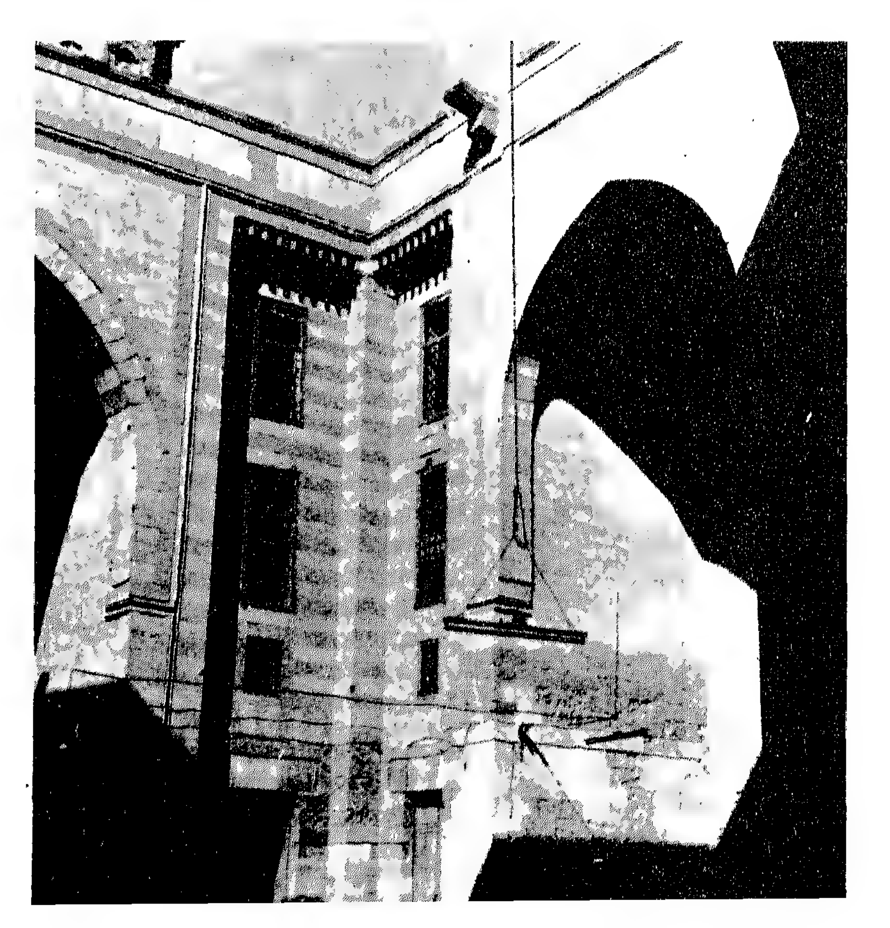
لوحة ٢٦٤ صحن مدرسة الجاى اليوسفى



لوحة ٢٦٥ — إيوان القبلة بالمدرسة

لوحة ٢٦٦ – الإيوان الغربي للمدرسة







لوحة ٢٦٧ – الإيوان الشمالي للمدرسة



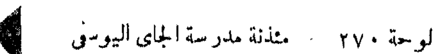
لوحة ٢٦٨ قبة ومئذنة المدرسة





لوحة ٢٦٩ — قبة المدرسة





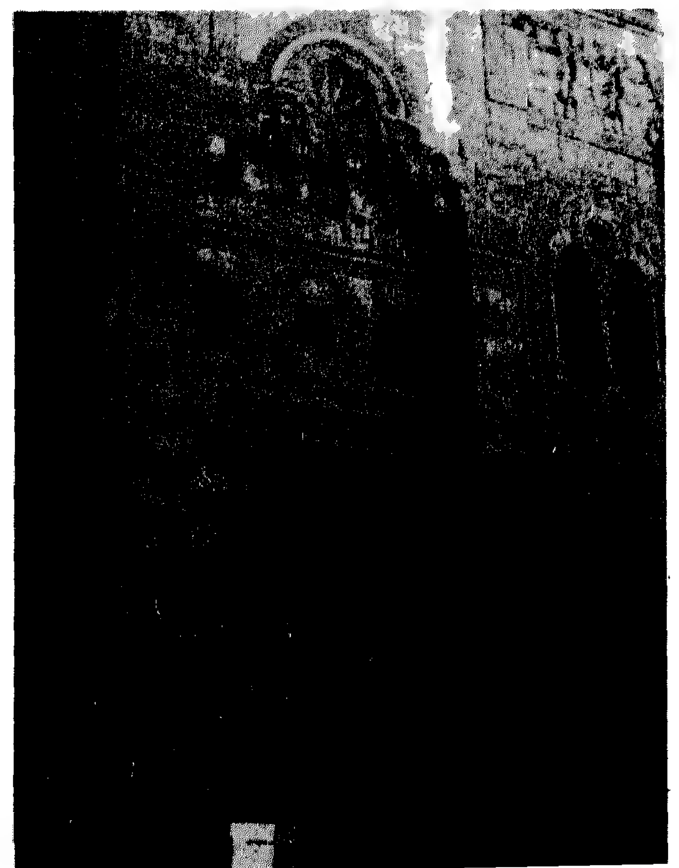
لوحة ٢٧٠ - مئذنة مدرسة الجاى اليوسفى



لوحة ٢٧١ مدرسة الأمير مثقال



لوحة ٢٧٢ – الواجهة الرئيسية لمدرسة مثقال



لوحة ٢٧٣ – المدخل الرئيسي للمدرسة



لوحة ٢٧٤ — مئذنة مدرسة مثقال



فهرس الأشـــكال

فهرس الأعلام

أولا

(أ)

(ب)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(ى)

ثانيــا
فهرس الأماكن والبقاع

(أ)

(ب)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ق)

(ك)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

فهـــــرس اللوحـــات

لوحة ٦٦ ــ محراب المدرسة الناصرية
لوحة ٦٧ ــ مئذنة مدرسة الناصر محمد
لوحة ٦٨ ــ الزخارف الجصية التى تحيط بنافذة الايوان الشمالى الغربى بالمدرسة الناصرية
لوحة ٦٩ ــ المدخل الرئيسى للمدرسة الناصرية
لوحة ٧٠ ــ رقبة قبة الناصر محمد
لوحة ٧١ ــ جامع الناصر محمد بالقلعة
لوحة ٧٢ ــ المدخل الرئيسى لجامع الناصر محمد
لوحة ٧٣ ــ صحن جامع الناصر محمد
لوحة ٧٤ ــ داخل جامع الناصر محمد
لوحة ٧٥ ــ واجهة ايوان القبلة
لوحة ٧٦ ــ واجهة الايوان الغربى
لوحة ٧٧ ــ سقف الاروقة
لوحة ٧٨ ــ محراب جامع الناصر محمد
لوحة ٧٩ ــ محراب ثانوى بجامع الناصر محمد
لوحة ٨٠ ــ مقرنصات القبة التى تتقدم محراب الجامع وقد ظهر تحتهـــا شريط من الكتابة عليه اسم السلطان الناصر محمد
لوحة ٨١ ــ الشبابيك الجصية بجامع الناصر محمد من الداخل
لوحة ٨٢ ــ شرفة مئذنة جامع الناصر محمد
لوحة ٨٣ ــ تفصيل شرفة جامع الناصر محمد
لوحة ٨٤ ــ تاج عمود بايوان القبلة
لوحة ٨٥ ــ شرافة تعلو أحد أركان جامع الناصر محمد
لوحة ٨٦ ــ جدار القبلة من الخارج
لوحة ٨٧ ــ المئذنة تعلو المدخل الرئيسى
لوحة ٨٨ ــ احد مئذنتى جامع الناصر محمد
لوحة ٨٩ ــ المئذنة الثانية بجامع الناصر محمد
لوحة ٩٠ ــ اوانى معدنية مكفتة بالفضة والذهب عليها اسم « السلطان الناصر محمد بن قلاوون »
لوحة ٩١ ــ منظر عام لمدرسة وضريح سلار وسنجر الجاولى
لوحة ٩٢ ــ الواجهة الشمالية الشرقية لمدرسة سلار وسنجر الجاولى
لوحة ٩٣ ــ الجانب الجنوبى الغربى للمدرسة
لوحة ٩٤ ــ الواجهة القبلية للمدرسة
لوحة ٩٥ ــ المدخل الثانى لمدرسة سلار وسنجر المطل على حارة (قلعة الكبش)
لوحة ٩٦ ــ مدخل ضريح سلار وقد نقش عليه النص التذكارى
لوحة ٩٧ ــ عتب المدخل الرئيسى ويعلوه لوحة تذكارية تبين تاريخ البناء سنة ٧٠٣ هـ
لوحة ٩٨ ــ الايوان الشرقى للخانقاه
لوحة ٩٩ ــ الايوان القبلى للخانقاه

لوحة ١٧٥ ــ لوحة الباب الموصل الى ضريح فاضل باشا واسرته التى الحقت بمسجد بشتاك
لوحة ١٧٦ ــ ضريح فاضل باشا
لوحة ١٧٧ ــ مقبرة فاضل باشا
لوحة ١٧٨ ــ القبة التى تعلو ضريح فاضل باشا
لوحة ١٧٩ ــ المدخل الرئيسى لجامع طنبغا الماردانى
لوحة ١٨٠ ــ تفاصيل المدخل الرئيسى
لوحة ١٨١ ــ صحن الجامع
لوحة ١٨٢ ــ رواق القبلة بالجامع
لوحة ١٨٣ ــ محراب الجامع
لوحة ١٨٤ ــ مئذنة الجامع
لوحة ١٨٥ ــ الواجهة الرئيسية لمسجد الست مسكة
لوحة ١٨٦ ــ المدخل الرئيسى للمسجد
لوحة ١٨٧ ــ الواجهة الشمالية
لوحة ١٨٨ ــ الزخارف التى تزين واجهة المسجد
لوحة ١٨٩ ــ صحن مسجد الست مسكة
لوحة ١٩٠ ــ محراب المسجد
لوحة ١٩١ ــ تفاصيل زخارف المحراب
لوحة ١٩٢ ــ المنبر الخشبى المجاور لمحراب المسجد
لوحة ١٩٣ ــ حائط القبلة وقد ظهرت به نوافذ المعقودة
لوحة ١٩٤ ــ الواجهة الرئيسية لجامع ارغون شاه الاسماعيلى
لوحة ١٩٥ ــ صحن الجامع
لوحة ١٩٦ ــ جزء منبر (ريشه) الجامع المصنوع بطريقة الحشوات المجمعة
لوحة ١٩٧ ــ مئذنة الجامع
لوحة ١٩٨ ــ داخل جامع آق سنقر
لوحة ١٩٩ ــ ايوان القبلة
لوحة ٢٠٠ ــ قبلة المسجد ومنبره
لوحة ٢٠١ ــ بلاطات القاشانى التى تكسو جدران ايوان القبلة
لوحة ٢٠٢ ــ مئذنة جامع آق سنقر
لوحة ٢٠٣ ــ خانقاه وقبة خوند طوغاى
لوحة ٢٠٤ ــ مقبرة خوند طوغاى
لوحة ٢٠٥ ــ قبة خوند طوغاى من الخارج
لوحة ٢٠٦ ــ مقرنصات قبة خوند طوغاى
لوحة ٢٠٧ ــ قبة خوند طوغاى من الداخل
لوحة ٢٠٨ ــ الواجهة الرئيسية لجامع شيخو
لوحة ٢٠٩ ــ المدخل الرئيسى لجامع شيخو
لوحة ٢١٠ ــ النوافذ القنديلية بالواجهة الرئيسية
لوحة ٢١١ ــ القبة التى تفتح بابها فى ردهة الجامع

فهـــرس الموضـــوعات

الموضـــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

رقم الايداع ١٩٧٦/٣٤٦٣

الترقيم الدولى ISBN ٩٧٧-٢٤١-٠٨٩-٣

مطابع الأهـــرام التجارية